

أولياء الشرق البعيد

أساطير مجهولة في أقاصي المعمورة

رواية تاريخية حول كيفية انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو



الدكتور بشار الجعفري





دمشق : منطقة المزة (3) - حي الجلاء (5) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم (2) ـ ص.ب : 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 ـ برقياً: طلاسدار
E-mail:info@dartlass.com Website:www.dartlass.com

مكتبة دار طلاس ـ برج دمشق ـ مقابل وزارة الداخلية ـ هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء و بنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

أولياء الشرق البعيد

رقم : ٧٣٢٨٨ ـــ تاريخ : ٤ /١١/ ٢٠٠٢

رقم الإصدار: ٨٧٩

الطبعة الأولى ـــ ٢٠٠٣

الدكتور بشار الجعفري

أولياء الشرق البعيد

أساطير مجهولة في أقاصي المعمورة

رواية تاريخية حول كيفية انتشار

الإسلام في أرخبيل الملايو

عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية

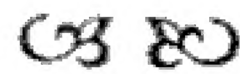
Moslem High priests of the Far East

UNKNOWN MYTHS AT THE END OF THE WORLD

Historical-saga on the way Islam

entered and spread into the archipelago of Malay

Dr. Bashar Al- Ja'fari



صدر للمؤلف

١ ــ المجموعات المصلحية الضاغطة في الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٣، مطبوعات القيادة القومية.

٢ ــ السياسات الخارجية السورية ١٩٤٦-١٩٨٢، دار طلاس ١٩٨٦.

٣ ــ منظمة الأمم المتحدة والنظام الدولي الجديد ١٩٩٤، دار طلاس.

الإهداء

أهدي كتابي هذا
لوالدي و زوجتي
وأولادي
شهرزاد ويارا وأمير
ولشعب أندونيسيا الشقيق

د. بشار الجعفري

المحتوى

المقدمة

﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ [القصص: ٥]

أ – خلفيـــة البحث :

منذ أن أهلّت رسالة الإسلام السمحة في قلب الدنيا وكبد السماء قبل ١٤٢٢ عاما، ودانت لبشراها الانسانية الأقطار والأمصار في مشارق الأرض ومغاربها، سال مداد أقلام المؤرخين والباحثين وهي تنقب في أمهات الملفات المتعلقة بتاريخ العلاقات العربية والإسلامية مع أوروبا والغرب، في حين لم تولِ تلك الأقلام عناية مماثلة لتاريخ العلاقات العربية والإسلامية مع أقاليم جنوب شرق أسيا عموما ومع أرخبيل الملايو *Melayu Archipelago* على وجه الخصوص، رغم ما يكتنف تلك العلاقات من معطيات ودروس هامة لا تزال صالحة حتى أيامنا هذه، ورغم ما تنطوي عليه تاريخية العلاقات هذه من قدمٍ وغنىً في الاتصالات المبكرة وتواصلٍ في التحالفات الرادعة وتشابه في التجربة وتماثل في طبيعة الخصوم والأعداء .

وربما كانت الصورة الأبرز في هذا المضمار تتجسد في انتقال تلك الحركة البشرية والفكرية المبكر من قلب المنطقة العربية والإسلامية باتجاه الشرق إلى منطقة جنوب شرق أسيا على شكل تجار ودُعاة وزهاد ورحالة [١] وفارين من سيف البطش السياسي الذي كان يطول أحيانا رجال دين وعلماء معرفة لمجرد أنهم أرادوا عدم مجاراة السلطة السياسية في هناتها ومظالمها، وفي استخدامها لهم كغطاء ديني شرعي يبرر سيطرتهم على سدة الحكم في عواصم الخلافة الإسلامية وحواضرها المضيئة والغنية عن التعريف[٢].

وهكذا تداخل المد النضالي العربي والإسلامي مع تطلعات شعوب أرخبيل الملايو الساعية إلى الانفتاح على العالم الخارجي وتقويض المعوقات الوثنية الدخيلة أساسا على المنطقة من أجل ربط مصير هذه الشعوب بموجة الحضارة الإسلامية، وبمرتسمات تلك الحضارة الخالدة في مجالات العمران والتقدم العلمي والروحي والريادة القيادية لأمور الدين والدنيا في العالم[٣]. ولذلك، لم يكن غريبا أبداً في تلك الأزمنة المبكرة من وحدة المصير أن تقود ثلة كريمة المحتد، عريقة النسب من الدعاة

العرب والمسلمين القادمين من مكة المكرمة والبصرة وحضرموت وخراسان والسند والهند(٤)، راية النضال من أجل التغيير في بلاد الملايو، تغيير في العقيدة وفي الولاء وفي مفهوم وحدة الوطن والأمة بحيث تصبح تلك الجزر الإندونيسية المترامية الأطراف بوابة الإسلام الشرقية(٥) وحدود المنعة السيادية البحرية الإسلامية على تخوم البحر الزفتي الكبير(٦). ونظرا لذلك التماثل والتكامل في الايمان بين الداعية المسلم القادم ممّا وراء البحار وبين السكان المحليين الملايويين المتلقين للدعوة، فقد تفاعل الطرفان وامتزجا إلى درجة الاندماج التام، وما هي إلا عقود من الزمن حتى انتقلت راية القيادة من أيدي "الأولياء التسعة *Wali Songo* " إلى أيدي تلاميذهم ومريديهم الاندونيسيين: سلاطين وعلماء، تجار ومحاربين، دعاة وزهاد، تقليديين وصوفيين، فتكرست بذلك وحدة الرسالة وبصمة النضال بين ضفتي الإسلام شرقا وغربا، بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي. لقد سبقت العولمة الإسلامية ما يسمى الآن بالعولمة الغربية بألف سنة عدّا واحتسابا، فقد كان الشرق العربي والإسلامي يعرف جزر الصنف والرامني *Sumatera* وفوافوا *Papua* وجزر الملوك *Maluku* سلندونغ *Seldung* والزابج *Al-Zabaj* [جاوا – *Jawa*] والسيلا *Sila* [كوريا] وجاوا *Jawa* وسمودرا *Samudra* وجمقا *Champa* وسري بيزا *Sri Bizah* [جنوب سومطرة] وكانتون *Canton* وغوجرات *Gujarat* ومليبار *Malibar* وكرومندل *Coromandal* وأراكن *Araken* والخنساء *Hang-Chou* معرفة ممتازة في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في جاهليتها وتخلفها، ومنغلقة على نفسها انغلاقاً عدوانيا وصداميا يعبر عن نفسه من حين لآخر بهجمة صليبية شرسة ضد ديار الإسلام(٧). وكانت العولمة التجارية الإسلامية آنــذاك هي التي تنقل لأوروبا عبر دمشق والإسكندرية وبغداد، ومنها إلى البندقية *Venise* وجنوا *Genova* والقسطنطينية *Istambul*، الحرير والخزف الصيني، والتوابل الإندونيسية، والذهب الهندي، والأقرباذين وماء الورد العربيين والمنسوجات الخراسانية والعندم والكندرو من ظفار، والمسك والعنبر السيامي. ومع أن ماركوبولو *Marco Polo* كان ينتمي إلى عائلة عريقة تمتهن التجارة في إيطاليا، فإنه فوجئ لدى وصوله إلى الصين وأتشيه *Aceh* بوجود حضارة الإسلام وجوداً راسخاً فيهما، وهو الذي كان يعتقد أن تلك الأماكن في أقصى المعمورة لا تاريخ لها وأن شعوبها قابعون في بربريتهم ينتظرون رياح الحضارة الغربية لكي تخلصهم مما هم عليه من بؤس وشقاء(٨). وأما ابن بطوطة *Ibn Battutoh*، فقد شعر، من جهته، أنه في بلاده وبين أهله عندما وطئت قدماه أرض أتشيه وملقا *Malaka*... (٩).

لقد خلد المؤرخون والرحالة والتجار المسلمون زياراتهم ومشاهداتهم التاريخية والجغرافية في مراجع وكتب علمية مازالت ترشد بغناها وعمقها الباحثين حتى الآن، في حين أن أوائل الزوار الأوروبيين لهذه الجزر استقدموا معهم السفن الحربية

والمدافع والاحتلال والقهر بدلاً من العلم والدعوة الروحية الصالحة. ولحسن الحظ، فإن السفن التجارية العربية التي حملت إلى بلاد الملايو مؤرخين مسلمين كباراً مثل ابن رسته *Ibn Rustah*[١٠] والاصطخري *Al-Istakhri* [١١] وبزرك بن شهريار *Buzurg bin Shahrayar* [١٢]وياقوت الحموي*Yaakout Al-Hamawi* [١٣] وسليمان التاجر *Sulaiman At-Taajir*[١٤] وابن خرداذبة *Ibn Khurdazbah* [١٥] وابن حوقل *Ibn Hawkal* [١٦] والمسعودي *Al-Mas'oudi*[١٧]، قد سبقت بمئات السنين وصول السفن الحربية الاستعمارية البرتغالية والهولندية والبريطانية إلى مياه إندونيسيا الدافئة. ثم تكرر المشهد فيما بعد، ولكن باتجاه معاكس، عندما أخذت السفن التجارية الإندونيسية تنقل رواد النهضة الإندونيسية إلى مكة المكرمة واسطنبول ودمشق والقاهرة لكي ينهلوا من زاد إخوانهم المسلمين من الصمود والمعرفة وأسباب المنعة والقوة للاستمرار في نضالهم ضد الغزاة الأوروبيين. وبرز من بين هؤلاء الرواد أسماء لامعة أضاءت جبين إندونيسيا وقربت شعبها من إخوانهم العرب والمسلمين . ونذكر من بينهم نور الدين الرانيري *Nuruddin Al-Raniri* وعبد الرؤوف السنكلي *Abdurrauf al- Sinkeli* ومحمد يوسف المقاسري *Muhammad Yusuf Al-Magassari* وعبد الصمد الفاليمباني *Abd al-Samad al-Palembangi*[١٨].

وقد شهدت الحوليات الصينية والإسلامية القديمة على قدم الاتصالات بين العرب وأهل الملايو[١٩]، لا بل إن المراجع العربية القديمة كانت تشير إلى أقطار الملايو بأسماء قديمة لم تعد معروفة الآن كبلاد الصفا والرمني وفوافوا وسلندونغ والزابج والسيلا وسمودرا وسري بوزا وجزر الملوك[٢٠]. كما أن هناك دلائل علمية لا يرقى إليها الشك على أن العرب والمسلمين كانوا موجودين في جنوب الصين منذ القرن السابع الميلادي وخاصة في مدينتي الخنساء وكانتون [٢١]، ومنها كانوا ينطلقون للتجارة مع جزر نوسانتارا[٢٢]، وليس صحيحاً أن وجود شاهدة قبر لسيدة تدعى فاطمة يعود إلى القرن الخامس الهجري لهو دليل قاطع لاعتماد ذلك التاريخ أساساً علمياً لأقدم وجود عربي في إندونيسيا[٢٣]. وليس صحيحاً أيضاً أن إقامة سلطنات اسلامية مشهورة في باساي[٢٤] وجوهور[٢٥] وفيرلاق[٢٦]وآتشيه[٢٧] وبروناي[٢٨] وتوماسيك [٢٩] وترينغانو[٣٠] وفاهانغ[٣١] وديماك[٣٢] وبانتن[٣٣] وقطاني[٣٤] وملقا[٣٥] إعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي، إنما يعكس التاريخ الدقيق لبداية انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو، فالحقيقة الساطعة تشير إلى أن حضور الإسلام في جزر الأرخبيل قديم جداً ويعود إلى صدر الإسلام، أي إلى السنوات الأولى من القرن السابع الميلادي، حيث بدأت الاتصالات أولاً بين الخلفاء الراشدين ثم الأمويين من جهة و ملوك نوسانتارا من جهة ثانية في إطار تعارف سياسي[٣٦]، ثم تطورت الاتصالات لتأخذ شكل إرسال دعاة وتجار ولاجئين فارين من بطش السلطتين الأموية والعباسية بحق معارضيهما لا سيما من أهل البيت الذين حمل بعضهم الإسلام إلى الملايو، وعُرفوا محلياً باسم " الأولياء

التسعة " أو " والي سونغو Wali Songo "(٣٧). ومن البدهي أن تسلك هذه الاتصالات طريقين بحريين رئيسيين: مباشر من العراق والجزيرة العربية وخراسان وحضرموت، وغير مباشر عن طريق ماليبار وغوجرات في الهند والبنغال وجزيرة ذيبة المهل(٣٨) حيث كان الساحل الغربي للهند قد ترسخ فيه الإسلام بقوة منذ الفتوحات الإسلامية المبكرة في عهد الخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية. والحقيقة، أنَّ تلك الطريقين غير معروفتين بالنسبة للعرب والمسلمين لأنهما كانتا تحاكيان طريق التوابل القديم وطريق الحرير اللتين كانتا تجمعان شعوب العالم القديم في كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا. لقد تركت الاتصالات المبكرة بين العرب وشعوب الملايو لا سيما الاتصالات مع مملكتي "سري ويجايا Sriwijaya" و"ماجافاهيت Majapahit" آثاراً هامة في ميدان التثاقف، ويتجلى ذلك في القصص الجميلة والحكايا الأسطورية التي يتميز بها التراث الثقافي العربي والإسلامي مثل قصص ألف ليلة وليلة Kisah Seribu Satu Malam " و"علاء الدين Aladin " "المصباح السحري Lampu Ajaib" و"السندباد Sindibad " ورحلات ابن بطوطة Kisah Perjalanan Ibnu Batutoh، وهي كلها تأثرت بأجواء المغامرات البحرية الجريئة التي كان يقوم بها الرحالة والتجار والدعاة باتجاه الشرق، باتجاه ما كان يسمى بلاد الواق الواق والبحر الزفتي الكبير(٣٩).

غير أن هذا التثاقف كان باتجاه آخر أيضاً، إذ حفل القصص الشعبي الاندونيسي ببصمات عربية واضحة انعكست في تطوير تقاليد "الوايانغ Wayang" وفي حكايات "ملوك باساي Kisah Raja-Raja Pasai" و"تاج السلاطين Mahkota Para Sultan" و"الأمير حمزة Pangeran Hamzah" و "هانغ تواه Hang Tuah " و " شجرة الملايو Sejarah Melayu " .

ب – أسبـــاب اختيـــار الموضوع :

بداية اهتمامي بتاريخ إندونيسيا عموماً وبدخول الإسلام إليها وانتشاره فيها على وجه التخصيص تنبثــق أساساً من متابعتي الأكاديمية المستمرة لما تكتبه مدارس الاستشراق الغربية عن الإسلام والحضارة الإسلامية، إذ شعرتُ منذ أن وطئتُ قدماي أرض إندونيسيا بفضول علمي كبير لمعرفة حقائق التاريخ الذي سطرته تلك الأرض، لاسيما ما يتعلق منه بالعلاقات الإسلامية وما قبل الإسلامية التي نسجت بين العرب من جهة وسكان أرخبيل الملايو المترامي الأطراف من جهة ثانية طوال آلاف السنين. غير أن فضولي هذا أحاطت به علامات استفهام كثيرة وجدت نفسي في حيرة من أمري إزاءها، وأولها أن معظم الكتابات والمراجع حول تلك العلاقات إنما كتبها المستشرقون الغربيون أو الآسيويون من غير المسلمين مثل نيلا كانتا ساشستري [Nilakanta Sashtri] وشرايكه [B.J.Schricke] وريتشارد وينستدت [Richard Winstedt]

وكليفورد غيرتز [*Clifford Geertz*] وفون غرينباوم *[Von Grunebaum]* وميلنر *Milner*، *A.C* ووالاس *[Alferd Russel Wallace]* وبرنارد لويس *[Bernard Lewis]* وباترسون *[Paterson]* وبول ويتلي *[P.Wheatley]* والشهيران سنوك هورغرونجيه*[Snouk Hurgronje]* وبرنارد فليكه *[Bernard H.M.Vlekke*] (٤٠). وازدادت حيرتي عندما لاحظتُ أن الباحثين المسلمين الكبار قد انقسموا على أنفسهم حيال التفسيرات التي قدمها أولئك المستشرقون، فمنهم من أيد ما ذهب اليه بعض هؤلاء المستشرقين من أن الإسلام قد جاء إلى أرخبيل الملايو عن طريق الهند والبنغال، ومنهم من مال إلى اعتناق فكرة مجيء الإسلام من بلاد فارس، في حين اعتمد آخرون نظرية ورود الإسلام عن طريق العرب القادمين من حضرموت والجزيرة العربية(٤١). وهنا شعرتُ بأن معركة الحقيقة الأكاديمية المتعلقة بهوية وتاريخ أرخبيل الملايو المسلم هي نفسها معركة مناطق اسلامية أخرى امتدت إليها أقلام الاستشراق والاستعمار الغربي. وكم سررتُ عندما حضرتُ منتدىً دولياً انعقد في جاكرتا في نهاية عام ١٩٩٩ حول " مجيء وانتشار الإسلام في عالم الملايو الاندونيسي " ولمستُ بنفسي أن هناك جدلاً علمياً رفيع المستوى يدور حول تفنيد أطروحات المستشرقين الأنفة الذكر والخروج بنظرية إسلامية مستقلة حول المسألة(٤٢). وتعرفتُ حينها على باحثين إندونيسيين ومن العالم الإسلامي ممن يسعون جاهدين للانعتاق من إسار القوالب التي حاول المستشرقون وضعها مبكرا بغية تكبيل أيدي الباحثين المسلمين. ومن هؤلاء الباحثين الأساتذه آزيوماردي أزرا *[Azyumardi Azra]* وأوكا جاندرا ساسميتا *[Oka Tjandra Sasmita]* ومشير الحسن *[Mushir Sl-Hasan]* وعلي شهاب *[Ali Shihab]*. ثم تعرفتُ على باحثين كبار من بينهم المرحوم محمد أسد شهاب *[M.Assad Shihab]*، واطلعت على أبحاث معمقة قام بها أساتذة كبار كالعلامة المرحوم علوي بن طاهر الحداد *[Alwi bin Taher El-Haddad]* (٤٣) وبدر الدين حي الصيني *[Badruddin H.El-Sini]* (٤٤) وعادل محيي الدين الألوسي *[Adel M. El-Aloussi]* (٤٥) وسقاف علي الكاف *[Saggaf A. El-Kaff]* ومحمد طيب عثمان *[Moh. Taib Osman]* (٤٦) وزين العابدين *[– Zaen-al Abidin]* ونقيب العطاس *[Naguib Al-Attas]* (٤٧) والحاج عبد الملك كريم عمر الله المشهور اختصاراً بـ "حمكا" *[HAMKA]* وعبد الله علوي *[Abdullah Alwi]* وأكمل الدين أوغلو *[Ekmeleddin Ihsan Oglu]* (٤٨) وآخرين كثيرين.

وبفعل تلك المعارف والتقاطعات التي كانت ترتسم في ذهني بين تجربة إندونيسيا وتجربة بقية الأمصار الإسلامية من جهة التعامل مع التاريخ الإسلامي كمادة مستقلة عن التشويهات الدخيلة التي ابتُلي بها المسلمون في فترة المد الاستعماري، قررتُ أن ألج بنفسي مغامرة البحث العلمي للاقتراب قدر الإمكان من الواقع الحقيقي.

ج – تشخيص المشكلات :

بطبيعة الحال، اعترضتني صعوبات عديدة أولها عدم إتقاني للغة الإندونيسية مما اضطرني إلى ترجمة العديد من المراجع الإندونيسية إلى اللغة العربية، وثانيها اختلاط الحقيقة بالأسطورة في أحيان كثيرة[٤٩]، وثالثها تضارب النظريات والرؤية حتى بين المؤرخين المسلمين أنفسهم بسبب تمايز هوية انتماءاتهم السياسية أو المذهبية أو الوطنية، ورابعها وجود عدد قليل من المراجع المعاصرة لباحثين عرب باللغة العربية رغم أن أكثر من ثلاثين مؤرخا ورحالة عربياً ومسلماً من فترة صدر الإسلام إما زاروا أو وصفوا إندونيسيا وأرخبيل الملايو وكتبوا الكثير عنهما، ومن هؤلاء أسماء لامعة في تاريخ الحضارة الإسلامية وأدب الرحلات، نذكر منهم: السيرافي وابن رستة والإصطخري وبزرك بن شهريار وياقوت الحموي وسليمان التاجر وابن خرداذبة وابن حوقل والمسعودي وابن خلدون وابن بطوطة. وللدلالة على اهتمام العرب بإندونيسيا آنذاك يكفي أن نذكر أنهم قد أرسلوا إلى أوروبا طوال قرون أربعة رحالة فقط هم: ابن فضلان ويحي البكري والادريسي والطرطوشي، في حين أنهم أرسلوا، في الفترة نفسها، المئات من الرحالة والدعاة باتجاه أرخبيل الملايو دلالة على اهتمامهم الشديد بهذه الآفاق البعيدة[٥٠].

ومن المفيد ذكره في هذا الصدد، أن الكثير من ذاكرة تاريخ العلاقات الإندونيسية – العربية والإسلامية قد اختفى خلال حقبة الاستعمار البرتغالي ثم الهولندي والبريطاني والياباني لأرخبيل الملايو[٥١] بحيث أن المستندات والوثائق التاريخية التي تثبت وقائع تلك العلاقات خطياً تكاد تقتصر حالياً على الحوليات الصينية القديمة والمراجع الجغرافية الإسلامية المبكرة ومشاهدات الرحالة المشهورين مثل ماركو بولو وابن بطوطة، علاوة على آراء المستشرقين الغربيين بالنسبة لأحداث القرون الأربعة الأخيرة. ومن الصعوبات الأخرى التي اعترضت سبيل بحثي هذا مسألة تنوع التقاويم الزمنية في تحديد تاريخ حصول الأحداث الهامة، وهي مسألة ليست بالسهلة وتستدعي على الدوام إجراء مقارنات عديدة فيما بين التقاويم المعروفة بغية التوصل إلى تحديد الزمن تحديداً مقبولاً[٥٢].

د – الأغـراض من الكتاب وفـوائـده :

إن كتابي هو رحلة روائية عبر عبق التاريخ والجغرافيا والثقافة غرضها الرئيسي هو إثبات أن سادة العولمة بمعناها الحضاري والإنساني هم المسلمون العرب والآسيويون بمن فيهم سكان أرخبيل الملايو، وأن هذا المصطلح ليس جديدا ومستنبطا من التقدم العلمي الغربي الحالي بل قديم قدَم الاتصالات بين الشرق العربي والشرق الآسيوي، وأن التجار والدعاة و"والي سونغو" أو "أولياء الشرق

البعيد" هم مؤسسو العولمة الإنسانية الحضارية الأوائل في الدنيا. ولا أزعم أبداً أنني قد أحطتُ بكتابي من كل جوانبه، بل إنني أكتشف كل يوم معلومات جديدة تزيدني غنىً وخبرة وتجربة وتحرك كوامن فضولي العلمي لمعرفة المزيد عن أنفسنا: نحن وأنتم...

إن لهذا الكتاب فوائد عديدة لاتخفى على القارئ الفطن، فالمعلومات الواردة فيه من شأنها أن تحرك كوامن الاستطلاع العلمي لدى كل متابع لتاريخية العلاقات بين الشعوب الآسيوية في شرق القارة وغربها، وأكاد أجزم بأنه لن يمضي وقت طويل حتى تسقط الأبحاث التاريخية المعمقة نظريةَ اكتشاف القارة الأمريكية على يد الإسبان، ونظرية اكتشاف البرتغاليين طريقَ الهند عبر رأس الرجاء الصالح الأفريقي،[٥٣] إذ لا بد وأن المسلمين والصينيين والملايويين قد توصلوا إلى ذلك قبل الأوربيين لاسيما وأن المحيطين الهندي والهادي كانا حكراً على التجارة البحرية الآسيوية دون سواها لآلاف السنين[٥٤].

وهناك دروس أخرى يمكن للمرء أن يستقيها من قراءة هذا الكتاب، ويتصدر مقدمة هذه الدروس واقع أن الاتصالات البحرية بين العالم الإسلامي وجنوب شرق آسيا، بما في ذلك الصين واليابان والفيليبين كانت سلمية وبعيدة عن الصدامات العسكرية، لابل إن طبيعة العلاقات داخل المجموعة الآسيوية الكبيرة، من جهة، والعالم الإسلامي، من جهة ثانية، كانت أقرب ماتكون إلى مفهوم " حوار الحضارات "[٥٥] الراهن. ولم يعكر صفو هذه العلاقات إلا وصول طلائع التدخل الأوروبي العسكري والتبشيري المتعصب القسري إلى آسيا في مستهل القرن الخامس عشر.

وينبغي لنا، في هذا السياق، أن نشير إلى معلومة جغرافية هامة، وهي أن ما يسمى بعصر الاكتشافات العلمية وفقاً للمفهوم الغربي[٥٦] قد بدأ في غرناطة بالأندلس، وانطلاق أول حملة برتغالية باتجاه آسيا، واكتشاف الإسبان للقارة الأمريكية مصادفةً. وأقصد من وراء هذه المقارنة الإشارة إلى أن فضول الأوروبيين واندفاعهم باتجاه آسيا وأمريكا إنما تزامن مع انكماش فضول المسلمين وتراجع اندفاعهم الحضاري باتجاه أوروبا، اللهم باستثناء المد العثماني في وسط أوروبا والذي تميز بكونه مداً عسكرياً أكثر منه حضارياً.

ولا غرو في أن القارئ سيقف على فوائد أخرى للكتاب من خلال قراءته من زوايا أخرى غير تلك التي ميزت قراءتي له.

وإنني على ثقة من أن ملاحظاتكم العلمية ونقدكم الأكاديمي ستعزز من قيمة الكتاب الروائي الذي قدمته لكم راجيا من المولى أن يؤدي ذلك إلى زيادة مصداقية هذا الكتاب لما فيه خير قراء المسلمين ...

هـ - منهج الكتاب :

لقد سعيت جاهداً لأعطي عملي هذا، شكل الرواية التاريخية الموثقة تماشياً مع ميل شخصي لإضفاء هالة السحر الأسطوري على الاتصالات العربية - الإندونيسية

المبكرة التي غالبا ما كانت تكتسي طابع المغامرة البحرية وتصل أحياناً إلى حدود اللاعودة إلى المرافىء التي انطلقت منها تلك الاتصالات. ولا مندوحة لنا، في هذا المضمار عن الاعتراف بأن تلك المغامرات البحرية الجريئة التي تمت آنذاك على متن سفن خشبية بدائية، قد نقلت من مياه وغابات وجبال وبراكين إندونيسيا وبقية دول أرخبيل الملايو قصصاً جميلا وحكايا أساطيرية وخيالا خصباً تركت كلها بصماتها على التراث الثقافي العربي والإسلامي الذائع الصيت مثل قصص ألف ليلة وليلة *Kisah Seribu Satu Malam*، وعلاء الدين والمصباح السحري *Lampu Aladin*، والسندباد *Sindibad*، ورحلات ابن بطوطة، وهي كلها قصص حفلت بمشاهد وشخصيات وأحداث مستقاة من انطباعات أوائل الرحالة العرب المسلمين إلى جزر أرخبيل الملايو. فتداخل، بفعل ذلك، الفكران العربي والملايوي تداخلاً رائعاً انعكس فيما بعدُ بشكل واضح وبيّن في تقاليد " الوايانغ " *Wayang* الإندونيسية العريقة، وفي القصص الشعبي الاندونيسي الشيق مثل حكايات " ملوك باساي*Kisah Raja-raja Pasai* " و "تاج السلاطين *Mahkota Para Sultan*" وحكاية " الأمير حمزة *Kisah Pangeran Hamzah* " وحكاية هانغ تواه *Kisah Hang Tuah* " وحكاية " شجرة الملايو *Kisah Sejarah Melayu* "، وفي الحكايات الشعبية العربية والإسلامية التي تلهب الخيال وتقرب الآفاق[٥٧].

غير أن اختياري لشكل الرواية التاريخية لا يعني أبداً ابتعاداً عن المنهجية الأكاديمية في البحث العلمي، بل إنه إغناءٌ لهذه المنهجية من حيث خروجها عن المألوف التاريخي الصرف رغم وثائقيتها واستنادها إلى كمٍّ هائل من المراجع والكتب والأبحاث باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والإندونيسية. وقد أمكنني هذا الانكباب على مراجع بأربع لغات من خلق تقاطعات معرفية نادرة ما كان بمقدوري استشعارها لولا ذلك. وقد ساعدتني تجربتي الأكاديمية السابقة في فرنسا على تحدي المصاعب وتجاوز العقبات الكأداء التي كانت تعترض طريق كتابي هذا، وفي مقدمتها اختلاط التاريخ بالأسطورة في إندونيسيا، وتداخل الواقع مع الخيال والحقيقة مع الغيبيات وكذلك ندرة المراجع باللغتين العربية والإندونيسية.

وبطبيعة الحال فإن اختياري لشكل الرواية التاريخية قد أملى على خياراتي المنهجية ضرورات معينة تبيح بعض المحظورات حيث مال قلمي أحياناً إلى تفخيم وتعظيم البعد الأسطوري على حساب الواقع التاريخي الصرف مثلاً، وإلى تفضيل تفسير مرجعي معين لحادث ما على تفاسير أخرى، وكل ذلك يعزى أساساً إلى كوني انظر للأحداث بصفة باحث عربي لا إندونيسي، وبالتالي فإن مقاربتي لتلك الأحداث ينبغي أن يتم تأطيرها وفقاً لزاوية رؤية خارجية لا داخلية محلية .

ولكن هذه الملاحظات لم تؤثر أبداً في مصداقية الرسالة المراد إيصالها للباحث. فالمقاربة التاريخية جاءت شمولية بحيث أن القارئ يقف على التطورات الهامة في تاريخ العلاقات الآسيوية – الأوروبية باستمرار، وعلى مدى التقاطعات في هذه العلاقات وتأثيرها على توازنات القوى في العالم القديم، وبالتالي، فإن ماكان يحدث في بانتن *Banten* وآتشيه *Aceh* وملقا *Malaka* والصين *Cina* والهند *India* لم يكن بالمقدور عزله عما يحصل في بغداد ودمشق والأندلس والقاهرة وفلسطين والمغرب العربي ولشبونة وأفريقيا والعالم الجديد في القارة الأمريكية. وهذا بالضبط أحد الجوانب الهامة لما أطلقت عليه اسم "العولمة الإنسانية " بالمفهوم الإسلامي المبكر.

وتعزيزاً لهذا المفهوم فقد قمتُ، حكماً، بتقسيم الكتاب إلى اثني عشر باباً رئيسياً لضرورة الربط بين التاريخ والجغرافيا في مسيرة انتشار الإسلام من الشرق العربي إلى الشرق الإسلامي الآسيوي لاسيما ما يتعلق بنظرية دور الأئمة من أهل البيت الشريف و مراحل انتقالهم التاريخي، من جيل إلى جيل، من البصرة إلى الحجاز ثم إلى حضرموت ومنها إلى الهند والسند والبنغال، ثم بعد ذلك إلى كمبوديا والصين والفيليبين وصولاً إلى أرخبيل الملايو. وهكذا وجدتُ نفسي أخصص باباً لكل محطة جغرافية وتاريخية أبرز فيها خصوصيات المرحلة وتقاطعاتها مع سابقاتها من المراحل الأخرى وبما يربطها ربطاً محكماً مع المرحلة اللاحقة القادمة. وفي هذا الإطار الشمولي كانت تتحرك الشعوب والجيوش والعروش والتجار والدعاة والزهاد والأئمة في صورة روائية منسجمة مع ذاتها. وحفاظاً على السياق الروائي الأدبي ولضرورات عدم قطع تواتر الأحداث التي تتسم بها كل محطة في كل باب، آثرتُ تقسيم الأبواب إلى فصول فرعية. وتبقى كلمة أخيرة لي بشأن الإطار الزمني للكتاب حيث تتوقف المعالجة التاريخية عند بدايات القرن السابع عشر الميلادي بحكم تزامن تلك المرحلة مع رسوخ الإسلام في أرخبيل الملايو رسوخاً مادياً وروحياً، ومع تماهي الإسلام بالهوية الوطنية المحلية وتوحدها لصد الغزو الأوروبي وهيمنته الاقتصادية والسياسية. وأما مرحلة التحرير من الاحتلال الأوروبي فتحتاج إلى مقاربة ذات صبغة سياسية أكبر من الصبغة الدينية، وبالتالي فإنها تخرج عن الموضوع الرئيسي للكتاب ألا وهو: *"كيفية وصول الإسلام إلى أرخبيل الملايو "*. وأما الخاتمة فهي عبارة عن تسجيل للنتائج التي خلصتُ إليها من هذا الكتاب وتحليل لأهم المعطيات التاريخية والجغرافية والسياسية التي واكبت فترة انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو اعتباراً من القرن الثاني الهجري ولغاية القرن الثاني عشر الهجري [من القرن الثامن الميلادي ولغاية القرن الثامن عشر الميلادي] .

والله ولـــي التوفيـــــق

حواشي المقدمـــة

(١) من المتفق عليه الآن بين الباحثين أن مسيرة أسلمة جزر أرخبيل الملايو كانت بداية ثمرة التجارة البحرية المزدهرة بين الجزر والأمصار الإسلامية الأخرى سواء في الهند أو البنغال أو الصين أو عواصم الخلافة الإسلامية دمشق وبغداد والقاهرة وإسطنبول. غير أن انتشار الإسلام ديناً ورسوخه في منطقة جنوب شرق آسيا بلغ ذروته عندما أصبحت السياسة العامل الحاسم في التوازنات القائمة إقليمياً ودولياً، وباعتبار أن التجارة والسياسة أصبحتا العامل الحاسم في وقت ما من تاريخ أرخبيل الملايو، فمن الممكن أن يفهم المرء واقع أن الإسلام لم يحول بشكل جذري الصورة الثقافية المحلية السابقة لعهد الإسلام في الأرخبيل، خاصة في جزيرة جاوا، فالإسلام قد غيرّ الشكل السياسي المحلي في حين أنه لم يمسّ بعمق الجوهر الثقافي .

– انظر : Taufik Abdullah في مقالته المعنونة :

" Islam in the Malay World : Intellectual Heritage and Political Traditions" المنشورة في الكتاب المعنون بـــ: " Islamic Civilizations in the Malay World "

مطبوعات منظمة المؤتمر الإسلامي – مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية [IRCICA اسطنبول ١٩٩٩ .

-- وانظر أيضاً: مصدر حلمي، " دراسات في الإسلام المحلي": أضواء على انصهار الإسلام في الثقافة الجاوية " ، مقال منشور في العدد /٢/ – السنة السابعة من مجلة " ستوديا إسلاميكا " السنة ٢٠٠٠ م الصادرة عن مركز البحوث الإسلامية والاجتماعية PPIM في جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا. ونقتطف من المقال المقطع التالي: " إن من أهم المميزات التي تتمتع بها التقاليد الجاوية في نظر الكثيرين هو الاتجاه التوفيقي بين الأديان المختلفة ، ولقد جرت العادة على القول: إن الإسلام بجاوا يسير في انتشار مستمر يمتد خلال سبعة قرون ابتداءً من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين ويمثل اندماجاً أبدياً بين القيم الإسلامية والجاوية. وعلى العموم هناك افتراض يرى أن الإسلام بجاوا لم يزل فيه استمرار للتقاليد البوذية الهندوسية، وهذا معقول لأن الإسلام بجاوا كان منفتحاً على الثقافات السابقة، ولذلك كان روبسون محقا في أن يرى الإسلام بجاوا – ولاسيما في الفترة المبكرة من الدعوة – قد وقع في مفترق الطرق من حيث أنه وضع في ظروف تتسم فيه بالغموض من الناحية العقائدية. بالطبع كان هناك احترام من ناحية حكام الممالك الإسلامية الجاوية لسابقيهم من الحكام الهندوسيين البوذيين، لاسيما في القوى الخارقة التي يتمتعون بها في إدارتهم للمملكة، بيد أن هناك من ناحية أخرى رغبة واضحة في الالتزام بعقيدتهم الجديدة وهي العقيدة الإسلامية، وهذه الازدواجية ظاهرة في شخصية السلطان اجونغ Agung، ملك " ماتارام Mataram ". فطبقاً للتاريخ الجاوي القديم كان السلطان آجونغ على اعتقاد بأنه من سلالة الملك الوثني " براويجايا الثاني Brawijaya II " ملك " ماجافاهيت Majapahit "، وأنه كان يحلم بأن يكون ملك ماجافاهيت، وإن كان المصدر نفسه لم يكن فيه تصريح حول ماإذا كان مسلماً ملتزما أم لا. وفي ذلك الكتاب الضخم ورد ذكر نسب السلطان أجونغ المنحدر من ملوك ماجافاهيت الذين هم أجداده. وكان السلطان قد حارب أيضا حكام الإمارات الإسلامية في المناطق الساحلية لتخضع للحكومة المركزية بماتارام. ومع ذلك فإنه أزال الشكوك عن التزامه بالإسلام إذ لم يكتف بالتوفيق بين الزخارف التي استخدمها ومقتضيات إيمانه بل قام بتبنيها بشكل أوسع مما فعله سابقوه، والمثال

على ذلك استخدامه للتقويم الهجري، والأهم إعلانه أن الإسلام الدين الرسمي للمملكة سنة عام ١٦٢٣م . ويؤكد بيرج Berg أن بقاء المملكة قوية بفضل ما حققه السلطان أجونغ كان نتيجة لاهتمامه الواسع بتشجيع الأدب من خلال نشاطه في قصر الشعر. وأما قضية حلمه بأن يكون ملك ماجافاهيت فقد استلهمه وفقا لبيرج من أسطورة ماجافاهيت المعظمة. إنه مما لاينكر أن الأعمال الأدبية كانت أهم المظاهر في التعبير عن الهوية الدينية الجاوية التي تلتقي فيها القيم الهندوسية - البوذية والقيم الإسلامية ومن خلال هذه الأعمال الأدبية أيضاً تمت تنمية النظرة العامة إلى الممارسات الدينية التوفيقية. وفي هذا الإطار كان مفهوم التوفيق يستلزم تركيباً منسجما بين العناصر الصوفية الإسلامية التي روجها لأول مرة الأولياء التسعة وبين البقايا من العقائد الهندوسية البوذية في الكون والإنسان التي احتفظ بها جيداً التراث الجاوي .

ومن المؤكد أن نوعية الإسلام الذي أتى به إلى جاوا كان متسماً بالاتجاه الصوفي، ولذلك كان من السهل قبوله وتوافقه مع النزعة التوفيقية الجاوية. ولقد كانت الممارسات الباطنية السحرية قوية التأثير على الجاويين وراسخة في الثقافة الجاوية منذ فترة طويلة. ويبدو أن الأولياء التسعة قد استخدموا التصوف وسيلة للدخول في الحياة الدينية لدى الجاويين، تلك الحياة التي مازالت تسودها الأبعاد الهندوسية، وقد قام أتباعهم بنقل تعاليمهم التي جُمعت فيما بعدُ في كتب طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادين وأصبحت أغنية صوفية مع لحن " ماتشابات *Macapat* " لماتارام. والآن تتلى هذه السلوكيات عند الاجتماعات الصوفية المعروفة باسم "سلاماتن *Slametan* " ويتغنى بها على أنغام الطبول وموسيقا " الغاملان *Gamelan* " وقد يصحبها رقصات يقوم بها الرجال ".

(٢) لعب الاضطهاد السياسي في بعض فترات الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية دوراً حاسماً في دفع الكثيرين من علماء الدين والمفكرين إلى الهجرة باتجاه الشرق الأسيوي بحثاً عن حرية الفكر والملاذ الأمن، وأكبر مثال على تلك الهجرة قصة تنقُل وارتحال أجداد الأئمة التسعة الذين نشروا الإسلام في أرخبيل الملايو كما سنرى لاحقاً حيث هاجر أولئك الأجداد أولا من الحجاز إلى العراق ومنها إلى حضرموت ثم إلى شرق وجنوب شرق أسيا.

(٣) لقد توثقت علاقات المسلمين في منطق الملايو - إندونيسيا بإخوانهم في الشرق الأوسط منذ العصور الأولى للإسلام، فالتجار المسلمون من شبه الجزيرة العربية وفارس وشبه القارة الهندية لم يكونوا يأتون لمجرد التجارة، إنما كانوا بجانب ذلك يقومون، إلى حد ما، بدعوة المواطنين إلى اعتناق الإسلام، ويبدو أن تغلغل الإسلام وانتشاره الواسع في أنحاء الأرخبيل قد قام بدور كبير فيه الشيوخ في سياحاتهم الصوفية، إذ كان يلاحظ تزايد أعدادهم في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي باتجاه إندونيسيا .

وقد كان الرخاء الذي وصلت إليه الممالك الإسلامية في إندونيسيا نتيجة تطورها في التجارة الدولية يسمح لقطاعات معينة في المجتمعات الإسلامية بملايو - إندونيسيا بأن يتجهوا إلى المراكز العلمية والدينية في الشرق الأوسط ، وكانت جهود الخلافة العثمانية لتأمين طريق الحج تسهم أيضاً في تسهيل رحلة الحجاج الاندونيسيين، وعندما توثقت العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية بين الدويلات الإسلامية في إندونيسيا وبين الشرق الأوسط في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تزايد تبعاً لذلك عدد طلاب العلم والحجاج الذين يأتون من ملايو - إندونيسيا انتهازاً لفرصة الزيارة إلى تلك الأماكن المقدسة وإلى المراكز العلمية الواقعة على طريق الحج، وهذا يؤدي إلى ظهور ماسمته المصادر العربية بـ " أصحاب الجاويين " في الحرمين، وهو مصطلح وإن كان مصدره " جاوا " [جزيرة جاوا] إلا أنه يدلُ في الاستعمال اللغوي على كل من يأتي من أرخبيل إندونيسيا ....

وأما فيما يتعلق بوصول الإسلام إلى إندونيسيا، فقد أثيرت مناقشة وجدل واسع النطاق بين الباحثين حول ثلاث قضايا رئيسية وهي: من أين وصل الإسلام؟ ومن أتى به؟ ومتى وصل؟. وكثرت الروايات حول ذلك وتعددت الندوات، ولكن يمكن أن نخرج من هذه الروايات بأربع نتائج هي:

- أولا : إن الإسلام جاء من الوطن العربي مباشرة ؛
- ثانيها : إن من قام بنشر الإسلام هم دعاة "محترفون"؛ إن صح هذا التعبير، بمعنى أنهم جاؤوا خصيصا للدعوة.
- ثالثها : إن الحاكم أو الملك هو أول من أسلم ؛
- ورابعها : إن معظم أولئك الدعاة " المحترفين " وصلوا إلى الأرخبيل في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. ومن حيث النتيجة الرابعة يصح أن تكون الدعوة الإسلامية قد عرفت طريقها إلى الأرخبيل ووجد من يعتنق الإسلام فيه منذ القرون الأولى للهجرة، تماماً كما ارتأى أرنولد، وتمسك به أكثر الباحثين في ملايو – إندونيسيا، ولكن الإسلام لم يظهر قوة مؤثرة في الأرخبيل إلا بعد القرن الثاني عشر الميلادي، وعليه فإن تسارع انتشار الإسلام في الأرخبيل قد جرى في الفترة من القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر .
- انظر: د. أزيوماردي أزرا ، " شبكة العلماء : حركة التواصل بين الشرق الأوسط والأرخبيل في القرنين ١٧ و ١٨ م " ، [منشورات مركز الدراسات الإسلامية والاجتماعية PPIM التابع لجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية – جاكرتا ١٩٩٩، الصفحات ٨ – ٩] .

(٤) تشير معظم المراجع والمصادر الإندونيسية المتخصصة إلى الدور البارز الذي قام به الدعاة العرب والمسلمون في نشر الإسلام في أرخبيل الملايو، ومن أهم هذه المصادر كتاب " تاريخ جاوا *Sejarah Jawa* " الذي تحتوي نصوصه على مجموعة من القصص التاريخية الجاوية، بما في ذلك قصة وصول الإسلام إلى جزيرة جاوا وانتشاره في أنحائها، حيث تشير تلك النصوص إلى أن اعتناق مجموعات من السكان المحليين للدين الإسلامي ماهو إلا نتيجة لأنشطة الدعاة الوافدين إلى جاوا والمعروفين باسم "الأولياء التسعة *Wali Songo*". ويعتقد المؤرخون الاندونيسيون بأن هؤلاء الدعاة ليسوا من أصل جاوي بل إن بعضهم يتحدرون من سلالة أحمد بن عيسى، حفيد الإمام جعفر الصادق ، الذي أقام في حضرموت ثم سافر أحفاده إلى منطقة جنوب شرق اسيا ونشروا الدين الإسلامي فيها. وتتفق تلك الرواية مع ما ورد أيضاً في مراجع إندونيسية هامة مثل " ملوك باساي *Raja-raja Pasai* " و"تاريخ الملايو *Sejarah Melayu*" و" بستان السلاطين *Taman Para Sultan*" و"الموسوعة الإسلامية *Ensiklopedi Islam*".

– انظر باللغة الإندونيسية على التوالي :

١ – Habib Zaenal Abidin As-Saggaf " Sejarah dan Silsilah dari Nabi Muhammad SAW ke Wali Songo "، منشورات YASRIM – جاكرتا ٢٠٠٠ م

٢ – " *Ensiklopedi Islam* " Diterbitkan oleh PT Ichtiar Baru Van Hoeve – Jakarta ، Volume ٥ ، ١٩٩٣الصفحات من ١٧٢ ولغاية ١٨٥ .

٣ – DR. Ali Akbar Velayati " *Sekilas Sejarah Islam dan Peran Iran di Asia Tenggara* " محاضرة بعنوان: "لمحة عن تاريخ الإسلام ودور إيران في جنوب شرق اسيا" ألقاها وزير خارجية جمهورية إيران الإسلامية السابق د. علي أكبر ولايتي في جاكرتا بتاريخ ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٨٨. منشورة في مجلة " يوم القدس " العدد رقم ٢٢ الصادر في ربيع الأول ١٤٠٩ هـ عن السفارة الإيرانية في جاكرتا .

انظر أيضاً باللغة العربية العلامة علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " تحقيق وتعليق السيد محمد ضياء شهاب ، منشورات عالم المعرفة – جدة – المملكة العربية السعودية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(٥) يسمي علماء الآثار الجزر الإندونيسية قبل وصول الإسلام إليها حوالي القرن العاشر الميلادي بـ " الهند الكبرى ". وتعزى هذه التسمية إلى أن الحضارة الملايوية كانت، منذ بدء التقويم المسيحي وحتى وصول الإسلام إلى جزر الأرخبيل، تحت سيطرة النفوذ الهندوسي – البوذي ، وكلاهما منشؤه الهند . ومن أهم المؤرخين الغربيين الذين يعتمدون مصطلح " الهند الكبرى " للدلالة على الجزر الإندونيسية " نيلاكانتا ساشتري Nilakanta Shastri " و " شرايكه Schrieke" و " ريتشارد وينستد R Winstedt " .

– انظر باللغة الانكليزية

: Mohd Taib Osman، "*Islamic Civilization in the Malay World*"، PP. XXVI، Introduction.

– مقال منشور في الكتاب المرجعي المعنون بعنوان المقال نفسه وصادر عن مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، اسطنبول ١٩٩٧ م.

ومن ناحية ثانية، فإن اعتبار الجزر الإندونيسية بمثابة بوابة الإسلام الشرقية قد تبلور بشكل تدريجي وعلى مراحل اعتباراً من العصر العباسي [كان الأمويون أكثر تطلعاً نحو البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، أي صوب الغرب، في حين كان العباسيون ميالين للاتجاه شرقاً باتجاه آسيا] وحتى العصر العثماني عندما أقيم تحالف عسكري بين السلطنات الإندونيسية الإسلامية في آتشيه وملقا وباساي من جهة والباب العالي العثماني من جهة ثانية. {انظر: د. عادل محيي الدين الألوسي، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري [١٣م]، [منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية – سلسلة الدراسات [٣٥٨] ، بغداد ١٩٨٤، صفحة ٩٣ – ٩٤] } .

(٦) البحر الزفتي الكبير هو التسمية القديمة التي كان يطلقها علماء الجغرافية المسلمون على المحيط الهادي. وللدلالة على الهيمنة التي كانت للخلافة الإسلامية في العالم آنذاك يكفي أن نشير إلى ما كتبه الرحالة العربي المعروف سليمان التاجر السيرافي عام ٨٥١ م في كتابه المرجعي الهام المعنون بـــ: "سلسلة التواريخ " الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٧١٨ م بقلم أبيه رينادوت Abbe Renandot حيث يذكر سليمان أن " أهل الصين والهند اتفقوا على أن في الدنيا المعروفة في ذلك الوقت أربعة ملوك، وحسبوا أن أعظمهم هو ملك العرب أي خليفة بغداد، لأنهم اعترفوا بلا نزاع ولا تردد أنه أكبر الملوك في الدنيا لثروته الواسعة ولعظمة قصره ولشوكته العسكرية، ثم وضعوا ملك الصين في الدرجة الثانية عظمةً وقـــوةً ، ثم ملك اليونان ثم ملك الهند ". {انظر بدر الدين حي الصيني، " العلاقات بين العرب والصين " منشورات مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٣٧٠ هـــ – ١٩٥٠ م. ص ٤٩. وانظر أيضاً علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، منشورات عالم المعرفة، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٥ هـــ / ١٩٨٥ م ، ص ١١٧ } .

(٧) يعتبر كثيرون من المؤرخين ان الحملة البرتغالية ثم الإسبانية ضد السلطنات والممالك الإسلامية في جنوب شرق أسيا إنما هي امتداد للحملات الصليبية الأوروبية التي حاولت عبثـــاً على مدى قرنين من الزمن القضاء على الخلافة الإسلامية في بغداد ودمشق والقاهرة قبل أن تهزم في موقعة حطين على يد القائد صلاح الدين الأيوبي . فالباحث أنطوني ريد Anthony Reid يقول في بحث له بعنوان : " Islam and the State in Seventeenth Century : South East Asia "، "إن وصول البرتغال إلى جنوب شرق آسيا في عام ١٥٠٩ عبر الهند، ووصول الإسبان إليها عبر أمريكا بعد

ذلك باثنتي عشرة سنة قد أعطى صبغة سياسية للهوية الدينية ، فالأيبيريون [الإسبان] كانوا قد شنوا حربا ضروسا لعدة قرون ضد المسلمين في بلادهم [الأندلس]، وهكذا فإن حملتهم الصليبية ضد المورو [المسلمين] أصبحت جزءاً من ثقافتهم وأساطيرهم الوطنية . (انظر : Taufik Abdullah *Islamic Civilization in the Malay World* " منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي – مركز الأبحاث للتاريخ الإسلامي والثقافة والفنون – إسطنبول ١٩٩٩ . وأما د. محمد أحمد السنباطي فهو يعتبر احتلال البرتغال سلطنة ملقا بمثابة الحرب الصليبية الثامنة، ويستدل على ذلك بفحوى الكلمة التي ألقاها القائد البرتغالي البوكيرك قبيل الهجوم على ملقا حيث خطب في جنوده قائلا: " الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي ستقدمها للرب، عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد وتخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لاتعود إلى الظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماس لمثل هذه النتيجة، فإذا استطعنا الوصول إليها، فسيترك المسلمون الهند كلها لنا. إن غالبية المسلمين يعيشون على تجارة هذه البلاد، ولقد اغتنوا وأصبحوا أصحاب ثروات ضخمة، وملقا هي مركزهم الرئيسي ، فمنها ينقلون كل عام التوابل والأدوية إلى بلادهم دون أن نستطيع منعهم، فإذا تمكنا من حرمانهم من هذه السوق القديمة لا يبقى لهم ميناء واحد في كل هذه المنطقة. وأؤكد لكم أنه إذا استطعنا انتزاع ملقا من أيديهم فسوف تنهار القاهرة وبعدها تنهار مكة نهائياً ". { انظر د. محمد أحمد السنباطي، " حضارتنا في إندونيسيا " ، منشورات دار القلم – الكويت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١١١ } .

ومن المهم ذكره ، تأكيدا لما سبق ذلك، من ارتباط الحملات العسكرية البرتغالية والإسبانية على السلطنات الإسلامية في جنوب شرق آسيا بالحملات الصليبية ضد المشرق في القرون الوسطى أن القائد الإسباني ماجيلان قد أطلق على سكان الفيليبين المسلمين اسم " مورو " للدلالة على أنهم من المسلمين ، وكلمة " مورو " هي نفسها التي كان يستخدمها الإسبان لوصف مسلمي الأندلس وشمال أفريقيا . وحتى أيامنا هذه بقيت هذه الكلمة تستخدم للدلالة على الثوار المسلمين في جنوب الفيليبين [مندناو] المطالبين بالاستقلال [جبهة تحرير مورو] .

– انظر : Gregorio Zaide ، " The Pageant of Philippine History " منشورات Philippine Education Company مانيلا – الفيليبين – ١٩٧٩، الصفحات ١٦٧ – ١٨٩ .

وكان القائد صلاح الدين الأيوبي من أوائل من تنبه إلى خطورة وصول الأوروبيين إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، فقد فرض هذا القائد [٥٦٢ – ٦٥٠ هـ / ١١٦٨ – ١٢٥٢ م] سياسات حازمة لتضييق الفرص على التجار غير المسلمين للتواجد في مناطق الطرق التجارية للبحر المتوسط منعـاً لتسلل الصليبيين فيقومون بالهجوم على مكة عن طريق ميناء جدة الذي كان قد أنشأه الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

انظر: د. أزيومردي أزرا ، " شبكة العلماء " ، منشورات مركز الدراسات الإسلامية التابع لجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية – جاكرتا ١٩٩٩، ص ٥٠ .

وتبقى هناك كلمة أخيرة حول هذه المسألة، ألا وهي قناعة العديد من المؤرخين الاندونيسيين بأن الحملات الصليبية الأوروبية على المشرق العربي كانت، بحد ذاتها، من عوامل هجرة المسلمين أيضاً باتجاه الجزر الإندونيسية. وقد قامت لجنة الشرق الأوسط التابعة لغرفة التجارة والصناعة الإندونيسية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بتنفيذ (فيلم سينمائي) حول هذه الفكرة في عام ٢٠٠٠ ويحمل (الفيلم) عنوانا باللغة الإنكليزية هو :

"The Coming and Spreading of Islam in Southeast Asia"

(٨) زار الرحالة الإيطالي من فينيسيا، ماركوبولو، الجزر الإندونيسية في عام ١٢٩٢ م، وتحدث في مذكراته التي ألفها عن رحلته تلك قائلا: أنه كان يوجد في المنطقة " ثماني ممالك من بينها واحدة

هي مملكة فيرلاق قد اهتدت إلى قانون محمد بفضل صلاتها مع التجار الساراسيين [المسلمين] الذين يأتون للتجارة هنا " ، ثم يصف ماركوبولو سكان الممالك السبعة الباقية بأنهم " وثنيون مع قناعات بدائية وحياة بربرية " . وبطبيعة الحال فإن ما نقله ماركوبولو عن سكان إندونيسيا آنذاك غير دقيق أبداً . فمملكة " سامارا Samara " مثلا التي يصف ماركو بولو أهلها بأنهم " وثنيون متوحشون " كانت قد اعتمدت الإسلام ديناً منذ عام ١٢٠٤ م، وملك سامارا تلك التي تعرف تاريخيا باسم "سامودرا باساي " اهتدى إلى الإسلام على يد شيخ عربي يدعى الشيخ إسماعيل الذي جاء مباشرة من الحجاز عبر شاطئ مالابار [المعبر] . واستناداً إلى الحوليات الصينية فإن مملكة " سامودرا باساي " قد أرسلت إلى الأمبراطور الصيني في عام ١٢٨٢ م سفيرين لها اسماهما حسين وسليمان.

– انظر : Mohd. Taib Osman، " *Islamic Civilization in the Malay World* " منشورات IRCICA ، إسطنبول ١٩٩٧ م ، ص ١٤٧ .

(٩) انظر ابن بطوطة [أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي]، "رحلة ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، منشورات دار إحياء العلوم – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م ، ص ٦٦٠ .

(١٠) ابن رسته [أبو علي أحمد بن عمر] توفي عام ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م له كتاب قد يكون موسوعة " الاعلاق النفيسة " يقال أنه لم يبق من هذا الكتاب سوى الجزء السابع وهو محفوظ في متحف لندن، ذكر فيه اليمن ومصر والقسطنطينية والهند والسجر والصقالبة. نشأ في أصفهان

(١١) الإصطخري [أبو إسحاق إبراهيم] ، توفي عام ٣٤٦ هـ /٩٥٧ م له كتاب " مسالك الممالك " وكتاب " الأقاليم " الذي تم تأليفه بين عامي ٣١٨ و ٣٢١ هـ .

(١٢) بزرك بن شهريار الرامهرمزي ، له كتاب " عجائب الهند بره وبحره وجزره " ، ألفه عام ٣١٨ هـ /٩٥٥ م ، جمع فيه أخبار الهند والشرق الأقصى إلى الصين واليابان . توجد نسخة من كتابه هذا في دار الكتب بالقاهرة و ترجم إلى الانكليزية .

(١٣) ياقوت الحموي ابن عبد الله الرومـي [٥٧٤ – ٦٢٦ هـ/ ١١٧٨ – ١٢٢٨ م] ، له " معجم البلدان " طبع في لايبزغ بألمانيا عام ١٨٦٦ م بتحقيق المستشرق الألماني Wustenfeld . أخذ الحموي في تأليف كتابه فترة عشر سنوات وذكر فيه بلاد الصين وجاوا والهند ، وزار الشام وخراسان ومرو وخوارزم وغيرها ، وقال : " إن هذه الممالك شاسعة ما رأينا من مضى فأوغل فيها ، وإنما يقصد الناس أطرافها ، وهي بلاد تعرف بالجاوا على ساحل البحر شبيهة بالهند " . ومن مؤلفاته " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " [معجم البلدان] طبع بالقاهرة بعناية المستشرق مرجليوث . توفي في مدينة حلب .

(١٤) هو سليمان التاجر السيرافي . يقول علماء الغرب، ومنهم غوستاف لوبون: إن أول من ترك لنا معلومات عامة محفوظة في اللغة العربية عن بلاد الصين وتجارة العرب فيها هو سليمان التاجر السيرافي الذي سافر إلى بلاد الصين بحراً أكثر من مرة عن طريق سواحل الهند وجاوا. يتفق مع ابن خرداذبة في أكثر ما أورداه من معلومات عن الصين وشرق آسيا. من أهم مؤلفاته الجزء الأول من كتاب " سلسلة التواريخ " الذي أتمه في سنة ٨٥١ م، في حين أن الجزء الثاني منه كتبه أبو زيد الحسن السيرافي، ووقف من خلاله علماء أوروبا على أحوال الصين وعلاقاتها بالعرب من ناحية التجارة.

(١٥) ابن خرداذبة [أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الخراساني] ، الجغرافي والمؤرخ والأديب { ٢٣٢ – ٣٠٠ هـ / ٨٤٦ – ٩١٢ م } له كتاب " المسالك والممالك " كتبه في مدينة سامراء ذكر فيه الزابج والرامني وشلاهط وكلة. علق على هذا الكتاب المستشرق الهولندي M.J. De Goeje. كان

جد ابن خرداذبة مزدكيا ثم أسلم، وكان أبوه حاكما على طبرستان مدة طويلة. سافر ابن خرداذبة إلى بغداد واتصل بإسحاق الموصلي، ومكث في العراق مدة بوصفه مديرا عاما لديوان البريد .

(١٦) هو أول عربي رسم خريطة لصورة الكرة الأرضية، وجعل مكة في وسطها وأفريقا وآسيا متقابلتين وجهاً لوجه، ولم يذكر شيئا عن جزر الفيليبين والملايو كما هي معروفة اليوم، وجعل المحيط الهادي في شرق الصين وشمالها وبلاد الترك في غربها وبلاد الهند والإسلام في جنوبها.

(١٧) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي [٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م] ، عالم جغرافي كبير من أهم مؤلفاته " مروج الذهب ومعادن الجوهر " و " التنبيه والإشراق " و " أخبار الزمان " و " على هوامش نفح الطيب " . يعتبر المسعودي من أهم مـن تحدثوا عن الصين ووصف حضارتها وثقافتها، فقد ذكر مثلاً في كتابه " على هوامش نفح الطيب " سبعة بيوت بنيت على أسماء الكواكب من المعابد القديمة المشهورة في العالم وهي : " الأول هو البيت الحرام بمكة بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والثاني معظم على رأس جبل بأصفهان يُقال له " مارس " ، والثالث يقال له " سندوساب " ببلاد الهند ، والرابع " بدبهار " بناه منوشهر بمدينة بلخ على اسم القمر ، والخامس بيت " غمدان " الذي بصنعاء بناه ضحاك على اسم الزهرة وخربه عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، والسادس " كارشانشاه " بناه كارش الملك بناءً عجيباً على اسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة، خربه المعتصم بالله، وأما السابع فهو بأعلى الصين بناه والد عابور بن بعويل بن يافث بن نوح وأفرده للعائلة الأولى إذ كان منشأ هذا الملك ومَمَده وباعث الأمور اليه. وجعله سبعة أبيات في كل بيت منها سبع كُوا يقابل كل كوة صورة من الخمسة النيرين من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من ياقوت وزمرد على اختلاف ألوان الجواهر ولهم بهذا الهيكل سر يتناقلونه في بلاد الصين بما يزخرف لهم الشيطان".

(١٨) نور الدين الرانيري [١٠٦٨ هـ/١٦٥٨م] وعبد الرؤوف السنكلي [١٠٢٤ هـ /١١٥٠ م] من رواد الحركات التجديدية الإسلامية في إندونيسيا في القرن السابع عشر الميلادي، سطع نجمهما في سلطنة أتشيه، وكانا من أبرز معارضي مذهب وحدة الوجود في التصوف الإسلامي المتأثر بتعاليم ابن عربي والجيلاني. من أبرز مؤلفاته " بستان السلاطين " .

- محمد يوسف المقاسري [١٠٣٧ -١١١١ هـ / ١٦٢٧ - ١٦٩٩ م] من رواد الحركات التجديدية الإسلامية في أرخبيل الملايو أيضاً . وُلد في سولاويسي وبدأ حياته العلمية في سلطنة بانتن Banten [جاوا الغربية] . يطلق عليه الاندونيسيون لقب " شيخنا العظيم من جووا Tuanta Salamaka ri Gowa " ، واسمه الكامل هو محمد يوسف بن عبد الله أبو المحاسن التاج الخلوتي المقاسري . تزوج بينت سلطان جووا علاء الدين المعروف محلياً باسم " مانجارانجي داينغ موراَبيا Mangarangi Daeng Maurabia " ، وعاش في سلطنة بانتن في عهد السلطان أبي المفاخر عبد القادر [١٠٣٧ - ١٠٦٣ هـ /١٦٢٦ - ١٦٥١ م] الذي منحه شريف مكة لقب السلطان سنة ١٠٤٨ هـ /١٦٣٨ م. كان المقاسري على علاقة وثيقة مع ولي العهد الأمير سورية الذي سوف يخلف أباه المفاخر ويصبح اسمه الرسمي السلطان عبد الفتاح المعروف بالسلطان أجينغ تيرتاياسا Ageng Tirtayasa. زار اليمن والحجاز ودمشق حيث التحق فيها بالعالم أيوب بن أحمد ابن أيوب الدمشقي الخلوتي [٩٩٤ - ١٠٧١ هـ /١٥٨٧ - ١٦٦١ م] الصوفي الذي كان يطلق عليه لقب " الأستاذ الأكبر ". ومن دمشق سافر إلى إسطنبول. وبعد عودته إلى بانتن حارب الهولنديين فنفوه إلى سريلانكا ومنها إلى جنوب أفريقيا حيث مات فيها. يقول عنه نيلسون

مانديلا أنه بمثابة أبيه الروحي . (انظر : د. نبيلة لوبيس ، " الشيخ يوسف التاج المكاسري " مجلة " آلو اندونيسيا " العدد رقم ١ ، تموز – يوليو ٢٠٠٠ ، ص ٢٤) .
–عبد الصمد الفاليمباني ، هو سيد عبد الصمد بن عبد الرحمن الجاوي الفاليمباني [١١١٦هـ – ١٧٠٤ م] تلقى علومه الدينية الأولى في " كيدة Kedah " [ماليزيا حاليا] و " فطاني Fattani " [مدينة في تايلاند حاليا] ثم تابعها في الحجاز . من أشهر كتبه " سير السالكين " . استشهد في الحرب ضد تايلاند [١٢٠٣ هت – ١٧٨٩ م] .
– انظر : د. أزيومردي أزرا ، " شبكة العلماء "، صفحات ١٤١ – ١٦٣ – ١٨٤ – ٢١٤ .

(١٩) سبق وأن أشرنا إلى أسماء كبار الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين زاروا وشاهدوا وكتبوا عن الجزر الإندونيسية ، كما أن السجلات الملكية الصينية المحفوظة حتى الآن تشهد بقدم العلاقات بين العرب والفرس من جهة وكلٍ من الصين وجاوا وسومطرة من جهة ثانية .
ويبقى على الدارسين أن ينقبوا في الأرشيفات الهندية القديمة لاستكمال الصورة التاريخية .
– انظر: بدر الدين حي الصيني، " تاريخ المسلمين في الصين "، منشورات دار الإنشاء، طرابلس ، لبنان ١٣٩٤ هـ، و" العلاقات بين العرب والصين " ، منشورات مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – مصر ١٣٧٠ هـ /١٩٥٠ م .
وكان من الطبيعي أن تكون الحوليات الصينية القديمة شاهدة على عمق وقـدم الاتصالات بين بلاد الملايو والمسلمين بحكم كون البوذية والهندوسية هما العقيدتان الفلسفيتان المنتشرتان في أرخبيل الملايو قبيل وصول الإسلام ، كما أن تجارة الصين مع جزر الملايو كانت مزدهرة منذ القدم ، وهناك العديد من ملوك وسلاطين جزر الملايو عقدوا تحالفات قوية مع أباطرة الصين ، لابل إن بعضهم مات في الصين نفسها مثل ملك سولو بيدوكا باتارا Peduka Patara الذي مات في الصين خلال زيارته للإمبراطور في عام ١٤١٧م .
– انظر : " Islam's Advent in the Philippines "، Cesar Adib Majul، مقال منشور في كتاب " Islamic Civilization in the Malay World " الصادر عن IRCICA، إسطنبول ١٩٩٩، ص ٢٧
وانظر أيضاً : Dr Naguib Al-Attas، " A General Theory of the Islamization of the Malay-Indonesian Archipelago " منشورات Dewan Bahasa dan Pustaka ، كوالا لامبور ١٩٦٩ .

(٢٠) وردت في الكتب العربية القديمة أسماء بلدان ومدن عديدة لم تعد مستخدمة في أيامنا هذه مثل الخنساء [وهي ميناء هانغ تشو الصيني] و خانفو [وهي ميناء كانتون الصيني] وجزر الديبجات [وهي جزر المالديف] و جمقا [وهي كمبوديا] وسمطار [وهي مملكة سمودرا في شمال جزيرة سومطرة الإندونيسية الحالية] وشلاهط [وهي اسم للبحر الممتد في خليج البنغال وحتى مضيق ملقـا] وكلابر [وهي قـدح في ماليزيا] والرامني [وهي أتشيه في شمال سومطرة] والزابج [وهي الجزر الإندونيسية الممتدة ما بين سومطرة وسولاويسي] .
– انظر : علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، تحقيق محمد ضياء شهاب ، منشورات عالم المعرفة – جدة المملكة العربية السعودية – ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م ، الصفحات ١٩٢ – ١٩٣ – ١٩٤ .

(٢١) نستدل من المصادر الصينية القديمة ككتاب تاريخ أسـرة هان (٢٠٦ ق م – ٢٢٠ م) وكتاب السجلات التاريخية (٩١ ق م) وكذلك المصادر العربية – لمروج الذهب لأبي الحسن المسعودي، أن هناك اتصالات بين الصين والعرب قبل الإسلام، وأن مـدنا كمدن عمان والحيرة قد ذكرت في المصادر الصينية القديمة، كما رصد وفد من بلاد العراق إلى البلاد الصينية في حوالي عام ١٢٠ م ، وقد قدم الوفد طائر ببغاء هدية للأمبراطور ، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها الصينيون هذا الطائر ولا يزالون يطلقون عليه اسم (ببغا) .

وكان تجار عمان واليمن – سادة البحار في ذلك الوقت – قد أقاموا محطات للاسترشاد على طوال الطريق البحري من موانئ شبه الجزيرة العربية إلى موانئ الصين الجنوبية، بل ان جالية عربية كانت موجودة في مدينة قوانجتشو في جنوب الصين في وقت سابق لعام ٣٠٠ م .

ويؤكد عدد من المصادر التاريخية الصينية والعربية مثل مروج الذهب لأبي الحسن المسعودي أنّ سفن العرب كانت تقوم برحلات مباشرة إلى الصين، كما يعتقد أنه بنهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين كانت سفن الصين تصل إلى مصب نهر الفرات وعدن، بل ان أعداداً كبيرة من العرب والفرس والهنود كانت تقيم في بعض المدن الصينية إبان فترة مملكة وي الشمالية ٣٨٦ – ٥٥٧ م، بالإضافة إلى جالية عربية كبيرة في منطقة لويانغ المعروفة الآن بمحافظة هونان ، كما كان هناك رعايا عرب ضمن رعايا أسرة تانغ [٦١٨ – ٩٠٧ م] وكانت لهم نشاطات تجارية بالإضافة إلى صناعات صغيرة حيث أقاموا مصنعا بمدينة قوانجتشوا وذلك في حوالي عام ٦٢٢ م أي قبل الهجرة .

وتتناقل المصادر التاريخية الصينية خصوصاً مصادر أسرة مينغ الملكية ١٣٦٨ – ١٦٤٤ م ومصادر أسرة تشنغ الملكية ١٦٤٣ – ١٩١٢م كثيراً من القصص والروايات الصينية والأساطير حول دخول الإسلام إلى الصين إذ تنسب هذه المصادر إلى أباطرة أسرة سوي وتانغ أحلاما موحشة يصارعون خلالها شياطين وحيوانات مفترسة عكرت صفو القصر وأرادت شراً بالإمبراطور، وبينما هم في تصديهم ذاك لهذه الأخطار يظهر رجل من اتجاه الغرب يلبس جلباباً أبيض وعمامة و يطارد الشيطان وينتصر للإمبراطور ثم يبتسم ويختفي عائدا باتجاه الغرب .

كما يتحدثون أيضاً عن أحلام للإمبراطور ومشاهدات مسؤول الفلك لنجم مضيء في اتجاه الغرب، يفسره فلكيو القصر للإمبراطور آنذاك بأنه بشارة بظهور رجل حكيم في بلاد العرب وهو النبي محمد (ﷺ). فيرسل الإمبراطور وفـداً للرسول الجديد احتراماً وتقرباً ، حيث يعود الوفد الصيني من رحلته إلى شبه الجزيرة العربية ومعه وفد عربي من صحابة الرسول وفي مقدمتهم الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص مجسّداً أول دخول للإسلام في الصين .

– انظر : د. جعفر كرار أحمد ، " جنوب الصين : العرب كانوا هنا " ، مجلة " العربي " العدد ٥١١ ، يونيو / حزيران ٢٠٠١ م ، الكويت .

(٢٢) تعتبر نوسانتارا Nusantara ، وهو يعني " عالم الجزر " . ومن أسماء إندونيسيا القديمة أيضاً " الهند الكبرى Greater India " .

{انظر : Mohd. Taib Osman، " Islamic Civilization in the Malay World " منشورات اسطنبول ١٩٩٧ PP . XXVI-XXV .

وأما تعبيرا جزر الهند الشرقية East Indies وإندونيسيا Indonesia فهما تسميتان لمسمى واحد هو الجمهورية الإندونيسية اليوم التي تشمل نحو ١٧ ألف جزيرة تمتد بين أستراليا وآسيا. ويعني تعبير إندونيسيا بالضبط " الجزر الهندية "، وقد استعمله للمرة الأولى أحد العلماء الألمان سنة ١٨٨٤ . وقد اختارت الحركة القومية الإندونيسية هذه التسمية وثبتتها اسماً رسمياً للجمهورية الإندونيسية في سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٩ ، وفضلته على تعبير " نوسانتارا Nusantara ". وكانت هذه التسمية الأخيرة تستعمل في النصوص الجاوية في القرن الخامس عشر الميلادي، ثم استخدمها بعض العلماء الهولنديين في أوائل القرن العشرين ليدللوا على مجموع جزائر الهند الشرقية .

– انظر : Bernard Vlekke ، " Nusantara : A History of Indonesia " Bruxelles، ١٩٦١، p. ٦

– وانظر : فيصل السامر ، " الإسلام في إندونيسيا " ، مجلة عالم الفكر ، العدد (١) – ١٩٨٤م الكويت ، ص ٢٠٣ .

(٢٣) يستند كثير من الدارسين في أبحاثهم حول تاريخ وصول الإسلام إلى الجزر الإندونيسية إلى بعض شواهد القبور المنتشرة فيها لبعض الأشخاص المسلمين ، وهي شواهد عليها كتابات قرآنية باللغة العربية. وأقدم هذه الشواهد يرجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي في مملكة كلانتن "*Kelantan*" في زمن الملك المتوكل [١١٦١م] وهي المملكة التي ذكرها الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة في مذكراته وقال أنه اجتمع فيها بأميرة مسلمة في عام ١٢٩٧ م ، كما توجد قبور أخرى ما زالت موجودة حتى الآن في مدينتي " ليران *Leran* " و" ترالايا *Tralaya* " الواقعتين شرق جزيرة جاوا ، وتعود هذه القبور إلى القرن الثاني عشر الميلادي وعلى شواهدها كتابات باللغة العربية. ولكن أشهر تلك القبور قاطبة هو قبر سيدة مسلمة تدعى فاطمة بنت ميمون بن هبة الله ، حيث تدل الشاهدة على أنها توفيت عام ١١٠٢ م ويوجد قبرها في شمال شرق جزيرة جاوا. ويعتبر المؤرخون هذا القبر أقدم أثر إسلامي في إندونيسيا، وبالتالي فهم يقولون: إنّ الإسلام قد وصل إلى إندونيسيا في القرن الثاني عشر الميلادي لا بعده، بل إن الكتابة بالخط الكوفي المنقوشة على شاهدة قبر فاطمة تطرح على الباحثين مشكلة أخرى حيث يعتقد البعض من الباحثين أن الشاهدة قد تم جلبها من مدينة " غوجرات" الهندية للدلالة على أن الإسلام جاء أولاً من الهند لا عن طريق التجار العرب القادمين من حضرموت والعراق ، في حين يقول باحثون آخرون: إن الخط الكوفي قد شهد ذروة ازدهاره في العصر السلجوقي وأن الكتابة الموجودة على شاهدة القبر مماثلة لكتابات أخرى بالخط الكوفي أيضاً وُجدت على شواهد قبور أخرى في منطقة " بانرانغ *Panrang* " جنوب كمبوديا ، وإحداها تحمل اسم أحمد بن أبي إبراهيم بن أبي عراضة راهدار الياس أبو كامل ، وتشير إلى أنه توفي في عام ١٠٣٩ م.

– انظر : Uka Tjandrasasmita ، " *The Coming and Spreading of Islam in Indonesia* " محاضرة ألقيت في الندوة الدولية المنعقدة في جاكرتا في ١٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٩ . والمهم أيضاً، في هذا المجال، أي في مجال شكل الخط المستخدم على شواهد قبور المسلمين في جنوب شرق آسيا أن بعض الأبحاث التي أجريت حوله قد أشارت إلى ان الكتابة على الشواهد كانت نوعين اثنين هما: الخط الكوفي العربي وخط التعليق والنستعليق اللذان كانا يستخدمان في كل من تركيا وايران والهند. والخط الكوفي هو الذي استخدم على شاهدة قبر فاطمة بنت ميمون، في حين أن خط التعليق والنستعليق أُستخدما على شاهدة قبر أحد الأولياء التسعة المشهورين مالك إبراهيم المدفون في مدينة غرسيك في عام ١٤١٩ م – ٨٢٢ هـ .

– انظر : Uka Tjandrasasmita ، " *The Arrival and Expansion of Islam in Indonesia* " بحث منشور في كتاب " *Islamic Civilization in the Malay World* " الصادر عن مركز IRCICA ، إسطنبول ١٩٩٩ ، الصفحة ٥٤ .

(٢٤) " سامودرا باساي وبيديه *Samudra Pasai and Pidie* " تقع في أقصى شمال شرق جزيرة سومطرة وكانت من أهم المراكز التجارية الدولية في أرخبيل الملايو في القرن ١٣ م لتصدير مادتي الحرير والبهارات . ويقول بعض المؤرخين: إنّ العديد من المدن التجارية الهامة الواقعة في شمال سومطرة مثل " باروس *Barus* " على الشاطئ الغربي و" رامني *Ramni* " إلى الشمال من سومطرة كانتا تابعتين لـ " سامودرا باساي و بيديه ". المراجع الملايوية تختصر تسمية " سامودرا باساي و بيديه " إلى " باساي *Pasai* " فقط . وأما التجار الهنود والعرب والإيرانيون فهم يطلقون عليها اسم " سامودرا باساي ". وكلمة " سامودرا " من أصل هندي وتعني "المحيط Ocean " . وقد أشار الرحالة البرتغالي توم بيريس Tom Pires في مذكراته إلى أن سامودرا باساي كانت تصدر ما مقداره ١٠٠٠٠ باهار من البهارات كل سنة. واعتادت باساي أن تدفع جزية للصين منذ القرن ١٣ م مقابل حماية الإمبراطور الصيني لها. وتشير حوليات سلالة "يوان"

الصينية [١٢٨ – ١٣٦٧ م] أن ملك سامودرا قد أرسل سفراء إلى " كيلون Quilon" على الشاطئ الهندي الغربي في عام ١٢٨٢ م أي قبل وصول ماركو بولو إلى المنطقة بعشر سنوات.
– انظر: Ibrahim Alfian: " Samudra Pasai ، " in " Indonesian Heritage - Early Modern History " ، Archipelago Press، Edition Didier Millet، Singapore ١٩٩٦، pp. ٤٨ – ٤٩ .

(٢٥) عندما سقطت ملقـا Melaka أو Malaka بيد البرتغال في عام ١٥١١ م ثم بيد الهولنديين لاحقا في العام ١٦٤٢ م ، لم تكن سلطنات بروناي وسولو وجاوا الإسلامية في وضع يسمح لها بتسلم الزعامة الإسلامية في الأرخبيل الاندونيسي ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لمناطق نفوذ اسلامية مثل بورما و سيام لأن الإسلام هناك لم يكن يشمل أنظمة الحكم، وهذا الأمر دفع التجار والدعاة المسلمين إلى التوجه إلى مناطق أخرى وخاصة إلى أتشيه Aceh [شمال جزيرة سومطرة] و" جوهور لاما Johor Lama" [أقصى جنوب غرب ماليزيا الحالية] التي فر إليها آخر سلاطين ملقا المسلمين محمود شاه بعد سقوط ملقا بيد البرتغال. ونظرا لسيطرة البرتغال والهولنديين لمدة قرون على جزر أرخبيل الملايو ، فقد اختفت المراجع المحلية المكتوبة غالباً باللغة العربية من تلك الجزر ، وهذا الأمر أدى إلى ظهور بعض الاختلافات التاريخية بين هذا المرجع أو ذاك . فمثلا هناك خلافات حول ما إذا كان الملك بارا ميسوارا Paramisuara حاكم جوهور هو نفسه إسكندر شاه Iskandar Shah [وفقا للرواية التي كتبها رئيس وزراء جوهور Bendahara Tun Sri Lanang] السلطان المشهور والمحارب القوي الذي تصدى للبرتغال في ملقا. فالمصادر الصينية تشير إلى أن الملك الذي كان يحكم سنغافورة وهرب إلى ملقا يدعى " باليسولا Palisula" ، في حين أن المراجع البرتغالية تطلق عليه اسم " بيرمايسوري Permaisuri " .
– انظر : Hussein Mutalib ، " Islamic Malay Polity in Southeast Asia "
بحث منشور في : " Islamic Civilization in the Malay World " ، منشورات IRCICA، إسطنبول ١٩٩٧ ، ص ٢٢ .

(٢٦) يتفق معظم الباحثين على أن منطقة شمال شرق سومطرة كانت أولى المناطق في الأرخبيل الاندونيسي التي اهتدت إلى الإسلام . ويشهد الرحالة الإيطالي ماركو بولو الذي زار المنطقة في عام ١٢٩٢ أنه من أصل الممالك الثمانية الموجـودة انذاك في تلك المنطقة كانت " فيرلاق Perlak " المملكة الوحيدة التي تدين رسمياً بالإسلام .انظر : Azyumardi Azra، " Education، Law، Mysticism : Constructing Social Relaties " المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٧) كانت أتشيه التي تقع في أقصى شمال جزيرة سومطرة قاعدة التجارة الإسلامية في جنوب شرق آسيا في القرن ١٦ م ، وأتشيه هي واحدة من عدة مـدن تجارية كانت قائمة في شمال وشرق جزيرة سومطرة مثل " بدير Pedir " و" بيرلاق Perlak " و " آرو Aru " و " ساماراSamara "، وتعرف بمجملها باسم " سامودرا باساي " . وقد لعبت أتشيه دورا هاما في نشر الإسلام في أرخبيل الملايو . أول سلطان مسلم لـ " باساي " كان السلطان الملك الصالح مؤسس الحضارة الإسلامية في عالم الملايو ، وكان لقبه قبل ذلك زعيماً Gampang Samudra واسمه الحقيقي " مراح سيلو Marah Silu " وقد ورد ذكره كثيرا في الحوليات الملايوية باسم " شجرة الملايو Sejarah Melayu ".

ومن سامودرا باساي انتقل الإسلام إلى " ترينغانو " المعروفة اليوم باسم ماليزيا وذلك في القرن ١٤ م . من أهم سلاطين أتشيه علي مغيث شاه الذي وحّد السلطنة [١٥٢٠م] ، وعلاء الدين رعايت شاه القهار [١٥٣٩ –١٥٧١ م] ، وإسكندر مودا [١٦٠٧ – ١٦٣٦ م] و سلسلة من السلطانات النساء أشهرهن تاج العلم [١٦٤١ – ١٦٧٥ م] .

-انظر : Uka Tjandrasasmita ، " *The Arrival and Expansion of Islam in the Malay World* " ، منشورات IRCICA ، ١٩٩٩ ، الصفحة ٤٧ .

(٢٨) بعد سقوط ملقا في يد البرتغال ، أصبحت بروناي عنصرا هاما في نشر الإسلام في شرق جزر الملايو حتى جزيرة لوزون وسيبو وأوتان [الجزر الفيليبينية حاليا] وغيرها. أما من جهة الغرب فقد أضحت أتشيه تحل محل ملقا . وأصبح الإسلام مستقرا في مملكة " ماجاقاهيت " في عهد الملك " كارتاويجايا " مابين عامي ١٤٤٧ – ١٤٥١. [راجع كتاب " *Preliminary Statement on a General Theory of the slamization of the Malay-Indonesia Archipelago* " للدكتور سيد نجيب العطاس ، طبع " مجمع اللغة والمكتبة " كولا لامبور ١٩٦٩ ، ص ١٣] .

وكان الإسلام قد استقر أيضا في جزر الملوك بما فيها جزيرتا أمبون و باندا خلال عام ١٥٢١م [المرجع نفسه ، ص ١٤] .

وعموما فان القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد شهدا انتشارا سريعا للاسلام في جنوب شرق آسيا متزامنا مع انتشار المذهب الشافعي الذي حظي بقبول الملوك والمواطنين. و بالنسبة لمجيء الإسلام إلى بروناي ، فكأنه جاء بعد مجيء الإسلام إلى ملقا . فهناك دلائل قوية تفيد أن الإسلام قد جاء إلى بروناي خلال القرن العاشر لكنه لم يحظ بترحاب كثير من المواطنين، اللهم إلا نسبة قليلة من السكان أو التجار المسلمين المتواجدين في بروناي . وقد يرجع سبب البرودة التي قوبل بها الإسلام في بروناي آنذاك إلى وجود المنافسة مع نفوذ الديانة الهندوسية التي كان الملايويون قد اعتنقوها منذ فترة بعيدة. وكانت قوة الممالك الهندوسية في القرن العاشر وما بعده جعلت النفوذ الهندوسي يتوسع ويكون عاملا لعرقلة انتشار الإسلام ، إلى أن جاء القرن الثالث عشر عندما تراجعت قوة الممالك الهندوسية والبوذية فبدأ الإسلام ينال مكانا في نفوس سكان جنوب شرق آسيا بما في ذلك بروناي . هذا طور من أطوار انتشار الإسلام في بروناي. وفي الطور الثاني بدأ الإسلام يحظى بترحاب الملوك ومعظم الشعب مما أدى في النهاية إلى ظهور سلطنة ملايوية إسلامية في بروناي. وبدأ الطور الثالث بعملية نشر الإسلام على نطاق واسع من بروناي إلى المناطق المجاورة مثل الفيلبين والمناطق الساحلية لجزيرة بورنيو [كليمنتان]. وقد حدث هذا في القرن السادس عشر. وقد أخطأ بعض الباحثين عندما قالوا: إن هذا الطور [المرحلة] هي المرحلة التي تشهد مجيء الإسلام ، مع أن الإسلام في بروناي في هذه المرحلة قد حصل على " السيادة العالية " . [انظر كتاب " الإسلام في بروناي وعلاقته بـــ " *Nusantara* " للأستاذ محمد بن عبد الرحمن ، مجلة " الدعوة " كولا لامبور ، ماليزيا ، شهر شباط ١٩٨٦ صفحة ٣٥]. ولما كان الإسلام قد أصبح دينا للملك والرعية ظهرت مع ذلك دولة جديدة تعرف بـــ " Negeri Brunei " كسلطنة ملايوية اسلامية وذلك في القرن الخامس عشر عند اعتناق السلطان محمد [أوانغ ألاك باتتار Awang Alak Betatar] الدين الإسلامي .وتستمر هذه السلطنة إلى الآن .

ومن السلاطين البروناويين الذين حكموا بروناي منذ تأسيس سلطنة بروناي ولهم الفضل في نشر الإسلام وتطبيق قواعده: السلطان محمد شاه [أوانغ ألاك باتتار ١٣٦٣ – ١٤٠٢] ، السطان عبد المجيد حسن [١٤٠٢ – ١٤٠٨]، السلطان أحمد [١٤٠٨ – ١٤٢٥] ، السلطان شريف علي [١٤٢٥ – ١٤٣٢] ، السلطان سليمان [١٤٣٢ – ١٤٨٥] ، السلطان بلقية [١٤٨٥ – ١٥٢٤]، السلطان عبد القهار [١٥٢٤ – ١٥٣٠] ، السلطان سيف الرجال [١٥٣٠ – ١٥٨١]، السلطان شاه بروناي [١٥٨١ – ١٥٨٢] ، السلطان محمد حسن [١٥٨٢ – ١٥٩٨] ، السلطان عبد الجليل الأكبر [١٥٩٨ – ١٦٥٩]، السلطان عبد الجليل الجبار [١٦٥٩ – ١٦٦٠] ، السلطان الحـــاج محمد علي [١٦٦٠ – ١٦٦١] ، السلطان عبد الحق المبين [١٦٦١ – ١٦٧٣] ،

السلطان محيي الدين [١٦٧٣ – ١٦٩٠] ، السلطان نصر الدين [١٦٩٠ – ١٧١٠] ، السلطان حسين كمال الدين [١٧١٠ – ١٧٣٠] ، السلطان محمد علاء الدين [١٧٣٠ – ١٧٣٧] ، السلطان عمر علي سيف الدين الأول [١٧٤٠ – ١٧٩٥] ، السلطان محمد تاج الدين [١٧٩٥ – ١٨٠٤] [١٨٠٤ – ١٨٠٧] ، السلطان محمد كنز العالم [١٨٠٧ – ١٨٢٦] ، السلطان محمد عالم [١٨٢٦ – ١٨٢٨] ، السلطان عمر علي سيف الدين الثاني [١٨٢٨ – ١٨٥٢] ، السلطان عبد المنعم [١٨٥٢ – ١٨٨٥] ، السلطان هاشم جليل العالم أقام الدين [١٨٨٥ – ١٩٠٦] ، السلطان محمد جمال العالم الثاني [١٩٠٦ – ١٩٢٤] ، السلطان أحمد تاج الدين [١٩٢٤ – ١٩٥٠] ، السلطان الحاج عمر علي سيف الدين الثالث [١٩٥٠ – ١٩٦٧] ، و السلطان الحاج حسن البلقية [١٩٦٧ – .....]. { راجع كتاب " خلفية تاريخ بروناي " للدكتور الحاج أوانغ محمد جميل السفري ، هيئة التاريخ الوطني البروني ، ١٩٩٠ ، ص ٣٣ } .

–انظر : Prof. DR. Dato Haji Mahmud Saedon Awang Othman ، " *Di Negara Brunei Darussalam : Satu Tinjauan* "

بحث ألقي في افتتاح مؤتمر أكاديمية الفقه الإسلامي في مدينة بروناي دار السلام بتاريخ ٢١ حزيران / يونيو ١٩٩٣ .

انظر أيضاً : " Cesar Adib Majul "Islam's Advent and Expansion in the Philippines بحث منشور في كتاب IRCICA المعنون بـ " *Islamic Civilization in the Malay World* " ، إسطنبول ١٩٩٩ ، ص ٢٢ ، حيث يشير المؤلف إلى أن سفن التجارة البحرية بين الصين وكل من بروناي والفيليبين كانت بيد التجار العرب المستوطنين في مدينتي كانتون والخنساء على ساحل الصين الجنوبي . ويورد المؤلف أن Pu - Ni وهو الاسم القديم لبروناي أو بورنيو برايه] قد أرسلت في القرن ١٠ م [عام ٩٧٧ م] سفارة إلى الصين يرأسها شخص يدعى Pu - Ali [أبا علي]، كما أن تاجراً مسلماً جاء من كانتون في الصين إلى بروناي قبل ذلك التاريخ بعام واحد أي في عام ٩٧٦ م ويدعى Pu-Lu-hsieh [أبا رشيد] .

(٢٩) توماسيك Tumasik هو الاسم القديم لسنغافورة ، كان يحكمها ملك مسلم يدعى " بارامسيوارا Parameswara " حاول التخلص من هيمنة مملكة سيام القوية التي كانت عاصمتها " أيوتايا Ayuthaya " قد فرضت سلسلة من الأحلاف الاستراتيجية على مجموعة من الممالك الإسلامية الأخرى مثل " كيده Kedah " و " كلانتان Kelantan " و " ترينغانو Terengganо " و " فاهانغ *Pahang* " وتوماسيك نفسها . ولكن بارامسوارا فشل في محاولته الانقلاب على التحالف المفروض مع مملكة سيام فاجتاحت جيوش سيام توماسيك وهرب بارامسوارا إلى ملقا حيث أسس مملكة مزدهرة وقوية وتحالف مع الصين ضد سيام ، لا بل إنه أقام علاقة صداقة متينة مع القائد العسكري البحري الصيني المسلم الأدميرال (تشانغ هو) Cheng Ho .

–انظر : Hussin Motalib ، " *Islamic Malay Polity in Southeast Asia* "

بحث منشور في الكتاب المرجعي المعنون بـ: " Islamic Civilization in the Malay World "منشورات IRCICA ، إسطنبول ١٩٩٧ ، ص ١٢ – ١٣ .

(٣٠) ترينغانو هو الاسم القديم لماليزيا، ومن أوائل المناطق التي انتشر فيها الإسلام في أرخبيل الملايو ، مشهورة بالحجر الذي وجد فيها " *Trengganu Stone* " الذي يعود لعام ١٣٠٣ م والذي يدل على أن الإسلام كان مطبقاً فيها رسمياً في ذلك التاريخ .

–انظر : المرجع السابق نفسه ، ص ٤٠ .

(٣١) مملكة إسلامية ازدهرت في القرن السادس عشر وتقع في الشطر الشرقي لماليزيا حالياً، من أشهر ملوكها السلطان عبد الغفور محيي الدين شاه [١٥٩٢ – ١٦١٤ م].

(٣٢) "ديماك *Demak* " مملكة إسلامية قوية أقيمت في جزيرة جاوا في القرن الخامس عشر الميلادي ، كانت منطقة " غيري *Giri* " قرب " غرسيك *Gresik* " من أوائل المناطق التي نشط فيها أول الأولياء التسعة " سونان أمبيل *Sunan Ampel* " وبعده " مولانا مالك إبراهيم *Malik Ibrahim*. ومن هذه المنطقة انتقل الإسلام إلى ديماك و " ماتارام *Mataram* " و"بانتن *Banten* " و " تشريبون *Cirebon* " . بدأ ظهور الإسلام في ديماك في القرن ١٣ م على شكل جيوب للمسلمين العرب والايرانيين والصينيين والهنود ، ومع مرور الزمن تحولت ديماك إلى سلطنة إسلامية قوية في بداية القرن ١٦ م وكانت أول سلطنة اسلامية تقام في جزيرة جاوا ، وقد حصل ثالث ملك من ملوكها وهو *Pangeran Trenggono* على لقب سلطان في عام ١٥٢٤ م وحمل منذئذ اسم أحمد عبد العارفين .وقد لعبت ديماك دوراً هاماً في سقوط مملكة ماجافاهيت *Majapahit* الهندوسية . ويعتبر مسجد ديماك من أهم وأقدم المساجد الموجودة في جزيرة جاوا الإندونيسية حتى الآن .

انظر : Azyumardi Azra ، " *Mysticism ; Constructing* Social Relaties، *Law*، *Education* " بحث منشور في كتاب " Islamic Civilization in Malay World "، الصادر عن مركز IRCICA ، اسطنبول ١٩٩٧ ، ص ١٨٣ .

(٣٣) مع وصول البرتغاليين إلى جاوا ، كانت منطقة " السُندا Sunda [أي غرب جزيرة جاوا] خاضعة لسيطرة مملكة " فاجاجاران Pajajaran " الهندوسية البوذية المتمركزة حول مدينة " بوغور *Bogor*" الحالية . وزار البرتغاليون ميناءين فقط من موانئ السندا وهما " سندا كلابا *Sunda Kelapa* " [جاكرتا حاليا] و" بانتن *Banten* " البعيدة حوالي ١٠٠ كم باتجاه الغرب من جاكرتا . وعقد البرتغاليون معاهدات تجارية مع الميناءين في عام ١٥٢٢ م . ولكن بعد ذلك بخمسة أعوام سيطر المسلمون القادمون من ديماك على بانتن وألغوا كل امتياز للبرتغاليين فيها وأسسوا سلطنة إسلامية بزعامة القائد الديني شريف هداية الله المعروف محلياً باسم "Wali Sunan Gunung Jati " وهو أحد الأولياء التسعة. وقد عين شريف هداية الله ابنه حسن الدين حاكما على بانتن. تحولت بانتن إلى أهم ميناء تجاري لتصدير البهارات إلى الصين حوالي عام ١٥٥٠ م. في عام ١٥٩٦ م حاول السلطان محمد ، سلطان بانتن أن يحتل مدينة " فاليمبانغ Palembangولكنه قتل أثناء المحاولة فحل مكانه السلطان عبد القادر الذي بلغت السلطنة عهدها الذهبي في عهده. وفي العام نفسه، أي ١٥٩٦ م وصلت أولى السفن الهولندية إلى بانتن بقيادة كورنيليو دي هوتمان Cornelis de Houtman. في عام ١٦٢٨م أسس الإنكليز قاعدتهم التجارية الكبرى في جنوب شرق آسيا في بانتن .

انظر: Hasan Muarif Ambari، " Banten : from Pepper Port to Emporium " ، " The Indonesian Heritage - Early Modern History " ، pp. ٥١-٥٠

(٣٤) تقع " فطاني Pattani " في شمال ماليزيا ، بين البحر الصيني الجنوبي شرقا والمحيط الهندي غربا وتايلاند شمالاً . سكانها مسلمون يتحدثون لغة الملايو ، حياتهم شبيهة بما عليه المسلمون في ماليزيا وجنوب شرق آسيا، يعيشون في مجتمع تعاوني في أعيادهم ومأتمهم وفلاحة الأرض وبناء المساكن وغير ذلك. وطالما حاولت تايلاند [سيام] من زمن بعيد أن تسيطر عليها، وشنت عليها الحروب سنين طويلة، فارتدت خاسرة ، ولكنها في الأخير تمكنت منها. كانت إمارة عليها حاكم مسلم واسمه سليمان، فزحف عليها عدوها وقتل حاكمها وتشتت سكانها، ثم قامت دولة فطاني في القرن الرابع عشر، وأول ملوكها سري وانغسا Sri Wangsa، ثم ابنه محمد المعاصر لمملكة باساي في سومطرة الشمالية، وهاجر كثير من مسلمي باساي إلى فطاني، من بينهم الشيخ صفي الدين الملقب " راج فقيه " [أي سلطان الفقهاء] فكان ذا فضل في نشر الإسلام ووضع

الأنظمة. كانت التجارة رائجة والبلاد عامرة والوافدون كانوا من مختلف الأوطان ، من سيام والصين وجاوا والهند وبلاد العرب وغيرها .
توفي السلطان محمد فتولى ابنه الملك المظفر، ثم تولى الملك سلاطين باختيار الشعب، ولكن سيام أرادت التوسع فأرسلت قواتها لحرب فطاني، المرة بعد الأخرى، فخابت. وفي حين كانت فطاني تتقدم قوة وتجارة وزراعة وعمراناً ، بل كانت تصنع آلات القتال، واشتهرت بصناعة المدافع الضخمة وبيعها، وزارها بعض الغربيين فأعجبوا بتقدمها وعمرانها، كانت سيام لم تخفف جشعها وطمعها في هذه البلاد الغنية. وبعد حروب دامت سنين تمكنت من السيطرة عليها، واتخذت القسوة واضطهاد المسلمين شعارا وأجبرتهم على التسمي بأسماء سيامية واتخاذ ثقافتها وعاداتها، فقامت ثورة ضدها بعد ثورة يقوم بها رجال الدين الذين قدموا الشكاوى إلى الهيئات الدولية ، فلم يأت ذلك بنتيجة، ومازال الضغط والقوة والقسوة هي الحاكمة ، وهناك حركة تحرير وطنية إسلامية تعرف بحركة فطاني .
-انظر : علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، تحقيق محمد ضياء شهاب ، منشورات عالم المعرفة – جدة – المملكة العربية السعودية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٠٨ .

(٣٥) في عام ١٤٠٩ م زار القائد الصيني البحري المسلم الأدميرال " تشينغ هو Cheng Ho " سلطنة ملقا، وكان التجار المسلمون يأتون إليها من بلاد العرب والهند وفارس للتجارة والدعوة، فيجدون لهم بها إخواناً في الدين وحكومة ترعى الإسلام ويرعاها، فيطيب لبعض القادمين الاستيطان.
{انظر د. نبيلة لوبيس ، " الرحالة الصيني المسلم " ، مجلة " ألو إندونيسيا " ، العدد رقم ٢١ ، تموز/يوليو ٢٠٠١ ، الصفحة ٤٨ } .
استطاعت سلطنة ملقا أن تحافظ على مكانتها وتحمي نفسها وتتعايش سلمياً مع سيام ولو مؤقتاً. وفي ذلك الوقت اتسع نطاق دولتها في شبه الجزيرة وسومطرة الشرقية وسيطرت على مضيق ملقا. وفي عهد السلطان عبد الله [منصور شاه] ابن السلطان قاسم [مظفر شاه] عام ١٤٥٩م أقيمت ندوة للعلماء المسلمين للبحث في كل مايعود بالمنفعة على البلاد في ظل الحكم الإسلامي، مما يدل على نفوذ العلماء في البلاد، في حين كان الإسلام ينتشر إذ ذاك بقوة في جنوب شرق آسيا.
توفي السلطان محمد عام ١٤١٤ م فتولى ابنه إسكندر شاه [١٤١٤ – ١٤٢٤ م] وأول عمل قام به رحلته إلى الصين ليجدد عهد الصداقة، وكان معه سلطان باساي وسلطان بروناي الذي توفي بالصين . ورحل مرة ثانية إلى الصين عام ١٤١٩م، وتولى بعده ابنه قاسم [مظفر شاه ١٤٢٤ – ١٤٤٤ م] وعرف بعدالته وحسن توزيعه للأعمال فعمرت البلاد وازدادت حركتها التجارية. ولكن جارتها سيام كانت تقف لها بالمرصاد يحدوها الجشع في امتلاك أراضي الغير فبعث ملك سيام Para Chauwasi إنذاراً لهذه الدولة للاعتراف بالخضوع لها ، فكان الرد الرفض، فجهزت سيام قوة لحربها فدافعت عن نفسها وردت العدو المعتدي مهزوماً ، ثم بعث بقوة أخرى فعادت خائبة .
وتولى بعده عبد الله [منصور شاه ١٤٤٤ – ١٤٧٧م] ابن السلطان مظفر شاه ، وبدأ يطرد بقايا جنود سيام من " فاهانغ *Pahang* " واستعاد فاهانغ وأسر نائب ملك سيام وجيء به إلى ملقا فأكرمه السلطان ، وبعث السلطان إلى ملك سيام يدعوه إلى السلم فعاد السلام. وطلبت بعض مناطق سومطرة حماية ملقا لها فحمتها ، واستولت على بعضها بالقوة ، وبذلت ملقا جهداً لدعوة الذين لم يسلموا بعد ، وأرسلت الدعاة، وحين تأسر الأسرى ترغبهم في الإسلام . وامتد نفوذها

إلى معظم شبه جزيرة الملايو وأنحاء سومطرة، وهاجر إليها كثير من المسلمين لينعموا في ظلالها فتستقبلهم هذه الدولة وتكرمهم.

كان في ملقا هنود وأفغان وعرب ، وانتشرت علوم الإسلام وبحوث العلماء في الأحكام والتصوف وفيهم علماء كانوا في باساي الشهيرة ، وكان المسلمون القادمون يشاركون في هذه البحوث كما اشتركوا في شؤون أخرى في هذه الدولة . وتولى السلطان علاء الدين رعاية شاه من عام ١٤٧٧ إلى ١٥١١ م وبعده السلطان محمود آخر سلاطينها .

في عام ١٥٠٩ م وصلت سفن برتغالية بقيادة Diego Lopez de Sequeira إلى ملقا فاستقبلها رئيس الوزراء بالترحاب ، فنبهه السلطان والشعب إلى خطئه فخضع لرغبة الشعب، ولكنه ارتكب خطأ آخر إذ حاول اعتقال جميع البرتغاليين، فهاجم المسلمون البرتغاليين، وتمكن بعضهم من الهرب ووقع آخرون في الأسر . في عام ١٥١١ م هاجم البرتغاليون ملقا فارتدوا خائبين، وكانت نار الحماس تلتهب في نفوس المسلمين، وعاد العدو يجر أذيال الخيبة إلى " غوا" مستعمرتهم في الهند .

وبعد حرب ضروس استولى البرتغاليون على ملقا بعد أن خطب ألفونسو البوكيرك في جنده قائلا: " إذا تمكنا من طرد العرب من هذه البلاد فقد أدينا عبادة لله بحيث تخمد تعاليم محمد محمد إلى الأبد . إنني واثــق بأننا لو سيطرنا على هذه البقعة فستكون مصر ومكة بلاداً قاحلة من السكان " ، وأبلغ مليكه بنجاح سعيه وأن الطريق إلى مكة مقطوعة وأن العرب جميعهم قد قتلوا وأن ملكهم هرب. لم يهدأ بال السلطان محمود فقام بردود فعل مبكرة على العدو ولكنه لم يحالفه النصر ، وأعاد الكرة مراراً وحشد الجيوش حتى اضطر إلى أن يجعل عاصمة ملكه " جوهور " التي هي جزء من سلطنة ملقا ، ولم يجد من حكومة الصين ما كان يأمله .

وظهرت في الساحة دولة آتشيه واستولت على جميع مناطق سومطرة الشرقية في سبيل توحيد البلاد وتوسيع نطاقها ، مع أن هذه المناطق تابعة لدولة ملقا ، فاصطدمت الدولتان المسلمتان، ولكن آتشيه هاجمت البرتغاليين في ملقا ١٤ مرة ، وصارت تحارب على جهتين: جهور المسلمة وملقا المحتلة، مع أن كلا منهما تحارب عدواً مشتركاً ، واستولت آتشيه على جوهور وأسرت سلطانها ثم أعادته إلى حكم بلاده في عاصمة جديدة هي " باتوساوار ". وقامت هولندا بالتعاون مع جوهور لحرب البرتغال ، وسقطت ملقا بأيدي الهولنديين ، ثم أخذت هولندا تتدخل وتعمل لمصالحها في استخراج الرصاص من منجم " فيرلاق " فحدثت بين المسلمين خلافات ، فانتهزت هولندا الفرصة وانحازت إلى بعض الإمارات وتحصلت على امتيازات .

(٣٦) ان النظريات العلمية المتعلقة بكيفية وصول الإسلام إلى إندونيسيا مستقاة من مصادر صينية وخاصة الحوليات المسماة: Hsim Tang Shu التي ذكرت مثلا أنه في عام ٦٧٤ م كان " التاشي Ta - Shih " وهو الاسم الصيني للعرب يزمعون مهاجمة مملكة Ho - Ling التي تحكمها الملكة Sima، وهناك مصدر ياباني يعود للعام ٧٤٩ م يشير إلى أن عددا من سفن " البوسي Po - Se " [وهو الاسم الصيني القديم للفرس الإيرانيين] والتاشي كان يرسو في ميناء خانفو [كانتون Khonfu] . كما أن الحوليات المسماة آنفا تذكر تجمعات التاشي في الصين في عام ١١٧٨ م . والمهم في مسألة الاستشهاد بالمصادر الصينية القديمة هو أن الكثير من الباحثين يعتقدون أن الصين نفسها كانت محطة رئيسية في مجيء الإسلام إلى أرخبيل الملايو عبر بحر الصين الجنوبي إلى الفيليبين و بورنيو ، وعبر مضيق ملقا إلى ماليزيا و إندونيسيا .

-انظر : "The Arrival and Expansion of Islam in Indonesia «Uka Tjandrasasmita"

في كتاب IRCICA المعنون بـ: " Islamic Civilization in the Malay World "

منشورات IRCICA ، إسطنبول ١٩٩٩ ، ص ٤٥ .

والواقع أن ذكر الصين قديم في لسان العرب حتى أن الرسول محمداً (ﷺ) قد ذكرها بالاسم في قوله المشهور: " أطلبوا العلم ولو في الصين " ، وهو أمر له دلالته لأنه يؤكد معرفة العرب بالصين معرفة جيدة في فترة الجاهلية وصدر الإسلام .

ويثبت في تاريخ الصينيين أن القوافل التجارية لم تقف بمعاملاتها في الصغد أو خيـوا [عاصمة الدولة الساسانية] أو سمرقند بنصف الطريق إلى الصين ، بل كانت لهم رحلة سنوية منظمة إلى عواصمها . وقد أشار مؤرخ الصين [شي ما جيان] في الفصل نفسه ، إلى زيارات القوافل التجارية لقاعدة الإمبراطورية الصينية قائلاً: إن التجار من البلاد الغربية يردون سنويا ، في جماعة يكون عددها في بعض الأحيان زائدا عن المائة، وفي أحيان أخرى ، أقل من ذلك وقد يكون في عشرات فقط، وقد يكون في بضع مئات [قوافل]. و [البلاد الغربية] ولو أن المراد بها في تاريخ الصين القديم غير واضح، تشمل على أغلب الظن بلاد العراق وأرمينيا والشام ، فمن المحتمل إذن أن تجار العراق أو الشام قد زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التي كانت تتردد إلى " سي آن " بين حين وآخر .

ومن كثرة تردد قوافل التجار إلى الصين برا، فُتح الطريقان المنظمان على ظهر الجبال بأسيا الوسطى، وترتبط بهما عواصم الصين بعواصم البلاد المجاورة لها، ويعرف أحد الطريقين في الكتب الجغرافية باسم " نان لو " أي الطريق الجنوبي والأخر باسم " بيلو " أي الطريق الشمالي، وكانت المحطة الابتدائية لكل واحدة منها هي مدينة " سي آن " ، والمحطة النهائية هي مدينة " خيوا " ، عاصمة الدولة الساسانية . وقد اشترك هذان الطريقان في محطات " لانشو Lan-Chow"

احتكار تجارة اليواقيت على اختلاف أنواعها و الزمرد وعيون الهرة واليصب وفرخ جمر واللازورد والعقيق وغيرها من الأحجار الكريمة .
ولا ريب في أن السوريين كان لهم باع طويل في التجارة البحرية مع تجار الصين والهند واكتسبوا فيها من ناحيتين: ناحية التصدير وناحية التوريد، لأنهم كانوا يبيعون صادراتهم في خليج فارس أو عدن إلى تجار الصين، وهم لايعرفون قيمتها الأصلية، بثمن مضاعف، ثم ضاعفوا قيمة الواردات في أسواق الشام لجهل أهلها بأصل الثمن، ومن المعلوم أن أهم الواردات من الصين في ذلك الوقت كان الحرير على اختلاف أنواعه وقيل أنهم باعوه في أسواق الشام بالذهب على قاعدة " الوزن بالوزن " .
انظر : بدر الدين حي الصيني ، " العلاقات بين العرب والصين " ، منشورات مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م ، الصفحات من ١٠ولغاية ١٥ . وانظر أيضاً : فيصل السامر ، " الإسلام في إندونيسيا " ، بحث منشور في العدد رقم (١) من مجلة " عالم الفكر " الكويتية الصادرة في عام ١٩٨٤ ، الصفحات من ٢٠٤ ولغاية ٢٠٩ .

(٣٧) يعتبر الأولياء التسعة أو " والي سونغو Wali Songo " رؤساء الدعوة الإسلامية في أرخبيل الملايو ، وهم في صلب الدراسة التي بين أيدينا لأنهم يعتبرون بمثابة العمود الفقري لنشر الدين الإسلامي في جنوب شرق آسيا. ورغم اختلاف الروايات بشأنهم ، فإن من المؤكد أنهم يتحدرون من أصول عربية حجازية ترقى إلى العترة النبوية الشريفة عن طريق السيدة فاطمة الزهراء {ر} ابنة الرسول محمد (ﷺ) كما هو واضح في شجرة نسب مولانا مالك إبراهيم الذي يعتبر أول الأولياء التسعة قدوماً إلى إندونيسيا:
سلسلة مولانا مالك إبراهيم :

[١] الرسول (ﷺ) [٢] السيدة فاطمة الزهراء (ر)
[٣] سيدنا الحسين (رضي الله عنه) [٤] الإمام علي زين العابدين(رضي الله عنه)
[٥] الإمام محمد الباقر (رضي الله عنه) [٦] الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه)
[٧] الإمام علي العريضي (رضي الله عنه) [٨] الإمام محمد النقيب (رضي الله عنه)
[٩] الإمام عيسى الرومي (رضي الله عنه) [١٠] الإمام أحمد المهاجر (رضي الله عنه)
[١١] الإمام عبيد الله (رضي الله عنه) [١٢] الإمام علوي (رضي الله عنه)
[١٣] الإمام محمد (رضي الله عنه) [١٤] الإمام علوي (رضي الله عنه)
[١٥] الإمام علي خالي قاسم (رضي الله عنه) [١٦] الإمام محمد صاحب مرباط (رضي الله عنه)
[١٧] الإمام علوي عم الفقيه (رضي الله عنه) [١٨] الإمام عبد الملك (رضي الله عنه)
[١٩] الإمام عبد الله عظمت خان (رضي الله عنه) [٢٠] الإمام شيخ جلال الدين (رضي الله عنه)
[٢١] الإمام جمال الدين الحسيني(رضي الله عنه) [٢٢] الإمام بركات زين العالم (رضي الله عنه)
[٢٣] مولانا مالك إبراهيم (رضي الله عنه).

– انظر : Habib Zaenal Abidin Asseggaf & Drs. Aburumi Zainal Lc.
" *Sejarah dan Silsilah dari Nabi Muhammad (SAW) ke Wali Songo* ،
منشورات جاكرتا – إندونيسيا ٢٠٠٠ م ، ص ٤٥ .

وفيما يلي نورد أسماء هؤلاء الأئمة التسعة :

١– مولانا مالك إبراهيم [إبراهيم أسمارا] أو سنونان غرسيك *Sunan Gresik*
٢– مولانا رادين أحمد رحمة الله أو سونان أمفيل *Sunan Ampel*
٣– مولانا مخدوم إبراهيم أو سونان بونانغ *Sunan Bonang*
٤– مولانا شريف الدين هاشم أو سونان درجات *Sunan Drajat*

٥- مولانا جعفر الصادق أو سونان قدس *Sunan Kudus*
٦- مولانا محمد شهيد أو سونان كاليجاغا *Sunan Kalijaga*
٧ - مولانا محمد عين اليقين أو سونان غيري - *Sunan Giri*
٨ - مولانا رادين عمر سعيد أو سونان موريا *Sunan Muria*
٩- مولانا شريف هداية الله أو سونان غونونغ جاتي *Sunan Gunung Jati*

انظر : د. علوي شهاب ، في محاضرة ألقاها في جامعة جاكرتا الحكومية في الاحتفال بالذكرى الـ ٣٥ لتأسيس قسم اللغة العربية في الجامعة المذكورة ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ / ١٠ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ م تحت عنوان : " مساهمة الدول العربية في تطوير اللغة العربية وتعميمها كلغة للعالم الإسلامي " .

وإلى جانب هؤلاء الأولياء الذين سبق ذكرهم والمعروفين بـ " والي سونغو " ، هناك أولياء آخرون انتشروا بأرض إندونيسيا ولكنهم أقل شهرة ، وهم :

١ - سُونانْ أتس أغين Sunan Atas Angin
٢ - سونان ولي الله Sunan Waliyullloh
٣ - سونان تمبايات Sunan Tembayat
٤ - سنسان كاديلاغو Sunan Kadilangu
٥ - سونـــان ليمبايونغ Sunan Lembayung
٦ - سونسان فاكالاناكا Sunan Pakalana
٧ - سونـــان غادونغ Sunan Gadung
٨ - سونسان فسينغ Sunan Pesing
٩ - سونـــان فاكوان Sunan Pakuan
١٠- سونان موجو أغونغ Sunan Mojo Agung
١١ - سونـــان بيرابين Sunan Perabin
١٢ - سونان ديماك Sunan Demak
١٣ - سونان لامونغان Sunan Lamongan
١٤ - سونـــان جفارا Sunan Jepara
١٥ - سونـــان كالي جامان Sunan Kali Jaman

وغيرهم من العلماء العاملين الذي أفنوا حياتهم في الدعوة إلى الله ، وكانوا مثالا حياً لقول الرسول (ﷺ) "العلماء ورثة الأنبياء" ، تغمدهم الله بواسع رحمته وأسكنهم فسيح جناته. {انظر: الملحق الخاص في نهاية الدراسة والخاص بنسب كل واحد من الأولياء التسعة}.

(٣٨) هي جزيرة المالديف حالياً .

(٣٩) اختلفت الأقوال والتفسيرات في شأن حقيقة تسمية بلاد " الواق الواق " . فالبعض ، كفيصل السامر، في بحثه المعنون بـ" الإسلام في إندونيسيا " المنشور في العدد رقم /١/ من مجلة " عالم الفكر " الكويتية ، ١٩٨٣ ، يقول إنها ربما كانت الفيليبين أو بورنيو [كاليمنتان] استنادا إلى الحكايات التي نقلها البحارة والرحالة عن مشاهداتهم في جزر الملايو. وبعض هذه القصص تروي حكاية شجر يحمل ثمراً كأنه النساء إذا رأين نور الشمس ومر بين الهواء تقطعت شعورهن ووقعن على الأرض وقضين نحبهن. وتسمى هذه النساء بنساء " البامبو" [انظر: علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٣٦٩]. ويؤيد علوي بن طاهر الحداد قول فيصل السامر في أن الواق الواق هي جزيرة بورنيو [كاليمنتان] الاندونيسية .

وقد ذكر ابن بطوطة في مذكراته قصة رؤيته نساءً، كل واحدة منهن ذات ثدي واحد في جزيرة " سيلان " {ص ٦٠٣} ورؤيته لطائر الرخ أو العنقاء الأسطوري في البحر القريب من جزيرة جاوا الإندونيسية { ص ٦٥٩}. [انظر: ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، منشورات دار إحياء العلوم – بيروت ١٤١٧ هـ/١٩٩٦ م]. وأما د . عادل محيي الدين الألوسي فقد أورد في كتابه المرجعي " تجارة العراق مع إندونيسيا " معلومات تفصيلية مقارنة أكثر حول جزر " الواق واق " حيث يقول: " يحدد البيروني في كتابه " تحقيق ما للهند "، ص ١٦٩ ، مكانها في قمير [أي سيام أو خليج سيام] . أما الزهري فيقول عنها : " هي أكبر جزائر الصين الثمانية وسميت بالواق الواق نسبة إلى شجر يحمل ثمراً كأنه النساء"، { الجغرافية ، ص ١١ } ، أيضاً القزويني الذي يضيف " وتتصل بجزائر زابج " ، { " آثار البلاد وأخبار العباد " ، ص ٣٣ ، و " عجائب المخلوقات " ، ص ٧١} . أما شيخ الربوة فيحدد موقعها " الواق واق الداخلية في المحيط فإنها خلف جبل أصطيفون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين " {نخبة الدهر " ، ص ١٤٠ }. أما بزرك فيقول عنها: "الواق بين سريرة والصين على بعد ٥٠ زاماً من سريرة " ، { " عجائب الهند بره وبحره "، ص ١٩٠ – ١٩١} ، [وسريرة آخر جزيرة لامري وبين سريرة وكله مائة وعشرون {عجائب الهند، ص ١٧٦ }] . وذكر ابن الوردي: " إنها كثيرة الذهب لحد العجب "، {خريدة العجائب "، ص ٨٣ }، أيضا مخطوطة من كتاب في الجغرافية غير مرقمة وهي نسخة مشابهة لخريدة ابن الوردي، أيضا مخطوطة " عجائب البلدان " ، ص ١٦٩، مما يشير إلى أنهم يحددون مكانها قريباً من جزائر الهند الشرقية .

وفي مكان آخر مخطوط " عجائب البلدان " يحدد مكانها بشرق أفريقيا في بحر الزنج [مدغشقر الحالية] ويقول : " أرض واسعة في بحر الزنج ليس لهم مراكب بل تدخلهم المراكب من عمان والتجار يسرقون أولادهم بالتمر ويبيعونهم بالبلاد " ، ص ١٠١ – ١٠٢ . وإلى هذا المذهب ذهب ابن الفقيه " واق واق الصين بخلاف واق واق اليمن "، { مختصر كتاب البلدان، ص ٧ }. ومع اختلاف الآراء بشأن هذه الجزر فالمرجح أنها اسم أطلقه الرحالة العرب على جزر الفيليبين " حيث اعتقدوا أن هذه الجزر هي آخر الأرض البرية في الكرة الأرضية حيث يسمع البحارة للمرة الأخيرة صوت طيور البحر { النورس } قبل ولوجهم المحيط الهادي الذي كانوا يطلقون عليه اسم البحر الزفتي الكبير .

(٤٠) يعتبر كتاب Nusantara للمؤلف Bernard H.M. Vlekke الصادر عن جامعة هارفارد في كامبردج في ولاية ماساتشوسيت الأمريكية عام ١٩٤٤ من أهم المراجع المتخصصة في الشؤون الإندونيسية. وبرنارد فليكه هذا من مروجي نظرية قدوم الإسلام إلى إندونيسيا من الهند وليس من الحجاز وحضرموت على يد العرب .

(٤١) يعتبر د. محمد أحمد السنباطي في كتابه " حضارتنا في إندونيسيا " الصادر عن دار القلم الكويتية في عام ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م مبالغا فهو يرى أن مهاجرين مصريين قدماء قد هاجروا إلى جزيرة سومطرة الإندونيسية واشتهروا هناك باسم شعب " الباتاك " الاندونيسي، وأن المصريين الفاطميين هم الذين أسسوا مملكة " سمودرا باساي " أول مملكة إسلامية عرفها التاريخ في جنوب شرق آسيا ، ونصبوا عليها الملك الصالح [مراح سيلو] بعد أن أعدوه لهذا المنصب الخطير ودرسوا له المذهب الشافعي ، لا بل ان د. السنباطي يقول: إن المصريين قد حملوا شعلة الإسلام على أعناقهم إلى إندونيسيا بعد أن نجحت الدولة الأموية في عهد رائدها الأول وزعيمها الداهية معاوية بن أبي سفيان في توطيد العلاقات مع ملوك جاوا وملكاتها، وهذا الأمر كان عاملا

مساعدا في خلق المبادرة التي دفعت بأول ملوك جساوا إلى اعتناق الإسلام قبل نهاية القرن الأول من الهجرة . [انظر الصفحة ٦ من الكتاب المذكور] .

(٤٢) المنتدى الدولي عقد في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩ تحت عنوان :
" The Coming and Spreading of Islam in Southeast Asia "،
وشارك فيه نخبة من العلماء المسلمين المختصين بالشؤون الإندونيسية الإسلامية .

(٤٣) له مرجع مشهور عنوانه : " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، قام بتحقيقه السيد محمد ضياء شهاب، وقد سبق ذكره في الملاحظات الاستهلالية .

(٤٤) مؤلف كتابين مرجعيين هما: " العلاقات بين العرب والصين " و " تاريخ المسلمين في الصين "، وقد سبق الإشارة إليهما.

(٤٥) مؤلف الكتاب الهام المعنون بـ " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري " ، وقد سبق الإشارة إليه .

(٤٦) باحثان مشهوران ، الأول اندونيسي والثاني ماليزي ولهما باع طويل في الأبحاث المتعلقة بانتشار الإسلام في جزر أرخبيل الملايو، وقد ورد ذكرهما في الكتاب الصادر عن مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ومقره إسطنبول، والمعنون بـ: " Islamic Civilization in the Malay World"

(٤٧) صاحب الكتاب الهام المعنون بـ:
" A General Theory of the Islamization of the Malay – Indonesian Archipelago "،
منشورات : Dewan Bahasa dan Pustaka ، كوالا لامبور ١٩٦٩ .

(٤٨) أكمل الدين إحسان أوغلو ، من كبار الباحثين والمؤرخين المسلمين الأتراك ، أشرف على العديد من منشورات مركز IRCICA الإسلامي في إسطنبول ، وصاحب العمل الموسوعي المعنون بـ: " الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة " ، في جزأين اثنين والصادر عن المركز عام ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .

(٤٩) أورد العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتابه " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " كثيراً من الأساطير والخرافات التي ذكرها الأولون من البحارة والرحالة ، مثل حكاية " جزيرة الرخ " حيث " يوجد طير عظيم غريب مهول الهيئة حتى أن طول جناحه الواحد عشرة آلاف ذراع "، وقد ذكره ابن الجوزي في كتابه المسمى بكتاب الحيوان قائلاً: إن رجلا من الغرب قد وصل اليه ممن سافر إلى الصين وأقام بجزائرها مدة طويلة ثم حضر بأموال عظيمة وأحضر معه قصبة من ريش ذلك الرخ تسعُ قربة ماء. وكان الناس يتعجبون من ذلك، وكان هذا الرجل يعرف بالصيني لكثرة إقامته هناك واسمه الحقيقي عبد الرحمن المغربي. [انظر الصفحة ٣٦٥ من كتاب المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى]. ويذكر علوي الحداد أيضاً في الصفحة ٣٦٦ من كتابه قصة حيوانين ضخمين الأول منهما يسمى "كوريتا " وكان يعيش في البحر والبر ويقصد جبال "كابالي" في الفيليبين ، والثاني يدعى " نارابونسو " وهو شبيه الإنسان ولكنه كبير جدا ويهوى قتل كل من يجده من الخلائق في جبال " ماتوتون " .
ولقد أورد ابن بطوطة في مذكراته سيرة طائر العنقاء الأسطوري أو الرخ الذي كان قد ذكره ابن الوردي في " خريدة العجائب " والدميري في " حياة الحيوان " . كما ذكره علوي بن طاهر في كتابه الأنف الذكر كالآتي { صفحة ٣٦٧} :
" ... قال في تاريخ الفيليبين في تمام الكلام على طير الرخ [فاءه] : هذا [فاءه] يقيم في جبل بيستا وشرقي منطقة " رانو " يلتهم الناس ويخرب البلاد ، وسكانها في خوف عظيم ، ومن هرب اختفى في كهف ، أو في بلد قريب " .

الرابع طائر عظيم أيضاً له سبعة رؤوس ، يقيم في جبل " كورين " والبلدة القريبة منه تخربت بصورة مدهشة جدا ، وقد وصل هذا الخبر المحزن إلى البلدان البعيدة ، وحزن الناس لهذه الحوادث التي جرت في " ميندانو " .

وأذكر هنا الطائر المسمى " العنقاء " في كتب العرب ، ثم أذكر بقية كلام تاريخ الفيليبين . قال القزويني في كتابه " عجائب المخلوقات " : " عنقاء أعظم الطيور جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر . كان في قديم الزمان يخطف من بيوت الناس فتأذوا من جناياته إلى أن سلب يوماً عروسا بحلية فدعا عليها حنظلة [بن صفوان] فذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط تحت خط الاستواء، وهي جزيرة لا يصل إليها الناس وفيها حيوانات كثيرة كالفيل والكركدن والجاموس والنمر والسباع وجوارح الطير. والعنقاء لاتصيد منهم لأنهم تحت طاعتها. وإذا أتى شيء من الصيد تأكل منه ، والباقي يأكل الحيوان منه، ولا تصيد إلا فيلا أو سمكاً عظيما أو تنينا. فإذا فرغ منه يخلي البقية له ويصعد إلى موضعه ويتفرج على أكلها ، وعند طيرانه يسمع من ريشه كهجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح { وحكي } عن بعض التجار قال: ضللنـــا الطريق في البحر المحيط وتحيرنـــا ، فإذا نحن بسواد عظيم كغيم مظلم ، فذكر الملاحون أنه العنقاء فتتبعناه حتى دخلنا تحت السواد ، ثم فتحنا اللسان بالدعاء ، فمازال يمشي حتى وجدنا الطريق ثم غاب عنا ... إلى آخر ما طال به ". وليس مقصودنا ذكر تلك الأساطير بطولها ، فمن أحب الاطلاع عليها فليطالعها في تلك الكتب، وإنما مرادنا أن الأساطير التي في تواريخ فيليبين ذكرها العرب في كتبهم ، ذكروها واقعة في هذه الجزائر ، فسواء أكانت حقيقة أو أسطورة أو خرافة فنقـــل العرب يدل على اتصالهم بهذه الجزائر ومعرفتهم بلغة أهلها حتى أخذوها عنهم و سيـــروا أخبارها في البلاد العربية . والعنقاء ذكرها الدميري في "حياة الحيوان" وذكر عنها روايات كثيرة ، وذكر أن سبب هلاكها دعوة حنظلة بن صفوان. وفي رواية أخرى بدعوة خالد بن سنان، وقد تطورت القصة على ألسنة البحارة العرب وأهل الفيليبين . فأهل الفيليبين يقولون: إن سبب هلاك ذلك الطائر راج سليمان. ودونك ما جاء في تاريخ فيليبين: " فلما بلغ الملك " راج اندرا فورا" شعر بمزيد الحزن والأسف ودعا " راج أندرا" فورا أخاه الأكبر " راج سليمان " وطلب أن يذهب إلى " ميندانو " لإنقاذ تلك البلدة من تلك الحيوانات العاتية ، وحزن " راج سليمان " مع شعوره بالحماس والطاعة لأخيه ودعا له " راج أندرا فورا " بالسلامة وناوله خنجرا يدعى " جدور فاكل " قبل أن يرحل ، فأخذ " راج اندرا فورا " غصناً من شجرة وغرزه وأقامه ، لاعتقاده أنه سوف يخبره بكل ما يحدث ، فراح سليمان بعد رحيله ، فقال لـ راج سليمان " إذا انتعش هذا الغصن فإنك تنتعش ، وإذا ذوى فهو دليل موتك.

وغادر " راج سليمان " " سانتا فولي " وتوجه إلى ميندانو بطريق الجو ، فلم يسر على قدميه، ولم يركب البحر ، وأول مكان وصل إليه هو " كبالين " فوقف هناك على قمة جبل وتأمل ما حوله إلى السهول والقرى، ولكنه لم يشاهد إنساناً واحدا ، فأينما وجه نظره أحس بالأسف، فقال: مساكين، إن هذا التخريب عظيم، فلما قال كلمته هذه تحركت الجبال جميعها واهتزت وخرج من الأرض حيوان عظيم يهاجمه، وأنشب فيه أظفاره . فلما رأى سليمان ذلك السرطان علم أن هذا حيوان مخيف فسـل سيفه وقطع السرطان إرباً إرباً ، ثم توجه إلى " كماتوتون " فرأى هناك التخريب العظيم عندما كان على قمة جبل فسمع صوتا ينبعث من الآجام ورأى الأشجار تتحرك، ثم ظهر " تاربوتسو" الذي اقترب منه وله صوت عظيم، وحاول أن يهجم على سليمان ويقتلعه، فأراد سليمان قتله ، فقال الحيوان: إذا أردت قتلي فإني أموت شهيدا. وفي ذلك الوقت كسر الأغصان الكبيرة وهجم على سليمان ، والتحم في معركة طويلة حتى تعب الحيوان وسقط على

الأرض، فضربه سليمان بسيفه وقتله، وقبل موته أثنى على سليمان، فأجاب سليمان بقوله: " إن عملك السابق هو الذي سبب موتك ". ثم توجه سليمان إلى جبل بسيتا فكان الخراب أعظم، ومر على بعض المنازل فرأها خالية لايوجد بها إنسان حي ما عدا خراباً وفناءً عاماً، فقال: " لنمش! فجأة، أظلم الكون، فاستغرب سليمان ذلك ، فمد طرفه إلى الجو فرأى طائراً غريباً كبيرا ينزل إليه من السماء ، فعرف حالا هذا الطائر وقصده، فأسرع إلى ســل سيفه وأطلقه على الطائر فقصّ جناحه فخرّ إلى الأرض ميتاً ، ولكن الجناح سقط على سليمان فمات " .

فهذه القصص فيها مشابهة كثيرة لما حكى بحّارو العرب ومسافروهم إلى هذه الجزيرة عن الرخ وغيره من الحيوانات ، و" تارابوسو " و " كوريتا " توجد في ذلك البحر ، وبحّارو العرب تلقفوا هذه القصص عن أهل هذه الجزائر على قدر التفاهم فيما بينهم وصارت في كتب العرب ، وهذا يدل على امتزاج تام .

{ انظر : علوي الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، الصفحات من ٣٦٧ ولغاية ٣٧١ } .

هذا بالنسبة للحيوانات وأشباهها، وأما بالنسبة للإنسان فالأساطير والخرافات لاتعــد ولاتحصى، حيث أن كتاب " شجرة الملايو " المكتوب سنة ١٠١٢ هـ / ١٦١٢ م يذكر أن " السلطان محمداً حكى الناس عنه أنه تبع كلبه ذات مرة في الصيد إلى غابة من قصب البامبو وهناك وجد جذع قصبة كبيرة جداً فأخذ عدة مفاصل منها إلى قصره حيث ألبس أحد المفاصل ثوب امرأة تكريما له فلم يلبث أن انفلق ذلك المفصل من القصبة عن بنت فسماها " ملكة القصب " .

وشبيه بما ذكر عن " شجرة الملايو " ما ذكر في تاريخ الفيليبين بعد ما ذكر وصول محمد زين العابدين [كابوغسوان] وإدخاله الإسلام سلماً إلى " ميندانوا " قال : " لم يمر زمن على وصوله إلى ميندانو تزوج شريف كابوغسوان بالأميرة " تونيناغ ماماالو " الذي جاء من غصن البابب، حدث هذا في عهد " تابوناوي " . وماماالو عندما قطع الغصن ليصنع منه مصيدة للسمك، فلما عاد " ماماالو " سأله " تابوناوي " هل قطعت جميع الأغصان ؟ فقال ماماالو : " قطعت الجميع إلا واحدا فقط لأنه ما زال غضا ". فقال تابوناوي: " اقطعها جميعا، فإن ذلك علامة نحس لمصيدة السمك إذا تركت غصنا واحدا ". فقطع ماماالو الغصن فظهرت منه فتاة دعيت " فوتري يونينا " وكان قد جرح خنصرها من ضربة الفأس .

ومن أهل الفيليبين من لا يزال يفتخر بأن جدتهم الأولى ليست من نساء بني ادم وإنما خرجت من باطن شجرة الغاب .

وقد نقلها رحّالو العرب وبحّاروهم على قدر ما تقبلته عقولهم ، فقد قال ابن الوردي في " خريدة العجائب " في روايته عن عيسى بن المبارك السيرافي: "وبهذه الجزيرة شجر يحمل ثمراً كالنساء بصور وأجسام وعيون وأيد وأرجل وشعور وأبدان وفروج كفروج النساء حسن الوجوه يخرجن معلقات بشعورهن، يخرجن من خلف كالأجربة الكبار ، فإذا أحسسن بالهواء والشمس يصحن " واق واق " حتى تنقطع شعورهن ، فاذا انقطعت ماتت " .

أهل هذه الجزيرة يفهمون هذا الصوت ويتطيرون منه. في كتاب الحوالة أنه من تجاوز هؤلاء وقع على نساء يخرجن من الأشجار أعظم منهن قــدودا وأطول منهن شعوراً و أكمل محاسن وأحسن أعجازاً وفروجاً، ولهن رائحة عطرة طيبة، فإذا انقطعت شعورها ووقعت من الشجرة عاشت يوماً أو بعض يوم، وربما جامعها من يقطعها أو يحضر قطعها فيجد لها لذة عظيمة لا توجد في النساء .

فهذه الأسطورة التي كانت منتشرة في هذه الجزائر أخذها الملاحون العرب والتجار والرحالون عن أهل هذه الجزائر ورووها على مايفهمون، إذ لم يدخل في عقولهم أن في الدنيا بشراً

يتناسلون، أمهاتهم يخرجن من ثمر الأشجار، ولكن هذه الأسطورة لايذكرونها إلا لزوجات ملوكهم فيما وقفت عليه، فلعلها رمز للاحترام، لهم عقلاؤهم وكتابهم ويفهمه عوامهم حقيقة واقعة . والدليل على ذلك أن تاريخ الفيليبين أو جزائر السلا والسلاهي يذكر في موضوع أخر أن " ماماألو " من ذرية " أشراف الأولياء " السابقين ، ويشير في موضع أخر إلى أن " فوتري

- الأمويون ثم العباسيون ثم الفاطميون ثم العثمانيون [القوة الإسلامية] ،
- إمبراطورية سريفيجايا الإندونيسية ،
- الأمبراطورية الصينية .

وكانت هذه القوى الثلاث تتعايش سلمياً مع بعضها ولم تصطدم ببعضها بعضاً الا فيما ندر، ولذلك ازدهرت التجارة البحرية ازدهاراً كبيرا في آسيا البحرية . وأما التدخل الأوروبي فقد كان دافعه الأول عداء البرتغال والإسبان للمسلمين، وثراء هذين البلدين ثراء غير مسبوق بعد نهب ثروات البيرو والمكسيك، الأمر الذي زاد طلب أوروبا على البهارات. وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٥٦٠ و ١٦٥٠ م ذروة الاستهلاك الأوروبي من البهارات .

- انظر : Anthony Reid ، " *Islam and the State in Seventeenth Century* "

بحث منشور في كتاب IRCICA المعنون بـ: " *Islamic Civilization in the Malay World* " *إسطنبول* ١٩٩٩ ، ص ٦٧ .

(٥٥) "حوار الحضارات " مفهوم أطلقه حديثاً الرئيس الإيراني محمد خاتمي رداً على نظرية " صدام الحضارات " الأمريكية التي أطلقها المفكر الأمريكي صموئيل هونتنغتون في عام ١٩٩٢ على صفحات مجلة " فورين أفييرز "الأمريكية الفصلية. وقد اعتمدت منظمة اليونسكو عام ٢٠٠١ م ليكون عاماً لحوار الحضارات. غير أن الإسلام كان قد طرح هذا المفهوم للبشرية جمعاء في القرآن الكريم حيث يقول التنزيل الحكيم في سورة الحجرات: " يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير " ، الآية ١٣ .

(٥٦) إن عصر الاكتشافات العلمية لم يبدأ وفقــاً للمفهوم الغربي مع عصر النهضة الأوروبي في القرن ١٥ م، بل بدأ مع ازدهار الحضارة الإسلامية في العصور: الأموي، العباسي والأندلسي حيث شهدت العلوم طفرة هائلة في جميع الاختصاصات. ولقد اعترف بتلك الحقيقة الكثير من المفكرين الغربيين ومن بينهم الفرنسي غوستاف لوبون والألمانية د. زيغريد هونكه التي توفيت في عام ٢٠٠١ عن عمر ناهز الثالثة والثمانين عاماً. والمستشرقة الألمانية د. أنا ماري شمل.

- { انظر : عبد الغني العطري ، " شمس العرب تسطع على الغرب " ، مقال منشور في مجلة " الثقافة " الدمشقية ، العدد الصادر في شهر شعبان ١٤٢٢ هـ - تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ م}. وانظر أيضا : د. مراد هوفمان ، " الإسلام كبديل " ، منشورات مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م ، ص ٩ .

وكذلك المفكر الإنكليزي رانلانغ E.L. Ranelang مؤلف الكتاب المنصف الهام المعنون بـ " الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية " الذي نقتطف منه المقطع التالي: إن فكرة المصادر الثلاثة للثقافة الغربية . التي يعد الجانب العربي مصدرا منها، ربما لاتكون جديدة على الباحثين الأكاديميين ، ولكنها مفاجئة لمن عداهم.

وقد تعلمنا أن حضارتنا نشأت عن جذور كلاسيكية ومسيحية، أي يونانية - رومانية، ثم مسيحية - يهودية، وأن العناصر الكلاسيكية ظلت مفقودة في معظمها ، إلى أن أعيد اكتشافها فيما يعرف بعصر النهضة . أما اليوم فبعد أن أصبح العالم أصغر، ووسائل الاتصال فيه أيسر ، والمؤسسات الدينية أكثر استرخاءً ، وتبادل المعلومات أوسع انتشاراً، فإننا قد اعترفنا بالارض المشتركة بيننا وبين العرب . فثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة إغريقية - لاتينية - عربية. {انظر: أ .ل رانيلا " الماضي المشترك بين العرب والغرب : أصول الآداب الشعبية الغربية " ، ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة - رقم ٢٤١ ، ص ١١ }.

- الأمويون ثم العباسيون ثم الفاطميون ثم العثمانيون [القوة الإسلامية] ،
- إمبراطورية سريفيجايا الإندونيسية ،
- الأمبراطورية الصينية .

وكانت هذه القوى الثلاث تتعايش سلمياً مع بعضها ولم تصطدم ببعضها بعضاً الا فيما ندر، ولذلك ازدهرت التجارة البحرية ازدهاراً كبيرا في آسيا البحرية . وأما التدخل الأوروبي فقد كان دافعه الأول عداء البرتغال والإسبان للمسلمين، وثراء هذين البلدين ثراء غير مسبوق بعد نهب ثروات البيرو والمكسيك، الأمر الذي زاد طلب أوروبا على البهارات. وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٥٦٠ و ١٦٥٠ م ذروة الاستهلاك الأوروبي من البهارات .

- انظر : Anthony Reid ، " *Islam and the State in Seventeenth Century* "

بحث منشور في كتاب IRCICA المعنون بـ: " *Islamic Civilization in the Malay World* " *إسطنبول* ١٩٩٩ ، ص ٦٧ .

(٥٥) "حوار الحضارات " مفهوم أطلقه حديثاً الرئيس الإيراني محمد خاتمي رداً على نظرية " صدام الحضارات " الأمريكية التي أطلقها المفكر الأمريكي صموئيل هونتنغتون في عام ١٩٩٢ على صفحات مجلة " فورين أفيرز "الأمريكية الفصلية. وقد اعتمدت منظمة اليونسكو عام ٢٠٠١ م ليكون عاماً لحوار الحضارات. غير أن الإسلام كان قد طرح هذا المفهوم للبشرية جمعاء في القرآن الكريم حيث يقول التنزيل الحكيم في سورة الحجرات: " يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير " ، الأية ١٣ .

(٥٦) إن عصر الاكتشافات العلمية لم يبدأ وفقــاً للمفهوم الغربي مع عصر النهضة الأوروبي في القرن ١٥ م، بل بدأ مع ازدهار الحضارة الإسلامية في العصور: الأموي، العباسي والأندلسي حيث شهدت العلوم طفرة هائلة في جميع الاختصاصات. ولقد اعترف بتلك الحقيقة الكثير من المفكرين الغربيين ومن بينهم الفرنسي غوستاف لوبون والألمانية د. زيغريد هونكه التي توفيت في عام ٢٠٠١ عن عمر ناهز الثالثة والثمانين عاماً. والمستشرقة الألمانية د. أنا ماري شمل. - { انظر : عبد الغني العطري ، " شمس العرب تسطع على الغرب " ، مقال منشور في مجلة " الثقافة " الدمشقية ، العدد الصادر في شهر شعبان ١٤٢٢ هــ - تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ م}. وانظر أيضا : د. مراد هوفمان ، " الإسلام كبديل " ، منشورات مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤٢١ هــ/ ٢٠٠١ م ، ص ٩ .

وكذلك المفكر الإنكليزي رانلانغ E.L. Ranelang مؤلف الكتاب المنصف الهام المعنون بــ " الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية " الذي نقتطف منه المقطع التالي: إن فكرة المصادر الثلاثة للثقافة الغربية . التي يعد الجانب العربي مصدرا منها، ربما لاتكون جديدة على الباحثين الأكاديميين ، ولكنها مفاجئة لمن عداهم.

وقد تعلمنا أن حضارتنا نشأت عن جذور كلاسيكية ومسيحية، أي يونانية - رومانية، ثم مسيحية - يهودية، وأن العناصر الكلاسيكية ظلت مفقودة في معظمها ، إلى أن أعيد اكتشافها فيما يعرف بعصر النهضة . أما اليوم فبعد أن أصبح العالم أصغر، ووسائل الاتصال فيه أيسر ، والمؤسسات الدينية أكثر استرخاءً ، وتبادل المعلومات أوسع انتشاراً، فإننا قد اعترفنا بالارض المشتركة بيننا وبين العرب . فثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة إغريقية - لاتينية - عربية. {انظر: أ .ل رانيلا " الماضي المشترك بين العرب والغرب : أصول الاداب الشعبية الغربية " ، ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة - رقم ٢٤١ ، ص ١١ }.

وأما المفكر الماركسي إنجلز في، فقد قال في مقدمة كتابه " جدل الطبيعة ": " إن العصور القديمة قد خلفت إقليدس ومنظومة بطليموس الشمسية، والعرب خلفوا الترقيم العشري وبذور الجبر والأرقام الحديثة والكيمياء ، والقرون المسيحية الوسطى لاشيء". (انظر : د. بسام فريز مهنا ، "العرب والحضارة " ، مقال منشور في صحيفة " تشرين " السورية ، ١٤ شوال ١٤٢٢ هـ- كانون الأول /ديسمبر ٢٠٠١ م) .

(٥٧) لايمكن لنص أن يعبر عن مدى انتشار " ألف ليلة وليلة " في جميع أنحاء العالم أكثر من فقرة من رواية " *Hucklebery Finn* " لمارك توين، ففي هذه الفقرة يشرح أن الفتى الأمي للعبد الزنجي جيم ، وهما ينحدران مع مجرى نهر المسيسيبي في اربعينيات القرن الماضي ١٨٤٠ ، يشرح له سلوك الملك هنري الثامن فيقول : " يا عزيزي ، كان ينبغي أن ترى هنري الثامن العجوز عندما كان في عز شبابه مليئا بالحيوية. وكان يتزوج زوجة جديدة كل ليلة ويقطع رأسها في صباح اليوم التالي . وكان يفعل هذا دون اكتراث كما لو كان يهشم بيضاً. يقول: " أحضروا لي " نل جوين " ، ويحضرونها له. وفي الصباح يقول "اقطعوا رأسها"، ويقطعون رأسها. ثم يقول: أحضروا لي " جين شاير" وتأتي جين شاير. وفي الصباح يقول: اقطعوا رأسها، ويقطعون رأسها. ويقول: " دقوا الجرس لروزمون الحسناء". وتلبي روزمون الحسناء نداء الجرس، وفي الصباح التالي يقول: اقطعوا رأسها. وكان يجعل كلا منهن تحكي له حكاية كل ليلة. ثم أخذ بجميع الحكايات حتى بلغت ألف حكاية وضمها في كتاب وأسماه كتاب القيامة. وكان اسما حسنا يعبر حقا عن الحالة ". (انظر: أ .ل رانيلا " الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الاداب الشعبية الغربية " ، ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة - رقم ٢٤١ ، ص ٣٠١).

البـــــاب الأول

في البصـــــرة

الإمـــام والسنـــدبـــاد

بيـــن مطرقة جموح الخلفاء وسندان جنوح البؤساء [قوة السلطة تولد المنعة ، والإفراط في القوة يولد الاضطهاد]

خرج الإمام عيسى بن محمد من منزله بحي القسم القريب من نهر المعقل شمالي مدينة البصرة ظهيرة يوم الجمعة الواقع في ١٣ جمادى الأولى ٢٤٠ هجرية متوجها كعادته إلى مسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[١] لكي يؤم الناس في أداء صلاة الجمعة. وكان هذا المسجد من أجمل وأكبر مساجد المدينة، وصحنه فسيح ومفروش بالمرمر الأحمر، كما كان يحتوي على صندوق صغير يضم بين جنباته المصحف الكريم الذي كان الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان يقرأ فيه لما قتل بعد أن حاول سبطا الرسول الكريم (ﷺ) الحسن والحسين عبثاً حمايته من ثورة المتمردين ضده[٢].

كانت السماء صافية في ذلك اليوم والجو كان لطيفا معتدلا تغلب عليه مسحة من حر جنوب العراق الصحراوي الجاف الذي لا تهدئ من لوائظه إلا نسمات مياه الخليج الرطبة المختلطة بصبيب مياه البرزخ الذي يلتقي فيه نهرا الفرات ودجلة السرمدية العذبة. ورغم الانحناءات الخفيفة التي كان يومىء بها الناس له في الحارة دلالـــة على احترامهم لمقام وهيبة إمامهم الذي ينتسب إلى العترة النبوية الشريفة عن طريق جدة جدته فاطمة الزهراء بنت الرسول (ﷺ)، فإن شيئا ما من القلق كان يبدو على محياه وهو يسير بتؤدة باتجاه المسجد، وقد اعتمر جبّته وعمامته السوداء وعباءته العراقية المطرزة الفضفاضة و تمنطق سيفا صغيرا على جنبه أسوة بما كان يفعله كل من والده الإمام محمد بن علي العريضي وجده الإمام الذائع الصيت جعفر الصادق[٣]. وكان قلقه هذا يعزى لأمرين اثنين:

أولهما شخصي وهو أن زوجته حامل في أيامها الأخيرة و قد تركها في المنزل تعاني من آلام الطلق، علاوة على أن والده العلامة متوعك الصحة أيضا وهو رهين سرير المرض منذ فترة، وقد طلب الإمام عيسى من بعض أصدقائه وأولاده الكبار

البقاء في المنزل للسهر على الرجل المريض في الجناح المخصص له في المنزل، في حين أوكلت مهمة متابعة حالة الزوجة لزوجاته الأخريات وبناته فاطمة ورقية وخديجة وقسيمية وصفية ولبعض نساء الحي الخبيرات بشؤون الولادة في الجناح الآخر من المنزل المخصص للحريم. فقد كان الإمام عيسى مزواجاً كعادة معظم الناس في تلك الأيام ولديه تسعة وعشرون ابناً وخمس بنات، وهو لا يعرف بعد جنس الوليد الجديد، أذكر هو أم أنثى ... [٤].

وأما السبب الثاني لقلق الإمام، فقد كان يتعلق بفحوى خطبة الصلاة التي سيلقيها على المصلين في المسجد، حيث أن خطبة أحد أئمة أهل البيت في البصرة لم تكن حدثاً اعتيادياً، ناهيك عن أن الإمام عيسى كان نقيباً للأشراف في المدينة أيضاً[٥]. والمقصود بالنقابة تلك المرجعية التي أوجدتها الدولة بحكم الظروف السياسية الصعبة في أيام الدولة الأموية ثم العباسية بهدف الظهور بمظهر المحافظ على كيان ما تبقى من أهل البيت والقيام بشؤونهم بعد سلسلة المذابح والاضطهادات التي تعرضوا لها منذ طعن الخليفة الراشد الرابع الإمام علي بن أبي طالب على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم على باب المسجد قبل صلاة العشاء من ليلة السابع من شهر رمضان ووفاته بعد ذلك بيومين من عام ٤٠ هجرية[٦]. وكان للظلم والاضطهاد والمعارك والنزاعات التي أثارها بنو أمية وأنصارهم حول مسألة الخلافة ضد أبناء وأحفاد الخليفة الراشد الرابع الإمام علي (ﷺ) أن أخذ الرأي العام الإسلامي ينظر بمزيد من التقدير والتبجيل إلى آل بيت الرسول (ﷺ) نحو أواخر عهد الأمويين، مما كان سبباً في ظهور نقابة للسادات والأشراف. وكانت هذه النقابة تعبيرا ملموسا عن الحب والتقدير العميق الذي شعر به الناس تجاه آل البيت بعد أن غُصب الحق منهم، بل وتعرضوا – فوق ذلك – للظلم والأذى، وتعبيراً ملموساً أيضا ينعكس على التحول الطبقي في المجتمع [٧].

وبدأت تظهر البوادر الأولى لتنظيم هذه النقابة في عهد الخلافة العباسية، حيث أطلق على المتحدرين من أبناء الحسين (ﷺ) اسم "سيد" وعلى أبناء الحسن (ﷺ) اسم "شريف" أو اسم "أمير" عليهما معا. ومع مرور الزمن أصبح لقب "سيد" علما عليهم جميعا، وظهرت في زمن العباسيين لأول مرة نقابة الأشراف التي كانت تتولى شؤون رعايتهم وتصريف أمورهم[٨].

ولكن لنعد إلى إمامنا عيسى، فقد ازداد تفكيره وهو يحث خطاه في الأمتار الأخيرة التي تفصله عن عتبة المسجد ويجيب بدماثته المعهودة، عن تحيات الناس له. فقد كان قد عزم على إلقاء خطبة يوحد فيها كلمة القوم على الحق ويدعوهم إلى تمرين النفس على العمل بالعلم والتحقق بحقائق الإيمان، ويذكرهم بضرورة الانقياد لتعاليم الدين الحنيف وعدم الانجرار، بدون تروٍّ، وراء بعض الدعوات الفلسفية التي كانت قد

بدأت تدب في أوصال الخلافة العباسية منذ فترة، كالراوندية والمعتزلة والخوارج والمرجئة والجهمية والضرارية والحسينية ...الخ[٩].

على أن مثل هذه الخطبة قد يساء فهمها من جانب أمير الخليفة على البصرة " الفتح بن خاقان "الذي ينقل للخليفة العباسي محمد بن أبي بكر في بغداد ـ عن طريق عسسه المدسوسين في صفوف المصلين وبشكل منتظم ـ تحركات وتوجهات أهل البيت في البصرة والأنكى من ذلك بالنسبة للإمام عيسى هوكيفية التخلص من الدعاء للخليفة العباسي بطول البقاء ومن تسميته خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين[١٠] وإضفاء لقب " المتوكل على الله" إلى سلسلة ألقابه، وهي كلها أمور ينقل بحذافيرها فوراً إلى بغداد وتخضع صاحبها للمساءلة الشديدة وربما تؤدي به إلى الهلاك المحتم، إذ لم يسلم من سيف جلاد الخليفة أقرب المقربين إليه وهو وزيره الأديب العالم محمد بن عبد الله بن حمزة المعروف بابن الزيات الذي نكل به المتوكل وعذبه إلى أن مات في السجن رغم أنه لم يرتكب أي خيانة له[١١].

على أن اختيار الخليفة العباسي[١٢] محمد بن أبي بكر للقب " المتوكل على الله" لم يكن جديداً على أسماع الناس باعتبار أنهم كانوا قد تعودوا على سماع مثل هذا اللقب منذ عهد جده أبي إسحاق إبراهيم بن الرشيد الذي خلع على نفسه لقب " المعتصم بالله"، فكان أول من أضيف في لقبه من الخلفاء اسم الله تعالى. ولكن مجرد قسرن اسم الله جل جلاله بحاكم عباسي مستبد كالمتوكل هو أمر يثير حفيظة إمامنا أبي عبد الله علما بأنه، في سريرة نفسه، لايخفي شيئا من الرضا لكون الخلفاء العباسيين قد ابتعدوا عن التلقب بلقب " الإمام " منذ عهد أول خليفة لهم وهو إبراهيم بن محمد الذي تلقب حين أخذت له البيعة بلقب الإمام، غير أن هذا اللقب لم يستعمله الناس نظراً لغلبة لقب "أبي العباس السفاح" عليه لكثرة ما قتل من الأمويين. [١٣] وكيف لا يتردد أبو عبد الله في مدح المتوكل وهو الذي أمر بهدم ضريح سبط الرسول (ﷺ) الحسين بن علي في كربلاء سنة ٢٣٦ هجرية، حتى قال الشاعر العباسي فيه :

تـــالله إن كانـــت أمـــية قـــد أتت   قـــتل ابـــن بنـــت نبـــيها مظلومـــا
فلقـــد أتـــاه بـــنو أبـــيه بمثلـــه   هـــذا لعمـــرك قـــبره مهدومـــا
أســـفوا علـــى ألاّ يكونـــوا شـــاركوا   فـــي قـــتله فتتـــبعـــوه رمـــيمـــا[١٤]

وفي غمرة تلك الخواطر المتدافعه في ذهنه ، تذكر أبو عبد الله ما كان قد سمعه من جده الإمام علي العريضي بشأن معاناة أهله مع الخلفاء العباسيين، فأدرك لتوه أن معاناته الآن في عهد المتوكل هي بما لا يقاس أهون بكثير من معاناة آبائه وأجداده في زمن أسلاف المتوكل. ومرت أمام عينيه في ثوان صور مؤلمة كتلك التي جرت في زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي أمر بسجن الإمام أبي حنيفة إلى أن

توفي وهو في زنزانته ببغداد عام ١٥٠ هجرية، كما قام هو بنفسه بضرب الإمام مالك بالسياط وأمر بمد يديه حتى انخلعت كتفاه وذلك بسبب الحديث الشريف الذي أبى مالك أن يمسك عن التحدث به في وقت خروج محمد بن عبد الله بالمدينة ضد العباسيين. والحديث هو قوله(ﷺ): ليس على مستكره طلاق "[١٥]، وكتلك التي جرت في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي أمر بحبس جد جد الإمام عيسى بن محمد، وهو الإمام المرجع موسى الكاظم لمدة ١٤ سنة ثم دس له السم وهو قابع في سجنه فمات فيه عام ١٨٣ هجرية[١٦].

وفي خلافة المأمون حدثت فتنة القول بخلق القرآن التي أثارتها جماعة من المعتزلة، إذ تعصب الخليفة[١٧] المأمون لرأي المعتزلة القائل بمبدأ خلق القرآن، والذي يخالف رأي أهل السنة القائلين بأزليته وأمر بأن يمتحن الناس في الأمصار، وألايؤذن لأحد في فتوى أو شهادة إلا إذا أقرّ بخلق القرآن. وقد أدت الفتنة في حينها إلى إهانة الكثيرين من العلماء المسلمين من الطرفين أوالزج بهم ظلماً وافتئاتاً في السجون مثل المفتي الإمام ابن حنبل الذي ضربه المعتصم في بغداد وسجنه، والعالم المؤرخ ابن عبد الحكم في مصر الذي اعترض على تعيين الخليفة المأمون لأخيه المعتصم حاكماً على مصر، فكانت النتيجة أن أمر المعتصم بسجنه حتى لقي حتفه عام ٢١٤ هجري، ثم أمر جنوده أن يطوفوا بابنيّه عبد الحكم ومحمد في شوارع الفسطاط وعمامتاهما مدلاّتان في رقبتيهما إمعاناً في التشهير بهما[١٨]. ولم ينتبه صاحبنا أبو عبد الله، وهو في زحمة تدافع تلك الخواطر في رأسه، إلى أنه قد نسي الانعطاف يميناً باتجـــاه المسجد واستمر متابعاً سيره بشكل عفوي باتجاه الطريق المؤدية إلى سوق المربد الأدبي الذي كانت البصرة تفاخر به وبشعرائه مشبهة إياه بسوق عكاظ الجاهلي الذي كان يقام كل عام في الجزيرة العربية.

ويبدو أن سهو الإمام عن خط سيره الاعتيادي قد حدث في اللحظة التي تذكر فيها أن إحدى زوجات جده أبي الحسن الرضا، وهي أم الفضل، إنما هي ابنة الخليفة العباسي المأمون نفسه الذي كان قد زوجها للإمام الرضا رغبة باكتساب ولاء أهل البيت[١٩]، وذلك بعد أن قام المأمون نفسه بمبايعة علي الرضا بن موسى الكاظم خليفةً وهو في مدينة مرو، وزوّجه ابنته وضرب اسمه على الدينار والدرهم. ولما بلغ ذلك بني العباس ببغداد غضبوا لذلك وقالوا: لا نطيعه على إخراج الأمر من بيننا، واجتمعوا وبايعوا عم المأمون إبراهيم المهدي خليفةً عليهم. وثارت الجماعات الموالية لأهل البيت في الحجاز واليمن والعراق وطبرستان من بلاد الديلم وحاربوا الحسن بن سهل ابن عبد الله السرخسي وزير المأمون وكبير قادته ووالد زوجته بوران بنت الحسن بن سهل حتى تغلبوا عليه. كل ذلك والأخبار مطوية عن المأمون بسبب خيانة وزيره الآخر شقيق الحسن بن سهل والمسؤول عن تدبير أمور قصره الفضل بن سهل الذي

كان يلقبه المأمون بذي الرياستين، أي الحرب والسياسية. فقد أخفى الفضل أخبار البريد وتقارير الولاة في الأمصار التي شهدت الثورة على حكم الخليفة العباسي حتى احتالت إحدى جواري المأمون على هذا التعتيم فبعثت له خلعا موشىً بالخزّ وكتبت على بطانتها الأخبار ثم جعلت عليها بطائن خلقة ووسخة، وطلبت من الفضل حملها إلى المأمون. فلما أراد هذا لبسها تعجب من رداءة بطانتها ووساختها فنزعها فوجد الكتابة داخلها وغضب غضباً شديداً على الفضل وأمر بقتله عام ٢٠٢ هجري.

ثم سار المأمون إلى بغداد وحمل على معارضيه حملة شديدة انتصر فيها عليهم وعفا عن عمه، في حين أمر بنفي علي الرضا إلى مدينة طوس في فارس حيث مات فيها عام ٢٠٣ هجري. وكان قد سبقه إلى المصير نفسه كل من عم جده محمد بن علي الملقب بمحمد الأكبر الديباج الذي بويع خليفةً في الحجاز فقبض عليه المأمون ونفاه إلى مدينة جرجان في فارس حيث خنقه واليها أبو جعفر الدوانيقي في السجن[٢٠]، وجدّه محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن سبط الرسول(ﷺ) الحسن الملقب بمحمد النفس الزكية الذي كان قد قام بالخلافة في المدينة وبويع في الحجاز وأيده في ذلك الإمام مالك، حتى قبض عليه أبو جعفر المنصور وقتله عام ١٤٥ هجرية وصلب رأسه في حين سقى الباقين من الأسرى التابعين له السم، ووضع من رفض شرب السم منهم تحت أسطوانة وهم أحياء. وقد رثى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخاه محمداً بقوله:

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا ... فإن بها ما يدرك الطالب الوترا
وإنا أناس لا تفيض دموعنا ... على هالك منا ولو قصم الظهرا
ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرة ... يعصرها من جفن مقلته عصرا
ولكنني أشفي فؤادي بغارة ... ألهب في قطري كتائبها جمرا[٢١]

ثم قبض الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على أخيه إبراهيم الذي خرج عليه بالبصرة ومعه علماؤها وقراؤها، مؤيدين في ذلك من جانب الإمام أبي حنيفة في الكوفة والإمام الشافعي في بغداد، وشعبة بن الحجاج، شيخ المحدثين في العراق، وقتله في معركة قادها المنصور بنفسه وهو بملابسه الحربية. وأما الشقيق الثالث لمحمد النفس الزكية وإبراهيم وهو إدريس، فقد نجا بنفسه إلى مصر ومنها إلى المغرب حيث استقبل خير استقبال والتف الناس حوله، وذلك في عهد إمارة يزيد بن هاشم على أفريقيا وإمارة هشام بن عبد الرحمن على قرطبة[٢٢]. وتكريماً لوروده إلى بلادهم قام الأمراء المغاربة بتأسيس دولة مستقلة في المغرب أسموها بالدولة الإدريسية[٢٣].

وكان من جملة الناجين من المذبحة عبد الله بن محمد (النفس الزكية) بن عبد الله (الديباج أو المحض) بن الحسن المثنى بن الحسن سبط الرسول (ﷺ) الذي هرب مع من بقي على قيد الحياة من أهله إلى الساحل الغربي للهند واستوطن في منطقة كونكان

قرب بومباي وفي كوجرات. ثم انتقل قسم من حاشيته إلى رأس كمورين في الساحل الشرقي للهند. فصار الهنود يسمون الأولين " نوايت " و الآخرين " لبي " (٢٤).

كاد أبو عبد الله يترنح في مشيته وهو يتذكر تلك الأحداث الجسام التي عصفت بأهله منذ وفاة الرسول(ﷺ)، وفجأة شعر أبوعبد الله أن الناس القادمين باتجاهه يتهامسون فيما بينهم ويلتفتون إليه مستغربين سلوكه طريقاً مغايرةً لطريق المسجد، فأدرك ما حدث، ولكنه لم يعد أدراجه فوراً بل استمر سائرا بضعة أمتار مكابرة حتى توقف عند سبيل للماء كان قد بناه أهل البصرة ترحما على روح علي الرضا بن موسى الكاظم، فازدرد منه ماء قدر كفيه ثم قرأ الفاتحة على روحه وأقفل عائدا إلى المسجد وقد وطن في نفسه أن يلقي خطبة هادئة تخفف عن الناس شظف الحياة وترفع عن كاهلهم الخوف والقلق ويذكر المصلين مع ذلك بضرورة العمل بكتاب الله والاقتداء بسنة النبي محمد (ﷺ) وسلوك الصحابة والابتعاد عن الفتنة بكل صورها وأشكالها أسوة بما كان قد فعله سبط الرسول (ﷺ) الحسن بن علي بن أبي طالب بعد استشهاد أبيه الخليفة الراشدي الرابع.

وصل الإمام عيسى إلى عتبة المسجد ثم دلف من باب صغير جانبي إلى حيث المنبر فاعتلاه وقرأ البسملة ثم بدأ خطبته فوراً قائلا: "أيها الناس، جاءني رجل من أهل البصرة قبيل أيام يسألني ما يلي: "عافاك الله يا أبا عبد الله، لقد جئتك مسترشداً. إني رجل دخلت في جميع أهواء التعدد المذهبي السائدة في العراق وفارس والشام ومصر وشمال أفريقيا واليمن، فما أدخلت في هوى منها إلا القرآن أدخلني فيه، ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجني منه حتى بقيت ليس في يدي شيء. هنا انتهى كلام هذا الرجل الذي كان يشتكي من الأثر السيئ للتعدد المذهبي في نفوس الناس المسلمين. أردف الإمام قوله: "لقد كانت نصيحتي لهذا الأخ بسيطة، أيها الإخوة، حيث قلت له: "يا أخي شدَّ نيتك في المُحكم، وإياك والخوض في المتشابه! هذا هو الموقف الذي ينبغي علينا جميعاً اتباعه كي لا نخرج عن سواء السبيل فيتيه لنا رأي ويضيع لنا قرار. أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله أولا ثم أوصيكم بتقوى الله ثانيا ثم بتقوى الله ثالثا". ثم التفت نحو المنادي طالباً منه أن يقيم الصلاة وسط ذهول وإعجاب الحاضرين الذين ما تعودوا أبداً أن تكون خطبة صلاة الجمعة موجزة وقصيرة بهذا الشكل .

بعد الانتهاء من الصلاة لزم الإمام المسجد كعادته دوما للرد على بعض تساؤلات المصلين وتلبية حوائجهم، وذلك وسط همهمة مستمرة من بين صفوف المصلين المغادرين، ثم انطلق من المسجد وأقفل عائداً إلى بيته متنفساً الصعداء وقد ارتاحت نفسه ولو إلى حين وكأنَّ هماً كبيراً قد أزيح عن كاهله.

وصل أبو عبد الله إلى منزله فاطمأن على وضع زوجته أولا ثم عرج على غرفة والده فوجده في حال صحية طيبة، ثم تناول طعامه وخلد إلى بعض الراحة في

غرفته. وعند حلول الليل تناهى إلى سمعه جلبة واضحة في أنحاء المنزل، وصوت أقدام تروح وتجيء بسرعة داخل جناح الحريم. وبعد ذلك بثوان سمع صراخ الولادة وأصوات زغردة النسوة وتهنئتهن الأم وأقاربها بالمولود الجديد، فأدرك لتوّه أن الوليد صبي واختار له فوراً اسم أحمد ليكون ابنه الثلاثين والأخير.

في اليوم السابع لولادة أحمد، قام أبوعبدالله بتوزيع الأطعمة والحلويات على فقراء الحي بمناسبة ختان ابنه، ثم أولم جدُه محمد وليمة بهذه المناسبة جمعت كبار العلماء من أمثال الإمام المحدث أبي طاهر أحمد بن هارون بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق شيخ العراقيين، والإمام إسحاق بن العباس بن إسحاق بن موسى الكاظم نقيب النقباء في مدينة واسط، وهو حينئذ بالبصرة لمتابعة بعض أعماله(٢٥).

كانت مدينة البصرة في القرن الثالث الهجري من أهم المراكز الفكرية والتجارية الإسلامية، (٢٦) في حين لعبت مدينة الكوفة دور العاصمة العسكرية في عهد الخلفاء الراشدين ومطلع الدولة الأموية(٢٧)، كما أن دمشق في زمن الأمويين، وبغداد في عهد العباسيين قد لعبتا كلتاهما دور العاصمة السياسية للخلافة الإسلامية. وكانت البصرة محط رحالة الشرق والمغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى في أفريقيا من علماء وتجار ومسافرين حتى قيل في المثل العامي آنذاك: "أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري"(٢٨) أو "من دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى بصرياً أوحميرياً" .

وكان أول من سكن مدينة البصرة من العرب قبائل تميم المنحدرة من مجموعة ربيعة والأزد في شمال الجزيرة العربية، في حين كان أول من سكن مدينة الكوفة من العرب قبائل قيس ومضر وكندة ذات الأصل اليمني(٢٩). وكانت البصرة حافلة بالمجالس الحسنة والعمران الإسلامي العريق والمناظر الأنيقة والميادين العجيبة، وفيها مئات الأنهار الكبيرة مثل نهر سيرين ونهر الرس ونهر ابن عمد، (٣٠) والجداول العديدة حيث تجري فيها الزوارق بين كبيرة وصغيرة تشق طريقها أحيانا وسط شجر كثيف من النخيل. ومن هذه الزوارق يرى المرء الزو التي كان يتنزه بها الرشيد والمتوكل، والسميريات والحراقة التي كان يستعملها الأمين، والشبارة والطيرة التي يستعملها كبار القوم، والزبزب التي يركبها عامة الناس في الأفراح، والزلال التي تستعمل لنقل المسافرين من بغداد إلى البصرة وبالعكس ولها سقف يقيها حر الصيف وبرد الشتاء(٣١).

والبصرة أول مدينة إسلامية تنشأ خارج الجزيرة أمر بإنشائها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عام ١٤ هجري قائلا لقائده العسكري عليها عتبة بن غزوان: "أريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل تلك الجزيرة من إمداد إخوانهم على إخوانكم ... حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا في مكان لا يحول

الماء بينه وبين مكة يقع على طرق الصحراء"[٣٢]. وقد أسمى العرب المدينة بالبصرة لأنهم شيدوها على أرض ذات حجارة رخوة بيضاء اعتادوا على تسميتها بالبصرة، علماً بأنهم كانوا قد أطلقوا عليها عندما دخلوها أول مرة عدة أسماء مثل: الخريبة نسبة إلى ما فيها من الخراب، والمؤتفكة نسبة لانقلابها، والرعناء تشبيهاً برعن الجبل[٣٣]. وتقع البصرة على بعد ٧٠ ميلاً عن مصب شط العرب، وقد حظيت بأجمل الأسماء في عهدها الذهبي مثل "عين الدنيا" و" قبة الإسلام " و "خزانة العرب " و" فرج الهند " . وكان ميناء عبدان تابعاً لها ضمن إقليم العراق، وقام المسلمون بشق نهرين إلى البصرة من دجلة هما نهر معقل في الشمال الشرقي والذي تأتيه السفن النازلة من بغداد، ونهر الأبلة وتسير فيه السفن من البصرة نحو الجنوب الشرقي إلى الخليج عند عبادان حيث تجبى مكوس التجارة. ولما كانت البصرة تقع، إلى حد ما، على قناة اصطناعية بسبب كثرة شق الأنهار فيها، علاوة على ضحالة المياه عند مصب نهر دجلة بفعل ترسبات الرمل والغرين التي يحملها معه شط العرب، فقد حال ذلك دون وصول السفن التجارية إليها، وخاصة الجنوك الصينية[٣٤] المعروفة بضخامة حجمها والتي اعتادت الرسو، بسبب ذلك في ميناء سيراف في فارس جنوب شيراز والذي يبعد عن البصرة مائة وعشرين فرسخاً، [٣٥] وتفريغ شحناتها في سفن صغيرة ومتوسطة الحجم تتجه بعد ذلك إلى البصرة .

ونظراً لأهمية موقع البصرة التجاري، فقد وصل عدد سكانها في العهد العباسي إلى حوالي المليون، وتضخمت فيها الأموال والممتلكات والتجارات حتى عد التاجر البصري أغنى التجار وأكثرهم كسباً إلى درجة أن التاجر أبا بكر أحمد السيرافي كان يمتلك معظم السفن التي تبحر إلى الهند وشرق أفريقيا والصين ويمتلك مخازن كبيرة للحبوب والعطريات. وقد قدرت ثروته بحوالي ثلاثة ملايين دينار[٣٦]. وكان من أثرياء البصرة العباس بن العباس العلوي الطالبي الذي كان الخليفة العباسي المعتصم يكرهه ويضمر الشر له ولكل أهله من آل البيت[٣٧]، وخاصة أحفاد الإمام علي زين العابدين الذي هو الجد الأكبر لإمامنا أبي عبد الله .

وكان بالبصرة كثير من آل البيت، وهم لا يزاولون شؤون الدولة بل يكتفون بأمور الدين، ومن سكت منهم على السلطة أغدقت عليه الأرزاق والأعطيات، ومن تحرك داروه أو نكلوا به وقتلوه. وبذلك صارت المكانة خاصة بآل علي بن أبي طالب بمقتضى هذه المعاملة[٣٨]. وجذبت تلك المكانة غير العرب إلى البصرة من العراق وفارس والهند فدخل على الفكر العربي أفكار جديدة أغنته. وكانت البصرة قد فقدت في عهد الوالي الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي بعضاً من أهميتها عندما أمر الحجاج ببناء مدينة واسط بين البصرة والكوفة (التي كانت ثاني مدينة تبنى في الإسلام خارج الجزيرة العربية في عهد عمر الخطاب، والذي بناها هوسعد بن أبي وقاص في عام

١٧ هجري} لكي تكون محطة إقامة وعبور للجنود السوريين الذين اعتمد عليهم الأمويون في فتوحاتهم فيما وراء العراق. وبسبب بطش الحجاج هاجر الكثير من المسلمين من مؤيدي آل البيت من الشام والعراق وخراسان إلى أفريقيا الشرقية وأسسوا مدينة لامو الساحلية هناك[٣٩]. غير أن هذا الجانب المادي المنظور لم يكن هو المسيطر على الحياة اليومية في البصرة، إذ أن هذه المدينة كانت مدينة العلماء والفقهاء والنحاة والصوفية، يطوفها المرء فيجد فيها الحلقات العلمية والدراسية حيث يقارع العلماء آراءهم بآراء غيرهم في سوق المربد ويبحثون في دقائق العلوم في حلقات المساجد، ويكبون على التمحيص في الكتب، فترى منهم المعتزلي والأشعري والحنبلي والمالكي والحنفي والطبري والبابكي والحزمي والمهدي والكيساني[٤٠] ومؤيدي أهل البيت ومتطرفي الفرق العديدة التي تفرعت عن الشيعة وغالت في التطرف كالخوارج ومن لف لفهم[٤١].

هذا هو الجو الذي كان سائداً في البصرة الزاهرة بكل شيء والحافلة بالثروات والجامعة لصنوف الصناعات والغاصّة بالعطارين وبائعي الكتب والمشتغلين بالتأليف والنسخ والترجمة، وكانت تصطرع في ذلك الجو شتى ضروب الفلسفات ومدارس المعتقدات والآراء. غير أن حرية الفكر تلك لم تكن تمارس دون رقيب، وغالباً ماكان يتم نقلها إلى الخليفة مشوهة ومزيفة بحيث يُعمِل الخليفة رأيه فيها بشكل مزاجي غالباً ما أسفر عن وقوع مظالم هائلة دفع الكثير من العلماء والناس حياتهم ثمنا لها. فقد كان مصير أي وشاية تصل إلى الخليفة محدوداً بأربعة احتمالات: إما أن يعمل بصاحبها السيف، أو يدس له السم أو يزج في غياهب السجن. وأما الاحتمال الرابع، فقد كان نادراً ما يلجأ إليه الخلفاء عندما يكون مزاجهم طيباً لحظة المحاسبة والمساءلة، وهو أن يعفوا عن المتهم ويكرموه ويطلقوا سراحه وذلك لمجرد إطلاقه دعابة أو إلقائه بيت شعر أو لسرعة بديهة تعجب الخليفة أو تحرجه كالحادثة التي جرت بين الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك والشاعر المعروف الفرزدق، إذ أن هشاما حج إلى الكعبة وطاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليقبّله فلم يتمكن من شدة الزحام، فتنحى جانباً وأمر بأن ينصب له مكان عال ينظر منه إلى الناس. وبينما هو كذلك إذ أبصر رجلا يشق طريقه إلى الحجر الأسود والناس يتنحون له احتراماً وإجلالاً. فقال رجل من حاشية هشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فأجابه هشام: لا أعرفه، وكان الفرزدق حاضراً، فسأله هشام: من هو يا أبا فراس؟ فأجابه الفرزدق: إنه علي زين العابدين ابن سبط الرسول(ﷺ) الحسين (ﷺ)، وأنشد قصيدته المعروفة التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأتـــه والبيــت يعـرفه والحــل والحــرم
هــذا ابــن خير عباد الله كلهـــــم هــذا التقي النقي الطاهــــر العلــم
إذا رأتــه قــريش قال قــائلــهــــا إلــى مكــارم هــذا ينتهــي الكــرم
ينمي إلى ذروة العز التي قصــرت عن نيلها عــرب الإســلام والعجــم
يكــاد يمســكه عرفــان راحتـــه ركن الحطيم إذا ما جاء يستلـــــم
ينشــق نــور الهدى من نور غرته كالشمس ينجاب عن اشراقها القتـــم
مشــتقــة عــن رســول الله نبعتــه طابت عناصره والخيم والشيـــــم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلـــــه بجده أنبيـــــــاء الله قد ختمـــوا
الله شــرفــه قـــدرا و عظمــــه جرى بذاك لــه في لوحـــة القلــم
مــن جده دان فضل الأنبياء لـــــه وفضــل أمــته دانــت لها الأمـــم
وليس قولك من هذا بضائــــــره العرب تعرف من أنكرت و العجــم
مقــدم بعــد ذكــر الله ذكــرهــم في كل بدء و مختوم به الكلـــم[٤٢]

فلما سمع هشام القصيدة غضب وأمر بحبس الفرزدق في عسفان[٤٣] بانتظار أن يعمل فيه رأيه الأخير وهو القتل عادة بحد السيف ، فما كان من الفرزدق الا أن هجا هشام بقوله :

أتحبســـني بيــن المدينــة والــتـ إلــيه قلــوب الناس تهــوي مبنيـــها
تقلـــب رأســـا لــم تكــن رأس سيد وعيــنـــا لـــه هولاء بـــاد عيــوبها

فلما وصلت الأبيات إلى مسامع هشام أسقط يده أمام حاشيته ودفعه الخجل إلى إطلاق سراح الشاعر الهجاء. وهناك حادثة مماثلة جرت في عهد المعتصم. فقد خرج تميم بن حجيل عن طاعة المعتصم العباسي وهرب إلى بعض النواحي، وكان المعتصم قد ضاق ذرعا به فبعث من جاءبه مقيداً. دخل تميم وحضر السياف وفرش النطع، وكان تميم غير مكترث تعلو الشجاعة هامته، فلما رآه المعتصم غير مكترث سأله ليعرف هل يتوازى عقله مع جسارة قلبه: يا تميم، إن كان لك عذر فهاته، فأجاب:

" أما إذا أذن أمير المؤمنين، فالحمد لله الذي جبر بك صدع الدين ولم بسبب

المعجون على جميع الصور، وجعلت تلك المرافع بساطاً ممدودا، ثم أحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب فوضعت بين يديهم صوان من ذهب مرصعة بالأحجار الكريمة من الجانبين وبين السماطين فرجة، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوؤة دراهم ودنانير ووضعت في الفرجة التي بين السماطين حتى ارتفعت على الصواني.

وأمر الخليفة الحاضرين أن يشربوا ويأخذ كل واحد ممن يأكل ويشرب من تلك الدراهم والدنانير ثلاث حفنات ممّا حملت يداه. وكلما خف موضع صب عليه من تلك الزبابيل حتى يرد إلى حالته. ووقف غلمان في آخر المجلس وقالوا: " إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء !

فمدّ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به ويسلمه إلى غلمانه، ويرجع إلى مكانه. ولما أشرفت الحفلة على النهاية خلع الخليفة ألف خلعة على الناس وأعتق ألفا من العبيد(٥٣).

وكان كل الحاضرين سعداء بهذه الثروة التي هبطت عليهم ماعدا شاباً واحداً يدعى المنتصر وهو الابن البكر للمتوكل وقد كلفه والده بولاية الحرمين واليمن والطائف. وكان سبب حزنه وجفائه هو أن أحد العبيد الخصيان المكلف بالخدمة في مخدع أم المنتصر زوجة الخليفة(٥٤) وهي تركية الأصل، قد أسرّ لها أن زوجها الخليفة ينوي تسمية ابنه الثاني المعتز، وهو من أم أخرى عربية الأصل، ولياً لعهده بدلا من المنتصر، كما أنه ينوى نقل مقر الخلافة إلى دمشق ترهباً من نفوذ قادة الجيش الأتراك فأسرعت الأم إلى إعلام ابنها بذلك. ولقد تأكدت شكوك الابن بنوايا أبيه عندما شاهد بأم عينه الإسراف والتبذير، والبذخ الذي تميز به حفل ختان أخيه الصغيرالمعتز، فبدأ يضمر الشر لكل من أبيه وأخيه الأصغر و يتربص بهما الدوائر ...

ترعرع الغلام أحمد بن عيسى في كنف أبيه فكان يصحبه في جلساته العلمية وينصت بانتباه واحترام شديدين للحوار بين المتحدثين. وما إن بلغ سن الرابعة حتى بدأ يتعلم حفظ القرآن على يد صديق أبيه الإمام القاسم بن أحمد الخياط، ثم أخذ عن معلمه هذا قراءة الحروف والقصص القرآنية والتجويد والحديث، فكان هذا المعلم مقرئاً ومحدثا ومدرسا له في الوقت نفسه.

عاش أحمد هنا في جو مليء بالمتناقضات شأن أبيه وجده من قبله. علوم وآداب وفلسفات إلى جانب حوادث دامية وخوف ورعب وتشريد وحروب طاحنة داخل الخلافة وعلى حدودها. غير أن غلامنا هذا كان يصغي إلى كل شاردة وواردة ويختزنها في عقله. وكانت أجمل اللحظات لديه تلك التي يصطحب فيها أباه أو إخوته الأكبر منه إلى نواحي ميناء البصـرة حيث يلتهب خياله برؤية تلك السفن العملاقة التي

تفرغ شحناتها في حركة دائمة، ويجلس في بعض الزوايا للاستماع إلى مغامرات الرحالة في البلاد البعيدة[٥٥].

وفي أحد أيام الصيف من سنة ٢٤٧ هجرية وبينما كان أحمد يستمع لمعلمه في حلقة المسجد التعليمية مع غيره من الأولاد، إذ برجل يدخل مسرعا إلى المسجد وهو يلهث وتوجه صوب حلقة الإمام عيسى وبقية العلماء قائلا لهم: لقد قتل الخليفة المتوكل ومعه أميره الفتح بن خاقان في قصره الجعفري في بغداد على يد ابن الخليفة المنتصر الذي تولى الخلافة ولبس البردة ولقب نفسه المنتصر بالله[٥٦]. ولما سأل الحاضرون هذا الرجل عن تفاصيل عملية القتل قال لهم: إن ما حدث ليس له سابقة، فقد قتل الابن أباه بأن تآمر مع قادة الجيش الأتراك ضده فدخلوا عليه على حين غرة وقتلوه وهو في سريره، وذلك بعد أن كان الخليفة قد فرغ لتوّه من حفل أقامه في قصر الخلافة لتقليد السلطان الملك فرج بن الظاهر برقوق بعد وفاة والده الظاهر، وحضر الحفل إلى جانب الخليفة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وقضاة الخلافة الأربعة: الجناب الشريف العالي بدر الدين والجناب الكريم العالي صدر الدين والجناب العالي صلاح الدين والجناب العالي جلال الدين، وكذلك أهل العلم والأمراء وقادة الأجناد وشاعر الخليفة المتوكل على الله البحتري[٥٧].

صرخ الحاضرون مستهجنين القتل وتعوذوا بالله من شر ما حدث وتدخّل أحدهم ليقول: ليس العباسيون بأفضل من الأمويين في فظاعة تصفيتهم لبعض بعضاً. فقد عرف عن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أنه قتل ابنه أيوب صبراً، وها هو الخليفة العباسي المنتصر يقتل أباه دون أن يهتز له جفن. لاحول ولا قوة إلا بالله، اللهم احمنا من نيران الفتنة.

ثم قرر الناس الخروج من المسجد والتزام منازلهم ريثما تهدأ الأمور ويقف الناس على حقيقة ماجرى، فأسرع الإمام عيسى بصحبة أبنائه إلى بيتهم، في حين تفرق بقية الناس كل في سبيله، وكانت الأزقة قد بدأت تشهد انتشار الجند والحراس منعا للنهب والسرقة ودرءاً لحدوث أي اضطرابات ضد الخليفة الجديد ...

وبعد ذلك بأيام سمع أهل الحي القابعين في بيوتهم قرع طبول يحملها موكب من الجند، ففتحوا نوافذ بيوتهم ليقفوا على حقيقة الأمر، ووقعت عيونهم على مُنادٍ يقرأ بملء صوته خبر استلام المنتصر سدة الحكم في بغداد وتعيينه أحمد بن الخصيب وزيرا له وأسماء ولاته الجدد في الأمصار، فعرف الناس أن الخليفة قد عزل صالح بن علي عن المدينة المنورة واستعمل عليها علي بن الحسن العباسي، في حين أبقى بقية الولاة الذين كان يستعملهم أبوه في أماكنهم، إذ ترك اليمن بيد بني زياد ابن أبيه الأموي[٥٨]، وثبت إسماعيل بن أحمد الساماني على ماوراء النهر شمال خراسان، وطاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين على خراسان[٥٩]، وكذلك أبقى على إفريقية

أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب وعندما انتهى المنادي من قراءة بيان الخليفة على أسماع الناس، ختم حديثه بالقول: تلك مشيئة الله وهذه إرادة مولانا عبد الله ووليه أمير المومنين الخليفة المنتصر بالله حفظه الله، وما عليكم، معشر المسلمين، إلا الطاعة والبيعة. وما على المؤمن إلا البلاغ. قرأ على مسامعكم هذا البيان عبد الخليفة وحارسه الأمين قريغا باسم أمير الجند في البصرة وناظر الجيش أرسلان بهاء الدين، فعرف الناس من الاسمين أن الهيمنة على جيش الخليفة قد ذهبت للترك[٦٠] لاسيما وأن ناظر الجيش أرسلان بهاء الدين قد أسقط عن لقبه كلمة "الشاكرية" ذات الأصل الفارسي التي كان الخليفة المتوكل قد أضافها إلى ديوان الجند بحيث تقرأ "ديوان الجند والشاكرية". والشاكرية كلمة تعني العبيد أو الخدم[٦١].

ورغم فظاعة وهول ما فعله المنتصر بالله، سرعان ما أدرك الناس أنه أفضل من أبيه. فقد أمّن الناس على حياتهم وخاصة آل البيت من الطالبيين، إذ أمر المنتصر بإعادة بناء ضريح الحسين الذي كان قد هدمه أبوه المتوكل سنة٢٣٦ هجرية، وأمر أيضا بإطلاق أوقافهم وعدم التعرض لهم. وبات الناس ينتظرون مايحمله لهم الغد من تطورات وأخبار.

غير أن النفوس كانت مضطربة بسبب عدم الاستقرار وبسبب ماتناقلته ألسنة العامة من أن وزير المنتصر أحمد بن الخصيب نفسه قد قال لما خلع عليه الخليفة الوزارة: "مثلي كمثل الناقة تزين للنحر ويطاف بها وينادى: غداً إن شاء الله ".

في عهد المنتصر بالله، انتقل الفتى أحمد بن عيسى من مرحلة التعلم على يد الكتّاب والقرّاء إلى مرحلة الأخذ عن كبار العلماء موادَّ علوم القرآن والتجويد. فقد كان أستاذه في النحو واللغة العربية والآداب الإمامُ أبو علي الحسن بن داود القرشي المعروف بالنقار المقرئ النحوي الكوفي إمام اللغة في زمانه. كما أخذ الفقه عن أبيه فوقف على رأي أهل البيت إزاء مسائل الدين والدنيا، وهو رأي كان قد أرساه جده الأكبر الإمام جعفر الصادق الذي وقف على مسافة واحدة من أهل الشيعة وخصومهم، ورفع أهل البيت عن مهاترات الصراع على السلطة تحت ذرائع الدين فحفظ لهم ماء وجههم وصان للعترة النبوية الشريفة سمو مكانتها ورفعة مقامها.

وكان الفتى أحمد ينصت باحترام شديد إلى أصدقاء والده من علماء الإسلام الذائعي الصيت ممن كانوا يترددون عليه لدى مرورهم بالبصرة. وكم كانت فرحته بالغة عندما أصغى ذات يوم لعالم الحديث المشهور محمد بن إسماعيل البخاري الذي جاء من مدينة بخارى إلى البصرة رغبة بالاحتكاك بعلماء الحديث الآخرين، ثم أصغى مرة أخرى إلى مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الذي يعتبر مرجعاً قيماً في علوم الحديث أيضا. ولم يقتصر تعليم أحمد على المواد الدينية واللغوية، بل إنه درس أيضا الرياضيات والفلسفة والطب والفلك، وكان حظه كبيراً لوجوده في عصر علماء كبار

علي الحصاص والشريف عمر وأحمد بن عمار ممن يتاجرون مع الصين والهند وسومطرا ووجهاء الحي، كما قدم وفد من رجال الدين العرب المسيحيين النساطرة لتقديم العزاء باسم الكنيسة النسطورية. وكان أعضاء الوفد يرتدون زيا أسود اللون وعليه علامات خاصة تميزهم عن المسلمين، وقد جاؤوا إلى مجلس العزاء راجلين لأن الخليفة المتوكل على الله كان قد أصدر أوامره بتغيير زي أهل الذمة وبألاّ يركب أهل الذمة من المسيحيين واليهود الخيول، كما استبعدهم عن المناصب الحكومية مثل ديوان المال وديوان الإدارة. وأما أولئك الذين اختاروا إعلان إسلامهم فقد عوملوا معاملة حسنة كالطبيب علي بن ريان الطبري اليهودي الذي أسلم في عهد المتوكل، بينما بقيت عائلته على يهوديتها.

وكان دافع المتوكل إلى فعل ذلك هو قناعته بأن الأمويين إنما كانوا يشكلون جيوشهم أساساً من مسيحيي الشام والعمانيين والحضرميين، فحنق على كل هؤلاء جميعا لمجرد نفوره من الأمويين.

وقد تميز رجال الدين المسيحيون بمستوى حضورهم الرفيع، فقد كان الوفد برئاسة أسقف الكنيسة النسطورية في العراق يصحبه مطران الطائفة وعدد من القسيسين. كما قام بتقديم التعزية وفد من رجال الدين اليهود برئاسة الحزان ويصحبه الشليحصبور(٥٠).

والواقع أن وجاهة المتوفى وأولاده وشرف نسبهم وعريق محتدهم، كل تلك الخصال لم تكن الدافع الوحيد لقيام رجال الدين النصارى واليهود بزيارة الإمام عيسى وتقديم العزاء له بوفاته والده الإمام محمد، بل إن عداء المسيحيين واليهود للمتوكل دفعهم للبحث عن تحالفات محسوبة مع كل من يفترضون فيهم معاداة الحكم العباسي، وكانوا يعتقدون أن آل البيت من بين هؤلاء، وبالتالي فإن المصائب قد تجمع بين الأضداد، علاوة على أن حملات التبشير المسيحية النسطورية، التي كان يقوم بها تجار عرب مسيحيون في السند والهند ومنغوليا والصين(٥١) كانت تنقل لدى عودتها إلى بغداد والبصرة أخبار وجود شخصيات رفيعة من آل البيت في جزر الزابج والمهراج وسولاويسي وبومباي وكوجرات وسرنديب، ممن كانوا قد فروا من الأمويين في بداية عهدهم(٥٢).

وبينما كانت تتلى آيات من القرآن الكريم في البصرة، كان الخليفة المتوكل يحتفل بختان ابنه الثاني الأثير على نفسه المعتز في قصره ببغداد حيث أقام وليمة لم تشهدالمدينه مثلها من قبل حضرها كبار القواد الأتراك وولاة الأمصار ووجهاء البلاد من تجار وعلماء. وتعمد المتوكل خلالها إظهار قوته وثرائه وشدة بأسه لإرهاب كل من تسول له نفسه التمرد عليه. وبعدَ فراغ المدعوين من الأكل، قدمت بين يدي المتوكل مرافع ذهب مرصعة بالجواهر وعليها أطايب أنواع العنبر والمسك والند

المعجون على جميع الصور، وجعلت تلك المرافع بساطاً ممدودا، ثم أحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب فوضعت بين يديهم صوان من ذهب مرصعة بالأحجار الكريمة من الجانبين وبين السماطين فرجة، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوؤة دراهم ودنانير ووضعت في الفرجة التي بين السماطين حتى ارتفعت على الصواني.

وأمر الخليفة الحاضرين أن يشربوا ويأخذ كل واحد ممن يأكل ويشرب من تلك الدراهم والدنانير ثلاث حفنات ممّا حملت يداه. وكلما خف موضع صب عليه من تلك الزبابيل حتى يرد إلى حالته. ووقف غلمان في آخر المجلس وقالوا: " إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء !

فمدّ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به ويسلمه إلى غلمانه، ويرجع إلى مكانه. ولما أشرفت الحفلة على النهاية خلع الخليفة ألف خلعة على الناس وأعتق ألفا من العبيد(٥٣).

وكان كل الحاضرين سعداء بهذه الثروة التي هبطت عليهم ماعدا شاباً واحداً يدعى المنتصر وهو الابن البكر للمتوكل وقد كلفه والده بولاية الحرمين واليمن والطائف. وكان سبب حزنه وجفائه هو أن أحد العبيد الخصيان المكلف بالخدمة في مخدع أم المنتصر زوجة الخليفة(٥٤) وهي تركية الأصل، قد أسرّ لها أن زوجها الخليفة ينوي تسمية ابنه الثاني المعتز، وهو من أم أخرى عربية الأصل، ولياً لعهده بدلا من المنتصر، كما أنه ينوى نقل مقر الخلافة إلى دمشق ترهباً من نفوذ قادة الجيش الأتراك فأسرعت الأم إلى إعلام ابنها بذلك. ولقد تأكدت شكوك الابن بنوايا أبيه عندما شاهد بأم عينه الإسراف والتبذير، والبذخ الذي تميز به حفل ختان أخيه الصغيرالمعتز، فبدأ يضمر الشر لكل من أبيه وأخيه الأصغر و يتربص بهما الدوائر ...

ترعرع الغلام أحمد بن عيسى في كنف أبيه فكان يصحبه في جلساته العلمية وينصت بانتباه واحترام شديدين للحوار بين المتحدثين. وما إن بلغ سن الرابعة حتى بدأ يتعلم حفظ القرآن على يد صديق أبيه الإمام القاسم بن أحمد الخياط، ثم أخذ عن معلمه هذا قراءة الحروف والقصص القرآنية والتجويد والحديث، فكان هذا المعلم مقرئاً ومحدثا ومدرسا له في الوقت نفسه.

عاش أحمد هنا في جو مليء بالمتناقضات شأن أبيه وجده من قبله. علوم وآداب وفلسفات إلى جانب حوادث دامية وخوف ورعب وتشريد وحروب طاحنة داخل الخلافة وعلى حدودها. غير أن غلامنا هذا كان يصغي إلى كل شاردة وواردة ويختزنها في عقله. وكانت أجمل اللحظات لديه تلك التي يصطحب فيها أباه أو إخوته الأكبر منه إلى نواحي ميناء البصـرة حيث يلتهب خياله برؤية تلك السفن العملاقة التي

تفرغ شحناتها في حركة دائمة، ويجلس في بعض الزوايا للاستماع إلى مغامرات الرحالة في البلاد البعيدة(٥٥).

وفي أحد أيام الصيف من سنة ٢٤٧ هجرية وبينما كان أحمد يستمع لمعلمه في حلقة المسجد التعليمية مع غيره من الأولاد، إذ برجل يدخل مسرعا إلى المسجد وهو يلهث وتوجه صوب حلقة الإمام عيسى وبقية العلماء قائلا لهم: لقد قتل الخليفة المتوكل ومعه أميره الفتح بن خاقان في قصره الجعفري في بغداد على يد ابن الخليفة المنتصر الذي تولى الخلافة ولبس البردة ولقب نفسه المنتصر بالله(٥٦). ولما سأل الحاضرون هذا الرجل عن تفاصيل عملية القتل قال لهم: إن ما حدث ليس له سابقة، فقد قتل الابن أباه بأن تآمر مع قادة الجيش الأتراك ضده فدخلوا عليه على حين غرة وقتلوه وهو في سريره، وذلك بعد أن كان الخليفة قد فرغ لتوّه من حفل أقامه في قصر الخلافة لتقليد السلطان الملك فرج بن الظاهر برقوق بعد وفاة والده الظاهر، وحضر الحفل إلى جانب الخليفة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وقضاة الخلافة الأربعة: الجناب الشريف العالي بدر الدين والجناب الكريم العالي صدر الدين والجناب العالي صلاح الدين والجناب العالي جلال الدين، وكذلك أهل العلم والأمراء وقادة الأجناد وشاعر الخليفة المتوكل على الله البحتري(٥٧).

صرخ الحاضرون مستهجنين القتل وتعوذوا بالله من شر ما حدث وتدخّل أحدهم ليقول: ليس العباسيون بأفضل من الأمويين في فظاعة تصفيتهم لبعض بعضاً. فقد عرف عن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أنه قتل ابنه أيوب صبرا، وها هو الخليفة العباسي المنتصر يقتل أباه دون أن يهتز له جفن. لاحول ولا قوة إلا بالله، اللهم احمنا من نيران الفتنة.

ثم قرر الناس الخروج من المسجد والتزام منازلهم ريثما تهدأ الأمور ويقف الناس على حقيقة ماجرى، فأسرع الإمام عيسى بصحبة أبنائه إلى بيتهم، في حين تفرق بقية الناس كل في سبيله، وكانت الأزقة قد بدأت تشهد انتشار الجند والحراس منعا للنهب والسرقة ودرءاً لحدوث أي اضطرابات ضد الخليفة الجديد ...

وبعد ذلك بأيام سمع أهل الحي القابعين في بيوتهم قرع طبول يحملها موكب من الجند، ففتحوا نوافذ بيوتهم ليقفوا على حقيقة الأمر، ووقعت عيونهم على مُنادٍ يقرأ بملء صوته خبر استلام المنتصر سدة الحكم في بغداد وتعيينه أحمد بن الخصيب وزيرا له وأسماء ولاته الجدد في الأمصار، فعرف الناس أن الخليفة قد عزل صالح بن علي عن المدينة المنورة واستعمل عليها علي بن الحسن العباسي، في حين أبقى بقية الولاة الذين كان يستعملهم أبوه في أماكنهم، إذ ترك اليمن بيد بني زياد ابن أبيه الأموي(٥٨)، وثبت إسماعيل بن أحمد الساماني على ماوراء النهر شمال خراسان، وطاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين على خراسان(٥٩)، وكذلك أبقى على إفريقية

أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب وعندما انتهى المنادي من قراءة بيان الخليفة على أسماع الناس، ختم حديثه بالقول: تلك مشيئة الله وهذه إرادة مولانا عبد الله ووليه أمير المومنين الخليفة المنتصر بالله حفظه الله، وما عليكم، معشر المسلمين، إلا الطاعة والبيعة. وما على المؤمن إلا البلاغ. قرأ على مسامعكم هذا البيان عبد الخليفة وحارسه الأمين قريغا باسم أمير الجند في البصرة وناظر الجيش أرسلان بهاء الدين، فعرف الناس من الاسمين أن الهيمنة على جيش الخليفة قد ذهبت للترك[٦٠] لاسيما وأن ناظر الجيش أرسلان بهاء الدين قد أسقط عن لقبه كلمة "الشاكرية" ذات الأصل الفارسي التي كان الخليفة المتوكل قد أضافها إلى ديوان الجند بحيث تقرأ "ديوان الجند والشاكرية". والشاكرية كلمة تعني العبيد أو الخدم[٦١].

ورغم فظاعة وهول ما فعله المنتصر بالله، سرعان ما أدرك الناس أنه أفضل من أبيه. فقد أمّن الناس على حياتهم وخاصة آل البيت من الطالبيين، إذ أمر المنتصر بإعادة بناء ضريح الحسين الذي كان قد هدمه أبوه المتوكل سنة٢٣٦ هجرية، وأمر أيضا بإطلاق أوقافهم وعدم التعرض لهم. وبات الناس ينتظرون مايحمله لهم الغد من تطورات وأخبار.

غير أن النفوس كانت مضطربة بسبب عدم الاستقرار وبسبب ماتناقلته ألسنة العامة من أن وزير المنتصر أحمد بن الخصيب نفسه قد قال لما خلع عليه الخليفة الوزارة: "مثلي كمثل الناقة تزين للنحر ويطاف بها وينادى: غداً إن شاء الله ".

في عهد المنتصر بالله، انتقل الفتى أحمد بن عيسى من مرحلة التعلم على يد الكتّاب والقرّاء إلى مرحلة الأخذ عن كبار العلماء موادّ علوم القرآن والتجويد. فقد كان أستاذه في النحو واللغة العربية والأداب الإمامُ أبو علي الحسن بن داود القرشي المعروف بالنقار المقرئ النحوي الكوفي إمام اللغة في زمانه. كما أخذ الفقه عن أبيه فوقف على رأي أهل البيت إزاء مسائل الدين والدنيا، وهو رأي كان قد أرساه جده الأكبر الإمام جعفر الصادق الذي وقف على مسافة واحدة من أهل الشيعة وخصومهم، ورفع أهل البيت عن مهاترات الصراع على السلطة تحت ذرائع الدين فحفظ لهم ماء وجههم وصان للعترة النبوية الشريفة سمو مكانتها ورفعة مقامها.

وكان الفتى أحمد ينصت باحترام شديد إلى أصدقاء والده من علماء الإسلام الذائعي الصيت ممن كانوا يترددون عليه لدى مرورهم بالبصرة. وكم كانت فرحته بالغة عندما أصغى ذات يوم لعالم الحديث المشهور محمد بن إسماعيل البخاري الذي جاء من مدينة بخارى إلى البصرة رغبة بالاحتكاك بعلماء الحديث الأخرين، ثم أصغى مرة أخرى إلى مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الذي يعتبر مرجعاً قيماً في علوم الحديث أيضا. ولم يقتصر تعليم أحمد على المواد الدينية واللغوية، بل إنه درس أيضا الرياضيات والفلسفة والطب والفلك، وكان حظه كبيرا لوجوده في عصر علماء كبار

ممن طبقت شهرتهم الآفاق في تلك المجالات. لا بل إنه أخذ شيئا من الرياضيات عن الرياضي موسى الخوارزمي صاحب كتاب الجبر الذي كان يقصده أهل العلم من مشارق الأرض ومغاربها. وأخذ شيئا من الفلسفة عن الفيلسوف أبي يعقوب الكندي، صاحب المدرسة المشائية في الفلسفة الإسلامية، كما أخذ فكرة عن الصوفية على يد الحلاج الصوفي الشهير. وقد اصطحب أباه في إحدى زياراته لبغداد حيث تعرف فيها على الأطباء المشهورين يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق وثابت بن قرة وسابور بن سهل الذي هو أول من ألف في علم الأقرباذين[٦٢].

ودرس أحمد بن عيسى على يد سهل التستري الصوفي وأبي داود الحافظ وأبي نعيم الاسترابادي والحسين الضحاك البصري، أي أنه قيض للفتى أحمد بن عيسى أن يترعرع في جو مشبع بالعلم وأصول الدين والفقه، فجمع في آن واحد معا، بين علم آل البيت وتقاهم وبين علوم الدنيا وثقافتها[٦٣].

كانت الحالة المادية لآل البيت القاطنين بالبصرة جيدة، ولهم جاه كبير ومال لا يحصى، وكانوا يعملون أساساً في التجارة البحرية والبرية.

وأما التجارة البرية فقد ورثوها عن أجدادهم في الجزيرة العربية وخاصة الاتجار مع اليمن والشام، أسوة بماكان يفعله الرسول الأكرم محمد (ﷺ). وأما التجارة البحرية فقد كانوا حديثي العهد بها[٦٤] ولم ينخرطوا فيها إلا بعد تأسيس الأسطول البحري الإسلامي وإقامتهم في البصرة وهي ميناء الدنيا قاطبة ومقصد التجار من كل ثغور الدنيا مشرقها ومغربها. وكان جل مايتاجر به آل البيت يكمن في استيراد ألياف النرجيل لصناعة حبال السفن التي تدعى بالقلوس، والحبوب وخشب الساج والتليخ من الهند، وخشب الأبنوس من الزابج (جاوا)، والعاج والصدف من سرنديب، والحرير والورق والخزف من الصين. وأما الصادرات فكانت اللؤلؤ والعطور والأقمشة والعقاقير الطبية، وخاصة حبات الكندر والصندلان والمرة واللبان والخيول العربية الأصيلة والبغال والحمير[٦٥].

وقد شارك الامام عيسى بن محمد في تمويل رحلة الجغرافي سليمان التاجر السيرافي سنة ٢٣٧ هجرية [٦٦] والتي كان غرضها الرئيسي استطلاع أخبار التجارة البحرية وطرقها في أقصى الشرق، ودراسة علم الأنواء ومهاب الرياح. وكانت تلك الرحلة هي الأولى من نوعها، ابتدأت في البصرة وسيراف إلى عمان ثم سواحل الهند وماليبار وسرنديب[*Ceylan*]، ثم جزر الملايو وصولاً إلى جزر الأوقيانوس واصطيفون، وأخيرا كانتون (*Canton*) في الصين[٦٧]. وكانت رحلة سليمان التاجر السيرافي تجسيدا لأسطورة رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب " ألف ليلة وليلة *Kisah Seribu Satu Malam* " الذي كان قد ظهر في عصر هارون الرشيد، وألهب خيال الناس بقصصه المشوقة[٦٨].

وكم كان سرور الفتى أحمد بن عيسى عظيما عندما استمع لأول مرة في حياته إلى الرحالة سليمان السيرافي وهو يقص على مجموعة من الناس في المسجد الحكايات والأحداث المذهلة التي كان قد رآها في رحلته البحرية الطويلة التي استغرقت حوالي العامين. وكان الخبر الأهم الذي ألهب خيال فتانا أحمد هو ما قاله الرحالة من أنه اجتمع خلال رحلته بمسلمين من الطالبيين مقيمين في السند[*Pakistan*] والهند وفي جزر سولاويسي[*Sulawesi*] والمهراج وأوقيانوس منذ زمن الحجاج بن يوسف الثقفي والي الأمويين على العراق و خراسان(٦٩).

ولم يتمالك أحمد أن يمسك نفسه، فسأل الرحالة مزيدا من التفاصيل حول هذه النقطة . فشرح له سليمان السيرافي أنه قد رأى الكثير من الطالبيين المنتشرين في كل البقاع التي زارها انطلاقا من حدود خراسان الجنوبية إلى السند والهند ثم جزر الزابج والرامني وبلاد الصنف وجاوا وسومطرة [*Sumatera*] وآتشيه [*Aceh*] (٧٠) وأن كل من التقاهم السيرافي من هؤلاء الطالبيين أكدوا له أنهم من آل البيت وأنهم كانوا قد فروا منذ زمن بعيد من العراق والشام وخراسان هربا من الأمويين، وأن أول القادمين إلى الهند من آل البيت هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد تركت تلك القصص آثارا عميقة في ذهن الفتى أحمد بن عيسى الذي كان يسأل أباه من آن لآخر عن هوية أقربائه الذين فضّلوا المنفى على البقاء في بلادهم. فكان الأب ينقل لابنه مايعرفه عن معلومات قليلة بحوزته ويهدئ روعه...

لم يطل الأمر بالخليفة المنتصر بالله، إذ مات مسموما بعد سنتين من قتله لأبيه المتوكل. ومات معه وزيره أحمد بن الخصيب، فصار الناس يتندرون بصدق نبوءة الوزير عندما شبه نفسه بالناقة عندما خلع عليه المنتصر لقب الوزارة. وتولى الخلافة بعد المنتصر أحمد بن المعتصم بن محمد بن الرشيد الذي اختار لقب المستعين بالله وعين عبد الله بن محمد بن يزداد المكنى بأبي صالح وزيرا له، وعيسى بن فرخنشاه عاملا له على ديوان الخراج، وأبقى يزيد بن عبد الله واليا له على مصر، وعين محمد ابن عبد الله بن طاهر واليا على المدينة المنورة وجعفر بن الفضل بن عيسى على مكة المكرمة ، وعقبة بن محمد بن جعفر على الموصل، في حين أبقى ولاية اليمن بيد بني زياد وولاية خراسان بيد محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر. وأما في أفريقيا فقد ولي زيادة الله الأصغر بن أبي الأغلب(٧١).

في صباح أحد الأيام القليلة الممطرة في البصرة من سنة ٢٥٠ هجرية، وكان قد مضى على خلافة المستعين بالله بضعة أشهر، فوجئ الإمام عيسى بن محمد وهو جالس في غرفته الخاصة به والتي تسمى "الطيارة" بالسقاطة الحديدية الموجودة على باب بيته تقرع بعنف، فلما أطل من الشنشيل (٧٢) المخرم على الزقاق شاهد ثـلة من الجنود يقودهم صاحب الشرطة في البصرة يقفون على عتبة الدار، فأسرع يفتح دقر

الباب الخشبي ويسأل قلقاً عن سبب مجيئهم داعيا اياهم للدخول في الوقت نفسه. غير أن صاحب الشرطة اعتذر عن الدخول قائلا أنه جاء بأوامر من الخليفة في بغداد تحذر آل البيت الطالبيين من تأييد ثورة الحسن بن يزيد ومحمد بن جعفر والامتناع عن التطرق لذكر هذين الشخصين في الخطبة الأسبوعية في المسجد. وأضاف صاحب الشرطة يقول إن الأوامر تقضي بأن يبلغ عيسى بن محمد آل البيت في البصرة بفحوى إرادة الخليفة بحكم كونه نقيبا للطالبيين في البصرة!. وكان أحمد بن عيسى واقفا إلى جانب أبيه يستمع للحوار دون أن ينبس ببنت شفة.

لم يكن أبو عبد الله على علم بخروج الحسن بن يزيد و محمد بن جعفر عن طاعة الخليفة الجديد، ولذلك دعا أفراد عائلته المقيمين في البصرة إلى اجتماع عاجل، وهم أولاد أعمامه من بني قديم وبني المهادلة، كما دعا أصحاب ومؤيدي آل البيت من آل الأزدي وآل مختار والأصبهاني.

اجتمع الرهط المذكور في بيت نقيبهم الإمام عيسى بن محمد الذي نقل إليهم رسالة الخليفة الجديد إليهم وخبر خروج قريبيهما الحسن بن يزيد ومحمد بن جعفر على الخليفة في طبرستان والري، فأخذت الحمية والحماسة تدبان في أوصال آل الأزدي والأصبهاني داعين إلى الخروج عن طاعة الخليفة والمطالبة بها لآل البيت، ولكن نقيب القوم تذكر في تلك اللحظة الموقف الحكيم الذي كان جده الأكبر الإمام جعفر الصادق قد لاذ به في موقف مشابه عندما أراد بنو هاشم أن يبايعوا محمدا وإبراهيم ابني عبد الله المحسن بن الحسن المثنى، وذلك في أواخر دولة بني مروان، فأرسلوا لجعفر الصادق يسألونه الحضور، فلما حضر قالوا: امدد يدك نبايعك بالخلافة. فقال: والله انها ليست لي ولا لهما، وإنها لصاحب القباء الأصفر (ويقصد به أبا جعفر المنصور الذي اعتاد ارتداء قباء أصفر اللون)، والله ليلعبن بها صبيانهم وغلمانهم "[٧٣].

وبعد تدارس الموقف من كل جوانبه، اتفق الحاضرون على عدم الانخراط في أي عمل قبل الوقوف على حقيقة المسألة وتوخي الحذر الحيطة وعدم إثارة الخليفة الجديد ريثما تتجلى الصورة.

وما إن مرت بضعة أسابيع حتى علم الناس أن الحسن بن زيد قد خرج في بلاد الديلم وأطلق على نفسه لقب الإمام وهزم جيوش الخليفة التي كان يقودها قرين بن شهريار أصبهاد الخليفة في الديلم وسليمان بن عبدالله بن طاهر والي الخليفة في خراسان، وأن الحسن قد أسر قرين بن شهريار في المعركة وأقنعه بالوقوف إلى جانبه ضد الخليفة والطاهريين والسامانيين، وأن محمد بن جعفر بن الحسن قد خرج بالري داعيا بالخلافة للحسن بن زيد، كما خرج الحسين بن محمد بن حمزة بن الحسين بن علي زين العابدين في الكوفة على الخليفة أيضا. واستغل أصحاب المطامع والانتهازيون تلك الثورات فركبوا موجتها ساعين وراء الثروة وشهوة السلطة. وهكذا

اهتزت سلطة الخلافة العباسية وضعف موقف الخليفة المستعين بالله الذي تشتتت جيوشه في كل أنحاء الخلافة الشرقية لقمع تلك الثورات. فساد الفساد وغاب الاستقرار عن البلاد، واستقل الولاة وأمراء الجيش بالأمر في مقاطعتهم يرهقون الناس بالضرائب ويسوقون أولادهم للحرب... وتأثرت البصرة أكثر من غيرها لأنها الميناء الرئيسي للخلافة، فتوقفت حركة السفن وركدت الأسواق وجمدت المعاملات بين التجار، وأخذت فرائص الناس ترتجف من القادم فربّما يكون أسوأ مما مضى.

ولم يخب ظن آل البيت في البصرة في حسن تحليلهم للأحداث وصوابية حذرهم وترقبهم. فقد حملت لهم الأخبار من جرجان وجيلان وطبرستان مزيدا من التفاصيل عن دعوة الحسن بن زيد، وتبين أن أنصار الحسن الذين أخذ الناس يطلقون عليهم اسم الزيديين[٧٤]، قد غالوا في اجتهادهم وأقحموا آل البيت في تأويلات الصراع على الخلافة مجددا، علاوة على إضفاء تفسيرات دينية لايجمع شأنها آل البيت أنفسهم. من ذلك مثلا قناعة الزيديين بأن الإمامة حق لأي ابن أو حفيد لسبطي الرسول (ﷺ) الحسن والحسين طالما اجتمعت فيه صفات التقوى - الاستقامة، وأنه يمكن بالتالي أن تجتمع الإمامة في أكثر من إمام في وقت واحد، أو أن تغيب تلك الإمامة زمنيا تماما بسبب عدم وجود من تتوفر صفاتها فيه[٧٥].

في غمرة تلك الأحداث المأساوية وعلى الرغم من حاجته لقوة الجيش ووحدته في جميع الولايات، حاول الخليفة المستعين بالله التخلص من نفوذ الطاهريين في بغداد. فطلب من محمد بن عبد الله بعد وفاة شقيقه القوي طاهر بن عبد الله والي خراسان، وقائد جيوش الخلافة في شرق إيران، أن يخلف أخاه في خراسان ولكنه رفض، فاضطر الخليفة إلى الانصياع للرفض وعيّن ابن طاهر ويدعى محمداً خلفاً لأبيه مضيفا إلى ذلك لقب حاكم بغداد ورئيس شرطة بغداد، في حين عين محمد بن عبد الله واليا على الحجاز وجنوب العراق.

وهكذا أصبحت مقدرات الخلافة بيد الطاهريين وتراجعت هيبة الخليفة تراجعاً مخيفاً ولم يعد يقوى على عزل الولاة وتعيينهم، وازدادت الحركات الانفصالية بأساً وشدة .. كل ذلك وأركان الخلافة تهتز في كل مكان منذرة بالتفتت والانهيار.

ولم يتأخر الحل في المجيء كالعادة من الجعفرية حيث قصر الخلافة العباسية في بغداد، فقد خلع أبو عبد الله محمد بن المتوكل الخليفة المستعين بالله وأخذ الخلافة لنفسه بتأييد من قضاة الخلافة الأربعة وأمراء الجند، وجريا على عادة أسلافه فقد اختار الخليفة الجديد لقب المعتز بالله. وسرعان ماعيّن عيسى بن فرخنشاه وزيراً له، وثبّت أحمد بن مزاحم بن خاقان والياً على مصر، وبني زياد في اليمن ومحمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر على خراسان، ومحمد أبا الغرانيق الأغلبي على إفريقيا[٧٦].

تفاعل الناس خيراً بالتغيير الذي حصل، وكان ال البيت ونقيبهم عيسى بن محمد أشدهم شوقا لسماع ما يحدث من تغييرات وتطورات في في قصر الجعفرية في بغداد، إذ أنهم قدعانوا الأمرّين في عهد المستعين بالله الذي أطلق عسسه وراءهم أينما حلوا وأينما ذهبوا عسفا وظلما متهما إياهم بتأييد خصومه من الزيديين. غير أن الرياح لم تجرِ كما تشتهي السفن، إذ سرعان ماعلم أهل البصرة أن الخليفة الجديد قد حاكى سلفه في مسألة التقييد على الطالبيين الدين حزنوا لذلك وسلموا أمرهم لله. وازداد حزن أبي عبد الله أكثر عندما توفي صديقه وصاحبه إمام الحديث في العراق وشيخ المحدثين الإمام البخاري. وقد شارك أبو عبد الله في تشييعه وكان إلى جانبه ابنه أحمد بن عيسى الذي كان يتلقى على يدي الشيخ المتوفى بعضا من علوم الحديث في البصرة.

مع التصفيات الدموية التي كانت تطيح برؤوس الخلفاء العباسيين في بغداد، وبسبب الثورات الانفصالية في الأقاليم، فقد أضحى ضعف السلطة المركزية في بغداد أمراً لايمكن تجنبه، وأسفر ذلك عن ازدياد قوة أمراء الجيش وقواد الأجناد وتعاظم نفوذهم إلى درجة أنهم صاروا يختارون الوزير المناسب للخليفة، كما تراجع دور القضاة والفقهاء في الحكم، وأخذت طبقات الجند تنافس الأدباء والعلماء وديوان الخليفة في الأهمية والقوة.

ونظرا لحاجة الخليفة إلى الأموال لتكوين وتسليح الجيوش التي يريد أن يحارب خصومه بها، فقد عمد المعتز بالله إلى بيع منصب الحاكم لمن يقدر على الدفع نقداً بدلا من انتظار جمع الخراج السنوي، وهكذا سمع الناس في أحد الأيام أن الخليفة قد عين قائد جيوش الخلافة في مصر أحمد بن طولون التركي الأصل حاكما على مصر على أن يرث أولاده المنصب من بعده. وما هي أشهر إلا ويسمع الناس مجددا أن أحمد بن طولون هذا قد أسس إمارة طولونية مستقلة عن الخلافة في مصر والسودان والشام(٧٧).

وهكذا أضحى الخليفة العباسي يحكم من في قصره فقط، فمعظم الولايات في شمال أفريقيا والشام واليمن وخراسان صارت مستقلة عن سلطته.. فازداد الناس غما وأدركوا أن الإصلاح أمسى أمراً بعيد المنال وباتوا يترقبون الأسوأ مجدداً .

لم يطل المقام بالخليفة المعتز بالله أذ تآمر على خلعه في عام ٢٥٥ هجري أقاربه أنفسهم وأمراء الجيش الأتراك(٧٨) بعد أن حصلوا على فتوى من القضاة بعدم أهليته للحكم، واستلم الحكم من بعده أبو عبدالله محمد بن الخليفة السابق الواثق بالله، واختار لنفسه لقب المهتدي بالله واختار سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو الحارثي وزيرا له بناء على نصيحة أمراء الجند. وكان سليمان بن وهب هذا قد كتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة، وهو من كبار الكتاب في بغداد آنذاك. وعندما جاء رّسول

الخليفة يبلغه باختياره وزيرا نظر إلى مرآة كانت بيده فرأى شيبا كثيرا فقال لرسول الخليفة: عيبٌ لاعدمناه! (٧٩)

ولما وصلت أخبار التعيينات الجديدة في الجيش والولايات، فوجئ الناس بأن المهتدي بالله قد ثبت عامله أحمد بن طولون على مصر والسودان والشام، وبني زياد في اليمن ومحمد بن طاهر بن عبد الله على خراسان ومحمد أبا الغرانيق الأغلبي على أفريقيا. وفي صبيحة وصول تلك الأخبار إلى البصرة، وكان الناس قد انتهوا لتوهم من الاحتفال بعيد الفطر في شهر شوال، خرج أحمد بن عيسى مع بعض من إخوته قاصدا مرفأ المدينة للوقوف على حركة التجارة وأخبار إحدى السفن المتوقع وصولها من الهند والتي تحمل بضائع للعائلة. ولما كانت الحركة التجارية متوقفة فإن عدد السفن الراسية في المرفأ كان قليلا جداً لايتعدى سفينتين اثنتين إذ كانت معظم السفن ترسو في ميناءيْ الأبلة وسيراف. وقد لفت انتباه الشاب أحمد وجود تجمعات صاخبة لكثير من العبيد والزنوج يتحادثون فيما بينهم بلغات متعددة، ويلوّحون بأيديهم مهددين بعصيٍّ وخناجر، فاندس أحمد بينهم لمعرفة سبب نقمتهم، فسمع من زعيم لهم ينادونه باسم بهبول(٨٠) كلاما فهم منه أنهم ثائرون بسبب اضطهادهم كعبيد (٨١) ومعاناتهم من الجوع والمعاملة السيئة وخاصة لجوء من يشتريهم إلى إخصائهم وحرمانهم من رجولتهم قبل إدخالهم في خدمة حريمهم(٨٢). وكان بهبول هذا يدعو العبيد إلى الثورة لفك رقابهم، واجتياح القصور وتحرير أنفسهم من ربقة العبودية والظلم اللذين يحيقان بهم. وبينما كان أحمد يتابع بعجب ما يجري حوله من هرج ومرج إذ انفصل قوم من أولئك العبيد والزنوج عن الجمع واتجهوا صوب سوق النخاسين غير البعيد عن الميناء حيث كانت إحدى السفينتين الراسيتين في الميناء قد أفرغت لتوّها شحنة من الرقيق الأبيض، جلبها تاجر يهودي إسباني من الأراضي السلافية(٨٣). وماهي لحظات الا وقد اندلعت أعمال عنف دموية في السوق بين العبيد الهائجين وحراس سوق النخاسة أسفر عن تدمير السوق واندلاع النار في مبانيه وإطلاق سراح معظم العبيد الموجودين فيه، في حين احترق قسم آخر منهم أحياء في الزنزانات التي كانوا محتجزين فيها ...

أسرع أحمد وإخوته بامتطاء خيولهم والعدو باتجاه دارهم دون أن يلتفتوا إلى الوراء ولو للحظة لأن ذلك قد يؤدي إلى وقوعهم في أيدي الهائجين وربما إلى هلاكهم. كل ذلك وألسنة النيران تسري وراءهم من بيت إلى بيت ومن محل إلى محل، وقد انهمك الناس في جمع المياه في سطول صغيرة ثم رشها على النار دونما جدوى، إذ كانت المنطقة، ككل ميناء في العالم، مبنية من الخشب ومليئة بالمخازن التي تحتوي على كل مايخطر في بال من مواد ونفائس وصناعات، علاوة على وجود كميات هائلة من القش والعلف في الميناء لكثرة حركة الخيول والبعير فيه، ووجود عدد كبير من الإسطبلات.

وصل الإخوة إلى دارهم وما لبثوا أن نقلوا لوالدهم ما شاهدوه وما سمعوه، والشيخ أبو عبد الله ينظر إليهم ويتفكر واجماً وهو يعبث بلحيته التي كان الشيب قد غطى معظمها. وما أن هدألجو قليلا حتى طلب أبو عبد الله من أولاده الانطلاق إلى دور أبناء عمومتهم وأهاليهم لإبلاغهم ضرورة توخي الحيطة والحذر والمكوث في منازلهم ريثما تنتهي الأزمة التي كان شيخنا يعرف تماما أنها ستطول لأن وجهاء البصرة كانوا قد تنبؤوا بحدوثها قبيل أسابيع عندما قص عليهم أحدهم وكان قادما من البحرين والإحساء أن جواً من التوتر يسود هاتين المنطقتين بسبب قيام رجل من الخوارج يناديه أتباعه باسم بهبول واسمه الحقيقي هو علي بن محمد بالدعوة إلى تحرير العبيد من ربقة الأسر والذل، وأن هذاالرجل هو من قبيلة الأزارقة من قبائل عبد القيس بن ربيعة ويعيش في قرية ودريفن في ضواحي البصرة التي يقطنها الفقراء[٨٤].

ومع عودة أولاد ابن عبد الله إلى دارهم كانت البصرة قد أقفلت أبوابها من الجهات الثلاث الشمالية والشرقية والغربية، في حين كان الباب الجنوبي قرب المرفأ هو الوحيد المفتوح والذي تتدفق منه جموع الزنج والعبيد[٨٥] وازداد الوضع سوءا عندما أخذ غلمان البصرة وزنوجها وعبيدها يفرّون من بيوت أسيادهم وينضمّون إلى جموع الزاحفين على البصرة وعلى رأسهم قائدهم بهبول هذا.

ولما يئست حامية المدينة بقيادة أمير الجند منصور الخياط[٨٦] من إمكانية التصدي للمتمردين، انسحبت إلى خارج المدينة وتمترست خلف أبواب ثكناتها محاولة عبثا جذب انتباه المتمردين بعيدا عن مدينة البصرة وممتلكاتها وسكانها. وأرسل أمير الجند ووالي البصرة رسولا عاجلا إلى بغداد لإعلام الخليفة الجديد المستهدي بالله بما يحصل في البصرة .

مع حلول الظلام عمد الزنج إلى حمل المشاعل وبدأوا بالقـاء الزيت والقار على جدران المنازل وأعملوا فيها النار. وكلما خرج قاطنو المنازل منها خوفاً على حياتهم، عمد الهائجون إلى قتل وذبح الرجال والفتيان منهم مبقين على النساء والفتيات بأيديهم. وهكذا تحول أسياد العبيد إلى جوارٍ لهم في غمضة عين ..

ولم يسلم مسجد البصرة الكبير من براثن الزنج فأحرقوه وخربوه ودنسوا داخله ونهبوا السجاد الفارسي الثمين الذي كان بداخله. وبينما جموع الثائرين تعبث بالأحياء الجنوبية والشرقية للمدينة، أمر صاحب الزنج بهبول قائدا من قادته ويدعى علي بن إبان أن يعسكر بالخنزرابية، وهي ناحية من نواحي جبي في الأهواز، وكلفه بمنع ورود الميرة إلى البصرة. وقد أفلح هذا القائد الزنجي في مهمته وقطع المواصلات بين الأهواز والبصرة وحال دون وصول الأرزاق والغلال التموينية إلى المدينة[٨٧]. وما هي إلا أيام حتى سقطت المدينة بكاملها في أيدي الزنج. وكانت الجموع الهائجة قد

وصلت إلى حدود الحي الشمالي للمدينة حيث يقطن شيخنا أبو عبدالله وأولاده ومعظم آل البيت ومن يواليهم. فسلموا بذلك من قبضة الزنج والعبيد والغلمان، ولكن الجوع كان قد عض بأنيابه أهل المدينة بسبب عدم وجود الأقوات والطعام. فكان الأثرياء يبتاعون من الفقراء رغيف الخبز بدينار بعد أن كان ثمنه في الأيام العادية لايتجاوز دانقاً واحداً، وقيراط الرز بدينارين وكان ثمنه سابقا ٦ قراريط[٨٨].

توقع الناس أن يتوقف هجوم الزنج عند حدود البصرة، غير أن فألهم قد خاب عندما استبقى بهبول رجلا من أتباعه يدعى أحمد بن موسى بن سعيد العكوصي في البصرة، وسار هو على رأس جيش غفير من العبيد قاصدا بغداد[٨٩].

في غضون ذلك، استطاع أهل البصرة برئاسة قائدين من أعوان الخليفة في البصرة هما رميس والحميري تنظيم جيش من المتطوعة، غير أن علي بن إبان هاجم هذا الجيش وبدد شمله وأعمل السيف في رقاب جميع أفراده فلم يبق رجل واحد منهم على قيد الحياة. وما هي الا أيام حتى وصل جيش آخر من المدن والقرى القريبة من البصرة، وقد انقسم هذا الجيش إلى قسمين : الأول بري ويتقدم على ضفتي نهر دجلة، والثاني بحري مؤلف من عدد من البوارج والشواني والقطائع والطرائد وهي كلها سفن بحرية من أسطول الخلافـــة يقودها ملاحون برتبة اشتيام وفيها نفاطون ومقاتلة[٩٠]. واشتبك الفريقان في معركة دموية هائلة أدت إلى انكسار الزنج وتراجعهم إلى أبواب المدينة عند هبوط الظلام. غير أنهم عادوا إلى الانقضاض على سفن الأسطول عند الفجر واستولوا على عدد من هذه السفن وأخذوا يقصفون القوات البرية المرابطة على ضفتي النهر بالحراقات والنفط الملتهب من تلك السفن. وعندها انسحب الجيش من البر في حين عاد مابقي من سفن حربية أدراجه باتجاه الشمال وخلا الجو للزنج كي يقوموا بمذبحتهم الهائلة ضد أهل البصرة.

كان تأثير الهزيمة على معنويات أهل البصرة عظيما جدا بحيث أصابهم الفزع والرعب فأمسكوا عن حرب الزنج وأرسلوا وفدا من كبار تجار المدينة للتفاوض على شروط تقديم الولاء والطاعة لحاكم المدينة أحمد بن موسى القلوصي. فكان جواب هذا الحاكم أن أمر عبيده بإعمال السيف برقاب هؤلاء الوجهاء واستباح المدينة ثلاثة أيام أعمل العبيد المتعطشون للثأر والانتقام خلالها سيوفهم في أهلها وأحرقوا المدينة ونهبوها وسبوا نساءها .

وقد سلم شيخنا أبو عبد الله وعياله من المذبحة والكارثة عندما اختبأوا في مغارة كبيرة محفورة داخل بئر الماء الموجودة في الدار وهي مغارة تصل البئر بغرفة الغلال والمؤن والمناثر، كان الوجهاء من أهل البصرة يبنونها عند حفر بئر الماء في كل دار بغرض الاختفاء فيها عند الضرورة[٩١]. وقد شاءت المصادفة أن يكون الشاعر ابن الرومي قد قدم من بغداد لزيارة أبي عبد الله عندما حدث الهجوم الأخير فبقي في

حمايته حتى عدّت غيوم المذبحة. وعندما خرج القوم من المغارة ووقفوا على حجم المصيبة لم يتمالك ابن الرومي من انشاد مرثيته للبصرة قائلا:

لهف نفسي عليك أيها البصرة	لهفا كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبة الإسلام	لهفا يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلدان	لهفا يبقى على الأعوام
دخلوها كأنهم قطع الليل	إذا راح مُدْلَهِمّ الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها	أين أسواقها ذوات الزحام
أين تلك القصور والدور فيها	أين ذاك البنيان ذو الأحكام
بدلت تلك القصور تلالا	من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق والحريق عليها	فتداعت أركانها بانهدام
بل ألمّا بساحة المسجد الجامع	ان كنتما ذوي إلمام
فاسألاه ، ولا جواب لديه	أين عباده الطوال القيام[٩٢]

أبكى ابن الرومي مضيفيه الذين أخذوا يلملمون بقايا دارهم وأغراضهم وهم يسلمون الأمر لله قائلين : " لاحول ولا قوة إلا بالله "

وصل وفد أهل البصرة إلى قصر الخليفة في بغداد وسألوا عنه فقال لهم رئيس الحرس: إن الخليفة يتنزه في حراقته النهرية في نهر دجلة[٩٣].

فانتظر الوفد عودة الخليفة إلى قصره وهم على أحرّ من الجمر. وكان أهل بغداد غافلين عما يحصل في البصرة. وكعادتهم في يوم الجمعة، كانوا يتنزهون في المراكب النهرية في دجلة أيضا مع عائلاتهم وإخوانهم، فكان المرء يرى على مد النظر الآلاف من سفن الزو[٩٤]والطيارة والزبزب والزلال وهي تمخر بأشرعتها في نهرَي دجلة والفرات[٩٥] .

عاد الخليفة المهتدي بالله إلى قصر الجعفرية وهو جالس على سدة الخلافة في سرير يحمله العبيد ضمن موكب يحيط به الجند وأعوان الخليفة. وكان الخليفة يرتدي جبة حريرية سوداء اللون مطرزة بالذهب ويحيط عنقه طوق من ذهب ويتمنطق سيفا قرابه ملبس بالذهب الخالص. وأما أعوان الخليفة فقد كانوا يركبون خيولا بيضاء وينظرون إلى الناس بخُيلاء يستفز مشاعرهم[٩٦]. وتابع الموكب سيره حتى وصل إلى القصر ودخل الخليفة إلى جناحه حيث أخبره رئيس الحراس أنّ وفداً من أهل البصرة يريد مقابلته على جناح السرعة لأمر هام للغاية، فأمر الخليفة بإدخال الوفد.

جلس المهتدي بالله على كرسي مرتفع عن الأرض وهو يرتدي البردة وحواليه وزيره وقواد الجند وأمراء الشرطة. وأقبل وفد البصرة فقبّل أعضاؤه الأرض في

حضرة الخليفة وأخذوا يصفون له الكارثة التي حلّت بمدينتهم ويناشدونه أن يهبَّ لنجدة سكان المدينة المحاصرين تحت رحمة الزنج والعبيد. وكان الخليفة يستمع بهدوء وخفة لما يقوله الوفد، غير أنه اضطرب في بعض المواضع عندما ذكر الوفد كيفية قيام الزنج بسبي نساء المدينة وفض بكاراتهن أمام عيون أهاليهن، واستيلاء الزنج على السواد الأعظم من الأسطول وهو مازال صالحا للخدمة، وذبح جميع البحارة الذين ألقيت جثثهم في النهر.

وعند نهاية الجلسة أصدر الخليفة أمره لقائد الجيش بتسيير قوة بحرية عاجلة إلى البصرة للقضاء على الزنج فيها، وطلب من الوفد العودة إلى المدينة لإبلاغ أهلها بالفرج القريب. وعندما قال الوفد للخليفة إن القوة البحرية قد لا تكفي لقمع المتمردين، امتعض المهتدي بالله وأجابهم بأن القوة ستكفي وأن قوات الجيش الرئيسية ليست في بغداد ولا في العراق، بل في الأقاليم حيث أرسلت لمجابهة الثورات والدعوات الانفصالية فيها.

عاد الوفد إلى البصرة ليخبر أهلها بنبأ قدوم النجدة من بغداد، فانتشر النبأ في المدينة انتشار النار في الهشيم ووصل إلى علم صاحب الزنج وقائديه علي بن إبان ويحي بن محمد، فقاموا معا يدرسون الوضع وأحصوا ما لديهم من مراكب بحرية حربية فوجدوها أربعين سميرية في كل واحدة أربعون مجذافا. فأمروا بتجهيزها واعدادها للتصدي لسفن الخليفة القادمة. وكانت أوامر بهبول أن تتم المواجهة خارج المدينة لكي لا يثير سكانها المتاعب للزنج لحظة الصدام.

وما هي الا يوم أو اثنان إلا ويقع أسطول الخليفة المكون من ٢٤ سفينة حربية في كمين نصبه الزنج(٩٧) لهم عند أضيق نقطة من النهر، وشاركت فيه قواتهم البرية والبحرية، وقد أسفرت المواجهة عن تعزز وضع الزنج حيث باتوا يهددون الخليفة نفسه في بغداد، وهذا ما عزم عليه بهبول وقادته بعد انتصارهم الناجز هذا. وكان ذلك في شهر ذي الحجة وقد بقي يومان من احتفالات المسلمين بعيد الأضحى.

كان سليمان بن وهب وزير المهتدي بالله غير راض بمايجري في أرض الخلافة، كما كان مستاءً من سيطرة أمراء الجيش على قرار الخليفة وكذلك من ضعف شخصية المهتدي بالله. وكان يشاطره في ذلك الكثير من آل عباس. وقد قربه منه أبو العباس أحمد بن الخليفة المتوكل وأوغر صدره ضد المهتدي واتفقا على العمل سوية لخلع الخليفة يساندهم في ذلك قلة من الناقمين على المهتدي بالله في القصر وخارجه بمن في ذلك قاضي القضاة وشيخ الإسلام.

واعتاد المتآمرون الاجتماع سرا في دار تقع عند باب المراتب وهو آخر أبواب دار الخلافة من الجنوب بين دجلة والباب الخاص الذي هو بدوره أحد أبواب دار

الخلافة بالجانب الشرقي. وحانت اللحظة المواتية عندما عادت فلول الجند من الأسطول الذي استولى عليه الزنج في البصرة إلى بغداد يروون ما حدث لهم والمذابح التي ارتكبها الثائرون بحق الجند وقادة الأسطول.

حدث هذا المشهد في دار الخلافة وعلى مرأى ومسمع من الخليفة المهتدي بالله نفسه الذي خرج عن طوره مهتاجا وأمر بإخراج الجنود من القصر واستدعاء قادة الجند فورا.. وما هي إلا لحظات إلا وقد احتشدت دار الخلافة بآل العباس من أولاد الخلفاء العباسيين السابقين وخاصة أولاد المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز بالله، ومعهم شيخ الإسلام وقاضي القضاة وكبار أمراء الجيش في بغداد. فوجئ المهتدي بهذا الجمع وبدلا من أن يتكلم هو ويستمع الآخرون، انعقدت لسانه وبدأ يستمع لما يقوله له شيخ الإسلام من أن أهل الحل والعقد قد اتفقوا على خلعه وتعيين أبي العباس أحمد المتوكل مكانه.

تقدم أبو العباس من المهتدي بالله وخلع عن رأس الخليفة العمامة ونزع عنه البردة وقضيب الخلافة وخاتمها. ثم طلب من الحرس أن يحضروا المهتدي، الذي كان ينظر إلى وزيره كالأبله، إلى دار كانت قد أعدت له سابقاً في ضواحي بغداد من جهة الكرخ.

بويع أبو العباس خليفة سنة٢٥٦ هجرية واختار لقب المعتمد على الله، وكانت أولى قراراته تعيين ابنه جعفر ولياً للعهد من بعده مع تلقيبه بالمفوض إلى الله وتوليته ولاية المغرب والشام ومصر، وتولية أخيه المقرب من أبي أحمد للعهد من بعد جعفر وجعله واليا له على بغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن. غير أن المعتمد على الله أقر أحمد بن طولون على مصر حاكما لها تحت إشراف ابنه جعفر، وأقر طاهر بن الحسين على خراسان ويعقوب بن الليث الصفار(٩٨) على أصفهان وسجستان والسند وخرفان وسيّر إليهم الخلع مع الولاية. كما أقر بني زياد على اليمن ومحمد أبا الغرانيق الأغلبي على أفريقيا(٩٩). وبطبيعة الحال فقد أقر الخليفة الجديد سليمان بن وهب على منصب الوزارة مكافأة له على موقفه في صف المؤيدين لخلع الخليفة السابق.

وكانت الأخبار الواردة من البصرة مقلقة جدا بالنسبة للخليفة الجديد المعتمد على الله، خاصة وأن صاحب الزنج قد وسع ساحة مكاسبه فاستولى على ميناءي الأبلة وعبادان في شط العرب وإقليم الأهواز مُغلقا بذلك الساحة البحرية للخلافة العباسية بكاملها، وقاطعاً طرق مواصلاتها وتجارتها البحرية مع الخارج، وخاصة مع الصين والهند اللتين تربطهما بالخلافة علاقات وطيدة، إذ كان يحكم الصين الإمبراطور تانغ سونتشونغ من سلالة تانغ، الذي تربطه علاقات ممتازة بالخلافة العباسية(١٠٠). وقد تميزت علاقات العباسيين بالصين منذ أن أمدّ الخليفة أبو جعفر المنصور إمبراطورها

بأربعة آلاف فارس من صناديد الفرسان المسلمين في عام ١٤٣ هجري لمواجهة المتمرد انلوشان. واستطاع أولئك الفرسان قتل هذا المتمرد في شمال الصين وإعادة الهيبة للإمبراطور الذي كافأ المسلمين على نجدتهم بفتح موانئ الصين أمامهم للتجارة وبالاستيطان في ميناء تشانغ – آن والعمل فيه، وهو الأمر الذي جنت منه الخلافة العباسية ثروات تجارية كبيرة(١٠١).

وأما الأخبار الأخرى الواردة من الشرق والشمال فلم تكن بأفضل حالاً، إذ أن الموفق بالله شقيق الخليفة والمكلف بتدبير أمور الخلافة لم يستطع أن يستلم ولاية إقليمي فارس وكرمان بسبب احتلالهما من قبل المتمرد يعقوب بن ليث الصفاري، لا بل إنه لم يستطع حتى مجرد التوجه إليهما لأن الأخبار الواردة إلى قصر الخلافة أشارت إلى أن قوات يعقوب هي على بعد عدة فراسخ فقط من بغداد(١٠٢). وأما أخبار الشام فقد كانت مقلقة للغاية بسبب غارات البيزنطيين المستمرة على حدود الشام الشمالية وضغطهم الهائل على الحمدانيين في حلب. وكان الضغط البيزنطي هذا يعزى إلى اطلاع البيزنطيين على هشاشة أحوال الخلافة وتفتت قواها والصراعات الداخلية في أوساطها بين أفراد آل عباس أنفسهم من جهة، وبين الوزراء والكتبة وتنافسهم من جهة أخرى، وكذلك بين أمراء الجيش وتناحرهم من جهة وبين علماء الدين ومهاتراتهم من جهة ثانية(١٠٣). وبمعنى آخر، فإن الخلافة في بغداد أضحت بنظر خصومها في الداخل والخارج على حد سواء ناضجة للسقوط وآيلة للزوال، فاشتدت هجماتهم عليها من كل حدب و صوب.

جمع الخليفة المعتمد على الله أهل الحل والعقد برئاسة أخيه الموفق بالله وقادة أمراء الجند ووزيره سليمان بن وهب وناظر ديوان الزمام الذي هو رأس ديوان الخلافة وتدارس معهم فيما يجب اتخاذه من إجراءات للحيلولة دون انهيار الخلافة وللتصدي للمخاطر المحيقة بها. وكان هذا الاجتماع الأول من نوعه منذ تولي المعتمد على الله الخلافة، وظهر جلياً لكل من شارك في هذا الاجتماع أن الأمر والنهي بيد الموفق بالله وليس بيد الخليفة المعتمد على الله الذي كان يكتفي من آن لآخر بهز رأسه مُشيراً إلى تأييده لما يقوله أخوه الموفق بالله. وارتأى الجميع في ختام مداولاتهم ضرورة إعطاء الأولوية للتصدي لثورة الزنج أولا باعتبار أن أتباعها يكمنون على بعد عدة فراسخ من بغداد نفسها.

وقد أناط الخليفة مهمة القضاء على صاحب الزنج بأخيه(١٠٤) الموفق بالله، علاوة على تكليفه بإدارة شؤون الخلافة البحرية ريثما يذهب الخطر عن الخلافة ويتشتت شمل الأعداء. ولكي يستطيع الموفق بالله التفرغ للزنج، كان عليه أن يضمن حياد الصفاريين في الهضبة الإيرانية، ولذلك عمد إلى إقرار يعقوب حاكما على خراسان وطبرستان وفارس والري وبلخ وكابول علاوة على إعطائه منصب رئيس

شرطة بغداد اسمياً بعد أن كان هذا اللقب يمنح في الماضي للطاهريين(١٠٥). وسيّر الموفق بالله الخلع مع الولاية ليعقوب للتو، فوافق هذا الأخير على إيقاف زحفه نحو بغداد، غير أنه لم ينسحب باتجاه الشرق وبقي مرابطاً خارج بغداد. بعد ذلك أرسل الموفق بالله مبعوثا سريا للبصرة لكي يعلم وجهاءها بقرب وصول النجدة. ولما وصل هذا المبعوث تنكر بثياب رثة إلى باب المدينة فارتاب منه أحد الحراس الزنج وكشف هويته ثم سلمه لصاحب الزنج الذي أمر بتقطيع أطرافه وصلبه على باب البصرة وبنشر الخبر بين الأهلين لإرهابهم وبث الرعب واليأس بين ظهرانيهم.

كان الشيخ عيسى وأولاده وعياله مازالوا مختبئين في منزلهم لايخرجون منه إلا عند الضرورة القصوى، في حين كان محرما على النساء الخروج من الدار، إذ أن أي امرأة تتجرأ على الخروج من دارها مصيرها وخيم حيث تساق إلى معسكرات الزنج فيعتدي عليها العبيد ثم يسوقها هؤلاء إلى المدينة لبيعها بدينارين اثنين فقط. وكان صاحب الزنج قد ولى البصرة رجلا من أتباعه يدعى أحمد بن موسى بن سعيد القلوصي فحولها هذا إلى سوق للعبيد يأتيها الأعراب والتجار الانتهازيون لبيع وشراء العبيد وخاصة النساء منهم لأن معظمهن كن من عائلات البصرة المعروفة، فكانت كارثة ما بعدها كارثة لأهاليهن الذين ما إن يثوروا على مصير نسائهم وحريمهم حتى يعمل الزنج سيوفهم برقابهم فتتحول الكارثة إلى مصيبة وتكون النتيجة أن يباع مايبقى من العائلة كعبيد وتدمر ديارهم(١٠٦).

وكأن تلك الأيام العجاف لم تكن كافية لتوحد صف البصريين وتجمع قواهم، وكأن بلواء الزنج ومذابحهم وانتهاكاتهم لأعراض الناس في البصرة لم تكن كلها عوامل كافية لدفع الناس نحو بعضهم بعضاً. فقد أضيفت الضغائن الحزبية والحزازات العصبية لتزيد المصاب ضغثا على إبالة، إذ فوجئ أهل البصرة ومن بينهم أهل شيخنا أبي عبد الله باندلاع أعمال عنف دموية بين جماعة الربعيين وهم من الشيعة(١٠٧) والسعديين وهم من السنة وجماعة البلاليين الأتراك مع سعي كل من تلك الجماعات الهائجة للتقرب من صاحب الزنج واستعدائه ضد الآخرين(١٠٨). وبطبيعة الحال كان بهبول أذكى من تلك الجماعات إذ كان يذكي أوار الخلاف بينها ويساعدها ضد بعضها بعضاً إلى أن أخذ سكان البصرة بالدعاء إلى الله أن يقبض أرواحهم خلاصاً من الوضع المتردي في المدينة، خاصة وقد انتشرت الأوبئة في الأحياء بسبب قذارة الأقوات واضطرار الناس لأكل الكلاب والقطط والفئران والحشرات دفعا لغائلة الجوع.

فكر شيخنا أبو عبد الله بالرحيل عن المدينة، ثم عدل عن رأيه هذا خوفاً على عياله وماله وأرزاقه، وبقي صابراً متصوفا. وظهرت فوائد التصوف في تلك الفترة، ذلك أن التصوف ومعاشرة الحكماء والصبر على الشدائد وهي كلها من الأمور التي توارثها أهل البيت أباً عن جد، والتي هي أيضا من خصائص المذهب الشافعي الذي

يتبعه أهل البيت، إنما قوّت النفس على احتمال شظف العيش وخشونة الأحداث ورياضتها لتقبل الأسوأ دوما وتوقع ما هو أضر منه(١٠٩).

ورغم قرب شيخنا أبي عبد الله و عياله من الصوفية وترددهم على رباطها وزواياها ومشاهدها، فإن أبا عبد الله وأولاده لم يظأروا على لبس خرقة التصوف ولا على الاعتكاف في الرباط والمشاهد، بل كانوا يستفيدون من ترددهم على تلك الأماكن ومعاشرة كبار الصوفية لترويض النفس وتعويدها على الزهد وصرف المعاني الحسية إلى معان روحية، وإرشاد الفكر إلى القرار السليم، وتوخي الروية و الصواب في كل أمر(١١٠).

ولولا تلك الخصال العالية لما تسنى لآل البيت أن يطيقوا صبراً على ما لحق بهم من بلواء في البصرة منذ قدومهم إليها وحتى قبل ذلك ببعيد(١١١).

وبينما الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، جرت بعض الصدامات العسكرية بين قوات الموفق بالله وصاحب الزنج، وهي صدامات جعلت الموفق بالله يدرك أن وضعه صعب، وأن من الأفضل التريث وإعداد العدة اللازمة لقتال بهبول وصحبه والانتصار عليهم. وهكذا أرسل الموفق بالله إلى كل ولاة الأقاليم يسألهم إرسال قوات وإمدادات عسكرية لمحاربة الزنج، مسبغا على أولئك الولاة وعوداً جزلة لقاء تعاونهم مع الخلافة. وقد امتثل بعضهم مثل أمراء السامانيين الذين كانوا من كبار السنة الحنفيين الداعمين للخليفة، علاوة على كونهم من كبار التجار بالعبيد الأتراك، وكانوا يخافون على تراجع تجارتهم هذه بسبب ثورة الزنج وإغلاق ميناء البصرة ومدخل الخليج أمام السفن(١١٢).

ووصلت إلى بغداد طلائع القوات القادمة من الأمصار والولايات ووضع قادتها أنفسهم بتصرف الموفق بالله الذي ازدادت ثقته بنفسه فعدل عن خطته بمهاجمة الزنج بسبب كثرة عددهم وقوتهم، وزحف على قوات يعقوب بن ليث فهزمها بأعجوبة في عام ٢٦٢ هجري، غير أن الموفق لم يذلّ يعقوب بل حاول مجدداً استرضاءه فأبقاه حاكما على الهضبة الإيرانية ووافق على أن يذكر اسمه في صلاة الجمعة إلى جانب اسم الخليفة. وهكذا انسحب يعقوب وقواته من شرق بغداد وعادوا إلى قواعدهم البعيدة عن عاصمة الخلافة فخف الضغط عن بغداد وعادت العزيمة لتقوى في صفوف الجيش.

غير أن ساعة تصفية الحساب مع صاحب الزنج لم تحن بعدُ، وكأن لسان حال الخلافة يقول: " لم تعد مشكلتنا إنقاذ أهل البصرة من البلاء الذي هم فيه، بل إنقاذ الخلافة نفسها من الوقوع بيد بهبول وأتباعه. وقد تحسنت الظروف قليلا عندما توفي يعقوب في جنديسابور في عام ٢٦٥ هجري وخلفه شقيقه عمرو بن ليث الذي أرسل

الهدايا للخليفة وقدم الطاعة له فأمره المعتمد على الله وشقيقه الموفق بالله على حكم الولايات الشرقية في إيران وأفغانستان وضمنا شره وخطره، ثم التفتا مجددا نحو الجنوب فسار الموفق بالله في عام ٢٦٧ هجري على رأس جيش يقدر بخمسين ألفا يريد منازلة صاحب الزنج والقضاء عليه. ولما وصل بجيشه هذا قريبا من البصرة برز له بهبول في جيش من المرتزقة والعبيد يقدر عدده بمئتي ألف، ولحسن الحظ كان نهر دجلة يفصل بين الجيشين فلم تقع بينهما الحرب وعاد الموفق بالله أدراجه صوب بغداد يفكر في وسيلة أخرى لمنازلة المتمردين في البصرة. وكانت عودته لبغداد فرصة له لتطهير الأجواء لصالح نفوذه. وكان أول ما قام به أن دبر مكيدة للوزير سليمان بن وهب وزج به في السجن وعيَّن بدلا عنه في منصب الوزارة صاعد بن مخلد النصراني وأضفى عليه لقب " ذي الوزارتين"[١١٣] مقتديا بذلك بما كان يفعله الخلفاء السابقون بوزرائهم كالفضل بن سهل الذي لقبه المأمون "ذا الرئاستين"[١١٤] وأخيه الحسن بن سهل الذي لقب بـ "ذي الكفايتين"[١١٥] والقائد العسكري طاهر بن الحسين الذي الذي لقب بـ " ذي اليمينين"[١١٦]. وكان الموفق يعرف تماما في ضوء التجربة أن مؤامرات الوزراء ورؤساء الدواوين هي التي تضعف الخلافة وتقوي موقف ونفوذ الأمراء وقادة الجند. ولذلك فإن الحكمة تقتضي تطهير منصب الوزير من أن لآخر للحيلولة دون قيام تحالفات سرية ضد الخلافة. وهذا مافعله مع الوزير سليمان بن سعيد النبطي.

ولكي يطمئن الموفق بالله إلى مايجري في القصر من مناورات ومؤامرات فقد عيَّن ابنه أبا العباس أحمد رئيسا لحرس الخليفة في القصر ليكون عينه الساهرة على كل شاردة وواردة.

عام ٢٧٠ هجري حددت ساعة الحسم بين الموفق بالله وصاحب الزنج وكان قد مضى ١٤ عاما على ثورة الزنج في البصرة. واصطدم الجيشان قرب البصرة في معركة دموية طاحنة دامت ثمانية أيام وشاركت فيها البوارج الحربية، وكان النصر هذه المرة معقودا للموفق بالله الذي هزم صاحب الزنج وقتله وشتت شمل عبيده وزنجه وحرر البصرة من ويلاتهم. وكان انتقام الموفق بالله من قادة التمرد يعادل في قسوته ما اقترفته أيديهم من ويلات وبلاء للمدينة وأهلها طوال احتلالهم لها. فقد أمر الموفق بالله بأن تقطع أطراف قادة الزنج وبأن يصلبوا من خلاف على أبواب البصرة[١١٧]. وقد جنت الخلافة من الانتصار العسكري انتصارا ماديا آخر وهو الثروة الهائلة من الأموال والذهب التي كان صاحب الزنج وقادته قد غنموها من نهبهم للبصرة واتجارهم بأهل البصرة كعبيد. فتعزز موقف الخليفة وعادت الهيبة لبغداد في حين كانت البصرة تنهض من جديد لتلعق جروحها وثكلاً ثكلاها.

وكان من بين الناهضين شيخنا أبو عبد الله وأولاده وعياله وأهل البصرة. وقد تركت السنوات الصعبة آثارها على شيخنا فظهرت عليه علائم الشيخوخة وصارت حركته بطيئة وبدأ ينيب أولاده عنه أحياناً لإمامة الناس في المسجد وغالبا ما يقع اختياره على ابنه أحمد الذي جبّ إخوته الذين اتجهوا صوب التجارة فتفوق عليهم وبزهم في العلوم والفقه فصار من الوجوه المحترمة في أوساط العلماء والفقهاء في البصرة. وكان عدد من أشقائه قد غادر البصرة وعاش بعيدا عنها وعن نوائبها، كهارون الذي أقام في مصر، ويحيي وعبد الله في المدينة المنورة، وإبراهيم في الري وجعفر ومحمد في مصر والحسن في الشام[١١٨]. وأما شقيقاته الخمس فاطمة ورقية وخديجة وقسيمية وصفية فقد كن قد تزوجن جميعهن وتركن المنزل الأبوي ومعظمهن كن قد غادرن البصرة .

واجه الشيخ أحمد بن عيسى مهمة صعبة بعد القضاء على ثورة الزنج التي كانت قد أدت إلى انقطاع البصرة عن العالم الخارجي لمدة طويلة، وبالتالي تراجع دورها التجاري لصالح الموانئ الأخرى مثل سيراف والأبلة وعبادان وكيش وهجر وهي الموانى التي أثرت ثراءً كبيراً من الأتاوات والمكوس والرسوم المفروضة على مرور ورسو السفن فيها بدلا من البصرة طوال الأزمة التي سببها الزنج. وكان على أهل البصرة وتجارها أن يبذلوا جهوداً مضاعفة لإعادة الثقة لمدينتهم كمرفأ رئيسي، غير أن هذا الأمر قد يأخذ بعض الوقت. ولذلك فكر بعض التجار ومن بينهم الشيخ أحمد بن عيسى بعد التشاور مع أبيه في أن يسارعوا بإرسال تجارة إلى الصين ومنها إلى ملقا وبالمبانغ في جزيرة الرامني[١١٩]. وقد ارتأى الشيخ أحمد استشارة الرحالة البصري سليمان التاجر السيرافي فيمن يوكل برئاسة القافلة. وكان أحمد مازال متأثراً منذ يفاعته بالحكايات والقصص التي سردها هذا الرحالة لجمع من الناس، كان أحمد من بينهم، عن أحوال الصين والهند والرامني وملقا والواق الواق[١٢٠]. وبالفعل ذهب أحمد لزيارة الرحالة في داره فوجده قد طعن في السن وكان يجالسه قريب له يدعى أبا زيد الحسن السيرافي و شخص آخر قدموه له باسم ابن خرداذبة وهو من علماء الخرائط والجغرافيا، وكان الاثنان يدونان بعض ملاحظات الرحالة سليمان السيرافي عن رحلاته القديمة. وقد فاتح أحمد الرحالة العجوز برغبته في إرسال تجارة بحرية له إلى الصين وسأله رأيه فيمن هو أهل لأن يوكل له رئاسة هذه التجارة. فأشار سليمان بتكليف تاجر يدعى ابن وهب القرشي كان قد رافق سليمان في إحدى رحلاته البعيدة وأبدى خبرة ودراية واستعتين بشؤون الرئاسة والتجارة. عاد أحمد أدراجه إلى السوق واتصل بابن وهب القرشي واتفقا على أن يترأس الأخير التجارة، ثم أخذا يُعدّان لها فاشتريا عدداً من الخيول والبغال وبعد ذلك قاما يُجهزان البضاعة التي كانت تتكون أساسا من الخيول والبغال واللؤلؤ والقماش والعقاقير الطبية والبخور والودع والمر

واللبان وماء الورد على أن يجلب ابن وهب بدلا عنها في طريق عودته الحرير والخزف من الصين والصندل والخيش من الهند والتوابل والذهب والكافور والمسك والعنبر من ملقا (*Malaka*) وفالمبانغ [*Palembang*]. ثم اتفقا على استئجار أحد ربابنة السفن من سيراف ويدعى "مافنا " ليقود السفينة، وكان مشهوداً له بمعرفة طرق البحر. وترك الاثنان للربان اختيار من يشاء ليكون السرهنك والبنجري والجمنتي والملاحين[١٢١]. ولم يبق على صاحبنا الشيخ أحمد والرحالة ابن وهب القرشي[١٢٢] إلا اختيار بعض المرافقين الأشداء لحراسة السفينة والبضاعة. فوقع اختيارهما على تجنيد بعض البحارة الشاميين المتمرسين بالملاحة البحرية[١٢٣]، وكذلك تجنيد بحارة من الجالية الهندية في البصرة والذين يسميهم العرب بـ "الزط" [١٢٤] و" الأساورة"[١٢٥] لاستخدامهم نفاطين ومقاتلين ضد قراصنة البحر عند الضرورة، وكذلك عدد آخر من السومطريين المسلمين الذين يعيشون في البصرة ويدعون "السيابجة"[١٢٦]. واختار ابن وهب القرشي تحميل البضاعة في سفينة عربية تدعى "البيضاء " وهي تشبه الجنوك الصينية الضخمة، وهي مركب كبير لا يستطيع أن يرسو في البصرة بسبب ضحالة مياه شط العرب ووقوع البصرة على قناة اصطناعية، وإنما يرسو في الأبلة على بعد ٤ فراسخ من البصرة[١٢٧]. وكانت العادة هي أن تقوم السفن الصغيرة بإيصال البضاعة من البصرة إلى السفن الكبيرة الراسية في الأبلة. وبعد انتهاء عملية نقل البضاعة وتحميلها على متن " البيضاء " وانتظار هبوب رياح الدبور باتجاه الشرق في نهاية فصل الربيع [١٢٨]. ودع الشيخ أحمد صاحبه ابـن وهب وبقيـة البحارة المساعدين على رصيف ميناء البصرة بعد أن صلى الجميع صلاة السفر على نية التوفيق والنجاح. وكانت تقديرات الرحالة التاجر ابن وهب أن الرحلة ستستغرق حوالي العامين ذهاباً وإيابا. وقد تعمد الشيخ أحمد أن يطلب من القرشي بشكل خاص أن يجمع له معلومات عن مدى و صدق الروايات حول وجود بعض الطالبيين من أهل البيت في الهند والملايو والصين، إذ أن هذا الموضوع كان يؤرقه منذ أن سمع عنه لأول مرة عندما كان صغيرا.

حملت أخبار انتصار جيوش الخلافة على الزنج والقضاء على ثورتهم مدىً من التفاؤل للمسلمين عموما ولأهل البصرة خصوصا، وعادت للخلافة في بغداد هيبتها، لاسيما بعد أن تمكن الموفق بالله من إقصاء ثورات الصفاريين بعيدا عن بغداد ومهادنتهم. وكان الحاكم الحقيقي للخلافة الموفق بالله شقيق الخليفة المعتمد على الله الذي كان منجرا وراء رفاهية العيش داخل قصره، وتكاد تحركاته تعرف وهي: باب المراتب في الجنوب وباب الخاصة في الشرق وباب البصرة وباب الأزج على دجلة. وأما وزير المعتمد على الله فقد كان يعمل تحت رقابة ابن الموفق أبي العباس الذي يشغل منصب رئيس حرس الخلافة ويأمره للموفق بالله الذي كان قد عيّن قبل حوالي

العام ونصف الوزير صاعد بن مخلد النصراني. غير أنه بحلول عام ٢٧٢ هجري عمد الموفق بالله إلى زج الوزير في السجن وقبض على أمواله بناء على دسيسة نقلها للموفق نديمه يحيى بن علي المنجم، وعين الموفق بالله وزيراً جديدا هو علي بن محمد الفرات وهو من الأدباء المعروفين في بغداد(١٢٩).

وفي يوم خلع الوزارة عليه وردت الأنباء بأن الوزير السابق سليمان بن وهب قد توفي وهو في السجن. فتشاءم الوزير الجديد من هذا الأمر وأخذ يتوخى الحذر والحيطة في كل ما يفعله وما يقوله خوفا من عاقبة مماثلة لعاقبة سلفه، وخاصة أن قاضي بغداد أبا القاسم علي بن محمد بن عبد الملك الشواربي وهو من أصحابه المقربين لم يهنئه بالمنصب بل همس في أذنه شيئا من قبيل التعزية(١٣٠).

مضى على مغادرة السفينة " البيضاء " حوالي العامين، واقترب موعد عودتها مع هبوب رياح الصبا القادمة من الشرق باتجاه الغرب، وكان الشيخ أحمد يترقب وصول السفينة وعلى متنها ابن وهب القرشي والبحارة بفارغ الصبر والقلق على مصير التجارة خوفاً من إمكانية تعرضها لغارات قراصنة البحر في بحر شلاهط وبحر كندرنج وبحري الصنف وصنجي قرب سومطره والصين وجمقا(١٣١) إذ أن العديد من الرحلات التجارية التي قصدت تلك المناطق اختفت في البحر ولم يعد منها مخبر يخبر عما حصل لها، وبالتالي فإن أي رحلة تجارية بحرية بعيدة كانت تجلب الثراء لصاحبها فعلا عندما يقدر لها العودة بسلام إلى البصرة، ولكنها كانت بمثابة مغامرة خطيرة أولا وأخيراً، وقد تعوّد الشيخ أحمد أن يرسل أحد أعوانه إلى الميناء كل يوم للاستفسار من ناظر الميناء عما إذا كانت الخشبات البحرية(١٣٢) أو النواظر الموجودة في فم البحر بين الأبلة وعبادان قد رصدت وصول السفينة " البيضاء "، إلى أن جاء يوم في أوائل شهر شباط من عام ٢٧٤ هجري عاد فيه الرسول جذلا يحمل بشرى وصول السفينة إلى الأبلة ورسوها فيها، فأسرع الشيخ أحمد وعائلات الغائبين وتجار آخرون من البصرة بالصعود إلى بوصي من البواصي(١٣٣) الموجودة في الميناء وأطلقوا أشرعتهم باتجاه الأبلة التي وصلوها بعد ساعتين فوجدوا البحارة منهمكين في إصلاح جزء من قعر السفينة كان قد تضرر لدى عبورها مضيق الدردور قرب جبال عمان(١٣٤) قبل يومين. عانق الشيخ أحمد الرحالة التاجر ابن وهب القرشي واطمأن منه على أن الأمور سارت بخير وأن التجارة كانت رابحة وأن لديه أخبارا كثيرة يحكيها له حول مشاهداته طوال الرحلة وخصوصاً بشأن تواجد المسلمين من الطالبيين وغيرهم في الجزر البعيدة، واتفقا على الاجتماع في بيت الشيخ أحمد حالما ينتهي البحارة من تفريغ البضاعة المستوردة من السفينة ونقلها إلى مخازن الشيخ في البصرة. كما اطمأن الشيخ أحمد من ربان السفينة " مافنا " إلى أن الأضرار التي لحقت بالسفينة في مضيق الدردور لم تكن كبيرة ويمكن إصلاحها. غير أن الربان أعلم الشيخ بأن تسعة من

البحارة قد توفوا في الرحلة في أماكن متفرقة، وأنّ سبعة آخرين ممن نزلوا في فاليمبانغ قد رفضوا العودة إلى البصرة و مكثوا في جزيرة الرامني [*Sumatera*] [١٣٥].

وكان على الشيخ أحمد أن ينقل تلك الأخبار السيئة إلى أهالي هؤلاء البحارة فكانت لحظات مؤلمة اختلطت فيها دموع الفرح لدى البعض بدموع الحزن والأسى لدى آخرين. وبعد صلاة الجمعة التي أمّها الشيخ أحمد بن عيسى بدلا عن أبيه أبي عبد الله، توجه الشيخ وابن وهب القرشي والربان "مافنا " إلى دار الشيخ للوقوف على أخبار الرحلة البحرية، فعلم شيخنا أن خط الرحلة قد مر بعد مغادرة البصرة بجزيرة خارك ثم جزيرة لاوان ثم أبرون وجزيرة خين ثم جزيرة كيش ومنها إلى جزيرة كاوان إلى هرمز إلى ثارا وهي الحد الفاصل بين فارس والسند. وقد توقفت السفينة في ثارا لأخذ الماء العذب، والتقى فيها ابن وهب بعرب يعيشون فيها وفي أقاليم سجستان وبلوشستان منذ زمن بعيد قبل الإسلام وهم من قبائل بكر ووائل وبني حنظلة وعبد القيس. وكان الملك الفارسي سابور الثاني قد نفاهم من ديارهم في العراق أيام اللخميين إلى أقاليم إيران البعيدة في كرمان وفارس بسبب تمردهم على سلطته من جهة ولكي يستعين بهم على حماية الثغور الشرقية لإيران [١٣٦] من هجمات قبائل الشنتوتيين والهون المغولية. كما تحدث ابن وهب عن عرب آخرين كانوا قد استوطنوا في شرق إيران في بداية الفتوحات الإسلامية في زمن ربيع بن زياد الحارثي في عام ٥٠ هجري وبقوا هناك حتى الآن. وبعد ثارا، توجهت السفينة إلى أكبر موانى السند وهو الديبل[١٣٧] ومنه إلى مهران مصب نهر السند، وبعد ذلك إلى سندان[١٣٨] حيث اجتمع ابن وهب بعرب من آل البيت من قبيلة هاشم كانوا قد نزحوا إلى ساحل غرب السند واستوطنوا في منطقة تدعى كوكان منذ فرارهم من الحجاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على العراق[١٣٩] الذي كان يضطهدهم. ويعرف هؤلاء العرب في الهند باسم "نوايت". وقد أخبر هؤلاء ابن وهب بوجود أولاد عم لهم على الساحل الشرقي للهند في ناحية تسمى "رأس كمورين" ويطلق الهنود عليهم اسم "لبي ". ثم اتجهت السفينة إلى "كولم ملي"[١٤٠] حيث وجد ابن وهب حارة كاملة يسكنها التجار العرب والإيرانيون ويتاجرون في الميناء بالفلفل والبهارات التي يجلبونها من بلاد الرامني والواق الواق. وبعد ذلك رست السفينة في ميناء بلين[١٤١] حيث تفترق السفن وفقا لمقصدها النهائي، فتلك التي تقصد الصين تسلك طريق جنوب سيلان عبر قنطرة آدم[١٤٢]، وتلك التي تريد الوصول إلى سرنديب تتابع سيرها عبر بلين[١٤٣].

ورغم أن وجهة ابن وهب كانت الصين أساسا، فإنه توجه إلى سيلان للتزود بالمياه العذبة و لإصلاح بعض ألواح خشب الساج الذي بني به قعر السفينة وكوثلها والتي تعرضت لبعض الأضرار خلال مرورها بقنطرة آدم. وقص ابن وهب على مسامع الشيخ أحمد والحاضرين حكاية نزوله من السفينة وتسلقه جبل الراهون في

الجزيرة ووصوله إلى موقع أثري بارز على شكل قدم بشرية كبيرة قيل له أنها قدم سيدنا آدم عليه السلام بعد إخراجه من الجنة[١٤٤]. وبعد سيلان خطفت المركب إلى بحر هركند العاتي حيث حملت الرياح القوية المصحوبة بالأمطار الغزيرة أحد البحارة ورمته في الماء فابتلعته الأمواج ولم يستطع أحد فعل شيء لانقاذه.

وعند مرور السفينة في بحر كندرينج المليء بالجزر المتناثرة المأهولة بقبائل متوحشة تدعى " فانجاب "، تعرضت السفينة لغارات شنها عليها أفراد تلك القبائل الذين كانوا يركبون زوارق صغيرة انسيابية ذات سرعة عالية، يقتربون من السفينة ثم يرمون بالسهام المسمومة على البحارة، وقد أصابت إحدى الأسهم أحد البحارة الجمنتيين[١٤٥] الذي كان يفرغ مياه المطر في السفينة ويرميها في البحر. وقد مات هذا البحار بفعل السم ولم تُجدِ كل المحاولات التي بذلها الربان والتنديل[١٤٦] لإنقاذ حياته. وما إن عبرت السفينة تلك الجزر بعيدا عن زوارق القبائل المتحرشة بها حتى قام الجميع بالصلاة على جثمان هذا البحار ثم ألقيت جثته في البحر، وتابعت السفينة سيرها حتى وصلت إلى ميناء لنجبالوس في جزر نيكوبار[١٤٧] ثم إلى جزيرة كلة[١٤٨] ومنها إلى ميناء سمدرة[١٤٩] في الزابج حيث جمال الطبيعة ساحر وخلاب والبحر هادئ الموج. وروى ابن وهب والربان كيف استقبل أهل تلك البلاد مركبهم " البيضاء " سباحة وهم يعومون حاملين أكياسا من العنبر في أفواههم مقابل قطع من الحديد. وقد رست المركب في الميناء.

ولدهشة الجميع وجدوا بعضا من المسلمين العرب والإيرانيين المستوطنين هناك و يعملون بالتجارة. وقد أخبر هؤلاء ابن وهب والقادمين معه عن وجود مملكة إسلامية إلى الجنوب الشرقي من سمدرة تدعى باسم مملكة " بيرلاق " (*Perlak*). فأقلع الربان متوجها إليها حيث وصلها بعد يومين ورمى المخطاف[١٥٠] في مينائها وهبط البحارة على برها فاستقبلهم أهلها خيراستقبال، ودهش ابن وهب لدى رؤيته كل المعالم الإسلامية في المرفأ من مساجد وروابط لأبناء السبيل ومدارس، كما أن الناس يرتدون ملابس إسلامية محتشمة تماثل الملابس العربية. وسرعان ما قام أحد المسؤولين في الميناء بتوجيه دعوة للضيوف لزيارة سلطان المملكة الذي يطلق على نفسه اسم علاء الدين سيد مولانا عبد العزيز شاه. وما أن وصل الوفد هذا حتى دخلوا إلى قصر جميل يقع على رأس جبل في المدينة ويطل على البحر، واستقبلهم وزير القصر الذي أدخلهم على مجلس السلطان الذي أحسن وفادتهم وأكرمهم وأخبرهم أنه من نسل أحد التجار المسلمين الذي كان يتاجر مع جزيرة الزابج لفترة طويلة وأن المملكة كانت قبل تحولها إلى الإسلام في عام ٢٢٦ هجري تدين بديانة البوذية[١٥١]. وقد لاحظ الضيوف أن

نظام إدارة المملكة يشابه كثيرا نسق الحكم في العراق من حيث وجود الوزارة والكتابة والحجابة والشرطة والبريد والقضاء والمال، وهو أمر يؤكد الأصل الإسلامي الحقيقي لمؤسسي مملكة بيرلاق .

وفي المساء أخبرهم السلطان علاء الدين شاه أن الوجود الإسلامي في سومطرة قديم جداً وأن أحد السفراء الصينيين الذي زاره حاملا رسالة من إمبراطور الصين من أسرة تانغ أخبره حكاية صينية يرد فيها اسم ملك عربي كان يحكم في آتشيه الواقعة شمال سومطره منذ سنة ٥٥ هجرية، ويطلق على هذا الملك اسم " تاشي " باللغة الصينية(١٥٢). ومفاد الحكاية أنه كانت توجد مملكة تسمى " هولنيك " تحكمها ملكة اسمها "سيما". وكانت هذه المملكة غنية حتى أن الأشياء الموضوعة في الطرقات لايأخذها أحد وقت الصلاة. وسمع الملك "تاشي" هذا الخبر فقام بامتحان لمعرفة حقيقة الأمر، فأمر أحد رجاله بالذهاب إلى مملكة " هولنيك " ومعه قضيب من الذهب ألقاه في الطريق. ومرت ثلاث سنوات والقضيب في مكانه دون أن يهتم به أحد، إلا أن ولي العهد ابن الملكة سيما حضر يوماً وأخذ القضيب، فاستاءت أمه من عمله هذا وقبضت عليه وحكمت عليه بالقتل، لكن وزراءها طلبوا منها تخفيف الحكم إلى قطع أحد أصابعه، وعند ذلك تدخل الملك " تاشي " بما لديه من قوة ونفوذ لإلغاء الحكم من خلال سرد القصة الحقيقية لإلقاء القضيب الذهبي.

وفي ختام زيارة الضيوف للجزيرة أُخذ بعض البحارة بسحر البلاد وجمال أهلها وجوها الأليف وعاداتها الإسلامية فاختاروا البقاء فيها وعدم تكملة الرحلة مع المركب حتى الصين. فاستأذنوا من السلطان الذي أمر بتسهيل إقامتهم وتجارتهم وتزويجهم من أهل البلاد. ثم ودع الضيوف السلطان ووزيره وعادوا إلى مركبهم بعد أن باعوا واشتروا حاجياتهم وأقلعوا باتجاه جزيرة النارجيل أو الزابج(١٥٣) حيث اشتروا كمية من الذهب الجيد ومنه إلى جزائر السيلا (١٥٤) المعروفة بجزائر التوابل، وخاصة القرنفل وجوزة الطيب حيث رست السفينة وقام ابن وهب بالبيع و الشراء في الميناء. وكم كانت دهشته كبيرة عندما اكتشف وهو يقايض أحد التجار المحليين الذي تختلف سيماؤه عن الآخرين أنه عربي مسلم من آل البيت كان أجداده قد فروا إلى الجزيرة في عهد الأمويين خوفا من بطش الحجاج. وهنا أبرقت عينا الشيخ أحمد والحاضرين وسأل ابن وهب عما إذا كان فعلاً قد اجتمع بأحد آل البيت في تلك الجزيرة البعيدة، فأكد له هذا صحة ما يرويه وهدأ روعه مضيفاً أنه ما يزال عنده الكثير من الأخبار التي تهم الشيخ أحمد. فعاد هذا الأخير ينصت بشغف واضح لتتمة الحديث.

وقال ابن وهب ان التاجر المسلم أخبره أن اسم الجزيرة الأصلي هي السيلا [Sila] غير أن آل البيت غيروا اسمها إلى سلا لأنهم لما دخلوا أول مرة طابت لهم السكنى فيها وسلوا وطنهم الأم واستقروا بها(١٥٥)، وأخبره التاجر أن قسماً آخر من

العرب يسكنون في إحدى الجزر البعيدة التي تسمى العلوية نسبة لآل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذين أقاموا فيها منذ زمن بعيد. ثم أكمل ابن وهب حديثه قائلا أنه فعلا أبحر إلى شرق جزيرة سيلا تلك، فوصل إلى جزيرة سيبوه [*Sebo*] وفيها فعلا جزيرة تسمى" العلوية"(١٥٦) حيث رسا المركب وهبط البحارة إليها فاستقبلهم في الميناء وفد من العرب المسلمين عرّفوا عن أنفسهم بأنهم من السادة الأشراف وتكلموا باللغة العربية ودعوا الضيوف إلى التوجه إلى جزيرة كناوي حيث يسكن ملك الجزيرة الذي يدعى الشريف العلوي الأكبر راج جرمين [*Raja Cermin*] (١٥٧) والذي تتبع له كل الجزر المحيطة بكناوي مثل: بوهانغين وهارفو وقانغانغ وفاكنفان وبسويا فوكل وكوتا باتو وتولاكن. ولدى وصول الضيوف إلى القصر استقبلهم راج جرمين على عتبة مجلسه حيث رحب بهم وتحدث إليهم باللغة العربية وحكى على مسامعهم قصة فرار أجداده من طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي والي الأمويين على العراق، وكيف هاجروا أولا إلى الهند ومنها انتقلوا إلى الزابج والرامني ثم إلى جزيرة كناوي فهبطوا فيها حيث استقبلهم أهلها خير استقبال وكانوا في معظمهم وثنيين فأسلموا على أيديهم وأضحت الجزيرة والجزر الأخرى المحيطة بها من بعدُ تدين كلها بالدين الإسلامي الحنيف. وتكريما للضيوف، فقد اشترى الشريف بعضا من بضاعتهم ونصحهم بشراء الياقوت من جزيرته ففعلوا ثم ودعوا الشريف يوم سفرهم وشكروا له حسن وفادته وكرم ضيافته، وأقلع المركب باتجاه الشمال الشرقي إلى بحر كندرنج ببلاد خمير[كمبوديا حاليا] حيث رسا مرة أخرى في جزيرة قمار الواقعة في خليج سيام(١٥٨) لشراء أفضل أنواع المسك الذي يأتي به التجار من التيبت(١٥٩). ثم أقلع المركب إلى جزيرة صنديرفولات في أول بحر الصين المسمى ببحر صنجي إلى ميناء خانقو الصيني حيث رسا المركب وهبط أبو وهب وجمع من البحارة معه إلى اليابسة الصينية لأول مرة في حياتهم. وكان أول من استقبلهم شخص صيني تبدو عليه أمارات السلطة والهيبة ويحف به عدد من المرافقين يحملون دفاتر وسجلات، وكان معهم مترجم من الصينية للعربية، وقد قدم هذا الشخص نفسه على أنه مراقب التجارة البحرية في الميناء، وأن واجباته تملي عليه تفتيش مشحونات السفينة وجمع الضرائب وهي عشرة في المائة من قيمة البضائع التي ستباع في الصين.

وبالفعل صعد المراقب بصحبة البهنداوي والقراني(١٦٠) إلى السفينة حيث أطلّع على الحمولة ودوّن محتوياتها وحدد قيمة البضاعة التي ستباع في خانقون وفرض عليها الضريبة فدفعها فورا على شكل ذهب، لأن الصينيين لايقبلون غير الذهب عملة للتبادل التجاري مع الأجانب، أما فيما بينهم فالبيع والشراء يتم بأوراق نقدية كبيرة على قدر كف اليد مطبوعة بطابع الإمبراطور وتدعى بـ "دراهم كاغد "(١٦١)، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار السكة ليأخذ عوضا عنها كواغد جديدة دون

أن يدفع أي أجرة لقاء ذلك. وقد شاهد ابن وهب الكثير من الجنوك الصينية الكبيرة راسية في الميناء، وهي من نوع السفن نفسه التي تأتي البصرة، وكان العمال والبحارة منهمكين في تفريغ وتحميل تلك السفن بنظام يسترعي الانتباه. وخلال اتجاه ابن وهب وحاشيته ومرافقيه الصينيين إلى الفندق في أعلى هضبة تطل على الميناء، وقد حملهم سعاة على أكتافهم، كل أربعة منهم يحملون فردا أو اثنين في صندوق مغلق له بابان في الجانبين كان الناس يلقون عليهم التحية الصينية المعهودة وهي انحناءة خفيفة للرأس مع ضم اليدين إلى الصدر مشفوعة بابتسامة لطيفة ترتسم على محياهم رجالا ونساء. وقص ابن وهب على الشيخ أحمد أنه لم ير خلال إقامته في الصين أي فقير أو ذي عاهة، بل مدنا عامرة ومحصنة ونظيفة جدا كثيرة الخيرات وافرة الثروات، والناس يرتدون ملابس تشبه عباءات العرب في الطول والشكل ولكنها حافلة بالرسومات المزركشة الفاقعة اللون[١٦٢].

وبعد وصولهم إلى الفندق المليء بالورود وأحواض المياه التي تسبح فيها الأسماك من كل لون، أخبرهم المترجم أن أمير المدينة ينتظرهم عند المساء في قصره. ومرة أخرى جاء السعاة مع محفاتهم الخشبية فحملوا الضيوف وتوجهوا بهم إلى قصر الأمير، مندوب الإمبراطور الصيني في خانقين. وكان في اعتقاد ابن وهب أن الزيارة بقصد التعارف والمجاملة فقط، غير أنه اكتشف، لدهشته وعندما مثل بحضرة الأمير الصيني الذي بدت عليه أمارات القسوة المشوبة بالهدوء المصطنع، أن الأمير يعرف الكثير عن العرب والمسلمين إذ حدث الوفد بأخبار أول احتكاك جرى بين المسلمين والصينيين في عهد الرسول (ﷺ)، عندما أرسل الرسول أربعة من أصحابه إلى الصين أيام الإمبراطور " ووته " لكي يعرّف الإمبراطور بدين الإسلام. وقد استوطن أحد هؤلاء الأربعة بمدينة " خانقين " ونشر فيها الإسلام واستقر الثاني في مدينة " يانغ سو " حيث فعل الشيء نفسه بإذن من الإمبراطور. وأما الثالث والرابع فسافرا إلى مدينة " جوان شو " حيث توفيا هناك ودفنا أسفل جبل المدينة[١٦٣].

دهش ابن وهب من تلك المعلومات التي كانوا يجهلونها، وأخذوا يحملقون في وجوه بعضهم بعضاً كمن أخذته الغاشية. وازدادت حملقتهم عجبا عندما قص عليهم الأمير قصة الاحتكاك الثاني الذي جرى مع المسلمين في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان سنة ٣٠ هجرية عندما قدم وفد من طرف الخليفة إلى إمبراطور الصين في عهد أسرة " مينغ " ومثلوا بين يدي الإمبراطور وقالوا له: ان ملكنا يلقب بأمير المؤمنين

وحكومتنا قد أسست منذ ٣٠ سنة، وبلادنا تقع غرب فارس وغلبنا عليها وعلى بلاد الشام، وعندنا ٤٢٠ ألف مقاتل، لا شيء يستطيع أن يسد طريقنا أينما نتوجه "[١٦٤].

ولما شعر الأمير الصيني بأثر كلامه على الضيوف قال لهم : نحن الآن أصدقاؤكم وقد كنا قبل ذلك أصدقاء الملوك الساسانيين في فارس منذ صدامنا معهم قبل مئات السنين في عصر ملكهم بهروز الذي هزم القائد أتيلا زعيم قبائل الهون الصينية، وقد حدث أن آخر الملوك الساسانيين يزدجرد الثالث أرسل مبعوثا خاصا إلى الإمبراطور "يانغ تاي جونغ" يطلب فيه التحالف معه ضد العرب(١٦٥) وذلك بعد انتصار هؤلاء على قائده رستم في معركة القادسية وقتلهم لهذا القائد الذي كان يمتطي فيل سابور الأبيض، رمز هيبة وقوة الملك كسرى(١٦٦). وأضاف الأمير الصيني يقول: ان سجلاتنا الملكية تشير إلى أن الأمبراطور قد طلب من المبعوث الساساني أن يصف له صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوا الساسانيين من بلادهم فدار بينهما الحوار التالي:

الإمبراطور الصيني: قد عرفت أن حقا على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فإني أراك تذكر قلة منهم و كثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر منكم.

المبعوث الساساني: سلني عما أحببت.

الإمبراطور الصيني: أيوفون بالعهد؟

المبعوث الساساني: نعم.

الإمبراطور الصيني: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟

المبعوث الساساني: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة.

الإمبراطور الصيني: فكيف طاعتهم أمراءَهم؟

المبعوث الساساني: أطوع قوم لمرشدهم.

الإمبراطورالصيني: فما يُحلّون وما يحرّمون؟ هل يحرمون ما أُحلّ لهم أو يحلون ما حرم عليهم؟

المبعوث الساساني: لا

الإمبراطور الصيني: إذن، إن هؤلاء القوم لايهلكون أبدا حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم. قل لملكك يزدجرد أنه لم يمنعني أن أبعث إليه بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلي لي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف رسولك. فسالمهم وارض معهم بالمساكنة ولاتهجهم مالم يهيجوك(١٦٧).

واستطرد الأمير يقول: إن يزدجرد لم يتبع النصيحة بل توجه مجددا لقتال المسلمين في بلخ يساعده في ذلك خاقان الترك، ولكنه قتل وهو يحاول الفرار باتجاه الصين في طاحونة تقع على شاطئ نهر المرغاب في عام ٥١ هجري. وقام بدفن جثته أسقف مسيحي نسطوري من مدينة مرو . وبقي ابن يزدجرد الأكبر فيروز في الصين حيث جعله الإمبراطور تابعا له ورئيسا لفرقة حراسه الخاصة في قصر سيئان، وهناك توفي مع أتباعه بعد أن نشروا الديانة الزرادشتية في المنطقة التي كانوا يعيشون فيها إلى جانب الصينيين في ظل حماية الإمبراطور.

وتابع الإمبراطور يتكلم والضيوف منصتون فقال: نحن أمة قوية وكبيرة، وعزيمتنا لا حدود لها ويمكننا مواجهة أي عدو خارجي، غير أننا أمة نحب السلام ولا نبادر إلى مهاجمة أحد إلا إذا هوجمنا من قبله، ولذلك قام أجدادنا ببناء جدار ضخم هائل على طول حدودنا لصد العدوان. ولا أخفيكم سراً إذا أخبرتكم أن علاقاتنا التجارية والسياسية مع الساسانيين قد دفعت هؤلاء إلى محاكاة تجربتنا فقاموا ببناء العديد من الجدران الضخمة حول مدنهم وخاصة في آسيا الوسطى، غير أن الساسانيين قد طوروا فكرتنا بشكل متطور أكثر عندما جمعوا بين الجدار والخندق الذي يحفرونه حوله(١٦٨). وقد قرأت، في أحد كتب مكتبة جلالة الإمبراطور، أن أحد أصحاب نبيكم محمد وهو إيراني يدعى سلمان الفارسي كان قد أشار إلى نبيكم محمد عندما حاصره أعداؤه بحفر خندق دفاعي حول موقعه، ففعل وهكذا نجا من الهزيمة .. والأكيد هو أن فكرة سلمان الفارسي تلك قد جاءت معه من تجربة ملوك بلاده قبل الإسلام(١٦٩).

ازداد عجب ابن وهب وصحبه من سعة معارف الأمير، فسألوه المزيد من المعلومات التي بحوزته، فحكى لهم قصة الإمبراطور الصيني " يوانغ جونغ" مع الفـاتح المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي حوالي عام ١٠٠ هجري عندما وصل قتيبة في فتوحاته إلى مدينة طرفان الواقعة على حدود الصين بعد سقوط سمرقند وبخارى وكاشغر بيده، وكان من عادات المسلمين آنذاك أن يعرضوا دين الإسلام أو الجزية على أهل البلاد التي يصلون إليها، فأرسل ملك الصين إلى قتيبة رسالة يقول فيها: ابعث لي رجلا شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم"(١٧٠). فانتخب قتيبة عشرة رجال ذوي بأس وعقل وصلاح ووضع على رأسهم هبيرة بن شمرج الكلابي، وزودهم بعدة حسنة ومتاع وفير من الخز والوشي والهدايا والخيول وقال لهم: "إذا دخلتم عليه فأعلموه أني حلفت لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم و أجبي خراجهم(١٧١). ولما مثلوا في حضرة الإمبراطور قالوا له تعليماتهم من قتيبة، فقال الإمبراطور: إنا نخرجه من يمينه ونبعث إليه تراب أرضنا فيطؤه وبعض أبنائنا فيختمهم وجزية يرضاها. وغادر الوفد محملا بما ذكره الإمبراطور ورضي القائد العسكري قتيبة بتلك التسوية فتوقفت قواته عند حدود الصين(١٧٢) .

وبعد أن انتهى الأمير من سرد تلك القصة، صفق بيديه لأحد الحجاب الواقفين إلى يمينه فأحضر لفافة من الورق، ثم عاد الأمير للتكلم فقال: "إن حكومتنا تولي أهمية كبيرة للتجارة مع الأمم الأخرى، ولذلك فنحن نقوم بالسهر على حفظ أموال وتجارة الضيوف الأجانب الذين يتاجرون معنا، ولذلك سنزودكم الآن بكتابين: واحد هو كتاب حاكم البلد، وهو أنا، والهدف منه هو التعريف بكم أينما حللتم، والثاني كتاب وكيل التجارة، وهو يعرف بما معكم من مال ومتاع كي لا يعتدي عليكم أحد. ثم أضاف أن الإمبراطور قد سمح للتجار المسلمين بالاتجار في مدن محددة مذكورة في الكتابين وهي "خانقون "و "جوان جو" التي يسميها التجار المسلمون ميناء الزيتون، ويانجو وهانغ جو، وأن من يتجاوز تلك المدن ويذهب إلى أي مدينة أخرى يعاقب بالسجن ومصادرة بضاعته[١٧٣].

وبعد أن أخذ ابن وهب الكتابين وشكر الأمير على حسن وفادته ومثنيا على سعة معارفه، طلب منه الأمير أن يتريث قليلا ليشهد جلسة محاكمة لوكيل التجارة السابق في المدينة والذي أقاله الأمير قبيل مجيء الوفد بسبب شكوى وردت للأمير من تاجر خراساني مفادها أن الوكيل قد انتزع منه خيار أمتعته دونما وجه حق. وفعلا أمر الأمير بإدخال الوكيل والتاجر والمترجم فاستمع الأمير أولا للتاجر ثم للوكيل ثم فكر قليلا وبعد ذلك أمر بالقبض على الوكيل ومصادرة أمواله وطرده من وظيفته قائلا له : كان حقك القتل إذ عرضتني لرجل قد سلك من خراسان وهي على حد مملكتنا وصار إلى بلاد العرب ومنها إلى ممالك الهند ثم إلى بلدي طلبا للفضل، فأردت أن يعود مجتازا تلك الممالك ومن فيها ليشهد فينا بين أهله . لقد أمرت أن أجعلك حارسا في مقابر الملوك أوليك تدبير الموتى بعد أن عجزت عن تدبير الأحياء![١٧٤].

وهنا التفت ابــن وهب نحو الشيخ أحمد بن عيسى شارحا له كيف غادر هو وصحبه قصر الأمير وقد غلب عليهم التأثر بنزاهة وغرابة الحكم الذي أمر به الأمير. ثم أكمل ابن وهب قصته قائلاً: إن الوفد غادر قصر الأمير ثم أمضى أفراده حوالي الشهرين في المدن التجارية المسموح بها يتاجرون فيها فيبيعون مما جلبوا معهم ويشترون من التجار الصينيين ما يحتاجون إليه. وكل ذلك في أمان إلى أن حانت لحظة السفر مجددا فودعوا مرافقيهم الصينيين وأرسلوا بعض الهدايا لأمير المدينة ثم نشروا أشرعة مركبهم باتجاه طريق العودة الطويل عن طريق بحر شلاهيط وبحر هركند مجددا. وبعد إبحار دام حوالي السبعين يوما تعرضت خلالها السفينة لعواصف هوجاء خربت جؤجؤ السفينة[١٧٥] وأصابت دبوستها بالأضرار [١٧٦] وجد البحارة أنفسهم قريبين من شواطئ جزيــرة واق الواق[*Papua*] وهي أبعــد نقطة في اليابسة قبل ولوج البحر الزفتي[١٧٧]. فحمدوا الله على ذلك ورسوا في الجزيرة لإصلاح أعطال السفينة ولشراء الذهب من ملكها وأهلها لأن الصينيين كانوا قد أخبروا ابن

وهب أن أرخص مكان في الدنيا لشراء الذهب هو جزيرة واق الواق التي يحكمها ملك يدعى "راج مها". وبالفعل ما أن هبط ابن وهب على الشاطئ حتى اجتمع حوله أهل الجزيرة وهم عراة بالكامل رجالا ونساء وقد وضعوا سلاسل ذهبية حول أعناق كلابهم وأطواقا ذهبية أيضا حول أعناق قرودهم الصغيرة التي تنتقل معهم أينما ساروا ، كما لاحظ ابن وهب أن هؤلاء الناس يستخدمون الذهب لبناء أكواخهم[١٧٨]. وقد ازداد عجبه أكثر عندما وصل إلى كوخ عظيم وهو قصر ملكهم الجالس على منصة خشبية وهو عار أيضا لا يرتدي شيئا وقد ثقب أذنيه ووضع فيهما أقراطاً ذهبية ثقيلة الوزن. واتفق ابن وهب مع الملك على شراء الذهب منه بالمقايضة مقابل عطور وعاج وماء الورد، وقد دفع ابن وهب ببضاعته للملك وانتظر أن يأخذ مقابل ذلك ذهبا، غير أن الملك نهض من منصته وسار باتجاه بحيرة صغيرة يدخلها الماء بالمد وقد استقرت بها مئات التماسيح، فأمر أتباعه بالصياح والضرب على الطبول ففعلوا، وعندها فرت التماسيح بعيدا ثم أمر الملك أحد أتباعه بالغوص في المياه ورفع كمية من الذهب ففعل ثم سلمها لابن وهب وهو واقف يكاد لايصدق عينيه. وعندما سأل عن مغزى ما حصل أمامه أخبره الملك أنه يسبك ما يأتيه من دخل وضرائب من السفن ذهبا ثم يلقيه في البحيرة المليئة بالتماسيح، فإذا أراد رفع شيء منها أمر بالصياح كي تنفر التماسيح فتخلو البحيرة ومن ثم يرفع منها ما يحتاج إليه من ذهب. وهكذا فالذهب محفوظ في حماية التماسيح، ذلك مخافة افتضاح أمره .![١٧٩].

وبعد أيام غادرت السفينة الجزيرة بعد إصلاحها وأقلعت مجدداً باتجاه مضيق ملقا فوصلتها بعد حوالي الشهر حيث رست في آتشيه للتزود بالمياه العذبة ثم أقلعت مجدداً باتجاه جزر نيكوبار ومنها إلى بحر هركند وسرنديب ثم شاطئ ماليبار في الهند ثم الديبل في السند فوصلته بعد حوالي الشهرين حيث استراح البحارة مدة من الزمن وأجرى ابن وهب بيع وشراء بعض السلع ثم أطلقت السفينة أشرعتها باتجاه بحر العرب ومنها إلى هرمز فسيراف فالأبلة حيث وصلنا بعون الله وحمده .

لم ينتبه الشيخ أحمد إلى انتهاء كلام ابن وهب بل بقي محملقا في الفراغ وكأنه يسبح فيه، ثم استدرك نفسه فشكر ابن وهب على قيامه بالرحلة خير قيام وعلى أمانته ونجاحه في مسعاه وعلى ما حمله معه من أخبار مشوقة من أقاصي الدنيا ومجاهلها. وانفض الاجتماع والشيخ أحمد مأخوذ بسحر الأحداث وعجب المواقف .

حملت تجارة الشيخ أحمد مالا وفيرا ، غير أن الأمور في البصرة لم تكن على خير مايرام، فقد تناقل الناس خبر ظهور جماعة بسواد الكوفة يدعون لرجل من البحرين يدعى حمدان قرمط ويلقب بأبي سعيد القرمطي ، وهو بدوره يدعو إلى إمام من أهل البيت[١٨٠]. وقلق الناس أكثر عندما علموا أن قرمط هذا قد وضع يده بيد عبد الله بن ميمون القداح الباطني الذي كانت دعوته تسير مستترة . أما قرمط فكانت

حركته مسلحة وظاهرة. وأخذ القداحيون يغذون حركة قرمط بمبادئ جديدة، وعندما اطلع قرمط على نظرية عبد الله المسماة " الإمام المستور" الذي يحيط بكل شيء وهو مصدر العلم والعرفان ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق حجته عبد الله بن ميمون القداح، أدرك أن القداحيين يدعون لأنفسهم بينما هو يدعو لإمام من آل البيت كستار لتقويض الخلافة العباسية. ولكن اشتراك الاثنين في الهدف الرئيسي هدّأ الصراع بينهما ووحد صفوفهما ضد الخليفة في بغداد. واستعان قرمط والقداح بأفكار داعية صوفي كان له عدد كبير من المريدين في العراق وفارس يدعى الحلاج ويدعو إلى الإشراق الإلهي بمعنى أن المعرفة تشرق على الامام فتسمو به إلى مرتبة ما نالها غيره، أي أن الإمام يفيض عليه نور المعرفة فتكشف له الحقائق فيعرف باطن الأمر وظاهره. وقرن الحلاج فكرة الإشراق الإلهي بفكرة الحلول، فخرج للناس بفكرة الحلول، أي حلول الإله بالإنسان. وبتحالف تلك الفئات الثلاث قويت شوكة القرامطية حيث صار لهم مستند فكري يبرر حركتهم(١٨١).

انضم أنصار ثورة الزنج إلى تلك الفئات المتحالفة، واخترقوا قصر الخليفة وحاشيته ووصلوا حتى إلى تجنيد الشاعر البغدادي المشهور" كشاجم " كاتبا لهم هو وابنه أبو الفتح(١٨٢). والأمر الذي أقلق أهل البصرة أكثر من غيرهم هو ظهور تلك الفئة في البحرين، إذ أن ذاكرتهم لم تنسَ بعدُ فتنة الزنج ومذابحهم في المدينة بعد أن كان صاحب الزنج قد قدم من البحرين أيضا. فعمد الكثيرون من أهل البصرة إلى الانتقال منها إلى بغداد والمدينة المنورة، في حين بقي الإمام عيسى بن محمد وأولاده في البصرة خوفا من تعرضهم لما هو أسوأ في حال غادروا البصرة إلى مكان آخر. واقترن الخوف والترقب بالحزن. ففي ظهيرة يوم من أيام شهر محرم من عام ٢٧٨ هجرى توفي الإمام عيسى فحزنت البصرة عليه حزنا شديدا، واتفق أهل البيت من الطالبيين على إناطة النقابة بابنه أحمد، كما اختاره أهل المدينة ليكون إماما عليهم في المسجد خلفا لوالده ومعلما لهم و لأولادهم في شؤون الفقه والدين.

في ذلك العام أيضا فوجئ الناس بورود خبر وفاة الموفق بالله شقيق الخليفة القوي وولي عهده المهيمن على أمور الخلافة، ولكنه قبل وفاته كان قد أقنع الخليفة بتعيين ابنه ورئيس الحرس الخاص بالخليفة وهو أبو العباس أحمد وليا للعهد، فعمل المعتمد على الله برغبة شقيقه. ثم لم يلبث الخليفة نفسه أن مات بعد ذلك بأيام فولي الخلافة أبو العباس أحمد بن الموفق بالله طلحة بن المتوكل بن المعتصم، واختار لنفسه لقب المعتضد بالله. وكما هي العادة قام الخليفة الجديد باختيار وزير له فوقع اختياره على القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب، فكانت تلك مفاجأة عقدت ألسن أهل الحل والعقد في بغداد، لأن الوزير الجديد للمعتضد بالله هو ابن سليمان بن وهب وزير الخليفة السابق المعتمد على الله والذي أمر الموفق بالله والد الخليفة الجديد المعتضد بالله

بزجّه في السجن حيث مات فيه[١٨٣] وأبقى المعتضد بالله يحيى بن علي المنجم نديماً له في مجلسه، وثبت خمارويه بن أحمد بن طولون على الشام ومصر وبني زياد على اليمن والسامانيين على ما وراء النهر، وبني الأغلب على أفريقيا. ووضع مكة المكرمة بيد يوسف بن أبي الساج[١٨٤].

ومرة أخرى يأتي امتحان الخليفة الجديد من خراسان التي كانت أعمال العصيان على الخلافة قد اندلعت فيها منذ قيام الخليفة أبي جعفر المنصور باستدراج قائده أبي مسلم الخراساني وقتله في عام ١٣٧ هجري[١٨٥] بسبب تجاهله أوامر الخليفة بتوليته امارة مصر والشام بدلاً من خراسان .

وقد جاءت المشاكل مجددا من طرف عمرو بن الليث الصفار شقيق يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الإمارة الصفارية في خراسان، والذي كان الخليفة السابق المعتمد على الله قد أقره على حكم الولايات الشرقية من الخلافة ثم غدر به بناء على نصيحة قدمها محمد بن طاهر حاكم خراسان السابق الذي كان يعقوب قد أطاح به، إذ أقنع محمد هذا الخليفة المعتمد بتعيين رفيع بن حرثمة وهو أحد قادة يعقوب ممثلا له في خراسان إلى جانب محمد بن طاهر، وعزل عمرو بن الليث فنزل الخليفة عند هذا الرأي، ثم عاد مجددا إلى مهادنة عمرو خوفا من تمرده، فأقره واليا على الولايات الشرقية للخلافة، وجعل رفيع بن حرثمة واليا على الري وهرات. ولما توفي المعتمد على الله أمر الخليفة الجديد المعتضد بالله بجعل عمرو بن الليث الصفار حاكماً لخراسان بدلا من حرثمة الذي تمرد على أوامر الخليفة وتحالف مع الخوارج في قزوين، الأمر الذي جعل عمرو بن الليث يحظى بدعم غلاة السنة المعارضين لحرثمة فهاجم حرثمة وقتله في عام ٢٨٣ هجري، فكافأه الخليفة بإضافة الري إلى ولايته. وشعر عمرو بثقة كبيرة بالنفس دفعته إلى مهاجمة السامانيين في أقصى الولايات الشرقية على حدود تركستان الصينية دون استشارة الخليفة في بغداد. واشتبك عمرو مع إسماعيل بن أحمد الساماني في عاصمته بخارى وانتصر هذا الأخير ووقع عمرو أسيرا بيده فأرسله إلى الخليفة المعتضد الذي أمر بقتله، وبذلك ارتاحت الخلافة من هموم الصفاريين[١٨٦].

بعد مرور سنة على وفاة والده، تزوج الإمام أحمد بن عيسى ، ففرح أهله فرحا كبيرا لاكتمال دين إمامهم الشاب، ولم يعكر صفو سرورهم سوى وفاة حافظ الحديث المشهور أبي عيسى الترمذي صاحب كتاب " السنن " وذلك بعد أن كان المسلمون قد فقدوا أيضا قبيل سنوات علما آخر من علماء الحديث هو الحافظ ابن ماجة .

وكانت الأحداث السياسية تتسارع بوتيرة مقلقة في كل من مصر والشام واليمن. فقد توفي أمير اليمن إبراهيم بن محمد بن زياد فأقام الخليفة مكانه ابنه زياد بن إبراهيم[١٨٧]. وأما في الشام ومصر فقد خرج خمارويه بن أحمد بن طولون عن طاعة

الخليفة وجرت بينهما مناوشات وكادت تنفجر حرب ضروس بينهما لولا أن تدخل الوزراء والقضاة في النزاع وأقاموا الصلح بين الخليفة وعامله خمارويه الذي زوج ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد بالله في عام٢٨١ هجري. وقد جرى حفل الزواج في جو من البذخ والترف لم تشهد بغداد مثله من قبل، فقد وصل موكب العروس من الشام وهو يضم الآلاف من الخدم والعبيد وأفراد عائلة خامارويه، ودخل الموكب عبر سوق الرياحين في بغداد ومنه دلف إلى قصر الخلافة، وكان يسير على ميمنة وميسرة هودج العروس ألف من الخدم يحمل كل منهم هاوناً من الذهب الخالص يقدمه والد العروس، كما حملت عشرات الجمال وراءها جهاز العروس الذي قدر ثمنه بألف ألف دينار وهو مقدار الصداق الذي قدمه للعروس زوجها الخليفة(١٨٨).

تململ الناس كثيرا من صرف أموال المسلمين على الحفلات الباذخة وعلى المغنين والندماء والخدم والحريم، ولاسيما وأن الناس كانوا غير واثقين باستتباب أمور الخلافة ومناعتها، كما أن كثيرين من الفقراء والمعوزين أخذوا يظهرون في المدن ويستجدون على أبواب المساجد وفي الأسواق، وهو أمر لم يكن مألوفا من قبل(١٨٩)، ومما زاد الأمور ضغثا على إبالة هو أن الخليفة قد أمر في عام ٢٨٤ هجري بلعن معاوية على المنابر فحرك بذلك نارا طائفية كان أسلافه يحاولون إطفاءها بالسبل كافة، كما دفع المتعاطفين مع الأمويين وخصوم العباسيين من كل حدب وصوب إلى التحالف مجددا ضد الخلافة. كل ذلك وأبو سعيد الجنابي القرمطي وابنه أبو طاهر القرمطي يتوسعان في دعوتهما بهدوء ولكن بفعالية. ثم حزن آل البيت مرة أخرى في البصرة أسفا على وفاة صديقهم الشاعر الكبير البحتري فأقاموا مجلسا للعزاء في البصرة على روح فقيدهم. استمرت الأمور هكذا إلى أن جاء يوم في شهر رجب من عام ٢٨٩ هجري هبت فيه رياح هوجاء على البصرة قلعت أشجار النخيل وهدمت المنازل في موضع خسفت فيه الأرض بفعل الأمطار الغزيرة التي رافقت العاصفة فهلك تحته ستة آلاف من سكان المدينة. ثم فاض البحر ودخلت مياهه إلى الدور والمخازن فقضت على ما تبقى من ثروة المدينة ومعنويات سكانها(١٩٠). وما أن هدأت العاصفة وتوقفت الأمطار حتى ظهر على أبواب البصرة أبو سعيد الجنابي على رأس الآلاف من أتباعه فأغار على البصرة فتصدى له أمير الجند في البصرة العباس الغنوي فكسره القرمطي وأسر جميع من معه، وعاد الغنوي وحده للمعتضد يروي له ما حدث. وقد روع القرمطي أهل البصرة مجددا بأفانين جديدة في القتل والتعذيب حيث عمد إلى إحراق الأسرى من جيش الخليفة الذين وقعوا في يده فكان المنظر لا يحتمل ولا يطاق في وحشيته، ثم انسحب القرمطي من المدينة فعاد أهل البصرة يستنجدون بالخليفة وقد اشتد بهم القحط والجوع والحزن تماما كما كانوا قد فعلوا عندما اجتاحتهم ثورة الزنج. وعاد المعتضد إلى تهدئة خواطرهم بإرسال جيوش صغيرة للبصرة كانت تلقى مصير جيش

الغنوي نفسه فارتاع الناس وأخذوا يرحلون عن البصرة[١٩١] ثم تعرض المعتضد لتحدٍ جديد عندما قام القرامطة بقطع طريق الحج وتسمى رئيسهم ابن أبي الفوارس بلقب أمير المؤمنين، فأرسل المعتضد جيشا استطاع أن يأسر ابن أبي الفوارس ويجلبه إلى بغداد حيث عذب ونكل به ثم ضربت عنقه وصلب مع الكثيرين من الأسرى الآخرين من القرامطة. وكان رد فعل القرامطة على ذلك هو البدء بالعمل السري الهادئ فأرسلوا دعاتهم إلى الشام وسواد العراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا واليمن وحضرموت. وكان انتشارهم في اليمن وحضرموت على يد علي بن الفضل الحميري ومنصور بن الحسن الكوفي، وأما في العراق فكان على يد إسحاق وجعفر الهجريين اللذين كانا يدّعيان أنهما من السادة الأشراف أهل البيت، وتمكنا من كسب ود كبار المسؤولين في قصر الخلافة إلى درجة أن عضد الدولة أقطعهم ناحية في مدينة واسط، كما أقطعهم عز الدولة إقطاعا في الفرات. غير أن أمرهما استفحل بعد عام واحد فقط، وكانوا بقيادة أبي سعيد الجنابي، فأرسل المعتضد جيشا بلغ عشرة آلاف مقاتل بقيادة العباس بن عمرو الغنوي، فلما التقى الجمعان استطاع الجنابي أسرهم جميعا ولم ينجُ منهم إلا أمير الجيش فقط في حين قتل الباقون عن آخرهم صبرا بين يدي القرمطي. ثم ظهر يحيى بن زكرويه بن مهرويه المكنى بأبي القاسم القرمطي بالرقة في جمع كثير، فخرج إليه جماعة من أصحاب السلطان فهزمهم وقتل رئيسهم، فخرج جيش من دمشق للانتقام من القرمطي فهزمهم الأخير وقتل الكثيرين منهم، وعندها وجه السلطان قائده أبا الأعز لحرب القرامطة في عشرة آلاف مقاتل وانضم إلى المصريين على باب دمشق حيث استطاع أبو الأعز والمصريون قتل طغج يحيى بن زكرويه القرمطي فخلفه أخوه الحسين بن زكرويه الذي كسر جيوش الخليفة ووصل إلى دمشق ثم حمص حيث خطب له على منابرها وتسمى بالمهدي، ثم حماة ومعرة النعمان والسلمية. وفي تلك اللحظة الحرجة توفي الخليفة المعتضد فجأة في عام ٢٨٩ هجري وولي الخلافة مكانه ابنه أبو محمد علي الذي اختار لنفسه لقب المكتفي بالله فأقر وزير أبيه وهو القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزيرا له، ثم أقر هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون على مصر والشام، وولى على ديار ربيعة وديار مضر في شمال العراق أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان، وأقر عج بن حاج المظفر على مكة والمدينة المنورة، وكذلك بني زياد على اليمن، وكان إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان قد مات في خراسان فولى المكتفي بالله أبا نصر أحمد بن إسماعيل مكان أبيه وأرسل إليه التقليد، كما ثبت زيادة الله ابن أبي الغرانيق الأغلبي على أفريقية. وكان يحكم المغرب آنذاك علي بن عمر بن إدريس[١٩٢].

وبعد أسابيع من تولي المكتفي بالله الخلافة عقد مجلساً ضم وزيره ورئيس ديوان الزمام[١٩٣] وكبار أمراء الجند والقضاة الأربعة للتباحث في الأخطار التي

تواجهها الخلافة وفي سبل مجابهتها والتصدي لها. وبطبيعة الحال كان الخطر الأكبر يتمثل في حركة القرامطة الذين احتلوا دمشق بعد البصرة وقتلوا واليها هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، وسار المكتفي بنفسه من بغداد إلى الرقة حيث أرسل من هناك جيشا بعد جيش لقتال الحسين بن زكرويه الذي استباح دماء المسلمين وأعراضهم وخاصة في سلمية. ثم قاد المكتفي إحدى المعارك في عام ٢٩١ هجري فانهزم الحسين القرمطي والتجأ إلى الدالية فأسر فيها مع جماعته وحمل إلى الرقة ظاهرا للناس. ثم عاد المكتفي إلى بغداد ومعه القرمطي فأمر الخليفة ببناء دكة ارتفاعها عشرة أذرع وجيء بالحسين بن زكرويه ومعه أربعة وثلاثون من أتباعه فقطعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم واحداً بعد واحد، ثم قدم كبيرهم فضرب مائتي سوط وقطعت يداه ورجلاه وكوي ثم أحرق ورفع رأسه على خشبة(١٩٤). وكانت هذه الأحكام الرادعة قاسية جداً نظراً لمافعله قطاع الطرق والمفسدون من القرامطة. وفي سنة ٢٩٤ هجرية اعترض زكرويه القرمطي قافلة للحج في طريق مكة بالعقبة فقتل أفرادها وسبى من النساء ما أراد، وراح أصحابه ينخسون الجمال بالرماح ويبعجونها بالسيوف فنفرت واختلطت بالقافلة فنهبوا من القافلة ما قيمته ألفا ألف دينار(١٩٥).

ثم ظهر القرامطة في منطقة نجران باليمن فنزلوا إلى صنعاء واستباحوها خمسة عشر يوما بقيادة علي بن الفضل القرمطي. وبعد صنعاء استباحوا تهامة ثم ذمار وزبيد حيث فعلوا فيها مايندى له الجبين، فقد سبوا فيها جميع نسائها واستباحوا المدينة سبعة أيام. وبعد ذلك أعلن علي بن الفضل نفسه نبيا وحلل لأتباعه نكاح الأمهات والأخوات وشرب الخمور وكفر بمحمد (ﷺ) وبما جاء به من عند الله عز وجل وسمى نفسه برب العالمين(١٩٦). ثم تجرأ القرامطة على الخليفة نفسه عندما دخل قائدان منهم إلى بغداد وبصحبتهما نفر من أتباعهم عبر باب البصرة، ولحسن حظ الخليفة فقد تعرف عليهم الناس وأخذوا يصيحون فوصل جند الخليفة وقتلوا قسما منهم في حين لاذ القسم الآخر بالفرار باتجاه البصرة(١٩٧).

وبعد مشاورات طويلة أمر الخليفة المكتفي بالله قواده بإعداد جيوشهم والتوجه نحو البصرة لقتال القرامطة، وصدرت الأوامر لوالي البصرة أحمد بن محمد الواثقي بالصمود ريثما تصل القوات إلى المدينة، فحصن الوالي المدينة و أحاطها فورا بسور، كل ذلك وجميع العراق مصاب بحيث لم تبقَ دار إلا وفيها مصيبة وعبرة سائلة وضجيج وعويل.

وفي حمأة الاستعدادات الحربية لقتال القرامطة وصل خبر من اليمن مفاده أن أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد والي اليمن قد تصدى لحملة شنها القرامطة على اليمن، وقبض على رئيسهم المدعو صاحب الشامة القرمطي وقتله حرقا بعد أن أصدر علماء الدين هناك فتوى بتكفيره. غير أن أبا الفضل القرمطي ظهر على الساحة فجأة

وقلب المعطيات رأسا على عقب. ولم يكن أبو الفضل قرمطيا بل اعتنق آراء الحركة عندما التقى وهو يزور مشهد الإمام الحسين بن علي (ﷺ) بميمون القداح جد العبيديين الذي كان يلازم آنذاك خدمة الضريح تقربا من الناس. وبعد أن اطمأن القداح لأبي الفضل أسرَّ إليه وإلى رجل آخر يسمى منصور بن الحسين من ذرية عقيل بن علي بن أبي طالب(ﷺ) بمذهبه، وأقنعهما بالذهاب إلى اليمن للدعوة لابنه عبد الله بن المهدي قبل ظهوره، فذهبا حيث قصد منصور عدن داعيا. وأما علي بن الفضل، فقد قصد شرف يافع وأظهر من الزهد والصلاح والتقشف ما فتن الناس به. ثم لما علا شأنه أمر ببناء حصن كبير وأمر أتباعه بالجهاد ضد العصاة أي بني زياد. ثم قصد المذيخرة على رأس جيش كبير فقتل جعفر بن إبراهيم المناخي وجعل المذيخرة مستقر ملكه. وهناك نشر مذهبه الداعي إلى تحليل الخمر ونكاح المحارم، وكان يؤذن المؤذن في مجلسه: أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، كما أسلفنا القول(١٩٨).

كان الخليفة بحاجة إلى تسجيل نصر عسكري يرفع به معنويات الجند المنخفضة بسبب هزائمهم أمام القرامطة، فاختار تغيير المواجهة من الجنوب تجاه الغرب، فعمد إلى إرسال حمد بن سليمان الواثقي إلى مصر على رأس جيش كبير فاستولى عليها وانتزعها من بني طولون وخرب منازلهم وأزال ملكهم عنها. ثم أمر أمير جنده عيسى بن محمد النوشري بالتوجه نحو دمشق وقتال القرامطة وإخراجهم منها، ففعل وحرر دمشق من القرامطة في عام ٢٩٤ هجري ومكافأة له عين الخليفة عيسى بن محمد النوشري واليا له على مصر في حين أقام على دمشق وعلى حلب أحد مساعديه ويدعى أحمد بن كيغلغ .

ولكن انتصار الخليفة المكتفي بالله في مصر والشام واكبه خسارة واليه زيادة الله بن أبي العباس الأغلبي لإفريقية ولجوءه إلى حماية الخليفة في مصر بعد أن قام عليه عبد الله بن الحسين داعي عبد الله بن محمد الحبيب المهدي بالمغرب بفعل إهمال زيادة الله لأمور الحكم وقيامه بقتل إخوته وأبناء عمومته و إقباله على اللهو والملذات ولكن أيضا بسبب انتشار الأفكار المهدية والفاطمية في المنطقة. وقد أدى مجيء زيادة الله إلى مصر إلى انتهاء حكم دولة بني الأغلب في أفريقية(١٩٩) ففقدت الخلافة بذلك إحدى أعمدتها و تقلص نفوذها إلى حدود مصر فقط، في حين أسس عبد الله عاصمة جديدة لحكمه إلى الجنوب الشرقي من مدينة القيروان دعاها بالمهدية. في تلك الأثناء تحولت بغداد إلى ثكنة عسكرية لايرى المرء فيها سوى حركة الجند الدائمة خروجا ودخولا من أبوابها الأربعة الرئيسية، وتراجعت التجارة كثيرا وازدحمت المساجد بالقادمين من البصرة ممن فروا من القرامطة. ومع شدة تلك المحنة، لا بل ربما بسببها توفي الخليفةالمكتفي بالله فجأة في عام ٢٩٥ هجري بعد أن كان قد أعلن اعتزاله النساء والحفلات بسبب حزنه على ما يجري من حوله(٢٠٠). وبعد وفاته سيطرت على

مقدرات الدولة فورا والدته التي كان الناس يدعونها بـ " السيدة " فولّت ابنها الصغير أبا الفضل جعفر بن المعتضد بالله وفرضت البيعة له وعمره ثلاث عشرة سنة وأعطته لقب المقتدر بالله ، ولم تقف " السيدة " الأم عند هذا الحد من التدخل في السياسة بل عينت أيضا قهرمانة لها تدعى " ثومال " صاحبة لديوان المظالم(٢٠١)، وأنشأت لها مجلسا خاصا للبتّ في المظالم في مدينة الرصافة أيام الجمع بعد الصلاة يحضره الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم .

لم تكن الأخبار الواردة من بغداد مطمئنةً لأهل البصرة الذين أدركوا عند سماع ما يجري في قصر الخلافة أن وضعهم يسير من سيئ إلى أسوأ، خاصة بالنسبة للطالبيين من أهل البيت لأن الخليفة الجديد هو ابن حفيد المتوكل بالله الذي كان قد أعتدى عليهم وتطاول على حقوقهم، وبالتالي فإن مجيء المقتدر بالله وهو بعدُ صبي يافع وسيطرة النساء على مقدرات الحكم في القصر، وحبك الوزراء ورؤساء الدواوين لمؤامراتهم ودسائسهم، علاوة على نقمة أمراء الجند وتربصهم بالخلافة الدوائر وغياب الاستقرار والأمان عن أمصار الخلافة كلها، جميع تلك العوامل زادت الخوف خوفا لدى أهل البصرة وفاقمت الشك شكا لدى الطالبيين من أهل البيت ممن بدؤوا يفكرون بحلول بديلة لمعاناتهم ونكباتهم. ومن هذه الحلول الهجرة من البصرة إلى مكان آخر يلوذون به من تقلبات الدهر وصروفه مع العلم أن زعيم القرامطة أبا طاهر حاول مرارا وتكرارا التقرب منهم مدعيا أنه مؤيد لهم، فكانوا يترفعون عن قبول تودده ويأنفون من تقربه منهم ومن ادعاءاته الباطلة بعدما وقفوا على مذابحه القطيعة في البصرة وتطاوله على حرمة الدين وأعراض الناس. وبسبب هذا الكم الهائل من عوامل الضغط على الناس، أخذ بعضٌ منهم يبيعون ضمائرهم لمن يدفع لهم أكثر فاختفت الذمة وضعفت معاني الرجولة والشرف إلى درجة دفعت الإمام أحمد بن عيسى ذات يوم إلى أن يكتب لصديقه المفسر والمؤرخ البغدادي ابن جرير الطبري يقول:

ألا إن إخـــوان الـــثقـــات قلـــيـــل ... وهـــل لِـــي إلـــى ذاك القلـــيل سبيل؟

ســـل الناس تعرف غثهم من سمينهم ... فـــكل علـــيه شـــاهـــد ودلـــيـــل

فرد عليه أبو جعفر الطبري بقوله :

يســـيء أمـــيري الظـــن في جهد جاهـــد

فهـــل بحســـن الظـــن مـــنك ســـبيل؟

تـــأمل أمـــيري مـــا ظننـــت وقلتـــه

فـــان جمـــيـــل الظـــن مـــنك جميل(٢٠٢)

وقد أرفق مع شعره هذا نسخة من كتاب كان قد فرغ لتوّه من تأليفه وعنوانه " تاريخ الأمم والملوك " وذلك لمعرفته بأن الامام أحمد يعشق السفر والترحال والاطلاع على شؤون الأمم والعباد .

وأما في بغداد فقد دفعت " السيدة " ابنها المقتدر بالله إلى تعزيز صورته لدى الناس من خلال التلاعب بالعائلات الأدبية الكبيرة في بغداد، وهي العائلات التي يتم اختيار الوزراء من صفوفها عادة مثل " آل الجراح وآل حامد وآل مقلة وآل الفرات. ونصحته بالإكثار من تغيير الوزراء وانتقائهم بشكل متناوب من بين تلك العائلات فتتركز دسائسهم على بعضهم بعضاً ويرتاح الخليفة من ضغوطهم ومناوراتهم. وهكذا فعل، فقد عمد إلى اختيار علي بن عيسى بن داود الجراح وزيرا له وخلع عليه عباءة الوزارة السوداء وأجلسه في دست الوزارة بحضور كبار العائلات الأخرى المتنافسة فيمابينها على المنصب فأوغر في صدرهم الحقد محرضا إياهم على البدء بحبك الدسائس ضد الوزير الجديد(٢٠٣).

وأما في الولايات، فقد كان على مصر في عهد أخيه المكتفي بالله عيسى بن محمد النوشري فعزله المقتدر بالله وولى مكانه أبا منصور تكين، وأبقى على أحمد بن كيغلغ في دمشق وحلب، كما أبقى على مكة المكرمة محمد بن سليمان الزيدي وهو من عقب سليمان بن داود بن الحسن المثنى ابن سبط الرسول (ﷺ) في محاولة منه لاسترضاء الطالبيين ومشايعيهم، كما أبقى اليمن بيد بني زياد، وما وراء النهر وخراسان بيد أحمد بن إسماعيل الساماني. وأما أفريقية فقد استولى عليها دعاة عبد الله المهدي حيث بويع لعبد الله سنة ٢٩٧ هجرية وبنى مدينة المهدية لتكون عاصمة له ودار ملكه المستقل عن الخلافة في بغداد(٢٠٤).

ولما فرغ المقتدر بالله من ترتيب أمور قصره وولاته، أصدر قرارا بتحريم الحج بسبب دخول أبي طاهر سليمان بن حسن الجنابي القرمطي إلى مكة، ثم انشغل بالبذخ والترف وصحبة المغنين والندماء كأسلافه وزاد اللهو لهوا بسبب تحكم النساء في إدارة شؤون القصر فكثر عددهن وتضاعف الخدم والحرم مرات ومرات إلى أن اشتكى حاجب المقتدر وجود عجز في تأمين أموال كافية لدفع مخصصات تلك النسوة وأولئك الخدم والمغنين لكثرة ما يصرفه لهم الخليفة من جوائز وهبات وأعطيات في كل حفلة من حفلات مجونه(٢٠٥).

كان العديد من أولاد وإخوة وأقارب الخلفاء السابقين يطمحون لتولي سدة الخلافة، ولكنهم كانوا يخشون من عواقب الإقدام على عمل طائش قد يودي بحياتهم إن هم فشلوا في مسعاهم، ولذلك كانوا يعملون الصبر ويتحينون اللحظة المناسبة لتنفيذ مآربهم، غير أن عبد الله بن المعتز بالله وهو معروف بمعاشرته للأدباء والكتاب وبصلاته مع أهل العلم والفقه نقم على الخليفة الجديد وعلى والدته وأزمع الاستيلاء

على الحكم فتحرك ذات يوم بصحبة بعض قادة الجند وبتأييد من بعض قضاة بغداد إلى القصر للاستيلاء عليه واستطاع أن يدخل إلى مخدع المقتدر بالله وهو منشغل بالقيان والجواري فخلعه عن الخلافة وأعلن نفسه خليفة داعيا أهل الحل والعقد للاجتماع فورا في القصر، غير أن عبد الله بن المعتز لم يحسب حساب أم المقتدر بالله فقد كانت له بالمرصاد واستطاعت تحرير ابنها واعدة الحراس بالعطاء الجزيل فانقلبوا على عبد الله وربطوه ورموه بين يدي المقتدر بالله الذي أمر السياف بقطع رأسه ورؤوس كل من شايعه أمام كبار أعيان الخلافة، فضمرت بذلك المؤامرات واضمحلت الدسائس إلى حين، وأمر الخليفة بصرف العطاء الجزيل لحراس القصر والجند وبتعزيز الرقابة على الخارجين والداخلين من وإلى القصر وبنزع سلاحهم إلى حين خروجهم (٢٠٦).

استفاد المقتدر بالله من ظفره بمناوئيه من أهل بيته فعكف على إعداد جيشه لمحاربة القرامطة حول البصرة، ثم أرسله باتجاهها برا وبحرا. وخلال ذلك الوقت حدثت بالبصرة فتنة إذ تآمر الناس على أميرهم الحسن بن الخليل الفرغاني ، فقام هذا الوالي بإحراق الجامع الذي لجأ إليه الهاربون من بطشه وقتل خلقا كثيرا، ورفع الخبر إلى بغداد فعزله المقتدر بالله وعين بدلا عنه أبا دلف هاشم بن محمد الخزاعي .

اصطدم جيش الخليفة وأسطوله بقوات القرامطة واستمرت المعارك أشهرا عديدة حافلة بالكر والفر من الطرفين إلى أن استطاع جيش الخليفة قتل أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي والد أبي طاهر القرمطي فارتفعت بذلك معنويات جيش الخليفة فشدد حصاره قوات القرامطة حول البصرة والكوفة . ثم جاءت أخبار سارة أيضا من اليمن حيث استطاع الهادي يحيى بن الحسين وأسعد بن جعفر قتل علي بن الفضل القرمطي في المذيخرة وشتت شمل أنصاره وسبى بناته الثلاث فانقطعت بذلك دولة القرامطة من اليمن في عام ٣٠٣ هجري(٢٠٧) وكانت المعارك متواصلة أيضا بين الروم ووالي الشام وحلب أحمد بن كيغلغ المتحالف مع والي مصر أبي منصور تكين، حيث استطاع المسلمون إلحاق هزائم كبيرة بقوات الروم فاضطر ملكهم إلى إرسال رسول المقتدر بالله لطلب الهدنة فوجدها الخليفة فرصة لا تعوض لإظهار مدى سلطانه لمبعوث ملك الروم وإدخال الرهبة إلى نفسه كي لا يعود إلى مهاجمة المسلمين في الثغور الشمالية للخلافة. وأمر الخليفة أعوانه بتنظيف مدينة بغداد وطلاء جدرانها وأسوارها وجميع المراكب البحرية. ولما وصل مبعوث ملك الروم إلى بغداد في عام ٣٠٥ هجري رتب من العسكر من دار الخلافة وحولها حتى أبواب بغداد مائة وستين ألفا مابين راكب من الفرسان وراجل من الجند ، ووقف بين يدي الخليفة سبعمائة حاجب و سبعة آلاف خادم خصي، أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود، ووقف الغلمان الحجرية (٢٠٨) بأتمّ الزينة والمناطق المحلاة، وزينت دار الخلافة بأنواع

الأسلحة وغرائب الزينة وغشيت جدرانها بالستائر المزينة بالديباج المذهب وفرشت أرضها بالسجاد الفاخر من خراسان. وكان من جملة الزينة المعروضة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها وأوراقها، وطيور الذهب والفضة على أغصانها وكان هناك مائة سبع مع مائة سبّاع يروضونها (٢٠٩).

ولما وصل المبعوث بهر بما شاهده فعلا ودخلت الرهبة إلى نفسه، غير أنه لما مثل بحضرة الخليفة طالبا الهدنة بين القوتين الإسلامية والرومية زالت عنه الرهبة لما ألفاه من بفاعة الخليفة واستشارته المستمرة لحاجبه ولوزيره قبيل الرد على تساؤلات المبعوث. والمهم أن مصلحة القوتين اقتضت الاتفاق على الهدنة، فعقد اتفاق واحتفل المقتدر بالله بوفد ملك الروم ثم حمّله بالهدايا الفاخرة لملك الروم ، فغادر الوفد بعد أن قام بمهمته خير قيام.

وقد تركت زيارة مبعوث الروم لدى المقتدر بالله فضولا لمعرفة شعوب الروم أكثر ، وكان المقتدر بالله قد استقبل قبل فترة مبعوثا من ملك الصقالبة المسلم " المش بلطوار " الذي طلب نجدة الخليفة ومساعدته للقضاء على خصوم الملك الذين يهددون بلاده وكذلك أدوية عاجلة لمعالجة المرضى والجرحى من جنوده. وهكذا ما إن غادر مبعوث ملك الروم حتى أمر الخليفة مولى له يدعى أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد بالتوجه على رأس وفد إلى ملك البلغار الصقالية مبعوثا من لدن الخليفة للوقوف على حقيقة الأمر وزوده بالهدايا والأدوية والأموال اللازمة لضمان نجاح رحلته إلى ماوراء خوارزم وقزوين ونهر الأتل والصقالبة والخزر وبلاد الترك والروس والباشغرد، وطلب الخليفة من ابن فضلان أن يؤرخ رحلته بأدق التفاصيل . فغادر الرحالة بغداد مصحوبا بمرافقيه وحراس القافلة باتجاه الشمال صوب بلاد الترك، وكان معه في الرحلة حاجب الخليفة ومبعوث ملك البلغار المدعو بارس الصقلاني وتكين التركي المترجم(٢١٠).

ارتاح المقتدر بالله كثيرا من عقد الهدنة مع ملك الروم فصار يفكر باستعادة المبادرة ضد القرامطة في البصرة والكوفة، فمهد لذلك بأن أوعز باعتقال الحلاج في مدينة سوس وجلبه لبغداد حيث حوكم أمام جمع من الفقهاء أفتوا بقتله بالإجماع، فقتله المقتدر بالله وصلبه على أبواب المدينة. وبعد ذلك قام بصرف وزيره علي بن عيسى الجراح عن الوزارة وأقام مكانه حامد بن علي بن حامد بن العباس أبا محمد، فنكأ بذلك جرح العداوة النازف بين العائلات المتنافسة على منصب الوزير دون أن تدرى تلك العائلات أن المستفيد الأكبر من تنافسها هو الخليفة نفسه ووالدته " السيدة "، ولكن الخليفة عاد فاستدعىٰ علي بن عيسى لتقدمه في الكفاية واستقلاله بما يعجز عنه غيره من أعمال الوزارة، وضمه إلى دست وزارة حامد إمعانا في إذلاله وأُنيطت به الدواوين. فكان الاثنان يتشاركان في الوزارة حيث كان حامد يلبس السواد في الدست

وعلي بن عيسى يجلس بين يديه كالنائب وليس عليه سواد ولا شيء من زي الوزارة. وأضحى الوزيران أضحوكة معا في بغداد حتى صار الناس ينشدون:

اعجـــبْ مـــن كـــل مـــا تـــــراه

كـــون وزيريـــن فـــي بـــلاد

فـــذا ســـواد بـــلا وزيـــر

وذا وزيـــر بـــلا ســـواد [٢١١]

وكان الخليفة يعرف قدر علي بن عيسى وكفايته حق المعرفة ولذلك كلفه بأن يحاكم الحسين بن منصور الحلاج الصوفي في عام ٣١٠ هجرى بعد أن قبض الجند عليه في بلدة السوس . فلما ناظر الوزير الحلاج وجده متصوفا ولكن ليس فقيها فقال له: " تعلمك الطهور والفروض أجدى عليك من رسائل لاتدري ماتقول فيها، كما تكتب، ويلك إلى الناس (تبارك ذو النور الشعشعاني). وما أحوجك إلى الأدب". وعندها قال الحلاج للوزير: " قف حيث انتهيت، وإلا قلبت الأرض عليك ". ثم حمل الحلاج إلى دار الخليفة فحبس بها، ثم أفتى العلماء بقتله، فضرب ألف سوط ثم قطعت يده ثم رجله وحز رأسه وأحرقت جثته وألقي رماد ه في دجلة [٢١٢].

حواشي الباب الأول

(١) زار الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة البصرة فيما بعد وكتب في مذكرته مقطعا يصف فيه البصرة ومسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب جاء فيه مايلي: ولأهل البصرة مكارم أخلاق يقومون بحق الغريب فلا يستوحش بينهم، وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي، ثم يسد فلا يأتونه إلا في يوم الجمعة التالية. وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع ، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان (ﷺ) يقرأ فيه لما قتل وأثر تغييره الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم". [انظر ابن بطوطة: " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "[بيروت – لبنان : منشورات دار إحياء العلوم ، ١٩٩٦ م – ١٤١٧ هـ]، تحقيق الشيخ محمد عبد المنعم العريان ، ص ١٩٧ – ١٩٨].

(٢) وردت تفاصيل مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان في كتاب :[الطبري، " تاريخ الأمم والملوك"، [منشورات مؤسسة الأعلام للمطبوعات، بيروت – لبنان ، ١٩٨٣ م الموافق لـ ١٤٠٣ هـ]، الجزء الثالث ، ص ٤٢٦ – ٤٣٣] .

(٣) شرح المؤرخ " جرجي زيدان " في مؤلفه المرجعي " تاريخ التمدن الإسلامي " تطور اللباس عند المسلمين والعرب . فقد أورد في الصفحتين ٦٠٨– ٦٠٩ من الجزء الثاني من هذا المؤلف مسألة اللباس عند المسلمين والعرب. ونقتبس فيما يلي مقطعا من الصفحتين المذكورتين: " ولباس العرب كان بسيطا مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الإسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة. ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية، وإنما هي فارسية، وكذلك النعال والخفاف، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها، وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم و ثيابهم على الإجمال قصيرة إلى أسفل الركب. وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي (ﷺ)، فقد ذكروا أن أحب اللباس إليه البرود والبياض والحبرة، وهي ضرب من البرود فيه حمرة، وكان كمه قصيرا إلى الرسغ ، يلبس أحيانا حلة حمراء و إزارا ورداء ، والإزار قصير إلى أسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل. وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الأرض من الخيلاء، ومن أقواله: " فضل الإزار في النار".

ولم يكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف . على أن الذين كانوا يفدون على الشام و العراق من أغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولاسيما في أوائل الإسلام. ومن المأثور عندهم أن أول من لبس الخز الأدكن من العرب عبد الله بن عامر، وأول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم، وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الإسلام. والعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس. وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله. فزياد ابن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج، وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة. ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه، وتفننوا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم واتخذوا كثيرا من ألبسة الروم، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق، وكان الأحنف يقول: " لا تزال العرب عربا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف " .

فلما أفضت الخلافة إلى العباسيين، وسلموا مقاليد أمورهم للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من أوائل دولتهم ، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هجرية أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللباس الأسود عاما فيهم، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها " السواد " تغطي سائر الثياب . وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها " فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم " وبعث إلى عماله في سائر الأقطار ليأمروا رجالهم بمثل ذلك " . فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس ، ولاسيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الأقبية والسراويل والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها، مع بقاء ألبسة العرب عند عامتهم. ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلساناً أسود. وأول من غيرّ لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد. وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لامحل لاستيفائه. أما عامة الناس فتختلف أشكال ألبستهم باختلاف صناعتهم وأحوالهم وطبقاتهم وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره، وإنما يقال بالإجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال، على نحو لباس المصريين والسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه عامة المشايخ الآن. { انظر: جرجي زيدان، " تاريخ التمدن الإسلامي" [منشورات مكتبة الحياة - بيروت - لبنان ، تاريخ النشر غير معروف] ، الجزء الثاني، ص ٦٠٨ - ٦٠٩} .

(٤) انظر : العلامة عبد الرحمن بن محمد بن حسين المشهور، بـ" شمس الظهيرة "، [منشورات دار عالم المعرفة - جدة - المملكة العربية السعودية -١٩٨٤ م - ١٤٠٤ هـ] ، تحقيق السيد محمد ضياء شهاب، الجزء الأول ، ص ٤٩ حيث أورد المؤلف أسماء عقب السيد عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

وهذه الأسماء هي: له من الولد خمسة وثلاثون ولدا، ثلاثون ابنا وخمس بنات. فالبنات: فاطمة ورقية وخديجة وقسيمة وصفية. والبنون: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الله الأكبر، عبد الله الأحول، عبد الله الأصغر، داود ، ويحيى، علي، العباس، يوسف، حمزة. ولم يعقب من هؤلاء الأحد عشر أحد .

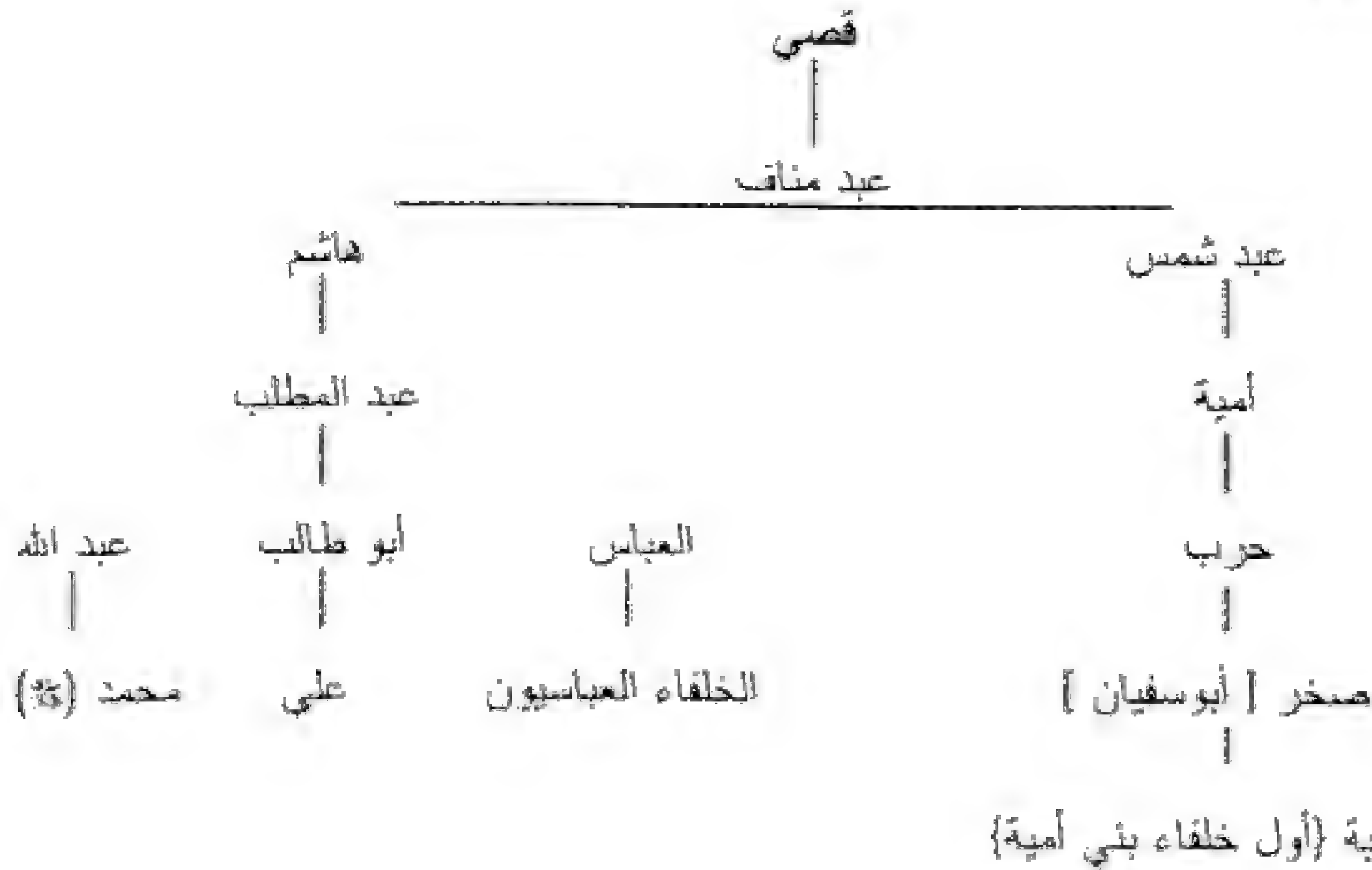
{١٢} - سليمان، قيل لم يعقب، وقيل له ولد اسمه محمد {١٣} - إسماعيل ،{١٤} زيد، {١٥} القاسم. وأعقب كل من الثلاثة، ولكن لم يطل لهم ذيل {١٦} - حمزة ، عقبه بنات ،{١٩} - علي ، ويكنى أبسا تراب وله عقـب منتشر ، {٢٠} - موسـى ، كان له ولـد ، {٢١} - إبراهيم ، أولد بالري ، {٢٢} - جعفر ، أولد بمصر ، {٢٣} - علي الأصغر ، كان له ابن و بنتان ، {٢٤} - إسحاق ، له عقب، {٢٥} - الحسن ، له عقب منتشر ببغداد و الشام ، {٢٦} - الحسين ، له عقب، {٢٧} - عبد الله كان بالمدينة وأعقب ذيلا غير طويل ، {٢٨} - محمد ، وله ولد يعرف بالرومي والأزرق كجده ، له أولاد بمصر وبواسط والبصرة و بغداد {٢٩} - عيسى بن محمد ، قيل معقب ، {٣٠} - أحمد ، له عقب بحضرموت وغيرها منتشر جدا في الأقطار ظاهر جلي لا غبار عليه كالشمس في رابعة النهار .

(٥) كان الإمام عيسى نقيبا للأشراف بالبصرة، وكذا جده الإمام علي العريضي الذي كان نقيبا للطالبيين، وشيخ بني هاشم في العريض. وكان السبب في وجود النقابة هو ما تقوله الروايات

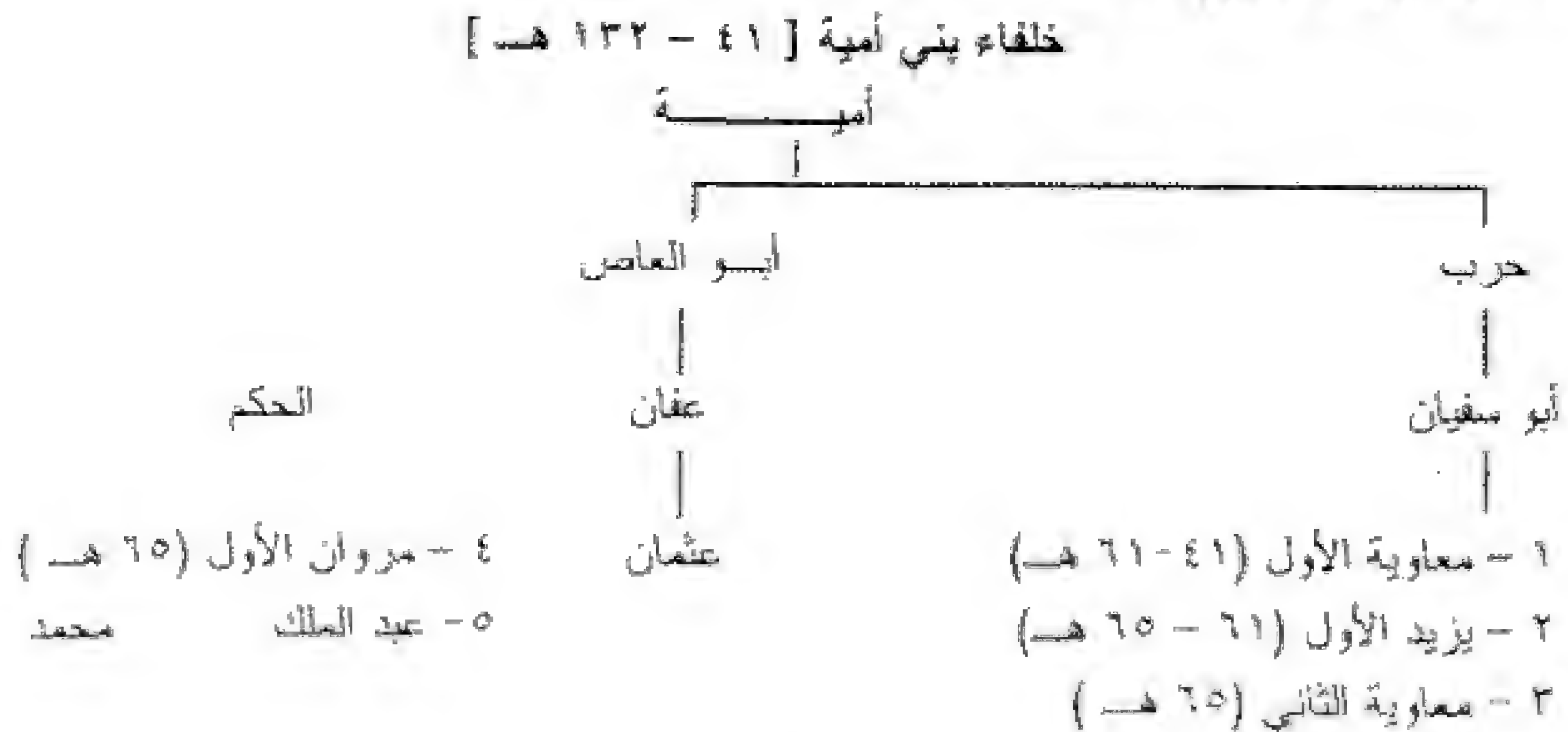
من أن النقابة إنما وجدت بحكم الظروف في أيام الدولة الأموية ثم العباسية ، فتأسست النقابة حفظا لكيان الطالبيين، وقياما بشؤونهم، ولكنها تابعة لمركز الدولة. ثم تطورت حسب الظروف، فاستقلت تارة وعُززت من قبل السلطة مرة أخرى، ثم اضمحلت من بعض البلدان. ولما خرج الإمام المهاجر وأسرته إلى حضرموت، كما سنرى لاحقا، وعاش فيها بنوه وذريته واستوطنوها زمنا عادت لهم النقابة، ولكنها ليست خاضعة لحكومة ما، بل استقلوا بها واكتفوا بربطها بنفوذهم وقوة تفكيرهم ومعارفهم. وكانت النقابة في العصر العباسي إدارة حكومية، لها مالغيرها من المكملات واللوازم والقوة التي تتناسب وذلك العصر، ولذلك كانت غير عامة . ففي كل مدينة نقابة كبغداد و البصرة والكوفة، وفي الهند وغيرها. وكان النقيب يسمى نقيبا لأنه نقيب على الأشراف، والنقيب هو شاهد القوم وناظرهم وضمينهم، ومن أسماء النبي(ﷺ) النقيب لأنه لما مات نقيب بني النجار أبو أمامة أسعد بن زرارة، وجد عليه الرسول (ﷺ) ولم يجعل عليهم نقيبا غيره بعده، وقال: " أنا نقيبكم. فكانت من مفاخرهم. {انظر: محمد بن أحمد بن عمر الشاطري " أدوار التاريخ الحضرمي"، [منشورات مكتبة الشعب، المكلا – اليمن ١٩٧٢ م/ ١٣٩٢ هـ]، الجزء الثاني، ص٧٥ – ٧٧ .

(٦) انظر : الطبري، "تاريخ الأمم والملوك " ، الجزء الرابع ، ص ١١٠ – ١١٧

(٧) يتقاطع نسب الأمويين مع نسب الهاشميين عند جدهما المشترك عبد مناف كما يتضح ذلك في الشجرة التالية :



وأما شجرة بني أمية فهي كالآتي :



عبد العزيز

٨ – عمر (٩٩ – ١٠١ هـ) ١٤ – مروان الثاني وهو آخر خليفـــة أموي (١٣٢ هـ)

٦ – الوليد (٨٢-٩٦ هـ) ٧ – سليمان ٩ – يزيد الثاني ١٠ – هشام (١٠٥-١٢٥ هـ)

١٢- يزيد الثالث (١٢٧هـ) ١٣- إبراهيم ١١- الوليد الثاني (١٢٥-١٢٦ هـ) معاوية

عبد الرحمن الداخل

(٨) بعد انتهاء الخلافة بدأ السادات يظهرون في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وحظوا باحترام وتقديس عظيمين، فضلا عن تمتعهم – إلى جانب ذلك – بعدد من الامتيازات. ولهذا السبب وضعت كتب عدة في أنسابهم للتمييز بينهم وبين الآخرين فلما ظهرت الدولة العثمانية على مسرح التاريخ تسلمت هذه النقابة بعينها، وحظي السادات في الأراضي العثمانية بمكانة اجتماعية متميزة، فتمتعوا بعدد من الامتيازات المادية والمعنوية على السواء. وكان نقيب الأشراف، هو سيد منهم يتولى النقابة في إسطنبول، ويستطيع عن طريق القائممقامين الموجودين في كل سنجق أن يرعى شؤون السادات المقيمين على أراضي الدولة، ويعمل على حماية السادات الحقيقيين من المندسين بينهم بالزور. ويمكننا التعرف يقينا من خلال وثائق الأرشيف العثماني على العديد من الدعاوى في هذا الموضوع. وقد احتفظ السادات في العهد العثماني أيضا بالعلامات الخاصة التي كانت تميزهم، وتتمثل في اللون الأخضر وبالزي الذي يختصون به كما كان حالهم في بلدان العالم الإسلامي قبل ذلك. وكانت السلطة المركزية العثمانية تنظر في الخلافة الحقوقية التي تنشب بينهم إذ خصتهم بها، ولا يكون ذلك في المحاكم العادية اعترافا بالتقدير العميق الذي كانوا يحظون به في نظر الأهالي. وكان مقام السيادة معنيا عن كثب بجماعات المتصوفة وطرقهم من ناحية، ومعنيا تبعا لذلك بالبنية الاجتماعية، لاسيما في الأماكن التي حافظت فيها الحياة العشوائية شبه المتنقلة على تفوقها من ناحية أخرى. فمنذ ظهور الطرق الصوفية في تاريخ الإسلام راحت شياخاتها تسير جنبا إلى جنب مع مقام السيادة، وكان لا بد لكبار مشايخ الطرق كلهم تقريبا أن يكونوا – بسبب نفوذهم المعنوي بين المريدين بالطبع – معنيين بمفهوم السيادة، ولكن كما ظهر العديد من المشايخ و المرشدين الكبار من السادات الحقيقيين، فقد ظهر أيضا أن كثيرا من المشايخ اضطروا – ولو بالزور – إلى اصطناع السيادة لأنفسهم .

واستمر ذلك الوضع على ما هو عليه في العهد العثماني أيضا، ففي منطقة وسط وشرق الأناضول، التي لم تكن حياة البدو شبه الرحل تختلف فيها كثيرا عما كان في العهد السلجوقي، كان جميع المشايخ تقريبا الموجودين على رأس أغلب العشائر السنية أو العلوية يتحدرون من السادات. وكان في يد كل منهم وثيقة رسمية تعرف باسم "حجة السيادة" حصل عليها من السلطة المركزية العثمانية. وتنص تلك الحجج على أسماء الطوائف والقرى التابعة لهم، كما كانوا يحصلون على موارد سنوية منتظمة توفرها لهم تلك الطوائف والجماعات. {انظر: مجموعة من الباحثين الأتراك بإشراف الأستاذ أكمل الدين أوغلي، "الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة"،

[منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إسطنبول، إسطنبول ١٩٩٩ م – ١٤١٩ هـ] ، ترجمة الأستاذ صالح سعداوي، الجزء الثاني ، ص ١٦٧ – ١٦٨ } .

(٩) بعد وفاة الرسول (ﷺ) شغل المسلمون في عهد أبي بكر وعمر وعثمان بمحاربة أهل الردة و تعزيز الدعوة الإسلامية والفتوحات، ولم يهتموا كثيرا بالنظر إلى العقائد لأنهم وجدوا في القرآن الكريم واتباع سنة الرسول(ﷺ) ما يغنيهم عن البحث في أصولها . وفي نهاية عهد عثمان و بداية خلافة علي بن أبي طالب ظهرت الفتنة السياسية بغية السيطرة على السلطة من جهة وتفتيت قوة المد الإسلامي الهائل الذي كان يطيح بأعتى الأباطرة وأقوى الإمبراطوريات من جهة ثانية. ومن أبرز معالم هذه الفتنة عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديا فأظهر الإسلام وزعم أن الحضارة العربية من أفكار يونانية وفارسية وهندية. وقد نشأ الاعتزال في البصرة على يد واصل بن عطاء. { انظر: د.مانع بن حماد الجهني، " الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة "، منشورات المجلس الإسلامي الأسيوي، الرياض ١٤١٨ هـ /١٩٩٨ م، المجلد الأول ، ص ، ٦٨} .

(١٠) الخطبة هي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة ، وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي والرضا عن الصحابة. فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال، صار الولاة يتولون إمامة الصلاة في ولايتهم، فكانوا إذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء. وأول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الإمام علي، فإنه وقف على منبر البصرة وقال: "اللهم انصر عليا على الحق " . واتصل العمل على ذلك فيما بعد، وصار الدعاء للخليفة في بلاد علامة سلطانه عليها . ولما ضعف شأن الخليفة في بغداد كان المتقلبون من السلاطين والأمراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون أسماءهم بعدهم. ثم صار السلاطين يستقلون في الدعاء لأنفسهم ، ولايزال الدعاء على المنابر لأولي الأمر إلى اليوم. {لمزيد من التفاصيل حول مسألة الخطبة في المسجد يمكن مراجعة كتاب جرجي زيدان، " تاريخ التمدن الإسلامي"، الجزء الأول ، ص ١٣٣}، وكذلك كتاب القلقشندي، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، [مطبوعات وزارة الثقافة السورية ١٩٨٥، سلسلة " المختار من التراث العربي "] ، السفر الأول ، ص ١١٨ – ١٢٠}. {وأما بالنسبة لمسألة الألقاب فيمكن مراجعة كتاب " القلقشندي أيضا ، " صبح الأعشى في كتاب الإنشاء"، [مطبوعات وزارة الثقافة السورية ١٩٨٢ ، سلسلة المختار من التراث العربي] ،السفر الثالث، ص ٢٦٦ – ٢٧٢ }

(١١) انظر: أبو منصور الثعالبي، " تحفة الوزراء " ، [مطبوعات وزارة الثقافة العراقية، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، بغداد ١٩٧٧] ، تحقيق د. ابتسام الصفار و حبيب علي الراوي ، ص ١١٦ .

(١٢) خلفاء العصر العباسي الأول [١٣٢ – ٢٣٢ هـ] :

اســـــم الخليفـــــة	فترة حكم كل خليفة
أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي	١٣٢ – ١٣٦ هـ .
أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي	١٣٦ – ١٥٨ هـ .
محمد المهدي بن المنصور	١٥٨ – ١٦٩ هـ .
موسى الهادي بن محمد المهدي	١٦٩ – ١٧٠ هـ .
هارون الرشيد بن محمد المهدي	١٧٠ – ١٩٣ هـ .
محمد الأمين بن هارون الرشيد	١٩٣ – ١٩٨ هـ .
عبد الله المأمون بن هارون الرشيد	١٩٨ – ٢١٨ هـ .
محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد	٢١٨ – ٢٢٧ هـ .
الــواثــق بالله بن المعتصم	٢٢٧ – ٢٣٢ هـ .

ومن المفيد ذكره أن الدولة العباسية سقطت على يد هولاكو التتري سنة ٦٥٦ هـ بعد قتل آخر خلفائها المستعصم بالله كما سنرى لاحقا .

(١٣) الخلافة في الأصل مصدر " خلـف " . يقال " خلفه في قومه " أي خلفه خلافة فهو خليفة . ومنه قوله تعالى في سورة البقرة : " إني جاعل في الأرض خليفة " ثم أطلقت في العرف العام على الزعامة العظمى ، وهي الولاية العامة على الأمة كافة، والقيام بأمورها و النهوض بأعبائها . وعليه خوطب أبو بكر بخليفة رسول الله ، ثم خوطب عمر بن الخطاب بخليفة خليفة رسول الله إلى أن تم اتفاق الصحابة في عهده على إطلاق لقب أمير المؤمنين للخلفاء. فكان عمر بن الخطاب أول من لقب به في أثناء خلافته . ويحكى أن رجلا قال لعمر بن عبد العزيز: " يا خليفة الله ! فقال : " ويلك لقد تناولت متناولا بعيدا . إن أمي سمتني عمر ، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت ، ثم كبرت فكنيت أبا حفص، فلو دعوتني به قبلت، ثم وليتموني أموركم فسميتموني أمير المؤمنين ، فلو دعوتني بذلك كفاك" . (انظر : القلقشندي، " مآثر الانافة في معالم الخلافة "، ص ٤٣ – ٣٧) .

(١٤) انظر : محمد رضا شهاب ، عبد الله بن نوح ، " الامام المهاجر " ...

ودفن ليلا خوفاً من العامة دون أن يؤذن به أحد. [انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٧٤٧، ومحمد خليفة التونسي، مقال بعنوان : " تاريخ الأمم والملوك للطبري "]

(١٩) انظر : الثعالبي ، " تحفة الوزراء " ، ص ٩٧ .

(٢٠) انظر كتاب " شمس الظهيرة " ، الجزء الأول ، ص ٢٦ .

(٢١) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٦ .

(٢٢) حكام الأندلس من سنة ١٣٨ – ٤٢٢ هـ .

اسم الحاكم	الفترة الزمنية
١ – عبد الرحمن بن معاوية الداخل	١٣٨ – ١٧٢ هـ
٢ – هشام بن عبد الرحمن	١٧٢ – ١٨٠ هـ
٣ – الحكم بن هشام	١٨٠ – ٢٠٦ هـ
٤ – عبد الرحمن بن الحكم	٢٠٦ – ٢٣٨ هـ
٥ – محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨ – ٢٧٣ هـ
٦ – المنذر بن محمد	٢٧٣ – ٢٧٥ هـ
٧ – عبد الله بن محمد	٢٧٥ – ٣٠٠ هـ
٨ – عبد الرحمن الناصر	٣٠٠ – ٣٥٠ هـ
٩ – الحكم المستنصر	٣٥٠ – ٣٦٦ هـ
١٠ – هشام المؤيد	٣٦٦ – ٣٩٩ هـ
١١ – محمد الثاني المؤيد	٣٩٩ – ٤٠٠ هـ
١٢ – سليمان المستعين	٤٠٠ – ٤٠٠ هـ
١٣ – محمد الثاني [للمرة الثانية]	٤٠٠ – ٤٠٠ هـ
١٤ – هشام المؤيد [للمرة الثانية]	٤٠٠ – ٤٠٣ هـ
١٥ – سليمان الستعين [للمرة الثانية]	٤٠٣ – ٤٠٧ هـ
١٦ – علي بن حمود	٤٠٧ – ٤٠٨ هـ
١٧ – عبد الرحمن الرابع	٤٠٨ – ٤٠٨ هـ
١٨ – القاسم بن حمود	٤٠٨ – ٤١٢ هـ
١٩ – يحيى بن علي بن حمود	٤١٢ – ٤١٤ هـ
٢٠ – القاسم بن حمود [للمرة الثانية]	٤١٣ – ٤١٤ هـ
٢١ – عبد الرحمن الخامس	٤١٤ – ٤١٤ هـ
٢٢ – محمد الثالث	٤١٤ – ٤١٦ هـ
٢٣ – يحيى بن علي بن حمود[للمرة الثانية]	٤١٦ – ٤١٨ هـ
٢٤ – هشام الثالث	٤١٨ – ٤٢٢ هـ .

(٢٣) ورد إدريس عام ١٧٠ هجري إلى المغرب، وتوفي فيها في عام ١٧٧هجري ، انظر المرجع السابق نفسه ، صفحة ٢٦ .

(٢٤) انظر: الدكتور عـادل محيي الدين الألوسي ، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " [مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ١٩٨٤] ، ص ٥١ .

(٢٥) انظر: السيد عبد القادر العيدروس بن الحسين، " إظهار الحقيقة فيمن أدخلوا الإسلام إلى جنوب أسيا وخصوصا إندونيسيا العزيزة " [مخطوط مطبوع في جاكرتا ١٩٩٨ م/ ١٤١٩ هـ، ص ١٨، وكذلك كتاب " الإمام المهاجر " ص ٣٩ – ٤٠ .

(٢٦) يصف ياقوت الحموي تأسيس البصرة في كتابه المرجعي الهام " معجم البلدان " فيقول: "البصرة – وهما بصرتان العظمى بالعراق وأخرى بالمغرب ، وأنا أبدأ أولا بالعظمى التي بالعراق وأما

البصرتان فالكوفة والبصرة. قال المنجمون البصرة طولها أربع وسبعون درجة وعرضها إحدى وثلاثون درجة وهي في الإقليم الثالث. قال ابن الأنباري البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة. وقال قطرب البصرة الارض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب ، قال ويقال بصرة للأرض الغليظة وقال غيره البصرة حجارة رخوة فيها بياض، وقال ابن الأعرابي البصرة حجارة صلاب. قال وإنما سميت بصرة لغلظها وشدتها ، كما تقول ثوب ذو بصر وسقاء ذو بصر إذا كان شديدا جيداً . قال ورأيتُ في تلك الحجارة في أعلى المربد بيضاً صلاباً، وذكر الشرقي بن القطامي إن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها فقالوا: إن هذه أرض بصرة يعنون خصبة فسميت بذلك، وذكر بعض المغاربة أن البصرة الطين العلك، وقيل الأرض الطيبة الحمراء. وذكر أحمد بن محمد الهمذاني حكاية عن محمد بن شرحبيل بن حسنة أنه قال إنما سميت البصرة لأن فيها حجارة سوداء صلبة وهي البصرة ".

وأما الرحالة ناصر خسرو العلوي الذي زار البصرة يوم ٢٠ شعبان ٤٤٣ هـ - ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٠٥١ م فيصف البصرة كالآتي : " للبصرة سور عظيم يحيط بها ما عدا الجزء المطل على النهر، وهذا النهر هو شط العرب ويلتقي دجلة والفرات عند حدود مدينة البصرة ويلتقي بهما أيضاً قناة الحويزة فيسمى النهر حينئذ شط العرب ، ويتفرع من شط العرب هذا قناتان كبيرتان بين منبعهما مسافة فرسخ. وقد شقا صوب القبلة مسافة أربعة فراسخ ثم يلتقيان ويكونان قناة واحدة تسير مسافة فرسخ واحد ناحية الجنوب ، ومن هاتين القناتين شقت ترع كثيرة مسدت في كل الأطراف وغرست أشجار النخيل والحدائق على شواطئها والقناة العليا وهي الشمالية الشرقية تسمى نهر معقل والثانية وهي الغربية الجنوبية تسمى نهر الأبلة ومنها تتكون جزيرة كبيرة مستطيلة والبصرة على أقصر ضلع من هذا المستطيل " .

-انظر : د. محمد طارق الكاتب ، " شط العرب وشط البصرة والتاريخ "، مطبوعات مصلحة الموانئ العراقية - البصرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ٢٩ و ٤٥ .

(٢٧) انظر : "The Golden Age of Persia : The Arabs in The East "Richard N Frye [منشورات Weidenfeld and Nicolson لندن ١٩٧٥] ، ص ٨٣

(٢٨) انظر كتاب " الإمام المهاجر " ، ص ٣٣ .

(٢٩) المرجع رقم {٢٢} ، ص ٧١ .

(٣٠) يذكر د. محمد طارق الكاتب في كتابه " شط العرب وشط البصرة والتاريخ " أسماء عشرات الأنهار في البصرة نقتطف منها الأنهار التالية : نهر أبي الخصيب - نهر القندل - نهر ابن عمير - نهر أزرى - نهر أم حبيب - نهر أم عبد الله - نهر الأيسر - نهر برية - نهر بشار بن مسلم بن عمرو الباهلي شقيق قتيبة بن مسلم - نهر جعفر مولى مسلم بن زياد - نهر حرب - نهر جطي - نهر فيروز - نهر عبدان - نهر المبارك ... الخ.
انظر : الصفحات من ٦٥ ولغاية ٨٢ .

(٣١) انظر : " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ص ١١٢ .

(٣٢) وردت قصة إنشاء البصرة في كتاب " تاريخ الأمم والملوك " للطبري ، الجزء الثالث، ص ٣٤، وفي كتاب " فتوح البلاذري " الجزء الثاني ، ص ٤٢٤ .. وتقع البصرة القديمة على بعد ١٤ كم من مدينة البصرة الحالية، وموضعها يتحدد الآن بالخربة الواسعة التي بين البلد الحاضر وبين قصبة الزبير .

(٣٣) " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، ص ٧٠ .

(٣٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٢ .

وأما الجنوك فمفردها " جنك " ، كان خط إبحارها يقتصر على الساحل بين كويلون من الهند غربا إلى ميناء كانتون في الصين شرقا. وسميت الجنوك الصينية في الهنـد باسم " الجاكر " و" العكيري " الذي وصفه ابن بطوطة في رحلته بأنه " شبه الغراب إلا أنه أوسع منه وفيه ستون مجدافا ويسقف حين القتال حتى لاينال الجذافين شيئا من السهام والحجارة . انظر : ابن بطوطة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"،[منشورات دار أخبار اليوم – بيروت، لبنان، ١٩٩٦م/ ١٤١٧ هـ]، ص ٥٦٣ .

(٣٥) حوالي ٣٢٠ ميلا بحريا .

(٣٦) كتاب " الإمام المهاجر " ، ص ٣٤ ، وقد أوسع " جرجي زيدان " في كتابه الهام " تاريخ التمدن الإسلامي " الكلام عن ثروة المدن الإسلامية في العصر العباسي ، انظر الصفحات من ٢٨٧ إلى ٣٥٤ .

(٣٧) كتاب " الإمام المهاجر " ، ص ٣٥

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣٩) المرجع السابق رقم {٢٢} باللغة الإنكليزية ، ص ٨٣ .

(٤٠) لمعرفة المزيد حول تلك الفرق الدينية ، يمكن الرجوع إلى المقالة المعنونة " مقالات الإسلاميين " للأشعري ، تعليق على الكتاب بقلم د . أحمد فؤاد الأهواني، موسوعة "تراث الإنسانية " الجزء الثالث ، الصفحات من ٣٥٨ إلى ٣٦٠ وكذلك إلى الكتاب المعنون بـ" دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين : الخوارج والشيعة ، تأليف د .أحمد محمد علي – منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – الرياض ١٩٨٦ م – ١٤٠٦ هـ .

(٤١) إذا عدنا إلى البدايات الأولى لظهور الفرق في الإسلام فإنه يمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أواخر عصر الخلافة الراشدة ، فلقد نشأت الفرق الإسلامية في أواخر عصر الخلفاء الراشدين لأسباب سياسية بحتة، وتبلورت أفكارها في العصور التالية، ثم تعمق وجود هذه الفرق لأسباب لاحقة : أما في عهد الرسالة وبداية عهد الخلفاء الراشدين فقد كان المسلمون يشكلون وحدة حقيقية، عقيدةً وفكراً وجماعة. وإذا ظهر خلاف ما في الرأي ،فسرعان ما ينتهي إلى وفاق ، بسبب الاحتكام المباشر إلى الكتاب والسنة.

وبدأت الفتن والفرقة بين المسلمين في أواخر عهد عثمان بن عفان (ﷺ)، حيث جأر البعض بالشكوى من ولاة عثمان، ثم بدأت الشكوى من عثمان ذاته بمقولة أنه يولي العمال من ذوي رحمه ثم تحولت الشكوى إلى الطعن في دينه على يد بعض المارقين، ثم قتل عثمان (ﷺ) مظلوماً بيد فئة ظالمة غرر بها .. ففتح بذلك باب القتل والقتال بين المسلمين .

وبعد تولي علي بن أبي طالب (ﷺ) الخلافة، اتهمه البعض ظلما بأنه مالأ قتلة عثمان، ولم يقتصّ منهم . فوقع القتال بين علي وبين الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة (ﷺ) جميعاً .

ثم وقع القتال بين علي ومعاوية .. وانتهى بواقعة التحكيم المعروفة .

وبعد التحكيم كانت البداية الفعلية للافتراق في الأمة بظهور الخوارج والشيعة .

وكانت الأولى الخوارج . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع الخوارج المارقون ". وقال: "وهم أول من كفّر أهل القبلة بالذنوب، بل بما يرونه هم من الذنوب، واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك ". وسموا بالناصب أيضاً لمناصبة عليّ (ﷺ) وآله العداء ، وصرحوا ببغضهم. وظهر في ١٠ من شهر شوال عام ٣٧ هـ ببيعتهم " عبد الله بن وهب الراسبي " .

الثانية : الشيعة . أي من ادعوا انهم شيعة علي وأبنائه، وقد افترقوا على فرق عديدة أقلها غلواً من قال منهم بأن علياً أولى بالخلافة من أبي بكر وعمر مثل الزيدية . ظهر بجانب مسألة

التكفير مسألة القدر التي قال بها معبد الجهني في آخر القرن الأول، وكثر الكلام حولها في آخر عهد علي بن أبي طالب . ثم ظهرت المرجئة في آخر القرن الأول كذلك. ثم ظهر التعطيل على يد الجعد بن درهم والجهم بن صفوان في أول القرن الثاني الهجري ثم نادى جهم بن صفوان في أوائل القرن الثاني بالجبر، وهو الذي قال : لا إرادة للإنسان بجوار إرادة الله " . وظهرت المعتزلة التي تنادي بالإرادة الإنسانية المطلقة ، لأنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان حراً مختاراً، وهذه الحرية هي أساس التكليف وعليها يترتب الحساب والعقاب.

ثم أثيرت مسألة صفات الله وكلامه ، ومسألة خلق القرآن ، أهو مخلوق أم قديم ؟ أثار ذلك الجهم بن صفوان والجعد بن درهم في العصر الأموي ، ثم اشتد الأمر في العصر العباسي ، فكان امتحان إمام أهل السنة أحمد بن حنبل .

وتعددت الفرق وتشعبت بتأثير كتب الفلسفة اليونانية والهندية التي ترجمت إلى العربية، فأصبحت الفرق فرقاً متعددة. وهكذا انقسمت المعتزلة إلى فرق كثيرة... منها الواصلية ورائدها واصل بن عطاء والهذلية ورائدها أبو الهذيل العلاف.

وانقسمت الشيعة إلى فرق أقل غلواً وفرق مغالية انحرفت كلياً عن طريق الإسلام مثل الإسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرهم . ثم ظهرت الأشاعرة والماتريدية للتصدي للفلاسفة والباطنية والرافضة ولكسر سورة المعتزلة الجهمية . فكان لهم جهادهم المشكور إلا أنه كان لاستخدامه مناهج الفلاسفة والمتكلمين ومحاولة التوفيق بينهم وبين أهل السنة والجماعة أثره .

[انظر: "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة "، ص٥٢ -٥٣.

(٤٢) النص كما ورد في الصفحة ٣٣ من كتاب " شمس الظهيرة " كالآتي :

هـذا الذي تعرف البطحاء وطأتـه ... والبيـت يعـرفه والحـل والحـرم
هـذا ابن خير عباد الله كلهـم ... هـذا التقـي النقـي الطاهـر العلم
إذا رأتـه قـريش قـال قـائلـها ... إلـى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
ينمـي إلـى ذروة العز التي قصرت ... عـن نـيلها عـرب الإسـلام والعجم
يكـاد يمسـكه عـرفـان راحتـه ... ركـن الحطـيم إذا مـا جـاء يستلم
ينشـق نـور الهـدى من نور غرته ... كالشـمس ينجاب عـن إشراقها النقم
مشـتقـة عـن رسـول الله نبعتـه ... طابـت عناصـره والخـيم والشيـم
هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهله ... بجـده أنبيـاء الله قـد ختمـوا
الله شـرّفـه قـدرا و عظّمـه ... جـرى بـذاك لـه في لوحه القلـم
مـن جـده دان فضـل الأنبياء لـه ... وفضـل أمـته دانـت لهـا الأمـم
ولـيس قولـك مـن هـذا بضائـره ... العـرب تعـرف من أنكرت و العجم

إلى أن قال:

مقـدم بعـد ذكـر الله ذكـرهـم ... فـي كـل بـدء و مخـتوم بـه الكلم
مـن معشـر حـبهم ديـن و بغضهم ... كفـر وقربهم منجىً ومعتصـم
إن عـد أهـل الـتقى كانوا أئمتهم ... أو قـيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
لا يسـتطيع جـواد بعـد غايـتهم ... ولا يـدانـيهمو قـوم وإن كرمـوا
يـأبى أن يحـل الـذل سـاحتهم ... خلـق كـريم وأيد بالنـدى هضـم
مـن يعـرف الله يعـرف أوليـة ذا ... فالديـن مـن بيت هـذا ناله الأمـم

(٤٣) على بعد حوالي ٣٦ ميلا من المدينة المنورة

(٤٤) انظر مجلة " العربي" الشهرية الصادرة في الكويت، العدد (٤٠٣) شهر(كانون الاول/ ديسمبر)

١٩٩٩م / ١٤٢٠هـ .

(٤٥) وهو الأمر الذي سيؤدي لاحقا إلى قيام الدويلات الصفارية والسامانية والبويهية في فارس وخراسان، والزيادية في اليمن، والغزنوية في أفغانستان، والسلجوقية في تركيا.

(٤٦) المعتصم بالله (٢١٨ – ٢٢٧): هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ولد في مدينة " زبطرة" في آسيا الصغرى سنة ١٧٨ هـ كان عسكري النزعة ، فضله أخوه المأمون على ابنه العباس في تولي الخلافة لما يراه من كفاءته ومقدرته على القيام بأمور المسلمين ، تقلد الخلافة وهو في جبهة القتال مع البيزنطيين سنة ٢١٨ هـ وبإجماع القواد بعد تردد لمكانة العباس بن المأمون عند أبيه وبينهم. ساهمت تربية المعتصم العسكرية في جعله يهتم بالجيش اهتماماً كبيراً، فأدخل به فرقاً جديدة خاصة من الأتراك، وقد شعر فيما بعد بخطورتهم بعد أن بدأوا يتحرشون بأهالي بغداد ، فاضطر لبناء مدينة جديدة لسكن هؤلاء العسكر، فبنى مدينة " سامراء [سر من رأى]". وحاول الحد من سلطتهم بقتل أحد قادتهم [الأفشين] الذي ثبت تآمره مع أعداء الخلافة ، وكانت الدولة العباسية تزخر بالمعارضين من الداخل والمتربصين من الخارج فساهم الجنود الأتراك في القضاء على تلك الأخطار التي كانت تحيط بالدولة.
انتهز البيزنطيون ثورة بابك الخرمي الذي تحالف معهم، فدخلوا منطقة الثغور ، وعاثوا بها فساداً، وكتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدده فيه ، فقال المعتصم لكاتبه اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد قرأتُ كتابك وسمعت خطابك .. " وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار " . وكان من المدن التي أفسدها البيزنطيون مدينة زبطـــرة التي وُلد فيها المعتصم نفسه .

(٤٧) واجه المعتصم بالله ثورات كثيرة قادها المعارضون للعباسيين ، وقد استطاع المعتصم بالله القضاء عليها، ومن هذه الثورات ثورة المحمرة وثورة آل علي بن أبي طالب في خراسان ، وثورة الزط بالبطائح [بين واسط والبصرة] وثورة بابك الخرمي ، وفتنة العباس بن المأمون ، وتمرد الأفشين وغيرها .

(٤٨) كان الإمام جعفر بن محمد الباقر الملقب بالصادق من سادات أهل البيت وعلماً في علمه ومعرفته لشؤون الدين والدنيا، وله كلام في صناعة الكيمياء. وكان تلميذه العالم المعروف موسى جابر بن حيان الطوسي الذي ألف كتابا يشتمل على ألف رسالة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة. وكان جابر بن حيان من تلامذة الإمام الصادق ، وكانت له خبرة و مهارة خاصة في علم الكيمياء، حتى قال "ماكس ميرهوف " فيه : " يُعرف جابر بن حيان في العالم اليوم بأبي الكيمياء، ولا زال منه بأيدينا ٩٠٠ كتاب في الكيمياء ولا يُخفى ما لكتبه من النفوذ والشهرة في تاريخ الكيمياء في أوروبا .
وكتب المرحوم العلامة السيد هبـة الدين الشهرستاني في كتابه " الدلائل والمسائل "بشأن كتب جابر بن حيان يقول: " رأيتُ خمسين رسالة منه قديمة الخط يقول فيهن: { قال لي جعفر عليه السلام } أو { ألقى عليّ جعفر } أو {حدثني مولاي جعفر عليه السلام}. وقال في رسالته الموسومة بالمنفعة: " أخذت هذا العلم من سيدي جعفر بن محمد سيد أهل زمانه...". وقد طبعت خمسمائة رسالة منها في ألمانيا قبل ثلاثمائة سنة أو أكثر، وهي موجودة في مكتبة الدولة ببرلين ومكتبة باريس. وله مؤلفات كثيرة في الهيئة والنجوم طبعت في ألمانيا قبل مئات السنين. وقد سماه الإفرنج: أستاذ الحكمة، ولذكره تجليل وتبجيل لديهم، واعترفوا بأنه المكتشف لتسعة عشر عنصرا من عناصر المواد التي بلغت اليوم فوق المائة... ونسبوا إليه القول بوحدة العناصر وأنها جميعا تنتهي إلى عنصر النار المخبوءة في باطن الذرة من ذرات المادة. وقد كشف الإفرنج حديثا النار القوية الإلكترونية في باطن الذرة (الأتم) .. { انظر : السيد مجتبى الموسوي اللاري، " الإسلام و الحضارة الغربية " [مطبعة الهادي – قُـمْ – جمهورية إيران الإسلامية

– منشورات مركز نشر الثقافة الإسلامية في العالم ١٤١١ هـ/١٩٩٠م]، ترجمة محمد هادي اليوسفي الغروي.
شهد الإمام أبو حنيفة للإمام الصادق عندما قال : " ما رأيت أفقه من جعفر لما أقدمه أبو جعفر المنصور فبعث هذا الأخير لي قائلا : " يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيئ لي من مسائلك الصعاب. فهيأت له أربعين مسألة . ثم بعث إليّ المنصور فأتيته وجعفر جالس عن يمينه . فلما أبصرتهما دخلني من الهيبة لجعفر مالم يداخلني للمنصور . ثم قال : " يا أبا عبد الله أتعرف هذا ؟ قال : نعم ، هذا أبو حنيفة قد أتانا . ثم قال : يا أبا حنيفة لتسأل أبا عبد الله . فابتدأت أسأله ، فكان يقول في المسألة : " أنتم تقولون فيها كذا و كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا ، حتى أتيت على أربعين مسألة ". – ومن كلام الإمام جعفر الصادق(ع): "الفقهاء أمناء الرسل مالم يأتوا أبواب السلاطين . فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم ". وقال : لاتأكلوا من يــد جاعت ثم شبعــت " . ولما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي في عمه زيد بن علي :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة   فلم نر مهديا على الجذع يصلب

قال جعفر الصادق : " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك " . فافترسه أسد وهو خارج للصيد . – توفي الإمام جعفر الصادق مسموما في شهر رجب ١٤٨ هجري ودفن بالبقيع في قبة أهل البيت، في القبر الذي فيه أبوه و جده وعم جده الحسن بن علي رضوان الله عليهم . {انظر كتاب الإمام المهاجر ، ص ١٢٨ } .

(٤٩) تحدث المؤرخ " جرجي زيدان " بإسهاب عن الغلمان والجواري في القصر العباسي في كتابه المرجعي " تاريخ التمدن الإسلامي " الصفحات من ٥٤٤ إلى ٥٤٩ من الجزء الثاني .

(٥٠) الشليحصبور هو إمام اليهود الذي يؤم المصلين في الصلاة ، والحزان هو المنادي للصلاة أو الخطيب . {انظر : القلقشندي ، " صبح الأعشى في كتابة الإنشاء " ، السفر الثالث، ص ٣٧٢، [مطبوعات وزارة الثقافة السورية ١٩٨٢ دمشق] .

(٥١) المرجع السابق {٢٢} ص ١٣٧

(٥٢) سنأتي بتوضيح ذلك لاحقا .

(٥٣) انظر : القلقشندي، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الأول، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٥٤) أول خليفة اتخذ الخصيان لخاص خدمته هو معاوية بن أبي سفيان . ويذكر القلقشندي في كتاب "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء " أن للخصيان ألقاباً تخصهم ، فيقولون في هلال ومرجان "زين الدين " و في دينار " عز الدين " وفي بشير " سعد الدين " وفي شاهين " فارس الدين " وفي جوهر " صفي الدين " وفي مثقال " سابق الدين " وفي عنبر " شجاع الدين " وفي لؤلؤ "بدر الدين " وفي صواب " شمس الدين " وفي محسن" جمال الدين " .

(٥٥) من هذه الأجواء ظهرت قصة " السندباد البحري "، كما سترى فيما بعد.

(٥٦) ذكر جرجي زيدان في كتابه " تاريخ التمدن الإسلامي" ص ٦٢٤، أن الخليفة المتوكل على الله كان مغرما بالعمارة، فبذل فيها الأموال الطائلة وأحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله، منها النمط الحيري والكمين ذات الأروقة، كما بنى ثلاثة أبنية تعرف بأسماء: الهاروني والجوسق والجعفري. وأما بالنسبة لمقتل الخليفة المتوكل على الله ، فقد ورد ذكر مقتله على يد ابنه المنتصر في كتاب " الإنافة في معالم الخلافة " للقلقشندي، ص ١٧٩ .

(٥٧) قال البحتري يرثي المتوكل على الله وكان حاضرا مقتله :

مجلس على القاطول أخلق داثره	وعادت صروف الدهر يوماً تغاوره
كأن الصبا توفي نذورا إذا انبرت	تراوحه أذيالها و تباكره
و رب زمان ناعم ثمّ عهده	ترق حواشيه و يورق ناضره
تغير حسن الجعفري و أنسه	و قوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة	فعادت سواء دوره و مقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى	وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه	وإذ ذعرت أطلاؤه و جآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أستاره وستائره
و وحشته حتى كأن لم يقم به	أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة	بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها	وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت	بهيبتها أبوابه و مقاصره
وأين عمود الملك في كل نوبة	تنوب و ناهي الدهر فيهم وآمره
فما قاتلت عنه المنايا جنوده	ولا دفعت أملاكه و ذخائره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة	يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ولم يكن	ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي	درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام علي الراح بعدك أو أرى	دما بدم يجري على الأرض مائره
لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر	هرقتم وجنح الليل سود دياجره

- انظر " دُرَرٌ وتُحف من تراث السلف " الجزء الثاني ، سلسلة المختار من التراث العربي {٤٠} ، مطبوعات وزارة الثقافة السورية ١٩٨٦ ، اختار النصوص وعلق عليها محمد علي السراج ، ص ٤٦٢ .

(٥٨) في زمن خلافة الخليفة علي بن أبي طالب تمرد سكان مقاطعتي فارس وكرمان رافضين دفع الضرائب للخلافة تعاطفا مع الخوارج، فأرسل الخليفة زياد بن أبيه حاكما على المقاطعتين برتبة أمير ، ونجح في قمع التمرد وأقام مركز حكمه في مدينة اصطخر . ولكن الحال اختلفت بعد قيام الخارجي ابن ملجم باغتيال الخليفة علي بن أبي طالب يوم السابع عشر من رمضان عام ٤٠ هـ المقابل لـ ٢٥ كانون الثاني ٦٦١ م إذ انقلب ولاء زياد بن أبيه وقدم الطاعة لمعاوية فثبته هذا حاكما على جنوب إيران، ثم مدد معاوية صلاحيات زياد ابن أبيه ليكون أيضا حاكما على البصرة ونائبا لمعاوية في المنطقة الممتدة من جنوب إيران حتى حدود نهر الأندوس في السند.
ثم ألحقه معاوية بنسبه فلحق به وصار يعتبر من السلالة الأموية. وتوفي عام ٥٢ هجري.

وفي عهد المأمون اضطرب حبل السياسة باليمن بقيام بعض الطالبيين بالدعوة هناك ، فخاف المأمون منهم و ولى محمد بن زياد أحد ولد عبد الله بن زياد بن أبي سفيان لكي يضمن له حياطة اليمن من الطالبيين. وقد صاحب النجاح ابن زياد في أعماله و أسس دولة بني زياد في اليمن من عام ٢٠٢ هجري إلى عام ٤٠٧ هجري. وقصة تولية المأمون أحد أبناء بني زياد على اليمن طريفة ذكرها ياقوت الحموي في " معجم البلدان " كما يلي: كان المأمون أتى بقوم من ولد زياد ابن أبيه وقوم من ولد هشام وفيهم رجل من بني تغلب يقال له محمد بن هارون . فسألهم عن نسبهم فأخبروه ، وسأل التغلبي عن نسبه فقال أنا محمد بن هارون. فبكى المأمون وقال: "مالي وما لمحمد بن هارون . ثم قال: أما التغلبي فيطلق كرامة لاسمه واسم أبيه. وأما الأمويون والزياديون فيقتلون. فقال ابن زياد: ما أكذب الناس يا أمير المؤمنين. انهم يزعمون

أنك حليم كثير العفو متورع عن الدماء بغير حق. فإن كنت تقتلنا بذنوبنا فإنا، والله لم نخرج أبدا عن الطاعة، ولم نفارق في معبد الجماعة. وإن كنت تقتلنا من جنايات بني أمية فيكم، فالله تعالى يقول " ولا تزر وازرة وزر أخرى " . قال : فاستحسن المأمون كلامه وعفا عنهم جميعا وكانوا أكثر من مائة رجل ، ثم أضافهم وزير المأمون الحسن بن سهل. وبعد فترة أثنى الحسن ابن سهل عند المأمون على محمد بن زياد والدواني والتغلبي، فأشار الخليفة إلى إرسالهم إلى اليمن، ابن زياد أميرا وابن هشام وزيرا والتغلبي قاضيا. ولم يزل ابن زياد في أوج عزته و قوة ملكه في اليمن إلى أن توفي سنه ٢٤٥ هجرية .

(٥٩) سار المنتصر في استبقاء سلالتي السامانية والطاهريين في الهضبة الإيرانية وخراسان على نهج من سبقه من الخلفاء العباسيين منذ عصر المأمون الذي كان استعمل قائده العسكري طاهر بن الحسين لقمع الانتفاضات والنزعات الانفصالية في فارس المعادية للخلافة العباسية في بغداد ، وذلك بعد أن أفلح طاهر هذا في الانتصار على جيش الخليفة الأمين ثم قتل الأمين وحمل رأسه إلى أخيه المأمون. ولقد نجح عبد الله بن طاهر أيضا في تصفية تمرد المزدكي مزيار بن قارين الذي قتل عمه في أصفهان التابعة لطبرستان ثم أعلن إسلامه فعينه المأمون حاكما على طبرستان، ولكنه تمرد على بغداد في عهد المعتصم وارتد عن الإسلام، فهاجمه عبد الله بن طاهر وأسره وأرسله مخفوراً إلى مدينة سمارة حيث قطع المعتصم رأسه في عام ٢٢٤ هجري. كما صفى طاهر آخر ثورات الخوارج التي قام بها حمزة بن عبد الله الشاري الدهراق، وقتل هذا الأخير في عام ٢١٣ هجري .

وكان وزير المأمون الفضل بن سهل قد نقم على طاهر الأب لقتله الأمين . فقد كان الوزير يريد استبعاد الأمين من الخلافة بدون إهراق دمه. ولما أمر المأمون بقتل وزيره قوي موقف طاهر الذي تقرب من الوزير الجديد أحمد بن أبي خلد . ونظرا لولاء طاهر بن الحسين للخليفة المأمون عينه الخليفة حاكما لخراسان ، ولكن طاهراً قام بصك عملة خاصة به أزال منها اسم الخليفة إشارة للتمرد ضده ، ولم يمهله القدر ليرى ردة فعل الخليفة العباسي، إذ مات طاهر وخلفه ابنه طلحة الذي أعاد صك العملة مع اسم الخليفة فثبته المأمون حاكما على خراسان خلفا لأبيه. وكان لطلحة هذا شقيق آخر اسمه عبد الله بن طاهر يحارب على رأس جيوش المأمون في الرقة في سورية متمردا اسمه نصر بن شعث. وعندما مات طلحة استلم مكانه حاكماً لخراسان شقيقه عبد الله بن طاهر الذي كان قد استشهد أيضا في حملة كلفه بها الخليفة المأمون لإنهاء حصار قراصنة إسبان لميناء الإسكندرية. ومع وصول المعتصم السلطة في بغداد تغيرت الصورة وبردت الأجواء بين الطاهريين والخليفة الذي أخذ يتوجس منهم الخيفة بسبب قوتهم. غير أن المعتصم أبقى عبد الله بن طاهر حاكما لخراسان وحاكما لشرق الخلافة وقائداً لشرطة بغداد اسميا. وهكذا فإن الطاهريين لم يكونوا دولة مستقلة داخل الخلافة عمليا بل إمارة وراثية في خدمة الخلافة العباسية، ولم يكونوا من دعاة الشعوبية بل أداة في خدمة الخلافة. وفي حقيقة الأمر فإن ظهور الإمارة الطاهرية في إيران كان بسبب سياسات الخلفاء العباسيين الذين عمدوا إلى فصل ديوان المال (المسؤول مباشرة أمام الخليفة نفسه) في الولايات عن سلطة الحكام المدنيين وقادة الجيوش. ولما صار الخليفة بحاجة للمال شرع ببيع منصب الحاكم في الولايات بيعا لأفراد مطلوب منهم الولاء للخليفة ودفع مبلغ مقطوع ثابت له بدلا عن الضرائب. وهكذا ضعف دور الخليفة المالي والعسكري وقوي نفوذ الولاة والحكام في أصقاع الخلافة .

(٦٠) كان الغالب في ألقاب الترك من الجند التلقيب بـ " سيف الدولة " لما فيه من مناسبة حالهم وانتسابهم إلى القوة والشدة ؛ و " يلبغــا " و " منكلي بغــا " و " بي خجــا " و " وأسن خجــا " و " تغري بردي " و " تغري برش " و نحو ذلك . وقد يلقبون " طيبغا " و " طنبغا " و " قرابغا "

{علاء الدين} و " أيدمر " و " بيدمر " {عز الدين} و " لاجين " {حسام الدين} و " أرسلان " {بهاء الدين } و " أقوش " {جمال الدين } و " سنجر " {علم الدين } و نحو ذلك .

- لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى كتاب: القلقشندي، " صبح الأعشى في كتابة الإنشا"، السفر الثالث، ص ٣٤٢، [مطبوعات وزارة الثقافة السورية، سلسلة المختار من التراث العربي {١٩} دمشق ١٩٨٢] .

(٦١) انظر كتاب :

Richard N Frye " The Golden Age of Persia : The Arabs in The East " [منشورات Weidenfeld and Nicolson لندن ١٩٧٥] ، ص ١٥٢ .

(٦٢) الأقرباذين ، هي التسمية العربية القديمة لعلم صناعة الدواء .

(٦٣) وردت هذه الأسماء في العديد من المراجع ، نذكر منها على وجه التخصيص " الإمام المهاجر " لمحمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، منشورات دار الشروق – جدة – ١٩٨٠ م / ١٤٠٠ هـ ، ص ١٠٦ .

(٦٤) إن أول موانئ العرب في التجارة البحرية في زمن الإسلام، مع الصين، هو مدينة البصرة، التي أنشأها الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين، وكانت تنافس سيراف في التجارة والعمران في القرون الوسطى. لكن الدهر قد أخنى على مدينة سيراف ومحا آثارها من الوجود. غير أن البصرة لا تزال مزدهرة بين المدن العصرية فأصبحت الآن من أهم المراكز التجارية في العالم. فالمراكب التجارية التي كانت تقل البضائع من البصرة إلى الصين تمر بطبيعة الحال ببلاد عمان ومسقط وجزيرة البحرين و أبلة وهرمز بالخليج العربي. وكانت عدن أيضاً من أهم المدن التجارية بجنوب العرب ، لأنها قد وقعت موقع مركز التجارة في البحر الأحمر بين مصر وسواحل الخليج العربي .

ويظهر من التاريخ أن بحر الهند كان تحت نفوذ ملاحة إيران قبل الإسلام . فلما ظهر الإسلام في جزيرة العرب وانتشر إلى الممالك المجاورة في بضعة عقود من السنين ، قويت سيطرته في البر و البحر، وحلت ملاحة العرب محل ملاحة الإيرانيين في الخليج العربي ، كما أنها قد حلت محل ملاحة الروم في البحر الأبيض . إنما القوة التي كانت تنافس قوة العرب في البحر بالشرق في الفترة التي بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر من الميلاد ، هي قوة الصين تحت أبناء السماء . نعلم حقاً أن نفوذ العرب البحري في الشرق كان قوياً جداً لا يكاد يساويهم فيه أمة من الأمم ، لكن الصينيين ماكانوا متأخرين عن العرب في الملاحة البحرية ، ونفوذهم البحري لم يكن أقل من نفوذ العرب ، خصوصا بسواحل الهند والخليج العربي . { انظر : بدر الدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين " منشورات مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م ، ص ١١٢ – ١١٣ }.

كان معاوية أول من اهتم بالحروب البحرية منذ كان والياً على الشام في خلافة عثمان، فعمل على بناء أسطول عربي فتح فيه عدة جزر منها قبرص و رودس اللتان كانتا قواعد للبحرية البيزنطية في البحر المتوسط . وفي عام ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية براً وبحراً ، وكان في هذا الجيش معظم الصحابة وأولادهم، منهم أبو أيوب الأنصاري . وقد أمّر معاوية ابنه يزيد على هذه الحملة التي حاصرت العاصمة البيزنطية أشهراً طوالاً من البر والبحر وحدث قتال شديد على أبوابها لم يتمكن المسلمون بنتيجته من فتحها للأسباب التالية :

- متانة أسوارها ، - مناعة موقعها ، - فتك النار الإغريقية بسفنهم .

وفي أثناء الحصار قتل الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ودفن خارج أسوار القسطنطينية

ولا يزال فيه هناك. {انظر: " تاريخ العرب في العصر الأموي "، منشورات وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية – دمشق ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠ م، ص ١٢-١٣ } .

(٦٥) انظر: بدر الدين حي الصيني ، " العلاقات بين العرب و الصين " ، [منشورات مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٠] ، ص ١٣٣ .

(٦٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٨ .

(٦٧) [illegible]

الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا. وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم. وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها .

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس، وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ بقيادة ابراهيم بن أينال سبى المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأسا غير الدواب. وفي جملة غنائم الحرب ، فضلا عن الأسرى من الرجال، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في وقعة عمورية سنة ٢٣ هجرية إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة وربما بلغ ثمن الإنسان بضعة دراهم . ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في وقعة الأرك بالأندلس أن يباع الأسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم والبعير بخمسة دراهم، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم. تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين، غير ماكان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق لتوظيفهم كل سنة من تركستان وبلاد البربر وغيرها وكانوا في صدر الإسلام إذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد ، بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا إذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الأسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة فينزلون الأسرى و يطوفون بهم القاهرة، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الإسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فإذا استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه و ألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة. ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ ، ويمضي بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة، بعد أن يعطي الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل. ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأساتذة فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم إذ ذاك " الترابي " ، وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء. ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين، بل هي عادة كانت مرعية في تلك العصور. فمن يقع من المسلمين في أيدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة. ومن هنا نشأ ما يعرف " بالفداء " في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم، لأن الحرب بينهما سجال في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضا ، فاحتاج الجانبان إلى تنظيم عملية فداء الأسرى. فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحدا بواحد، حتى إذا زاد عند أحدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال. وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة، النفر بعد النفر في سواحل الشام والإسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود، وأول فداء وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هجرية وتوالى الفداء بعده بضع عشر مرة أثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم . أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيفا من رعاياهم أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليسوا من الروم أنفسهم . أما المسلمون فهم غالبا المهاجمون ، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف، وإذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم. على أن كثيرين من المسلمين كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولاسيما في الدولة الفاطمية ، ولايعرف عن هذه الدولة أنها بادلت أسيرا من الإفرنج بمال ولا بأسير مثله. فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء

جاوا . وكان اسم جاوا قديما يطلق على جميع جزائر الشرق . وابن بطوطة يذكر وصوله إلى جاوا في حين أنه وصل إلى سومطرة. وكذلك ماركو بولو يقول أنه وصل إلى جاوا الصغرى ويقصد بها سومطرة. ٥- الخنساء كما يسميها ابن بطوطة، وذكرها الرحالة العرب بصور متعددة، منها خنزاي، خنزاي، خنساي. قال ابن بطوطة أنه بين خانفو وميناتها البحري ١٤ يوما هي " هانغ جو" Hang Tacho . ٦ - خانفو، جانفو . كانت من أكبر موانى الصين التجارية، هي " يانكينغ " الحالية أو " كانتون " ٧- خانجو، جانجو، جنكو. هي " جوان فو " بالصين. ٨- خان بالق ، خان باليك ، خل خالوق . هي " كان بالوق " Can Baluc‹Kambaluc الواقعة بقرب نهر " بيهو " في ولاية " كاثاي " ويحتمل أن ابن بطوطة عنى بها " عاصمة القان " أو مدينة " الخان " . ويقول بعض الباحثين إن " بلخ " هي " بالخ " أو " بالق " التي كانت تعرف كمقر للخان ٩- الديبجان، يسميها المسعودي الدابيهات ، وهي لاكديف و مالديف {العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص ٣١٥ }. ١٠- زائر الذيبه، مهل ذيب، ذيبة المحل هي مالديف . ١١- زيامبا، كيامبا، كيانبان، شامبا، سيامبا. هي جمقا في كمبوديا {أو الصنف }. ١٢- سربزه ، سربازه ، هي " سري ويجايا " مملكة قديمة في سومطرة . يسميها الصينيون "سي لي فوجيه " *Sheh Lifoshch* وقد يسمونها " سن بوشاي " *San Butsai*. ١٣- مندور . يظن أنها شبه جزيرة الملايو. وتوجد سمندور أيضا في البنغال . وهذا قريب من الاحتمال . وكان العرب المسلمون يصلون إليها للتجارة . وقد عثر على نقود عباسية في البنغال . ويقول المتخصصون انه كان بسواحلها عرب مسلمون . ١٤ – سمطار عند العرب، و سوموتالا عند الصينيين، وسماها الراهب " أودريكو " قبل ابن بطوطة " سومولترا " هي " سمودرا " التي كانت بها دولة إسلامية شهيرة زارها ابن بطوطة . ١٥- سلاهت، سلاحط ، سلاهط ، سلامط، شلامط . ظن المؤرخ الهولندي " فن درليت " أنها محرفة من " سلات " بلغة الملايو أي المضيق . وفي بانجلاديش منطقة اسمها " شيلهات " Sylhat وهي قريبة من كلمة سلاهت . ١٦- سرنديب {*Ceylon*}. الأقرب أن أصل الاسم سنسكرتي هو "سوارنسد ويفا {*Swarnadwipa*}" و يسميها العرب جزيرة الياقوت ، ويسميها بزراك " سهيلان " . هي سيلان { سري لانكا الآن } وكان أهلها في القرن الرابع يسمونها " سيهالا " و قد يسميها العرب قديما بلاد السهال . ١٧ – صندل فولات ، صنف فولو . جزيرة الصندل ، سندر فولات . يظن انها هينان التي تكتب قديما " كانيان " " شينان " ، تقع بعد جمقا كمبوديا حاليا . ١٨ – صبخي ، صنخي ، صنحي، صيخو. هي " جين خاي " ببلاد الصين. ١٩ – سيمور ، سامور ، صيمور . هي الآن " جاول " بجنوب بومباي بالهند ، سيميلا . ٢٠ – كله ، كلاء ، كلا ، كلابر . هي قدح أو كلانغ في ماليزيا. وهذا الموقع مما يفيده معجم البلدان ومروج الذهب وابن خرداذبة حسب أوصافها. ٢١- كدرنج ، كردنج، كوريج، كردج. هي كوندرانغ في الهند الصينية {خليج سيام}. ٢٢- لاموري، لاميري، الرامني، الرامي، الزمني، الزمي. هي آتشيه شمال سومطرة. ذكرها المسعودي وابن خرداذبي وماركوبولو، وشجرة ملايو وغيرها. ٢٣- لبخالوس، لنكبالوس، النكبالوس، لجبالوس، البخمالوس، ليجالوس، ليجانوس، لنكاوس، انكالوس، يحمل أنها نيكوبار. ويقول ابن خرداذبة أنها تبعد عن " كله " ستة أيام .الزبج، الزيج، الرانج ، الزابج ، الزيق . ذكرها مروج الذهب ونخبة الدهر وعجائب المخلوقات و معجم البلدان. هي مجموعة جزائر تبدأ من سومطرة إلى الشرق ممتدا إلى المحيط . ويعني الرانج النارجيل {جوز الهند}. هذه أمثلة ذكرتها هنا من غير ذكر التفاصيل فيما ذكرته الكتب، ولم أذكر أسماء أخرى فهي كثيرة، فالبحث طويل وقد لايهم البعض ، وقد يبعث تفصيلها السأم لمن لم يكن من فنه. { انظر كتاب "المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، تأليف العلامة علوي بن طاهر الحداد ،

تحقيق محمد رضا شهاب ، منشورات عالم المعرفة – جدة – المملكة العربية السعودية – ١٤٠٥ هجري / ١٩٨٥ م] .

(٧١) انظر القلقشندي، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة " للقلقشندي ،[سلسلة المختار من التراث العربي {٣٦} ، مطبوعـات وزارة الثقافة السورية – دمشق ١٩٨٥] ، السفر الثاني ، ص ٧٩ .

(٧٢) الشنشيل أو الروشان أو المشربية مظهر من مظاهر العمارة الإسلامية تم استنباطه ليتوافق مع القيم والتقاليد الاجتماعية للمجتمع الإسلامي . والمقصود بالمشربية ذلك الجزء البارز عن سمط حوائط جدران المباني التي تطل على الشارع أو على الفناء الأوسط للمنازل الإسلامية . وتعرف المشربية في بعض بلدان العالم الإسلامي باسم " روش " وهي تعريب للكلمة الفارسية "روزن " وتعني الكوة أو النافذة .

وقد وصل فن المشربية درجة كبيرة من الإتقان في مصر خلال العصر المملوكي ، ويظهر ذلك بوضوح في القاطوع الخشبي المنقول من مدرسة السلطان حسن إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وفي مجموعة المشربيات في منزل زينب خاتون وغيرها. ألا أن المشربية يظهر أجمل نماذجها في منازل القاهرة ورشيد وفوه التي ترجع إلى العصر العثماني . كما كانت المشربيات أو الرواشين عنصراً مميزاً في العمارة الحجازية وبخاصة في ينبع ، التي بلغت فيها من الكثرة بحيث يتصل بعضها ببعض. أما بلاد اليمن وبصفة خاصة مدينة صنعاء وما حولها ، فقد استعمل بها طراز يمني أصيل وهو عبارة عن مشربيات مصنوعة من الحجر بدلا من الخشب . ولم تعرف اليمن المشربيات الخشبية إلا في القرن ١١ هـ / ١٧ م وذلك بتأثير من الفن العثماني. هذا في الوقت الذي كان استعمال المشربيات على أضيق نطاق في فلسطين إذ أنه يكاد يقتصر على مدينة القدس دون غيرها من المدن . وفي مدينة المنامة والمحرق في البحرين ، توجد نماذج قليلة من المشربيات . وقد اتخذت المشربية طابعاً مختلفاً في كل من مدينة طرابلس في لبنان وسواكن في السودان، وفي بلاد المغرب إذ أنها أقل إتقاناً من حيث أسلوب الخرط عما هي عليه في مصر وبلاد الحجاز واليمن . {انظر: د.صلاح بهنسي، " المشربية : دهشة الفن الجميل " ، مجلة العربي ، العدد رقم ٥٠٨ ، مارس/آذار ٢٠٠٦ م ، الصفحة ٩٤ – ٩٥ } .

(٧٣) انظر : محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ص ١٢٨ .

(٧٤) تعتبر الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة حيث يتصف مذهبهم بالابتعاد عن غلو باقي فرق الشيعة ، كما أن نسبتها ترجع إلى مؤسسها زيد بن علي زين العابدين الذي صاغ نظرية شيعية متميزة في السياسة والحكم ، وقد جاهد من أجلها وقتل في سبيلها ، وكان يرى صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان (ر) جميعاً ولم يقل أحد منهم بتكفير أحد من الصحابة ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وترجع الزيدية إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسن بن علي رضي الله عنهما [٨٠-١٢٢ هـ/٦٩٨-٧٤٠ م] ، قاد ثورة شيعية في العراق ضد الأمويين أيام هشام بن عبد الملك ، فقد دفعه أهل الكوفة لهذا الخروج ثم مالبثوا أن تخلوا عنه وخذلوه عندما علموا أنه لا يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر ولا يلعنهما، بل يترضى عليهما ، فاضطر لمقابلة جيش الأمويين وما معه سوى ٥٠٠ فارس حيث أصيب بسهم في جبهته أدى إلى وفاته عام ١٢٢ هـ .

- تنقل في البلاد الشامية والعراقية باحثا عن العلم أولا وعن حق أهل البيت في الإمامة ثانياً ، فقد كان تقياً ورعاً وعالماً فاضلا مخلصاً شجاعا وسيماً مهيباً ملماً بكتاب الله وبسنة رسوله (ﷺ) .

– تلقى العلم والرواية عن أخيه الأكبر محمد الباقر الذي يُعد أحد الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية. اتصل بواصل بن عطاء رأس المعتزلة وتدارس معه العلوم، فتأثر به وبأفكاره

التي نقل بعضها إلى الفكر الزيدي، وإن كان هناك من ينكر وقوع هذا التتلمذ ، وهناك من يؤكد وقوع الاتصال دون التأثر .

- تتلمذ عليه أبو حنيفة النعمان وأخذ عنه العلم .
- أما ابنه يحيى بن زيد فقد خاض المعارك مع والده ، لكنه تمكن من الفرار إلى خراسان حيث لاحقته سيوف الأمويين فقتل هناك سنة ١٢٥ هـ .
- فوض الأمر بعد يحيى إلى محمد وإبراهيم .
- خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي [المعروف بالنفس الزكية] بالمدينة فقتله عاملها عيسى بن ماهان ، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة فكان مقتله فيها بأمر من المنصور .
- أحمد بن عيسى بن زيد ، حفيد مؤسس الزيدية ، أقام بالعراق ، أخذ عن تلاميذ أبي حنيفة فكان ممن أثرى هذا المذهب وعمل على تطويره .
- من علماء الزيدية : القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما [١٧٠ - ٢٤٢ هـ] تشكلت له طائفة زيدية عرفت باسم القاسمية .
- جاء من بعده حفيده الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم [٢٤٥-٢٩٨هـ] الذي عقدت له الإمامة باليمن فكان ممن حارب القرامطة فيها ، كما تشكلت له فرقة زيدية عرفت باسم الهادوية منتشرة في اليمن والحجاز وما والاها .

ظهر للزيدية في بلاد الديلم وجيلان إمام حسيني هو أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن زيد بن عمر بن الحسين بن علي رضي الله عنهما والملقب بالناصر الكبير [٢٣٠-٣٠٤ هـ] وعرف باسم الأطروش . فقد هاجر هذا الإمام إلى هناك داعياً إلى الإسلام على مقتضى المذهب الزيدي فدخل فيه خلق كثير صاروا زيديين ابتداءً . ومنهم الداعي الآخر صاحب طبرسان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي رضي الله عنهما والذي تكونت له دولة زيدية جنوب بحر الخزر سنة ٢٥٠ هـ .

- وقد عرف من أئمتهم محمد بن إبراهيم بن طباطبا ، الذي بعث بدعاته إلى الحجاز ومصر واليمن والبصرة. ومن شخصياتهم البارزة كذلك مقاتل بن سليمان ، ومحمد بن نصر . ومنهم أبو الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبعض أمراء بني بويه .
- استطاع الزيدية في اليمن استرداد السلطة من الأتراك إذ قاد الإمام يحيى بن منصور بن حميد الدين ثورة ضد الأتراك في عام ١٣٢٢ هـ ، وأسس دولة زيدية استمرت حتى أيلول /سبتمبر ١٩٦٢ م حيث قامت الثورة اليمنية وانتهى بذلك حكم الزيود ولكن لا يزال اليمن معقل الزيود ومركز ثقلهم . {انظر : " الزيدية " ، الموسوعة الميسرة في الأديان : المذاهب والأحزاب " ، منشورات المجلس الإسلامي الأسيوي ، الصفحة ٨١- ٨٢ } .

(٧٥) يجيز الزيديون الإمامة في كل أولاد فاطمة (ع) سواء أكانوا من نسل الإمام الحسن أم من نسل الإمام الحسين رضي الله عنهما .

- الإمامة لديهم ليست بالنص، إذ لا يشترط فيها أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق ، بمعنى أنها ليست وراثية بل تقوم على البينة . فمن كان من أولاد فاطمة وفيه شروط الإمامة كان أهلاً لها . ويجوز لديهم وجود أكثر من إمام واحد في وقت واحد في قطرين مختلفين . وتقول الزيدية بالإمام المفضول مع وجود الأفضل إذ لا يشترط أن يكون الإمام أفضل الناس جميعاً بل من الممكن أن يكون هناك للمسلمين إمام على جانب من الفضل مع وجود من هو أفضل منه على أن يرجع إليه في الأحكام ويحكم بحكمه في القضايا التي يدلي برأيه فيها .
- معظم الزيدية المعاصرين يقرون خلافة أبي بكر وعمر ، ولا يلعنونهما كما تفعل فرق الشيعة، بل يترضون عنهما، ويقرون بصحة خلافة عثمان مع مؤاخذته على بعض الأمور . وهم

يميلون إلى الاعتزال فيما يتعلق بذات الله، والاختيار في الأعمال. ومرتكب الكبيرة يعتبرونه في منزلة من المنزلتين كما تقول المعتزلة . كما أنهم يرفضون التصوف رفضاً قاطعاً .

- يخالفون الشيعة في زواج المتعة ويستنكرونه .
- يتفقون مع الشيعة في زكاة الخمس وفي جواز التقية إذا لزم الأمر . - هم متفقون مع أهل السنة بشكل كامل في العبادات والفرائض سوى اختلافات قليلة في الفروع .
- باب الاجتهاد مفتوح لكل من يريد الاجتهاد ، ومن عجز عن ذلك قلد ، وتقليد أهل البيت أولى من تقليد غيرهم .

يقولون بوجوب الخروج على الإمام الظالم الجائر ولا تجب طاعته .

- لا يقولون بعصمة الأئمة عن الخطأ ، كما لا يغالون في رفع أئمتهم على غرار ماتفعله معظم فرق الشيعة الأخرى .
- لكن بعض المنتسبين للزيدية قرروا العصمة لأربعة فقط من أهل البيت هم علي وفاطمة والحسن والحسين (ع).
- لايوجد عندهم مهدي منتظر .
- يستنكرون نظرية البداء التي قال بها المختار الثقفي ، حيث أن الزيدية تقرر أن علم الله أزلي قديم غير متغير وكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ .
- قالوا بوجوب الإيمان بالقضاء والقدر مع اعتبار الإنسان حراً مختاراً في طاعة الله أو عصيانه، ففصلوا بذلك بين الإرادة وبين المحبة أو الرضا وهو رأي أهل البيت من الأئمة.
- مصادر الاستدلال عندهم كتاب الله، ثم سنة رسول الله ثم القياس، ومنه الاستحسان والمصالح المرسلة ، ثم يجيء بعد ذلك العقل، فما يقر العقل صحته وحسنه يكون مطلوباً وما يقر قبحه يكون منهياً عنه .
- وقد ظهر من بينهم علماء فطاحل سلفيو المنهج والعقيدة أمثال: ابن الوزير وابن الأمير والشوكاني .
- قامت دولة للزيدية أسسها الحسن بن زيد سنة ٢٥٠ هـ في أرض الديلم وطبرستان، كما أن الهادي إلى الحق أقام دولة ثانية لها في اليمن في القرن الثالث الهجري.
- انتشرت الزيدية في سواحل بلاد الخزر وبلاد الديلم وطبرستان وجيلان شرقاً وامتدت إلى الحجاز ومصر غرباً، وتركزت في أرض اليمن . [المرجع السابق نفسه ، ص ٨٥] .

(٧٦) انظر: القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ٨١ .

(٧٧) انظر: جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " الجزء الثاني ، ص ٤٥٣ .

(٧٨) المرجع السابق نفسه الذي ينقل بدوره عن المؤرخ ابن الأثير في كتابه " الكامل في التاريخ " ، الجزء السابع ، ص ٧٧ ، أن الجند الأتراك قتلوا المعتز بالله شر قتلة ، إذ جروه برجله إلى باب الحجرة و ضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ثم أقاموه في الشمس في الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده .

(٧٩) – انظر الكتاب المنسوب لأبي منصور إسماعيل الثعالبي ، " تحفة الوزراء " [مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية – سلسلة إحياء التراث الإسلامي {٤٤} – بغداد ١٩٧٧]، ص ١٢٣ .

(٨٠) بهيول هذا هو من قرات البصرة من قبيلة الأزارقة، واسمه علي بن عبد الرحيم من عبد القيس في البحرين . انظر : محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ص ٢١ .

(٨١) تكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف و يباعون بالعشرات . اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول و ماتبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية . فقد بلغت غنائم موسى ابن نصير سنة ٩١ هجرية في أفريقيا ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي، فبعث خمسها إلى الخليفة

الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا. وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم. وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها .

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس، وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ بقيادة ابراهيم بن أينال سبى المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأسا غير الدواب. وفي جملة غنائم الحرب ، فضلا عن الأسرى من الرجال، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في وقعة عمورية سنة ٢٣ هجرية إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة وربما بلغ ثمن الإنسان بضعة دراهم . ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في وقعة الأرك بالأندلس أن يباع الأسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم والبعير بخمسة دراهم، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم. تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين، غير ماكان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق لتوظيفهم كل سنة من تركستان وبلاد البربر وغيرها وكانوا في صدر الإسلام إذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد ، بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا إذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الأسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة فينزلون الأسرى و يطوفون بهم القاهرة، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الإسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فإذا استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه و ألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة. ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ ، ويمضي بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة، بعد أن يعطي الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل. ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأساتذة فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم إذ ذاك " الترابي " ، وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء. ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين، بل هي عادة كانت مرعية في تلك العصور. فمن يقع من المسلمين في أيدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة. ومن هنا نشأ ما يعرف " بالفداء " في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم، لأن الحرب بينهما سجال في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضا ، فاحتاج الجانبان إلى تنظيم عملية فداء الأسرى. فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحدا بواحد، حتى إذا زاد عند أحدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال. وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة، النفر بعد النفر في سواحل الشام والإسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود، وأول فداء وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هجرية وتوالى الفداء بعده بضع عشر مرة أثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء ينفقون المال على فكاكهم . أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيفا من رعاياهم أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليسوا من الروم أنفسهم . أما المسلمون فهم غالبا المهاجمون ، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف، وإذا غُلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم. على أن كثيرين من المسلمين كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولاسيما في الدولة الفاطمية . ولايعرف عن هذه الدولة أنها بادلت أسيرا من الإفرنج بمال ولا بأسير مثله. فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء

عند المسلمين .
فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفا ، حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لايخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه. وكان للفارس في عصر الأمويين عشرة أتباع يخدمونه أو بضع عشرات إلى مائة، فكيف بالأمراء والقواد؟ حتى في صدر الإسلام. فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله. فاعتبر كم يكون عددهم في أيام الثروة والترف! فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد . وبلغ عدد غلمان رافع بن حرثمة والي خراسان سنة ٢٨٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله .
وكانوا إذا تكاثر الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيبا يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الأستاذ. على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب و القتال . فقد كان عند الأخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان . وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبي والأسرى أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار . أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفرّاش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاّح والركابي وغيرهم. ومنهم الوصيف و المملوك ، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلي بين مجلوب ومولّد من الذكور والإناث مما لا يحصى .
وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء ، فإنهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثيل. وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان، وأتباعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجواري. ثم صار الاستكثار من الغلمان سنّة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أو مملوك، وفيهم البيض والسود. فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وأفريقية. والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار في البصرة، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا متفردين لا يختلطون بالبيض. ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة في حراسة وغيرها .
{انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " ، الجزء الثاني ، ص ٥٤٠ - ٥٤٦ } .
(٨٢) الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت إلى الرومان فالإفرنج . ويقال أن أول من استنبطها سمير أميس ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد. وكان المظنون أن الخصاء يذهب بالقوة الرجولية، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد جوستنتيان في القرن السادس قبل الميلاد، وهرمياس حاكم أتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو نبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد .
وممن اشتهر من الخصيان في الإسلام كافور الأخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا، وللخصاء أغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن. فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية،

فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه فتح، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين، مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون. وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الإسلام. ومن أسباب رواجها أن قبائل الصقالبة (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطلونة، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أوساط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالبـــة أو السكلاف) والصرب والبوهيم والدلماشين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم. فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فإسبانيا ، وقد يحملونهم إلى أفريقيا والشام ومصر. فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من الصقالبة والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود. ولايزال أهل جرجيا والجركس إلى اليوم (١٩١٠) يبيعون أولادهم بيع السلع. فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال، وفيهم الذكور والإناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى إسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والإناث للتسرّي. وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف. وكانت تلفظ عندهم " سلاف " فعربها العرب " صقلبي" وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالإجمال. وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الإسلام ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان. وفعل الإفرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لهذا المعنى نفسه ومنها *Esclave* في الفرنسية و *Sklave* في الجرمانية و *Slave* في الإنكليزية ..

ولما شاع الحجّاب بين المسلمين في أيام سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم، عمد تجار الرقيق – وأكثرهم من اليهود الإسبان – إلى خصاء بعض الأرقاء و بيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا " لاصطناع" الخصيان معامل عديدة أشهرها " معمل " الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا. وكان اليهود يخصون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثيرون منهم على أثر العملية. فمن بقي حيا أرسلوه إلى إسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير. وأصبحوا بتوالي الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل أو الأثاث أو الآنية . فكان ملوك الإفرنج إذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس او غيرها أهدوه التحف ومن جملتها الخصيان، كما فعل أمير برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس فإنهما أهدياه ٣٠ خصيا من الصبيان الصقلبية و ٢٠ قنطارا من صوف السمور. فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاءحتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد. فإذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال . وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الإسلامي، وكل من كان يفد على المملكة الإسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كاوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهة خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الإفرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق .

{ انظر : المرجع السابق نفسه ، الصفحات ٥٤٤ – ٥٤٥ – ٥٤٦ } .

(٨٣) انظر : الدكتور عادل محيي الدين ، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، الصفحات ٢٣٨ – ٢٣٩ – ٢٤٠ ، ونورد هنا مقطعا من تلك الصفحات : " يشكل الرقيق ظاهرة اجتماعية عانى منها المجتمع الإسلامي طويلا ، ذلك أن الإسلام، مع أنه حضّ على فك رقاب العبيد،

إلا أنه أباح امتلاكهم مما شجع على انتشارهم حتى عجّت بهم قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء، وامتلأت بهم قطائع بغداد كدار الرقيق فيها. وباب النخاسين في بداية شارع الكرخ الذي يجتمع فيه باعة الرقيق، وانتشرت الأسواق لبيعهم في بغداد والبصرة ونواح أخرى، عرفت بسوق النخاسين، فضلا عن أن تجارة الرقيق كانت في كل أحوالها مربحة وهذا سر تمسك اليهود بها. ومع أن معظم شحنات الرقيق كانت ترد من الأراضي السلافية عبر إسبانيا، أو من الشواطئ الشرقية لأفريقيا وبخاصة الرقيق الأسود، إلا أن صاحب عجائب الهند، أورد نصين يدلان صراحة على أن بعض الرقيق كان يؤتى به من جزيرتي جاوة وسومطرة بإندونيسيا. فقد ذكر " أن بعض النواخذة جهز مركبا إلى الزابج فوقعوا على قرية الواق الواق فأسرنا بعض أهلها ولما كفينا أمرهم، رجعنا إلى بيعنا وشرائنا وتسوقنا على الرسم واستخدمنا ملك القوم ولم نزل نحتال على أهل القرية نسرق أولادهم ونشتري بعضهم من بعض بالفوطة والتمر والشيء اليسير حتى صار معنا في المركب نحو مائة رأس من الرقيق كبارا وصغارا ".
وفي موضع آخر يشير إلى أن الرقيق كان يعرض في أسواق سومطرة كما تعرض البضائع. قال بعض النواخذة " فاشترينا منهم الحديد والنحاس والكحل والخرز والمقط والثياب وأشرنا: أعندكم بضائع نشتريها منكم ؟ فقالوا: " ما عندنا إلا الرقيق، فقلنا لهم: مبارك احضروا الرقيق، فأتونا بالرقيق ما رأينا أحسن منه فملأنا به مراكبنا ".
وأورد ابن الوردي " ان التجار يدخلون إلى الواق واق بالمراكب ويشترون أولادهم بالتمر ويبيعونهم في البلاد " .

(٨٤) ثورة الزنج ٢٥٥-٢٧٠ هـ ، ٨٦٩-٨٨٣ م
قامت ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هـ بقيادة رجل خارجي ادعى النسب العلوي اسمه علي بن محمد، وهو من قبائل عبد القيس بن ربيعة . والزنج جماعة من الناس جيء بهم من إفريقية أرقاء للعمل في استصلاح الأراضي وكسح السباخ في منطقة جنوبي العراق .
عوامل قيام الثورة: كان لقيام ثورة الزنج عدة عوامل أهمها :
١ – تحول المجتمع العربي في العصر العباسي إلى مجتمع إقطاعي، تركزت فيه الثروة والأراضي الواسعة بيد التجار والإقطاعيين، بينما عاش الفلاحون والعبيد ظروف عمل قاسية جدا
٢ – شراء الإقطاعيين [كبار الملاكين] أعداداً كبيرة من الزنج من شرقي أفريقية واستخدامهم في كسح السباخ جنوبي البصرة وزراعتها .
٣ – سوء حالة هؤلاء الزنج حيث كانوا يعملون عملا متواصلاً وسط مستنقعات مملوءة بالأعشاب والحشرات ، ويتناولون غذاء فقيراً من الطحين والتمر ويسكنون في أكواخ من القصب لا ترد حر الصيف ولا برد الشتاء .
٤ – تجمع الزنج بحكم طبيعة عملهم بأعداد كبيرة تراوحت ما بين ألف وخمسة آلاف وربما إلى خمسة عشر ألف رجل ، ضمن شروط معايشة سيئة ، مما جعلهم يحسون ببؤسهم وقوتهم معاً .
٥- ظهور علي بن محمد الذي ادعى النسب العلوي ، واستغل سخطهم على وضعهم الاجتماعي ، ودعاهم إلى التجمع حوله بهدف تحريرهم وتمليكهم الأملاك والعبيد والسلطة.
أحداث الثورة: التف الزنج حول هذا الدعي ، وتمكنوا من السيطرة على منطقة الأهواز وبنوا لهم عاصمة محصنة ، وتوسعوا في المناطق المجاورة لهم ، وهاجموا البصرة ودمروها، وقتلوا سكانها دون تمييز ، واسترقوا أسراهم من الرجال والنساء .
أثار تدمير البصرة استياء الناس، ورثاها الشعراء وحثوا الخليفة على ضرب الزنج، فوجّه

الخليفة عدداً من الجيوش لحربهم، انتصر عليهم الزنج واستمرت هذه الحروب أربع عشرة سنة حتى ولى الخليفة المعتمد أخاه الموفق حربهم. جهز الموفق جيشاً دربه على أسلوب حرب العصابات التي كان يتبعها الزنج، وتمكن من قطع طرق تموينهم وأخيرا تمكن من الاستيلاء على عاصمتهم فهدمها وقتل زعيمهم .

{ انظر : " تاريخ العرب في العصر العباسي " ، تأليف مجموعة من المدرسين، منشورات وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية ، الصفحة ٨٠ } .

(٨٥) انظر : ابن الفوطي ، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب " [منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٢] ، الجزء الرابع ، القسم الأول ، ص ٥٩ تحقيق د . مصطفى جواد، حيث ورد ذكر اسم باب بدر بالجانب الشرقي من بغداد، وكان يسمى باب الخاصة ، وص ٢٣٨ حيث ورد اسم باب المراتب و هو آخر أبواب دار الخلافة من الجنوب بين دجلة و باب الخاصة.

(٨٦) انظر : محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٣ .

(٨٧) المرجع السابق ، الصفحة ٢٢ .

(٨٨) ساهم تطور النظام النقدي الإسلامي في انتعاش التجارة، وخاصة نظام النقد المزدوج. ففي حين شاع الدرهم الفضي الفارسي في الشرق والدينار الذهبي البيزنطي في الغرب، كانت بغداد والبصرة تتعاملان بالمعدنين إلى أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، حيث اختفى الدرهم الفضي في العراق و إيران والمحيط الهندي وانتشر الدينار الذهبي وبقيت الفضة للاستخدام المحلي والثانوي وللتعامل مع روسيا وغربي أوروبا. ومما زاد العملة سيولة والتجارة المحلية شيوعا، استعمال أجزاء الدرهم والدينار في المعاملات اليسيرة من الثلث والربع والخمس والسدس والحبة والطسوج والقيراط والدانق للدرهم. فكان الدرهم = ٦ دوانق، والدانق = ١٢ قيراطاً ، والقيراط = ٢٤ طسوجاً ، والطسوج = ٤٨ حبة. كما ضرب العباسيون مضاعفات العملة لتغطية الصفقات التجارية الكبيرة كدنانير المأمون التي قيمة كل واحد منها ديناران، ودنانير جعفر بن يحيى البرمكي التي زنة كل دينار منها مئة دينار. وكان الوالي الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي هو أول من صك الدرهم الإسلامي الفضي بدلا عن النقود الساسانية الفضية التي كان معمولا بها ، وكان ذلك في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . { انظر كتاب " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " للدكتور عادل محيى الدين الآلوسي ، الصفحة ٣٣}.

(٨٩) محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٢ .

(٩٠) من مراكب الأسطول الحربي في الزمن العباسي ذكر المؤرخون : " الأحورة " وهي من نوع الطريدة، إلا أنها أوسع وأقصر وعلى نصفها حوش من خشب يصعد له على درج، وفوقه مجلس الأمير وأصحابه والمماليك يمنة ويسرة والرجال يجذفون وهم نحو أربعين. و"البارجة " وحجمها أكبر من الشيني {الطريدة } ويقودها اشتيام وفيها ثلاثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلا من الجذافين، و"المقاتلة " و"السميريات " وهي التي استعملت في حرب الزنج. {انظر: د. عادل الألوسي "تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا "، ص ١٢٢}.

(٩١) انظر: لابن الفوطي، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب " [مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سلسلة " إحياء التراث القديم"، دمشق ١٩٦٢] ، الجزء الرابع، القسم الأول ، ص ٢٩٨، تحقيق د. مصطفى جواد ، .

(٩٢) انظر: " درر و تحف من تراث السلف " ، [سلسلة " المختار من التراث العربي "، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٨٦]، الجزء الثاني، ص ٤٧٦ – ٤٧٧.

(٩٣) الحراقات، وهي سفن للنزهة والأبهة ، استعمل منها الأمين في أواخر عهده خمسا على خلقة الحيوان وقد أنفق في بنائها مالاً عظيما. وكان الأمين يفضل الركوب في إحدى تلك الحراقات التي شكلها على خلقة الدلفين، وهي نفسها التي كان المهتدي بالله يفضل التنزه بها في نهر دجلة.

وقد قال أبو نواس في وصف هذه الحراقات:

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن براً	سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطا ذراعيه يهوي	أهرت الشدق كالح الأنياب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب

" المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٢٣ " .

(٩٤) وأما الـزو ، فتعني سفن الضوء ، هي سفن نهرية كانت تستعمل في العراق ، والطيارة أو الطيرة تستعمل لركوب العظماء، وسميت بذلك لسرعتها. وقد قال فيها الخليفة المعتز بالله :

وخير مال لي طيارة	تسد بر لي في السير أو تقبل
يلاطم الماء مجاذيفها	حاملة لكنها تحمل

(٩٥) والزبزب، سفينة بغدادية تستعمل للأفراح واللهو. والزلال تستعمل لنقل المسافرين بين بغداد والبصرة ولها سقف يقيها حر الصيف وبرد الشتاء. " المرجع السابق نفسه " الصفحة ١٢٤ .

(٩٦) انظر: محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٣ .

(٩٧) انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " ، الجزء الثاني ، ص ٦٨٣ - ٦٨٦.

(٩٨) بدأ الصفاريون صعودهم إلى ساحة الأحداث عصابات مسلحة وقاطعي طرق و ليس كحكام عسكريين اقليميين اختاروا الاستقلال عن سلطة الخليفة في بغداد مع الإبقاء على ولائهم له، كما فعل الطاهريون والسامانيون. بدأ تمرد الصفاريين في سجستان التي كانت مركزا للخوارج ولزعيمهم حمزة بن الدهراق الذي كان قد تحدى الخليفة العباسي المأمون طوال فترة طويلة من ١٧٩ هـ ، إلى ٢١٣ هـ ، إلى أن قتله قائد جيشه ومؤسس الدولة الطاهرية طاهر . وبعد مقتل حمزة بقي جمر الانتقام متقدا في سجستان التي صار الطاهريون يحكمون عاصمتها زرنج دون أن يجرؤوا على الخروج منها إلى الريف حيث يسيطر أنصار حمزة من قطاعي الطرق الذين كان يطلق عليهم اسم العيارين. في عام ٢٣٨ هجري انطلق يعقوب بن ليث الصفار زعيم العيارين يعاونه إخوته الثلاثة من مدينة بوست الإستراتيجية باتجاه العاصمة زرنج فاحتلها وقتل حاكمها الطاهري وقائداً عسكرياً آخر يدعى زنبيل جاء لمساندته من جبال أفغانستان . ثم احتل يعقوب عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م باميان وغزنة وكابول وأجبر حاكم غارديز المسلم على دفع الجزية له . وتعمد يعقوب إرسال جزء من غنائمه وخاصة الذهب إلى الخليفة في بغداد استرضاء له . وخلال حملاته العسكرية طرد يعقوب الخوارج وشتت شملهم، غير أن قسما من الخوارج انضم إلى يعقوب الذي عاملهم معاملة حسنة و أقنعهم أنه يؤمن بطروحاتهم الدينية، غير أنه في واقع الأمر كان يهادنهم و يستخدمهم لتنفيذ سياسته. وبعد أن استتب الأمر له في سجستان سار صوب هراة فسقطت بيده وانضم إليه الخوارج الموجودون فيها وفي بادغيز، كما حارب وانتصر على قبائل وثنية، الأمر الذي كان يرضي المسلمين مهما كانت اتجاهاتهم. وتعاظم شأن يعقوب عندما سيطر على مناجم الفضة في نهر بانشير شمال مدينة كابول، ودق عملة خاصة به، لا بل وتعمد إرسال قسم من الغنائم للخليفة في بغداد لإظهار مدى قوته ولإبداء ولائه الاسمي للخليفة و للإسلام كي يتجنب عداء بغداد خاصة وأن الخليفة

نفسه كان يتهاون مع يعقوب بسبب عجزه عن مواجهته طالما أن يعقوب يتجه شرقا ولا غربا بحيث لا يهدد الخليفة في بغداد. غير أن يعقوب هذا غيّر رأيه عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٩ م عندما اتجه غربا واحتل إقليمي فارس و كرمان موجها ضربة موجعة للخليفة المهتدي بالله. وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت للإطاحة بالمهتدي بالله. ولما استلم المعتمد على الله سدة الخلافة عيّن أخاه أبا أحمد (الذي أصبح يعرف باسم الموفق بالله) حاكما لإقليمي فارس وكرمان في عام ٢٥٧ هجري وأرسله إليهما مع جامع الضرائب. فذهب الموفق بالله إلى كرمان و عيّن بديلا عنه في فارس حاكما من طرفه فنجا بذلك من الموت إذ أن متمردا مستقلا يدعى محمد بن وسيل قام بقتل الحاكم العباسي الذي حل مكان الموفق بالله و سيطر على الإقليم. ولكن المتمرد محمد بن وسيل لاقى المصير نفسه على يد يعقوب الذي قتل المتمرد وضم الإقليم تحت سلطته واتجه صوب خوزستان والعراق مهددا الخليفة في بغداد. فما كان من المعتمد على الله عام ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م إلا أن منح يعقوب حكم خراسان وطبرستان وفارس والري علاوة على إعطائه منصب رئيس شرطة بغداد اسميا، وهو منصب كان الخليفة سابقا يعطيه للطاهريين. وحاول شقيق الخليفة ، الموفق بالله أن يبعد خطر الصفاريين عن العراق فهاجم يعقوب وقواته جنوب العراق وانتصر عليهم بأعجوبة مما أدى إلى تعديل بنود الاتفاق بين الخليفة ويعقوب إذ ثبت المعتمد على الله يعقوب حاكما على الهضبة الإيرانية ووافق على أن يذكر اسم يعقوب في صلاة الجمعة إلى جانب اسم الخليفة. وعندما مات يعقوب في جنديسابور في عام ٢٦٥ هجري خلفه شقيقه عمرو بن ليث الذي أقره الخليفة المعتمد على الله على حكم الولايات الشرقية من الخلافة. بعد وفاة يعقوب تمرد اثنان من قادته وهما خوجستاني في نيسابور ورفيع بن حرثمة، وكلاهما من مؤيدي الطاهريين سابقا ، تمردا على عمرو ، فقام هذا الأخير بقتل خوجستاني عام ٢٦٥ هـ . وبعد ذلك وفي عام ٢٧١ هـ قام محمد بن طاهر، حاكم خراسان السابق الذي كان قد أطاح يعقوب به، بإقناع الخليفة المعتمد على الله بتعيين رفيع بن حرثمة ممثلا عن الخليفة في خراسان إلى جانب محمد بن طاهر نفسه وعزل عمرو، وكان ذلك المنعطف ضربة لحكم عمرو نفسه ولحكم الصفاريين، فتعزز موقف الخليفة في بغداد وعاد له بعضٌ من هيبته وقوته. ولكن ما إن هدأت أمور الشرق بعض الشيء حتى انفجرت في وجه الخليفة مشاكل في مصر وعلى الحدود مع البيزنطيين. فعاد الخليفة إلى مهادنة عمرو مرة ثانية مقرا إياه حاكما على إقليم فارس وعلى خراسان والولايات الشرقية، ثم ضيق الخليفة إمارة عمرو في عام ٢٧٦ هجري محددا إياه بالولايات الشرقية فقط . وأثناء ذلك كان رفيع بن حرثمة يحكم من الري إلى هراة. وعندما توفي المعتمد على الله وأصبح المعتضد بالله خليفة في عام ٢٧٩ هجري، أمر الخليفة بجعل عمرو حاكما لخراسان، مكان حرثمة الذي تمرد على أوامر الخليفة وتحالف مع الخوارج في قزوين، فأصبح عمرو يحظى بشكل ما بدعم غلاة السنة المعارضين لرفيع بن حرثمة، واستطاع بفعل ذلك أن يطرد حرثمة من خراسان وأن يقتله عام في ٢٨٣ هجري /٨٩٦ م، وأعاد بسرعة الحكم الصفاري في خراسان التي أضاف إليها الخليفة الجديد الري أيضا. وشعر عمرو بثقة في النفس دفعته إلى مهاجمة المناطق التي تقع تحت إمارة السامانيين في أقصى الشرق، وهم الذين يحكمونها لصالح الطاهريين. فاشتبك مع إسماعيل بن أحمد الساماني الذي كانت عاصمته بخارى، وانتصر إسماعيل في المعركة ووقع عمرو أسيرا بيده، فأرسله إلى قصر الخليفة في بغداد الذي أمر بقتله في عام ٢٨٧ هجري فكان ذلك بداية حقبة السامانيين وانتهاء حقبة الصفاريين. {انظر بالإنكليزية المرجع السابق رقم {٥٢}، الصفحات من ١٩٤ إلى ٢٠٦ } .

(٩٩) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ٨٤ .

(١٠٠) وبقيام الخلافة العباسية في سنة ٧٥٠ م ابتدأت العلاقة الدبلوماسية بين خلفاء بغداد وأباطرة الصين. وأهم السفارات التي وقعت في هذه الأيام ما كان مبعوثا من قبل أبي العباس مؤسس الدولة العباسية وأبي جعفر المنصور، مؤسس دار السلام، وهارون الرشيد بطل العهد الذهبي. وكان العباسيون في تاريخ الصين معروفين باسم " خني تاشي " أي العرب ذوي الملابس السود تميزوا عن الأمويين الذين عرفوا باسم " بني تاشي " أي العرب ذوي الملابس البيض. وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن بين ٧٥٠ و ٨٠٠ م، لكنه لم يذكر أغراضها ولم يلم بتفصيلها سوى أنه قال: إنها جاءت إلى الصين لزيارة ودية أو لتقديم الهدايا . وبناء على ما ورد في " جفو يو نكوى " أن هذه السفارات وقعت متتابعة في سنة ٧٥٠ و٧٥٣ و ٧٥٤ و٧٥٥ و ٧٥٦ و ٧٥٨ و ٧٦٠ و ٧٦٣ و ٧٦٩ و ٧٧٢ و ٧٨١ و ٧٩٨ م . ويروي هذا المصدر أن ثلاث سفارات قد وصلت في سنة ٧٥٣ م في الشهر الثالث لتقديم الحاصلات وفي الشهر الرابع لزيارة ودية و في الشهر الثاني عشر لتقديم ٣٠ جوادا هدية إلى إمبراطور الصين. وأما السفارة التي جاءت في سنة ٧٥٦ م فكانت مشتملة على ٢٥ عضوا ورئيسها من زعماء العرب الكبار .

ومن المصادفة الغريبة أن سفارة العباسيين التي وردت إلى عاصمة الصين في سنة ٧٥٨ م وكانت مشتملة على ستة أعضاء، اجتمعت مع سفارة من بلاد الأواغرة وكانت مكونة من ثمانين عضوا فكانت كل جماعة تريد أن تدخل قاعة التشريفات قبل غيرها، فتنازعتا عند الباب، فإذا بأمين التشريفات يصلح ما بين الجماعتين بإدخال كل جماعة من باب مستقل. هذا هو كل ما نستطيع أن نحصل عليه من المعلومات عن أحوال هذه السفارات وأغراضها من المصادر الصينية. وأما المصادر العربية فلم تتكلم فيها أبدا وما ذكره الشيخ بيرم التونسي في كتابه "صفوة الاعتبار في مستودع الأقطار والأمصار " عن إرسال أبي جعفر المنصور أربعة آلاف من صناديد المسلمين إلى الصين لا يدل إلا على حضور سفراء الصين لبغداد، وكانت هذه البعثة العسكرية من نتاج زيارة وفد الصين لبغداد ثم لا نستطيع أن نقطع، بماذا فعل الخليفة المهدي في رد وفود الصين الذين وفدوا عليه من قبل الإمبراطور " ته جونغ Teh Chung " بين ٧٨٠ و ٧٨٥ م. ومن المظنون أنه قد اكتفى بإرجاع هذه الوفود بالهدايا إلى إمبراطور الصين بدلا من إرسال بعثة خاصة لرد هذه الزيارة و نستقر على هذا الرأي بناء على عدم ذكر ورود الوفود من بغداد في تاريخ الصين بين ٧٧٤ و ٧٩١ م وقد انتهى عهد خلافة المهدي قبله بسنوات قليلة . {انظر: بدرالدين حي الصيني " العلاقات بين العرب والصين"، ص ١٨٦ – ٨٧} .

(١٠١) أدرك العباسيون أن القوة السياسية والحضارية التي أرادوها للعراق مركز دولتهم ، لا بد أن تستند على أسس اقتصادية ثابتة تشكل التجارة أهم مرافقها. ولهذا حرصوا على تحويل طريق التجارة العالمية من سورية إلى العراق، كما أدرك العباسيون أن التجارة لن يكون لها دورها إن لم تنشط على الصعيد الخارجي. ولما كان الطريق البري غير آمن و مركز احتكاك عسكري، فقد ركز العباسيون جلّ اهتمامهم على الطريق البحري مما أدى إلى ازدهار التجارة البحرية يشجعهم في ذلك صلاح نهري دجلة و الفرات للملاحة ، وجود البصرة باب بغداد الكبير ومحطة العراق إلى الشرق الأقصى الذي تطلعوا إليه منذ قيام دولتهم .

(١٠٢) انظر كتاب: "Richard N Frye ،" The Golden Age of Persia : The Arabs in The East] منشورات Weidenfeld and Nicolson لندن ١٩٧٥] ، ص ٢٠٠

(١٠٣) أدى صراع الكتبة في الدواوين والصراع بين العائلات الكبيرة في العراق للوصول إلى منصب الوزارة إلى تبديد الكثير من طاقات الدولة وجهودها، وإلى إضعاف هيبة الخليفة ، وهو الأمر

الذي أدى فيما بعد إلى هيمنة الجيش على مقدرات الخلافة، وثانيا، إلى سيطرة العناصر غير العربية على توجهات الخلافة، وقد عرف من العائلات التي كانت تتنافس على منصب الوزارة أسماء كل من بني الفرات وبني المقلة وبني الجراح وبني سهل وبني عباد [انظر المرجع السابق نفسه بالإنكليزية، الصفحة ١٩٩] .

(١٠٤) المرجع السابق {٨٧} بالإنكليزية ، ص ١٩٧ .

(١٠٥) المرجع السابق نفسه ، بالإنكليزية ، ص ١٩٨ .

(١٠٦) انظر : " الإمام المهاجر " ، الصفحة ٢٢ .

(١٠٧) الإمامة هي الحجر الأساسي في المذهب الشيعي الإمامي، وهكذا في المذهب الزيدي [الزيدية تعتقد أن الإمامة تتفرع من زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب]، والإسماعيلية تعتقد أن الإمامة تتفرع من إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق] ومنها يتفرع كل ما هو مثار للجدل والنقاش مع الفرق الإسلامية الأخرى. فالشيعة الإمامية تعتقد أن الخلافة في علي بعد رسول الله (ﷺ) ومن بعد علي في أولاده حتى الإمام الثاني عشر الذي هو محمد بن الحسن العسكري الملقب بالمهدي وأن رسول الله (ﷺ) ألمح إلى خلافة علي من بعده في مواطن كثيرة ونص على ذلك في مواطن أخرى أشهرها في موقع يسمى " غدير خم " عند رجوعه من حجة الوداع حيث عقد البيعة لعلي وقال : " من كنت مولاه فهذا علي مولاه وأوالي من والاه وأعادي من عاداه ". كان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عام ١٢ بعد الهجرة، والشيعة تحتفل بهذا اليوم في كل مكان يتواجدون فيه وتطلق على هذا اليوم اسم " عيد الغدير "

أما الفرق الإسلامية الأخرى فترى أن الرسول الكريم (ﷺ) ذهب إلى الرفيق الأعلى ولم يستخلف أحداً من بعده بل جعل الأمور شورى بين المسلمين نزولا عند نص الكتاب في الآيتين الكريمتين: **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** [الشورى ٢٧] **﴿وشاورهم في الأمر﴾** [آل عمران ١٥٩].

إذا درسنا موضوع الخلافة في عصر الرسول(ﷺ) وبعد وفاته بصورة مستفيضة لوصلنا إلى نتيجة مؤكدة لايختلف عليها اثنان ، هي أن فكرة الأولوية والأفضلية لخلافة النبي الكريم ظهرت بعد وفاته مباشرة ، فهذا هو عباس بن عبد المطلب يخاطب الإمام علياً عندما كان مشغولاً بتجهيز النبي (ﷺ)وكفنه : " *أعطني يدك لأبايعك حتى يقول القوم عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله* ". فيقول له الإمام: "*وهل يطمع فيها طامع غيري ، ثم إنني لا أريد أن أبايع من وراء رتاج*" .

واجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة لينظروا في أمر الخلافة وقالت الأنصار للمهاجرين : "*منا أمير ومنكم أمير* ".

وكادت تحدث فتنة بين المجتمعين لولا أن الخليفة عمر بن الخطاب حسم الأمر وبايع أبا بكر، فبايعه المسلمون بعد ذلك. وترك سعد بن عبادة شيخ الخزرج الاجتماع غاضباً لأنه كان يرى نفسه أولى بالخلافة من غيره، وتخلف الإمام علي عن البيعة بعض الوقت إلا أنه بايع الخليفة الجديد أبا بكر وهو راض عن البيعة مقبلا عليها. غير أن فكرة الأولوية كانت تراود نفس الإمام ومعه السيدة فاطمة الزهراء وبعض صحابة الإمام وبني هاشم حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب قال لابن عباس وهو يشير إلى علي : " *أما والله إنّ صاحبك هذا أولى الناس بعد رسول الله (ﷺ)، إلا أنا خفناه على اثنين : حداثة السن وحبه بني عبد المطلب* " .

ومرة أخرى نستمع إلى الخليفة عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت يشير إلى الإمام علي ويقول : " والله لو وليتموه أمركم لحملكم على المحجة البيضاء " .

ومن هنا يمكن القول أن فكرة التشيع لعلي بالمعنى الذي أشرنا إليه ظهرت بعد وفاة النبي (ﷺ) واستمرت حتى القرن الثالث الهجري حيث كان التشيع يعني أن الإمام علياً أولى بالخلافة وأحق

بها من غيره ، ولكن المسلمين نزولاً لأوامر القرآن الكريم الذي يقول : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ { آل عمران ١٥٩ } ارتضوا أبا بكر خليفة والإمام ارتضاه كما ارتضى غيره وبايعه كما بايعه غيره ، وهكذا موقفه مع الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فبايعهما وأخلص لهما في المشورة والرأي .

التشيع في القرن الثاني الهجري :

منذ أوائل القرن الثاني للهجرة أخذت فكرة التشيع تمثل مذهباً فقهياً هو مذهب أهل البيت، وقد تجلى هذا المذهب في زمن انبثقت فيه المذاهب الفقهية الكبيرة الإسلامية الأخرى كالمذهب المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي. وتجلت مدرسة أهل البيت في مدرسة الإمام الصادق الإمام السادس للشيعة الإمامية. وقد كانت الفكرة التي تساند مذهب أهل البيت هي الفكرة القائلة بأنه إذا كان الإمام علي أولى بالخلافة من غيره فأولاده ومن ثم حفيده الإمام جعفر بن محمد الصادق الذي كان يعتبر من أفقه فقهاء عصره أجدر بأن يتبع في مسائل الدين وشؤونه من غيره من الفقهاء. وهكذا ظهرت المدرسة الفقهية الجعفرية إلى الوجود في عهد الإمام الصادق الذي كان يلقي محاضراته ودروسه في الفقه وفي علوم أخرى على تلاميذه في المدينة المنورة انذاك. ولا بد من الإشارة إلى أن التشيع لعلي وأهل بيته بدأ يأخذ شكلا خطيراً بعد مقتل الإمام الحسين الذي أحدث رد فعل عنيف في العالم الإسلامي وكانت نتيجته المباشرة حدوث ثورات متتاليات أدت إلى سقوط الدولة الأموية ومن بعدها المروانية وقيام الخلافة العباسية. وكما نعلم، فقد حدثت ثورات متتاليات باسم التشيع لعلي وأهل بيته، منها ثورة المختار وثورة مصعب بن الزبير وثورة زيد بن علي بن الحسين التي انتهت إلى استشهاده واستشهاد صحبه، كما أن الثورة التي قطف ثمارها العباسيون والتي أطاحت بالخلافة الأموية في المشرق الإسلامي إلى الأبد قد بدأت باسم التشيع لأولاد علي وأهل بيت رسول الله (ﷺ)، وأبو مسلم الخراساني كان يدعو لأهل البيت في أيام القيام بثورته ولكنه انحاز إلى العباسيين في قصة معروفة جاء ذكرها في كتب التاريخ .

وكان أئمة الشيعة في عهد الخلفاء العباسيين يتمتعون باحترام عظيم لدى المسلمين كما أن فكرة الأولوية والأحقية في خلافتهم كانت تراود كثيراً من الناس، فلولا الرأي العام الإسلامي بأحقية أهل البيت بالخلافة لما اختار المأمون العباسي الإمام علي الرضا ولياً للعهد ، غير أن الرضا توفي في عهد المأمون واستمرت الخلافة في العباسيين. فإذاً، إن فكرة التشيع لعلي وأهل بيته والتي كانت تظهر بمظاهر مختلفة في المجتمع الإسلامي انذاك كان لها أنصارها المتحمسون . ونستنتج من كل هذه المقدمات أن فكرة التشيـــع كانت موجودة في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة، وهذه الفكرة كانت تنحصر في النقاط التالية :

- أولا: إن علياً أولى بالخلافة من غيره ولكن المسلمين بايعوا الخلفاء الراشدين وعلي بايعهم ثم بايع المسلمون علياً بعد عثمان ، فلا غبار على شرعية خلافة الخلفاء الراشدين من أبي بكر إلى علي .
- ثانيا: إظهار العداء للأمويين وذلك لموقف معاوية من علي ومقتل الإمام الحسين في فاجعة الطف و سب الخلفاء الأمويين علياً على المنابر زهاء خمسين عاماً إلى أن قام بالأمر عمر ابن عبد العزيز الخليفة الأموي فنهى عن سب الإمام .
- ثالثا: الرجوع إلى أهل البيت في الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية .
- رابعا:أهل البيت ولا سيما الأئمة من أولاد الحسين أولى بالخلافة من الأمويين والعباسيين.

{انظر: موسى الموسوي، "الشيعة والتصحيح: الصراع بين الشيعة والتشيع"، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، لوس أنجلوس، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٧ م، الصفحات من ١٠ إلى ١٤ } .

(١٠٨) انظر : محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٢ .

(١٠٩) المذاهب الفقهية هي مذاهب اجتهادية في مسائل الشريعة الإسلامية الفرعية، وهي جميعاً لا تختلف حول أصول الشريعة ولو في جزئية واحدة. والأصل أنه لا مذهبية، ولكن الضرورة دعت إلى تتبع اجتهادات فقهاء المدارس الفقهية من أجل التمكن من حل المشكلات العملية بيسر وسهولة . ولقد نشأت هذه المذاهب كمدارس فقهية لتلبية حاجة المسلمين الماسة إلى معرفة أحكام دينهم وإنزال هذه الأحكام على الوقائع الجديدة. وهذه الحاجة إلى الفقه قائمة في كل زمان لتنظيم علاقات الناس الاجتماعية من خلال معرفة حقوق كل إنسان وواجباته وتبيان المصالح المتجددة ودرء المفاسد المتأصلة والطارئة . وهي مذاهب اجتهادية أعوزت إليها الوقائع اللامتناهية والتي لايمكن أن تضبطها النصوص المتناهية فقامت لإيجاد حل شرعي لكل حدث مستجد .

ولقد نشأت المدرسة الفقهية الأولى في المدينة المنورة في عهد الصحابة (ﭫ)، وأشهر من نقلت الأحكام عنهم سبعة هم: عمر وعلي وابن مسعود وعائشة وزيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس. ثم نشأت المدارس الفقهية في الأمصار ، حيث أسست علمها على فقه هؤلاء السبعة (ﭫ). فكان علم أهل المدينة عن ابن عمر وزيد وأصحابهما ، وأكثر علم أهل مكة عن ابن عباس، ومعظم علم العراق عن عبد الله بن مسعود الذي أرسله عمر إلى العراق معلماً، فكان من تلاميذه علقمة بن مسعود وإبراهيم النخعي شيخ حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة.

وهكذا فقد انتهى علم ابن مسعود إلى أبي حنيفة ، كما انتهى إلى مالك علم الصحابة الذين لبثوا في المدينة . أما الشافعي فقد أخذ أولاً عن مالك حيث سمع منه الموطأ ثم لازم حيناً محمد بن الحسن ، تلميذ أبي حنيفة واطلع على كتبه . وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد أخذ عن الشافعي الحديث والفقه، ثم رحل إلى اليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ومكة والمدينة والشام وروي عن الأئمة الأعلام في هذه البلاد .

ومنذ أول القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الرابع، وهو العصر الذهبي للاجتهاد، لمع في أفق العالم الإسلامي ثلاثة عشر مجتهداً، دونت مذاهبهم وقلدت آراؤهم وهم: سفيان بن عيينة بمكة، ومالك بن أنس بالمدينة والحسن البصري بالبصرة وأبو حنيفة وسفيان الثوري بالكوفة والأوزاعي بالشام، والشافعي والليث بن سعد بمصر ، وداود الظاهري وابن جرير الطبري وأبو ثور وأحمد بالعراق، وإسحاق بن راهويه بنيسابور.. إلا أن أكثر هذه المذاهب لم يبق إلا في بطون الكتب لانقراض أتباعها، وغيرهم من العلماء الذين بلغ مجموع مذاهبهم أكثر من عشرين مذهباً فقهياً، فضلاً عن أن تلاميذ هؤلاء الفقهاء لم يدونوا فقه أئمتهم ولم يقوموا به، وإن كان هؤلاء لا يقلون منزلة عن الفقهاء الأربعة المشهورين . قال الإمام الشافعي مبيناً علو منزلة الليث بن سعد: "إن الليث أفقه من مالك ، ولكن أصحابه لم يقوموا به ". وبقيت المذاهب الأربعة المشهورة إلى يومنا هذا لأهل السنة والمذهب الجعفري للشيعة .

{ انظر: د. مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة " ، منشورات المجلس الإسلامي الأسيوي، الرياض ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨ م، المجلد الأول ، الصفحة ١١١ – ١١٢ } .

(١١٠) من المعروف أن الإمام الغزالي هو الذي دمج التيار الإسلامي السني بالصوفية في عهد السلاجقة الأتراك، في حين كان الخليفة العباسي المأمون يغازل الحركات الصوفية المبكرة في

الإسلام كالمعتزلة الذين كان السنة يعتبرونهم من أهل الشيعة ، في حين أن بعضا من منطلقاتهم الفكرية بعيدة عن السنة بمقدار بعدها عن الشيعة حتى أن بعض المؤرخين يقولون بأن المعتزلة تأثروا بالزرداشتية و بالفكر الهندي . والمهم هو أن الصوفية لاقت تشجيعا و قبولاً في ولايات الهند وايران أكثر منها في أي ولاية أخرى من ولايات الخلافة. وقد برزت أسماء كبيرة في عالم الصوفية في ايران و الهند مثل أبي يزيد البسطامي (توفي في ٢٦١ هجري /٨٧٥ م) الذي كان أول من تعلم عقيدة الفناء في الذات الإلهية من صوفي هندي من بلاد السند يدعى أبا علي، ومثل إبراهيم بن أدهم (مات في عام ١٦٠ هجري) وتلميذه شقيق البلخي (مات في عام ١٩٤ هجري) وكلاهما من بلخ وتأثرا بالبوذية لا بالزرداشتية، ومثل شهاب الدين سهروردي (مات في عام ٦٣٤ هجري) الذي تكلم عن وجود جماعة زهاد يعيشون في الكهوف في خراسان ويدعون باسم "شاغو فتية ". وأخيرا ينبغي التذكير بأن الصوفي الإسلامي الكبير محيي الدين ابن عربي (مات في عام ٦٣٨ هجري/١٢٤٠م) مؤسس مدرسة العرفان { الفتوحية} قد لاقى ترحيبا كبيرا لدى الشعراء والمفكرين الإيرانيين مثل شابيستاري وجامي. ويمكن تلخيص الحالة الصوفية الفلسفية في فترة الخلافة الإسلامية كالآتي: سادت مدرستان فلسفيتان في الفكر الإسلامي والمدرسة الأولى هي مدرسة علم الكلام (لاهوت) والمدرسة الثانية المضادة لها وهي المدرسة المشائية المستقاة من فلسفة أرسطو الإغريقية، وهي المدرسة القائلة بأن العقل قادر وحده على الوصول إلى الحقيقة . بلور الأشعري تيار المدرسة الأولى (علم الكلام) . وكان من تلاميذه أبو بكر الباقلاني (مات في عام ٣٠٣ هجري / ١٠١٣ م) حتى أصبحت هذه المدرسة الاتجاه العقائدي الرسمي للدولة الإسلامية وخاصة في عهد السلاجقة، في حين بلور المدرسة الثانية أبو يعقوب الكندي (مات في عام ٢٥٢ هجري / ٨٦٦ م) وهي مدرسة ازدهرت في عصر صدر الخلافة العباسية، وبرز من أساتذتها الفارابي ومحمد زكريا الرازي و أبو علي سينا (مات في عام ٤٢٨ هجري /١٠٣٧ م). وقد تعرضت هذه المدرسة في العالم العربي لهجوم عنيف من قبل الغزالي ، وسانده في ذلك ابن رشد في الأندلس، في حين تعززت مدرسة ابن سينا في الهضبة الإيرانية وقاد المدافعين عنها نصر الدين الطوسي (مات في عام١٢٧٤ م) و ميردماد و ملا صدرا { في الفترة الصفوية }.

(١١١) يفسر المستشرقون الغربيون ظاهرة التصوف الديني في الإسلام تفسيرا سياسيا قد لا يخلو من الجدة والأهمية . فالباحث " جونز" يرى أن الطرق الصوفية لم يكن لها ثقلها الغالب والسائد في التطورات التي شهدها العالم الإسلامي قبل سقوط بغداد إلى الجيش المغولي سنة ٦٥٦ هجرية / ١٢٥٨ م. وينقل " جونز " عن الباحث " جب " مستشرق متعصب صاحب كتاب " An Interpretation of Islamic History II " المطبوع عام ١٩٥٥ ، قوله بأن دور الصوفية يزداد أهمية بعد سقوط الخلافة في بغداد ، وذلك في الاحتفاظ بوحدة العالم الإسلامي في مواجهة نزوع المناطق التي كانت خاصعة للخلافة إلى تكتلات حسب تعدد اللغات من عربي و فارسي و تركي . ففي خضم هذه الظروف استقرت الطرق الصوفية بالتدريج نمطا للحياة ملتزما لتسهم في نمو الانتماء والانتساب إلى الجماعات التجارية و أصحاب الحرف ، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في تكوين مجتمع متحضر. وأما " هود غسون " فهو يرى في كتابه " The Venture of Islam " منشورات جامعة " تشيكاغو " عام ١٩٧٤ أنه ما إن استهل القرن الحادي عشر الميلادي حتى سارت الخلافة العباسية إلى الانهيار السياسي، وانهيار السلطة السياسية هذا كان دافعا لظهور مؤسسات غير سياسية (في المجتمع) لكي تشغل الفراغ في بنية الحكم والقيادة السياسية، ولذلك نشأت تجمعات مختلفة في المجتمع اجتماعية ودينية واقتصادية كما ذكرنا وتطورت في مستهل القرن الثاني عشر . ثم إنه لوحظ في هذه الفترة أو في أواخر القرن الثاني

عشر الميلادي اتجاه ملموس إلى دفن التعصب والتحزب الذي كان مرضا مزمنا عانى منه أهل السنة منذ القرن العاشر الميلادي. وكان نتيجة لهذه التطورات أن قام العلماء بنهضتهم ليحتلوا مكانتهم الخاصة في المجتمع زيادة في الوعي بدورهم الحاسم في الاحتفاظ بنفوذ الإسلام و توسيعه .{انظر : د . أزيو مردي أزرا ، " شبكة العلماء "ص ١٠ - ١١ [منشورات مركز الدراسات الإسلامية والاجتماعية - جاكرتا - إندونيسيا- ١٩٩٩ م].

(١١٢) كانت سلالة السامانيين في شرق إيران من السنة، في حين كانت سلالة البويهيين في غرب إيران من الشيعة ، كما كانت سلالة الطاهريين في خراسان من السنة أيضا ، وأما سلالة الصفاريين فكانت بين بين . {انظر المرجع رقم ٨٧ بالإنكليزية ، ص ٢٠٠ - ٢٠١}

(١١٣) انظر : الكتاب المنسوب للثعالبي ، " تحفة الوزراء " ، ص ١٢٣ .

(١١٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٨ .

(١١٥) المرجع السابق نفسه الصفحة ٧٠

(١١٦) المرجع رقم (١٠٢) بالإنكليزية ، ص ١٨٨ .

(١١٧) هذه العقوبة يفرضها الشرع الإسلامي على قاطع الطريق {جريمة الحرابة}

(١١٨) انظر : العلامة عبد الرحمن بن حسين المشهور " شمس الظهيرة " ، تحقيق محمد ضياء شهاب، ص ٤٩ - ٥٠ .

(١١٩) قبل ٢٠٠٠ عام من الآن شارك سكان إندونيسيا الغربية في شبكات التجارة العالمية في آسيا وطوروا سلسلة من تقاليد بناء السفن . وكان الصيد أساسا هو الذي يزود السكان بالبروتين اللازم وقد أدى الصيد إلى مهارة السكان في الملاحة . وفي القرن الأخير من الألفية الأولى وصلت شبكات تبادلات التجارة البرية الإندونيسية إلى الصين الجنوبية شرقا والخليج العربي غربا ومدغشقر في الخليج الهندي. ولغاية القرن ١٣ - ١٤ م كانت التجارة الإندونيسية تنقل في سفن مبنية من ألواح عريضة من الخشب مدروزة (مخيطة). وأما في القرن ١٥ - ١٦ م فقد توقف بناء مثل هذه السفن، وشرع ببناء سفن تسمى" { جنك - جنوك } "وهي كلمة أضحت تستعمل دوليا وخاصة في الصين. وكان بناء تلك السفن يتم في سواحل جاوا وجنوب كاليمنتان حيث يتوفر خشب الساج الفولاذي بكميات كبيرة. وكانت تلك السفن ضخمة جدا حتى بالنسبة لمثيلاتها الأوروبية آنذاك، حتى أنه عندما شاهدها البرتغاليون لأول مرة في أواخر القرن ١٥ م دهشوا من تفوق حمولة السفن الإندونيسية على حمولة سفنهم ، إذ كانت حمولة السفينة لملايوية ٣٥٠ - ٥٠٠ طن من البضاعات وعدة مئات من البحارة. وكانت أخشاب تلك السفن تجمع وتضم إلى بعضها بعضا بدون استعمال الفولاذ حيث حلت الخيوط الصوفية مكان الألياف التي كانت تستخدم لضم لوائح الخشب، كما تم تدسير {توتيد} الهيكل بالإطار الخشبي الثابت حول السفينة، وأيضا تمت إضافة طبقات خشبية إضافة فوق بعضها بعضا تمتينا للهيكل . وكانت دفــة السفينة تــدار بــزوج من الأخشاب الجانبية .

واختفت الجنوك في النصف الثاني من القرن ١٦ م بفعل تضافر عوامل سياسية واقتصادية. ففي بداية القرن ١٦ م احتفظت الدول المرفئية مثل جبارة وبانتن وجوهور وليغنا وإندراغيري وأرو بأساطيل متواضعة مصنوعة محليا و تدعى " لانشانغ كيلولوس " أو " بنجاجاب ". وكانت تلك السفن تستخدم للهجوم على القوى المنافسة لها. ومع ازدياد أهمية تلك الدول التجارية وتضاؤل التجارة البحرية البعيدة لإندونيسيا، فإن أساطيل تلك الدول اكتسبت قــدرة أكبر على القتال في البحر. وفي نهاية القرن ١٦ م صارت السفن قادرة على شن هجمات مذهلة في عرض البحر وتميزت أتشيه أكثر من غيرها في هذا المجال بسبب حجم أسطولها وقوته وقدرته على مهاجمة البرتغاليين . ففي النصف الثاني من القرن ١٦ م كان لدى أتشيه أسطول حربي

من ٣٠٠ مركب أغلبها متوسطة الحجم، و٥٠ منها كبيرة الحجم وتُدعى "غالي" وهي سفينة شراعية جديدة آنذاك مستوحاة من الأسطول العثماني و مبنيسة على طراز سفن البحر المتوسط لكي يتمكن من استعمال المدافع من على متنها. وقد بني أكبر من تلك السفن عام ١٦٢٠م للسلطان إسكندر مودا وكان اسمها " رعب الدنيا " تشاكرا دنيا طولها ١٠٠ م و طاقمها ٧٠٠ بحار وفيها ثلاث سوار. وقد استطاع البرتغاليون أسر تلك السفينة واقتيادها إلى غوا. وقد خدمت تلك الأساطيل السياسات التوسعية للسلاطين في أتشيه وبانتن في سعيهم لاحتكار البهارات ومن أنواع السفن الإندونيسية المستخدمة إضافة إلى الجنك نذكر: بالانغ - لانشانغ - كيلولوس - بنجاجاب - كورا كورا - أوريمباي. وهي سفن سريعة تستخدم للنقل والشحن والحروب أيضا داخل مياه إندونيسيا حيث تكثر الخلجان ويتغير اتجاه الريح باستمرار. {انظر موسوعة : " Indonesian Haritage " الجزء المعنون: Early Modern History الصفحات ٢٨ - ٢٩ منشورات " Archipelago Press " سينغافورة ١٩٩٦ م / ١٤١٧ هجري }.

(١٢٠) جزيرة " واق واق " التي نسجت حولها الحكايات والأساطير هي، برأي البعض مثل شيخ الربوة، جزيرة بورنيو أو كاليمنتان الإندونيسية. وكان العرب يسمونها الزابج أو جزيرة النارجيل. أما البيروني في كتابه " تحقيق ما للهند " فيحدد مكانها في قمير { أي سيام وخليج سيام } . في حين يقول الزهري عنها أنها أكبر جزر الصين الثمانية وسميت بالواق واق نسبة إلى شجر يحمل ثمرا كأنه النساء. ويشاركه الرأي في هذا القزويني الذي يضيف قوله أنها تتصل بجزيرة زابج ، وذلك في كتابه " آثار البلاد وأخبار العباد وعجائب المخلوقات". ويحدد شيخ الربوة موقع جزيرة " واق الواق " في كتابه " نخبة الدهر " بأنها داخلة في المحيط و خلف جبل أصطيفون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين. وأما بزرك بن شهريار الرام هرمزي ، فقد حدد موقعها في كتابه " عجائب الهند بره وبحره " بأنها بين سريرة والصين على بعد /٥٠/ زاما من سريرة . و سريرة هذه هي آخر جزيرة " لامري "، وبين سريرة وكلة مائة و عشرون زاما. وذكر ابن الوردي في كتابه " خريدة العجائب " أن جزيرة " واق الواق " كثيرة الذهب لحدّ العجب. وهناك من يقول كالدكتور فيصل السامر في كتابه " الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى" أن جزيرة " واق الواق " هي من مجموعة جزر " ديبا المهل " { الفيليبين } التي تضم أيضا جزيرة صبح أي سيبوه و هي عاصمة الفيلبين ، وجزيرة العلويـــة {أي كناوي} وجزيرة شلاهط { أي بلاوان }. - انظر : الدكتور عادل محيي الدين الألوسي، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ص ٢٥٢ ، وانظر الملاحظة رقم /٣٩/ في المقدمة .

(١٢١) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٢٦٠ .

(١٢٢) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٩٦ .

(١٢٣) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٣٤ .

(١٢٤) الزط : جالية هندية من المحاربين السود مكانهم الأصلي في بلوشيستان والبنجاب ، ومنها نزحوا إلى جزيرة العرب و شواطئ الخليج . {المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٣٣ } . وقد عكر الزط صفو الأمن في صدر الخلافة العباسية وانتهزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون واستولوا على طريق البصرة وعاثوا فساداً واستمروا يقاتلون العباسيين إلى أيام المعتصم الذي استطاع القضاء عليهم عام ٢١٩ هـــ .

(١٢٥) الأساورة : طائفة عسكرية (فرقة السواري) تقلدوا أعلى المراتب العسكرية في جيوش الفرس قبل الإسلام، وموطنهم الأصلي سواحل السند وسرنديب. وقد ذكر د . محمد طارق الكاتب في كتابه " شط العرب و شط البصرة و التاريخ " الصادر عن مصلحة الموانئ العراقية في البصرة

مجلة " الكويت " ، العدد ٢٠٥ – الصادر في شهر تشرين الثاني ٢٠٠٠ / شعبان ١٤٢١ هجري بقلم الباحث محمد الأسعد تحت عنوان " أباطرة الرياح الموسمية " تعليقا على كتاب الباحث البريطاني ريتشارد هول المعنون بـ" إمبراطوريات الرياح الموسمية: تاريخ المحيط الهندي وغزاته "، وبالإنكليزية:
" EMPIRE OF THE MONSOON: A HISTORY of the INDIAN OCEAN AND its INVADERS " المنشور في لندن في عام ١٩٩٦ .

(١٢٩) انظر : الكتاب المنسوب للثعالبي ، " تحفة الوزراء " ص ١١٧ .

(١٣٠) من القضاة الشواربيين المشهورين، قاض في سامراء أيام المعتز بالله والمهتدي بالله، ثم استقضي في بغداد مضافا إلى ما كان يتقلده، وتوفي في السنة التي جمع له فيها القضاء وهي سنة ٢٨٣ هـ . ذكره الخطيب في تاريخه والسمعاني في الأنساب وابن الجوزي في المنتظم. (انظر ابن الفوطي، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب" ، الجزء الرابع ، القسم الثالث ، ص ٥٤٣) .

(١٣١) على الطريق بين البصرة وبين خانقو (كانتون في الصين) توجد سبعة بحار هي : الخليج العربي – بحر لاروي – بحر هركند – بحر شلاهط – بحر كندرنج ، شمال شرق كلة في بلاد خمير (خليج سيام و كمبوديا حاليا) – بحر الصنف، نسبة إلى مدينة على ساحله وفيه جزيرة صنف فولاو أو صند فولات ، وهي أول بحر الصين وقبالته بلاد الصنف (الهند الصينية) – بحر صنجي أو صقجي، وهو بحر الصين وسابع البحار(انظر تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا) ، الصفحة ٨٣ .

(١٣٢) الخشبات البحرية أو النواظر هي ما يسمى في أيامنا هذه الفنارات البحرية ، وكان يوجد منها في العصر العباسي الوسيط أربع خشبات تحدث عنها المسعودي في " مروج الذهب " . وذكر ابن الوردي في كتابه " خريدة العجائب و فريدة الغرائب " إن حراس البحر كانوا يجلسون عليها و معهم زوارق ، وكانت مكوس التجارة تجبى عند عبادان على مقربة من هذه الخشبات ، وهي تبعد عن الأبلة مرحلتين ، وقد وصفها ابن حوقل في كتابه " صورة الأرض " بقوله " أربع خشبات قد بني عليها مركب يسكنه ناطور يوقد بالليل ليهتدي به و يعلم به المدخل إلى دجلة ".

(١٣٣) بوصي أو بوزي ، سفينة كبيرة يستخدمها الملاحون في الخليج ، وهي كلمة معربة من الفارسية بؤ – سي ، ذكرها طرفة بن العبد في معلقته في عصر الجاهلية مما يدل على أن العرب عرفوها قبل الإسلام .

(١٣٤) الدردور ، مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغيرة ولا تسلكه السفن الكبيرة ، والجبلان هما كسير و عوير ، ولا يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير .

(١٣٥) اسم رامني محرف من " لامنو " وهو اسم مكان يقع على بعد ٦٠ كم من كوتاراجا عاصمة مقاطعة أتشيه في جزيرة سومطرة الإندونيسية . (انظر " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، ص ٥٥٢) .

(١٣٦) انظر بالإنكليزية المرجع السابق رقم /٨٧/ ، الصفحة ٢٥ .

(١٣٧) هي مدينة كراتشي الحالية في باكستان .

(١٣٨) هي مدينة بومباي الحالية في الهند .

(١٣٩) اشتهر الحجاج بخطبته المعروفة التي ألقاها في مسجد الكوفة عندما عينه الأمويون واليا على العراق ، والتي مطلعها :

أنـــا ابنُ جـــلا و طلاّع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونـــي

" يا أهل الكوفة : إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني لانظر إلى الدماء بين العمائم و اللحى. وإني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشنان، ولا يُغمز جانبي

في عام ١٩٧١ م / ١٣٩١ هجري، في الصفحة ٥٣ منه أن الأساورة قد شقوا نهرا في البصرة يُـدعى نهر الأساورة . ونقل في كتابه هذا عن ياقوت الحموي ما يلي: " نهر الأساورة : وهو الذي عند دار فيل مولى زياد. قال الساجي: " كان سياه الأسواري على مقدمة يزدجرد ثم بعث به إلى الأحواز لمدد أهلها فنزل الكلتانية وأبو موسى الأشعري محاصر للسوس، فلما رأى ظهور الإسلام أرسل إلى أبي موسى إنا أحببنا الدخول في دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم وعلى أنه إن وقع بينكم اختلاف لا نقاتل بعضكم مع بعض، وعلى أنه إن قاتلنا العرب منعتمونا منهم واغتثتمونا عليهم، وان ننزل بحيث شئنا من البلدان و نكون فيمن شئنا منكم وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الأمير الذي بعثكم ، فكتب بذلك أبو موسى إلى عمر بن الخطاب (ﷺ) فأجابهم إلى ما التمسوا فخرجوا حتى لحقوا بالمسلمين و شهدوا مع أبي موسى حصار تستر ثم فرض لهم في شرف العطاء، فلما ساروا إلى البصرة و سألوا أي الأحياء أقرب نسبا إلى رسول الله (ﷺ) فقيل بنو تميم فحالفوهم ثم خططت خططهم فنزلوا و حفروا نهرهم المعروف بنهر الأساورة ويقال أن عبد الله بن عامر حفره و أقطعهم فنسب إليهم.

(١٢٦) السيابجة: أقوام مالقية من سومطرة هاجروا إلى الهند واستوطنوا السند وسواحل الهند، ومنها نزحوا إلى العراق والخليج العربي حيث ظهروا قبل الإسلام وقد استخدمهم الساسانيون لحماية السفن من غارات القراصنة، وبعضهم جند في الجيش الفارسي وانضموا إلى الأساورة. وبعد الفتح الإسلامي انضموا إلى بني حنظلة أكبر قبيلة في تميم، وانتقل بعضهم إلى البصرة من الكوفة وهناك التحقوا بجيش الإمام علي الذي كان يضم فرقتين من الزط والسيابجة. وكلمة السيابجة تنسب إلى سبيج ، وهي لغة زابيج ، في جاوة و ما يجاورها.

وأما البياسرة فهم جمع بيسر، ويراد بهم من ولدوا من المسلمين بأرض الهند، أي أن هذه التسمية كان قد أطلقها العرب على المولودين من زواج العرب بالهنود كمسلمي كنكن في بومباي، وطائفة " مابلا " في مالابار، وكانوا في الغالب يرحلون إلى بلاد العرب ويتوظفون في السفن ويتولون حراستها، ويمتد موطنهم من سواحل السند إلى حدود بومباي. { انظر المرجع السابق نفسه، الصفحة ١٣٤ } .

(١٢٧) من سفن الخليج العربي " البيضاء " وهي مراكب كبيرة ترسو عند سيراف ويصعد إلى سطحها بالسلالم لارتفاعها نحو عشرة أقدام عن سطح الماء يتسع المركب لبضعة مئات من الرجال ولمخزون من الحبوب يكفي مؤونة سنة وتدهن عادة باللون الأبيض وبه عرفت. ذكر ابن الوردي نوعا من المراكب تنحت من خشبة واحدة قطعة واحدة وتتسع لـ ١٥٠ رجلا أسماها " السقيات " وكانت تعود لصاحب جزيرة قيس في الخليج العربي، وعلى غرارها " النقيرة " وهي سفينة تنحت من سوق الشجر. وفي جزيرة الملايو خشب من نوع الساج يغلظ ويطول ويعملون منه مراكب قطعة واحدة. {المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٢٠ } .

(١٢٨) المرجع السابق نفسه، الصفحة ١٠٥. ومن المعلوم أن الرياح الموسمية ومواعيد هبوبها المواتية التي تندفع صيفا، منذ منتصف أغسطس باتجاه جنوبي القارة الأسيوية ، دافعة معها أشرعة السفن هي اللغز الذي لم يكن قد اكتشفه بحارة البرتغال الأوائل في محاولة الدوران حول أفريقيا للوصول إلى الهند . كانت إسبانيا قد وصلت إلى العالم الجديد. أما البرتغال فقد اتجهت شرقا وبدأت تجربة الإبحار التي استمرت ما يقارب الخمسين عاما ورافقها تجميع المعلومات والتقنيات اللازمة. وكان العديد من السفن يتحطم ما أن يصل إلى نقطة الدوران حول أفريقيا أو ما كان يُسمى آنذاك " رأس العواصف". فبعد أن ترتد الرياح الموسمية منعكسة هذه المرة غربا ونحو الجنوب الغربي، كانت محاولات الإبحار عكس الريح انتحارا. وقد جاء في كتابات "النواخذة { البحار} العربي الشهير ابن ماجد وصف لتحطم السفن الغربية على سواحل أفريقيا الشرقية . لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع الشيق يمكن مراجعة المقال المنشور في

من منطقة الخليج و جنوب الجزيرة العربية. ومهما كان الأمر، فإن الصينيين كانوا على علم بما يجرى في ديار العرب و ظهور الإسلام وانتشاره إلى البلاد المجاورة مثل الشام ومصر وإيران . ففي كتاب " تانغ " القديم { نسبة إلى أسرة تانغ التي حكمت الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧ م } ورد ما يلي : " إن بلاد تاشي في غرب إيران منهم بنو قريش، والسيادة في أيديهم ، فتفرع من قريش بطنان: بنو هاشم وبنو أمية . ومن بني هاشم محمد رسول الله (ﷺ). كان شجاعا ذا علم واسع فانتخب ملكا عليهم. وقد قاتل من خالفه حتى غلب عليهم وسلط على يثرب ". وفي كتاب " تانغ " الجديد ورد ما يلي: " إن بلاد العرب شاملةً الأرض التي كان قسم منها تحت حكم الإيرانيين ، ولرجالها أنوف شامخة ولحى سوداء يحملون السيوف بربابط الفضة، لايشربون الخمر ولا يعرفون موسيقى. ونساؤهم بيضاوات يتعففن حينما يخرجن من البيوت. وفي بلاد العرب معبد عظيم فيه يخطب ملكهم مرة في الأسبوع قائلا: " إن الذين يقاتلون في سبيل الله و قتلوا على أيدي الأعداء يرفعون إلى الجنة ، ومن غلب أعداءه يكون سعيدا. فلذا أهل العرب كلهم محاربون مقاتلون شجعان ، ويصلون خمس مرات كل يوم . وأما ارض بلادهم فكثيرة الحجارة غير ملائمة للزراعة، والسكان يشتغلون بالصيد والقنص والرعي ويعيشون على اللحوم والألبان، وعندهم جواد يقطع ٤٠٠ ميل في يوم واحد " .(انظر: بدر الدين حي الصيني ، " العلاقة بين العرب و الصين " ، ص ١٨١)

(١٥٣) هي جزيرة " بورنيو " أو كاليمنتان الإندونيسية حاليا .

(١٥٤) هي جزيرة سولاويسي الإندونيسية حاليا في بعض المراجع العربية ، غير أن الباحث بالوش Baloch يشير في الصفحة /٤/ من كتابه المعنون بالإنكليزية بـ: The Advent of Islam in Indonesia المطبوع في إسلام آباد ١٩٨٠ ، إلى أن جزيرة " سيلا " هي كوريا الحالية ، وإلى أن جزيرة الصنف هي : Chamba أو Annam

(١٥٥) انظر علوي بن طاهر الحداد "المدخل في تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٢٩٢.

(١٥٦) جزيرة سيبوه أو صبح هي عاصمة الفيلبين الآن " مانيلا " { المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٧}.

(١٥٧) لقب " راج " يطلق على الملك ، وقد يطلق على الأمراء و حكام البلدان . واسم " جرمين " يوجد في إندونيسيا في عدة مواقع .(انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٢٤١) .

(١٥٨) " خمير " أو قمار هو الاسم القديم لكمبوديا الواقعة غربي " كوجين جينا " في الهند الصينية ، أي سيام أو خليج سيام .

(١٥٩) المسك إنتاج حيواني يؤخذ من حيوان يعرف بغزالة المسك، ويكون في حد التيبت ورعيه من سنبل الطيب، وصفه الرحالة السيرافي في كتابه قائلا: "وأجود أنواع المسك ما حكه الظبي على أحجار الجبال إذ كان مادة تصير في سرته ويجتمع دما عبيطا كاجتماع الدم فيما يعرف من الدمال، فإذا أدرك حكه وأضجره يفزع إلى الحجارة حتى يخرقه فيسيل ما فيه فإذا خرج جف واندمل وعادت المادة تجتمع فيه وهكذا . والمسك لا يصير مسكا إلا بعد أن يجف". {انظر: د. عادل محيي الدين الألوسي " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا "، ص ٢١٨}.

(١٦٠) القراني هو كاتب الحسابات على المركب .(المرجع السابق نفسه ، ص ٢٦٠ }

(١٦١) انظر " العلاقات بين العرب و الصين " ، ص ٢٤٠ .

(١٦٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٨ .

(١٦٣) المرجع السابق نفسه ، الصفحات ١٤٨ – ١٥٨ .

(١٦٤) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٤٨ .

(١٦٥) المرجع السابق /٨٧/ بالإنكليزية ، الصفحة ٣٨ .

(١٦٦) انظر: الطبري، " تاريخ الأمم والملوك " ، الجزء الثالث ، ص ٣٥ حيث ورد أن القائد

كمغماز التين. ولقد فرزت عن ذكاء وتشنت عن تجربة، وان أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرّها عودا وأصلبها مكسرا ، فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السلمة و ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله ، ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا مضيت، ولا أخلق إلا فريت، وان أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه". (انظر كتاب درر وتحف من تراث السلف"، الجزء الثاني [منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٨٦]، الصفحة ٦١، إعداد محمد علي السراج) .

(١٤٠) هو ميناء كويلون حاليا أو كالكوتا في ولاية مدراس .

(١٤١) هو ميناء كانجيورام يقع قرب جزيرة سيلان في بحر الهند عند مضيق بالك بين رأس كمرون و سيلان .

(١٤٢) يعترض مضيق بالك الواقع بين رأس الهند الجنوبي وسيلان عدة جزر صغيرة منتظمة كالسلسلة يطلق عليها قنطرة آدم، ذلك لأن الأقدمين من سكان المنطقة تصوروا أن آدم عبر عليها. ولوجود هذه الجزر تتجنب السفن الكبيرة المرور عبر هذا المضيق، ولذلك تسلك طريق جنوب سيلان .

(١٤٣) ربما المقصود هنا هو ميناء كانجيورام قرب سيلان في بحر الهند { انظر " تجارة العراق البحرية مع ندونيسيا " الصفحة ٢٥٦ } .

(١٤٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٥٦ .

(١٤٥) الجمنتي، نوع من البحارة يفرغ السفينة من الماء المتجمع في قاعها عند هبوب العواصف . {المرجع السابق نفسه ، ص ٢٦٠ } .

(١٤٦) البهنداوي هو متولي التموين على المركب، والقراني هو كاتب الحسابات على المركب، والتنديل هو رئيس البحارة . { المرجع السابق نفسه ، ص ٢٦٠} .

(١٤٧) تقع بين بحر شلاهيط و بحر هركند .

(١٤٨) من بلاد الملايو، وتعرف باسم ملقا، يختلف بشأنها المؤرخون، فالبعض يعتبرها في ماليزيا الحالية ، وآخرون يرون أنها تقع في تايلاند الحالية .

(١٤٩) سمدرة، تسمية قديمة لسومطرة ومعناه البحر باللغة السنسكرتية، وقيل هي قرية أو ميناء في الشاطئ الشمالي الشرقي لسومطرة مساحته ستة ميل شمال غرب بيرلاق.

(١٥٠) هو مايطلق عليه الآن اسم " المرساة " ، وكان المخطاف يصنع من الحجارة أو من الرصاص .

(١٥١) ذكر د. عادل محيي الدين الآلوسي في كتابه الهام " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " في ص ١٥٨، أن أول مملكة إسلامية في إندونيسيا بل في جنوب شرقي آسيا هي مملكة بيرلاك التي قامت سنة ٢٢٦ هجرية/٨٤٠ م، وسلطانها الأول هو علاء الدين سيد مولانا عبد العزيز شاه .

(١٥٢) كلمة " تاشي " اسم كان يطلقه الصينيون على التجار المسلمين سواء أكانوا عربا أم فرسا أم أتراكاً. والكلمة مأخوذة عن الفارسية البهلوية القديمة التي تعني كل من اعتنق الإسلام دينا . ولما كانت علاقات الساسانيين مع الصين أقدم من علاقات العرب معها، وباعتبار أن أسطول الساسانيين زمن كسرى أنو شروان قد هيمن على الملاحة البحرية في الخليج والمحيط الهندي قبيل ظهور النفوذ البحري الإسلامي، فإن أهل الصين أطلقوا تسمية " تاشي " على كل القادمين

(١٨٠) انظر " الإمام المهاجر " ، الصفحة ٢٧ .
(١٨١) مجلة " الثقافة " السورية الشهرية – العدد الصادر في شباط /فبراير ٢٠٠٠
(١٨٢) انظر : محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح " الإمام المهاجر " ، ص ٢٧ .
(١٨٣) انظر " تحفة الوزراء " المنسوب للثعالبي ، الصفحة ٤٤ .
(١٨٤) انظر " مآثر الانافة في معالم الخلافة " للقلقشندي، الصفحة ٩٠ .
(١٨٥) بعد مقتل أبي مسلم الخراساني خرج شخص في خراسان يدعى السندباد عن طاعة الخليفة. وكان أتباع السندباد خليطاً من المسلمين والمزدكيين والخوارج والزرداشتيين جمع بينهم إيمانهم المشترك بعقيدة " المهدي المنتظر" (عند الزرداشتيين هناك قناعة بعودة المسيح المنتظر الذي سيظهر في مدينة النحاس وسيكون اسمه " فاهرام فارجافند") . ولقد لقي السندباد حتفه على يد حاكم طبرستان. ثم تمرّد شخص آخر يدعى إسحاق التركي في آسيا الوسطى فقتل، وبعده حدثت ثورة في مدينة " بادغيز " شمال شرق مدينة هرات { في أفغانستان} بقيادة شخص زرداشتي يدعى بيهافريد فلقي حتفه أيضا ، وبعد ذلك قامت ثورة يوسف إبراهيم البرم في سجستان، وكان مصيرها كسابقاتها . ثم نشبت ثورة المقنع الذي ادعى النبوة في خراسان ودعا إلى الإيمان تناسخ الأرواح معلنا أنه روح أبي مسلم الخراساني و أنبياء سابقين. بدأ ثورته في مرو ثم في نقشاب وكيشن واعتمد اللون الأبيض نكاية باللون العباسي الأسود. وانتحر في عام ١٦٦ هجري /٧٨٣ م. وتلا المقنع ثورة بابك الخرمي الذي قتل في سمارة بالعراق، وثورة الشيباني { انظر بالإنكليزية المرجع رقم /٨٧/ ، الصفحة ١٣٠}. وأما قصة قتل المنصور أبا مسلم الخراساني فهي أنه لما همّ المنصور بقتل أبي مسلم تأرجح بين الاستبداد برأيه و المشاورة فيه . فأرق في ذلك ليلة . فلما أصبح دعا أبا إسحاق العقيلي وكان من آثر، أصحابه و مستشاريه – رغم كونه سابقا على رأس جيش أموي بسمياط، فقال له: "حدثني حديث الملك الذي أخبرتني عنه في حران، فحدثه العقيلي قصة ملك من ملوك الفرس وردت في كتاب ابن المقفع { كليلة ودمنة } فهم منها المنصور انه ينصحه بقتل أبي مسلم. فكان ماكان من قتله. وكان المنصور قد استشار عيسى بن موسى ابن أبي السفاح في شأن أبي مسلم الخراساني فأشار اليه بالتثبت والتوقف في بيت شعر مشهور هو :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر فإن فساد الرأي أن تتعجلا

فأجابه المعتصم ببيت شعر محرف قال فيه :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

{ انظر : الكتاب المنسوب للثعالبي " تحفة الوزراء " ، ص ١٠٩ } .
(١٨٦) المرجع السابق رقم /١٠٢/ بالإنكليزية ، الصفحة ١٩٨ .
(١٨٧) انظر : صالح الحامد " تاريخ حضرموت "، منشورات مكتبة الإرشاد في جدة ١٩٦٨ م/ ١٣٨٨ هجري ، الجزء الأول ، ص ٢٥٤ .
(١٨٨) انظر " الإمام المهاجر " ، ص ١٢ .
(١٨٩) انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " ص من ٦٣٤ إلى ٦٦٢
(١٩٠) انظر : محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ص ١٩ .
(١٩١) المرجع السابق، ص ٣٠٣ .
(١٩٢) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، ص ٩١ .
(١٩٣) ديوان الزمام هو رأس الدواوين في الخلافة {انظر : ابن الفوطي، " تخصيص الاداب في معجم الألقاب "، الجزء الرابع ، القسم الأول ، ص ٥٠}
(١٩٤) المرجع السابق /١٦١/ ، مجلة " الثقافة السورية " الصفحة ٢٣ .

الساساني رستم كان معه ٣٣ فيلا في معركة القادسية ، ومن بين هذه الفيلة سابور الأبيض الذي تألفه الفيلة كلها لأنه أكبرها حجما .

(١٦٧) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٢٤٦ .

(١٦٨) المرجع السابق /٨٧/ بالإنكليزية ، ص ١٥ ، حيث ورد أن الملك الساساني سابور الثاني (٣٠٩ – ٣٧٩ م) قد أنشأ خندقا كبيرا على حدود العراق لمنع الغزوات التي كان يقوم بها أعداؤه البيزنطيون والعرب البدو القادمون من البادية، ويعرف هذا الخندق باسم خندق سابور .

(١٦٩) المقصود هنا هو موقعة الخندق .

(١٧٠) انظر : بدر الدين حي الصيني ، " العلاقات بين العرب والصين ، ص ٢٨ .

(١٧١) لما مات الخليفة الأموي الوليد و تقلد الخلافة مكانه سليمان بن عبد الملك قام هذا الأخير بعزل قتيبة عن الولاية في خراسان ، وولى وكيعا عليها بدلا من قتيبة، فأحدث هذا قتالا هائلا بين الجماعتين حتى جرح قتيبة في المعركة و قتل فيها ومعه أحد عشر ذكرا من أهل بيته. وأما هبيرة بن مشمرج الذي أوفده قتيبة إلى الوليد لإخباره بما حصل بينه وبين إمبراطور الصين فقد لقي حتفه في طريقه إلى دمشق ودفن في قرية بفارس . وهكذا توقفت الفتوحات العربية ، (انظر المرجع السابق /٨٧/ بالإنكليزية ، ص ٨٢) .

(١٧٢) الحقيقة هي أن الفرسان الذين أرسلهم قتيبة مثلوا في حضرة الإمبراطور ثلاث مرات كانوا خلالها يلبسون في كل يوم ملابس تختلف عن اليوم السابق. فقد لبسوا في المرة الأولى ثيابا بيضاء تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والأردية. وفي المرة الثانية لبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف. وفي المرة الثالثة شدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا. فتعجب إمبراطور الصين من مظاهرهم وسأل هبيرة عن حقيقة التنوع في اللباس فقال : " زينا اليوم الأول لباسنا في أهلنا، في اليوم الثاني لباسنا أمام أمرائنا ، وفي اليوم الثالث زينا أمام عدونا. فقال الإمبراطور: "ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فقولوا لقائدكم: لينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم. قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيوله في بلادك واخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل ، فإن لنا آجالا، إذا حضرت فأكرمُها القتل، ولسنا نكرهه ولا نخافه. وقد حلف قائدنا إلا ينصرف حتى يطأ أرضكم و يختم ملوككم وتعطوا الجزية. عندها قال الإمبراطور : إنا نخرجه من يمينه ونبعث إليه تراب أرضنا فيطؤه، وبعض أبنائنا فيختمهم وجزية يرضاها . فبعث إلى قتيبة بهدية وأربعة غلمان من أبناء الملوك وحملهم بالهدايا النفيسة. ولما وصل الوفد إلى معسكر قتيبة رضي بما أهداه إليه الإمبراطور و لم يتابع الفتوحات، خاصة وأن خبرا وصله آنذاك عن وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك المقرب منه و بيعة سليمان بن عبد الملك خليفة مكانه ، وكانت بين سليمان و قتيبة عداوة شديدة سببها أن الوليد بن عبد الملك كان قد استشار الحجاج بن يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي في عزل سليمان من ولاية العهد وجعل ابنه عبد العزيز مكانه، فأجاباه إلى ذلك.(انظر : بدر الدين حي الصيني، "العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٩(١٧٣) – المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٨ .

(١٧٤) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٨٦ .

(١٧٥) جوجؤ السفينة هو صدرها أو مقدمتها و هو ينسب إلى طير بهذا الاسم .

(١٧٦) دبوسة المركب ، مقدمتها .

(١٧٧) هو المحيط الهادئ أو الباسيفيكي .

(١٧٨) انظر : د عادل محيي الدين الالوسي ، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، ص ٢٣٥ .

(١٧٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٣٥ ، نقلا عن كتاب " الجماهر في معرفة الجواهر " للبيروني .

النبوية في اجتهادهم ، وإنما إلى فلسفات قديمة قبل الإسلام صبُّوها في قالب إسلامي وزعموا مما توصلوا إليه أنهم يريدون إنعاش المجتمع بتلك الآراء والتصرفات .
وقد تتبع المؤرخ ثابت بن سنان ابن قرة الصابئ أخبار القرامطة وكتب عنهم كتابا سماه " تاريخ أخبار القرامطة " وقد عاصر أحداثهم و توفي سنة خمس وستين وثلاثمائـــة هجرية، فذكر عن مذهبهم أنهم جاؤوا بكتاب فيه : " إن المسيح تصور له في جسم إنسان وقال له: " أنت الداعية وإنك الحجة، وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك روح القدس" وأخبره أن الصلاة أربع ركعات، ركعتان قبل الشروق و ركعتان بعد الغروب، ويقيم الأذان في كل صلاة ، يكبر الله ثلاثا : أشهد أن لا اله إلا الله (مرتين)، اشهد أن آدم رسول الله، وأشهد أن إبراهيم رسول الله، وأشهد أن موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله و وأشهد أن أحمد بن محمد الحنفية رسول الله ، ويقرأ في كل ركعة الاستفتاح المنزل على أحمد بن الحنفية ، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة " الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي، اتقوني يا أولي الألباب وأنا الذي لا أسأل عما أفعل، وأنا الحليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختياري ألقيته في جنتي وأخلدته في نعمتي. ومن زال عن أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعل عليّ جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا ذللته .{ مجلة الثقافة السورية، المرجع سبق ذكره }.

(١٩٥) المرجع السابق نفسه .

(١٩٦) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٢٩٠، حيث ورد أن علي بن الفضل أمر المؤذن في مجلسه أن يؤذن بأن " أشهد أن علي بن الفضل رسول الله ، كما أنشد على جامع صنعاء و الجند قصيدته المشهورة :

خـــذي الدف يا هذه واضربـــي ... وغنـــي هـــذا ذيـــك ثـــم اطربـــي

تولـــى نبـــي بنـــي هاشـــم ... وهـــذا نبـــي بنـــي يعـــرب

لكـــل نبـــي مضـــى شـــرعة ... وهـــا تـــا شـــريعة هـــذا النبـــي

فقـــد حـــط عـــنا فـــروض الصلاة ... وفـــرض الصـــيام فلـــم نتعـــب

إذا الـــناس صـــلوا فـــلا تنهضـــي ... وان صـــوموا فكلـــي واشـــربي

ولا تطلبـــي الســـعي عـــند الصـــفا ... ولا زورة القـــبر فـــي يـــثرب

ولا تمنعـــي نفســـك المعرســـين ... مـــن الأقربيـــن أو الأجنبيـــي

بمـــاذا حللـــت لهـــذا الغريـــب ... وصـــرت محـــرمة لـــلأب

ألـــيس الغـــراس لمـــن ربـــه ... وأســـقاه فـــي الزمـــن المجـــدب

ومـــا الخمـــر إلا كمـــاء الســـماء ... يحـــل فقـــدســـت مـــن مذهـــب

(١٩٧) محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٨ .

(١٩٨) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " ، ص ٢٩٠ .

(١٩٩) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، ص ٩٣ .

(٢٠٠) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " ، ص ٢٨٠ .

(٢٠١) " القهرمانة " هو منصب يعادل وزيرة شؤون جناح الحريم في القصر الملكي .

(٢٠٢) محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٤٣ .

(٢٠٣) انظر الكتاب المنسوب للثعالبي ، " تحفة الوزراء " ، ص٥٤ .

(٢٠٤) القلقشندي، " مآثر الانافة في معالم الخلافة " ، ص ٩٤ .

(٢٠٥) ذكر جرجي زيدان في كتابه " تاريخ التمدن الإسلامي"، الجزء الثاني، الصفحة ٦٥١ معلومات مفصلة عن مسألة المتعة والتسري بالجواري في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. وذكر أنه كان للخليفة المتوكل ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعا، وعلم الأمراء برغبته فيهن فتقربوا إليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة .

(٢٠٦) انظر الكتاب المنسوب للثعالبي " تحفة الوزراء ". ص ١٢٤ .

(٢٠٧) صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٢٨١ .

(٢٠٨) الغلمان الحجرية، نسبة إلى الحجرة لاختصاصهم بالخدمة في حجرات الخلفاء في القصور .

(٢٠٩) القلقشندي " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الأول ، ص ١١١

(٢١٠) انظر موسوعة " تراث الإنسانية " المجلد الخامس ، ص ١٠٢ .

(٢١١) انظر : الكتاب المنسوب للثعالبي ، " تحفة الوزراء " ، ص ٥٤ .

(٢١٢) قال ابن كثير : وفي رمضان سنة إحدى عشرة وثلاثمائة .. أُحرق بالنار على باب العامة – في بغداد – مائتان وأربعة أعدال من كتب الزنادقة ، منها ما كان صنفه الحلاج وغيره، فسقط منها ذهب كثير محلاة بها. وادعى القرامطة أن لكل شيء باطنا وظاهرا، وأنهم يؤمنون بالمهدي المنتظر الذي يخلصهم من الظلم والفقر والفساد ، ولذلك ترى عشرات الأشخاص ممن يرومون السيادة والحكم يدّعون هذا الاسم وينتمون إلى آل البيت النبوي كذبا وزورا، كما يدعي القرامطة بتناسخ الأرواح وهي من عقائد الهنود ، وهذا يعني أن القرامطة لا يرجعون إلى السنة

الباب الثاني

في حضرموت

الهجرة إلى الرمال المتحركة

[من المركز السياسي للخلافة
إلى الأطراف الدينية ـ السياسية]

في عام ٣١٠ هجري حزنت أوساط العلم والفقه والأدب كثيرا لوفاة قطبين كبيرين في آن واحد، هما ابن جرير الطبري المفسر والمؤرخ الكبير والطبيب أبي بكر الرازي. وقد شيعت بغداد الرازي إلى مثواه الأخير في مقبرة الوردية في جنازة ضخمة لم يغب عنها أحد، في حين حمل الحنابلة على الطبري لمخالفته إياهم في آرائهم وأحاديثهم، ومنعوا أهله من تشييعه في النهار ولم يتدخل الخليفة، وهذا الأمر اضطرهم إلى دفنه ليلا خوفا من العامة الهوجاء، ولكن خلقا كثيرا من أهل العلم والأدب اجتمعوا على جنازته متحدين خصوم الطبري الذي كان قد أثار الأقدام بين صفوف العلماء عندما ألف كتابين هما: " فضائل أبي بكر وعمر في الرد على الروافض " و" فضائل علي بن أبي طالب في الرد على النواصب " واضعا نفسه فوق السياسة لصالح الإسلام والمسلمين ووحدة صفوفهم. ونظرا للعلاقة القوية التي تربط الطبري بالإمام أحمد، فقد أقام هذا الأخير مجلس عزاء في البصرة على روحه متحديا كل نقد بجرأة[1] في جو صعب ساد مدينة البصرة. ففي ذلك العام ولي البصرة سبك المفلحي فتحرك القرامطة[2] مجددا وهجموا على المدينة حاملين سلالم عريضة يصعد على كل مرقاة منها اثنان من الجنود، وتسوروا الجدران والأسوار وكسروا الأقفال. وكان أول ما عملوه أن وضعوا الرمل في الأبواب لمنع الناس من إغلاقها. ونشب قتال عنيف بين القرامطة من جهة وأمير البصرة والناس من جهة ثانية. وعند المساء كان الوالي سبك المفلحي قد قتل فأعمل القرامطة السيف بأهل البصرة وخربوا مسجد طلحة وأحرقوا المربد، ثم رحلوا عند الصباح باتجاه الإحساء تمويها وخداعا لجيش الخليفة. وبعد مقتل الوالي ولى المقتدر بالله محمد بن عبد الله الفاروقي على البصرة سنة ٣١١ هجرية فهجم أبو طاهر القرامطي مجددا على المدينة ونهبها ثم فعل الشيء نفسه في الكوفة فهاج الناس في المدينتين وهربوا منها إلى بغداد حيث رووا للخليفة ما فعله القرامطة بهم وبالمدينتين، فأمر الخليفة بمنع القرامطة من مسابلة العراق والبصرة وبأن تتأهب كل بلدة لحربهم، وولى على البصرة واليا جديدا معروفا بقسوته وشدته

يدعى ابن رائق. وهاجم ابن رائق القرامطة وأذاقهم الأمرين فانسحبوا مجددا إلى الإحساء معلنين أنه إذا لم يفسح لهم بمسايلة العراق فإنهم سيمنعون الحجاج عن الحج ويقتلون من يظفرون به[٣].

وهكذا عانت البصرة من الويلات ما تضيق منه النفوس والصدور، فلا تهدأ برهة حتى تضطرب. وكم رأى الإمام أحمد بن عيسى من فظائع تحل بمدينته وأهلها منذ أن شب إلى أن غزا الشيب مفرقه.

لم يول الخليفة أي اهتمام لإنذارات القرامطة بل اطمأن إلى انسحابهم إلى الإحساء بعيدا عن العراق فأصدر أوامره بعزل وزيريه الجراح وحامد مستبدلا إياهما بالأديب علي بن الفرات، وكان المقتدر بالله استشار حاجبه نصراً في تولية أحد ثلاثة أشخاص وأحدهم الفضل بن جعفر بن الفرات، فلم يوافق الحاجب[٤] على توليته مبررا رفضه للخليفة بأن الفضل موال لعلي بن أبي طالب (ﷺ)، لا للخلافة العباسية. ونزل المقتدر بالله عند رأي حاجبه نصر بشأن الفضل بن جعفر، ولكنه رأى الفكرة ملائمة جدا للتخلص لاحقا من نفوذ آل الفرات بتهمة عدم الإخلاص للخلافة، فاختار وجيههم أبو الحسن بن الفرات وزيرا وخلع عليه العباءة السوداء وأمر بصرف ٢٤٠ ألف دينار ذهبي للجند العائدين من الأنبار لكي يضمن ولاءهم.

وكان أبو الحسن بن الفرات قد أوصل إلى ديوان الخليفة قبل ذلك تلميذا له يدعى أبا علي بن محمد بن علي بن مقلة فأثرى هذا في منصبه وأنكر الجميل لمعلمه وصار يغمز من قناته ويشهد بضحالة كفاءته، فاستدعاه الخليفة وطلب منه الكف عن مهاجمة معلمه والتقرب منه مجددا والتجسس عليه وإيصال أخباره للخليفة .

وصلت تلك الأخبار المزرية إلى البصرة فقررت نقابة آل البيت فيها البدء بالهجرة من البصرة إلى الحجاز ومنها إلى اليمن، وودع الإمام أحمد بن عيسى أبناء عمه محمد بن يحيى وأحمد بن عبد الله ومحمد بن جعفر وأهاليهم قبيل توجههم إلى الحجاز في قافلة كبيرة واتفق معهم أن يرسلوا إليه بالأخبار حال وصولهم. وبعد ستة أشهر وصلت الأخبار إلى الإمام احمد في البصرة أن أبناء عمومته وأهلهم قد تعرضوا لهجوم دموي عند حدود اليمن قضى عليهم جميعا، فوقع هذا الخبر موقع الصاعقة على رؤوس الإمام وأهل الطالبيين في البصرة فأقيمت مجالس العزاء مجددا فتوافد عليها من بقي من الناس في البصرة للتعزية وتقديم السلوى لذوي القتلى من أهل البيت لما لهم من جليل الفضائل والمناقب، ولأنهم رفضوا الخروج من البصرة وترك أهلها لحالهم في أحلى اللحظات .

في تلك الأثناء كان ابن مقلة جاسوس الخليفة لا يكف عن الهمس في أذن المقتدر بالله بحق وزيره أبي الحسن بن الفرات ويوغر صدره ضده . وجاء يوم نقل

فيه ابن مقلة للخليفة جملة ادعى أن وزيره قالها في مجلسه وهي أنه " ما أراد الوزارة إلا لصديق ينفعه أو لعدو يقمعه"[٥]. وأضاف النصر أن الوزير يقصد بالصديق القرامطة وبالعدو آل العباس، وكان الخليفة ينتظر الفرصة السانحة للتخلص من نفوذ آل الفرات فعمد إلى قتل وزيره سنة ٣١٢ هجرية وأمر بإلقاء جثته في دجلة والإشاعة بين الناس أن وزيره كان موالياً للقرامطة. وعين بدلا عنه محمد بن علي بن الحسين ابن مقلة وخلع عليه عباءة الوزارة السوداء. وإزاء ما حدث، عبر الناس عن استيائهم فخرجوا رجالا ونساء في بغداد يصفون أبا الحسن بن الفرات بالشهيد والقرمطي الكبير نكاية بالخليفة، ثم اقتحموا الجوامع وحطموا منابرها وسودوا محاريبها وذلك بعد صلاة الجمعة سنة ٣١٢ هجرية.

واستفاد غلاة المتعصبين من أنصار المعتزلة وخصومهم الأشاعرة من الفوضى السائدة فأخذوا يهاجمون بعضهم بعضاً ويتعرضون للمساجد والزوايا والروابط[٦]. فخاف المقتدر بالله من ثورة الناس عليه وحاول تهدئتهم بأن خلع وزيره الجديد وعيّن بدلا عنه أبا العباس الحصيبي، ثم أمر بصرف العطايا للجند وبنشر ثلاثين ألفا من الحراس يلازمون قصر الخلافة وما حوله، وجعل مرتباتهم دنانير ذهبية. وأما الهائجون من الناس في بغداد فقد اختاروا الرحيل عنها والانضمام إلى جيش القرامطة في البصرة انتقاماً من الخليفة وحزناً على ابن الفرات. وفي حركة يائسة أخيرة لتهدئة الناس، أمر المقتدر بالله بتوسيع الحرم الشريف في مكة المكرمة .

وازداد الحمل الثقيل على الإمام أحمد بن عيسى وعلى أهله من جراء تحول البصرة إلى أرض للمعارك وتدهور التجارة وغياب الأمن عن المدينة. ولم تعد الحال تستميله للبقاء فاستشار أفراد أسرته وأقاربه بمغادرة العراق، وقرر على أثر ذلك التوجه إلى الشام ومنها إلى الحجاز بدلا من السير مباشرة إلى الحجاز عبر درب زبيدة[٧] بسبب انعدام الأمن فيه. وفي سنة ٣١٧ هجرية غادرت قافلة الإمام المدينة وفي صفوفها سبعون شخصا من بينهم الإمام أحمد بن عيسى وزوجته زينب بنت عبد الله بن الحسن بن علي العريضي، وابنه عبد الله وزوجته أم البنين بنت محمد بن عيسى بن محمد، وأحفاده إسماعيل الملقب بـ "بصري" وعلوي وجديد، وابنا عمه عمر بن محمد[٨] وقديمي[٩] ومخدوم الإمام جعفر بن مخدم. وكان في القافلة أيضا أصحاب ورفقاء مثل جعفر بن عبد الله الأزدي ومختار بن عبد الله بن يعد وشويه بن فرج الأصبهاني[١٠]. وبقي في البصرة أولاد الإمام الثلاثة محمد والحسن وعلي وإخوه محمد ومعظم أفراد الأسرة .

وبعد رحلة شاقة عبرت خلالها القافلة العراق ثم الشام ثم الحجاز، وصل الموكب إلى المدينة المنورة في بداية شهر ذي الحجة من عام ٣١٧ هجري فاستراح المسافرون وعقدوا النية على أداء شعائر الحج بعد أيام.

وبينما هم يجهزون لوازم الحج إذا برسول قادم من مكة يدخل مسجد الرسول (ﷺ) ويصرخ قائلاً: إن أبا طاهر القرمطي قد هاجم مكة يوم التروية وقتل الكثير من الحجاج وقلع باب الكعبة وانتزع الحجر الأسود من مكانه ثم انسحب إلى هجر في الأحساء مع قواته[١١] ولم يتمالك الناس أنفسهم من التعبير عن سخطهم الشديد على ارتكاب القرامطة لآثامهم في شهر الحج الحرام وقتلهم للحجاج في بيت الله وانتزاعهم للحجر الأسود وذهابهم به.وانعقدت ألسن الناس لا يدرون ما يفعلون أو ماذا يقولون إزاء تلك الكارثة وباتوا يعزون بعضهم بعضا ويترقبون تطور الأحداث وكلهم وجل وخوف من أن يعيد القرامطة الكرّة فيهاجموا المدينة المنورة هذه المرة ويسفكوا دماء المسلمين في ثاني أقدس وأطهر أرض الإسلام .

جاءت كارثة الهجوم على مكة تنفيذا لإنذار القرامطة للخليفة المقتدر بالله بأنه إذا لم يرفع عنهم مسايلة العراق فإنهم سيهاجمون حجاج بيت الله ويقاتلونهم[١٢]. غير أن أحدا لم يتوقع أن تصل جرأة القرامطة إلى هذا الحد فينفذوا تهديدهم. ونظرا لتخوف المسلمين من الانعكاسات السلبية لفعلة القرامطة، فقد هاجر الكثير من أهل الأحساء والخليج إلى إفريقيا الشرقية واستوطنوا في منطقة اسمها " مقدشو " ثم بنوا مدينة " كلوة " و"براوة " . ثم جاءت موجة هجرة جديدة، في الوقت نفسه، من شيراز وأسست مدن مصوع ودهلك وممباسا[١٣].

مضت سنة على مذبحة الحجاج على يد القرامطة وحان أوان موسم الحج فاستجمع الإمام أحمد وأهله وأصحابه قوتهم ونووا أداء الحج، فتوجهوا إلى مكة المكرمة وحجوا وراء واليها عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي واكتفوا بمسح مكان الحجر الأسود الذي كان القرامطة قد سرقوه قبل عام. وفي مكة سمع الإمام ما حدث لأهل المدينة وسمع عن انتشار الإباضية والخوارج[١٤] في اليمن، كما سمع أخبارا جديدة من الحجاج العراقيين عن الأوضاع في البصرة فلم يطرق سمعه أي خبر سارّ، وتذكر الآية الكريمة: ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾. ثم تشاور مع صحبه بشأن الهجرة إلى حضرموت التي كانت موانيها قد ازدهرت تجاريا بعض الشيء بعد تعرض ميناء البصرة للنكسات، كما أنها أضحت أهدأ من أقاليم الخلافة الأخرى بسبب صعوبة العيش فيها وفقرها، الأمر الذي قد يدخل شيئاً من الهدوء والسكينة في نفوس الإمام وصحبه. وقد تعبوا من تصاريف الدهر. وكانت السلطة السياسية والمذهبية في حضرموت مقسمة بين الإباضية والزيديين واليعاقرة[١٥] .

وبعد انتهاء شعائر الحج سارت القافلة باتجاه عسير ثم اليمن[١٦]. وكانت القافلة تضم ثلاثة عشر جملاً محملة بالذهب والفضة والمتاع والزاد وخمسة عشر حصانا. ولما وصلت القافلة إلى اليمن في عام ٣١٨ هجري توطن ابن عم الإمام عمر بن محمد الأهدل بوادي سهام في قرية المراوعة، في حين اختار ابن عمه الثاني قديمي

الاستقرار في وادي سردد[١٧]. وأما الإمام أحمد فلم تطب له الحياة في اليمن فسار مجددا باتجاه حضرموت حيث نزل مع أهله وحاشيته في بلدة اسمها الجبيل بدعون. فاستراح فيها قليلا ورحب به سكانها كل الترحيب وهم من المشايعين للإمام علي بن أبي طالب (ع) وكانوا على خلاف حاد مع جيرانهم مشايخ آل عفيف في بلدة تدعى الهجرين وسكانها من السنة الأشعرية، علماً بأن البلدتين تنتميان لبني الصدف من قبائل كندة نسبة للجعاسم بن الصدف زعيم بلدة الهجرين، وهي قرى تمتد من أوساط وادي دوعن إلى عندل والأحروم وسدية، وجميعها تعادي الإباضية. وقد آخى الإمام أحمد بين الطرفين وأقنعهم بالحسنى بعبثية الخلاف القائم بينهما. ثم اختار الإقامة في الهجرين تقريبا لوجهات النظر، وليكون كأحد أفرادها بنى له دارا متواضعة واشترى نخلا وأراضي زراعية. ولما اطمأن إلى عودة الوئام بين أهل البلدتين، وهب أملاكه لمولاه شوية ورحل عنها إلى قرية تدعى قارة بني جشير عند قرية بور وأهلها سنيون من كندة، فأقام بها فترة وحل على أهلها وهم من قبائل كندة العريقة ضيفا معززا ومكرما. فاشترى فيها دارا ونخيلا ثم عزف عن الاستقرار فيها بسبب قلة الماء فيها وقساوة جوها، فترك داره ونخيله لأحد مواليه وغادر إلى قرية تقع على ربوة مرتفعة، وهواؤها عليل تدعى الحسيسة ويقصدها المسافرون من كل الجهات فاستوطنها واشترى أراضي في منطقة تدعى صوّحاً بنى فيها دارا واسعة تتسع له ولحاشيته وأهله[١٨].

وما أن علمت قبائل كندة ومذحج بوجود الإمام حتى سارعوا لزيارته والترحيب به وإقامته بينهم. فكان مجيء الإمام إلى حضرموت واستقراره بها بداية طيبة للتوفيق بين القبائل المتناحرة ولتخفيف المهاترات المذهبية بين السنة والشيعة وإصلاح ذات البين بين المسلمين بغضّ النظر عن انتماءاتهم المذهبية. ولكن هذا الجهد الجبار المبذول في أوساط اجتماعية مختلفة ومتعصبة تعيش في فاقة وفقر وشدة لم يطب للخوارج الذين خافوا على نفوذهم من التآكل. فاجتمعوا ونادوا في أحزابهم للخروج لمحاربة القادمين الجدد وأنصارهم.

وصل نبأ التجمع للإمام أحمد وهو في داره بالهجرين يتحدث مع الشيخ عبد الله بن محمد الزماري العمودي من وجهاء دوعن فاستشاره بالأمر، وكذلك فعل مع صحبه وابنه عبد الله فرأى الجميع ضرورة التصدي للخوارج طالما أن الإمام يحظى بدعم الأهالي. وهكذا كان، والتقى الجمعان في صحراء تدعى "بحران" وانجلى القتال عن انهزام الخوارج وقتل رؤسائهم وأسر الكثير منهم وقد تملكهم الروع والخوف، ثم أطلق سراح الأسرى فركنوا إلى السلم وانضم معظمهم إلى صفوف الإمام أحمد. وأكمل الشيخ الزماري العمودي تطهيره للمنطقة فاستولى على كامل دوعن وحررها من سيطرة الخوارج، ثم توزع أبناء الإمام على البلدات المحررة مثل بيت جبير ويجر

وقسم وخباية والحوطة والحاوي وأنشأوا المزارع وبنوا فيها دوراً لهم وأخذوا يتابعون رسالة أجدادهم في زرع بذور الوئام والمحبة ووحدة الصف(١٩).

وبعد معركة بحران خلد الإمام أحمد للراحة فقد طعن في السن وصار عمره بحدود الثمانين عاما، فأخذ ينيب عنه ابنه عبد الله يؤم الناس في الصلاة ويشرح لهم أصول دينهم الحنيف وفق عقيدة آل البيت(٢٠) بعيدا عن التزمت والتعصب والجهل، فوحد الصفوف وأعاد لحضرموت رمقا من الحياة الشريفة الهادئة التي طالما قد افتقدتها في الماضي. وكان لعبد الله ميول صوفية تلقاها من شيخه أبي طالب المكي عندما مر مع أبيه على مكة في طريقهم لحضرموت، فاجتمع بأبي طالب المكي الذي قرأ على عبد الله كتاب " قوت القلوب " فتأثر به شديد التأثر(٢١).

كان قدوم الإمام أحمد وصحبه في عصر آل زياد في ملك إسحاق بن إبراهيم ابن زياد الأموي المكنى بأبي الجيش، وكان ملكه لا يتجاوز المسافة من عدن إلى حرض طولا، ومن غلافقة إلى أعمال صنعاء عرضاً إذ اضطرب عليه الأمر فغلب في أطراف البلاد حيث ثار عليه في صعدة الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي وطرده منها، كما ثار عليه في صنعاء أسعد بن يعفر بن إبراهيم الحوالي وطرده منها، وكذلك فعل سليمان بن طرف صاحب عثر وهو من أمراء تهامة. وكانت حضرموت في جملة ما خرج عن يـــده، وبالتالي فإن أهل حضرموت كانوا مستقلين بأمرهم عند وصول الإمام وصحبه إليها، ولم يكن جميع سكان حضرموت إباضية بل كان هناك تداخل عميق يعكس حال العالم الإسلامي السائد آنذاك والانقسامات التي حلت في صفوفه. فقد كان آل أبي الفضل وآل الخطيب من تريم(٢٢) على مالا يخرج عن مذاهب الحق الرئيسية فمنهم من يشايع أهل البيت ومنهم عثمانيون نواصب ومنهم شافعيون وزيديون وإسماعيليون في الجبال. وأما أهل شجيب فإن أكثرهم ليسوا إباضية، في حين أن أكثر أهل الصدف إباضية(٢٣).

مع عودة الحجاج إلى حضرموت في عام ٣١٩ هجري حملوا معهم آخر أخبار الخلافة في بغداد وهي أن المقتدر قد عزل وزيره الخصيبي وعين مكانه عبد الله الكلوذاني، ثم استدعى علي بن عيسى الجراح مرة ثانية لكفاءته وجعله مشرفاً على الكلوذاني ومجتمعا معه على تدبير الأمر، ثم عمد مجدداً إلى عزل علي بن عيسى بعد شهرين وثلاثة أيام من تعيينه وعزل معه الكلوذاني واستوزر الكاتب الفضل بن جعفر ابن محمد بن الفرات المعروف بابن حنزابة وهي جارية رومية الأصل(٢٤)، كما عرف الحجاج من أهل العراق والجزيرة أن القرامطة ما يزالون يهددون الخلافة ويغيرون على المدن والقرى من آن لآخر وأنهم يرفضون إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة. واطمأن الإمام إلى أن أولاده وإخوته الذين تركهم في البصرة بخير فحمد الله على ذلك .

أخذ عبيد الله وأولاده إسماعيل وجديد وعلوي يعملون بجد في زراعة أراضيهم وغرس النخيل والسدر والأثل والعريط، كما حفروا آبار المياه وأنشؤوا حوطة[٢٥] وحسنوا الطرقات، وأبقوا على التجارة مع الشام والبصرة فكانوا ينفقون بسخاء على أعمال البر ويساعدون كل محتاج حتى طيرت شهرتهم الآفاق في حضرموت، في حين لزم الإمام أحمد الدار معظم الوقت يسهر على تعليم ابنه وأولاد ابنه العلم الصالح وبذرة الحق ويروي لهم قصص أجدادهم وما عرف عنهم من صبر في الإيمان ونضال في العقيدة وتمسك بأهداب الفضيلة ونور الهدى والتسامح .

وكان أهل ساحل حضرموت وخاصة ميناءي الشحر والمكلا معروفين بنشاطهم التجاري البحري مع الهند والسند وسرنديب وأفريقيا. فذهب عبيد الله إلى هذين الميناءين واستثمر قسما من أمواله في تلك التجارة البحرية معيداً بذلك وصل ما كان قد انقطع في البصرة من تجاره وتواصل مع أمم الشرق البعيدة، وحنين للوقوف على أخبار أهلهم في تلك الأمصار .

ومع أن الهدوء والسكينة كانا يسودان حضرموت فإن الأخبار الآتية من بغداد لم تكن مطمئنة على الإطلاق، فقد ظهر متمرد جديد بين الموالي[٢٦] يدعى مرداويج وزحف بجيشه على الري وطبرستان والجبل فاستولى عليهم وطلب من الخليفة المقتدر أن يعترف له بهذه البلاد فأقطعه إياها على مائة ألف درهم. ولم يقف طموح مرداوج عند هذا الحد، بل لبس تاجاً مرصعاً بالجواهر والياقوت وصنع له عرشا من الذهب ووضب مجلسا مفضضا مغطى بالسجاد الموشى وصف حوله الكراسي المذهبة ليجلس عليه عظماء قومه، ثم صمم على فتح بغداد، وفي طريقه ذبح أهل همذان زاعما أنهم كفار فهرب قسم منهم إلى بغداد وتظاهروا أمام قصر الخليفة طالبين النجدة. فلم يجد المقتدر بداً من الامتثال لطلبهم هذا فأرسل معهم وفدا بصحبة إمام يحمل قرآنا، فلما وضع الإمام هذا القرآن بين يدي مرداويج تناوله وضرب به وجه الإمام وأمر بذبحه[٢٧].

وبطبيعة الحال كان المقتدر في وضع يعجز فيه عن الإتيان بأي حركة لتأديب هذا المتمرد بسبب عزل القواد والأمراء له داخل القصر . ومن ناحية أخرى فإن محمد ابن المعتضد شقيق الخليفة المقتدر بالله كان يروم الخلافة مدة مستفيدا من أجواء النقمة على أخيه فحرك ضده مجموعة من حراسه فدخلوا على الخليفة وقتلوه في مخدعه أمام نسائه وحريمه ثم أعلنوا ولاءهم لمحمد بن المعتضد خليفة المسلمين، ولم تجد "السيدة" مخرجا آخر سوى تأييد اعتلاء ابنها الثالث عرش الخلافة بدلا من ضياع العرش وفقدان العائلة له. وكانت تلك الأم، وهي زوجة الخليفة المتوكل على الله، قد شهدت خلافة أولادها الثلاثة بعد وفاة زوجها وهم : المكتفي والمقتدر ومحمد الذي اختار لنفسه لقب القاهر بالله [٢٨].

وعين القاهر بالله أبا علي الحسن ابن الوزير السابق القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب، وزيرا له وأطلق عليه لقب عميد الدولة، في حين ولى وزير أخيه الفضل بن جعفربن محمد بن الفرات رئاسة الدواوين مثيرا بذلك نيران البغض والحسد والعداوة بين الشخصين، لا بل بين العائلتين. ولم يطل الأمر كثيراً حتى أينعت بذور تلك العداوة، فقد استفاد الوشاة من بين خصوم عميد الدولة من ظهور شخص يدعى أبا جعفر محمد بن علي الشلمغاني الملقب بأبي العزاقر في المروج في بغداد، وقد أخذ يروج لمبادئ الحسين بن منصور الحلاج الصوفي ويدعو إلى الإيمان بتناسخ الأرواح.

ويبدو أن عميد الدولة كان يحاول تهدئة أبي العزاقر هذا بغية الإيقاع به فراسله عدة مرات، وعندها نقل الوشاة إلى الخليفة القاهر بالله خبر وجود رقاع مكتوبة بخط يد عميد الدولة في دار أبي العزاقر كدليل على تحالف الاثنين ضد الخليفة والدين. فاستشار الخليفة قاضي القضاة أبا السائب عتبة بن عبد الله الذي أفتى بإباحة دم الاثنين. وكان عميد الدولة قد أحس بوجود مؤامرة ضده فهرب متجها صوب الشام، ولكن قوات الخليفة أدركته في مدينة الرقة وقتلته هناك في شهر ذي الحجة سنة ٣٢٢ هجرية(٢٩).

وكان عند القاهر بالله خادم يدعى مؤنساً ونديم اسمه علي بن بليق يجلبان له القيان والغلمان ويحضرّان له سهراته الليلية الماجنة. وذات يوم شرب القاهر بالله كثيرا من الخمر حتى اختلّ عقله فأمر بذبح خادمه ونديمه وكسر آلات الشرب وطرد المخنثين من القصر. وكان ابن أخيه أبو العباس أحمد بن المقتدر ينتظر الفرصة المناسبة للانتقام من عمه، وكانت أمه جارية مملوكية وتسيطر مع ابنها على مماليك القصر(٣٠)، إلى أن جاء يوم سكر فيه القاهر بالله ونام، فهجم عليه المماليك فأحس بوجودهم ونهض مرعوبا وهرب إلى سطح القصر وفي يده سيف فاحتال عليه أحد حراسه قائلا له :" انزل يا مولاي فنحن عبيدك ونريد حمايتك!". وعندما نزل قام الحارس بسمل عينيه وسيق إلى سجن القصر(٣١). وعندما أفاقت بغداد في ذلك الصباح من عام ٣٢٢ هجري وجدت خليفة جديدة بلقب " الراضي بالله " ووزيرا جديدا هو وزير المقتدر بالله القديم محمد بن علي بن مقلة، في حين أرسل الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات إلى الشام. ولكن الخليفة الجديد وجد نفسه أسير مماليكه وحراسه وأضحى ملكه لايتعدى حدود قصره، واستقلت الولايات بأمورها فصارت مصر بيد أبي القاسم الأخشيدي، ودمشق بيد أحمد بن كيغلغ نيابة عن صاحب مصر الأخشيدي، ثم استولى عليها ابن رائق وطرد أحمد بن كيغلغ منها وأصبح واليا على الشام والبصرة. وأما خوزستان فكانت بيد البريدي، في حين خضعت فارس ليد عماد الدولة بن بويه والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه والموصل وديار ربيعة وديار بكر في يد بني حمدان، واليمن في يد بني زياد. وأما ما وراء النهر وخراسان

فكانا بيد أبي الحسن نصر بن أحمد الساماني، وكانت طبرستان وجرجان في يد الديلم. وأما البحرين وهي المنطقة الممتدة من عمان وحتى حدود البصرة فكانت بيد أبي طاهر القرمطي[٣٢].

اضطرب القوم في حضرموت لسماع تلك التطورات وحزن الإمام وصحبه حزنا كبيرا لأنهم أدركوا درجة معاناة من تركوهم من أهلهم في البصرة، ولم يكن هناك من سبيل غير موسم الحج لمعرفة المزيد من الأحوال في البصرة بسبب ندرة القوافل التجارية في الأيام العادية لانقطاع الأمن على الطريق وسيطرة الفوضى والعابثين. وخلال أعوام كانت ترشح بعض الأنباء من آن لآخر، بعضها غريب يثير العجب مثل قيام الراضي بالله بقطع يد وزيره ابن المقلة اليُمنى وهي اليد التي كان يكتب بها خطه الجميل ويكتب للخليفة وينشئ له بها الرسائل الفائقة[٣٣]. وعندما صار ابن مقلة ينوح على يده حزنا أمر الخليفة بقطع لسانه ثم قتله بدار الخلافة في عام ٣٢٨ هجري، وبعضها الآخر يثير الحزن ومؤلم إذ أن الخليفة لم تعد لديه أموال كافية لصرفها على القصر والعاملين فيه، وكانت كل نفقاته تأتيه سابقا من ناصر الدولة بن حمدان من الموصل الذي عمد إلى تقليل مخصصات الخليفة إلى أن مات الراضي بالله قهرا وتولى الحكم مكانه المقتضي بالله الذي وجد نفسه في وضع أسوأ من سابقه بعد ما عمد ناصر بن حمدان إلى تقليل رواتب الخليفة الجديد أيضا وسيطر على ضياعه وأملاكه داخل وخارج بغداد، فهاجت الأمراء وبعض الجند في مدينة واسط على سيف الدولة الحمداني والي حلب والموصل فلجأ إلى حلب، ونزح كثير من العباد إلى الشام من تتابع الفتن والخوف بفعل ضعف الخلافة وعجز الخليفة، في حين كانت بلاد الشام في وضع قوي بفعل انتصارات الحمدانيين على البيزنطيين في الثغور الشمالية، وقوة حكمهم وبأسهم .

وأما في حضرموت فكانت الأمور، كما أشرنا، هادئة بعد موقعة بحران، والتفت الشيخ عبيد الله وأبناؤه الثلاثة إلى أعمالهم التجارية. ونظراً لحنين الأحفاد للأرض الأجداد فقد اشترى علوي أرضا سماها "قسم" باسم أرض في البصرة تملكها الأسرة وكانت ملكا للإمام محمد النقيب بن علي العريضي، فتوارثها الأولاد حتى وقعت في حصة الإمام أحمد بن عيسى الذي تركها لأولاده الثلاثة علي والحسين ومحمد ممن بقوا في البصرة [٣٤].

ولقد ساعد جاه النسب والعلم والدين مقرونا بمظاهر الثروة المالية والأتباع والموالي والخدم في التأثير كثيرا على نفوس السكان الذين كانت الإباضية قد غشيت عيونهم وفرضت عليهم سياجا من العزلة. وأدى هذا التأثير المزدوج إلى سهولة كبيرة في كسب الاتباع في وسط كهذا الوسط الفقير البدوي فتعزز مركز الإمام أحمد وصار الناس يدعونه بالمهاجر، وعظم أمر أتباعه ولم يرق الأمر لخصومه وخاصة بقية

الإباضية فراحوا ينشرون بين الناس أن الإمام أحمد ليس سليل آل البيت وأنه مجرد شخص محتال يروم السيطرة على حضرموت. وقويت الإشاعة وصدرت دعوات تطلب من الإمام أحمد تأكيد نسبه الحقيقي. فقال لهم الإمام في خطبة له في المسجد: "إن لم تصدقوا أن للنبي (ﷺ) ذرية فنقول نحن ذرية الحسين بن علي وأمه فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) سواء إن صدقتم أن للنبي ذرية أم لم تصدقوا ". فانبرى له بعض المصلين قائلين: " نحن لا نصدقك ". فالتفت الإمام الطاعن في السن صوب ابنه عبيد الله قائلا له: " أريدك أن تحج هذا العام بإذن الله مع حجيج حضرموت تشهد الناس في الحرم الشريف على نسبك بحضور أهل حضرموت[٣٥].

وهكذا ما إن حل موسم الحج في عام ٣٣٥ هجري حتى رحل عبيد الله مع ثلاثمائة حاج من حضرموت قاصدين مكة المكرمة. فلما وصلوها وجدوا أن القرامطة قد أعادوا الحجر الأسود إليها بعد أن أمرهم المنصور بن القائم الفاطمي برده إلى مكانه [٣٦]. ولما وصلوا إلى منى التقوا بجماعة من أهل العراق والبصرة ممن يعرفون الإمام أحمد ونسبه. فقال لهم عبيد الله، والحضارمة يسمعونه ويرونه: " يا أهل العراق من أنا؟ فقالوا : " أنت عبيد الله بن أحمد بن عيسى بن علي بن جعفر الصادق ... إلى آخر النسب. وشهدوا فشهد أهل حضرموت بما شهد به. فلما وصلوا إلى حضرموت شهدوا أمام الجميع فثبت موقع آل البيت في حضرموت ولم يبق أحد يجرؤ على معارضتهم. ولم يكن خبر الشهادة هو الوحيد الذي حمله معه عبيد الله من الحج، بل أخبار أخرى عديدة مثل وفاة أبي طاهر القرمطي زعيم القرامطة بسبب إصابته بالجدري وانتقال سلطته لأحمد بن أبي سعيد القرمطي، وتأمير الخليفة المتقي لابن رائق على الجيوش واشتراكه مع الخليفة في الدعاء له على المنابر، وهزيمة بني حمدان في الموصل في وجه توزون الأخشيدي، وهو الأمر الذي بث الرعب في صدر المتقي بالله فهرب إلى مدينة الرقة خوفا من توزون هذا . ولكن هذا الأخير احتال على الخليفة وحلف له بالأيمان الغليظة على أن يواليه. فصالحه الخليفة وعاد من الرقة إلى العراق، وبالقرب من مدينة الأنبار تلقاه توزون وقبّل الأرض كالعادة ثم أخذه وسمله وهو يصيح والنساء تنوح وتبكي، ثم أدخل الخليفة بغداد مشيا على الأقدام مسمولا ومخلوعا ورمي في غياهب السجن. واختار توزون عبد الله بن المكتفي خليفة فبايعه وأجلسه على سدة الخلافة ومنحه لقب المستكفي بالله وكان أول ما فعله النزول عند أمر تحدٍّ جديد لسلطته قادم من بلاد الديلم. فقد هاجم أحمد بن بويه، وهو أحد قادة مرداويج من الموالي، واسط ثم كاتب الخليفة في بغداد فسلمه المدينة بلا حرب في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هجرية. ولما تقابل الاثنان، بايع أحمد ابن بويه الخليفة في حين خلع الخليفة على أحمد بويه منصب أمير الأمراء ولقب معز الدولة[٣٧]. خاف الموالي الأتراك من وصول الديلم البويهيين فهربوا من بغداد. ولم

يحترم أحمد بن بويه اتفاقه مع الخليفة إذ أوعز إلى اثنين من رجاله بالدخول على المستكفي معه، ولما أراد الرجلان تحية الخليفة مد لهما يده ليقبّلاها فجذباه إلى الأرض وطرحاه أرضا ووضعا عمامته في عنقه ثم سملا عينيه(٣٨). وبعد ذلك دخل جند معز الدولة إلى دار الخلافة فنهبوها وقبضوا على قهرمانة الدار وقطعوا لسانها ثم جيء بالفضل بن المقتدر بن المعتضد وجعل خليفة وخلع عليه لقب المطيع بالله. وكان لمعز الدولة صديق أديب يدعى أبا محمد المهلبي الحسن بن محمد فجاء به إلى دار الخلافة وعيّنه وزيرا للمطيع. ورغم أن المطيع لم يكن هو الذي استوزر المهلبي فإنه خلع عليه وزارتين: وزارة الخليفة ووزارة السلطان البويهي ولقبه بذي الوزارتين. وقد أمر معز الدولة بجعل راتب الخليفة الجديد مائة دينار كل يوم فقط(٣٩)، فاضطربت الأمور في الدولة وانتشرت الفوضى وتجرأ ابن معز الدولة ويدعى بختيار على الخليفة فطلب منه مالا. ولما أجابه الخليفة أنه لا مال لديه شدد عليه حتى باع الخليفة أثاثه وملابسه بمبلغ أربعمائة ألف درهم، ثم أمر الخليفة أن يخطب في مكة لمعز الدولة ولابنه بختيار. وقام الغوغائيون بالإغارة على الناس العزل في المدن ونهب وسلب البيوت حتى تعذر على الناس الوصول إلى ماء دجلة فأخذوا يشربون من الآبار(٤٠).

لم يتحمل الإمام المهاجر تلك الأخبار المؤلمة والمحزنة فتوفي في داره بالحسيسة سنة ٣٤٥ هجرية ودفن في شعبٍ لها يقع إلى شرق البلدة ويدعى بشعب مخدم، فآلت الإمامة إلى ابنه عبيد الله وكذلك رئاسة نقابة آل البيت في حضرموت واليمن .

قرر الإمام عبيد الله بن أحمد المهاجر أن يرسل ابنيه جديداً وعَلَوياً إلى البصرة للاطمئنان على أفراد الأسرة والأقارب هناك والنظر في الأرزاق والأموال. فأعد الاثنان قافلة كبيرة واتجها صوب البصرة فوصلا بعد رحلة طويلة وشاقة، وكان ذلك سنة ٣٥٢ هجرية وقصدا منزل أبيهما فوجدا فيه عمهما محمداً فقط الذي سُرَّ كثيرا هو وآل بيته بقدوم أولاد أخيه عبيد الله، وأعلمهما أن عمهما علياً قد ارتحل إلى مدينة الرملة في فلسطين وعمهما الحسين إلى مدينة نيسابور في خراسان. واطمأن الشابان إلى أوضاع أهاليهم في البصرة وجمعا بعضا من أرزاقهم وغلاتهم وأطّلعا كذلك على آخر أخبار البلاد فعلما أن معز الدولة البويهي أمر أهل بغداد في يوم عاشوراءبالنوح وإقامة المآتم وإغلاق أبواب المدينة ومنع الطباخين من حمل الأطعمة حزنا بهذه المناسبة(٤١). كما علم الشابان أن سيف الدولة الحمداني قد مات، وأن جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي قد فتح مصر سنة ٣٥٨ هجرية وبنى مدينة جديدة أسماها القاهرة، ثم سار إلى الشام فاجتمع بفضله للمعز لدين الله ملك مصر والشام وأفريقيا. واحتفالا بهذا النصر المؤزر أمر المعز لدين الله بصنع بساط من الحرير الأزرق التستري القرقوبي منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير النادر فيه صورة أقاليم

الأرض وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها الجغرافية، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر. وقد أنهى العمل بالبساط سنة ٣٥٣ هجرية وكتب على البساط " أمر بعمله المعز لدين الله شوقا إلى حرم الله واشتهارا لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار " (٤٢).

غادر جديد وعلوي البصرة مثقلين بالهموم والأحزان لما آلت إليه الأوضاع في العراق والخلافة. ولما وصلا إلى مكة في طريق عودتهما إلى حضرموت علما أن الخليفة المطيع قد أصيب بفالج وأنّ معز الدولة البويهي قد خلعه وسلم الخلافة لولده الطائع، وكان ذلك سنة ٣٦٣ هجرية(٤٣). ثم فوجئ جديد وعلوي بأن أمير مكة الحسن بن جعفر بن الحسن السليماني قد خطب للمعز الفاطمي بدلا من الخليفة في بغداد، فاستفسرا عن ذلك فجاء من يقول لهما: إن الحسن بن جعفر فعل ذلك خوفا من نية المعز الفاطمي مهاجمة مكة المكرمة وإقامة الخطبة له بالقوة فسبقه إلى الخطبة له، وهذا الأمر لاقى استحسانا لدى المعز الفاطمي، فكتب إلى الحسن بالولاية على مكة التي خرجت للمرة الأولى من يد العباسيين وقطعت الخطبة فيها لبني العباس وللخليفة(٤٤).

عاد جديد وعلوي إلى حضرموت وأخبرا أباهما عبيد الله وأخاهما إسماعيل، الذي تعودوا أن ينادوه "بصري"، وأهلهم بما شاهدوه وسمعوه وطمأنوا الجميع إلى أن بقية الأهل في البصرة بخير رغم ما حمل بها من نكبات ومصائب، كما سلما والدهما حاصل الغلات والأرزاق التي جاءا بها من العراق فوزع قسما منها على أولاده وقسما آخر على حاشيته وأتباعه واحتفظ بالباقي لنفسه ولأهله. وبعد استراحة طويلة قصد عبيد الله وأبناؤه قبر النبي هود الموجود قريبا من وادي برهوت في منطقة الأحقاف على نحو مرحلتين من مدينة تريم. وكان النبي هود (ﷺ) قد سكن حضرموت القريبة من الأحقاف بعد هلاك قومه عاد، وزار قبره في صدر الإسلام الإمام علي بن أبي طالب(٤٥)، فأراد عبيد الله وأولاده أن يحاكوا جدهم الأكبر بزيارتهم لقبر النبي هود .

وصل الإمام وأولاده إلى القبر الذي كان على شكل مستطيل كبير جداً فقرأوا الفاتحة، ثم تابعوا سيرهم لزيارة النبي حنظلة (ﷺ) وهو نبي أصحاب الرس وهم من بقايا قوم صالح أي ثمود، ويقع القبر في سفح جبل غرب بلدة بور ويطل على وادي مدر(٤٦) فدخلوا على القبر وقرأوا الفاتحة وصلّوا على روحه، وكان الإمام عبيد الله قد سمع من أهل حضرموت عن بئر يخشونها ولا يقربون منها وتدعى بئر برهوت ويعتقدون أن فيها أرواح الكفار فسألوا عن موقعها أحد الأعراب الذي التقوه في طريقهم فدلهم عليها محذرا إياهم من الاقتراب منها، ولكن القوم تابعوا سيرهم إلى منطقة لا تبعد كثيرا عن قبر النبي هود (ﷺ) في واد اسمه وادي برهوت. وفي هضبة مرتفعة تشرف عليه وجدوا مغارة يصل إليها طريق معبد قديم نقش في الصخر فساروا

في الطريق إلى أن بلغوا عمق المغارة التي كانت تفوح منها رائحة نتنة عفنة وتعشعش فيها آلاف الخفافيش والحرارة فيها مرتفعة، فعاد أصحابنا أدراجهم وهم يضحكون في سرهم من مدى جهالة الناس وسذاجتهم، إذ تبين لهم منذ البداية أن الرائحة النتنة الصاعدة من الجب هي بفعل تفاعل الحجارة الجيرية مع روث الخفافيش الرطبة، وكانوا قد اطلعوا وهم في مطلع عمرهم على أبحاث جدهم الأكبر جعفر الصادق وصاحبه عالم الكيمياء جابر بن حيان فشكلوا لأنفسهم رصيدا علميا لا يبارى [٤٧].

عاد الإمام عبيد الله وأولاده الثلاثة إلى دارهم وشرعوا يحضرون لسوق الرابية في حضرموت، وهي سوق لم يكن يوصل إليها إلا بحراسة وخفارة لأنهـا لم تكن أرضاً مملوكة لأحد. فكانت قريش تتخفر ببني آكل المرار، وسائر الناس يتخفر بآل مسروق بن وائل من قبيلة كندة. وبطبيعة الحال تخفر الإمام وأهله بآل مسروق. وكانت تلك السوق مماثلة لسوق عكاظ المشهورة وتعقد في منتصف شهر ذي القعدة إلى آخره ويجتمع فيها العرب من شتى أنحاء البلاد للتجارة والتعارف والتفاخر[٤٨]. وبالنسبة للإمام عبيد الله فإن السوق فرصة للوقوف على آخر الأخبار في ديار العرب والإسلام، فجهز نفسه وأولاده وحضروا قافلة كبيرة واتجهوا بها إلى السوق فوصلوها وقد امتلأت بالخيام المنصوبة وحفلت بوجهاء القوم وشعرائهم وكبار تجارهم القادمين من مهرة وقضاعة من ناحية الشحر وبني شبيب وبني الحارث وبني حماد والأشباء وسلاطين شبام بني الدعار وآل قحطان، والصدف من بني الأشرس بن كندة من عندل ودمون والهجران، وبني حارثة وعامر والعباد من شجيب، وبني همدان من سردد والجوف، وبنو الحارث بن كعب من ريدة الصيعر، وقبيلة جعفي من وادي جردان وغيرهم كثير. التقى الإمام عبيد الله بشيوخ القبائل فعلم منهم أن ملك القرامطة المدعو الحسن بن أحمد بن سعيد القرمطي قد مات ، وأن محمد بن بقية وزير الخليفة الذي كان قد حل مكان المهلبي قد ألقي بأمر معز الدولة تحت أرجل الفيلة فقتل للفور ثم تم صلب جثته وذلك في عام ٣٦٧ هجري[٤٩]، ثم لم يلبث معز الدولة نفسه أن مات واستلم مكانه عضد الدولة بن الحسن بن بويه بن فنا خسرو الديلمي، فعين وزيرا له هو الأديب والشاعر أبو نصر سابور بن أردشير وترك للخليفة العاجز أمر اختيار وزير له، فاختار طباخه الذي يعد الطعام له وأصبح الخليفة أضحوكة تبكي صاحبها من شدة الضحك. وأول ما قام به عضد الدولة هو أن أرغم الخليفة الطائع على منحه لقب ملك وعلى الخطبة له على المنابر.

وأما أمصار الخلافة فقد كانت كلها مستقلة عن الخلافة، غير أن الشيء الجديد في الأمر هو أن الفاطميين في مصر أخذوا يطمحون إلى استلام الخلافة وبدؤوا يذيعون علنا رغبتهم بنقل الخلافة إلى القاهرة، لا بل هددوا باحتلال الحرم الشريف إذا لم يدع لهم على المنابر وفي الخطبة، فرضخ أمير مكة لمطالبهم [٥٠]. وكان حاكم

مصر والشام العزيز بالله أبو المنصور نزار بن المعز معد العبيدي الفاطمي. وأما حلب فكانت بيد سيف الدولة بن حمدان، ومكة بيد الحسن بن جعفر السليماني، واليمن بيد أميرها أبي الجيش إبراهيم بن محمد بن زياد، وما وراء النهر بيد الخانية من ملوك الترك، وخراسان بيد نوح بن منصور(٥١) .

أراد عضد الدولة نقل الخلافة من العباسيين إلى آل بويه فتقدم إلى الخليفة الطائع يريد الزواج من ابنته فوافق الخليفة وأذيع الخبر في بغداد وبدأت الاستعدادات لذلك. وفي اليوم المقرر لإقامة حفل الزواج قام وزير عضد الدولة أبو منصور سابور ابن أردشير ويدعى بهاء الدولة ويكن الخصومة لعضد الدولة وللخليفة لأنهما سجنا أحد خواصه ويدعى الحسين بن المعلم بالدخول على الخليفة ثم تقدم ديلمه من الطائع وجذبوه بحمائل سيوفهم من السرير وطرحوه أرضا ثم لفوه في كساء وحملوه إلى دار الإمارة، وذاع الخبر في بغداد فاضطربت المدينة ووقع النهب والسلب في دار الخلافة فاضطر بهاء الدولة إلى عدم قتل الخليفة بل أرغمه على خلع نفسه وتسليم الأمر للقادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر الذي كان في البطائح خارج بغداد. ولكن الديلم والأتراك ثاروا مطالبين برسوم البيعة من الخليفة الجديد الذي لا يملك شروى نقير فلم يجدوا غير أثاث دار الخلافة فباعوها ووزعوا ثمنها على الجند. وأما الطائع فقد خصص بهاء الدولة له حجرة يقيم بها في قصر القادر بشرط ألا يغادرها أبدا وكان ذلك في عام ٣٨١ هجري(٥٢).

وقد شهد أحد أشراف العراق ويدعى الرضي أبا الحسن الموسوي حادثة الخلع والاستلام فخرج من دار الخلافة وهو يقول:

اعجب لمسكة نفسي بعد ما رميت	من النوائب بالأبكار والعونِ
أمسيت أرحم من كنت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهونِ
ومنظر كان بالسراء يضحكني	يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أعتز بالسلطان ثانية	قد ضل ولاّج أبواب السلاطينِ(٥٣)

وعمد بهاء الدولة إلى إطلاق سراح الحسين بن المعلم وجعله مسؤولا عن شؤون دار الخلافة. وكان الحسين هذا ناقما ضمنيا على البويهيين فأمر بمنع إقامة المأتم يوم عاشوراء فشغب جنود الديلم وطلبوا من الخليفة تسليمه إليهم قائلين :" اختر بقاءه أو بقاءك ، فسلمه إليهم فقتلوه بالركل بأرجلهم(٥٤).

مات عضد الدولة وأخوه مؤيد الدولة، ولم يبق من أولاد ركن الدولة الحسن بن بويه سوى فخر الدولة الذي اختار الأديب الصاحب بن عباد وزيرا له ولقبه بالصاحب لصحبته آل بويه، غير أن الوزير مات فجأة فسدّ فخر الدولة مكانه في الوزارة بأبي العباس أحمد بن ابراهيم الضبي ويكنى أبا العباس، وبأبي الحسن بن أحمد وهو قائد من

قواد جيوش بني بويه. ورتب فخر الدولة أمر الوزارتين فكان يخاطب أبا العباس بالأستاذ الرئيس وأبا علي بالأستاذ الجليل على أن يجلسا في دست واحد ويكون التوقيع لهذا في يوم والعلامة للآخر ويجعل الكتب باسميهما(٥٥).

عاد الإمام عبيد الله من سوق الرابية إلى الحسيسية مثقلاً بالأخبار السيئة الواردة من أنحاء الخلافة كافة، وما هي إلا أيام حتى توفي أمير حضرموت أبو الجيش فخلفه ابنه عبد الله بن أبي الجيش وهو بعدُ صبي صغير فتولت كفالته أخته هند بنت أبي الجيش وعبد حبشي يدعى رشيداً، فاستبد هذا المولى الحبشي بالأمر في حضرموت إلى أن توفي فجأة فخلفة بالأمر والوصية على نجل أبي الجيش مولى آخر يدعى الحسين بن سلامة وهو عبد من بلاد النوبة محمود السيرة وحازم وعفيف وشريف النفس. ولكن أمراء الحصون وولاة الجبال والبلدات البعيدة تمردوا على هذا المولى فنهض لمحاربتهم حتى دانوا له فلم ينتقم منهم بل عمد إلى إقرارهم في مناصبهم وبادر إلى إنشاء المساجد وحفر آبار المياه مقتديا بسيرة الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز. ورغم أن الحسين بن سلامة كان مجرد وصي على ابن أبي الجيش إلا أنه تجاوز هذا الأمر واستبد بالسلطة لنفسه(٥٦).

أراد الإمام عبيد الله الارتحال نحو مكان فيه ماء ويكون قريبا من تجمع سكاني أكبر من الحسيسة، فقرر الذهاب شرقا إلى قرية تدعى سمل تبعد عن مدينة تريم ستة أميال فقط. وقبل الرحيل وهب خادمه مخدماً كل أملاكه في الحسيسة ونواحيها من عقارات وأراض. ولما وصلوا إلى القرية الجديدة اشتروا أراضيَ زراعية وزرعوها بالنخيل وبنوا لأنفسهم داراً كبيرة، ولأصحابهم ومواليهم دوراً أخرى قريبة منها، غير أن القدر لم يمهل الإمام عبيد الله كثيرا لكي يتمتع بالديار الجديدة فتوفاه الأجل ودفن في سمل(٥٧).

كان علوي بن عبيد الله وهو الابن الأصغر لأبيه والوحيد الذي ولد في حضرموت مقربا من أبيه كثيرا وأخذ عنه الفقه والأدب والحديث وبرع في العربية إلى جانب محبته لأمور التجارة ومتابعته لها باستمرار. ولما توفي الأب اتفقت العائلة وآل البيت على اختيار علوي إماما لهم ونقيبا لهم خلفا لأبيه المرحوم، فأصبح الجميع ينادونه بالإمام علوي لدى عائلته في حين يناديه أهل حضرموت وذريته بآل باعلوي(٥٨).

كان الاستقرار هو السمة البارزة التي تميز حضرموت عن غيرها من أمصار الخلافة رغم استيلاء الحسين بن سلامة وهو الوصي على الإمارة على مقدرات السلطة فيها. لكن دبيب المؤامرات أخذ يزداد عندما توفي الحسين بن سلامة بعد أن توفي قبله بقليل ولي العهد ابن أبي الجيش، فانتقل الأمر إلى طفل من بني زياد يدعى عبد الله كفلته عمته هند بنت أبي الجيش وعبد حبشي من عبيد الحسين بن سلامة يسمى

مرجان. وكان لمرجان هذا عبدان من الحبشة رباهما منذ نعومة أظفارهما وولاهما تدبير أوامره، يسمى الأول نفيساً والآخر نجاحاً، وكان نفيس هو الذي يتولى تدبير الحضر وكان سيئ الأخلاق ولكنه مقرب من ولي نعمته مرجان، في حين كان نجاح يتولى الأعمال الصعبة ولكنه كان خلوقا رؤوفا فاستطاع أن يخلق علاقة جيدة مع الطفل عبد الله وعمته هند، فصارا يفضلانه على نفيس، الأمر الذي دفع نفيساً إلى أن يشكو هند وعبد الله إلى مرجان. فما كان من هذا إلا أن قبض عليهما وسلمهما إلى نفيس قائلا له: "افعل بهما ما تشاء. فقام نفيس ببناء جدار على الاثنين وهما يناشدانه الله ألا يفعل حتى ختمه عليهما. وهكذا انقرضت دولة بني زياد في اليمن في عام ٤٠٧ هجري على يد عبد لعبد عبد عبدهم بعد أن دامت مائتين وثلاث سنوات[٥٩].

وبعد ذلك بسنة مات مولاهم مرجان فقام بالأمر مكانه زميل له يدعى نجاح الحبشي فأمر بضرب السكة باسمه وصار يركب بالمظلة ويحيط نفسه بالعبيد من كل جانب[٦٠] وأجبر أئمة المساجد على الدعاء له على المنابر فتململت العرب من ذلك الوضع وأخذت القبائل الكبيرة تتبادل المشورة فيما ينبغي عمله للخلاص من هذا الوضع المزري. وقد أحس الإمام علوي بما يجري ولكنه كان يريد الوقوف على حقيقة ما يجري خارج اليمن وحضرموت أيضاً، فقرر أن يحج وتوجه إلى مكة المكرمة وهناك عرف أن محمود سبكتكين صاحب غزنة قد أسس دولة غزنوية في خراسان على أنقاض الدولة السامانية[٦١]. ومحمود هذا هو أحد مماليك أبي إسحاق صاحب جيش غزنة السامانية أصلا، استلم القيادة في غزنة بعد وفاة أبي إسحاق وقضى على الدولة السامانية ، ثم توجه للفتوحات الإسلامية نحو الشرق وذلك للمرة الأولى منذ توقف تلك الفتحات بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك. وتوجه السلطان الغازي محمود بن سبكتكين إلى الهند ففتح مدينة سومنات الساحلية ودمر معبداً وكسر صنم الهندوس الأكبر الذي يسمونه " البد " وحمل قطعة معه إلى غزنة جعلها عتبة لمسجد المدينة، وكتب محمود إلى الخليفة في بغداد مبايعا فأقره على إمارة خراسان والسند وخلع عليه لقب سلطان[٦٢]. وبعد زوال دولتهم من خراسان هرب عبد الملك بن نوح أمير السامانيين إلى ما وراء النهر فسار إليه إيليك خان ملك تركستان ودخل بخارى حيث قبض على عبد الملك وحبسه حتى مات صبراً. وبهذا انقرضت الدولة السامانية وحل مكانها الغزنويون والترك .

وكان من نتائج فتح الهند الهامة تعديل معلومات المسلمين الجغرافية عن الهند والسند إذ اصطحب محمود سبكتكين الغزنوي معه عالماً جغرافياً وفلكياً مشهور يدعى محمد بن أحمد أبا الريحان الخوارزمي البيروني. وقام هذا العالم بدراسة وافية عن الهند ورسم خريطة جديدة لها مستندا إلى حساباته الفلكية[٦٣].

وأما مصر فقد ساءت الحال فيها بعد وفاة العزيز بن المعز الفاطمي وتولى ابنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور الحكم وعمره إحدى عشرة سنة، فبنى الجامع الحاكمي خارج القاهرة قرب باب الفتوح وأقام الخطبة والصلاة فيه بدلا من الجامع الأزهر(٦٤). وكان الحاكم بأمر الله جوادا بالمال سفاكا للدماء إذ عمد فور توليه الحكم إلى قتل عدد كبير من أماثيل أهل دولته وغيرهم صبرا أي بحبسهم حتى الموت(٦٥). وكانت أموره عجيبة من تغير أحواله في كل وقت من غير أن يعلم قصده في ذلك. ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ادعى الألوهية وكتب إلى عماله بالبراءة من أبي بكر وعمر فأنكر ذلك أبو الفتوح الحسن بن جعفر السليماني أمير مكة وحمله إنكاره على الاستبداد بالأمر في مكة وخطب لنفسه باسم الراشد بالله . فعمد الحاكم الفاطمي إلى قطع الميرة من مصر عن الحرمين فرجع أبو الفتوح إلى طاعته ونفذ تعليمات الحاكم بأمر الله وأزال إمرة بني الحسين عن مكة المكرمة، ثم طلب منه الحاكم بأمر الله نقل الجسد النبوي الشريف من مسجد النبي (ﷺ) في المدينة إلى مصر ليلا، وكادت الكارثة أن تحدث لولا أن هبت ريح عظيمة أظلم منها الجو وقطعت أشجار النخيل وقلعت المنازل فتوقف أبو الفتوح وأعوانه عن مرادهم وعادوا أدراجهم إلى مكة، في حين استقل هاني بن داود بن قاسم بإدارة المدينة المنورة وهو ممن رفض موالاة الخليفة الفاطمي. واستمرت تصرفات الحاكم الفاطمي الغريبة إلى أن قتل غيلة بالقرب من حلوان دون أن يعرف قاتله وذلك في الثالث من ذي القعدة سنة ٤١١ هجرية وعمره يومئذ ست وثلاثون سنة. فتولى مكانه ابنه ظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم(٦٦).

أتم الإمام علوي شعائر الحج وعاد مع قافلته إلى قرية سمل وهو يتساءل: هل من الممكن أن تبقى حضرموت واليمن بعيدة عن الاضطرابات الخطيرة السائدة في بغداد ودمشق والقاهرة وحلب وخراسان؟. ولكن رجاءه هذا خاب، فبعد أن قضى نجاح الحبشي على دولة بني زياد وهو من عبيدهم ومواليهم في الأساس، سيطر على تهامة فقط وجعل عاصمته "زبيد"، في حين بقيت عدن والشحر وحضرموت في يد بني معن أمراء عدن وحلفاء بني زياد . ونتيجة لنقمة القبائل العربية على الحبشيين الموالي نشأ تحالف بين تلك القبائل وبين بني معن والصليحيين أمراء الجبل ولحج أبين وحضرموت، وعقدت الإمارة لعلي بن محمد الصليحي في مكة المكرمة سنة ٤٢٨ هجرية بحضور ستين رجلا من ذوي العزة والرفعة والمقام في اليمن وحضرموت. سيطر الصليحي على صنعاء وأرسل مبعوثا لنجاح الحبشي يعلن ولاءه له فوقع الحبشي في الفخ إلى أن كان يوم أرسل فيه الصليحي جارية حسناء هدية للحبشي فسممته وآل الحكم من بعده لابنه سعيد الأحول(٦٧). وفي تلك الأثناء أعلن الصليحي دعوته للمستنصر بالله الفاطمي أبي تميم معد صاحب مصر واستولى على اليمن وعدن

وأبقى فيها بني معن خلفاء له عليها وعلى متعلقاتها ومنها الشحر وحضرموت، أي قبل ثورة الصليحي بعام واحد فقط .

شعر الإمام علوي بن عبيد الله بالقلق من موالاة الصليحيين للفاطميين، فقد سبق أن التقى في داره بداعية الفاطميين عامر بن عبد الله الرواحي الذي كان يصاحبه علي ابن محمد الصليحي أينما ذهب ويطلعه على مذهبه وما عنده من أمور الحرب والسياسة إلى أن أصبح علي بن محمد فقيها في مذهب الإمامية. ولم يكن اللقاء الذي جرى بين الإمام علوي وعامر مريحا للاثنين معا، فعامر كان يسعى لكسب تأييد الطالبيين في حضرموت لدعوة الفاطميين انطلاقا من أن الفاطميين يؤيدون لآل البيت ويدعون إلى إمام من بينهم، في حين أن الإمام علوياً يشك في مدى صدق ودعاوى الفاطميين وينفر من أعمالهم منذ أن سرق حلفاؤهم القرامطة الحجر الأسود إلى أن حاول الحاكم بأمر الله الفاطمي سرقة جسد النبي (ﷺ) من قبره في المدينة المنورة. وهكذا لم يسفر اللقاء عن أي تقارب بين الطرفين، وبقي الإمام علوي يسير على خطا آبائه وأجداده بإبعاد آل البيت عن أن يكونوا سلعة أو أداة في يد الآخرين مهما صدقت نواياهم.

في الوقت الذي كان الفاطميون في مصر والشام وأفريقيا واليمن ومكة يلعنون الخليفتين الراشديين أبا بكر وعمر على المنابر، كان الخليفة العباسي الضعيف القادر بالله يأمر بلعن المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والجهمية على المنابر أيضا. وهكذا انقسم العالم الإسلامي رسميا إلى معسكرين سياسيين متضادين متناحرين وأخذ كل معسكر من المعسكرين يتأهب لإزالة الآخر من الوجود متذرعا بحماية الدين. وحدث أن أرسل الفاطميون في مصر رجلا إلى مكة المكرمة مهمته أن يضرب الحجر الأسود في الحرم الشريف ويكسره بعصا غليظة. ففعل فهب المصلون عليه وعاجلوه بالقتل ثم أحرقوا جثته فطار الخبر إلى بغداد ووصل إلى دار الخلافة[٦٨] فتوجه القادر بالله إلى مسجد " براثا " في بغداد وهو مسجد يقصده أهل الشيعة وأمر الخطيب بإلقاء خطبة تؤيـد أهل السنة فهاج المصلون وقتلوا الخطيب وكاد الخليفة نفسه أن يقتل لو لا أن هرب من أحد الأبواب وعمت الفوضى المدينة، وكان الخليفة القادر بالله قد قوي موقعه بعدما ضعف موقف البويهيين في بغداد، وكان الأمر بيد السلطان جلال الدولة أبي طاهر ووزيره علي بن ماكولا. فقام السلطان بإعداد منشور وقصد الجامع لقراءته ومعه رجال مسلحون يترضون عن الشيخين أبي بكر وعمر. ولما فعل حدثت فتنة قتل فيها المئات. ثم توفي يمين الدولة وبعده بقليل القادر بالله ، فتولى الخلافة بعده ابنه القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله[٦٩]. وأسرع نقيب الطالبيين في بغداد وشيخ المعتزلة الشريف الرضي إلى مبايعة الخليفة الجديد حقنا للدماء ومنعا من استمرار الفتنة. وما أن استتب للقائم بأمر الله دست الخلافة حتى ثارت الغلمان بالسلطان جلال الدولة

وصمموا على عزله فهرب تحت جناح الليل مع جماعة من صحبه. وفي الوقت ذاته، كان مسعود بن محمد بن سبكتكين الغزنوي يدخل أصفهان بالسيف ويتجه مجددا نحو الهند حيث قتل عشرات الألوف من الهنود وسبى مثلهم، ونشر الإسلام عميقا إلى حدود حيدر آباد(٧٠) عن طريق نهر السند، فسيطر الغزنويون على منطقة البنجاب بكاملها، وجعلوا "لاهور" مركزا لهم. ورغم أن الغزنويين كانوا مهتمين أساساً بالفتح العسكري أكثر منهم بتبليغ الدعوة الإسلامية، إلا أنهم بنصرهم العسكري، قاموا بتحطيم الموانع السياسية والعسكرية في شبه القارة الهندية أمام تبليغ الإسلام، وفتحوا الطريق أمام الدعاة الكبار للإسلام(٧١).

ورغم سطوته وعظمة فتوحاته فقد أعلن مسعود ولاءه للخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي استفاد من الوضع الجديد فدفع أعوانه لمحاصرة البقية الباقية من آل بويه في مدينة واسط بالعراق ففعلوا وقتلوا جلال الدولة وبذلك انقرض ملك بني بويه وقوي مركز الخليفة مجددا، غير أن مسعود بن سبكتكين توفي فجأة فتنافس على خلافته ابنه مودود وأخوه محمد واصطدم الاثنان في معارك طاحنة إلى أن تغلب مودود على محمد، ولكن هذا الفوز جاء متأخرا، ففي عام ٤٣٥ هجري نزلت جيوش الغز السلاجقة على غزنة واستولت على خراسان ووصلت إلى الموصل وتراجع نفوذ الغزنويين. ولكن هذا التغيير جاء داعماً لتوجهات الخليفة السنية المعارضة للفاطميين ولشيعتهم لأن توجه السلاجقة كان سنياً على عكس البويهيين الذين كان توجههم شيعياً(٧٢).

مع قيام الدولة الفاطمية في مصر أخذت تلك الدولة تعمل على نشر مذهبها في الخارج بدقة متناهية عبر إرسال الدعاة السريين إلى أمصار الخلافة العباسية بهدف القضاء عليها وإقامة خلافة فاطمية تُظلُّ المسلمين في المشرق والمغرب. وأرسل الفاطميون دعاتهم إلى خراسان وكان لهم حظ من النجاح في إقناع بعض الأمراء السامانيين فيها بالمذهب الفاطمي، ونجم عن الصراع بشأن قبول هذا المذهب أو رفضه أن أخذ لفيف من الناس يستمعون إلى الدعاة وهم يبشرون، وكان من بين هؤلاء الناس أديب وشاعر يدعى ناصر خسرو من مدينة مرو فتأثر بالدعاة ومنهم المؤيد والمنتخشبي(٧٣). وكان ناصر خسرو موظفا كبيراً في ديوان حاكم خراسان جغري بك فترك وظيفته في عام ٤٥٣ هجري وقرر الارتحال للتبشير بصحبة جماعة من جيش الأمير الساماني وهسودان من بني مسافر الذين كانوا من أهل الشيعة. وكان المزربان محمد بن مسافر شقيق وهسودان من دعاة الباطنية في خراسان. وصادق ناصر خسرو العلماء والأدباء ووصل إلى درجة أنه سافر من نيسابور في صحبة الخواجة الموفق هبة الله الذي كان مؤدبا للسلطان السلجوقي طغرل بك والذي لم يتردد في أن يترك مسعودا الغزنوي وينضم إلى السلاجقة حين رأى دولة الغزنويين في إدبار ودولة السلاجقة في إقبال. وقد التف حول الموفق جماعة من الشبان أخذوا عنه العلم وكان

يرشحهم لمناصب الوزارة عند السلاجقة. وكان من بين هؤلاء الشبان الكاتب نظام الملك وزعيم الباطنية حسن الصباح والشاعر عمر الخيام[٧٤]. ونظراً لبروز قدرات ناصر خسرو فقد دعاه المستنصر الفاطمي إلى زيارة القاهرة وكذلك دعا حسن الصباح. وفي مصر تأثر الاثنان كثيرا بالدعوة الفاطمية وصارا من كبار دعاتها في مساجد الأزهر وعمرو والحاكم، وكذلك في دار الحكمة ثم في قصر الخليفة الفاطمي نفسه حيث أن التدريس في مصر منذ قيام الدولة الفاطمية يقوم به قاضي القضاة وداعي الدعاة والوزير والخليفة نفسه.

وبعد إقامة في مصر دامت ثلاث سنوات، قرر ناصر خسرو العودة إلى بلخ في خراسان يصحبه أخوه أبو الفتح عبد الجليل، وكلفه الخليفة الفاطمي بمهمة دقيقة لدى القرامطة، ولذلك لم يعد ناصر خسرو إلى وطنه عن طريق ميسرة، بل اختار طريق الحجاز[٧٥]. فمكث في مكة ستة أشهر ثم غادرها إلى الحسا عن طريق غير مألوف أيضا فاستغرقت رحلته هذه تسعة أشهر في حين أن المسافر يبلغها عادة في ثلاثة عشر يوماً .

وكان حكام الحسا من القرامطة يعترفون بالخليفة الفاطمي ويدفعون له الخمس، ولكن الصلات فسدت بينهم وبينه بعد أن أغاروا على مكة وأخذوا الحجر الأسود إلى الحساء فأعلنوا لحلفائهم البويهيين [وهم شيعة] أنهم ينكرون الخليفة الفاطمي، ثم هموا بالهجوم على مصر وحاصروا المعز لدين الله فواجههم المعز بكتاب يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى أبيه من قبله، حتى انسحبوا وعادوا أدراجهم إلى الحسا[٧٦].

ولما وصل ناصر خسرو إلى الحسا اجتمع بالقرامطة وحاول إعادة صلات الود التي انقطعت بين القرامطة والفاطميين وإقرار مبدأ أن الدعوة واحدة وتحديد العلاقة بينهم وبين المستنصر خاصة وأن دولة السلاجقة السنية كانت قد نجحت في هزيمة الدولة البويهية الشيعية، الأمر الذي وجّه الفاطميين إلى ضرورة وصل ما انقطع من الصلات مع أصدقائهم لكي يقفوا جميعا في وجه قوة السلاجقة الذين عمدوا إلى القضاء على الباطنية حلفاء الفاطميين في حرب لا هوادة فيها[٧٧]. ولكن ناصر خسرو فشل في مهمته تماماً مثلما كان قد فشل في مسعى مماثل الدرزي وزير الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قبيل ذلك بسنوات. وعاد ناصر خسرو إلى مازداران حيث أقنع الكثير من أهلها بالمذهب الفاطمي فأثار هذا نقمة الدولة والناس عليه فاعتدى على بيته واضطر أخوه وأهله إلى هجره وحيداً فهرب إلى يمكان حيث كون فرقة باطنية دعاها الناصرية وسجل رحلته الطويلة في كتاب أسماه " سفرنامة "[٧٨].

توفي الإمام علوي بن عبد الله فخلفه في الإمامة وفي رئاسة نقابة الطالبيين في حضرموت واليمن ابنه محمد الذي قرر الانتقال من سمل إلى بلدة جبير المشهورة

بعذوبة هوائها ومائها حيث ابتنى دارا كبيرة كعادة آبائه وأجداده وزرع النخيل حولها وزاد من تجارته مع تجار حضرموت في الشحر الذين يتاجرون مع الهند ومع أفريقيا(٧٩). وكان للإمام محمد بن علوي ابن كبير أسماه علوياً وفاء لذكرى والده وكان يصطحبه معه باستمرار ويؤدبه أحسن الآداب ويعلمه الفقه واللغة في المسجد الجديد الذي بنته العائلة في بيت جبير ويسمى بمسجد التقوى. وكان يساعد الإمام محمداً في مهمة إعداد ابنه علوي تربية وتعليماً عمُّه عبيد الله بن بصري الذي كان فقيها بأمور الدين وضليعا بها وخاصة بمسائل تتعلق بموقف أهل البيت الطالبيين من الفتن التي تجتاح البلاد الإسلامية. وعلى العكس من أولاد الإمام علوي الذين كانوا يعملون في التجارة البحرية، كان بعض أولاد عمومتهم من طرف إسماعيل [بصري] بن عبيد الله ينشطون في الدعوة الإسلامية في مناطق بعيدة. وكان بركات بن طاهر بن بصري أمضى هؤلاء عزيمة، فقد اشترى مركبا حربيا قويا أسماه "رقم" وأقلع به نحو الشرق ينشر الإسلام في الجزر البعيدة كالرامني وسمودرا وسراواك وبورنيو وآتشيه وفرليس وفاليمبانــغ وجوهور. وقد انقطعت أخباره عن أهله إذ لم يعد من أسفاره منذ سنوات (٨٠).

كان من نتائج استيلاء الصليحيين على حضرموت القضاء على شوكة فرقة الإباضية فيها وانتقال ولاء حكامها الجدد إلى الفاطميين(٨١) فوقع أهل البيت من الطالبيين والمائلين إليهم من السنة الشافعيين بين نارين. وحدث أن توفي في عام ٤٣٦ هجري نقيب الطالبيين في بغداد الشريف المرتضى فهاج الناس خلال الجنازة وسقط المئات من القتلى بسبب سوء تصرف قائد شرطة بغداد النسوي الذي كان مكروها لدى سكان بغداد سنةً وشيعةً على حد سواء(٨٢). وكادت الفتنة أن تنتقل إلى اليمن عندما خطب الصليحي لصاحب مصر الفاطمي وكان قبل ذلك يخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي، ثم خطب أئمة المساجد في الكوفة والموصل للفاطميين أصحاب مصر فهاجت بغداد والعراق مجددا وأمر الخليفة رئيس ديوانه ومنشئ دار الخلافة العلاء بن موصلايا بإعداد بيان يتضمن الذم والقدح في نسب بني عبيد الفاطميين بمصر والمغرب واليمن والشام وإلحاق التهمة فيهم بأنهم يهود وأنهم كاذبون في انتسابهم إلى جعفر الصادق (ﷺ). وتم توزيع البيان في بغداد مما دفع أهل الشيعة أن يكتبوا على أبواب مساجدهم: "محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر". وأدى ذلك إلى اضطرام الفتنة بين المسلمين في كل أمصار الخلافة(٨٣). واستفــاد المستنصر بالله الفاطمي من الأجواء السائدة في بغداد فأرسل داعية له يدعى البساسيري إلى بغداد وألب الناس ضد الخليفة العباسي يساعده في ذلك أمير بويهي يدعى فيروز، فثار الناس وهاجموا قصر الخلافة فهرب القائم بأمر الله منه، في حين قبض البساسيري على

وزيره علي بن الحسين بن أحمد وسلمه للهائجين فمثلوا بجثته وعمت المذابح المدينة وسيطر عليها العيارون وصغار الجند فنهبوا دار الخلافة وبغداد[٨٤].

ولم يوقف دمار المدينة إلا وصول زعيم قبائل الغز التركي طغرل بك إلى بغداد في عام ٤٤٧ هجري[٨٥] بعد أن كان قد اجتاح أراضي أمراء التركيتان وآل سبكتكين فيما وراء النهر وخراسان في طريقه. فكتب إلى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه أن يقره على ما فعل ويأذن له بالحكم على ما استولى عليه فأجابه الخليفة إلى طلبه فدخل طغرل بك بغداد ومعه الخليفة القائم بأمر الله[٨٦] وتزوج ابنة الخليفة تمتيناً لأواصر وعُرا التحالف بينهما[٨٧] وعين القائم بأمر الله وزيرا جديدا له هو أبو منصور جهير وعطف عليه بلقب عميد الدولة [٨٨].

وكما كان الحال في زمن الخلفاء السابقين حيث تتنافس عائلات بني الفرات وبني مقلة والجراح على دست الوزارة، فإن الأمر عاد ليتكرر في زمن القائم بأمر الله حيث طمحت بعض العائلات الكبيرة إلى تولي هذا المنصب مثل بني جهير وبني رئيس ويحيى بن هبيرة. والفارق الوحيد بين الحالتين هو أن الوزراء في زمن المعتضد بالله والموفق بالله كانوا يستوزرون للخلفاء فقط، في حين أن الوزراء في زمن القائم بأمر الله صاروا يستوزرون للخلفاء والأمراء البويهيين أولاً ثم للأمراء السلاجقة من بعدهم .

بعد أن استتب الأمن في بغداد أطلق الخليفة عسسه للقبض على فيروز آخر أمراء البويهيين الاثني عشر الذين توالوا على الحكم فعثروا عليه مختبئا في ضواحي المدينة فأحضروه إلى الخليفة الذي أمر بقطع عنقه. وعادت ثقة الناس بالخلافة تتجدد فتحركت الأعمال التجارية وكثرت الحلقات التدريسية في المساجد وخفت الفتنة المذهبية إلى درجة كبيرة. وأما طغرل بك فقد كان في حقيقة الأمر هو الحاكم الحقيقي وأنعم الخليفة العباسي عليه بلقب سلطان فأصبحت بغداد برأسين اثنين يخطب لهما في المساجد[٨٩].

وسرعان ما غير القائم بأمر الله وزيره واستبدله بأبي نصر منصور بن محمد الكندري المعروف بأنه معتزلي رافضي بهدف إحلال شيء من التوازن في علاقته بالناس. ولكن هذا التغيير حمل في طياته مشكلة جديدة إذ تسبب الوزير الجديد بفتنة في بغداد دون أن يدري عندما أمره السلطان طغرل بك، وهو حنفي سني، بأن يطلب من أئمة المساجد لعن المبتدعة على المنابر أيام الجمع، فامتثل الكندري للأمر ولكنه قرن التسلي والتشفي اسم الأشعرية بأسماء أرباب البدع فثارت بغداد مجددا ولم يتم السيطرة على الأمور إلا بعد عزل الوزير الكندري واعتقاله وتعيين محمد بن جهير مكانه مع إضفاء لقب فخر الدولة عليه. غير أن جذوة الفتنة لم تنطفئ تماما[٩٠].

بعد أن سيطر علي بن محمد الصليحي على قطر اليمن كافة من مكة إلى حضرموت عام ٤٥٥ هجري استقرت عاصمته في صنعاء، فقام بالحج إلى البيت الحرام وكسا البيت الشريف الثياب البيض. وكانت مكة أنذاك في ملك محمد بن جعفر ابن أبي هاشم بعد انقراض آل السليمانيين فيها بوفـــاة شكر بن أبي الفتوح السليماني من غير عقب. وخطب أمير مكة الجديد في موسم الحج للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، فاطمأن الصليحي إلى متانة نفوذه وعاد إلى صنعاء. وكان قد استخلف على عدن بني معن الذين ينسحب نفوذهم على حضرموت أيضا التي أصبحت جزءا من مملكة الصليحي القائم باليمن نيابة عن المستنصر الفاطمي. ولكي يضمن الصليحي ولاء ولاته في الأقاليم التابعة له بنى في صنعاء عدة قصور وأسكن فيها ملوك اليمن الذين كان قد أزال ملكهم كي يدرأ أي مؤامرة انتقامية من جانبهم[٩١]. وما إن مرت عدة سنوات حتى غير أمير مكة رأيه فعاد يخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله بعد أن أجزل له السلطان السلجوقي طغرل بك العطاء[٩٢]. فعمد المستنصر بالله الفاطمي إلى قطع ميرة مصر عن مكة فعزل أهلها أميرهم فأعاد الخطبة للمستنصر بالله طوال السنة على أن يخطب للقائم بالله العباسي في موسم الحج فقط، وكتب بذلك للمستنصر بالله يعتذر له عن تلك التسوية، فأرضى بذلك الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي والسلطان السلجوقي في آن معا[٩٣].

وأما علي بن محمد الصليحي، فقد زوج ابنه البكر ابن علي الصليحي من ابنة نائبه على عدن وحضرموت من بني معن، وجعل صداقها عدن وما إليها، فكان بنو معن يدفعون الخراج للسيدة زوجة المكرم[٩٤] وكان ذلك الترتيب من تدبير زوجة علي الصليحي أسماء بنت شهاب التي كانت تعين زوجها في رسم سياسته وإقامة تحالفاته ضمانا لمستقبل ولدها المكرم .

والمهم في الأمر أن الصليحي قد نجح في فرض سيطرته على أقاليم اليمن سواء بشكل مباشر أو عن طريق ولاته فيها. وكان مكمن الخطر الوحيد على تلك السيطرة ماثلا في سعيد الأحول الحبشي في " زبيد " الذي لم يكن يخفي رغبته بالانتقام لمقتل والده منتظرا حلول الساعة المناسبة لتحقيق ذلك .

في تلك الأثناء مرض الإمام محمد بن علوي مرضا شديدا أودى بحياته وهو بعد في الخمسين من عمره، فدفن في محل يسمى الصومعة في بلدة بيت جبير كان الإمام يعتاد الذهاب إليه وحيدا للتعبد والتصوف. واجتمعت العائلة وصحبها وقرروا نقل الإمامة إلى ابنه علوي بن محمد مع تسميته نقيبا لهم على غرار سنتهم التي ساروا عليها أبا عن جد .

وكانت أم الإمام علوي من آل جديد أي من أعمام ابنها واسمها عائشة، فأحسنت تربيته وأعدته ليكون أهلا بثقــة العائلة فيه. ولما بلغ سن الرشد زوجته فأنجب ولدين

هما سالم وعلي وبنتاً هي فاطمة . وسار الإمام علوي بن محمد على هدي أبيه وجده من قبله في الاهتمام بالزراعة والتجارة فأقبل على التردد كثيرا إلى ميناء الشحر لعقد الصفقات مع التجار هناك ممن يتاجرون بسفنهم مع ممالك سواحل أفريقيا المسلمة في الصومال مثل ممالك دوارو، وهديا، شرحا، ودارة التي تحكمها قبائل مسلمة محاربة وشديدة الشكيمة مثل قبائل موافاريا وشيمارو ودناكل وجارو. وكانت السفن الحضرمية تصل حتى مقديشو وبربرة وكليوة وممباسا ولامو جنوب الصومال ثم تنتقل إلى جزائر زنجبار وجزيرة القمر الكبرى(٩٥). والجزيرة الخضراء (٩٦). ولكي يطلع الإمام علوي أولاده على أخبار الدنيا خارج حضرموت فقد أرسل ابنه مع إحدى السفن المتجهة إلى الجزيرة الخضراء ومعه بضاعة له، واختار له تلك الجزيرة لأنه كان يسمع من أبيه أن أحد أقاربهم من آل محمد بن عيسى ممن كانوا يعيشون في مدينة شيراز قد هاجر إلى الجزيرة منذ زمن بعيد، وأقام في عاصمتها "كاسو" منذ ذلك التاريخ، ثم انتشر أحفاده على الساحل ووصلوا إلى مدينة مومياسا في موزامبيق التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى فاتحها المسلم مسلم بن بيق(٩٧). فكانت السفرات بقصد الاتجار وصلة الرحم معا. ولما عاد علي بن الإمام علوي من رحلته كان مبهورا من وجود ممالك إسلامية على سواحل أفريقيا ولاجتماعه بأقارب له في بعض منها وخاصة في الجزيرة الخضراء، حيث فوجئ علي بأن أمير الجزيرة هو من أحفاد محمد بن عيسى فعلا وأن أقارب الأمير من عائلتهم هم تجار كبار يتاجرون مع الهند والصين وجزر الهند الصينية. وكم كانت فرحة الإمام كبيرة بتحقيق ما كان جده الأكبر أحمد بن عيسى يتوق إليه .

وكان الإمام علوي يصطحب معه في أسفاره إلى الشحر وعدن والمكلا دوما ابنيه سالماً وعلياً لكي يتعلما على يديه أصول التعامل التجارية. أما التفقه ودراسة اللغة العربية وأصول الدين الحنيف فقد كان يجري كل أولئك في حلقة مسجد التقوى داخل بيت جبير على يد كبار علماء العائلة وصحبهم من السادة العلماء. ومنذ أن عاد ابنه علي من رحلته لأفريقيا فكر الإمام علوي بتنويع مصادر ثروة العائلة أكثر بإيجاد قاعدة احتياطية لأولاده وأفراد عائلته وصحبهم يلجؤون إليها إذا ما اضطربت الأمور في حضرموت، إذ أن نذر العاصفة كانت تحوم في سمائها منذ حين.

وذات يوم من عام ٤٦٣ هجري وصل إلى بيت جبير تاجر بصري يحمل بعض الرسائل والهدايا من أهل الإمام علوي في العراق، ولم يكن قد بقي منهم في البصرة غير قلة يسيرة منذ رحيل جد العائلة أحمد بن عيسى منها. ووقف الإمام علوي وأولاده وصحبه من التاجر على آخر أخبار العراق فعلموا أن السلطان طغرل بك السلجوقي قد مات وخلفه على السلطنة محمد ألب أرسلان ابن مؤسس الدولة السلجوقية داود بن سلجوق بن دقاق، وأن السلطان الجديد ألب أرسلان قد استوزر أديبا لامعا

وشخصا لا يبارى في علمه هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق ولقبه بنظام الملك الذي حظي بمحبة واحترام كل من الخليفة والسلطان في آن معا[٩٨]. وأخبرهما التاجر أنه قد مر في طريقه إلى حضرموت بمكة المكرمة فوجد أن أميرها محمد بن جعفر بن أبي هاشم يخطب على المنابر للسلطان ألب أرسلان السلجوقي مغفلاً كلا من الخليفتين العباسي والفاطمي وذلك بعد أن بعث له السلطان السلجوقي بأموال كثيرة فقويت شوكته بفعل ذلك فهاجم المدينة المنورة وأخرج منها واليها هاشم بن الحسن بن داود من بني الحسن وجمع تحت سيطرته الحرمين الشريفين في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة .

في ضوء سماع تلك الأنباء من التاجر، قرر الإمام علوي التوقف عن التجارة البرية مع العراق والتركيز على التجارة البحرية لأن طريق الحج أصبح مشوبا بالمزاجية السياسية لأمير مكة ولم يعد طريقا محمياً وآمنا يلوذ به المسلمون عامة وتجاراً. وكان قراره هذا صائباً إذ أن الأوضاع كانت تتحرك أيضا في حضرموت المستقلة اسميا عن سيطرة الصليحي والتي كانت تابعة لأمراء بني معن في عدن. وسرعان ما انقسمت حضرموت إلى ثلاث ولايات إحداها صارت تدعى سلطنة آل قحطان ومركزها مدينة تريم، والثانية سلطنة بني الدعار ومركزها مدينة شبام، والثالثة سلطنة الفارس ابن إقبال ومركزها الشحر ومدينتها الرئيسية هي الأسعى[٩٩]. فغرقت حضرموت تتخبط في ظلام من الفوضى والتنافس حتى غدت بلدتها عرضة لغارات القبائل المتناحرة وانتقامات الثائرين وألعوبة تتنازع عليها تلك السلطنات الثلاث .

مرت تسع سنين على سلطة السلطان ألب أرسلان إلى جانب الخليفة القائم بأمر الله في بغداد. وكان الحكم منسجما بين الاثنين بفضل حنكة الوزير نظام الملك الذي أضحى هو الحاكم الحقيقي للخلافة ومقصد رضا الأمراء والقواد، ولأن السلطان كان منشغلا بتعزيز ملكه بعد ما شعر أن ابن عم أبيه قتلمش يطمع في الملك . فتوجه إليه على رأس جيش كبير وقتله ومعه جماعة كثيرة من أتباعه، ثم اصطدم مع قائد قلعة ترمذا ويدعى يوسف وهو من قواد قتلمش بعد أن عبر نهر جيحون واستطاع يوسف أن يقتل ألب أرسلان في معركة حاسمة سنة ٤٦٥ هجرية. وسبب النزاع بين ألب أرسلان وابن عم أبيه قتلمش يعزى إلى أن السلطان ركن الدين طغرل بك كان متزوجا بوالدة ابن أخيه المؤيد بالله أبي القاسم سليمان. ولما مات طغرل بك في مدينة أرمية عهد بالولاية إلى ابن أخيه سليمان، فقام هذا الأخير بأمر البيعة ولقب نفسه مشيد الدين وفرق على العسكر سبعمائة ألف دينار وستة عشر ألف ثوب من الديباج المذهب، غير أن الأمر لم يقم له إذ استطاع عضد الدين ألب أرسلان إزاحته والحصول على البيعة لنفسه. وهكذا انقسم الناس إلى قسمين منذ ذلك الوقت إلى أن تمكن يوسف من قتل أرسلان، غير أن السلطنة لم تؤل ليوسف أوغيره بعد مقتل قتلمش أيضا بل ذهبت إلى

ابن ألب أرسلان ملكشاه الذي أرسل إلى بغداد والأطراف فخطب له بها على عادة أبيه قبله[١٠٠]. واحتفظ ملكشاه بوزير أبيه نظام الملك وزيرا له فصار الأمر كله للوزير كما كانت الحال أيام ألب أرسلان.

وما هي إلا سنة إلا ويتوفى الخليفة القائم بأمر الله في عام ٤٦٧ هجري بعد حكم مديد استمر خمسة وأربعين عاما، فخلفه ابنه المقتدي بأمر الله الذي أبقى على الوزير فخر الدولة واستمر بعلاقة التحالف بالسلاجقة[١٠١]. من خلال اقتسام السلطة مع السلطان ملكشاه. وكان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله مازال يحكم مصر وشمال أفريقيا يساعده في ذلك وزير نشط يكاد يرقى إلى مستوى نظام الملك في بغداد. وهذا الوزير هو بدر الجمالي وأضحت بلاد الشام مجالا لتطاحن العباسيين والفاطميين. فبعد أن وقعت دمشق بيد أنوشتكين الدزبري الموالي للفاطميين منذ عام ٤٢٩ هجري دشن ملكشاه عهده بأن أرسل أحد قادته وهو أتسز بن أرتق الخوارزمي إلى دمشق وطرد منها أنوشتكين وقطع الخطبة للمستنصر وخطب للمقتضي العباسي موسعا سلطة العباسيين ومقربا خطوط التماس بين الخلافتين إلى حدود فلسطين. وأما في مكة فإن أميرها محمد بن جعفر انقطعت عطاياه التي كان يرسلها له الخليفة القائم بأمر الله منذ وفاة هذا الأخير فعمد إلى قطع الخطبة للعباسيين، ولما وصل الخبر إلى المقتضي بأمر الله أرسل لمحمد بن جعفر مالا وفيراً فأعاد الخطبة له وجهز منبرا في مكة كتب عليه اسم الخليفة العباسي المقتضي بأمر الله فوقعت الفتنة بين أهل الشيعة وأهل السنة وكسر المنبر وأحرق ولكن الخطبة استمرت للعباسيين[١٠٢].

سار ملكشاه على نهج أبيه من قبله فجرد حملة على ما وراء النهر وقضى على ملك أحمد خان أحد ملوك التركستان في بخارى وسمرقند ووصلت فتوحاته إلى مدينة كاشغر. وأما خراسان، فقد بقيت بيد ملكشاه نفسه.

كانت مخاوف الإمام علوي في محلها بالنسبة لاضطراب الأحوال في حضرموت بسبب رغبة الانتقام الدفينة التي كانت تعتمل نفس سعيد الأحول ضد علي ابن محمد الصليحي. وفي سنة ٤٧٣ هجرية عزم الصليحي على الحج فأخذ معه الملوك الذين يخاف ثورتهم ضده، واصطحب زوجته أسماء بنت شهاب وتوجه في ألفي فارس، فيهم من آل الصليحي مائة وستون من خيرة فرسانهم واستخلف مكانه ابنه المكرم أحمد بن علي الصليحي. وكان سعيد الأحول الحبشي، نجل نجاح الحبشي الذي كان علي بن محمد الصليحي قد دس إليه السم على يد جارية جميلة أهداها له، مختفيا بزبيد وكان أخوه جياش مختبئا في دهلك. ولما علم سعيد بتوجه الصليحي للحج، استدعا أخاه جياش فتآمر على لقائه وتوجها للقائه على رأس سبعين رجلا. واختاروا طريق الساحل حتى بلغوا ناحية المهجم حيث كان الصليحي نازلاً، ولما اقتربوا من معسكره ظنهم الناس من عبيد العسكر فدخلوا وذبحوا الصليحي وإخوته وعدداً كبيراً

من فرسانهم وهم نائمون، وأسروا السيدة أسماء بنت شهاب ومائة وسبعين أميرا ممن كان الصليحي يجبرهم على الرحيل معه أينما ذهب خوفا منهم علاوة على خمسة وثلاثين أميرا من ملوك قحطان(١٠٣). وهمَّ سعيد بقتلهم فنهاه أخوه جياش ناصحا إياه أن يطلق سراح أسماء والأسرى ويكتب عن طريقها لولدها المكرم بن علي الصليحي إننا أي سعيداً وجياشاً قد أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا وقد أحسنا إليك وحملنا إليك أمك بصيانه وعفونا عن بني عمك، ولكن سعيد أجاب أخاه ببيت شعر يقول:

لا تقطعــن ذنــب الأفعــى وترسلها　　　إن كنــت شــهما فأتــبعْ رأسها الذنبا

ثم أمر بالصليحيين فقُتلوا عن آخرهم وأخذ زوجة الصليحي أسيرة معه وعاد سعيد الأحول إلى زبيد ومعه من الغنائم ملك عظيم فملك تهامة بكاملها.

وأما المكرم بن علي الصليحي فقد كان في صنعاء عندما قتل أبوه وأسرت أمه. ولما انقضى عام على أسر والدته كتبت إلى ابنها سراً مستنجدة به فوصل إلى زبيد على رأس ثلاثة آلاف فارس وخرج إليه سعيد الأحول فانهزم أمام المكرم وفر سعيد على خيل مضمرة كان قد أعدها مسبقا بباب النخل من زبيد للطوارئ، فركب عليها فيمن سلم من أهل بيته وخواصّه وسار إلى البحر وقد أعدت سفن هناك فركبها من فوره إلى دهلك. وأما المكرم فقد حرر والدته وعاد بها إلى صنعاء واستخلف وراءه على زبيد وسائر تهامة خاله أسعد بن شهاب الصليحي) وكان ذلك في عام ٤٨٠ هجري.

ولما وصل المكرم إلى صنعاء أصيب برعشة دائمة لم تفارقه ففوض الأمر إلى زوجته سيدة بنت أحمد بن محمد فانفردت بالأمر ودبرت الحيلة لقتل سعيد فأمرت الحسن بن علي السبعي صاحب حصن الشعراء، أن يكاتب الأحول ويقول له: إن المكرم أصابه الفالج وجعل أمره بيد امرأته، وأنت أقوى ملوك اليمن، فإن رأيت أن تطبق على ذي جبلة أتيت من تهامة ونحن من الجبل فافعل فدولتكم أحب إلى المسلمين، فحسن ذلك موقعاً عند سعيد فخرج من زبيد إلى ذي جبلة في ثلاثين ألف مقاتل، وكان خروجه في يوم قد عينه ابن السبعي المذكور. فلما خرج من زبيد خالفه عمر بن الفضل وأسعد بن شهاب إلى زبيد في ثلاثة آلاف فارس بأمر سيدة بنت أحمد فتملكوا زبيد فأخذوها وهرب بقية بني سعيد، فلما صار سعيد بجيشه المذكور تحت حصن الشعراء أطبق عليه الحسن فقتل هو ومن معه ولم ينج منهم إلا اليسير وذلك سنة ٤٨٠ هجرية(١٠٤).

ومن بين الذين نجوا أخوه جياش بن نجاح الذي هرب إلى الهند ومعه وزيره خلف بن أبي الطاهر فأقام في الهند ستة أشهر واشترى جارية هندية حملت بابنه فاتك ابن جياش ثم عادوا جميعا متخفين إلى زبيد متحضرين للانتقام عندما تحين اللحظة

المواتية. ورغم أن أعمال الانتقام والانتقام المضاد بين الصليحيين والحبشيين كانت تجري في صنعاء بعيدا عن بيت جبير في حضرموت، إلا أن التوتر السائد في اليمن انسحب فوراً على الأجواء في حضرموت بسبب التحالفات المتعارضة التي سارت عليها سلطات حضرموت الثلاث إزاء معسكر الصليحيين والحبشيين.

وفي ظل تلك الاضطرابات رأى الإمام علوي أن الحكمة تقتضي عدم الانخراط في التنافس الجاري والنأي بالطالبيين عن أي من المعسكرات المتصارعة حفظاً لكرامة أهل البيت واقتداءً بهدي التجارب السابقة لهم في العراق والحجاز وخراسان. فجمع أهله وصحبه وحاشيته وطلب منهم عدم التورط مع أحد مهما كانت المغريات مثل مبايعة الناس لأهل البيت لقيادتهم أو لتمثيلهم أو لاستلام سلطة الحكم، لأن كل تلك المغريات دافعها الرئيسي خطب ود الإمام علوي واستثماره لأغراض سياسية دنيوية، وهذا أمر يتعارض مع الخط الذي سار عليه أجداد الإمام منذ استشهاد الحسين (ع) وقتل أخيه الحسن (ع) سبطي رسول الله (ﷺ).

وبفضل هذا النهج استطاع الإمام علوي وأولاده البقاء بمنأى عن التوترات. غير أن تلك النزعة الحيادية المبدئية لم تكن مفهومة في أوساط أهل حضرموت واليمن ممن اعتادوا على فرض وجهات نظرهم بحد السيف، ولذلك ظهرت بعض الانتقادات تعاتب الإمام علوياً على سلبيته وعدم اغتنامه الفرصة للتمرد ضد العباسيين في بغداد والانضواء تحت راية الفاطميين في القاهرة والمغرب واليمن. ورغم الصراع الدموي الناشب بين الصليحيين والحبشيين فإن كليهما كان يدين بالطاعة للفاطميين، ولذلك فإن الخليفة المستنصر بالله لم يتدخل كثيرا في الصراعات الداخلية بين القبائل طالما أن ولاءها مضمون له. وهكذا فبعد أن انتصر المكرم الصليحي على خصمه سعيد الأحول، التف صوب عدن فهاجم بني معن لمعاقبتهم جزاء انفرادهم بالحكم وهم أساسا من ولاة الصليحيين فأخرجهم من الحكم وولى المكرم ولديه عباساً ومسعوداً عليها. وبهذا اقتربت خطوط التماس بين الصليحيين مجددا في اليمن وعدن وتهامة مع حضرموت المنقسمة إلى ثلاث سلطانات : دعارية وقحطانية وإقبالية[١٠٥].

لم يكن الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الإيراني الأصل يرتاح للتعامل مع السلطان الشاب ملكشاه التركي الأصل الذي كان مغرورا بنفسه بما فيه الكفاية لكي يصطدم مع غرور وزيره الذي كان قد سبق وخدم والده قبله. وهكذا دب الجفاء بينهما ولعبت أيدي الأعداء في الخفاء لتعميق الجفاء. فاعتزل الوزير دست الوزارة وغاب عن قصر السلطان الذي نوى له الشر فأرسل إليه خادمه "صندل"[١٠٦] قائلا له :"اختل به وقل له: إنك قد استوليت على بلادي وتحكمت في المملكة أكثر من تحكمي، وقسمت البلاد والأعمال بين أولادك وصحبك وعلمائك، ثم اتخذت من المدارس والربط والأوقاف ما يزيد على ثلث المملكة ثم ما تخرجه في كل سنة في البر

والصلات حتى كأنك شريكي أو قسيمي. فأقصرْ عما أنت عليه واحتفظْ بالأموال واعزلْ أصهارك وأولادك من البلاد وإلا أطبقت دواتك وأبطلت تصرفاتك. ولولا أنني أرى حق شيخوختك وقديم خدمتك لتجاوزت ذلك غيره وفعلته الآن ". فلما مضى الخادم وأدى إليه الرسالة قال للخادم :" كما بلغتني ما قال، بلِّغه ما أقول: "سلِّمْ عليه وقل له: " تعلم أنني شيخ كبير وقد قاربت شمس الغروب، ولم يبق لي غرض في الدنيا لعلمي بقرب مفارقها، وقد فعلت في مملكة والده ومملكته من الضبط وحسن السيرة ما يعلمه الله والناس. أما الأوقاف والصدقات، فعليّ تعبها وله ذكرها وأجرها، هذا إن كنا منصفين. وإن كنا ظالمين فعلينا التعب والوزر ولأربابها النعم والأجر. وأما أهلي وغلماني، فلم أولِ منهم من وليت إلا الكفاية والغنى، لا للقرب مني، فمن قبحت سريرته عزلته، واستبدلت به. وأما قوله: كان شريكي في ملكي، فقد صدق. نعم شريكه وجميع المسلمين شركاؤه، وخصوصا جميع جنده ورعيته، فإن المال مال الله، جعله تحت يده ليصرفه في صالح عباده. أما رفع دواتي فهذا إليه، ولكنها مقترنة بعزة تاجه ودولة سريره. فلئن تغيرت حالها ليتغيرن ذلك الحال، والله أعلم " .

فلما عاد الخادم صندل إلى السلطان بالرد وجم لذلك ولم يتكلم بشيء ثم سار إلى العراق ودخل إلى بغداد وخرج نظام الملك في أثره فخرج عليه باطني من الديلم وقتله قرب مدينة نهاوند في العاشر من رمضان. وأما السلطان ملكشاه نفسه فقد مرض ببغداد ومات بعد وزيره بشهر تقريبا وذلك في عام ٤٨٥ هجري، فخلفه على الحكم في أصفهان ابنه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وفي خراسان أخوه أرسلان أرغون بن ألب أرسلان[١٠٧].

وما هي إلا سنة ويتوفى الخليفة العباسي المقتدي بالله في عام ٤٨٧ هجري، ويخلفه المستظهر بالله الذي استوزر أديباً من بني جهير يدعى أبا منصور فأضفى عليه لقب عميد الدولة، في حين استوزر غياث الدين محمد بن ملكشاه ابن وزير أبيه نظام الملك وخلع عليه لقب مؤيد الملك. وكان لغياث الدين عدة إخوة، محمود من والدة واحدة، وبركيارق وسنجر من والدتين أخريين. وحدث أن ثار بركيارق بإيغار من والدته زبيدة ضد أخيه غياث الدين وجرت بينهما حرب وخطوب وصلت إلى داخل بغداد نفسها عندما اصطدما فيها ودمرا بثق النهروان. فاشتكى منهما للخليفة عميد بغداد أبي جعفر محمد بن الحسن العراقي فأمر الخليفة بإصلاح البثق على نفقته الخاصة. وفي أحد الأيام سول الوزير مؤيد الملك للسلطان غياث الدين قتل زبيدة أم بركيارق أخيه ففعل ثم قتل أخاه بركيارق نفسه فخلا له الجو عام ٤٩٢ هجري ولكنه ترك شقيقه سنجر على خراسان بعد أن كان غلمان شقيقهم أرسلان أرغون قد ثاروا عليه وقتلوه بتحريض من غياث الدين. وقد استوزر غياث الدين لأخيه سنجر أديبا معروفا يدعى أبا الفتح إسماعيل بن الحسين الطغرائي[١٠٨]. وبعد أن استتب له الأمر سار غياث

الدين إلى بغداد وجلس له الخليفة المستظهر بالله وخلع عليه خلع السلطنة رسميا ثم غادر إلى أصفهان .

وفي ظل تلك التطورات المتسارعة في العراق وخراسان حدثت تطورات هامة مماثلة في أمصار الخلافة الأخرى، فقد استعاد تتش بن ألب أرسلان دمشق من قسيم الدولة أقسنقر عامل ملكشاه عليها بعد وفاة هذا الأخير ثم ضم إلى ملكه حلب أيضا. وحدث أن قتل تتش في صفر سنة ٤٤٨ هجرية فخلفه على الحكم على حلب ابنه رضوان بن تتش، وفي دمشق ابنه الآخر دقاق بن تتش الذي كان أتابك دولته يدعى طغتكين السلجوقي. وأما عامل مكة محمد بن جعفر من الهواشم فقد مات في عام وفاة السلطان ملكشاه نفسه، وولي بعده ابنه قاسم الذي لم يكن بمستوى حنكة أبيه فاضطربت الأمور عليه. وكان على غزنة مسعود بن إبراهيم سبكتكين فبقي في إمارته شبه مستقل عن بغداد. وأما التطور الهائل الذي حدث فقد حصل في الأندلس حيث استغاث ملوك الطوائف بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين من المرابطين المغاربة واستصرخوه لنجدتهم من زحف النصارى الإسبان. واستطاع ابن تاشفين أن يوقف زحف الأسبان ويقهر قواتهم في عدة معارك حتى استولى على العدوتين : المغرب والأندلس(١٠٩).

وعلى الرغم من الخطر الداهم، بقي ملوك الطوائف على أثرتهم وأنانيتهم متفرقين وقلوبهم شتى، متناحرين لا يهمهم إلا ذاتهم أمام عدو يجمع ويوحد صفه. ولذلك قسا عليهم ابن تاشفين إلى درجة أنه قتل المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس وحجز حرية ملك إشبيلية وقرطبة المعتمد بن عباد في بيت خاص أقام فيه مع زوجته وبناته اللواتي عملن بالغزل لكي يُعنَّ والدهن بعد أن كانت لديه السلطة والمال في الأمس القريب(١١٠). أما ملك طليطلة القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون فقد سلم مدينته لملك الإسبان ألفونسو السادس في ٢٧ محرم من عام ٤٧٨ هجري بعد أن حكمها العرب المسلمون ٣٧٢ عاما. وقد اتخذ ألفونسو طليطلة خاصة لملكـــه فغدت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية(١١١). وأصبحت إسبانيا المسلمة كلها بيد المرابطين سنة ٤٨٧ هجرية باستثناء ولاية سرقسطة حيث أبو جعفر أحمد بن هود المستعين بالله الذي استفاد من نجدة المرابطين دون أن يفقد سلطانه لموقفه الشريف في وجه زحف الإسبان (١١٢).

بعد استتباب الأمر بيد يوسف بن تاشفين خاطب الخليفة العباسي مبايعا إياه فأقره المستظهر بالله على جميع ما أخذه، وأصبحت الأندلس تابعة لبغداد العباسية ولو اسميا وتوقفت الخطبة للأمويين فيها، فاعتقد الخليفة العباسي أنه أضحى قادرا على الالتفاف على منافسه الرئيسي الباقي الخليفة الفاطمي المستعلي بالله الذي كان قد خلع أباه المستنصر بالله في عام ٤٨٧ هجري، لاسيما وأن مصر وقعت انذاك فريسة للقحط الشديد طوال سبع سنوات وانخفض منسوب نهر النيل كثيرا فتراجع المحصول

تراجعا كبيرا وغلت الأسعار وفرغت خزائن الفاطميين وتوقف الدعاء لهم في مكة المكرمة(١١٣).

لم تكن الحالة الاجتماعية بحضرموت مُرْضية، وما كانت شؤونها السياسية ولا الإدارية على أحسن ما يرام، بل كانت، بالرغم من دعوة الطالبيين في بيت جبير وغيرهم من العلماء وخاصة في تريم، في اضطراب دائم وتطاحن مستمر. وكان حبل الأمن متروكا على غاربه، لذلك لم يكن الشخص في حضرموت ممنوع الجانب موفور الحرمة إلا بقدر ما لقبيلته أو أهل بلده من وفرة العدد وقوة الأنصار، ولم يكن لكل إمارة من الإمارات الثلاث المتنازعة فيما بينها جيش خاص أو شرطة لصد غارات المغيرين وكبح جماح الطامعين، بل كان ذلك موكولاً إلى رجال تلك البلدة أو القبيلة بأجمعهم. فغذى هذا الأمر فيهم عصبيتهم البلدية وفشت روح الانتقام في أكثر أشكالها قسوة ووحشية فلا يزال الخصم يتربص لخصمه ويتحين له الفرصة حتى إذا مكنته الظروف ظفر به وظهر عليه وفعل به كل ما يستطيع المنتقم القاسي من صنوف شتى وضروب الانتقام. وكان هناك قوم يدعون بني حرام كان لهم الضلع الأكبر في تعكير الأمن وفي النهب والسلب والإيقاع بين القبائل وزرع البغضاء والشحناء فيما بينها(١١٤).

وكانت دعوة الطالبيين قد قرعت أسماء أهل حضرموت في جميع نواحيها وحلت مكان الإباضية التي انسحبت إلى شبام ولقيت القبول التام لدى الكثيرين منهم، ومع ذلك ما برح الإمام علوي في موطنه الصغير في بيت جبير يتطلع إلى الفرصة الملائمة لدخول مدينة تريم ومساكنة أهل مدن حضرموت. وأما اليمن فقد كانت أخبارها وهمومها بعيدة عن حضرموت، ولذلك لم يتأثر الوضع في حضرموت كثيرا عندما توفي المكرم أحمد بن علي الصليحي في عام ٤٨٤ هجري في صنعاء موصيا قبل وفاته بتولي ابن عمه أبي المظفر سبأ بن أحمد الصليحي صاحب معقل أشيح مكانه، في حين بقيت زوجة المكرم سيدة بنت أحمد قائمة على ذي جبلة.

وبعد وفاة المكرم راود أبو المظفر السيدة عن ملكها أو إمارتها بأن عرض عليها الزواج فامتنعت، فوسط أبو المظفر الخليفة الفاطمي الذي أرسل لها من يبلغه بأمره لها بالزواج من أبي المظفر على مائة وخمسين ألف دينار ففعلت. ولكنها سلمت ذا جبلة لأحد أعمامها ويدعى المفضل بن أبي البركات. وبعد وفاة زوجها أبو المظفر اتفقت مع المفضل للخلاص من ابنه فسمّاه بسفرجلة واستولى بنو البركات على بني المظفر وصار الحكم لهم في صنعاء وتهامة، في حين انتقل الحكم في عدن من ابني المكرم الصليحي العباس ومسعود إلى أيدي سبأ بن أبي السعود الزريعي(١١٦).

حفلت نهاية القرن الرابع الهجري بالعديد من الأحداث الهامة، أهمها على الإطلاق هجوم الفرنج المفاجئ على معرة النعمان في عام ٤٩٢ هجري واحتلالهم لبيت المقدس خارقين بذلك الهدنة مع الروم التي كان القائم بأمر الله قد عقدها معهم

بكتاب مشهور بحسن خطه وجمال نقشه كتبته امرأة عراقية كاتبة هي أم الفضل فاطمة بنت الحسن بن علي بن العطار المعروفة ببنت الأقرع كانت تعمل في ديوان الخلافة العباسية وأعطاها الوزير العميد منصور الكندري لقاء كتابها هذا ألف دينار(١١٧).

وحدث أنْ طلائع اللاجئين الفلسطينيين وصلوا إلى دمشق بعد أيام من سقوط بيت المقدس بيد الفرنج حاملين معهم بعناية فائقة نسخة المصحف العثماني التي كانت تحتضنها قبة الصخرة المشرفة، واستقبل القاضي محمد بن نصر بن منصور الهروي الذي يناديه الناس باسم " أبو سعد " استقبل اللاجئين الذين رووا له فظائع ما لحق بالقدس وأهلها ومقدساتها، مما دعا ذهن قاضي القضاة هذا إلى ضرورة الاستنجاد بالخليفة(١١٨). فتوجه إليه في بغداد مصطحباً مقادسة النكبة ووصل المستنفرون من الشام في رمضان ودخلوا على الخليفة المستظهر بالله ورووْا له كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب، ثم قاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا الناس. ولشدة وجْد الخليفة عليهم وخوفهم من نتائج تحركهم أمر بتشكيل لجنة من خواص ندمائه وجلسائه للتحقيق في تلك الأحداث المفجعة لأن الخليفة كان يرى فيما وقع نوعاً من المناوشات الاعتيادية بين بيزنطة وثغور الدولة وأن المقادسة يبالغون، فلا فرنجة ولا غزو(١١٩).

وقد تزامن سقوط بيت المقدس والساحل السوري بيد الفرنج مع بداية الهجوم الإسباني المسيحي على الأندلس وتصدي يوسف بن تاشفين لهم، وزوال حكم ملوك الطوائف الأمويين فيها وبدء حكم المرابطين(١٢٠). وفي مصر مات المستنصر بالله الفاطمي وخلفه ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد الذي مات بدوره في عام ٤٩٥ هجري فخلفه الآمر بأحكام الله أبو عيسى المنصور. وأما في بغداد فقد سجن الخليفة المستظهر بالله وزيره عميد الدولة أبا منصور نتيجة وشاية ظالمة بحقه ثم أمر بقتله في سنة ٤٩٣ هجري واستوزر مكانه عميد الدولة سديد الملك أبا المعالي المفضل الأصفهاني فبقي هذا في دست الوزارة عشرة أشهر فقط ثم عزل وسجن لمدة سنة(١٢١).

ثم أطلق سبيله بعد ذلك فهرب من بغداد قاصدا أصفهان. ولم ينج الأصفهاني من الموت إلا بناء على تدخل السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه الذي كان قد رتبه في الماضي ببغداد لجباية الأموال قبيل استوزاره وكان راضيا عن عمله فتدخل لدى الخليفة للعفو عنه. وفي بلاد الشام توفي دقاق بن تتش أمير دمشق في عام ٤٩٩ هجري وخلفه ابنه وهو طفل ابن سنة واحدة تحت وصاية أتابك دقاق المدعو طغتكين الذي سرعان ما أزاح الطفل عن الحكم واستقر هو نفسه في سدته، في حين بقيت حلب بيد رضوان بن تتش إلى أن توفي في عام ٥٠٧ هجري فملكه بعده ابنه ألب أرسلان بن رضوان واشتهر بلقب الأخرس. ولم يبق هذا الأخير سوى سنة واحدة في الحكم إذ انقض عليه غلمانه في عام ٥٠٨ هجري وقتلوه وملك بعده ابنه سلطان شاه بن رضوان(١٢٢).

ترتب على هجوم الفرنج البيزنطيين على معرة النعمان قيام السلاجقة بإنزال هزيمة نكراء بالإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع في موقعة مانزيكرت بأرمينيا، فقد الإمبراطور على أثرها كل آسيا الوسطى ووصلت قوات السلاجقة حتى بحر مرمرة. واستفاد السلاجقة من انتصارهم الحاسم فاتجهوا إلى فلسطين وطردوا الفاطميين منها[١٢٣] في عام ٤٩٢ هجري نفسه، فاعتقدت الخلافة العباسية في بغداد أن موقفها قد تعزز مجددا خصوصا في ظل العداء القائم بين الكنيستين اليونانية الشرقية واللاتينية الغربية منذ حدوث الانشقاق الديني بينهما في عام ٤٧٤ هجري[١٢٤] بحيث صار قدوم الحجاج من الغرب الأوروبي إلى الأراضي المقدسة في فلسطين أمرا شاقا بفعل تضييق البيزنطيين على اللاتينيين إلى درجة أن البابا فكتور الثاني الذي كان قد تسلم كرسي البابوية في عام ٤٧٤ هجري كتب شاكيا إلى الإمبراطورة البيزنطية تيودور في القسطنطينية حول ما كان موظفوها يلجؤون إليه من ابتزاز أموال الحجاج وإهانتهم. غير أن حسابات الخلافة العباسية لم تكن دقيقة تماماً، إذ أن هزيمة البيزنطيين أمام السلاجقة قد دفعت إمبراطور الروم ألكسيوس كوفينيوس إلى التماس العون من البابا في روما ضد السلاجقة ودفعاً لجيوش المسلمين. ورأى البابا هذا الالتماس فرصة سانحة لتوحيد الكنيسة اليونانية وكنيسة روما تحت رئاسته والقضاء على خصومه البيزنطيين الأقوياء[١٢٥].

في ظل تلك الأحداث مرض غياث الدين محمد ملك شاه مرضا طويلا عجز الأطباء عن شفائه فقيل له "أن هذا المرض من سحر زوجتك خاتون، فأمر بخنقها، وقبل أن يواري جثمانها التراب مات زوجها غياث الدين فدفن الاثنان معا في أصفهان سنة ٥١١ هجرية[١٢٦]. ثم توفي الخليفة العباسي المستظهر بالله في بغداد في عام ٥١٢ هجري وولي مكانه الخليفة المسترشد بالله. كما توفي في العام نفسه في بيت جبير بحضرموت الإمام علوي بن محمد فدفن فيها وسط حزن كبير وخلفه في رئاسة النقابة في حضرموت ابنه علي بن علوي الذي قرر الرحيل عن بيت جبير إلى مدينة تريم سنة ٥٢١ هجرية فقصدها مع أخيه سالم وبني عمومتهما من بني بصري وبني جديد حيث اشترى فيها أرضا[١٢٧] قرب قرية العجز بعشرين ألف دينار وغرسها نخلا كعادة أجداده وابتنى فيها دارا وسمى تلك الأرض " قسم " على اسم أرض كانت لأجداده في البصرة ، ثم بنى أهله وحاشيته ديارا إلى جانب داره حتى صارت قرية تسمى "قسم" فلقبه الناس بعلي خالع قسم، أي غارسها. وجعل الإمام علي بن علوي قسَم مستقرا رئيسيا له في حين ترك بيت جبير مصطافا ينزل فيه في أيام الرطب. وبنزول الإمام علي وأهله مدينة تريم خرج الطالبيون من عزلتهم الريفية لأول مرة بعد أكثر من مائتي عام على نزولهم بحضرموت، وابتدأوا يخالطون علماء المدينة ويحتكون بهم حتى عرف الناس حق قدرهم فازدهرت الحياة العلمية في المدينة وكثرت حلقات

الدراسة والحديث والتف أهل تريم حول الإمام علي وسائر أفراد أسرته. وبنى الطالبيون مسجدا في تريم أسموه مسجد بني أحمد نسبة لجدهم أحمد بن عيسى المهاجر وأبوا إلا أن ينقلوا طينه وحجارته من أراضيهم في بيت جبير على الجراديم[١٢٨]. وجعلوا هذا المسجد مركزا للحياة الفكرية وللحلقات الدراسية فازداد قدر الإمام علي وصحبه علواً ورفعةً لدى الناس، الأمر الذي حرك مشاعر الحذر والخوف لدى صاحب تريم فهد بن أحمد بن قحطان ابن آل رشيد. وكان محمد ابن الإمام علي يده اليمنى في تسيير الأعمال التجارية سواءً الزراعية في بيت جبير أو خفارة القوافل في بيت جبير وتريم إلى ظفار. فذاع صيته بين التجار والقوافل علاوة على اشتهاره بغزارة علمه ونهله المعارف من أبيه الإمام علي وأعمامه وصحبهم العلماء. وعزم صاحب تريم على التخلص من نفوذ الطالبيين وتقويض سمعتهم لدى الناس، فعمد إلى عقد مؤتمر عام من العلماء وأمرهم باختيار خيارهم، ولم يزالوا يختارون له حتى كانت نتيجة الاختيار على الإمام سالم بن بصري ابن عم الإمام علي بن علوي فنصب له السلطان شركا ليوقعه في مفسدة أخلاقية مع إحدى الفتيات الجميلات التي أدخل عليها بزعمها مريضة، فحاولت أن تفتنه فخلعت ملابسها وارتمت عليه فضربها بنعله، فترك موضع الضرب جذاما على وجهها، ثم خرج الإمام من بيتها دون أن ينبس ببنت شفة. بعد ذلك ذهبت والدة الفتاة مع ابنتها إلى السلطان فدعا الإمام سالماً، ولما حضر اعتذروا له وطلبوا العفو والدعاء لها، ففعل وقرأ على ماء آية من القرآن الكريم اغتسلت به الفتاة فعوفيت[١٢٩].

ازدهرت الأحوال الاقتصادية للطالبيين في تريم، غير أن الأمور خارجها كانت تتصاعد بدرجة خطيرة. ففي عام ٤٨٩ هجري ألقى البابا أوربان الثاني الفرنسي خطبة نارية في مدينة كليمونت في جنوب فرنسا حث فيها المؤمنين النصارى على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة لانتزاعها من أيدي الغاصبين المسلمين والاحتفاظ بها لأنفسهم. وعندئذ تنادى الناس بصيحة: "هكذا يريد الله ". وبدأوا يعدون أنفسهم للتوجه نحو الشرق، وكان على المقاتلين من الفرنج أن يخيطوا على ثيابهم صليبا أحمر اللون للدلالة على أنهم من جنود السيد المسيح ومن الحجاج وتحت السلاح، ولذلك بدأ الناس يطلقون على هؤلاء المقاتلين اسم الصليبيين نسبة إلى شعار الصليب المقدس الذي يحملونه[١٣٠]. والحقيقة هي أن نداء البابا أوربان الثاني لم يأت من فراغ، كما أدى إلى نجاح جزئي حققته حملة صليبية بدأت في العام نفسه وانتهت في عام ٤٩٢ هجري وأسفرت عن تأسيس أربع ممالك للفرنج في بلاد الشام هي مملكة القدس اللاتينية، إمارة أنطاكية، كونتيه الرها وكونتيه طرابلس[١٣١]. ورغم أن السلاجقة طردوا البيزنطيين من آسيا الوسطى إلا أن تلك الممالك الأربع قد بقيت صامدة في وجه المسلمين، ولذلك فإن العبء الأكبر يقع الآن على حكام بلاد الشام لمنع توسع تلك

الممالك خارج حدودها، لأن دور الفاطميين أضحى هامشياً بعد هزيمتهم أمام السلاجقة، في حين أن هؤلاء الأخيرين أنابوا عنهم ولاة الشام وتفرغوا لهموم السلطة ومشاكل الشرق والجزيرة العربية والعراق، لا بل إنهم عادوا للاهتمام بمصر وأفريقيا بعد مقتل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في عام ٥٢٥ هجري وتولى ابن عمه المحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد الخلافة في القاهرة[١٣٢]. وكانت الخلافة الفاطمية قد أخذت تضعف شيئا فشيئا قبيل مقتل الخليفة الآمر بالله، إذ وقعت تلك الخلافة الفاطمية في الخطيئة نفسها التي وقع فيها العباسيون في بغداد، ألا وهي الاعتماد على الوزراء من ناحية، واستجلاب المماليك والعبيد والجند بأعداد كبيرة خصوصا من الأتراك والمغاربة والسودان، وتنازع الطوائف الفاطمية فيما بينها[١٣٣].

وهكذا انتقل السلطان بصورة شبه نهائية إلى الوزير ومن يستعين بهم في ضبط الأمور. وتعاقب الوزراء على الحكم واتخذوا لأنفسهم لقب الوزراء العظام. وكان أبرز هؤلاء الوزراء الأفضل بن بدر الجمالي الذي سيطر على الحكم في القاهرة إلى درجة دفعت بالخليفة الآمر بأحكام الله[١٣٤] إلى تدبير اغتياله على يد نفر من الباطنية في عام ٥١٥ هجري، وعين مكانه متآمرا أسوأ من سابقيه هو الوزير المأمون البطائحي الذي دبر بدوره مكيدة لقتل الخليفة نفسه في عام ٥٢٥ هجري. ومنذ ذلك التاريخ خسر الخلفاء الفاطميون المعركة مع وزرائهم ففقدوا كل سلطان وأضحت قصورهم مرتعاً للمؤامرات والمكائد[١٣٥].

غير أن القدر الذي قبض على الآمر بأحكام الله الفاطمي سرعان ما التفت صوب الخليفة العباسي المسترشد بالله، حيث سلط الله على هذا الخليفة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه الذي قتله سنة ٥٢٩ هجرية، فخلفه على سدة الحكم في بغداد ابنه الراشد بالله يعاونه قاتل أبيه السلطان مسعود ووزيره أبو نصر القاشاني، وصارت مصر بيد الحافظ لدين الله[١٣٦]. ومرت يد القدر أيضا على تريم فخطفت الإمام (علي با علوي) الذي دفن في مقبرة زنبيل[١٣٧]، وكذلك سلطان تريم نفسه فهد بن أحمد بن قحطان .

وبعد إتمام إجراءات الدفن اجتمع آل باعلوي فيما بينهم وقرروا اختيار محمد بن علي باعلوي إماماً ونقيباً لهم في حضرموت [١٣٨].

وكان الإمام محمد بن علي مشهوداً له بعلو كعبه في العلوم والمعارف وكانت له حلقة دراسية في المسجد تضم الحافظ الحضرمي المحدث عبد الله وشيخ الإسلام سالم بن فضل والشيخ علي بن أحمد بامروان والقاضي أحمد بن محمد باعيسى والشيخ علي بن محمد الخطيب والشيخ محمد بن علي تاج العارفين والإمام علي بن عبد الله الظفاريان. وكان للإمام محمد بن علي هذا ميول صوفية قوية مماثلة لميول جد جده عبيد الله بن أحمد بن عيسى دفعته إلى أن يحمل حرفة التصوف بين آل باعلوي لأول

مرة في تاريخ الطالبيين ثم صارت من بعده سنّة متعارفاً عليها . واشتهر الإمام محمد ابن علي بكرمه الزائد وسخائه الفائض. فكانت داره مأوى الضيوف وملجأ القاصد، وكان كثير الأسفار فتعلق بالرحلات، فكان يتوخى بسفره وقت وصل القوافل لتكون في خفارته من تريم إلى ظفار أولاً ثم تحول إلى مرباط، وهي ناحية بظفار فألقى بها عصا الإقامة. فمنذئذ صار الإمام محمد يعرف باسم محمد صاحب مرباط[١٣٩].

اختار الإمام محمد صاحب مرباط العيش في ظفار بسبب خصوبتها وتوفر سبل العيش فيها بالمقارنة مع حضرموت، وكذلك لوجود مرفأ بحري فيها يسهل على آل باعلوي مسألة متابعة تجارتهم مع أفريقيا والهند والصين. ولم تكن لظفار قبل سكنى آل باعلوي فيها أي شهرة خاصة في اليمن وحضرموت والجزيرة العربية إلا لكونها تصدر اللبان فقط. ولما سكنها الإمام محمد صاحب مرباط وسار فيها على نهج آبائه وأجداده من شراء الأراضي واستصلاحها وزراعتها وبناء الدور الفسيحة والمسجد وتأسيس الحلقات الدراسية فيه أخذت مرباط تشتهر فصارت تقصدها القوافل وكذلك طلبة العلم من كل حدب وصوب. وكان استقرار آل باعلوي في ظفار نقمة على بقايا الإباضية إذ استطاعت دعوة الإمام محمد استقطاب البقية الباقية منهم فيها، ومن رفض اضطر إلى الرحيل شرقاً صوب عمان بسبب عجزهم عن التصدي لعلماء باعلوي ورفعة مقامهم وعلو كعبهم على بقية القبائل الظفارية والحضرمية .

في ولاية الخليفة الراشد بالله كانت مصر بيد الحافظ لدين الله الفاطمي ودمشق بيد شهاب الدين محمود بن بوري حفيد طغتكين أتابك. وكان على "حلب والموصل " عماد الدين زنكي وعلى "حماة " العادل نور الدين بن زنكي و "طرابلس " بيد الفرنج . وأما " مكة " فكانت بيد قاسم بن خليفة والخطبة فيها للعباسيين، وكانت "خراسان" بيد السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي و"غزنة" بيد بهرام شاه بن مسعود بن سبكتكين الغزنوي، في حين كانت "أفريقيا" بيد الحسن بن علي من بني باديس و"المغرب والأندلس" بيد علي بن يوسف بن تاشفين، و"اليمن" بيد فاتك بن منصور، و"حضرموت" مقسمة إلى ثلاث سلطانات[١٤٠] .

سعى الخليفة الراشد بالله إلى الاستفادة من الاستقرار النسبي للخلافة في بغداد، ومن الضعف والعزلة والتفكك في صفوف الفاطميين وحكام بلاد الشام، فعزز علاقته مع أمير حلب والموصل عماد الدين زنكي بن أتابك قسيم الدولة أقسنقر التركي . وكان وزيره أديبا معروفا يدعى جمال الدين الأصفهاني الذي سبق لأبيه وجده العمل مع السلطان السلجوقي ملكشاه ومده بأسباب القوة لما وجد عنده من استعداد للدفاع عن ديار الإسلام وكان أول انتصار كبير للزنكي يوم حرر مدينة الرها من الفرنج في عام ٥٣٧ هجري وسار باتجاه الممالك الصليبية الأخرى. ولم يقيض للراشد بالله أنْ يشهد زوال تلك الممالك إذ انتقل إلى رحمة ربه بعد مرض طويل في العام نفسه وخلفه على

سدة الخلافة المقتضي لأمر الله الذي استوزر أديبا كبيرا من بني جبير يدعى أبا نصر المظفري[١٤١] وخلع عليه لقب نظام الملك . ولكي يحكم سلطته ويعزز قبضته وتحالفه مع السلاجقة فقد تزوج المقتضي لأمر الله فاطمة بنت السلطان محمد بن ملكشاه على صداق عظيم واحتفلت بغداد بهذا الحدث[١٤٢] احتفالاً ملكياً صرف فيه الخليفة والسلطان محمد الأموال الكثيرة على سكان المدينة وجندها وأمرائها فكثر ثناء الناس على الخليفة وصاروا يلهجون بذكره أينما كانوا. وما أن انتهت مراسم الزواج حتى التفت الخليفة المقتضي لأمر الله إلى شؤون الخلافة والأولوية لبلاد الشام حصرا، فقد قتل عماد الدين زنكي تحت قلعة جعبر في عام ٥٤١ هجري ، ثم توفي أمير دمشق شهاب الدين بوري قتلاً وخلفه أخوه جمال الدين فقتل أيضاً، ثم آلت المدينة لمجير الدين أزرق بن محمد، وكان قليل التجربة فهاجمه الفرنج وكادوا أن ينتزعوا المدينة منه لو لا نجدة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الذي طردهم من حوالي المدينة وملكها فتوحدت في ظله بلاد الشام لأول مرة منذ زمن طويل. وكان هجوم الفرنج على دمشق في عام ٥٤١ هجري بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا وبولدوين الثالث ملك مملكة القدس الصليبية[١٤٣]. وبعد فشل حصار دمشق عاد لويس وكونراد إلى بلديهما خائبين، في حين ارتد بولدوين الثالث إلى داخل أسوار القدس. وفي ذلك العام توفي الحافظ لدين الله الفاطمي في القاهرة فخلفه ابنه الظاهر بأمر الله الذي سرعان ما لقي حتفه على يد جنوده وغلمانه بمؤامرة من وزيره طلائع بن رزيك الذي اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح في ظل الخليفة الفاطمي، فخلفه ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظاهر. وأما اليمن فقد توفي فاتك بن منصور مسموماً[١٤٤]، فخلفه ابن عمه فاتك بن محمد فقتل وهو يصلي العصر في عام ٥٥٣ هجري على يد ابن مهدي. وبذلك انقرضت دولة بني نجاح في اليمن وبدأت مملكة بني مهدي بشخص علي بن مهدي الذي حكم شهرين وواحدا وعشرين يوما فقط وسار على مذهب "التكفير بالمعاصي" وقتل من خالف ذلك فارتاح الناس بموته، وخلفه ابنه مهدي بن علي .

ولم تكن خراسان بدورها بمنأى عن التغيير في تلك الأيام الحاسمة فقد توفي السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي سنة ٥٥٢ هجرية بعد أربعين سنة من الحكم فخلفه ابن أخته الملك محمود بن محمد بغراخان فأقـام في ملكه على خوف من قبائل الغز. وكذلك كانت الحال في أفريقيا فقد هزم الموحدون المرابطين في جميع بلاد المغرب، ثم عدا عبد المؤمن شيخ الموحدين إلى الأندلس فملكها سنة ٥٥١ هجرية فاجتمع له أفريقيا والمغرب والأندلس[١٤٥].

في عام ٥٥٦ هجري توفي الإمام محمد بن علي صاحب مرباط بعد أن نجح في نشر المذهب الشافعي في حضرموت وظفار، فاتفق آل باعلوي على اختيار ابنه

علي بن محمد إماماً ونقيبا لهم في حضرموت وظفار على أن يساعده شقيقه علوي بن محمد في تدبير الأمور. ولم يغادر الإمام ابن علي بن محمد مسقط رأسه كما فعل اباؤه وأجداده من قبله، بل قرر البقاء في مرباط حيث دفن أبوه، واستمر في أداء دوره العملي والتجاري، فكان يسهر على تجارته البحرية ويعقد جلسات العلم في المسجد حيث يلتقي كبار العلماء والفقهاء أمثال عبد الله باعبيد مصنف كتاب " الأكمل" والقاضي أحمد بن محمد باعيسى والشيخ علي بن أحمد بن مروان والإمام سالم بن بصري والشيخ سفيان بن عبد الله اللحجي (١٤٦).

وكانت مرباط خاضعة لحكم دولة آل راشد من بني قحطان إحدى القبائل الحميرية التي كانت سنية تأخذ بالمذهب الشافعي في الفروع والأشعري في العقيدة، ولذلك فإن الانسجام الفكري كان قائما نسبيا بين الإمام علي بن محمد وآل راشد. غير أن السلاطين القحطانيين كانوا يخشون من مكانة آل الطالبيين وتوجه الناس إليهم، ولذلك عمد سلطان مرباط راشد بن شجعنة إلى دسّ السم للإمام علي بن محمد مرارا مع تظاهره له بالصداقة وقبول الشفاعات التي يتوجه بها إليه، ولكن جهود السلطان باءت كلها بالفشل بسبب حذر الإمام علي ويقظة أهله وحاشيته(١٤٧).

حواشي الباب الثاني

(١) انظر : محمد خليفة التونسي ، مقال بعنوان " تاريخ الأمم والملوك للطبري " ، موسوعة " تراث الإنسانية " ، الجزء الثاني ، ص ٧٤٥-٧٦١ .

(٢) من أبرز شخصيات حركة القرامطة :
– عبد الله ميمون القداح ، ظهر في جنوبي فارس سنة ٢٦٠ هـ ، – الفرج بن عثمان القاشاني [ذكرويه] ، ظهر في العراق وأخذ يدعو للامام المستور ، – أحمد قرمط بن الأشعث [٢٧٨ هـ] جهر بالدعوة قرب الكوفة ، – أحمد بن القاسم الذي بطش بقوافل التجار والحجاج ، – الحسن بن بهرام [أبو سعيد الجنابي] ظهر في البحرين ويعتبر مؤسس دولة القرامطة ، – ابنه سليمان بن الحسن بن بهرام [أبو طاهر] حكم ثلاثين سنة ، وفي عهده حدث التوسع والسيطرة وقد هاجم الكعبة سنة ٣١٩ هـ وسرق الحجر الأسود وأبقاه عنده لأكثر من عشرين سنة ، – الحسن الأعصم بن سليمان استولى على دمشق سنة ٣٦٠ هـ . دامت هذه الحركة قرابة قرن من الزمان، وقد بدأت من جنوب فارس وانتقلت إلى سواد الكوفة والبصرة وامتدت إلى الأحساء والبحرين واليمن وسيطرت على رقعة من جنوبي الجزيرة العربية والصحراء الوسطى وعمان وخراسان. وقد دخلوا مكة واستباحوها واحتلوا دمشق ووصلوا إلى حمص والسلمية. وقد مضت جيوشهم إلى مصر وعسكرت في عين شمس قرب القاهرة ثم انحسر سلطانهم وزالت دولتهم وسقط آخر معاقلهم في الأحساء والبحرين .
{انظر : د. مانع حماد الجهني، "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة "، منشورات المجلس الإسلامي الأسيوي "، الرياض ١٤١٨ هـ/١٩٩٨م، المجلد الأول، ص ٣٨٢} .

(٣) محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح، " الإمام المهاجر" ، ص ٢٨ – ٢٩ .

(٤) انظر الكتاب المنسوب للثعالبي، " تحفة الوزراء " ، ص ١٢٤.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٤ .

(٦) الأشاعرة نسبة لأبي الحسن الأشعري ، ولد في البصرة سنة ٢٦٠ هجرية ، وتوفي في سنة ٣٢٤ هجرية. بدأ معتزلا ورافق إبراهيم الجبائي أربعين عاما ثم انفصل عنه وعزل نفسه عن المعتزلة وخرج بمذهب جديد قدرت له السيادة على شطر كبير من العالم الإسلامي. ويستخلص من مواقفه أنه لم يكن راضيا عن طريق الاعتزال لغلوها في التأويل وترجيح المقول على المنقول . ولذلك أراد الأشعري أن يسلك طريقة يوفق فيها بين المعتزلة وأصحاب الحديث فاهتدى إلى مسلكه الجديد الذي يتمشى مع مذهب الاعتزال في النظر العقلي، وفي الوقت نفسه يعتمد على القرآن والسنة رافعا السمع على العقل بعد أن كان المعتزلة يقدمون العقل على السمع. ولقد أفادت قوة الجدل التي تمرس عليها الأشعري عندما كان معتزلا في الرد على المعتزلة بعد خروجه عليهم حتى قيل : " كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم ". ولقد قسم الأشعري الفرق الإسلامية إلى عشرة أصناف: [١] الشيعة، [٢] الخوارج ، [٣] المرجئة، [٤] المعتزلة، [٥] الجهمية، [٦] الضرارية، [٧] الحسينية، [٨] البكرية، [٩] الجماعة وأصحاب الحديث، [١٠] الكلابية] .
ثم قسم الشيعة إلى ثلاثة أصناف هي :
[١] – الغالية، وتحتها خمس عشرة فرقة،

[٢] – الرافضة الإمامية وتمثل أربعا وعشرين فرقة،
[٣] – الزيدية وتحتها ست فرق .
والمؤرخون عموما مضطربون في تسمية فرق الشيعة. فالأشعري يجعل الإمامية رافضة لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر، والمشهور أن الروافض هم الزيدية أتباع زيد بن علي الذي بويع له بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك. وسمع زيد من أتباعه الطعن في أبي بكر وعمر فأنكر ذلك منهم فتفرق عنه الذين بايعوه فقال لهم: رفضتموني ؟ لذلك سموا الرافضة .
ويذهب البغدادي في " الفرق بين الفرق " إلى تسمية كل فرق الشيعة بالروافض، فمنهم الغلاة ومنهم الزيدية، وكذلك فعل الأسفريني . أما الشهرستاني ، فلا يسمى الشيعة رافضة وأتباع يد بن علي، والغالية إنما سموا كذلك لأنهم غلوا في وصف علي بن أبي طالب وقالوا فيه قولا عظيما. وأول فرقهم التي ذكرها الأشعري، البيانية أصحاب بيان بن سمعان، القائلون بأن الله عز وجل على صورة الإنسان. والأسفريني يخرج الغلاة من جماعة المسلمين إذ يقول : فأما البيانية والمغيرية والحلولية فلا يعدون في زمرة المسلمين لأنهم كلهم يقولون بألوهية الأئمة ".
والصنف الثاني من الشيعة هم الرافضة الإمامية، وهم مجمعون على أن الإمامة لا تكون إلا بالنص والتوقيف، وأن النبي (ﷺ) نص على إمامة علي، ويقولون بمبدأ التقية، وأن الإمام أفضل الناس. واختلاف فرقهم المتعددة إنما نشأ من طريق سوق الإمامة من علي بن أبي طالب في أبنائه. [انظر: "تراث الإنسانية "، الجزء الثالث، " مقالات الإسلاميين للأشعري" ، مقال بقلم د. أحمد فؤاد الأهواني، الصفحات من ٣٥٧ إلى ٣٧٢} .

(٧) زبيدة هي زوجة هارون الرشيد التي أمرت ببناء طريق للحج من البصرة إلى الحجاز مباشرة طوله ٧١٢ ميلا وجعلت فيه عيونا للماء ومحطات وخانات لاستراحة المسافرين وعلامات يهتدي بها الناس لسلوك الطريق، ولكن هذا الطريق اندثر بعد عصر المتوكل وصارت القبائل تعبث فيه فساداً وتهاجم القوافل وتقتل الناس وتسبى النساء. ثم كانت ثورة الزنج ثم القرامطة وبالا وسببا في تفاقم الفوضى وانعدام الأمن حتى توقف الحجاج عن سلوك هذا الطريق وصاروا يسلكون طريق الشام. وأما قافلة الإمام أحمد بن موسى فقد ورد ذكرها في كتاب " الإمام المهاجر " كالآتي : " سلكت القافلة طريق الشام ، فقد اضطرب الأمن في "درب زبيدة" الذي يبلغ طوله ٧١٢ ميلاً، وهو الطريق الممتد من العراق إلى البلاد المقدسة. فقد اندثرت الأبار والعيون والبرك والمحطات والخانات والخزانات والعلامات التي يهتدي بها الناس لسلوك الطريق، وغير ذلك مما عملته زبيدة زوجة هارون الرشيد بذلت لها الأموال الطائلة. فقد اندثر كل ذلك بعد عصر المتوكل، وصارت القبائل تعبث بها وتهاجم القوافل وتقتل الناس وتسبي النساء. ثم كانت ثورة الزنج ثم القرامطة وبالا وسببا في هذه الفوضى، على الرغم من أن القوافل يحميها الجنود أحيانا، حتى توقف الحجاج عن سلوك هذا الطريق وصاروا يسلكون طريق الشام، وإلا تعرضوا للجوع والعطش في الصحراء كما تعرضوا لقطاع الطريق. {انظر: ص ٤٨} .

(٨) هو جد بني الأهدل في اليمن .

(٩) هو جد بني القديمي في اليمن .

(١٠) انظر: محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح، " الإمام المهاجر "، ص ٤٨ .

(١١) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٩ .

(١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٩ .

(١٣) السيد علوي طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ١٦٦.

(١٤) الإباضية هم أتباع عبد الله بن إباض التميمي، ويعتقدون أن جميع المسلمين منافقون، ولكنهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا. وأساس نشأتهم هو خروجهم على الإمام علي بصفين، وشق عصا

الطاعة عليه محتجين بتحكيم الحكمين في النزاع بينه وبين معاوية. والخوارج عشرون فرقة وأبرزهم الإباضية وهي نفسها أربع فرق . (انظر: محمد ضياء شهاب عبد الله بن نوح، "الإمام المهاجر"، ص ٥٢).

(١٥) كانت للإباضيين صولة وجولة في جنوبي الجزيرة العربية حتى وصلوا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة . أما في الشمال الإفريقي فقد انتشر مذهبهم بين البربر وكانت لهم دولة عرفت باسم الدولة الرستمية وعاصمتها تاهرت وحكموا الشمال الإفريقي حكما مستقلا زهاء مائة وثلاثين سنة حتى أزالهم الفاطميون [العبيديون] .
قامت للإباضية دولة مستقلة في عُمان وتعاقب على الحكم فيها إلى العصر الحديث أئمة إباضيون. من حواضرهم التاريخية جبل نفوسة بليبيا، إذ كان معقلا لهم ينشرون منه المذهب الإباضي، ومنه يديرون شؤون الفرقة الإباضية . ما يزال لهم وجود إلى وقتنا الحاضر في كل من عُمان بنسبة مرتفعة وليبيا وتونس والجزائر وفي واحات الصحراء الغربية وفي زنجبار التي ضمت إلى تانجانيقا تحت اسم تنزانيا. (انظر: د. مانع بن حماد الجهني، " الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة"، منشورات المجلس الإسلامي الأسيوي، الصفحة ٦٦].
ومن الأسباب الأخرى التي قد تكون حدت بأحمد بن عيسى للهجرة إلى حضرموت كون الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة ، وحاربوا القرامطة في اليمن، كما أن أحمد بن عيسى نفسه كان قد تعلم في العراق على يد أبي حنيفة الذي كان قد أخذ تعاليمه عن فريد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي (ع.) الجد الأكبر لأحمد بن عيسى، أي أن هناك تقاطعا فكريا يجمع بين الزيدية وأحمد بن عيسى. [انظر: المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٨٤].

(١٦) صالح الحامد، " تاريخ حضرموت" ، الجزء الأول ، ص ٣٠٣- ٣٠٥ .

(١٧) المرجع السابق نفسه، ص ٣٠٥، وكذلك في " شمس الظهيرة " ، الصفحة ٥٦ .

(١٨) محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح، " الإمام المهاجر " ، ص ٥٧ – ٥٨ .

(١٩) المرجع السابق نفسه، ص ٥٩ .

(٢٠) كان الطالبيون ينهجون في دينهم على عقيدة "آل البيت" في الأصول، إذ لم يكن معروفاً بعد في القرون الثلاثة الأولى ما يسمى بالسنة أي عقيدة الأشعري القائمة على أهل الجماعة والحديث في السنة، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة (انظر: "تراث الإنسانية" ، الجزء الثالث ، مقال بعنوان " مقالات الإسلاميين للأشعري" بقلم د. فؤاد الأهواني ، الصفحة ٣٥٧ إلى ٣٥٩) .

(٢١) انظر العلامة عبد الرحمن بن حسين المشهور، " شمس الظهيرة "، ص ٥١ .

(٢٢) ينتسب مشايخ آل الخطيب إلى الصحابي عباد بن بشر الأنصاري الخزرجي [ر] الذي قتله مانعو الزكاة ضربا حتى الموت، وقبره موجود في أعلى جبل غراب شرق تريم.

(٢٣) محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٥٧ .

(٢٤) انظر: ابن الفوطي " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب"، الجزء الرابع، القسم الثاني ، الصفحة ٩٠٨ – ٩٠٩ .

(٢٥) انظر: محمد بن أحمد بن مر الشاطري، "أدوار التاريخ الحضرمي"، منشورات مكتبة الإرشاد في جدة، ١٩٧٠م /١٣٩٠هـ، الجزء الأول، الصفحة من ١٥٣ إلى ١٥٧. والحوطة هي الأرض التي يحوطها الرجل الصالح ، فمن لاذ بها فقد أمن من أعدائه، وتكثر هذه الحوطات في حضرموت وتنسب عادة لمن أحاطها.
وأما تسمية حضرموت بهذا الاسم فقد أوردها الباحث سقاف علي الكاف في كتابه المعنون بـ" حضرموت عبر أربعة عشر قرناً " في الصفحة ٩ منه كالآتي : " سميت حضرموت بهذا

الاسم على اسم ملك حكم هذا الإقليم . وقد وردت هذه التسمية في التوراة في سفر التكوين ، الإصحاح العاشر بلفظ " حضرميت " ، واسمها الأصلي وادي الأحقاف وهي التسمية القديمة التي أطلقها عليها القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الأحقاف: واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف".

وذكر المسعودي في "مروج الذهب" هذه التسمية [... واسم هذا الملك ونسبه حضرموت بن قحطان بن عابد بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. والذي سميت باسمه حضرموت وأقام دولته على أنقاض دولة عاد ، وأسست هذه الدولة قبل ثمانية عشر قرنا من ميلاد المسيح .

ومن سلالتهم ملوك العباهلة الذين كتب إليهم النبي (ﷺ)، ومنهم وائل بن حجر الحضرمي الصحابي المشهور وغيره .

وبعد أن نزلت بهذه القبائل الكوارث التي قضت على جلهم، حلّت محلهم في إقليم حضرموت أوزاع القبائل التي بجوارهم كقبيلة قضاعة ونهد وغيرها. وقد كانت مهرة – وهي من قبيلة قضاعة – قد سكنت بسائط حضرموت وسواحلها ولم يتجاوزوا القسم الساحلي منها.

(٢٦) المولى له معان كثيرة في اللغة، منها المولى بمعنى السيد أو الحليف أو ابن العم ، وكذلك من يسلم على يديك أو هو المعتق الذي ينتسب بنسبك. فإذا اعتق سيد عبده التحق هذا المعتق بنسب السيد وتسمى باسم عشيرته، كما تسمى بشار بن برد بالعقيلي وأبو نواس بالحكمي وأبو العتاهية بالعنزي. وعرّف ولهوزن معنى المولى في كتابه المشهور " الدولة العربية قيامها وسقوطها " فقال : " الموالي أسرى حرب من أصل فارسي ويكونون طبقة وسطى بين أسيادهم العرب وبين الذين ليسوا عربا فلا يؤدون جزية ولا خراجا ولا يدونون في ديوان المقاتلة وليس لهم مرتب شهري ولو أنهم يقاتلون مع أسيادهم الذين منوا عليهم بالعتق. وقد نشأ نوع آخر من الموالي سماهم ابن خلدون موالي الاصطناع، كما فعل هارون الرشيد مع البرامكة والخراسانيين والمعتصم مع الترك، وفي توسع حركاتهم أطلقت على الذين دخلوا الإسلام من الفرس وغيرهم. دخل الموالي في دين الله أفواجا وأسلم من المجوس كثيرون وبقي منهم آخرون على دين آبائهم. من الذين أسلموا منهم من آمن قلبه ولسانه، ومنهم من أسلم لسانه ولم يؤمن قلبه وهذه الفرقة كانت من أخطر الفرق على العرب والإسلام .

لقد حظي المؤمنون من الموالي بمحبة المسلمين حتى إذا اغتيل عمر وعثمان وعلي، بدت نواجذ الشر والبغضاء لهم، ومع كل هذا فقد اتجه الرأي العربي لهذا العالم الجديد الذي دخل في صفوف العرب وجهتين: فالنبي والخلفاء الراشدون وغيرهم لا يرون فرقا بين الموالي المسلم وأخيه العربي، فقد كان سلمان الفارسي مولى رسول الله. وكان علي بن أبي طالب يقول: "سلمان منا آل البيت ". وقد سمع عمر بن الخطاب أن وفدا من الموالي والعرب جاء إلى عامله، فأعطى العرب ومنع الموالي، فكتب عمر : أما بعد، فحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام .". وفرض عمر للهرمزان في ألفين من العطاء، كما جعل عطاء سلمان الفارسي أربعة آلاف درهم . وفي اغتيال عمر تغيرت وجهة النظر العربية وظهرت النعرة الجاهلية التي أعادت وجهة مغايرة واستمرت تنتقل في أصلاب الزمن. فقد روي أن عمر قال حين طعن :" من أصابني؟ قالوا : أبو لؤلؤة. ، قال : قد نهيتكم عن أن تجلبوا علينا من علوجهم أحدا فعصيتموني ". أمّا أهل الجهة الثانية فهم عامة العرب وهم الذين يعتدّون بتقاليدهم ويعتزون بدمهم ويرون أن المولى لا يكون كفؤا العربي لأن الدين لم يتمكن بعدُ من قلب المولى ولأن فيه صفات كثيرة لا تؤهله لذلك، وكانوا يأخذون على الموالي أمورا لا تتفق مع مبادئ الإسلام، منها أنهم كانوا يتآمرون عليه ويخالفون قواعده باشتهارهم بشهادة الزور، ومنها عدم الوفاء والجور والعجمة ومنها انفرادهم بالخوف. ولما انفتح أفق الثقافة الإسلامية في صدر الإسلام ومُصِّرت

الكوفة والبصرة وتحلق الدارسون حول أعمدة المساجد يستمعون إلى الفقهاء والعلماء وهرعوا إلى ميادين المربد يستمعون للأدباء والشعراء ويعكفون على إتقان اللغة العربية وادابها، نشأ منهم المثقفون والفقهاء والأدباء والشعراء والرواة، وانغمروا في مجلس العلماء وانتشروا بين غمار العامة يريدون أن يزاحموا العرب في أمكنتهم الرفيعة ويريدون أن يقفوا معهم على بساط المساواة في وظائف الدولة. غير أن تصرف الكثيرين منهم حال بينهم وبين ما يشتهون، وتمتع كثيرون بعطف أخوي وتقدير فكانوا يُفتون ويقضون في المدن، مثل سعيد بن جبير بالكوفة وسليمان بن يسار بمكة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن نجيح في المدينة وطاووس وابنه وابن منبه في اليمن وعطاء بن عبد الله الخراساني في خراسان ومكحول بالشام والحكم بن عتيبة وعمار بن سليمان بالكوفة ومحمد بن سيرين بالبصرة و... فمن هؤلاء من أفاد ومنهم من كان مصدر شغب وتعب لجهاز الدولة. فلما قامت الدولة الأموية أخذت تستظهر في حروبها وولاية أعمالها برجال العرب أمثال زياد بن أبي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف الثقفي ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم والمهلب بن أبي صفرة ...وغيرهم من قادة العرب وصناديدهم . وترى من شروط الوالي والقاضي التفقه في الدين والقدرة على الإقناع والإفصاح في اللغة. ولذلك عكف كثيرون من الموالي على دراسة اللغة والقرآن والحديث والأدب والشعر ورواية الأخبار ودراسة الأنساب، فبرز منهم الأدباء والكتاب والشعراء والفقهاء وأخذوا ينشرون مآثر ابائهم ويفاخرون العرب ويكاثرونهم ويظهرون فضل العجم على العرب واتخذوا من دراسة الأنساب وسيلة لوضع المثالب على العرب، وقد تسامى فريق منهم عن العصبية الجاهلية فقدم للحضارة ثمراً حياً وثروة غريزة في الأدب والتشريع وحفظ الحديث وتدوينه. والذين مالوا إلى النعرة القومية نظموا حركة قوية يكمن فيها خطر جسيم، واتخذوا من الدين ستاراً يعملون من ورائه لتقويض أركان الحكم الأموي. يقول ولهوزن : " لقـد كان للدولة الأموية شغل شاغل في مقاومة المعارضة التي يقوم بها الموالي باسم الله وباسم الدين ضدهم. وكان هذا الخطر يظهر بين حين وآخر ضد الحكم الأموي اتياً من ناحية العراق، والخطر الأكبر في ذلك حركة اجتماعية لم تكن موجهة ضد الأمويين فحسب بل ضد العرب عامة.

ومما ساعدهم على حركتهم أنّ الشريعة الإسلامية تركت لهم التصرف في أملاكهم وأموالهم – إذا دخلوا الإسلام – أو أعطوا الجزية كما يشاءون ويختارون ، وفي العراق دهاقين أثرياء كانوا يمدون ثوراتهم بالمال كما فعل الدهقان فيروز في إمداد حركة ابن الأشعث ضد الحجاج. فلما التقى جيش الحجاج بجيش الموالي تحت إمرة ابن الأشعث عند روستاق أباد نادى الحجاج في المعسكر: " من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم. فنصل فيروز من الصف وصاح بالناس :" من عرفني فقد اكتفى ، ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين. وقد عرفتم مالي ووفائي، من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف. فلما أُتي به إلى الحجاج قال له: " أأنت الجاعل في رأسي مائة ألف؟ قال : قد فعلت. قال: والله لأمهدنك ثم لأحملنك، أين المال؟ قال عندي، فهل للحياة من سبيل؟ قال: لا! قال: فأخرجني إلى الناس حتى أجمع المال. فخرج فيروز فأحل الناس من ودائعه، وأعتق رقيقه وتصدق بماله، ثم رُدّ إلى الحجاج فقال: " شأنك، فأمر الحجاج بقتله. ولما أراد الحجاج أن يترجم ضمن حركة التعريب الكبرى نظام الضرائب عارضه زادان فروخ وولده. وسار عمر بن عبد العزيز في أيامه بهم سيرة العدل وساواهم بالعرب وأطلق يدهم فقويت شوكتهم. استقبلت الدولة العباسية مقاومة عنيفة من الموالي الذين تربوا في معهد المربد ومدرستي البصرة والكوفة الذين دخلوا هذا الدين غير طائعين. فقد كانوا أسرى حرب فاعتنقوا الإسلام وجعلوا ولاءهم للقبائل العربية. فمنهم من لم ينسوا ما كان عليه اباؤهم من قبل المتعصبون لجنسهم الحاقدون على الفاتحين الذين تلوا عروش الأكاسرة، من هؤلاء نشأت طبقة

من المترجمين ورواة التاريخ والأدباء والشعراء والمؤلفين ومنتحلي الشعر وواضعي الحديث الشريف وناشري الفرق الإباحية وغيرهم. فمن أبرز المترجمين روزبه بن زادويه مولى بني الأهتم عبد الله بن المقفع الذي تربى في حضن الدولة الأموية ونشأ في البصرة وبقي أمينا لمجوسيته إلى أيام الدولة العباسية وترجم كتاب " كليلة ودمنة " وكتب أرسطو في المنطق، وكتب التاريخ في سيرة أنوشروان، وكتاب مزدك في المزدكية وألّف في الأدب كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير، ووضع قرآناً يعارض به القرآن الكريم بداه ببسملة خاصة " بسم النور الرحمن الرحيم " وكله طعن في الدين الإسلامي. ويعتبر ابن المقفع من رؤوس الزنادقة. قال الخليفة المهدي: " ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع .

وترجم أبان بن عبد الحميد اللاحقي تاريخ مزدك، وسيرة أردشير وكتاباً خاصا ببوذا، وترجم كتاب كليلة ودمنة شعراً ليسهل على جعفر بن يحيى البرمكي حفظه وكان يعرف عنه أنه زنديق وهو من الذين يمجدون " ماني " نبي المانوية ولا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس. كان أثيرا عند البرامكة يتخذونه حكماً في امتحان الشعراء. ونقل الفضل بن سهل ليحيى بن خالد البرمكي كتابا عن الفارسية لم يظهر اسمه .

ومن رواة التاريخ وواضعي الأخبار أبو عبيدة، جده مجوسي وأبوه على دين اليهود جمع إلى ثقافة العرب ثقافة الفرس الساسانية واليهودية. ويقول جولد تسهير إن ابا عبيدة مولع بوضع الأخبار ووضع الأحاديث التي تُظهر خلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجمها، وتشاتمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء، ويريد أبو عبيدة أن يقطف كل وردة من تاج الفخر العربي ويعلقها على صدور العجم .

ومن رواة الأدب حماد بن سابور الراوية من سبي الديلم كان ممن يضعون الشعر وينسبونه إلى غير أهله إمعانا في التشكيك بالأدب العربي. جمع حماد الروايات التاريخية والأدبية وأضاف إليها من عنده ما أراد . وفي البصرة أعدم محمد بن سليمان والي المهدي عليها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم بن أبي العوجاء وحماد عجرد. كان عبد الكريم مانويا يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة ماني وسيلة الدعوة، ولما قدم للقتل قال: لئن قتلتموني فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة موضوعة .

ومع هؤلاء الكتاب والمترجمين نشأت طبقة من الشعراء ممتازة أشهر أهل هذه الطبقة بشار بن برد العقيلي :

ومروان قد دارت على رأسه الرحى   وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادرا في طريقهم   ولا تتقي أشباه تلك النقائم

اجتمعت على بشار كل هذه العوامل السياسية والاجتماعية والدينية فكان ماله مآل الزنديق. فأوعز المهدي إلى صاحب الزنادقة أن يقتل بشارا ، فقتله . أما أبو نواس فهو من أصل فارسي ادعى اليمن وتولاهم، كان ذكيا واسع الحيلة يعرف كيف يجدُّ وكيف يهزل. ويقول كريمر ناشر ديوانه:" إن أبا نواس يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة ويتكلم ما يريد دون حياء وخجل. اتهم أبو نواس بالزندقة وعُدّ من كبار الثنوية وشهد عليه كثيرون أمام الأمين فحبسه في حبس الزنادقة. وقال عن نفسه :" كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة، فإذا حماد إمام من أئمتهم. ويفتخر أبو نواس بأجداده الفرس فيقول:

بنينا على كسرى سماء مدامة   مكللة حافاتها بنجوم
فلو رد في كسرى بن ساسان روحه   إذا لاصطفاني دون كل نديم.

[انظر: د. محمد بديع الشريف " القادسية الكبرى " ، منشورات دار الجيل، القاهرة ١٩٨٤]، ص ١٣٦-١٤٦ .

(٢٧) المرجع السابق نفسه و ص ١٦١.

(٢٨) أورد القلقشندي في كتابه " مآثر الإنافة في معالم الخلافة"، السفر الأول ، بعضا من النوادر المتعلقة بنساء الخلفاء، إذ ذكر مثلا أن أم خالد بنت أبي هشام أم معاوية بن يزيد، قد تزوجت بعد موت زوجها مروان بن الحكم، وأن عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية قد تزوجها ثلاثة خلفاء هم الوليد وهشام بن عبد الملك ومروان بن محمد . [انظر الصفحة ١٨٣] .

(٢٩) انظر: ابن الفوطي " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب" ، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ٩١٠ .

(٣٠) انظر: صالح الحامد، "تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٢٨٢ .

(٣١) الخليفة العباسي القاهر بالله هو أول خليفة تُسمل عيناه، وقد توفي في السجن سنه ٣٢٩ هجرية.

(٣٢) انظر: القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، الصفحة ٩٧ .

(٣٣) انظر: الكتاب المنسوب للثعالبي، " تحفة الوزراء " ، ص ١١٧ .

(٣٤) انظر: محمد ضياع شهاب و عبد الله بن نوح، " الإمام المهاجر " ، ص ٦٢

(٣٥) انظر: صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " الجزء الأول ، ص ٣١١ .

(٣٦) انظر: المرجع السابق نفسه، الجزء الأول ، ص ٣٢١ .

(٣٧) انظر: الدكتور محمد بديع الشريف ، "القادسية الكبرى "، ص ١٦١ .

(٣٨) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٢٨٤ .

(٣٩) انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٤ .

(٤٠) انظر: الدكتور محمد بديع الشريف " القادسية الكبرى "، ص ١٦٢ .

(٤١) انظر: صالح الحامد ،" تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٢٨٤ .

(٤٢) يقول جرجي زيدان في كتابه " تاريخ التمدن الإسلامي"، الجزء الثاني: إن رشيدة بنت المعز خلفت وراءها ما قيمته مليون وسبعمائة ألف دينار بقيمة ذلك الزمن ، ومثل ذلك ما تركته عبدة بنت المعز الثانية . [انظر صفحة ٦٤٨].

(٤٣) القلقشندي " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، الصفحة ١٠٦. عندما تولى الطائع الخلافة أقيمت الدعوة بالحرمين للمعز الفاطمي والخطبة لبني العباس .

(٤٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١١٢ .

(٤٥) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٦٦ .

(٤٦) ذكر في كتاب " تيجان " لابن هشام أن النبي سليمان بن داود زار القبر وأن الريح حملته إلى الأحقاف لزيارة قبر هود (عليه السلام)، فسارت الريح به حتى نزل الأحقاف ودخل إلى قبر هود (عليه السلام) ورآه ثم انصرف، ومر على البحر حتى بلغ عدن. ولما بلغ سليمان إلى عجز الأحقاف أمر الريح أن تمسك فأمسكت، ثم قال، وأشار بيده: " هناك ولي الله حنظلة بن صفوان صدق وكذبوا فنجا وهلكوا، وإلى الله المصير. كان موضع القبر متوعرا غير ممهد. وفي القرن التاسع الهجري قام الشيخ الفقيه حكم بن عبد الله باقشير المتوفى سنة ٨٧٨ هجرية بعمارة المشهد المذكور وجعل عليه قبة ومهّـد ما حواليه .

وأما أهل الرس فقد قال أبو الحسن الكسائي في كتابه " مبتدأ الخلق" ما نصـــه : " قال كعب الأحبار: كان أصحاب الرس بحضرموت، وكانوا خلقا كثيرا وكانوا قد بنـــوا مدينة طولها أربعون ميلا وعرضها كذلك. وكانوا كذلك قد بنوا قنوات تحت الأرض وسموها الرس لأن ملكهم اسمه الرس، وأقاموا كذلك دهرا طويلا يعبدون الله حق العبادة حتى جاءهم إبليس لعنه الله

ومعه صنم، وقال لهم: إن الله تعالى غني عن عبادتكم فعليكم بعبادة الأصنام ، فإنها تقربكم إلى الله زلفى، فارتدوا وعبدوا الأصنام ونكحوا النسوان والولدان في أدبارهم، وكانوا يتهادون النساء يبعث هذا امرأته إلى هذا، ولا غيرة لهم على النساء، فشق ذلك على النساء، وأقبل ابليس لعنة الله تعالى على النساء وهن مجتمعات في صورة امرأة جميلة فقلن لها :" من أنت؟ قال الملعون: أنا من قرية كذا وكذا. وكانت لي حيلة اجتمع أنا وإياها على السحق فعلمهن الملعون على السحق فاستغنين به عن الرجال وكثرت القبائح فبعث الله إليهم رسولا يقال له صفوان فدعاهم إلى عبادة الله تعالى ونهاهم عن المعاصي فلم يرجعوا وكذبوه، فلبث فيهم دهرا طويلا حتى ضربهم الله بالقحط ومحّ مالهم . ونبيهم خلال ذلك يحذرهم فوثبوا عليه وقتلوه وأحرقوه بالنار فبعث الله تبارك وتعالى إليهم جبريل وصاح بهم صيحة فمسخوا جميعا وصاروا حجارة إلى آخر ما قال .{انظر: المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٧٣} .

(٤٧) المرجع السابق نفسه، الصفحة ٨٠ بالنسبة للبئر، وأما بالنسبة إلى علوم الإمام جعفر الصادق بالكيمياء، فمن المعروف أنه كان أستاذا لعالم الكيمياء جابر بن حيان وشاركه العديد من أبحاثه في الكيمياء، وله أكثر من خمسمائة رسالة في هذا الصدد. {انظر: " الإمام المهاجر " ، الصفحة ١٢٧. وانظر أيضا " جابر بن حيان أبو الكيمياء" تأليف سليمان فياض، منشورات مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٦م ١٤٠٦ هـ } .

(٤٨) كانت للعرب قبل الإسلام أسواق يجتمعون فيها من شتى أنحاء البلاد العربية للتجارة والتعارف والتفاخر. وقد ذكر المؤرخ اليعقوبي منها عشرة أسواق، فمنها دومة الجندل التي كان يقوم سوقها في شهر ربيع الأول ، ورؤساؤها غسان وكلب، أيُّ الحيين كان الغالب قام بها، ثم المشقر بهجر – هجر البحرين – وهي قاعدتها، والمشقر حصن بالبحرين، أو بطرف اليمامة كان لكندة، ويقوم سوق هجر في جمادى الأولى، يقوم بها بنو تميم رهط المنذر بن ساوى الذي كاتبه النبي (ﷺ)، وكان من يومها من التجار يتخفرون بقريش، لأنها لا تؤتى إلا في بلاد مضر، وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة ، قاله ابن حبيب ، ثم صحار بناحية عمان يقوم في رجب في أول يوم منه ولا يحتاج فيه إلى خفارة، ثم يرتحلون من صحار إلى دبا يعشرهم الجلندي، وآل الجلندي وولاة عمان. قال ابن حبيب: وهي إحدى فرضتي العرب، يأتيها تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب وكان بيعهم فيها المساومة. ثم سوق الشحر ، شحر مهرة، يقوم سوقها تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود (ﷺ)، ولم يكن بها خفارة، وكانت مهرة تقوم بها. قال المحبر: ولم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة. وكانت التجار تتخفر فيها بني محارب بن حرب بن مهرة، وكان قيامها للنصف من شعبان وكان بيعهم فيها إلقاء الحجارة .

ثم سوق عدن، وتقوم هذه السوق في أول يوم من شهر رمضان، ويعشرهم بها الأبناء عمال فارس، ومنها كان يحمل الطيب إلى سائر الآفاق . وكانوا لا يتخفرون هناك بأحد لأنها أرض مملكة وأمر محكم، ثم سوق صنعاء، تقوم في النصف من شهر رمضان يعشرهم فيها الأبناء أيضا، وكان بيعهم فيها جر الأيدي.

ثم سوق الرابية بحضرموت، ولم يكن يوصل إليها إلا بخفارة لأنها لم تكن أرض مملكة، فكانت قريش تتخفر بني آكل المرار، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق ابن وائل من كندة. وكانت مكرمة لأهل البيتين جميعا، وساد بنو آكل المرار بفضل قريش على سائر الناس، فكان يأخذ إليها بعض الناس وبعض إلى عكاظ، وكانت السوقان تقومان في يوم واحد للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر. وسوق عكاظ في الحجاز وتحديدا في منطقة الطائف، وتنزلها قريش وسائر العرب، غير أن أكثرها مضر، وبها كانت مفاخرة العرب وحمالاتهم ومهادنتهم، ثم سوق

ذي المجاز قريبة من عكاظ أول يوم من ذي الحجة، ويصيرون إلى منى، ثم سوق نطاة بخيبر، وسوق حجر باليمامة يوم عاشوراء إلى آخر المحرم . (انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٩٠ – ٩١) .

(٤٩) انظر: الكتاب المنسوب للثعالبي، " تحفة الوزراء " ، الصفحة ٥١، وقد رثاه محمد بن عمران الأنباري بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

علوٌ في الحياة وفي الممات لحقٌ أنت إحدى المعجزات

(٥٠) انظر: القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، ص ١١٢ .

(٥١) المرجع السابق نفسه، ص ١٠٦ .

(٥٢) انظر: الدكتور محمد بديع شريف " القادسية الكبرى "، ص ١٦٢ .

(٥٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٣ .

(٥٤) انظر: " تاريخ حضرموت " ، لصالح الحامد، الجزء الأول، الصفحة ٢٨٦ .

(٥٥) انظر: الثعالبي " تحفة الوزراء "، الصفحة ٥٦. وقد قال فيها الشعر هبة الله بن المنجم:

و الله والله لا أفلحتـم أبـدا بعد الوزير ابن عبـاد بن عبـاس

إن جاء منكم جليل فأجلوا أجلي أو جاء منكم رئيس فاقطعوا رأسي

(٥٦) انظر: صالح الحامد " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٢٥٦ .

(٥٧) انظر العلامة عبد الرحمن مشهور " شمس الظهيرة "، تحقيق محمد ضياء شهاب ، الجزء الأول ، ص ٥١ .

(٥٨) انظر : العلامة عبد الرحمن مشهور " شمس الظهيرة " ، الجزء الأول، ص ٦٤ .

(٥٩) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٢٥٩ .

(٦٠) انظر: القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ١١٤ .

(٦١) انظر: القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١١٥

(٦٢) المرجع السابق نفسه، ص ١١٦ .

(٦٣) انظر: الشهيد آية الله مرتضى المطهري، " الإسلام وإيران "، منشورات رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، طهران ١٩٩٧م / ١١٤١٧ هـ ، ص ٢٩٠ .

(٦٤) انظر: القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٠٩ .

(٦٥) أي الحبس حتى الموت إعمالا للقول : اقتلوا القاتل واصبروا الصابر "، أي احبسوا الذي حبسه للموت حتى يموت كفعله به .

(٦٦) انظر: القلقشندي ، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، ص ١١٠.

(٦٧) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٣٤٣ .

(٦٨) انظر: القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، ص ١١٢.

(٦٩) المرجع السابق نفسه، ص ١١٩ .

(٧٠) انظر: الشهيد آيه الله مرتضى المطهري، " الإسلام وإيران "، ص ٣٢٢ .

(٧٢) المرجع السابق رقم /١٠٢من الباب الثاني/ بالإنكليزية ، الصفحة ٢٠٣ .

(٧٣) انظر: مقالا للدكتور يحيى الخشاب بعنوان :" سفرنامة لناصر خسرو " ، موسوعة " تراث الإنسانية " "، الجزء الثاني، ص ٦٤٢ .

(٧٤) المرجع السابق نفسه، ص ٦٤٤ . وقد عالج مسألة الصداقة بين هؤلاء الثلاثة الكاتب اللبناني أمين معلوف في روايته المعنونة بـ " سمرقند " .

(٧٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤٦ .

(٧٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤٦ .

(٧٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤٨ .

(٧٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤٨ .

(٧٩) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت " ، الجزء الأول ، ص ٣٣٦ .

(٨٠) انظر: السيد علوي بن طاهر الحداد، " المدخل في تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، ص ٢٠٠.

(٨١) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٢٤١ .

(٨٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٨٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٠، و" تحفة الوزراء " للثعالبي ، الصفحة ٢٤ .

(٨٤) انظر: الدكتور محمد بديع شريف " القادسية الكبرى "، ص ١٦٦، وصالح الحامد، " تاريخ حضرموت " ، الجزء الأول ، ص ٣٧٠ .

(٨٥) ينتمي الغز إلى مجموعة القبائل التركية التي كانت تعيش في الجنوب الغربي من منطقة الأناضول. ومن هذه المجموعة ظهر السلاجقة والعثمانيون والتركمان وأتراك البلقان وأذربيجان. وكانت اللغة التركية الأناضولية القديمة هي السائدة بين قبائل الغز قبل ظهور العثمانيين وعلى أيام السلاجقة. ومع ذلك فقد كان التقليد السائد هو استخدام العربية والفارسية في المراسلات الرسمية والكتب العلمية والأدبية. ولم يتغير ذلك الوضع على عهد الإمارات الأناضولية أيضا. وظهر أول رد فعل لذلك في عام ١٢٧٧م عندما أصدر الأمير محمد القرماني الذي ادعى الحق في عرش السلاجقة أمره المشهور الذي يقول :" يحظر منذ اليوم في الديوان والبلاط وسدة الحكم والمجلس والميدان استخدام لغة غير التركية"، وذلك بهدف استقطاب الكتل العريضة من الناس إلى جانبه ممن كانوا يجيدون لغة آبائهم التركية فقط دون أي معرفة بالعربية أو الفارسية. وكانت عملية انصباغ الأناضول بالصبغة التركية التي صاحبت ذلك قد تحققت لوصول ألب أرسلان (١٠٦٣- ١٠٧٢م) إلى الأناضول في القرن الحادي عشر الميلادي، وعندما كان ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢م) يدعم أركان الإمبراطورية السلجوقية الكبرى كانت لغة الدولة السلجوقية الرسمية هي الفارسية، في حين كانت لغة الآداب والعلم العربية والفارسية معا. وكانت الغالبية العظمى من الأتراك الوافدين على الأناضول من قبائل الغز، ولذلك كانت اللغة التركية الغزنوية هي التي تطورت معهم في الأناضول وأطلق عليها علماء اللغة اسم اللغة التركية الغربية.(انظر: "تاريخ الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة"، تأليف مجموعة من الباحثين بإشراف الدكتور كمال الدين إحسان أوغلي، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إسطنبول ١٩٩٩م – ١٤١٩ هـ، الجزء الثاني، ص ٣١) .

(٨٦) انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت " ، الجزء الأول ، ص ٣٧٣ .

(٨٧) المرجع السابق نفسه، ص ٣٧٣ .

(٨٨) الكتاب المنسوب للثعالبي، " تحفة الوزراء "، ص ٢٦ .

من بني جهير أبو منصور عميد الدولة وولي الوزارة ببغداد لثلاثة من الخلفاء. سجنه الخليفة المستظهر بالله إلى أن أمر بقتله في عام ٤٩٣ هجري. وممن ولي الوزارة من بني جهير أيضا نظام الملك أبو نصر المظفري بن علي بن محمد وزير المقتفي المتوفى سنه ٥٥٥ هجرية ولم تطل أيامه .

(٨٩) الدكتور محمد بديع شريف، " القادسية الكبرى "، ص ١٦٦ .

(٩٠) انظر: موسوعة " تراث الإنسانية "، الجزء الثالث ، مقالا بعنوان " مقالات الإسلاميين للأشعري"، بقلم د. أحمد فؤاد الأهواني، الصفحة ٣٦١. وأما بالنسبة للأشعري (أبو الحسن الأشعري) فقد كان سنيا إماما في الفقه والحديث ومجتهدا في المذهب. وكان الأشعري في بدايته معتزلا متصوفا تتلمذ على يد الجبائي لمدة أربعين عاما. ولكنه خرج على المعتزلة بعد حوار

جرى بينه وبين أستاذه الجبائي حول مسألة الثواب والعقاب في الإسلام. وقد أورد الدكتور أحمد فؤاد الأهواني نص هذا الحوار في الصفحة ٣٦٠ من مقالته الآنفة الذكر كالآتي :

سأل الأشعري أستاذه الجبائي عن ثلاثة إخوة مات أحدهم مطيعا والآخر عاصيا والثالث صغيراً. فقال الجبائي الأول يثاب بالجنة والثاني يعاقب بالنار والثالث لا يثاب ولا يعاقب. قال الأشعري: فإن قال الثالث " يا رب لم أمتني صغيرا، وما أبقيتني إلى أن أكبر فأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة؟ فقال: يقول الرب إني كنت أعلم منك أنك لو كبرت لعصيت فدخلت النار، فكان الأصلح لك أن تموت صغيرا. فقال الأشعري :" فإن قال الثاني :" يا رب، لم لم تمتني صغيرا لئلا أعصي لك فلا أدخل النار؟ ، فماذا يقول الرب؟ فبهت الجبائي ، وترك الأشعري مذهبه، واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأس المعتزلة وإثبات ما ورد به السنة ومضى عليه الجماعة فسموا أهل السنة والجماعة. وقد أوردت هذه المحاورة لإبطال قاعدة الصلاح والأصلح التي يقول بها المعتزلة .

(٩١) انظر : صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٣٤١ .

(٩٢) انظر : القلقشندي ، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة"، ص ١٢٢ .

(٩٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٣ .

(٩٤) انظر : صالح الحامد ،" تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٣٤٢ .

(٩٥) هي جزيرة مدغشقر حاليا

(٩٦) هي جزر القمر الحالية، انظر : السيد علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ١٣٢ .

(٩٧) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٩ .

(٩٨) مدحه ابن الموصلايا بقوله :

ذراها في أزمتها تهادى و عاد بها الثنايا والوهادا

ولمـــا أن تفرد بالمعالي وأدرك في مداها ما أراد

{انظر : الثعالبي، " تحفة الوزراء "، ص ٢٣ } .

(٩٩) انظر: صالح الحامد ، تاريخ حضرموت "، الجزء الثاني، منشورات مكتب الارشاد في جدة ١٩٦٨م / ١٣٨٨ هـــ، ص ٤٠٤ ،

(١٠٠) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٢٣ .

(١٠١) لما قويت شوكة الأتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء طمع بعضهم في الولايات كما حدث في فارس، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس، كما نبتت الفروع العباسية في بلاد الفرس. وإليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها :

اســم الدولة	مقــرها	مــدة تأسيسها	مؤسسهــا
١ – الطولونية	مصـــر	٢٥٤ – ٢٩٢ هـــ	أحمد بن طولون
٢ – الإيلكية	تركستان	٣٢٠ – ٥٦٠ هــ	عبد الكريم شنق
٣ – الإخشيدية	مصـــر	٣٢٣ – ٣٥٨ هــ	محمد الاخشيد
٤ – الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ – ٥٨٢ هــ	سبكتكيـــن

وتدرج الأتراك في الولايات الإسلامية كما تدرج الفرس قبلهم ، أي من الإمارات إلى السلطنة وهم أول من سموا سلاطين في الإسلام، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الإسلام فيها.

على أن هذه الإمارات نشأت فروعا للدولة العباسية، وكان أمراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها. وكانت السنّة قد تقوت بظهور الإمارات التركية . فلما قامت دولة آل بويه في أوساط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر، عظم أمر الشيعة في العالم الإسلامي وتضعضعت السنّة فتشتت شمل الخلافة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أوساط القرن الخامس، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة إلى جدها سلجوق التركماني الذي ينتسب إلى قبائل الغز وعرف باسم " تيمور لانغ " أي القوس الحديدي، فجاءت في حال الحاجة إليها، لأنها لمت شعث الخلافة العباسية[السنة] بعد أن كادت تضمحل بين أيدي مناهضيها في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب وأوشكت أن تستولي على المشرق كله، فجاء السلجوقيون من أقاصي الشرق فاستولوا على الخلافة العباسية وجمعوا شملها. وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي.

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان. فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها، وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الإسلام، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غربا ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية، وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض، وأصبح العالم الإسلامي تتنازعه ثلاث دول إسلامية، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب، والثالثة دولة بني أمية في الأندلس .

فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها، لأن هذه إمارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها. وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على يد البويهيين وغيرهم من الشيعيين. والدولة الإيلخانية نشأت مستقلة أيضا ، لكنها قلما أثرت في المملكة الإسلامية.

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الإسلام، وفي أيامهم تكاثر نزوح الأتراك إلى المملكة الإسلامية في فارس والعراق والشام للسكنى والارتزاق في ظل أبناء جلدتهم. والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الإسلامية بأرقى ما بلغت إليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس .

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد، ولكنها تمتاز بعضها من بعض بأماكن حكمها، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعا.

وإليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

١ – السلاجقة العظام حكموا من سنة ٤٢٩ – ٥٥٢ هـ ،

٢ – سلاجقة كرمان حكموا من سنة ٤٣٣ – ٥٨٣ هـ ،

٣ – سلاجقة الشام حكموا من سنة ٤٨٧ – ٥١٠ هـ ،

٤ – سلاجقة العراق وكردستان حكموا من سنة ٥١١ – ٥٩٠ هـ ،

٥ – سلاجقة بلاد الروم [آسيا الصغرى]حكموا من سنة ٤٧٠ – ٧٠٠ هـ .

فحكمت الدولة السلجوقية على الإجمال نحوا من ثلاثة قرون، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين إلى آخر حدود الشام. [انظر: جرجي زيدان، " تاريخ التمدن الإسلامي "، المجلد الثاني، الصفحة ٤٧٢ – ٤٧٢] .

انتقال المملكة السلجوقية إلى الأتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الأعمال أو الولايات قوادا من مماليكهم يسمونهم الأتابكة، وأحدهم "أتابك" وهو لفظ تركي معناه الأب الأمير، واستعملوه أولاً بمعنى وزير ثمّ صار بمعنى ملك. وأخذ الأتابكة يستقلون بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم، إلا الفرع الرومي في آسيا الصغرى فإنه ظل في حوزة السلاجقة، حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع، وإليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى إلى مماليكهم الأتابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها :

١ – الدولة البورية	في دمشق	من سنة ٤٩٧ – ٥٤٩ هجرية
٢ – " الزنكية	" الجزيرة والشام	" " ٥٢١ – ٦٤٨ "
٣ – " البكتيجيقية	" أربلاء وغيرها	" " ٥٣٩ – ٦٣٠ "
٤ – " الأرتقية	" ديار بكر و مارعين	" " ٤٩٠ – ٧١٢ "
٥ – " دولة الشاهات	" أرمينيا	" " ٤٩٣ – ٦٠٤ "
٦ – " أتابكة أذربيجان	" أزربيجان	" " ٥٣١ – ٦٢٢ "
٧ – " الدولة السلفرية	" فارس	" " ٥٤٣ – ٦٨٦ "
٨ – " الدولة الهزارسبية	" لورستان	" " ٥٤٣ – ٧٤٠ "
٩ – " الدولة الخوارزمية	" خوارزم	" " ٤٧٠ – ٦٢٨ "

ومازالت هذه الممالك في حوزة الأتابكية وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها .

سلاجقة الروم

أما الفرع السلجوقي الذي ظل سائدا دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى، وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الأيام. على أن مملكتهم هناك تفرعت إلى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة، وهذه أسماؤها مع أسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها :

اســم الإمارة	اســم العائلة
١ – ميسيـــا	آل كراسي
٢ – بيسيديا	آل حميد
٣ – فريجيا	آل كرميان
٤ – ليسيا	آل تاكة
٥ – ليديـــا	آل سروحان و أيدين
٦ – كاريا	آل منتفشــا
٧ – بفلاغونيـــا	آل قزل أحمد لي
٨ – ليكونيـــا	آل قرمان

ومازالت هذه الإمارات في سلطة الأمراء السلاجقة حتى أتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشؤوا الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن للهجرة .

[انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي "، الجزء الثاني، ص ٤٧٠-٤٧٢. وانظر " الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة"، إشراف د. أكمل الدين إحسان أوغلي، منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي ومركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول ١٩٩٩ ، الجزء الأول، ص من ٥-٨] .

(١٠٢) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ١٣٢-١٣٣ .

(١٠٣) انظر : صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٣٤٤ .

(١٠٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٥ .

(١٠٥) انظر : صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول، ص ٣٦٤ .

(١٠٦) انظر : الثعالبي ، " تحفة الوزراء " ، ص ٥٩ .

(١٠٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٠ .

(١٠٨) الطغرائي هو إسماعيل بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد مؤيد الدين، توفي سنة ٥١٣ هجرية، وهو من الوزراء الكتاب المشهورين وصاحب القصيدة المشهورة بلامية العجم التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتني من الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

(١٠٩) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٣٦ .

(١١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٦ .

(١١١) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٧ .

(١١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٥ .

(١١٣) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٩ .

(١١٤) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٣٣٤ .

(١١٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٢ .

(١١٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٧ .

(١١٧) انظر : ابن الفوطي ، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب "، الجزء الرابع، القسم الثاني ، ص ٩٤٦ .

(١١٨) انظر : هاني المبارك، " نور الدين زنكي "، سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي "، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٨ .

(١١٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٩ .

(١٢٠) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ١٣٦ .

(١٢١) انظر : ابن الفوطي، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب "، الجزء الرابع ، القسم الثاني ، ص ٩٥٨ – ٩٥٩ .

(١٢٢) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٤١ – ١٥٦.

(١٢٣) انظر : الدكتور قتيبة الشهابي ، " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية " ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٢٠ .

(١٢٤) يرجع الانشقاق بين الكنيستين اليونانية واللاتينية إلى شقين : أولهما الشق الظاهر وهو الاختلاف على بعض المسائل الدينية مثل زواج القساوسة وعبادة الصور ونحلة التبني. أما الشق الثاني الخفي فهو أعمق من ذلك بسبب الحركة الكلوتية وذلك أن السلطتين الروحية والزمنية إنما ارتبطتا بالبابا في روما، وعلى بيزنطية أن تدرك أن البابوية بعد إصلاحها لن تقبل الإذعان {انظر : المرجع السابق نفسه ، ص ٣١} .

(١٢٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٧ .

(١٢٦) هو غياث الدين أبو شجاع محمد بن جلال الدين أبي الفتح ملكشاه بن عضد الدولة ألب أرسلان السلجوقي السلطان . { انظر : ابن الفوطي ، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب " ، الجزء الرابع ، القسم الثاني ، ص ١٢١٧ .

(١٢٧) انظر : صالح الحامد ،" تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، منشورات مكتبة الإرشاد ، جدة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص ٤٤٧ .

(١٢٨) الجراديم هي آلة على عجلات تستعمل بأرض الهند ، وهي نوع من عربات النقل وكانت تجرها البقر والخيول . (انظر المرجع السابق نفسه، ص ٤٦١) .
(١٢٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٧٦ .
(١٣٠) انظر : "صمود دمشق أمام الحملات الصليبية "، ص ٢٢ .
(١٣١) انظر : المرجع السابق نفسه، ص ٤٣ .
(١٣٢) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ١٤٦ .
(١٣٣) انظر : جرجي زيدان ، "تاريخ التمدن الإسلامي "، الجزء الثاني، ص ٥٠٣.
(١٣٤) يقول جرجي زيدان في كتابه " تاريخ التمدن الإسلامي " ، الجزء الثاني، ص ٤١٠، إن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي خلف وراءه ما لم يسمع بمثله من الثروة إذ ترك ستين مليون دينار عينا و ٢٥٠ إردب دراهم من نقد مصر ، و ٧٥ ألف ثوب ديباج أطلس، و ٣٠ راحلة أحقاف ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢ ألف دينار ، ومائة مسمار من الذهب ووزن كل مسمار مائة مثقال .
(١٣٥) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ١٤٦ .
(١٣٦) المرجع السابق نفسه ، ص ١٥٠ .
(١٣٧) انظر : صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الثاني، ص ٤٤٧ .
(١٣٨) المرجع السابق نفسه، ص ٤٦٣ . الإمام محمد علي ، [صاحب مرباط المشهور ، عرف بهذا اللقب لسكناه في مرباط ودفنه فيها]
(١٣٩) المرجع السابق نفسه، ص ٤٦٥. وأما ظفار فتقع على الشاطئ الشرقي الجنوبي من جزيرة العرب تطل على المحيط الهندي، وواقعة بين عمان وبلاد المهرة اتي كانت تعرف في الماضي باسم الشحر . ثم أطلق اسم الشحر على المدينة. ومرباط مرسى ظفار القديمة، وحول ظفار جبل ينبت فيه شجر اللبان أو شجر الكندر وشجر جوز الهند، كما يزرع الموز في أوديتها .
(١٤٠) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٥٠ .
(١٤١) انظر : الثعالبي ، " تحفة الوزراء " ، ص ٢٦ .
(١٤٢) انظر : ابن الفوطي ، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب "، الجزء الرابع ، القسم الثاني ، ص ١٢١٦ .
(١٤٣) انظر : فتيبة الشهابي، " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية "، ص ٥٨ .
(١٤٤) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت "، الجزء الأول ، ص ٣٥٧. ولي فاتك بن منصور الأمر بعد أبيه منصور ، وكان طفلا صغيرا نصبه عبيد الله وزير أبيه بعد أن سمم الأب، إلا أنه هان عليه أمر بني نجاح حتى هربت منه أم فاتك وهي أصلا جارية. ورغم شجاعته فقد راود فاتك مُعارك ابنة جياشي وضيق عليها وهددها بالقتل إن لم تستجب لرغبته فرضخت له حتى قضى وطره منها ثم مسحت قضيبه بمنديل مسموم فمات لتوه .
(١٤٥) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٥٦ .
(١٤٦) انظر : صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الثاني ، ص ٤٨٢ .
(١٤٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٠٨ .

البــــاب الثالـــث

فــي الهنـــد

على الطريق إلى آتشيه

[قرار الخروج من الإطار العربي إلى العالم الخارجي]

كان لعلوي بن محمد أربعة أبناء هم عبد الله وأحمد وعبد الملك وعبد الرحمن وكانوا يعملون جميعا في التجارة كأبيهم. ولما تدهورت الأوضاع في حضرموت اقترح عبد الملك على أبيه أن يهاجر إلى الهند وينشئ فيها قاعدة تجارية للعائلة في حال اضطر أفرادها إلى مغادرة حضرموت، فوافق الأب على مضض بعد أن استشار أخاه الإمام علي بن محمد وحصل منه على الموافقة بدوره. واتجه عبد الملك بصحبة زوجته وأولاده وبعض مرافقيه إلى ميناء رأس الجمجمة في الشحر حيث ركبوا سفينة متجهة إلى كوجرات [Gujarat] في الهند، وكان في وداعه في الميناء اخوته الثلاثة عبد الله وأحمد وعبد الرحمن. وحمل عبد الملك معه على متن السفينة خيولا عربية وبضاعة أخرى مرغوبة في الهند ولا توجد إلا في حضرموت وظفار مثل العندم[١] والكافور والبان وصمغ المقل[٢] وأصابع فرعون[٣] وأظفار الطيب والأفاقيا [٤] والبن اليمني والحبيرة[٥] والرند والصبد والعطور[٦]. ونظرا لمعرفة آل باعلوي بأحوال التجارة ومواسمها فقد اختار عبد الملك وصحبه السفر في فصل الربيع للاستفادة من هبوب الرياح الموسمية باتجاه الشمال الشرقي. وكان رأس الجمجمة هو الموضع الذي تأخذ منه السفن المتجهة إلى الشرق الأقصى طريقها وتنشر فيه أشرعتها. وقد اختار عبد الملك التوجه إلى كوجرات لأنها صارت، منذ الفتح الإسلامي للهند والسند مركزاً تجاريا رئيسياً من مراكز التجارة إلى الصين والهند وبلاد الصنف وجزائر سولو [Sulu]، ولوجود جاليات إسلامية كبيرة في كوجرات وخاصة في سواحل مليبار[٧] وبندر كويلاندي وكرومندل[Coromandal] [٨] وذلك منذ فتوحات الغزنويين في أفغانستان والسند والبنجاب[٩].

وبعد مغادرة الابن عبد الملك بأسابيع قليلة، وجه الإمام علوي بن محمد ابنه الآخر عبد الرحمن بتجارة بحريةَ إلى جزيرة " ذيبة المهل " أو المالديف [Maladewa] الواقعة إلى الجنوب الغربي من سرنديب. وكانت تلك أول رحلة تجارية بحرية لآل

الطالبيين إلى الجزيرة. وسلكت السفن الطريق نفسه الذي كانت قد اتبعته سفينة الأخ عبد الملك إلى أن وصلت إلى بحر العرب. وبعد ذلك اتجهت نحو الجنوب بدلا من متابعة السير باتجاه البنجاب[*Punjab*] وكوجرات. وتعرضت السفينة في رحلتها نحو الجنوب إلى عواصف وأمطار غزيرة كادت أن تغرقها بمن فيها لولا العناية الإلهية. ثم رست السفينة في الجزيرة عند الظهر فكان أول ما سمعه البحارة آذان المؤذن للصلاة في المساجد العديدة المنتشرة في الميناء، ثم ازدادت دهشتهم عندما علموا أن سلطان الجزيرة المسلم يدعى محمد بن عبد الله(١٠). وقد دعا السلطان الضيوف العرب إلى قصره وأولم لهم على شرفهم وليمة كبرى دعا إليها وجهاء الجزيرة وكبار تجارها. وشرح السلطان لعبد الرحمن وصحبه أن الإسلام قد وصل إلى الجزيرة في عام ٥٤٨ هجري على يد داعية إيراني قدم من تبريز ويدعى أبا البركات يوسف التبريزي. واستفسر السلطان من عبد الرحمن عن أحوال الجزيرة العربية وحضرموت والخلافة في بغداد فشرح له هذا آخر مايعرفه من أنباء بهذا الخصوص. ثم استأذن عبد الرحمن وصحبه السلطان بالمغادرة شاكرين حسن ضيافته فحمّلهم السلطان بالهدايا. وما هي إلا أيام حتى غادرت السفينة ميناء الجزيرة وأقلعت في رحلة العودة باتجاه حضرموت(١١).

بعد الانتصارات الجديدة التي حققها الخليفة المقتفي لأمرالله بسبب متانة التحالفات التي أقامها مع كل من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه وآل زنكي في الموصل وبلاد الشام، وجد الخليفة نفسه يواجه مشكلة غير متوقعة تكمن في حدوث انقسامات داخل عائلة السلطان محمد ملكشاه نفسه في أصفهان بسبب التنافس على السلطة منذ أيام بعيدة عندما قتل السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه زبيدة أم أخيه بركيارق الذي كان ينازعه على الملك، ثم قتل أخاه نفسه فاستتب له الأمر(١٢) وكان للسلطان أخ ثالث يدعى محموداً، فلما مات حاول ابنه ملك شاه بن محمود الاستيلاء على السلطة بمساعدة العساكر، ولكنه انهمك في الملذات والشراب فعزله الجند بالتآمر مع وزيره خاصبك بن بلنكري ورتبوا مكانه أخاه محمد شاه وهرب ملكشاه إلى خراسان. وكان أول أمر قام به محمد شاه هو أنه قتل وزير أخيه خاصبك بن بلنكري خوفا من تآمره عليه ثم أرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله يطلب منه إقامة الخطبة له بدلا من إقامتها لعمه السلطان محمد بن ملكشاه، فلم يلتفت الخليفة العباسي للطلب، وعندها هاجم محمد شاه جيوش الخليفة فهزم أمامها شر هزيمة وفر محمد شاه إلى همدان حيث مات فيها سنة ٥٥٤ هجرية وخرج المقتفي لأمر الله مظفرا منصورا من المعركة(١٣). بعد انتصاره المؤزر هذا بعام توفي الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله في عام ٥٥٥ هجري وكذلك الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله فخلفهما في بغداد المستنجد

بالله وفي القاهرة العاضد بالله أبو محمد عبد الله بن يوسف الذي بدأ حكمه باغتيال الوزير طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦ هجرية وأقام مقامه أبا شجاع العادل. وفي سنة ٥٥٨ هجرية نازعه في الوزارة شاور وهو والي الوجه القبلي وغلبه وقتله وتولى سدة الوزارة مكانه. ولم يدم له الأمر طويلا إذ نافسه فيه ضرغام، وكان أميرا لفرقة من الجند تسمى البرقية، وطال النزاع بين الرجلين، فاستنجد شاور بنور الدين محمود، واستنجد ضرغام بعموري ملك بيت المقدس الصليبي(١٤). وانتهى الأمر باستيلاء نور الدين على مصر وتعيينه أسد الدين شيركوه وزيرا. فلما مات خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي وزر لنور الدين محمود السني وللعاضد الفاطمي في وقت واحد(١٥). في ذلك الوقت كانت دمشق وحماة ومعظم بلاد الشام بيد السلطان العادل نور الدين محمد بن زنكي، في حين كانت حلب بيد ابن عمه عماد الدين زنكي وطرابلس بيد الفرنج. وأما مكة فقد كان عليها قاسم بن فليتة فخطب للمستنجد لمدة سنة قبل أن يقتل بسبب سوء سلوكه مع الحجاج وأهل مكة فخلفه ابنه عيسى بن قاسم الذي خطب للمستنجد بالله. وفي المدينة كان سالم بن قاسم، وفي اليمن عبد النبي بن مهدي. وكان ما وراء النهر بيد ملوك بني جنكيزخان ، وعلى غزنه والبنجاب [*Punjab*] ملكشاه بن خسرو شاه آخر من حكم من بني سبكتكين إذ أن الملك انتقل بعده إلى الملوك الغوريين ومركزهم هرات وأولهم علاء الدين الحسين بن الحسين الذي يلقب بالملك المعظم، لكنه لم يلبث في الحكم سوى سنة واحدة فتوفي وخلفه غياث الدين محمد ثم خلفه السلطان المعظم شهاب الدين محمد سام الغوري الذي سار بجيوشه من البنجاب إلى الهند(١٦) وأرسل الأمير قطب الدين ايبك ليفتح دهلي ففعل وصارت عاصمة للسلطان المعظم الغوري، ملك غزنة وخراسان(١٧). وقد هاجر مع الغوري علماء مسلمون كثيرون استوطنوا في الهند وبدأوا التبليغ والدعوة فيها وأسسوا عشرات المدارس الإسلامية وأنشأوا المئات من المساجد. وبرز من بين الدعاة معين الشِشتي(١٨) الذي استقر في أجمير، من أعمال منطقة راجستان حيث دعا للإسلام. وقد ساعد الفتح الإسلامي للهند على نشوء إمارات إسلامية في البنجاب وفي السند أيضاء وخاصة في كوجرات والدكن حيث كان قد وصل إليهما قبل ذلك الإمام عبد الملك بن علوي وحاشيته. وبذلك انتقل الوجود الإسلامي من حضور واستقرار تجاري في الهند إلى حكم إسلامي في شمال وغرب الهند، كما تم إنشاء مدينة كبيرة تدعى حيدر آباد في الدكن. ودان جميع ملوك الهندوس للحكم الإسلامي باستثناء مملكة يقال لها "أوديبور" ويحكمها ملك يقال له " مهرانا " وهو لقب أعلى من لقب " مهراجا " المحلي .

أثرت سماحة الإسلام ووضوح عقائده ونزعته للمساواة بين المؤمنين مهما اختلفت انتماءاتهم الاجتماعية، تأثيراً بالغاً في أفكار الهنود حتى اعتنق الكثير منهم الإسلام بمن فيهم سلطان ملابار [*Malabar*] نفسه الذي سمى نفسه ناصر الدين. وكان

الطابع الصوفي يغلب على الدعاة والمبلغين بالإسلام، وهو أمر كان أحب إلى نفوس الناس وحكام الدولة من علماء الدين ، وذلك لأن الصوفيين كانوا قريبين في زهدهم للتقاليد المحلية الهندية ويجتنبون التدخل في الأمور السياسية بينما كان علماء الدين والفقهاء المذهبيون أحياناً يفرضون قيوداً على أعمال السلاطين. ولذلك فإن أمراء دهلي أيضا كانوا من هواة الصوفية وكانوا يتبارون في استضافة كبار الشيوخ الصوفيين آنذاك مثل الشيخين سالار مسعود غازي وشقيقه إسماعيل وقطب الدين بختيار وفريد الدين كنج[١٩].

بعد وصول الإمام عبد الملك بن علوي إلى كوجرات تعرف على تاجرين عربيين يدعى أولهما عبد الله عريف وثانيهما برهان الدين الشاكرودي[٢٠] وهما من التجار المقيمين في كوجرات. واتفق الإمام معهما على العمل سوية في التجارة البحرية مع جزر الهند الصينية بحكم تردد التاجرين على تلك الجزر منذ مدة بعيدة ومعرفتهما بأحوالها، وأناب الإمام عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك مكانه لمتابعة أمور التجارة مع التاجرين في حين التفت هو إلى الدعوة إلى الإسلام والاتصال بقصور الأمراء والسلاطين تعزيزاً لعلاقته مع الحكام الهنود. واستطاع عبد الملك أن يقيم علاقة قوية مع سلطان حيدر أباد [*Hyderabad*] ناصر الدين الذي قربه منه كثيراً وجعله من خلصائه عندما علم بنسبه الشريف الذي يتصل بأهل البيت، لا بل إنه خلع عليه لقب الأمير عبد الملك[٢١].

وكان التاجران العريف والشاكرودي قد تعرفا خلال احدى رحلاتهما إلى جزيرة جاوا على أمير هندوسي من نبلاء الباسوندان[*Pasundan*] في جاوا الغربية يدعى بوروا [*Purwa*] وهو شقيق ملك هندوسي يدعى موندينغ ساري [*Munding Sari*] [٢٢]. نشأت علاقة صداقة واحترام قوية بين بوروا والتاجرين اللذين أقنعا مضيفهما بوجاهة الدين الإسلامي ودعواه إلى زيارتهما في كوجرات. وسرعان ما لبى الأمير بوروا الدعوة فوصل إلى كوجرات حيث أمضى فيها وقتا ممتعا بصحبة التاجرين وشريكهما

شهر رجب من عام ٥٨٣ هجري[٦٢]. وقد اختار السلطان الأيوبي أن يقيم معسكره قرب ماء وفير وعشب كثير، بينما كان الصليبيون يعانون من قلة الماء وشدة الحر، وزاد البلاء عليهم عندما أشعل المسلمون النار في العشب الجاف فهبت الرياح الساخنة نحو معسكر الفرنجة[٦٣]. وبدأ الهجوم في الرابع من تموز واحتدمت المعركة في موقعة حطين قرب بحيرة طبرية أسابيع طوالاً كانت الأحشاء فيها تلتهب من العطش، والنبال تتساقط على رؤوس الفرنج نهارا، ثم تتساقط عليهم ليلا كالشهب بعد نقعها بالنفط[٦٤]. وهكذا استمرّ الوضع إلى أن انهزم الفرنج شر هزيمة ووقع قادتهم في الأسر، ومن بينهم أرناط نفسه الذي قام صلاح الدين بنفسه بقطع رأسه بينما عامل الآخرين كأسرى حرب[٦٥]. ثم استسلمت حامية القدس من الصليبيين لصلاح الدين في اليوم السابع والعشرين من رجب من عام ٥٨٣ هجري وكان يصادف ذكرى الإسراء والمعراج . فانتهت بذلك مملكة القدس اللاتينية.

وخلافا لما كان قد فعله أولئك الفرنج بالمسلمين عندما احتلوا القدس[٦٦] فقد أظهر صلاح الدين نبلا وشجاعة وتسامحاً لا مثيل لها عندما سمح للإفرنج بالرحيل مع أمتعتهم وأموالهم وضمن لهم زيارة الأماكن المقدسة حُجّاجاً. ولم يكن صلاح الدين بطل ميدان وحامل سيف فحسب بل كان حامي علْم وفكر أنشأ المدارس ومعاهد البحث العلمي وعمّر المساجد في سلطنته التي امتدت من تونس إلى العراق مظللة الخلافة العباسية[٦٧]. غير أن انتصار صلاح الدين الحاسم قد حرك الضغائن لدى ملوك أوروبا ولدى الفاتيكان، فدعا البابا إلى حملة صليبية تالية في عام ٥٨٥ هجري قادها كل من فيليب الثاني ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنكلترا وفريدريك بارباروس إمبراطور ألمانيا الذي غرق في البحر أثناء الرحلة فاختلف ملكا فرنسا وبريطانيا على من يترأس الحملة ولم يتوصلا إلى تفاهم فعاد ملك فرنسا إلى بلاده بعد أن تمكن الإفرنج من الاستيلاء على مدينة عكا الفلسطينية[٦٨]. وحدث أن الملك ريتشارد الأول مرض بعد أن أصابته حمى وأضحى عليلا لا يكاد يقوى على الحركة. وزاد في وطأة المرض عليه ما نمي إليه من تذمر الجيش وفتور حماسة أفراده .ولم يبق إلى جانب الملك سوى اللورد توماس دي فو يرعاه ويحرسه من خصومه[٦٩].

واجتمع القادة الصليبيون يفكرون في اختيار من يحل محل ريتشارد. واختار بعضهم فيليب ملك فرنسا. واقترح بعضهم ليوبولد أرشيدوق النمسا أو أموري كبير فرسان المعبد أو الماركيز منتسرا الأمير الإيطالي.

ويتندر ريتشارد وهو في فراش المرض بهؤلاء جميعا، ويغض من شأنهم ويحط من قدرهم. وعندئذ تسمع داخل سرادقه أصوات تأتيه من خارج. فيسارع دي فو

المتوسط. في ذلك الزمن القديم، وفي ضوء المكتشفات الملموسة، تكونت حضارات ومدنيات المحيط الهندي بالتبادل التجاري حيناً وبالفتوحات والغزوات حينا آخر بين شواطئ هذا المحيط. وعلى إيقاع حركة الرياح الموسمية نحو الشرق جالبة معها السفن والأمطار، ثم ترتد غربا جالبة معها نتائج المتاجرة. ولهذا السبب فإن معظم الرحالة المسلمين إنما قاموا برحلاتهم البحرية والبرية باتجاه شرق آسيا لا باتجاه أوروبا[٢٧] ونذكر منهم: ابن الفقيه أبا بكر الهمذاني[٢٨] وابن وهب[٢٩] وأحمد بن ماجد[٣٠] وابن رستي أبا علي[٣١] والأصطخري[٣٢] وبزرك بن شهريار الرامهرمزي[٣٣] وياقوت الحموي[٣٤] وسليمان بن أحمد بن سليمان المهري[٣٥] والمقدسي البشاري[٣٦] وابن خرداذبه[٣٧] وأبو دلف بن مهلهل[٣٨] وابن حوقل[٣٩] والمسعودي[٤٠].

والمهم في الأمر، أن السلطان جيهان شاه المتحالف مع الحاج فوروا استطاع أن يوحد الممالك الإسلامية في شمال سومطرة تحت سلطته مؤسساً بذلك سلطنة آتشيه في عام ٦٠٠ هجري[٤١]. فكانت تلك السلطنة أول مملكة إسلامية كبرى تقام شرق الهند وجنوب الصين، وأبعد نقطة جغرافية على وجه البسيطة يردد فيها أذان المؤذن للصلاة باللغة العربية. ولقد أدى تأسيس السلطنة الإسلامية في آتشيه إلى تهافت التجار والدعاة المسلمين من كل حدب وصوب إليها، وصار لهم مكان يجتمعون فيه يدعى "أدي قناة"[٤٢] ومنهم داعية جاء من حضرموت ويدعى أحمد بن أبي بكر الشلئ كان قد تتلمذ على يد الإمام علي بن محمد في تريم ثم فر منها بعد المذبحة التي قام بها عثمان الزنجيلي عندما دخلها واستباح حرماتها[٤٣].

واستطاع أبو بكر الشلئ أن يحوز على ثقة السلطان جيهان شاه ووزيره الأول عندما أكد لهم أن نسبه قرشي، وأنه بالتالي من أهل البيت الكريم، وعندما زوجه الوزير ابنته صار يطلق عليه لقب الشريف (أبو بكر) وأضحى من حاشية السلطان ومن خواصه المقربين[٤٤].

بعد تأسيس سلطنة اتشيه بقليل توفي السلطان جيهان شاه وسط حزن عارم خيم على المسلمين الخائفين على أنفسهم ومستقبلهم في تلك البقاع البعيدة عن ديار الإسلام[٤٥]. غير أن السلطان كان قد تفكر بأمر السلطنة من بعده فأوصى بالحكم من بعده الى ابنه الذي تسمى بالملك " الكامل"[٤٦]. وقد دفن جيهان شاه في موكب جنائزي مهيب على شاطئ نهر " فاساي " الأيمن الذي يقع ضمن أراضي السلطنة، وبني قبر السلطان من المرمر الأبيض ونقش على شاهدته باللغة العربية:

القـبـرُ بـاب وكـلُ الـناس داخلُـه

يـا ليـت شـعري بعد الباب مـا الدارُ

همـــا محـــلان مـــا للـــناس غـــيرهمـــا

فاخـــترْ لنفســـك أيَ الـــدار تخـــتارُ

الـــدار جـــنة عـــدن إن عملـــت بمـــا

يرضـــي الإلـــه وإن خالفـــت فالـــنارُ

يـــــا مَـــنْ بـــدنـــيــاه اشـــتغـل

قـــــد غــــرّه طـــــولُ الأمـــــل

المـــــوت يـــأتـــــي بغـــتـــة

والقــــبرُ صــــندوقُ العمــــل(٤٧)

بعد استلام الملك الكامل سدة الحكم في سلطنة انشيه جرد حملة بقيادة ابن عمه يعقوب إلى بلاد " الكايو " [Kayo] المحاذية للسلطنة إلى الجنوب بغية ضمها ونشر الإسلام فيها. وأصاب يعقوب في حملته تلك فتحاً مبيناً إذ انضوت البلاد الجديدة تحت سلطة الملك الكامل، ودخل أهلها في الإسلام طوعاً بدون قتال(٤٨).

في عهد المستنجد بالله برزت قوة السلطان العادل نور الدين محمود الذي اتسع ملكه جنوباً وصار يخطب له في الحرم الشريف، في حين كان ابن عمه عماد الدين زنكي(٤٩) يتصدى لهجوم الروم والفرنج على ثغور الشام الشمالية واسيا الوسطى. وكان الخليفة وجميع عماله غافلين عن الخطر الداهم القادم من الشرق من منطقة ما وراء النهر والمتمثل بقبائل التتر، معتقدين أن الخطر الرئيسي الوحيد الذي يهدد الخلافة والمسلمين إنما يأتي من الروم والفرنج في شمال بلاد الشام حصرا بعد أن أوقف الموحدون البربر خطر الزحف المسيحي على الأندلس وحموا ثغورهم من الخطر الأوروبي هناك.

وهكذا كان هناك ثلاث قوى وخصم عنيد يتصارعون فيما بينهم للسيطرة داخل دار الإسلام. وهذه القوى الثلاث هي: الخلافة العباسية والسلجوقية والخلافة الفاطمية(٥٠). وأما الخصم العنيد من خارج دار الإسلام فهم الصليبيون. وبسبب هذا الصراع نشأت دويلات صغيرة ولكن قوية شبه مستقلة في بعض أنحاء الخلافة مثل آل زنكي في الموصل والشام والموحدين في الأندلس والغوريين في غزنة والهند، ودويلات حضرموت: بني قحطان في تريم وبني الدعار في شبام وبني آل فارس في الشحر.

وفي ظل هذا التقسيم لمراكز القوى، كان نور الدين محمود بن زنكي حاكم الموصل والشام، من أبرز تلك المراكز. وقد آلى على نفسه أن يتصدى للفرنجه اينما كانوا، وخاصة في مدينة بيت المقدس التي كانت قد سقّطت بأيديهم قبل حوالي عام، أي في عام ٤٩٢ هجري[٥١]. وقد عزز نور الدين قوته بتحالفه مع نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه اللذين انتقلا إلى الموصل قادمين من تكريت ووضعا نفسيْهما بتصرف نور الدين. وكان لنجم الدين ابنٌ نجيبٌ وفارسٌ مقدامٌ يدعى صلاح الدين بن أيوب، فأرسله نور الدين مع عمه أسد الدين شيركوه على رأس حملة إلى مصر عام ٥٥٩ هجرى لحمايتها من الغزو الصليبي، ثم شارك في حملتين أخريين إلى مصر للأسباب نفسها. ونجحت تلك الحملات بإنقاذ مصر من الفرنجه وتخليص المصريين من وزيرين خائنين كان كل منهما يحاول الاستعانة بملك بيت المقدس الصليبي لدعم مركزه في مصر، وانتهى الأمر بمقتل أولهما ضرغام خلال حملة شيركوه وصلاح الدين الأولى وبمقتل الآخر وهو شاور بعد الحملة الثانية[٥٢] واعتمد الخليفة الفاطمي على شيركوه ولقبه بالمنصور، لكنه توفي فجأة وخلفه في مركزه لدى الخليفة الفاطمي ابن أخيه صلاح الدين وعمره واحد وثلاثون عاما. ولم يقطع صلاح الدين ولاءه لنور الدين الذي أمده بقوة أخرى من بلاد الشام كان على رأسها توران شاه بن أيوب شقيق صلاح الدين، وأصبح صلاح الدين نائبا عن نور الدين في مصر رغم خلع الخليفة الفاطمي عليه لقب الوزارة. وقد أدرك الإفرنج الخطر المحدق بهم بعد أن قوي موقف صلاح الدين في مصر وأصبح يمثل اليد اليمنى للسلطان نور الدين في الشام، وقائد جيوش الخليفة الفاطمي في مصر، فاستنجد ملك الإفرنج في بيت المقدس المحتلة بملوك أوربا وبدولة الروم التي أرسل قيصرها أسطولا وصل إلى دمياط في مصر فهزمه المسلمون بقيادة صلاح الدين الذي نجح في اكتساب محبة الناس، وشاء القدر أن يتوفى نور الدين في الموصل وكذلك الخليفة العباسي المستنجد بالله في عام ٥٦٦ هجري فخلفه المستضيء بالله في بغداد، ثم توفي الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله في القاهرة بعد ذلك بأشهر فاستلم مكانه وزيره السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح السيد المطلق لمصر. وسرعان ما قام صلاح الدين بحركة انقلابية هائلة عندما أحل الفقه الشافعي محل الفقه الفاطمي فقضى بذلك على الدولة الفاطمية، ثم زحف على القيروان فضمها ثم البلاد الشامية التي كانت بيد الملك الصالح إسماعيل بن العادل الزنكي فدخل دمشق في عام ٥٧٠ هجري ثم حمص وحماه و بقيت حلب بيد عماد الدين زنكي. وبعد ذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه إلى اليمن والحجاز على رأس جيش من الأتراك الغز وضمهما إلى ملكه بعد أن اسر أمير اليمن عبد النبي بن مهدي وقادته وأرسلهم إلى القاهرة . ثم انسحب توران شاه عائدا إلى

الشام بعد أن ترك على عدن ونواحيها قائده عثمان بن علي الزنجيلي[٥٣] كما ترك على زبيد عامله توران شاه خطار بن كامل الكناني. وقد كافأ السلطان صلاح الدين شقيقه توران بأن أعطاه الإسكندرية واليمن والحجاز.

ولما تم لصلاح الدين ما أراد أعلن اسم الخليفة العباسي المستضيء بالله في صلاة الجمعة فمنحه الخليفة العباسي السلطة على جميع المناطق التي دخلها، وبذلك عادت أقاليم الخلافة موحدة من جديد بعد قرون من التفتت والتفكك فتعززت قوة الخلافة وهيبتها رغم الخطر الصليبي الكامن داخل دار الإسلام ممثلا باحتلال الإفرنج لطرابلس والقدس، وخارجا ممثلا بالدعوات المستمرة لحمل مسيحيي أوروبا على غزو الشرق الإسلامي[٥٤].

عاد صلاح الدين إلى مصر في عام ٥٧٢ هجري وأمر بتحصين القاهرة، وأقام قلعة على جبل المقطم، وعهد إلى بهاء الدين قراقوش بالإشراف على بناء سور للمدينة تحسبا لهجمات الإفرنج. وكان صلاح الدين تواقا لتصفية حساباته مع قائد صليبي عدواني اسمه أرناط مقيم في شرقي الأردن ويتحكم بحصني الكرك والشوبك، وبالتالي فإنه كان يتحكم بالطريق بين مصر والشام، كما كان يهدد الطريق إلى الحجاز، لا بل إنه هاجم بعض قوافل الحجاج وصار يعلن أنه سيحتل المدينة المنورة ومكة المكرمة. وزاد خطره درجة عندما احتل ميناء أيلة في العقبة بعد أن كان صلاح الدين قد حررها لتكون همزة وصل بين مصر والشام. ولهذا عدّ صلاح الدين أرناط هذا مجرماً، وأهدر دمه منتظراً اللحظة المناسبة لتنفيذ وعيده هذا[٥٥].

رغم الفتح السريع لليمن وحضرموت على يد توران شاه الأيوبي فإن جيوشا للمقاومة ظهرت للعيان في تلك الجهتين بعد انسحاب توران شاه وإنابته قائده الزنجيلي عليهما. فقد ثار آل راشد على الزنجيلي واعترضوه بجيش كبير ولكنهم هزموا أمامه في حضرموت[٥٦]، فأقام عليهم أخاه سويداً وأبقى آل راشد على ملكهم تحت سلطة أخيه ليؤدوا له الخراج وتنفيذ أوامره، ولكن ذلك لم يرق لهم فخلعوا طاعة سويد مجددا، فسير لهم الزنجيلي جيشه واستطاع أن يخضع آل راشد ويأسر سلطانهم عبد الله بن راشد وأخاه أحمد ثم أسر والد السلطان وأخاه شجعنة وأرسل الجميع إلى عدن. ثم توجه الزنجيلي إلى تريم فدخلها يوم الجمعة الرابع من ذي الحجة في عام ٥٧٥ هجري وأعمل بها السيف فأزال أمراءها وقتل الكثير من علمائها متهما إياهم بأنهم محرضون لآل راشد على خلع الطاعة. وممن قتلهم الزنجيلي راشد بن شجعنة صاحب تريم[٥٧] وحفيده أبا حمد بن شجعنة، كما أسر أبا الراشد بن راشد الدعار صاحب شبام. ولم يتعرض الزنجيلي لآل الإمام علي بن محمد بسبب مقامهم وعدم انخراطهم بالجيش الذي هاجم

الزنجيلي، غير أن الإمام علي بن محمد فقد الكثير من أصدقائه العلماء ممن سقطوا قتلى على يد الزنجيلي مثل الشيخين يحيى وأحمد من بني أكدر وقاضي تريم أبو بكر .

ونظرا لميول الزنجيلي إلى سفك الدماء وإعمال السيف في رقاب أهل حضرموت واليمن، فإن الأمر لم يستقر للغز إلا مدة وجيزة إذ انتفضت حضرموت على الزنجيلي مجددا ونهض صاحب شبام عبد الباقي بن أحمد بن راشد الدعار لاستنقاذ تريم فحررها ثم سلمها للسلطان شجعنة بن راشد وأخيه عبد الله بن راشد في عام ٥٧٧ هجري، فعادت تريم إلى ملك آل قحطان ثم سرعان ما عادت بلاد الشحر إلى ملك آل فارس. ورغم أن حضرموت لم تخرج عن طاعة الأيوبيين أصالة، فإنها بقيت لهم اسميا فقط[٥٨]. وأما ظفار فقد كانت بيد آل الحبوظي الأثرياء الذين أمدوا تريم بمعونة كبيرة من النقود والأطعمة بعد استباحة الزنجيلي لها. وقد هاجم سلطانهم سالم بن إدريس الحبوظي الغز الأكراد فدحروه في الشحر وعاد منها مهزوماً إلى ظفار كرسيّ سلطنته.

في تلك الأثناء توفي الخليفة العباسي المستضيء بالله وخلفه القاصد لدين الله في عام ٥٧٥ هجري الذي عزز تحالفه مع صلاح الدين الأيوبي وأعد خطة تدريجية ذكية للتخلص من نفوذ السلاجقة خاصة وأن الغز الأكراد كانوا قد استولوا على غزنة الغورية وعلى خراسان وأسروا سلطانها سنجر السلجوقي، كما أن معظم أفراد جيش صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام واليمن كانوا من تلك القبائل الكردية المسلمة المقاتلة الشديدة الشكيمة. واتفق الخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين الأيوبي على أن الأولوية يجب إعطاؤها لتحرير القدس من الفرنج. وبدأ الاثنان يحضّران لهذا الهدف الكبير، ووضع الخليفة جيوشه كلها تحت تصرف السلطان لإنجاز عملية التحرير. وأما السلطان فقد أراد حماية مؤخرته في اليمن وحضرموت قبل التوجه صوب القدس، وكانت اليمن مفوضة كما أسلفنا إلى شقيقه توران شاه وهو بالإسكندرية ونائبه خطار باليمن. فوجه السلطان صلاح الدين أميرا من قواده استولى على اليمن وعزل خطارا بسبب شكوى الناس منه[٥٩]. ولكن الأمير توفي فعاد خطار إلى الاستيلاء على الولاية، وعندما علم صلاح الدين ذلك، أرسل شقيقه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن فقضى على خطار وارسله إلى مصر حيث قطع رأسه[٦٠]. واستمر سيف الإسلام في ملك اليمن بعد انتصاره في موقعة قصعان جنوبي مدينة تريم على عثمان الزنجيلي الذي فر من عدن بحرا إلى بلاد الشام[٦١]، فعيّن سيف الإسلام بن عين الزمان واليا على عدن واستقر هو في زبيد، ولكنه لم يقم بزيارة حضرموت.

وما أن استتب الوضع في أفريقيا واليمن والشام حتى قرر السلطان صلاح الدين بدعم من الخليفة العباسي الناصر لدين الله تحرير القدس من الصليبيين. وزحف السلطان من نحو حوران حيث عسكر بقواته في منطقة حطين، والحرُّ على أشده في

شهر رجب من عام ٥٨٣ هجري[٦٢]. وقد اختار السلطان الأيوبي أن يقيم معسكره قرب ماء وفير وعشب كثير، بينما كان الصليبيون يعانون من قلة الماء وشدة الحر، وزاد البلاء عليهم عندما أشعل المسلمون النار في العشب الجاف فهبت الرياح الساخنة نحو معسكر الفرنجة[٦٣]. وبدأ الهجوم في الرابع من تموز واحتدمت المعركة في موقعة حطين قرب بحيرة طبرية أسابيع طوالاً كانت الأحشاء فيها تلتهب من العطش، والنبال تتساقط على رؤوس الفرنج نهاراً، ثم تتساقط عليهم ليلاً كالشهب بعد نقعها بالنفط[٦٤]. وهكذا استمرّ الوضع إلى أن انهزم الفرنج شر هزيمة ووقع قادتهم في الأسر، ومن بينهم أرناط نفسه الذي قام صلاح الدين بنفسه بقطع رأسه بينما عامل الآخرين كأسرى حرب[٦٥]. ثم استسلمت حامية القدس من الصليبيين لصلاح الدين في اليوم السابع والعشرين من رجب من عام ٥٨٣ هجري وكان يصادف ذكرى الإسراء والمعراج . فانتهت بذلك مملكة القدس اللاتينية.

وخلافا لما كان قد فعله أولئك الفرنج بالمسلمين عندما احتلوا القدس[٦٦] فقد أظهر صلاح الدين نبلا وشجاعة وتسامحاً لا مثيل لها عندما سمح للإفرنج بالرحيل مع أمتعتهم وأموالهم وضمن لهم زيارة الأماكن المقدسة حُجّاجاً. ولم يكن صلاح الدين بطل ميدان وحامل سيف فحسب بل كان حامي علمٍ وفكر أنشأ المدارس ومعاهد البحث العلمي وعمّر المساجد في سلطنته التي امتدت من تونس إلى العراق مظللة الخلافة العباسية[٦٧]. غير أن انتصار صلاح الدين الحاسم قد حرك الضغائن لدى ملوك أوروبا ولدى الفاتيكان، فدعا البابا إلى حملة صليبية تالية في عام ٥٨٥ هجري قادها كل من فيليب الثاني ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنكلترا وفريدريك باربار وس إمبراطور ألمانيا الذي غرق في البحر أثناء الرحلة فاختلف ملكا فرنسا وبريطانيا على من يترأس الحملة ولم يتوصلا إلى تفاهم فعاد ملك فرنسا إلى بلاده بعد أن تمكن الإفرنج من الاستيلاء على مدينة عكا الفلسطينية[٦٨]. وحدث أن الملك ريتشارد الأول مرض بعد أن أصابته حمى وأضحى عليلا لا يكاد يقوى على الحركة. وزاد في وطأة المرض عليه ما نمي إليه من تذمر الجيش وفتور حماسة أفراده .ولم يبق إلى جانب الملك سوى اللورد توماس دي فو يرعاه ويحرسه من خصومه[٦٩].

واجتمع القادة الصليبيون يفكرون في اختيار من يحل محل ريتشارد. واختار بعضهم فيليب ملك فرنسا. واقترح بعضهم ليوبولد أرشيدوق النمسا أو أموري كبير فرسان المعبد أو الماركيز منتسرا الأمير الإيطالي.

ويتندر ريتشارد وهو في فراش المرض بهؤلاء جميعا، ويغض من شأنهم ويحط من قدرهم. وعندئذ تسمع داخل سرادقه أصوات تأتيه من خارج. فيسارع دي فو

بالخروج لعله يتعرف إلى مبعثها ومأتاها. فيرى جماعة من الأعراب يثيرون ضجيجاً عاليا ومعهم سير كنث الإسكتلندي.

فتجهم دي فو لرؤيته لأنه كان يمقت الإسكتلنديين عامة، ثم سأله ما الخبر؟ فأجابه الإسكتلندي انه جاء بطبيب (أو حكيم) من لدن صلاح الدين يفحص الملك وهو يضع فيه كل ثقة لما لمس فيه من حدق في طبه ومهارة في فنه. وقد وصل الطبيب مع حاشية تابعة له هي التي يصدر عنها هذا الصياح الذي سمعه الملك. وقد أرسل صلاح الدين مع طبيبه هدية من الفاكهة والطعام النادر والشراب السائغ مصحوبة برسالة منه يتمنى للملك فيها عاجل الشفاء ويعده فيها بالزيارة[٧٠]. وأكد كنث براعة الطبيب لأنه قد اختبره في علاج خادمه، وكان علاجه ناجحا واقتنع دي فو بحذق الطبيب كما اطلع على أوراق اعتماده من صلاح الدين الذي فض الرسالة التي يحملها وقرأ فيها ما يلي: "سلام الله ورسوله محمد، تحية من صلاح الدين ملك الملوك، سلطان مصر وسوريا نور الدنيا وبلادها، إلى ريتشارد العظيم ملك إنجلترا. أما بعد. فقد نمي إلينا، يا أخي في الملك، أن المرض قد مد إليكم يدا ثقيلة لا تحتمل، وأن ليس لديكم من الأطباء غير النصارى واليهود الذين لا يعملون ببركة الله ونبيه الكريم، ولذا فإنا مرسلون إليكم بطبيبنا الخاص يقوم برعايتك ويسهر على راحتك، وهو "أدنبك" الحكيم الذي إن رآه عزرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض، والذي يعلم مزايا الأعشاب والأحجار ومسير الشمس والقمر والنجوم، وفي وسعه أن ينقذ الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين. وإنا لهذا فاعلون متوسلين إليك من أعماق القلوب أن تكرمه وتفيد من حذقه، ولم أفعل ذلك تقديرا لشجاعتك فحسب، وإنما فعلته لكي أقضي على الخصومة القائمة بيننا الآن، إما باتفاق شريف أو علناً بحد السيف في ساحة القتال، ذلك لأني أرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد أنهكه سيده بالعمل "[٧١].

بعد أن قرأ ريتشارد رسالة السلطان صلاح الدين سمح للطبيب بأن يناوله شيئا من الدواء الذي كان يخفيه في صدره، ثم بقي الطبيب عدة أيام يشرف على علاج الملك ريتشارد حتى شفي من الحمى واستعاد عافيته، فبعث كتاب شكر للسلطان صلاح الدين مقترحا أن يتبارز معه لكي تكون السيادة في بيت المقدس للفائز في النزال. ويرفض صلاح الدين هذا العرض لأن بيت المقدس ملك للمسلمين لا ينازع. ثم يعاود الملك العرض على صلاح الدين بالمبارزة من أجل الشرف والكرامة، ويرفض صلاح الدين مرة أخرى لأن حياته – في اعتقاده – ملك رعيته وليست ملكا له. ويفترق البطلان صديقين على أن يكون بيت المقدس للمسلمين دون أن يعرف الملك ريتشارد أن الطبيب الذي عالجه كان صلاح الدين الأيوبي نفسه متنكرا بزي طبيب عربي. وتم

عقد هدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ثلاث سنوات اعتباراً من عام ٥٩٣ هجري حصل خلالها ريتشارد الأول على ضمانات بحُرية حج الأوروبيين إلى بيت المقدس لمن يرغب(٧٢).

لم يطل المقام لصلاح الدين بعد انتصاراته تلك إذ توفي بدمشق اثر حمى أصابته عن خمسة وخمسين عاما وذلك في عام ٥٨٩ هجري، فملك مصر بعده ابنه الملك العزيز عثمان الذي لحق بأبيه بعد قليل فملك بعد ابنه الملك المنصور محمد في ظل وصاية عمه الملك الأفضل أخي العزيز إلى أن ورد عليه الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام واستقل بملك مصر والشام سنه ٥٩٦ هجرية. وأما دمشق فقد كانت قبل وفاة صلاح الدين بيد أخيه سيف الإسلام طغتكين. وبعد رحيل طغتكين إلى مصر استخلف عليها ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهينشاه بن أيوب صاحب بعلبك ثم صرفه عنها(٧٣)، وجعل عليها ابن صلاح الدين الملك الأفضل علياً، ولما توفي صلاح الدين قصده أخوه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وعمه العادل أبو بكر فانتزعاها منه وخطب فيها باسم العزيز سنة ٥٩٢ هجرية ولم يجد الملك الأفضل علي ملاذا يلجأ إليه إلا الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي كان يميل إلى التشيع، فكتب إليه الأفضل يستجيشه على أخيه العزيز عثمان وعمه العادل أبي بكر ببيتين هما:

مـــولايَ إن أبـــا بكـــر وصـــاحبه

عـــثمانَ قـــد غصـــبا بالســـيف حقَّ علي

فانظـــر إلـــى حـــظِّ هذا الاسم كيف لقي

مـــن الأواخـــر مـــا لاقى من الأول(٧٤)

ولما وصل البيتان لناصر لدين الله امتلأ غيظا فكتب للأفضل يقول :

غصـــبوا علـــيا حقـــه إذ لـــم يكـــن

بعـــد النبـــي لـــــه بيـــثرب ناصـــرُ

فاصـــبر فـــإن غـــدا علـــيك حســـابهم

وأبشـــر فناصـــرك الإمـــامُ الناصـــر،(٧٥)

والمهم أن الملك العزيز سلّم دمشق لعمه أبي بكر بن أيوب وعاد إلى ملكه في مصر ثم عمد أبو بكر بن أيوب إلى إقرار ابنه الملك المعظم عيسى بن أبي بكر على دمشق مضافا إلى ما بيده من الكرك والشوبك. وأما طرابلس فقد بقيت بيد الإفرنج،

وهكذا تغيرت الحال بعد وفاة صلاح الدين ونبتت قرون الفتنة والصراع على السلطة من جديد في مصر وبلاد الشام(٧٦). وسرعان ما انضمت اليمن إلى ساحة الفتنة عندما توفي طغتكين فيها سنة ٥٩٣ هجرية وخلفه ابنه الملك المعز إسماعيل الذي ظهر فيه هوج وجنون، فادعى انه قرشي من بني أمية وليس الخضرة وخطب لنفسه ولبس ثياب الخلافة فقتله أمراؤه وأقاموا مكانه أخاه الصغير الذي لقبوه بالناصر، وقام بتدبير المملكة مملوك أبيه سنقر إلى أن مات سنقر بعد أربع سنوات فقام بتدبير الدولة زوج أم الناصر غازي بن جبريل الذي دس السم للفتى الناصر في كوز شراب فمات على الفور، وتملك اليمن بكامله معتقدا أن أحدا لن يعترض سبيله، غير أن جماعة من فرسان القبائل قتلوه بسبب ما فعله بالناصر وآل الملك لأم الناصر التى تزوجت سليمان ابن الملك مظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في عام ٥٩٩ هجري(٧٧).

كانت تلك هي الحال عندما شن الإفرنج حملتهم الصليبية الرابعة في عام ٥٩٨ هجري بتحريض من البابا أنوسنت الثالث، وسيطر على الحملة المتطوعون من أهل البندقية في إيطاليا، ولكن تلك الحملة لم تصل إلى فلسطين واقتصرت نتائجها على احتلال القسطنطينية حيث أسسوا فيها الإمبراطورية البيزنطية اللاتينية.

كادت أيام العباسيين الزاخرة تعود إلى زهوها أيام الخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين الأيوبي لولا تربص العدو بهذه الدولة إذ تفتت الحكم في بلاد الشام ومصر واليمن وشمال أفريقيا بعد وفاة صلاح الدين في حين بدأ صوت دبيب خيول المغول في أواسط آسيا يقترب من حدود الخلافة في شرق إيران. وكانت غزنة آنذاك بيد الغز الأكراد الذين كانوا قد استولوا عليها من الغوريين وضموها إلى ملكهم في خراسان بعد قضائهم على السلطان سنجر السلجوقي. غير أن السلطان المعظم شهاب الدين بن سام الغوري عاد، فانتزع غزنة من الغز وحولها إلى مدينة يقصدها العلماء من كل حدب وصوب بعد أفول نجم بغداد ودمشق والقاهرة بسبب الحروب والصراعات. وكان ممن التجأ إلى غزنة عالم كبير هو فخر الدين الرازي جمعته بشهاب الدين صداقـــة قوية فألف وهو في رعايته كتابين هامين هما " التفسير" و"المحصول " في أصول الفقه، غير أن العالم لم يطب له المقام في غزنة(٧٨) بسبب الصراعات الدموية التي تنشب بين الأمراء من أجل حيازة زمام السلطة. فبعد أن ولى السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سام الغوري أميره قطب الدين أيبك على دهلي وعاد هو أدراجه إلى غزنة، قتل السلطان عام ٦٠٢ هجري وخلفه أخوه علاء الدين محمد بن سام. ثم تناوب علاء الدين ويلدز، مملوك أخيه غياث الدين على الحكم بالقوة طوال سنوات حتى أفل نجم مدينة غزنة وترصدت بها النوائب. وأما قطب الدين أيبك

فقد بقي يحكم دهلي حتى مات فخلفه مملوكه وقائد جنده شمس الدين للمش وبايعه الناس والفقهاء يتقدمهم قاضي القضاة وجيه الدين الكاشاني .

ثم توفي السلطان شمس الدين مخلفا وراءه ثلاثة أولاد ذكور هم: ركن الدين الذي يتولى الحكم بعده ومعز الدين، وناصرالدين، وبنتا تسمى رضية هي شقيقة معز الدين. ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بقتل أخيه معز الدين، فأنكرت شقيقته رضية عليه ذلك فأراد قتلها بدورها. فلما كان في بعض أيام الجمع خرج السلطان ركن الدين إلى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم، وهو يسمى " دولة خانة " ولبست عليها ثياب المظلومين، وتعرضت للناس، وكلمتهم من أعلى السطح قائلة: إن أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه، وذكرتهم بأيام أبيها وفعله الخير وإحسانه إليهم. فساروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم: " القاتل يقتل "، فقتلوه قصاصا بأخيه. وكان آخر الإخوة ناصرالدين صغيراً، فاتفق الناس على تولية رضية عليهم فصارت أول امرأة في الإسلام تحكم وتحمل لقب السلطانة رضية(٧٩)، واستقلت السلطانة بالملك أربع سنوات كانت خلالها تركب بالقوس كما يركب الرجال ولا تستر وجهها، ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين. ولكن رضية وزوجها خالفا السلطان ناصرالدين فخرج هذا للقائهما ومعه نائبه غياث الدين بلبن، وانهزم عسكر رضية وفرت هي إلى إحدى القرى حيث قتلها فلاح أراد سلبها، واستقر الملك بعد ذلك للسلطان ناصر الدين لمدة عشرين سنة(٨٠)، وبسبب هذا الصراع الدموي على السلطة بين أولاد ومماليك مؤسس الدولة الغورية، رحل عن غزنة العالم أبو بكر الرازي حزينا بعد سقوطها بيد جنكيزخان ملك التتر سنة ٦١٧ هجرية.

وقد جاء جنكيزخان هذا من قبائل المغول الرحّل التي كانت تقيم حول بحيرة بيكال في جنوب سيبريا، وكان والده أميرا على ١٣ قبيلة من تلك القبائل تحت رعاية الخان الأكبر ملك التتر. ولما شب جنكيزخان وصار مقاتلا أطاح بالخان الأكبر وتولى عرش المغول. وأول ما قام به هو غزو الصين والوصول إلى العاصمة بكين. وما ان تم له ذلك حتى قرر التحول غربا باتجاه دار الإسلام. وكانت الخلافة الإسلامية، كما وصفناه، من الضعف والاحتلال، وقد انقسمت إلى عدة ممالك تركية وإيرانية وكردية وبربرية، وأقربها إلى بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة الأتراك، وسلطانها علاء الدين خوارزمشاه ومقره مدينة خوارزم. ولما وصل جنكيزخان إلى ماوراء تركستان، أرسل جماعة من التجار الأتراك ومعهم ذهبٌ كثير إلى سمرقند

لشراء كسوة وثياب له، فلما وصل التجار إلى المدينة أرسل واليها يعلم خوارزمشاه بوصولهم ويذكر ما معهم من الأموال، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وإرسال ما معهم من ذهب إليه، فامتثل الوالي للأوامر، ولما وصل الخبر إلى جنكيزخان زحف بجحافله على تركستان فاجتاحها بكاملها وأعمل بها السيف ولم يترك فيها سوى الأطلال البالية، كما اجتاح في طريقه قسما من أفغانستان وبعضا من الهند(٨١).

لم تكن الأوضاع في اليمن بأفضل من غيرها في بقية أمصار الخلافة، فبعد أن ملك سليمان بن المظفر تقي الدين بن أيوب الحكم في زبيد ملأ اليمن ظلما وجورا واغتر بنفسه أيما اغترار فكتب إلى عم أبيه الملك العادل صاحب مصر كتابا في أوله "انه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم " أي انه جعل اسمه قبل البسملة. فأرسل إليه صاحب مصر محمد بن العادل الذي خلف أباه العادل، ابنه الملك المسعود يوسف أطسيس المعروف بأقسيس الذي استولى على اليمن وقبض على سليمان وبعثه معتقلا إلى مصر حيث قطع رأسه وبقي أقسيس قائما بأمور اليمن(٨٢). وأما حضرموت فقد كانت أحوالها أسوأ من أحوال غيرها من أمصار الخلافة إذ وقعت نهبا للصراعات بين السلاطين والقبائل وكثرت التصفيات الدموية وتبادل الغزو والقتل بين تلك القبائل من جهة وبينها وبين الغز الأيوبيين من جهة ثانية، وقد نجت تريم من كارثة مماثلة لما لحق بالشحر وعندل والهجرين وشبوة والريدة وعمد في عام ٦٠٩ هجري عندما اتفق عبد الباقي بن فارس مع جيش الغز على أن يدفع لهم خمسة آلاف ريال مقابل ألا يدخلوا تريم، فوافق الغز ونجت المدينة من الدمار، غير أن أمور العيش والتجارة قد شلت حركتها تماما وانعزلت المدينة عن الخارج لأن القبائل المحيطة بها من بني حارثة وبني سعد وبني ظنة استمرت بالصراع والغزو فيما بينها. وقد شاء القدر أن يتوفى الإمام علي بن محمد في عام ٦١٣ هجري وكذلك ابن عمه عبد الملك بن محمد ابن جديد بعده بعام واحد، فآلت زعامة الطالبيين في حضرموت إلى الإمام محمد بن علي بن محمد صاحب مرباط بن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى. وكان محمد الابن الوحيد لأبيه واشتهر بالإمام الفقيه المقدم نظرا لعلو كعبه في الإمامة والاجتهاد والتصوف. ولما آلت رئاسة نقابة الطالبيين إليه ترك عادة حمل السيف وكسره وسلمه لأستاذه العلامة الشيخ سعيد بن عيسى العمودي فاقتدى به الآخرون(٨٣). وقصة العلاقة بين سعيد بن عيسى العمودي وبين الإمام الفقيه المقدم محمد بن علي لا تخلو من العجب ، ذلك أن الشيخ شعيبا أبا مدين بن أبي الحسن الإشبيلي التلمساني المعروف بأنه قطب من أقطاب الصوفية في المغرب قد أرسل تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن محمد المغربي إلى حضرموت، فلما

كان بمكة أحس بدنو أجله فأوصى الشيخ عبد الله المغربي بأن يتولى المهمة ويتصل بالإمام الفقيه المقدم والشيخ سعيد بن عيسى العمودي. وعندما وصل الشيخ عبد الله إلى حضرموت نقل معارف الشيخ شعيب أبي مدين للمذكورين فصارا من مريدي أبي مدين الصوفي. ولم يكن التصوف في حضرموت مبالغا فيه ولا مبنيا على أسلوب رهباني جامد كشأنه في بعض الجهات الأخرى من الخلافة، إنما كان تصوفاً وسطا يدعو إلى الزهد في متاع الدنيا وشهواتها ولكنه لا ينهى عن اتخاذ الأسباب والعمل بلزومات الحياة والتمسك بالفقه.

وكتب الفقيه المقدم رسائل فقهية أجاب فيها على ثلاثمائة مسألة سئل عنها في مجالات مختلفة. وكان له مجلس كبير في مسجد باأحمد في تريم يحضره كبار شيوخ حضرموت مثل الشيخ عبد الله بن محمد باعباد وأخيه عبد الرحمن بن محمد باعباد والشيخ عبد الله بن إبراهيم باقشير والشيخ سعيد بن عمر بلحاف والشيخ إبراهيم بن يحيى بافضل والشيخ سعيد بن عبد الله أكدر.

وكان أولاد الإمام الفقيه علوي وعبدالله وأحمد يحضرون ذلك المجلس ويأخذون عن أبيهم العلم والتصوف(٨٤) . وكان للإمام الفقيه في الأخذ طريقتان أولهما: المعارف الطالبية التي انتقلت إليه أبا عن جد من أسرته، وثانيهما لبس الخرقة الصوفية، وهذه أخذها الإمام الفقيه من الشيخ شعيب أبي مدين بواسطة الشيخ عبد الرحمن والشيخ عبد الله الصالح المغربيين. وكان الشيخ شعيب قد أخذها بدوره عن الشيخ أبي يعزى المغربي الذي أخذها من المعافري الذي أخذها من المتصوف الكبير ابن عربي الذي أخذها عن حجة الإسلام محمد الغزالي الذي كان قد أخذها عن إمام الحرمين ... إلخ حتى تنتهي الخرقة عند الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) الذي يقول المتصوفون أنه كان قد أخذها من يد رسول الله (ﷺ). والمقصود بخرقة التصوف أن يلبسها المريد تقيداً بزي أهل الخير وأخذ العهد عليه من عدم الانحراف عن سبيلهم فهي مذكرة لعهد الشيخ على المريد لكي ينزجر عن أن يحيد أو يتهاون. والمهم أن صيت الإمام الفقيه المقدم قد ذاع في الآفاق وصار الناس يطلقون عليه لقب الأستاذ الأعظم. ولم يكن التصوف والعلم هما السمتان الملازمتان للأستاذ الأعظم بل انه اشتهر بالكرم والجود، فكانت داره رحبة الفناء وأبوابها مفتوحة للأيتام والفقراء والأرامل وعابري السبيل. وكانت زوجته زينب بنت أحمد بن محمد صاحب مرباط(٨٥) هي التي تشرف على إعانة الناس حتى اشتهرت بين الناس باسم زينب أم الفقراء. وكان أهل حضرموت أهل ضنك في المعاش و لكن لديهم نخيل كثيرة لأن التمر هو غاية مالديهم من موارد الثروة لكون تربة حضرموت قابلة لغرس النخيل فقط ولكونه لايحتاج إلى السقي الكثير مثلما يحتاج

إليه غيره من الأشجار. فكان الحضرميون يقضون أيامهم طوال السنة في اقتصاد وتقتير حتى إذا حل أوان الرطب تنفسوا الصعداء وانتعشوا فيدخرون ما يرونه لازما للاقتناء ويبيعون ما بقي. وأما زراعة الحبوب فهي مع قلة الأمطار وعدم وجود أنهار ولا عيون جارية حول الأراضي الصالحة للزراعة غير كافية ولا تسد جميع حاجاتهم. وهذا هو السبب لما كانوا عليه من الضنك والشدة والسبب نفسه هو الذي دفع بالحضرميين إلى التفكير بالهجرة إلى ما وراء البحار[٨٦].

ورغم الاضطرابات العنيفة التي كانت تهز اليمن وحضرموت فان تريم كانت نسبيا بمنأى عنها، وكان الطالبيون يحرصون على بقائها تحت حكم آل يماني الذين مالبثوا أن أنهكهم التنافس فيما بينهم، وأخذ الشقاق بينهم مأخذه مرارا وتكرارا لولا أن الإمام الفقيه المقدم ومن تبعه كانوا يؤالفون بين القلوب ويقربون الصفوف بكل ما لديهم من قوة ومن رأي وجاه، ذلك أن تريم أصبحت مدينة للطالبيين في عهد السلطان ابن إدريس بن يماني من آل بني حرام واختصت بهم دون سائر بلدان حضرموت، ولكنهم قد ألفوا آل يماني وغدت لهم عندهم الكلمة النافذة والمنزلة السامية وهم لا يدرون إلى ماذا ستؤول الحال إذا تغيرت الدولة وتولى على تريم حكام من غير آل يماني ممن لم يختبروا حالهم و لم يعلموا مشربه ودخيلة أمره[٨٧]. وأما شبام فكانت تحت سلطة بني سعد تارة وبني حارثة طورا والكسر تحت سيطرة قبائل الكسر: فهد وقدجح وكندة، ثم سيطر عليها سالم بن إدريس الحبوظي صاحب ظفار. والواقع أنه لما ملك الملك العادل الأيوبي اليمن وأرسل حفيده الملك المسعود إليها في عام ٦١١ هجري وتتبع هذا الحفيد بلدان اليمن يفتتحها بلدا بلدا، علت له الهمة إلى الاستيلاء على الحجاز فاستولى على مكة. وكانت حضرموت من جملة ما دخل في طاعته. وذات يوم خرج الملك المسعود في رحلة صيد نمر بقرية الوحيز فرأى بها جمهورا كبيرا فسألهم عن سبب تجمعهم فأخبروه بأن فيهم رجلا عالما من الصالحين يدعى الشيخ مدافع بن أحمد العيني وهو من تلاميذ الشيخ الصوفي عبد القادر الجيلاني، ومعه مريد له من الطالبيين هو الإمام علي بن محمد أبو جديد، ابن عم الإمام الفقيه المقدم، وكان هذا المريد من الطالبيين قد زار الشيخ مدافعا قبل سنوات بصحبة شقيقه عبد الملك بن محمد وامتزجا به واطلعا على أسراره الصوفيه وتزوجا ابنتيه الاثنتين. دهش الملك المسعود من مدى تعظيم الناس للشيخ ومريده فقصدهما للزيارة، وكان ذلك وقت اشتغال الشيخ ومريده بأوراده وأذكاره في الصباح حيث اعتاد أن يملأ بها مابعد صلاة الصبح إلى أن يصلي الضحى بدون أن يخاطبه أحد. واتفق مجيء الملك وأتباعه والشيخ ومريده على تلك الحال وخادمه يدخل ويخرج ويقول الساعة يخرج الشيخ بدون أن يشعر الشيخ بوصول الملك

إليه وانتظاره ذلك الانتظار حتى مل الملك والأمراء وتبرموا وغضب المسعود وغادر القرية دون أن يقابل الشيخ، ولكنه أمر بإلقاء القبض عليه وعلى أبي جديد صهره وبنفيهما إلى الهند فحملتهما سفينة عصفت بها الرياح فجنحت قرب ظفار فنزلا فيها حيث قابلهما الأهالي أحسن مقابلة وألحوا عليهما أن يقيما بينهم فاعتذرا خوفا على أهل البلدة من انتقام المسعود، ثم استأنفا سفرهما إلى الهند ونزلا في بندر دابول حيث ظهرت وجاهتهما هناك وصار لهما مريدون كثيرون ثم عادا أدراجهما إلى ظفار في عام ٦١٨ هجري[٨٨].

وبعد أن غادر الملك المسعود حضرموت أرسل إليها أميراً من قادة جيشه يدعى عمر بن مهدي فوصل الشحر فدخلها دون حرب لانقياد صاحبها ابن فارس له، فأقره على ملكه ثم عاد إليها في عام ٦١٥ هجري فطرد بني فارس عن الشحر واستولى عليها بالقوة بعد أن قتل الكثيرين من أهلها، ثم توجه إلى تريم وحاصرها حتى استسلمت له، وبعدها احتل شبام حتى خضعت حضرموت بكاملها له في عام ٦١٧ هجري. وظن ابن مهدي أن الأمر قد استقر له بحضرموت فاتجه إلى اليمن حيث اجتمع مع الملك المسعود في مدينة تعز، وبينما هو يبث خبر انقياد حضرموت له وصل رسول يخبره بانتفاضة أهل هجر ودوعن وعرف والأسعى وقبائل الكسر وخاصة قبيلة نهد، فعاد ابن مهدي أدراجه مسرعا إلى حضرموت ليلقى حتفه قتلا في مقره بشبام في عام ٦٢١ هجري. ولما كان آل يماني يمتون بصلة القربى إلى قبيلة نهد، فقد حافظوا على ملكهم لتريم بشخص السلطان مسعود بن يماني بعد مقتل مهدي وانحسار نفوذ الأيوبيين في حضرموت.

خلال تلك الأيام العصيبة التي شهدتها اليمن وحضرموت، شن الإفرنج حملتهم الصليبية الخامسة في عام ٦١٥ هجري بتحريض من البابا إنوسنت الثالث نفسه[٨٩]، ولكن الحملة التي توجهت إلى مصر أولا لكونها مركز القوة الرئيسي في المشرق في تلك الأيام فشلت في محاولة احتلالها لمصر والتي دامت ثلاث سنوات وانتهت في عام ٦١٨ هجري. ثم توفي الخليفة الناصر لدين الله وخلفه الظاهر بأمر الله في عام ٦٢٢ هجري ليجد على مصر الملك محمد بن العادل أبا بكر بن أيوب الذي رفض الإقامة في قصر الفاطميين وسكن قلعة الجبل في القاهرة، وعلى دمشق المعظم عيسى بن العادل أبا بكر، أي شقيق ملك مصر، وعلى حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وعلى حمص شيركوه بن محمد بن شيركوه بن أيوب. أما طرابلس وصفد فقد كانتا ماتزالان بيد الأفرنج[٩٠]. وكانت مكة بيد أقسيس صاحب اليمن، وما وراء النهر بيد جنكيز خان التتري .

وما أن حاول الخليفة الجديد الظاهر بأمر الله التحرك باتجاه تعزيز موقع الخلافة حتى فاجأه الموت في عام ٦٢٣ هجري فخلفه المستنصر بالله ليجد الأمور على حالتها كما كانت في عهد سابقه مع بعض التغييرات الطفيفة التي نجمت أيضا عن وفاة سلطان دمشق المعظم عيسى وتملك ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود الحكم وهو صغير، فقام بتدبير أمور دولته عزالدين أيبك المعظمي، غير أن هذا التدبير لم يرق للملك الكامل محمد بن العادل في مصر، فسافر إلى دمشق وتسلمها من الناصر داود في عام ٦٢٦ هجري وعوضه عنها الكرك والبلقاء والأغوار، واستخلف على دمشق أخاه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل. وتوفي أيضا صاحب مكة أقسيس بن الكامل محمد بن العادل في عام ٦٢٦ هجري فخلفه قائده فخر الدين بن الشيخ الذي سرعان ما طرد من مكة على يد راجح بن قتادة أحد قواد عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن في عام ٦٢٩ هجري الذي طرد بدوره منها على يد جبريل أمير صاحب مصر، وهرب راجح إلى اليمن ثم عاد ومعه عمر بن علي بن رسول فطردوا جبريل، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن علي بن رسول بعد الخليفة المستنصر فازداد غرور عمر وخرج عن طاعة بني أيوب ملوك مصر وتلقب بالمنصور(٩١).

وبينما كان المستنصر بالله يرتب أمور خلافته شن الإفرنج حملتهم السادسة في عام ٦٢٥ هجري بقيادة إمبراطور بروسيا فريدريك الثاني، ولكنها فشلت شأنها في ذلك شأن سابقتيها، فعاد الإمبراطور أدراجه إلى بلاده في العام نفسه يجر أذيال الخيبة وراءه(٩٢). وساعد هذا الفشل الخليفة المستنصر بالله لتعزيز مواقعه فعاد للاهتمام بالشرق حيث يقترب صدى الخطر المغولي القادم من آسيا الوسطى، فوجه عماله ببناء المزيد من الحصون والقلاع والأسوار حوالي المدن الرئيسية في غزنة وخراسان وطبرستان. ولما كانت البصرة قد استعادت أهميتها التجارية بعد النكسات التي حلت بها على يد الزنج والقرامطة، فقد ازدهرت الحياة التجارية والثقافية فيها وفي بغداد، وعادت الملاحة منتظمة بين المدينتين عبرنهر دجلة، وكان ذلك مدعاة لإقامة معرض طريف في بغداد للحيوانات النادرة. فقد قدم غياث الدين أبو الفتح شاه صاحب جزيرة كيش عند مضيق هرمز، وهو من كبار التجار في الخليج، إلى بغداد واستصحب معه من الحيوانات والهدايا والتحف ما مقداره عشرون مركبا. ورست المراكب في بغداد قرب الخاتونية وأنزل صاحب كيش عجائبه من زرافة وحمار وحشي وقرود وشجرة من العود بتمامها والكثير من العاج والساج، فتجمع الناس ليروا تلك الحيوانات والأشياء لأول مرة في حياتهم، وقد زار الخليفة نفسه المعرض وقدم له صاحب كيش الكثير من الهدايا(٩٣).

حواشي الباب الثالث

(١) العندم [le Song-de-dragon] مادة كانت تصدرها ظفار إلى الصين، ومن أسمائها: الكندرو الفاطم أو دم الأخوين، وهي من التمر الأحمر المستخدم في الصباغة وتصنيع الدواء .

(٢) [Le Comphres] وأما صمغ المقل فهو ما يقال له بالفرنسية La gomme arabique تأتي من جبل اليمن و الشحر و يدخل في تركيب الأدوية .

(٣) هي أحجار تمتد كالقصب فارغة ولكنها أعرض ولها صوت كصوت الحجر تتولد بأطراف اليمن مما يلي الشحر وعمان، تستعمل لقطع نزيف الدم والتحام الجروح وتحليل الأورام.

(٤) تأتي من حضرموت واليمن و ظفار .

(٥) الحبيرة ثمر شجر كالنارجيل ولكن لا ليف له يستعمل لمعالجة الإسهال المزمن ونزيف الدم { انظر د. عادل محيي الدين الآلوسي، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، ص ٢٤٦} .

(٦) الرند هو ما يسمى بالفرنسية Le Laurier .

(٧) مليبار تقع في غربي الهند الجنوبية و تعرف الآن باسم " كيرالا " { المرجع السابق نفسه، ص ٢٥٣ } .

(٨) كرومندل تعني المعبر باللغة الهندية، وهي ما يسمى باللغة العربية بلاد المندل

(٩) الغزنويون: اسم سلالة المماليك الأتراك التي حكمت شرقي إيران وأفغانستان والبنجاب (٩٦٢- ١١٨٧م) أسسها ألب تكين، أحد ولاة السامانيين عند تمرده على أسياده السامانيين. وقد رسخها صهره سبكتكين (٩٧٧ م). سيطر الغزنويون طوال قرنين على مساحات شاسعة من الهند وأفغانستان والبنجاب، وجعلوا عاصمتهم غزنة الواقعة في شرق أفغانستان والتي كانت الجيوش العربية قد دخلتها منذ عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. عرفت سلالة ألب تكين بالغزنويين نسبة إلى العاصمة غزنة. من أهم الملوك الغزنويين محمود الأول [سادس سلاطين كوجرات] الذي تحالف مع سلطان مصر لقهر البرتغاليين في عام ١٥٠٨ م ومنعهم من السيطرة على بحار الهند والبحر العربي رغم تدمير أسطوله في عام ١٥٠٩ م والسلطان محمد سام الغوري الذي فتح الهند. { انظر قاموس المنجد، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٧٣ ، الصفحة ٥٠٧ }.

(١٠) انظر: العلامة علوي بن طاهر الحداد، "المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، تحقيق محمد ضياء شهاب ، ص ٨٠ .

(١١) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٨٠ .

(١٢) انظر : ابن القوطي، " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب " ، ص ١٢١٧

(١٣) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢١٨ .

(١٤) انظر : هاني المبارك ، " نور الدين الزنكي"، [منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحبب أن أعرف أعلام أمتي " ١٩٩٨ م-١٣١٩ هـ].

(١٥) انظر: هاني المبارك، "صلاح الدين الأيوبي"، [منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحبب أن أعرف أعلام أمتي " ١٩٩٨ م – ١٣١٩ هـ].

(١٦) انظر : الشهيد آية الله مرتضى المطهري ، " الإسلام و إيران " ، ص ٢٩٦ .

(١٧) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٥٩ ، وانظر أيضا ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " ، [منشورات دار إحياء العلوم ، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م] ، ص ٤٣٢ .

(١٨) انظر " الإسلام و إيران " ، ص ٢٩٦

(١٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٢٠ .

(٢٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٣١٧ .

(٢١) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٢، وكذلك " شمس الظهيرة " ، ص، ٥٢١ – ٥٣١.

(٢٢) انظر " شمس الظهيرة " ، ص ٢١٣ .

(٢٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٣

(٢٤) انظر " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ص ٢١٣ .

(٢٥) يعتبر زواج الداعية المسلم العربي أو غير العربي ابنة الملك الهندوسي أو البوذي المحلي من أنجح الوسائل التي استخدمها الدعاة والتجار لنشر الإسلام في أرخبيل الملايو ، وتذكر الحوليات الجاوية المسماة " Babad Tanah Jawa " الزواج بين أميرة تشامبا و " براويجايا Brawijaya " آخر ملوك ماجافاهيت ، والزواج بين مولانا إسحاق وابنة ملك " بلامبانغان Blambangan " التي أنجبت فيما بعد " سونان قيري " أحد الأولياء التسعة المشهورين في إندونيسيا ، والزواج بين رادين رحمت [سونان أمبيل] ، وهو أيضا أحد الأولياء التسعة ، و " نياي غيدي مانيلا Nyi Gede Manila " أميرة " تومانغونغ ويلاتيكتا Tumenggung Wilatikta " [إمبراطورية ماجافاهيت في جاوا] . وأما تاريخ " تشيريبون Cirebon " فيسجل زواج أميرة " كاوونغ أنتن Kawung Anten " لسونان غونونغ جاتي [الداعية المشهور شريف هداية الله] . وفي حوليات مدينة " توبان Tuban " يسجل زواج " رادين أيو تيجا Raden Ayu Tija " ابنة " اريا ديكارا Arya Dikarta " من شيخ مسلم عربي يدعى سيد عبد الرحمن ، وقد أنجب هذا الزواج ابنا يدعى " شيخ جالي Syeh Jali " . { انظر :

Uka Tjandrasasmita، " The Arrival and Expansion of Islam in Indonesia "، Article published in " Islamic Civilization in the Malay World "، IRCICA، Istambul، ١٩٩٩، page ٥٠-٥١.

(٢٦) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٣ ، و ص ١٣٠ .

(٢٧) من الرحلات و السفارات المشهورة إلى أوروبا رحلة يحيى بن عبد الحكم البكري الملقب بالغزال إلى الدنمارك مبعوثا من قبل أمير قرطبة عبد الرحمن الثاني لمفاوضة النورمان ، ورحلة أحمد بن فضلان التي زار فيها بلاد البلغار الصقالبة سفيرا للخليفة العباسي المقتدر بالله ، ورحلة الشريف الإدريسي أبي عبد الله المغربي الذي جال في أوروبا بتكليف من روجر الثاني النورمندي ملك صقلية المسلمة ، وألف لروجر الثاني كتابه المعروف ب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". والإدريسي هو أول من اكتشف أن النيل ينبع من بحيرات خط الاستواء. وهناك رحالة أخرى يدعى الطرطوشي إبراهيم بن يعقوب زار أوروبا في القرن الرابع الهجري ووصل إلى ألمانيا واجتمع بملكها " أوتو " .

{ انظر مقالا للدكتور. محمد محمود الصياد بعنوان " رحلة ابن بطوطة " [موسوعة " تراث الإنسانية " الجزء الخامس، ص ١٠٢] ، وكذلك كتاب العلامة علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٧٣ } .

(٢٨) ابن الفضية أبو بكر الهمذاني (٢٩٠ هجرية) له كتاب " مختصر كتاب البلدان " ذكر فيه جزائر الهند الصينية ومن بينها جزيرة " الرامني" الإندونيسية .

(٢٩) ابن وهب سافر في عام ٢٥٧ هجري {٨٧٠ م} حتى وصل إلى الصين وسنغافورة أيام ثورة الزنج، ذكره أبو زيد حسن السيرافي، ونشر كتابه المستشرق الهولندي " فيراند " في عام ١٩٢٢ م.

(٣٠) أحمد بن ماجد بن أبي الركائب ولد ببلدة جلفار في عام ٨٤٥ هجري { المعروفة الآن بإمارة رأس الخيمة} في الخليج ، له كتب منها " الفوائد في أصول البحر و القواعد".

أفرد الباحث إبراهيم خوري تحقيقا معمقا لشخصية أحمد بن ماجد في العدد رقم ٢٣ – السنة السادسة من مجلة " التراث العربي" الصادرة بدمشق في شهر نيسان ١٩٨٧ م الموافق لـ ٢٣ شعبان ١٤٠٦ هجري { الصفحات من ١٠٣ إلى ١٤١ } . وقد سعى هذا الباحث إلى البرهنة على أن لقاء فاسكو دي غاما و أحمد بن ماجد مستحيل ، وأن مصدر الرواية القائلة بصحة هذا اللقاء مستمدة من مؤرخ تركي هندي هو قطب الدين النهروالي ، أراد أن يلقي بمسؤولية اكتساح البرتغاليين للسواحل الإسلامية في أفريقيا على كاهل البحار ابن ماجد العربي لأن الأتراك كانوا الخاسر الأكبر من اكتشاف البرتغاليين لطريق التجارة البحرية مع الهند. وبالفعل تعتبر الوثيقة التي كتبها قطب الدين النهروالي المكي، المولود في لاهور من أعمال الهند في عام٩١٧ هجري – ١٥١١م، بناء على طلب القائد التركي الذاهب لفتح اليمن سنـــان باشا ، بمثابة أول مرجع يشير إلى دور ابن ماجد في إرشاد البرتغاليين إلى طريق الإبحار بين أفريقيا والهند. وننقل هنا النص المتعلق بابن ماجد كما ورد في الوثيقة المذكورة: " وقع في أوائل القرن العاشر، من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول " الفرتغال " اللعين من طائفة الفرنج الملاعين، إلى ديار الهند. وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر، ويلجون الظلمات، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر، بضم القاف و سكون الميم جمع أقمر، أي أبيض، وهي مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل، في مضيق، أحد جانبيه جبل، والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم ، وتتكسر، ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلص منهم غراب إلى الهند . فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلّهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له الملندي، وعاشره في السكْر فعلمه الطريق في حال سُكْره، وقال لهم: لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج. فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند، وبنوا في كوة من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا. ثم أخذوا هرموز و تقووا هنالك، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا و نهبـــا ، ويأخذون كل سفينة غصبـــا .

(٣١) ابن رستة أبو علي الأصفهاني ، توفي عام ٢٩١ هجري ولـــه موسوعة اسمها "الأعلاق النفيسة " ذكر فيه اليمن و الهند و مصر والقسطنطينية و المجر و الصقالبة .

(٣٢) الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم ، توفي في عام ٣٤٦ هجري و له كتاب " مسالك الممالك " وكتاب " الأقاليم " .

(٣٣) بزرك بن شهريار الرامهرمزي و له كتاب " عجائب الهند بره وبحره وجزره " توفي في عام ٣٤٤ هجري جمع أخبار الهند والشرق الأقصى إلى الصين واليابان .

(٣٤) ياقوت الحموي بن عبد الله الرومي (٥٧٤ – ٦٢٧ هجري) ألف " معجم البلدان " طبع في لايبزغ بإشراف المستشرق الألماني ويستنفيلد، وذكر ياقوت في معجمه بـلاد الصين وجاوا والهند. وزار الشام وخراسان ومرو وخوارزم وغيرها. وقال: إن هذه الممالك شاسعة ما رأينا من مضى فأوغل فيها، وإنما يقصد الناس أطرافها ، وهي بلاد تعرف بالجاوا على ساحل البحر

شبيهة بلاد الهند. ومن مؤلفاته " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " طبع بالقاهرة بإشراف المستشرق مرجليون، وله أيضا " المشترك وضعاً والمختلف صقعاً " ، وتوفي بحلب .

(٣٥) سليمان بن أحمد بن سليمان المهري المتوفي عام ٩٦٢ هجري ، له مؤلفات خمسة نشرها المستشرق غبريال فيرائد، منها " العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية"، "المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر " ذكر فيه المواصلات البحرية والجزائر من البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى الشرق الأقصى والصين .

(٣٦) المقدسي البشاري، ولد في بيت المقدس في عام ٣٣٥ هجري ، له " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "

(٣٧) ابن خرداذبة أبوالقاسم عبيد الله بن عبد الله الخراساني، مؤرخ وأديب وجغرافي كبير (٢٣٢ – ٣٠٠ هجري) له كتاب " المسالك و الممالك " ذكر فيه جزائر الزبج والرامني وسلاهط و كلة (إندونيسيا)، وعلق على هذا الكتاب المستشرق الهولندي دي تموجه.

(٣٨) أبو دلف بن مهلهل ، من أقدم رحالة العرب، زار الهند وكشمير والأفغان وألف كتاب " عجائب البلدان " .

(٣٩) ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (٣٠٨ – ٣٦٧ هجري) بدأ رحلته في عام ٣٣١ هجري ودامت أكثر من ربع قرن ، له كتاب " صورة الأرض". عمل خرائط في عام ٣٧٠ هجري. زار الهند والعالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب والأندلس وإيطاليا .

(٤٠) المسعودي، له كتاب مشهور " مروج الذهب " ، عاش في بغداد في عصر ابن حوقل وتوفي في عام ٣٤٦ هجري. رحل إلى فارس والهند وسيلان والسند ومـــا وراء النهر ومدغسكر والشام ، قضى نحو ٢٥ عاما من حياته في الترحال .

(٤١) انظر " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٢٧٨ .

(٤٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٨ .

(٤٣) انظر : الشيخ عبد القادر بن العيدروس بن أبي بكر بن سالم العلوي، "إظهار الحقيقة فيمن أدخلوا الإسلام إلى جنوب شرق أسيا وخصوصا إلى إندونيسيا العزيزة " [جاكرتا ١٩٩٨ م / ١٤١٩ هـــ] ، ص ١١٠ – ١١١.

(٤٤) يشير د. عادل محيي الدين الألوسي في كتابه الهام " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا"، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، سلسلة الدراسات /٣٥٨/ ، بغداد ١٩٨٤ ، الصفحة ١٤٨ – ١٤٩ ، إلى أن الحكايات الشعبية التي كتبت بالأتشية والملايوية تشير إلى

(٤٥) تدل الأبحاث التاريخية المعاصرة على وجود تجمعات إسلامية دائمة في " سامودرا باساي " منذ القرن ١٣ م، وكان أهم هذه التجمعات يقع على بعد ١٥ كم من مدينة " Lhoksemawe " شمال أتشيه. { انظر : Uka Tjandrasasmita ، سبق ذكر المرجع ، الصفحة ٤٦ } .

الملك الصالح هذا وكيفية إسلامه فتذكر: أنه ذات مرة عثر رجا [Raja أي ملك] محمد على بنت صغيرة في شجر بمبو و تبناها وسماها {الأميرة بمبو}، وعادة رجا هذا أن يأخذ في كل يوم جمعة و لدا و يغسله في النهر. وفي إحدى المرات أخذ ولدا أسماه Marah Gajah { السيد فيل} وشاءت الأقدار أن يتزوج السيد فيل بالأميرة بمبو وأنجبا ولدين أكبرهما " مراح سيلو Marah Silu الذي كان له كلب اسمه " باساي " Basai . وذات يوم سمعه " راح سيلو " يعوي بألم، فلما ذهب إليه وجد نملة قد لصقت به فأخذها وقتلها وقيل أكلها . ثم إنه بنى على هذا المكان قصرا سماه أصحابه Semudera أي نملة كبيرة، وتذهب هذه الأسطورة إلى أن النبي محمداً (ﷺ) تنبأ بحصول هذه الحادثة، وأمر "مراح سيلو" باعتناق الإسلام، وقد نفذ الأخير الأمر، وبعد إسلامه سمى الملك المدينة دار السلام ثم إنه بنى مدينة. والصحيح في إسلام أمير سمدرة هذا ما ذكرته

التواريخ الملايوية فهي أخرى سماها باساي على اسم كلبه Soejatmoko، p. ٧٥ تذكر أن السلطان محمد سلكان مأبري Ma'abri أي المعبر (على شاطئ كرومانل جنوب الهند ، قد اسلم على يد القبطان الشيخ إسماعيل ، وقد تنازل عن العرش لابنه الأكبر ولبس ثيابا رثة ليظهر بمظهر الفقر والزهد وأبحر على ظهر سفينة إلى ميناء سمدرة في شاطئ الشمالي الشرقي لسومطرة. ولما نزل الفقير محمد إلى البر قابل أمير هذه المدينة المدعو " مراح سيلو " وعرض عليه الإسلام فأسلم ، وأن مراح سيلو هذا قد تزوج بنت سلطان بيرلاك وأنجب منها ولدين، ترك لكل منهما ولاية بعد وفاته، الزاهر ملك على باساي والظاهر على سمدرة، وهو الذي تحدث عنه ابن بطوطة واصفا إياه بالملك الغيور على الدين، الولوع بالمناظرات والذي كانت له علاقات حسنة مع سلطان دلهي. وكلمة " سمودرا " أطلقت على اسم مدينة سومطرة القديمة، وهي من أصل سنسكريتي و معناها البحر .

(٤٦) انظر " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٢٢٤ .

(٤٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٨٢ .

(٤٨) فيما يلي النص الكامل لما ورد على الشاهدة ، وعلى شواهد قبور أخرى :

القبر باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الباب ما الدار
هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك أي الدار تختار
الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله و إن خالفت فالنار
مضى الدهر والأيام والذنب حاصل ... وجاء رسول الموت و القلب غافل

تزود من الدنيا فإنك راحل ... فالموت لا ريب نازل
نعيمك في الدنيا غرور و حسرة ... وعيشك في الدنيا محال و باطل
ألا إنما الدنيا كمنزل راكب ... أراح عشيا وهو في الصبح راحل
إلهي عبدك العاصي أتاكا ... مقرا بالذنوب و قد دعاكا
فإن تغفر فأنت لذاك أهل ... وإن تطرد فمن نرجو سواكا
يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ و يستجير المجرم
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف يدخل بيتهم ... دويهية تصغر منها الأنامل
لا تأمن الدنيا و إن سالمتك ... فإنها خوانة غدارة
فبادر العمر و خف فوته ... فالكيس الحازم من بادرة
وقل لمن أمسى على غرة ... ما أقرب الدنيا من الآخرة
لا تأمن الدنيا فإنك لا تدري ... إذا الليل جن هل تصير إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من عليل عاش حينا من الدهر
أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورا و أنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما
أتيت إليك رب العالمينا ... وخلقت الخلائق أجمعينا
و جئت إليك فضلا يا إلهي ... فأنت الولي و الملجأ الحصينا
يا من بدنياه اشتغل ... قد غره طول الأمل
الموت يأتي بغتة ... والقبر صندوق العمل

والمفيد ذكره تكرر جملة " لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار ولا موت إلا بالأجل" على شواهد تلك القبور .

(٤٩) انظر " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " السفر الثاني ، ص ١٥٧ .

(٥٠) نشأت هذه الدولة في بلاد المغرب، وهي تنتسب إلى السيدة فاطمة بنت الرسول (ﷺ) عن طريق جعفر الصادق. وأول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي في أواخر القرن الثالث للهجرة، ولذلك فهي تسمى أيضاً العبيدية. وقد أعانهم على نيل الخلافة رجل اسمه أبو عبد الله الشيعي على نحو ما فعل أبو مسلم مع العباسيين، فلما استتب الأمر قتلوه كما فعل المنصور بأبي مسلم، وامتد سلطانهم في أواسط القرن الرابع إلى مصر على يد القائد جوهر الصقلي، وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ، وسميت القاهرة المعزية نسبة إلى المعز لدين الله أول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين. وتناوبها خلفاؤه بعده حتى أصابهم ما أصاب الدولة العباسية في بغداد من الاستكثار من جند الأتراك والمغاربة والسودان وغيرهم .

وقد بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بدءا طيباً وعرفت في أيام المعز لدين الله {٣٤١-٣٦٥ هـ / ٩٥٢-٩٧٥ م} والعزيز بالله { ٣٦٥-٣٨٦ هـ/ ٩٧٥-٩٩٦ م} والحاكم بأمر الله {٣٨٦-٤١١ هـ /٩٩٦-١٠٢٠ م } رخاءً عظيماً واستقرارا لن تعرفه منذ سنوات طويلة ، واتسعت حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة، بالإضافة إلى أفريقية {تونس} التي كانت تدين بالولاء للفاطميين. وقد استمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة المستنصر بالله {٤٢٧-٤٨٧ هـ ١٠٣٥-١٠٩٤ م} ، ثم توالت عليها الأزمات والمتاعب بسبب سوء السياسة الاقتصادية التي جرى عليها الفاطميون من ناحية ثم إسرافهم في استخدام الجند غير العرب وتنازع طوائفهم فيما بينهم ، حتى انتهت البلاد إلى حال من الضعف والاضطراب لم تعرفه فيما سلف من عصورها الإسلامية، وأضيفت إلى ذلك كوارث طبيعية كانخفاض مستوى الفيضان سنين متوالية، مما ذهب بالرخاء جملة، فتوالى الغلاء والمجاعات، وعجز الناس عن دفع الضرائب وازدادت مطالب الجنود وفتك بعضهم ببعض ، مما هوى بالبلاد إلى درك سحيق من الفوضى والفقر البالغ .

واحتاجت الدولة إلى من يضبط الأمر ، فاستعان الخليفة المستنصر بالله ببـدر الجمالي والي عكا، وكان من أصل أرمني، فأقبل وتولى الأمر، وأظهر كفاية عظيمة ، وضرب على أيدي الجند، وساعدته المقادير، فتحسنت حالة الفيضان وبدأت البلاد تخرج بفضل حزمه وإدارته الرشيدة من الهاوية التي ترددت فيها. بيد أن الخلافة الفاطمية أخذت تتلاشى شيئا فشيئا ، فقد انتقل السلطان بصورة نهائية إلى الوزير ومن يستعين بهم في ضبط الأمور، وتعاقب الوزراء على السلطان واتخذوا لقب الوزراء العظام، وأولهم الأفضل بن بدر الجمالي وآخرهم صلاح الدين بن يوسف بن أيوب. ووجد خلفاء الفاطميين بعد المستنصر أن سلطانهم قد تلاشى تماماً، فمضوا يكيدون للوزراء ويدبرون المؤامرات للقضاء عليهم كما فعل الخليفة الآمر إذ دبر اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي واستعان بنفر من الباطنية على ذلك، وتم اغتياله عام ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م وتولى الوزارة بعده كبير المتآمرين المأمون البطائحي، واستمر النزاع بين الخلفاء والوزراء إلى آخر أيام الدولة الفاطمية. وقد خسر الخلفاء المعركة وفقدوا كل سلطان ابتداء من عهد الخليفة الظافر ٥٤٤ -٥٤٩ هـ/١١٤٩ - ١١٥٤ م، بل إن أحدهم وهو طلائع بن رزيك اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح ، وهو أمر له دلالته. وآخر خلفاء الفاطميين هو العاضد الذي بدأ حكمه باغتيال طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦هـ/١١٦١ م وأقام مقامه أبا شجاع العادل . وفي سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م نازعه في الوزارة شاور والي الوجه القبلي وغلبه وقتله وتولى الأمر مكانه، ولم يدم له الأمر إذ نافسه فيه ضرغام ، وكان أميراً لفرقة من فرق الجند تسمى البرقية، وطال النزاع بين الرجلين فاستنجد شاور بنور الدين محمود واستنجد ضرغام بعموري أمير بيت

المقدس، وانتهى الأمر باستيلاء نور الدين على مصر وتعيينه أسد الدين شير كوه وزيراً . فلما مات خلفه ابن أخيه صلاح الدين ، فـوزر لنور الدين السني وللعاضد الشيعي في وقت واحد، ولكنه تمكن بحسن سياسته من التخلص من العاضد، واستخلاص مصر لنفسه بعد موت نور الدين المبكر . وقد مات العاضد سنة ٥٦٧ هـ /١١٧١م وبذلك انتهت الدولة الفاطمية وبدأت الدولة الأيوبية .

[انظر: جرجي زيدان، "تاريخ التمدن الإسلامي"، المجلد الأول ، الصفحة ٩٦-٩٧].

(٥١) انظر : الدكتور قتيبة الشهابي ، " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية " [منشورات وزارة الثقافة السورية – ١٩٩٨ م – دمشق] ، ص ٤٢ .

(٥٢) انظر: هاني المبارك، "نور الدين الزنكي"، [منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي " ١٩٩٨ م – ١٣١٩ هـ] . وانظر: هاني المبارك، " صلاح الدين الأيوبي"، [منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي" ١٩٩٨م – ١٣١٩هـ].

(٥٣) الزنجيلي نسبة إلى زنجيلة ، وهي قرية من قرى دمشق، [انظر: صالح الحامد " تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٠] .

(٥٤) انظر : هاني المبارك ، " صلاح الدين الأيوبي " ، .

(٥٥) المرجع السابق نفسه .

(٥٦) انظر : صالح الحامد " تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٠ .

(٥٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣١ .

(٥٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٢ .

(٥٩) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ١٦٩ .

(٦٠) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٢ .

(٦١) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٥٠ .

(٦٢) الدكتور محمد بديع شريف ، " القادسية الكبرى " ، ص ١٦٧ .

(٦٣) انظر: هاني المبارك، "صلاح الدين الأيوبي"، [منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي " ١٩٩٨ م – ١٣١٩ هـ].

(٦٤) المرجع السابق نفسه .

(٦٥) المرجع السابق نفسه .

(٦٦) انظر " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية " الصفحة ٤٢ .

(٦٧) انظر المرجـــع السابـــق رقم / ٣٩٤/ المعنون " صلاح الدين الأيوبي " .

(٦٨) انظر " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية ، الصفحة ٢٣ .

(٦٩) انظر : مقالا بقلم محمود محمود بعنوان: "الطلسم لولتر سكوت"، [موسوعة" تراث الإنسانية " الجزء الثاني] ، ص ٨٨٢ .

(٧٠) انظر مقالا بقلم د. سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان: " الكامل في التاريخ لابن الأثير "، [موسوعة " تراث الإنسانية " الجزء الرابع ، ص ٩١٧] .

(٧١) المرجع السابق /٥٨/ ، الصفحة ٨٨٣ .

(٧٢) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٨٨٤ .

(٧٣) انظر : "مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ١٦٤ .

(٧٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٦٥ .

(٧٥) انظر د. محمد بديع شريف ، " القادسية الكبرى " ص ١٦٧ .

(٧٦) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " السفر الثاني ، ص ١٢٩ .
(٧٧) المرجع السابق نفسه ، ص ١٧٠ .
(٧٨) انظر : اية الله مرتضى مطهري ، " الإسلام و إيران " ، ص ٤١٢ - ٤١٤ .
(٧٩) انظر ابن بطوطة: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ص ٤٣٠.
(٨٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٥ .
(٨١) انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " ، الجزء الثاني ، ٥٠٩ - ٥١٠ .
(٨٢) انظر " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " السفر الثاني ، ص ١٧٠ .
(٨٣) انظر العلامة عبد الرحمن بن محمد بن حسين " شمس الظهيرة"، الجزء الأول، ص ٧٧
(٨٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٨
(٨٥) انظر : صالح الحامد " تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، ص ٧٠٩ - ٧٤٠ .
(٨٦) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، ص ٦٤٣ .
(٨٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٣٠ .
(٨٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٠٤ .
(٨٩) انظر : الدكتور قتيبة الشهابي " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية " ، ص ٢٤
(٩٠) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ١٧٤
(٩١) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٠ .
(٩٢) انظر : الدكتور قتيبة الشهابي ، " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية "، ص ٢٤.
(٩٣) هو غياث الدين أبو الفتح شاه بن جمشهيد الكيشي صاحب جزيرة كيش و(انظر: ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب "، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ١١٩٢ .

الباب الرابع

في الصين

المسلمون يسبقون ماركو بولو

[عندما كادت الصين أن تصبح قوة إسلامية]

توفي جنكيز خان *Jengis Khan* في عام ٦٢٤ هجري وهو في السادسة والسبعين من عمره، وبعد وفاته اقتسم أولاده الأربعة مملكته على عادة المغول وصار هناك أربعة ممالك يعرف ملوكها باسم الخاقانات وهم:

١ – مملكة أقطاي في زنقاريا، وغيرها.

٢ – مملكة طولوي في بلاد المغول.

٣ – مملكة طوشي في بلاد القفجاق وغيرها.

٤ – مملكة جقطاي فيما وراء النهر(١).

وكانت السيادة العظمى لمملكة أقطاي، وأما المملكة الثانية فكان لها شأن كبير في تاريخ الإسلام إذ ظهر فيها هولاكو *Holako* بن طولوي بن جنكيزخان. وكان هولاكو قد تولى حكم بعض المقاطعات في مملكة أبيه طولوي ثم ملك فارس وعرفت دولته فيها بدولة الإيلخانيين(٢) التي انحصر همها الأوحد بالضغط على الدولة السلجوقية(٣) على حدود دولة الخلافة، الأمر الذي أدى إلى ظهور إمارات تركمانية مستقلة أو شبه مستقلة في وسط وشرق الأناضول على امتداد الحدود الشرقية للبيزنطيين غرب الأناضول .

وكان يوجد إلى جانب هذه العشائر التركمانية أعداد كبيرة من الفقهاء والدراويش والمتصوفة يقومون بدور هام في الحياة الروحية بين هذه العشائر، وهؤلاء المشايخ كانوا يدعون لتقوية الإسلام واستطاعوا أن يحولوا تقاليد الفروسية القديمة إلى فكرة الجهاد التي يحض عليها الدين(٤) .

حدثت أولى الاحتكاكات مجددا بين المغول والمسلمين في الشرق في عام ٦٣٨ هجري عندما أرسل هولاكو أحد قواده ويدعى جرماعون نوين إلى مدينة أرزون الروم في تركيا، وكانت من أملاك السلطان غياث الدين صاحب قونية فنهبها المغول واستباحوها. فأشار أهل الحل والعقد على السلطان غياث الدين بحشد الجيوش

والتصدي لهم، ففعل وهو غير واعٍ لخطورة خصومه، فسار للقاء المغول واستصحب معه الخمور والغلمان والنساء وآلات الطرب والقرود التي كان يحبها جدا[٥]. وكان جملة ذلك ما حمله على خمسمائة جمل، وأسفرت المعركة عن انكساره وتشرد عسكره وأسر حاشيته بمن فيهم أمه نفسها، في حين هرب هو من ساحة المعركة ثم توفي بعد قليل تاركاً وراءه ثلاثة بنين: عز الدين وأمه جارية رومية ابنــة قسيس، وركن الدين وأمه أيضا جارية رومية، وعلاء الدين وأمه ابنة ملك الكرج. فولي السلطنة في قونية بعده الابن الأكبر عز الدين وكان وزيره الأتابك جلال الدين قرطاي الذي كان من مماليك السلطان علاء الدين، غير أن هذه الولاية كانت في ظل الخوف من المغول بعد وصولهم إلى تخوم الخلافة العباسية مباشرة. ولم يقيض للمستنصر بالله أن يشهد الصدام مع المغول إذ توفي في عام ٦٤٠ هجري وخلفه على الحكم في بغداد السابع والثلاثون من خلفاء بني العباس بالعراق المستعصم بالله ليجد مصر بيد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ودمشق وبعلبك بيد نواب الملك الصالح، وحلب بيد الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وطرابلس وصفد بيد الأفرنج، والكرك بيد الناصر صلاح الدين داود، ومكة بيد راجح ابن قتادة وهو يخطب لعمر بن علي بن رسول صاحب اليمن، وما وراء النهر وخراسان وغزنة بيد أولاد وأحفاد جنكيزخان. وأما أفريقيا والأندلس فيتنازعهما أفراد عائلة أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد من الموحدين. وكانت الأندلس بيد أبي الحسن علي بن إدريس من بني عبد المؤمن من الموحدين. واستولى الإفرنج في عهده على إشبيلية. وأما غرناطة وما معها من شرق الأندلس فكانت بيد ابن الأحمر[٦].

في عهد المستعصم بالله أخذت الدولة العباسية تتمايل حيث كثرت الفتن وتغلب الموالي والمماليك على سياسة البلاط مجددا، وقلت موارد الدولة إلى درجة اضطرت الخليفة إلى صرف جنده لعدم وجود رواتب لهم[٧]. وكان المغول بقيادة هولاكو حينئذ يجتاحون الأمصار الشرقية من البلاد الإسلامية بجيش لجب لا يُبقي ولا يذر، وقد محا هولاكو حفيد جنكيزخان في طريقه جماعة الباطنية والخوارج والإسماعيليين الذين كان معقلهم في خراسان[٨]. وكان المغول في الفترة ما بين هجوم جنكيزخان وزحف هولاكو على فارس قد استولوا على خرا سان ومازداران وكرمان وآذربيجان وجزء من الأراضي التركية[٩]، وولي على كل هذه المناطق الأمير أرغون المغولي الذي كان قد اختار وجيهاً إيرانيا هو علاء الدين عطاء ملك الجويني كبيرا لمستشاريه، وهو وجيه من آل الجويني[١٠] الذين كانوا قد خدموا لدى الخلفاء العباسيين والسلاجقة وسلاطين خوارزم. وكان والد علاء الدين وهو بهاء الدين محمد بن محمد قد قضى أغلب حياته في خدمة حكام المغول الذين كان يعهد إليهم من مغولستان بحكومة البلاد الإسلامية وذلك في الفترة ما بين غزو جنكيزخان وزحف هولاكو. وفي عهد جنتمور

حاكم خراسان المغولي صار الأب بهاء الدين مستوفياً لخراسان ومازندران، ثم أوفده جنتمور في عام ٦٣٣ هجري برسالة منه إلى الخان الأكبر أقطاي حيث لقي عنده كل ترحيب وإكرام. وأما الابن عطاء ملك الجويني فقد صحب بدوره أميره أرغون المغولي في رحلة إلى قراقورم مقر الخان الأعظم. وعندما وصل هولاكو إلى إيران سير الأمير أرغون ابنه الأمير كراي ملك والأمير أحمد تكجي ومعهما عطاء ملك الجويني إلى هولاكو والتحقوا بخدمته. وقد صحب عطاء ملك هولاكو في اجتياحه لمعاقل الإسماعيليين وحمل بنفسه شروط التسليم التي يرتضيها الغازي المغولي إلى ركن الدين خورشاه آخر أمراء الإسماعيليين في قلعة ألموت[١١]. واستطاع عطاء ملك بما يملكه من حس فكري وعمق علمي أن ينقذ جزءا كبيرا من كتب الإسماعيليين حيث دخل بأمر هولاكو إلى قلعتهم بعد استسلامهم وأخذ يتفحص ما تجمع لديهم من أمهات الكتب والعدد منذ أيام زعيمهم الأكبر حسن الصباح، لمائة وسبعين عاما خلت، فأخذ ما وجده يصلح له من آلات الفلك والأسفار، وأحرق ما بقي بعد ذلك وفيها كتب معتقداتهم[١٢]. وكان من بين ما احتفظ به كتاب "سركذشت سيدنا" الذي هو تاريخ لسيرة الزعيم حسن الصباح. واستطاع عطاء ملك بما أوتي من دراية بالعقل والسلوك المغوليين أن يقنع هولاكو بأن يأمر بتعمير مدينة قوجان التي كان المغول قد دمروها بالكامل وهجرها أهلها في طريقهم إلى معاقل الإسماعيلية. وما أن قضى هولاكو على الإسماعيلية وخرب قلاعهم في عام ٦٥٥ هجري حتى زحف إلى بغداد وفي صحبته جملة من أعيان المسلمين وعلمائهم ومن بينهم علاء الدين عطاء ملك الجويني ونصير الدين الطوسي الفلكي الإسماعيلي المشهور الذي خرج من قلعـــة ألموت ووضع نفسه بتصرف المغول، فرحب به هولاكو وأقام له مرصداً خاصاً به في مدينة مراغة[١٣].

كانت توازنات القوى في تلك الآونة في صالح هولاكو، وذلك أن القوى النافذة كافةً التي كانت مسموعة الكلمة في فارس وخراسان وغزنة وما وراء النهر كانت تتطاحن فيما بينها عند ظهور المغول بأراضيهم فجأة. فقبائل الأويغور المسلمة التركية التي كانت تحكم في أواسط آسيا في بلاد ما وراء النهر على أنقاض الدولة السامانية، انقسمت عند احتكاكها بالمغول إلى قسمين هما: الأويغور الشرقيون بزعامة أميرهم " إيدي قوت " انضموا إلى جنكيزخان في حين قاومه الأويغور الغربيون[١٤]. وأما سلاطين خوارزم الذين أخذوا بالبروز مع أفول نجم السلاجقة فقد اشتبكوا مع السلاجقة في حروب متكررة مكنت منهم عدوا ثالثا مشتركا هو الملوك الكرخانيون أو الذين يسمون " كفار الترك" لأنهم لم يكونوا مسلمين. وقد عمرت دولة الكرخانيين خمسة وتسعين عاما [٥١٢-٦٠٧ هـــ] في أجزاء من بلاد النهر وتركستان الشرقية من جيحون إلى كاشغر وختن وبلاساغون[١٥]. ويضاف إلى تلك القوى ملوك الطوائف الصغار من مسلمي الترك الذين كانوا يحكمون في بقع منفصلة على أنقاض الدولة

السامانية وظلوا يمارسون سلطانهم حتى قدوم المغول، ومن هؤلاء الأفراسيابية وآل خاقان. وعلى الرغم من أن تكش شاه خوارزم استطاع أن يقيم له دولة لا تقل في اتساعها عن بلاد السلاجقة إلا أنه لم ينجح في دفع خطر كرخان الإيلخاني عنه، فصالحه على جزية سنوية يدفعها له. وقد نصح أولاده من بعده أن " يتجنبوا كل نزاع مع كرخان هذا وأن ينظروا إليه كمتراس قوي يقف في وجه أعداء جبارين هم المغول حتى قيام الساعة[١٥]. إلا أنهم لم يأخذوا بهذه النصيحة فنتج عن حروبهم معه ومع خليفته كوجلوك خان أن تمزقت تلك الجبهة القوية التي كانت كفيلة بتعويق الزحف المغولي فيما بعد لسنوات طويلة. ولم يكتف سلاطين خوارزم بالاشتباك مع الكرخانيين بل إن أحد سلاطينهم قطب الدين محمد خوارزمشاه اصطدم مع السلاطين الغوريين أصحاب غزنة الذين توغلوا في شمال الهند ورسخوا أقدام الإسلام فيها وأقاموا دولة لهم في الهند تسمى بدولة المماليك.

ولما زحف هولاكو على الهند كانت تحكم دولة المماليك السلطانة رضية بنت السلطان شمس الدين للمش كما أوضحنا سابقا[١٧]. وأما علاقات سلاطين خوارزم مع الخليفة العباسي في بغداد فلم تكن بحال أحسن، بل متوترة جدا منذ أن بدأ النزاع بينهما يكبر على شرق العراق، وبلغ العداء بينهما ذروته حين دخل السلطان الخوارزمي غزنة بعد هزيمته للسلطان الغوري فوجد في وثائقه ما يثبت تحريض الخليفة الناصر لدين الله أحمد العباسي له على قتاله[١٨] فثارت ثائرته لذلك وأعلن خلع الخليفة وتنصيب العالم علاء الدين الترمذي مكانه، ثم زحف إلى بغداد ليقيمه بنفسه هناك لولا أن أعاقته ثلوج الشتاء وظهور المغول عند حدوده. ومن ناحية أخرى فإن الخليفة فقد حليفاً قوياً في مصر عندما انهارت الدولة الأيوبية فجأة في عام ٦٤٨ هجري بعد أن توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في وقت خطير جدا، حيث كانت حملة صليبية جديدة، هي السابعة من نوعها، بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع تهاجم مصر وتنجح باحتلال مدينة دمياط ثم تزحف نحو مدينة المنصورة[١٩].

وكان ولي العهد توران شاه بعيدا في شمال العراق ويحتاج وصوله إلى مصر لوقت طويل، فتسلمت حكم البلاد أرملة أبيه، وهي شجرة الدر، وأرسلت إلى توران شاه تستدعيه ليتسلم عرش أبيه المتوفى، وأخفت خبر الوفاة لتبقى معنويات الناس والجند مرتفعة. ودخل الفرنج مدينة المنصورة فدارت فيها معارك في غاية العنف أظهر فيها المماليك وأبناء المدينة ألوانا فذة من البطولة والشجاعة. وكان يقود المدافعين عن المدينة الظاهر بيبرس الذي استطاع أن يهزم الفرنج ويأسر الملك الفرنسي وعدداً من كبار قادة جيشه فارتفعت شهرة الظاهر بيبرس[٢٠]. ولما وصل توران شاه إلى القاهرة نودي به سلطاناً خلفاً لأبيه، لكنه لم يكن جديرا بالحكم لأنه كان فاسداً مشغولا بلهوه وملذاته، واتهم زوجة أبيه شجر الدر بأنها سرقت أموال أبيه

فنقمت عليه كما نقم عليه المماليك أيضاً. ولهذا دبر زعماء المماليك مؤامرة لقتله فهاجمه بيبرس وضربه بالسيف لكن الضربة أطاحت فقط بأصابع يده، ففر إلى برج خشبي يحتمي فيه، فأشعلوا النار بالبرج فألقى بنفسه في نهر النيل فلاحقوه وقتلوه وسط المياه وهو يصيح ويستغيث دون مغيث(٢١).

بعد أن اكتسح المغول فارس وأبادوا المدن العلمية العامرة فيها وفي تركستان وخوارزم، هاجر من تلك المنطقة جماعة من العلماء والتجار متجهين إلى الهند براً. وأما أولئك الذين كانوا في جنوب وغرب إيران وخاصة أهل شيراز فقد فروا إلى كوجرات وملابار في الهند عن طريق البحر. وكان من بين المهاجرين أحمد بن نظام الدين من مدينة بخارى وأقام في مدينة لاهور في البنجاب ومعه ابنه الصغير محمد الذي درس في المدينة على يد علماء كبار مثل شمس الدين الدامغاني وعلاء الدين الأصولي و فريد الدين مسعود(٢٢).

وبعد فترة طار صيت الشاب محمد في الهند فاستدعاه سلطان دهلي جلال الدين الخلجي ليكون مستشاره الخاص(٢٣). وأما في كوجرات فقد توفي الإمام عبد الملك بن علوي وخلفه في رئاسة العائلة ابنه عبد الله بن عبد الملك الذي تزوج ابنة سلطان مدينة "نصر آباد " عظمت خان فصار لقبه منذ ذلك الوقت الإمام عبد الله آل عظمت خان، وقد منحه السلطان إقطاعية خاصة به هدية الزواج، وصار الإمام يعامل في نصر آباد معاملة مهراجات الهند، لا بل أكثر سمواً منهم بحكم انتسابه إلى آل البيت الشريف(٢٤).

وكانت قد وصلت أنباء من آتشيه *Aceh* في بلاد الرامني *Sumatera* خلال السنوات الأخيرة تشير إلى أن الملك الكامل قد توفي في عام ٦٠٧ هجري وخلفه قائده يعقوب الذي بقي يحكم السلطنة حتى توفي في عام ٦٣٠هجري ودفن إلى جانب السلطانين جيهان شاه والملك الكامل ونقش على شاهدة قبره بيت الشعر الآتي :

لو كانت الدنيا تدوم لأهلها   لكان رسول الله حيا وباقيــا (٢٥)

وقد خلف ابن السلطان يعقوب أباه على السلطة ولقب نفسه بالسلطان مالك الصالح وتزوج ابنة ملك فيرلاق أو فيوريلا المسلم واسمها " فوتري كغكغ " وكانت مدينتا فيوريللا وسمودرا في سومطرة عامرتين وتستقطبان الكثير من التجار والدعاة المسلمين، وأكثر ما يميز أهلها هو عادة الوشم التي كانت سائدة فيها، إذ يتنافس الناس فيها على اختيار الوشم الأجمل لأولادهم كنوع من الزينة المرتبطة بطقوس وثنية راسخة سابقة لدخولهم في الإسلام(٢٦). وكانت جزيرة سومطرة التي يطلق عليها الهندوك اسم " سوارنا دويفا *Swarna Dwipa* " تابعة في معظمها لمملكة " ماجافاهيت *Majapahit* " التي مقرها جزيرة جاوا التي يطلق عليها الهندوك أيضا اسم " جاوا دويفا *Jawa Dwipa* ". والمنطقة الوحيدة في سومطرة والتي كانت مستقلة عن سلطة مملكة "

ماجافاهيت " الهندوسية هي سلطنة أتشيه المسلمة الواقعة في شمال الجزيرة[٢٧]. غير أنه كانت توجد في جنوب شرق سومطرة أيضا مملكة قوية تدعى "سريفيجايا"، كانت بمثابة مستودع لتجارة التوابل القادمة من جزر الملوك، ومن سريفيجايا كان التجار المسلمون يجلبون تلك التوابل إلى البصرة التي تعيد تصديرها إلى مدن دمشق وحلب والإسكندرية التي تعيد بيعها بدورها إلى التجار الأوروبيين[٢٨].

كانت الحرب هي الشغل الشاغل للخلافة في بغداد ولوُلاتها في الأمصار كافة، كما كان القلق يعتمل النفوس في أوروبا منذ اجتياح زعيم المغول جنكيزخان الصين وفتوحاته السريعة إلى الغرب من مملكته. وعندما مات جنكيزخان كانت مملكته قد تحولت إلى إمبراطورية تمتد من البحر الأصفر حتى البحر الأسود، وكانت إمبراطورية أقامها الغزو الذي كان أكثر سرعة وأعظم حسماً من غزو الإسكندر المقدوني. وفي مدى الأعوام التالية كان التتار قد اجتاحوا سهول وسط أوروبا، ولم يحل بينهم وبين بلوغ ساحل بحر الظلمات إلا أراضي الغابات في ألمانيا، فهم قد اعتادوا الحركة السريعة في أرض السهوب، والغابات من جهتها لا تعين على هذه الحركة ولا بد من أسلوب مختلف في الحرب والقتال. ولما حالت الطبيعة دون تقدم التتار في أوروبا، فقد عمدوا إلى تركيز هجومهم على ديار الإسلام خاصة، وإن هولاكو قد اقترب من بغداد بعد أن سحق كل مقاومة ظهرت في طريقه في أفغانستان والهند وإيران[٢٩].

واهتز البابا في أوروبا لأخبار اجتياح هولاكو السريع آسيا ووصوله إلى أبواب أوروبا الوسطى رغم غبطته العميقة بانعكاسات ذلك الاجتياح على الخلافة الإسلامية إذ كان البابا "إينوسنت الرابع" لا يعلم شيئا عن هذا الخطر الوافد من الشرق سوى أنه فاتح لا يرحم يروم القضاء على القوى الكبرى السائدة إما في بغداد أو في أوروبا. وود البابا أن يعرف شيئا عن إمبراطور المغول الذي لم يقف أمام جيوشه شيء فأرسل إليه في عام ٦٤٢ هجري راهبا من الفرنسيسكان يدعى يوحنا دي كاربيني ممثلا شخصيا له إلى الخان الأعظم الذي أصبح كيوك خان حفيد جنكيزخان الذي تولى الحكم بعد أبيه أقطاي خان. وكانت الأهداف الرئيسية هي محاولة كثلكة المغول والعودة بكنائس الشرق إلى حضن الكنيسة الأم في روما. وقد تصادف وصول الراهب إلى بلاط الخان مع البدء بحفلة " القوريلتاي " التي سوف يُنصَّب فيها كيوك رسمياً خانا أعظم، وجرت الحفلة على ضفاف نهر يجري إلى بحيرة بيكال[٣٠]. وقد أحسن كيوك خان وفادة مبعوث البابا وحمّله بالهدايا الفاخرة إليه واعداً بإقامة علاقات طيبة معه معتقداً أن البابا ملك مثله. وعاد الراهب إلى روما يشرح للبابا ما رآه ومدى قوة وجلافة تلك القبائل التترية، فطلب منه البابا أن يكتب له كتابا يسجل فيه ملاحظاته ففعل الراهب وسمى الكتاب " كتاب التتار "[٣١]. واستفاد البابا من المعلومات التي رصدها الراهب كاربيني

فعمد مجددا عام في ٦٥٠ هجري إلى إرسال راهب فرانسيسكي آخر يدعى وليم الروبروكي[٣٢] ممثلا له وللملك لويس التاسع ملك فرنسا إلى الخان الأعظم، حيث كان كل من البابا والملك الفرنسي يرومان صداقة المغول لمحاصرة الخلافة الإسلامية من الشرق والغرب والشمال والقضاء عليها نهائياً. وقد سلك وليم الطريق نفسها التي كان قد سلكها سلفه كاربيني ، وانتهى به المطاف إلى مقابلة الخان الأعظم "منكو خان " في المكان نفسه الذي قابل فيه كاربيني أباه وسلفه في الحكم "كيوك خان". ورغم استقبال الخان الأعظم الحسن للراهب الروبروكي وتحميله إياه بالهدايا لكل من البابا والملك الفرنسي، فإنه لم يعط جواباً شافياً بشأن فكرة التحالف المشترك ضد المسلمين لا سيما أن أمور الغزو في ديار الإسلام كانت بيد أحفاد الابن الثاني لجنكيزخان أي هولاكو، وليس بيد أسرة الخان الأعظم التي كانت تحكم الصين ومنغوليا وسيبيريا بشكل رئيسي.

تلك كانت الصورة في الأمصار الإسلامية عندما زحف هولاكو على بغداد، ولعل الصورة المضيئة الوحيدة جاءت من معسكر المغول أنفسهم عندما أسلم أمير مملكة أوزبك وقاعدتها مدينة " بخش ساراي " أي حديقة الزهور باللغة العربية، وتقع في وسط شبه جزيرة القرم Crime ، وهو حفيد جنكيزخان بركة خان بن طوشي خان في عام ٦٥٤ هجري، وجاء إسلامه على يد الشيخ شمس الدين الباخرزي[٣٣]. والواقع أنّ المغول لم يكونوا متعصبين لأي دين لأنهم كانوا وثنيين، ولم يكن جنكيزخان وأحفاده حتى هولاكو يرجحون أي طائفة على غيرها، بل كانوا يحيطون علماء كل طائفة وزهادها بالإعزاز والتبجيل، فكما كانوا ينظرون إلى الإسلام بالتوقير فكذلك كانوا يفعلون مع النصارى وعبدة الأوثان. ولذلك، فإن أولاد جنكيزخان منهم من دخل في الإسلام ومنهم من اعتنق المسيحية، ومنهم من اختار البقاء على عبادة الأوثان. ولكي يسير المغول على هدي زعيمهم جنكيزخان، عمد هذا الأخير إلى سن قوانين "الياسا" وهي تنظيم شؤون الدولة والجيش والأفراد كافة. فكانت تلك القوانين سنة حمت المغول من الفوضى وبنت لهم علاقات جيدة مع محيطهم الجديد الإسلامي فيما وراء النهر وآسيا الوسطى خاصة وأن تلك التشريعات في معظمها لم تكن تتعارض مع الشريعة الإسلامية[٣٤].

وقف هولاكو على أبواب بغداد يتأهب لغزوها، وكان الخليفة المستعصم بالله ضعيف الرأي ويمضي معظم وقته في حل المنازعات والخصومات والتناحرات المذهبية بين السنة والشيعة في الكرخ ببغداد. وكان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي رجلاً من المتعاطفين مع أهل الشيعة[٣٥]. واتفق وقوف هولاكو على أبواب بغداد مع وقوع فتنة بين أهل السنة وأهل الشيعة كما جرت العادة، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد التعصب على الشيعة، فاستعان بقائد الجند " الدوادار " وأمر

العسكر أن يفتكوا بالشيعة، فهجموا على الكرخ وقتلوا الكثير من سكانها من الشيعة. وقد عظم هذا الأمر على الوزير ابن العلقمي الذي أثار انتباه الخليفة لما حدث فلم يحرك المستعصم بالله ساكنا لتهدئة مشاعره. وأراد العلقمي الانتقام فكتب إلى هولاكو سراً وأطمعه في ملك بغداد شارحاً له هشاشة وضع الخليفة. ثم أرسل له أخاه ليحرضه على القدوم، فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم فتصدى له المستعصم بجيش لا يتجاوز عديدهُ عشرين ألف جندي يقودهم الدوادار نفسه. والتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم جيش الخليفة وتشتت أفراده ما بين قتيل وجريح وأسير. وأقبل هولاكو حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد، وأرسل قائداً من قواده فنزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة، والمستعصم بالله لا يعلم بما دبره ابن العلقمي فأنفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح، فأكمل العلقمي مكيدته وعاد يقول للخليفة: "إن هولاكو مستعد ليبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر". وحسَّن العلقمي للخليفة الخروج إلى هولاكو بنفسه ليسلم المدينة، فخرج المستعصم بالله في جمع من أكابر أصحابه فأنزلهم في خيمة، ثم استدعى الوزير العلقمي الفقهاء ووجهاء القوم وسادات بغداد. فلما اجتمعوا أمر هولاكو بقتلهم جميعا بمن فيهم العلقمي نفسه بحد السيف ما عدا الخليفة الذي قتل رفسا بالأقدام(٣٦). ثم هجموا على دار الخلافة فقتلوا من فيها من الأشراف ولم ينج من المذبحة إلا ولد الخليفة الصغير، وكان ذلك يوم الثامن والعشرين من محرم من سنة ٦٥٦ هجرية(٣٧). ودام القتل والنهب في دار السلام بغداد أربعين يوما دخلت المدينة بعدها في سلطة هولاكو وانتهت الخلافة العباسية بعد ما ملكت من السنين خمسمائة واثنين وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة عشر يوما(٣٨). وصار العراق جزءاً من إمبراطورية التتار الممتدة من الصين شرقا إلى بلاد الشام غربا بحيث صارت حدود التماس الجديدة للتتار هي مع مماليك مصر والشام وأتابكة الموصل(٣٩).

وفي غمرة هذه الأحداث الجسام التي ألمّت بالخلافة الإسلامية، توفي الإمام الفقيه المقدم محمد بن علي في سنة ٦٥٣ هجرية بعد أن أمضى مائة يوم مصطلما لا يطعم طعاماً ولا يذوق إلا القليل من الشراب في جلسات صوفية وتجليات مستمرة(٤٠). ودفن في مقبرة العائلة بتريم إلى جانب قبر أبيه وجده وأولاد عمومته. وقد آلت رئاسة الطالبيين في حضرموت من بعده لابنه علوي بن الفقيه الذي كان أيضا تلميذا ومريداً لأبيه في الوقت نفسه .

مع سقوط بغداد بيد هولاكو، أصبحت دار الإسلام الواسعة تتنازعها ثلاثة مراكز للقوة: المغول في الشرق والأيوبيون في مصر والشام، والبربر الموحدون في المغرب والأندلس. ولم يبق من حكم عربي إلا بعض الإمارات الصغيرة في اليمن وحضرموت. وأما الخلافة في بغداد فقد شغرت منذ مقتل المستعصم بالله في بغداد(٤١).

ومع مقتل توران شاه، كما أوضحنا، انتهى حكم الأسرة الأيوبية وتسلمت شجرة الدر حكم البلاد لمدة ثمانية أشهر، فكانت ثاني امرأة تحكم في الإسلام بعد الأميرة رضية في الهند[٤٢]. وتزوجت شجرة الدر من أحد زعماء المماليك وهو عز الدين أيبك الذي طمع بالانفراد بالحكم واختلف هو ونائبه قطز مع القائد بيبرس الذي التجأ إلى بلاد الشام مع مجموعة من أنصاره. وفكر أيبك بالتخلص من زوجته لكنها كانت أسبق منه فقتلته، ثم انتقم ابن أيبك ومماليكه منها بأن قتلوها بأعقاب القباقيب الخشبية في الحمام ثم رموا بجثتها من فوق سور القلعة واختاروا سيف الدين قطز سلطانا للبلاد[٤٣]. وفي تلك الفترة كان هولاكو يستبيح مدينة دمشق بعد أن استباح حلب، فأسرع الظاهر بيبرس إلى مصر وتصالح مع السلطان قطز بتأييد من علماء الدين. وجهز الاثنان جيشا عرمرما لمحاربة المغول يتقدمه السلطان قطز وقائد الطليعة بيبرس.

في ذلك الوقت كان هولاكو قد مات وملك بعده ابنه " كتبغا " الذي قاد جيشا كبيرا متجها نحو الديار المصرية، ولكن قطز وبيبرس نجحا في التصدي له وأجبراه على التراجع نحو شمال فلسطين في معركة فاصلة في "عين جالوت" قرب مدينة بيسان الفلسطينية سقط خلالها كتبغا بن هولاكو صريعاً، فتراجعت قواته واندحرت وخسر المغول المعركة في اليوم الخامس من رمضان سنة ٦٥٨ هجرية. ودخل قطز بعدها مدينة دمشق دخول الفاتحين[٤٤].

ورغم الانتصار الكبير الذي أحرزه كل من السلطان قطز وقائد الطليعة بيبرس، فان الخلاف سرعان ما دب بينهما على أثر تراجع قطز عن تنفيذ وعده لبيبرس بتعيينه حاكما على دمشق أو حلب، فدبر بيبرس مؤامرة انتهت بمقتل قطز في منطقة الصالحية قبيل وصوله القاهرة فأصبح بيبرس سلطانا لمصر وبلاد الشام وحمل لقب الملك الظاهر بيبرس ركن الدين. وكان أول ما قام به الملك بيبرس هو إحياء الخلافة العباسية التي كان هولاكو قد قضى عليها قبيل سنتين، فقد جاء بيبرس بأحد أفراد البيت العباسي الذين كانوا قد نجوا من مذبحة هولاكو، وهو الأمير أحمد[٤٥] فنصبه خليفة باسم المستنصر بالله، ثم تابع بيبرس جهاد الفرنج وحلفائهم المغول، في آن واحد، فاستعاد ما ارتجعه الفرنج من فتوح السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهي البيرة والكرك وحمص وقيسارية وأرسوف وصفد ويافا وقلعة الشقيف وأنطاكية وقلعة الحصن وعكا وصافيتا وقلاع عديدة في بلاد سيس على امتداد الثغور الشامية بين أنطاكية وطرطوس. وكانت سيس عاصمة أرمينية الصغرى وموقعها شمالي خليج الإسكندرونة في بلاد الشام. وفي عام ٦٥٩ هجري سير الملك بيبرس الخليفة العباسي الجديد المستنصر بالله على رأس جيش كبير لتحرير بغداد من المغول الذين صار قائدهم بعد مقتل كتبغا ابنه تكدار الذي تغلب على الجيش الإسلامي وقتل الخليفة المستنصر بالله،

فأرسل الملك بيبرس من أحضر من العراق ابن المستنصر بالله، وكان ابن خمس عشرة سنة فنصبه خليفة عباسيا جديدا في القاهرة باسم الحاكم بأمر الله، وبايعه بالخلافة وأشركه معه في الدعاء على المنابر مقدما الخليفة على نفسه، وكان ذلك سنة ٦٦٠ هجرية[٤٦].

وبينما كان غبار المعارك الطاحنة بين المماليك والمغول والفرنج يعلو سماء قسم كبير من دار الإسلام، كانت جمهورية البندقية الإيطالية المهيمنة على أمور التجارة العالمية في البحر المتوسط تقرر إرسال اثنين من آل بولو وهي عائلة كبيرة في البندقية تتعامل بالتجارة الدولية هما: نيقولو ومفيو بولو[٤٧] بمهمة استقصائية إلى بلاد المغول للوقوف على إمكانية إقامة أي شكل من أشكال التحالف معهم بما يجلب المنفعة والربح للبندقية. وفعلاً اتجه الأخوان في عام ٦٥٧ هجري إلى بلاط " بركة خان القفجاق " ابن جنكيزخان الذي اعتنق الإسلام واشتهر دون خانات المغول بالتسامح، واستقبل بركة زائريه أحسن استقبال واشترى بضاعتهما بأضعاف ثمنها الحقيقي، وطابت للرجلين الإقامة في العاصمة "بخش ساراي" على ضفاف نهر الفولغا الأدنى لمدة عام كامل حتى اضطرا للرحيل عندما نشبت الحرب بين بركة وابن أخيه هولاكو وانهزم فيها بركة. وتابع آل بولو السير شرقا باتجاه مجاهل أرض التتار حيث يسيطر خانات بيت جقطاي برفقة قافلة كانت في طريقها إلى الخان الأعظم " قوبلاي خان" مرسلة من أخيه الأصغر هولاكو. ووصلت القافلة إلى بلاط الخان الأعظم في خان بالق[٤٨] في عام ٦٦١ هجري ومثلا في حضرته. وكان قوبلاي خان أعظم خانات المغول بعد جنكيزخان، وقد سره أن يمثل الرجلان البندقيان في حضرته، فلم يكن قد رأى أوروبيين من قبل، وراح يمطرهما بوابل من الأسئلة عن دول الغرب وحكامها ونظمهم الحربية، ويستمع منهما إلى شرح واف عن البابا والكنيسة الرومانية، وعن الشعوب اللاتينية وتقاليدها وأنماط معيشتها. وقد ترك الأخوان بولو انطباعا حسنا لدى الخان الأعظم لأنهما تكلما معه بلسان التتار الذي كانا قد تعلماه. وتاق الخان الأعظم إلى أن يعرف المزيد عن المسيحية، فقرر أن يبعث مع الأخوين برسالة إلى البابا يطلب منه أن يوفد إليه مائة من المسيحيين يتميزون بالذكاء ويعرفون " الفنون السبعة " وتكون لديهم القدرة على أن يثبتوا أن الأصنام من صنع الشيطان، وأن شريعة المسيح خير من الشريعة التي يتبعها الخان وقومه. وطلب أن تعود إليه البعثة بشيء من زيت القنديل الذي يضيء فوق قبر السيد المسيح في القدس[٤٩].

ويقضي الأخوان ثلاثة أعوام في رحلة العودة حتى يبلغا عكا، وكانت لا تزال قلعة للصليبيين، في عام ٦٦٦ هجري، وفيها يصل إلى علمهما أن البابا كليمنت الرابع Clement IV قد مات وأن الكرادلة لم يتفقوا على انتخاب خليفة له. ورأى الرجلان أن خير ما يفعلانه هو أن يتصلا بالقاصد الرسولي في عكا، وكان إذ ذاك هو

الكردينال تيدالدو فيسكونتي، ويقصا عليه قصتهما. وقدّر الرجل أنها فرصة مواتية للمسيحية فطلب إليهما أن ينتظرا انتخاب البابا الجديد. ولم يكن أمام الأخوين إلا أن يتجها إلى البندقية التي غادراها منذ تسع سنين، وهناك وجد نيقولو بولو أن زوجته قد ماتت، وأن ابنه الطفل ماركو قد شب وأصبح عمره خمس عشرة سنة.

مضت سنتان ولم يستقر الكرادلة على اختيار بابا جديد، واستبد القلق بالأخوين نيقولو ومفيو، فلم يدر بخلدهما أن سيظل الكرسي البابوي شاغرا كل هذه المدة. وفكرا في الوعد الذي أعطياه للخان الأعظم بالعودة، فشرعا في رحلة جديدة وأخذا معهما ماركو الصغير وقصدا عكا حيث التقيا بالقاصد الرسولي تيدالدو، وأخذا منه رسالة إلى الخان توضح سبب تأخرهما في العودة إلى بلاطه. وبعد أن زارا بيت المقدس وحصلا على الزيت الذي كان الخان يرغب في الحصول عليه لمجرد حب الاستطلاع ، أخذا سفينة قاصدة ساحل أرمينية الصغرى ليبدأا من هناك رحلتهما عبر قارة آسيا.

وحدث وهم في أرمينيا أن انتهت خلافات الكرادلة واعتلى عرش الكنيسة بابا جديد هو الكردينال تيدالدو نفسه، الذي اعتلى العرش باسم البابا جريجوري العاشر، وكان قد وافق من قبل على مهمة آل بولو، وهو بصفته الرسمية الآن يريد أن يقتفي أثر البابا اينوسينت الرابع، فإذا كان هذا قد أرسل كاربيني في مهمة محددة هي كثلكة المغول والعودة بكنائس الشرق إلى الكنيسة الأم برأيه في روما، فليرسل البابا الجديد التجار البنادقة السفراء الطبيعيين للتجارة الإيطالية ليكونوا سفراء المسيحية اللاتينية كذلك، ومن ثم أسرع يطلب من آل بولو أن يعودوا إلى عكا، فصدعت الجماعة بالأمر وفي عكا زودها البابا بهدايا ورسائل إلى الخان الأعظم وباثنين من رجال الدين العلماء ولكنهما ممن يخشون السفر ويهابون المغامرة .

كان قوبلاي خان قد طلب مائة من علماء المسيحية، وها هو البابا يبعث إليه باثنين فقط، وفي نهاية الأمر لا يصل إلى بلاط الخان أحد من رجال الدين، ذلك أن الراهبين نيكولاس الفيسنتري ووليم الطرابلسي وهما من جماعة الفرنسيسكان في عكا لا يصلان إلى أرمينية حتى يأخذا ينتحلان الأعذار للقعود عن الرحلة، فلا يعبأ آل بولو بالأمر ويأخذون الرسائل والهدايا ويبدؤون رحلتهم إلى الصين. وأغلب الظن أن الراهبين لم يضيعا بقعودهما على المسيحية فرصة الانتشار بين التتار، فقد كان مغول الشرق شديدي التعصب للبوذية، وكان مغول الغرب عظيمي الإيمان بالإسلام، وكان تحول أي من الفريقين عن عقيدته فوق طاقة المبشرين.

وبدأت القافلة الصغيرة رحلتها عبر أرض إيران سالكة الطريق الذي سلكه الإسكندر الأكبر إلى ميناء هرمز عند مدخل الخليج العربي، وكانت خطة آل بولو أن يسافروا بالبحر إلى بلاد الخطا(٥٠)، فقد كانت أخطار الطريق ومتاعبه، ومالمفيو ونيقولو من خبرات بها سابقة تدفع بالأسرة إلى أن تبحث عن طريق آخر أيسر وآمن،

ولكنهم في هرمز عدلوا عن فكرتهم لأن ماركو لم يستطع تحمل حرارة الخليج ورطوبته فاعتلت صحته، ولم يعد في وسع الجماعة أن تخاطر بإتمام رحلتها في الجو المداري الحار الرطب. فقررت العودة إلى الشمال أملا في أن تتحسن صحة ماركو الشاب .

وخاف البنادقة الثلاثة من المغامرة بالسفر إلى بحر الهند في مراكب ليس لها متانة المراكب التي عرفوها في بلادهم وعادوا أدراجهم إلى مرتفعات فارس عن طريق كرمان واجتازوا صحراء دشت لوط ووصلوا الحدود الجنوبية لخراسان. وهنا دخلوا بلادا معتدلة الجو، آهلة بالسكان غنية بالغذاء والمتع .

وتواصل الجماعة سيرها حتى تصل إلى بلخ ويجعلها ماركو حد فارس من ناحية الشمال الشرقي ومنها تتجه إلى مرتفعات بادخشان حيث يعتمد السكان على الصيد ويعيشون في كهوف. وتسير الجماعة على طول وادي نهر سيحون حتى تصل منطقة البامير المنعزلة ويقضون اثني عشر يوما دون أن يروا إنسانا أو حيوانا أو طائراً. ويظل أمامهم مسيرة أربعين يوما غير الهضبة المقفرة حتى يصلوا إلى كشغر. وكان عليهم أن يحملوا معهم كل ما يلزم لحياتهم وهم يجتازون هذه القفار. وكانت قافلتهم تتكون من جمال تحمل الأزواد وجمالين وخدم، وكانت الأسرة وأتباعها يمتطون صهوات الجياد، ولكنهم في كثير من الأماكن كانوا يضطرون إلى الترجل ليقودوا دوابهم في المسالك الجبلية الوعرة.

وقبل أن يأخذوا طريقهم إلى كشغر سقط ماركو مريضا، وأصبح محتوماً على الرحلة أن تتأخر، وطال تأخرها إلى سنة كاملة كان على الأب والعم فيها أن يحملا ماركو الشاب إلى مرتفعات بادخشان لينقه ويسترد عافيته، ويتحدث ماركو في ملاحظاته عن هواء الجبال العليل وعن خيولها الكريمة وعن الكباش ذات القرون الملتوية التي تسرع في مرتفعات البامير.

وبعد أن شفي ماركو عبرت القافلة خط تقسيم المياه وهبطت إلى السهول الشرقية في وسط آسيا ونزلت إلى كشغر ذات الحقول الواسعة والكروم اليانعة والهواء المعتدل ووجدت الجماعة نفسها بعد عدة أسابيع من السير المضني في مدينة كبيرة تتجمع فيها مظاهر مدينة الشرق، فقد كانت كشغر كما هي اليوم من أهم مراكز التجارة في آسيا الوسطى.

ومن كشغر سارت الجماعة إلى يرقند وخوتان، ومن خوتان واصلت السير حتى منطقة أوب نور ثم اجتازت صحراء جوبي إلى منطقة تنجوت في أقصى الطرف الشمالي الغربي للصين وفيها يمتد سور الصين الكبير[٥١]. وكان مع آل بولو أدلاء من التتار الذين يعرفون الطريق معرفة جيدة وقد فوجئ آل بولو بالأدلاء يعلقون في رقاب

الدواب أجراسا تصدر صوتا رتيبا وفقا لحركة الدواب. ولما سأل ماركو بولو كبير الأدلاء عن سبب قيامهم بذلك شرحوا له أنَّ صحراء جوبي مليئة بالغيلان[٥٢] التي تظهر بالليل فتنادي من يتخلف عن القافلة باسمه أو تجذبه إليها بأنغامها الموسيقية، ويتبع المسكين مصدر الصوت ظنا أنَّه إنما يأتي من القافلة فيكون في ذلك حتفه. وربما تظهر الغيلان بالنهار وتتشكل في صور شتى تضلل المسافر، ولهذا كان لا بد للقافلة أن تسير كتلة واحدة وأن تعلق في رقاب دوابها أجراسا تصدر ذاك الصوت الرتيب. ولدى سماع الفتى ماركو بولو تلك القصة تذكر أسطورة الأوديسة اليونانية التي كتبها هوميروس والتي تذكر شيئاً مماثلا عن التأثير السحري لصوت عروس البحر على بحارة المراكب الذين يغامرون برمي أنفسهم في لجج البحر لشدة جمال الصوت، الأمر الذي يجبرهم على وضع الشمع في آذانهم للحيلولة دون وصول صوت عروس البحر إليهم[٥٣].

وفي أوائل عام ٦٧٢ هجري وصل آل بولو إلى بلاط الخان الأعظم في "شانجتو " وكان قد أرسل حرسا يستقبلهم على بعد أربعين يوما من بكين، وسر الخان بلقائهم ووجه عناية خاصة إلى ماركو الشاب لما لمسه فيه من نجابة وذكاء، وكانت مواهب الرحالة الإيطالي في سرعة تعلم اللغات، ومظهره الذي يوحي بالثقة والاطمئنان، مما حدا بالخان إلى أن يجعله محل ثقته وأن يدخله في خدمته.

وفتح الشاب عينيه على عالم جديد يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذي عاش فيه في أوروبا والذي تركه منذ ثلاثة أعوام ونصف، ورأى أشياء لم يكن يحلم برؤيتها، رأى حضارة كحضارة الأوروبيين بل ربما تزيد عليها، ورأى في الصين شعبا يستعمل أوراق النقد ويبني المباني الرائعة، ويستخدم حروف الطباعة، وشهد على مياه الأنهار العظمى ما لا يحصى من المراكب، وعلى ضفافها مدناً ضخمة يسكنها آلاف الناس، ورأى لأول مرة حجراً أسود يحترق فيكون له نار عظيمة، ورأى الأسبستوس الذي لا يحترق في أي نار.

ولاحظ خلال إقامته في البلاط اهتمام الخان بالبلاد الغربية، وسخريته من غباوة السفراء والمبعوثين الذين لا ينقلون إليه إلا ما يتصل بأعمالهم الرسمية، فأخذ يبدي ملاحظاته عن بعض المسائل التي يمكن أن تسر الخان ويقص الكثير عن تجاربه. وكانت قصصه مما يطرب له الخان.

وارتفع شأن ماركو بسرعة، حتى لقد ولاه الخان أمر الحكم في "يانجتشاو" ثلاث سنوات. وكثيرا ما أرسله في بعثات جاب فيها مقاطعات "شنسي"، و "شانسي"، و"ستشوان" والمناطق الوعرة على حدود التبيت وبلغ مقاطعة "يونان" التي كان يسميها المغول كراجانج، وأوغل حتى بورما الشمالية. وكانت التقارير التي يرفعها إلى الخان عن رحلاته محل الرضا والقبول.

وفوجئ ماركو بولو بمدى تقدم الحضارة الصينية قياسا على التخلف الذي كان سائدا في أوروبا في الوقت نفسه، غير أن دهشته التي طغت على حواسه كلها إنما حدثت عندما وجد حضورا إسلاميا قوياً وكبيرا في جنوب الصين وغربها. فقد صادف أن اطلع على سجلات قصر آخر أباطـرة الصين قبل غزو المغول للصين ليجد أن ذلك الحضور قديم جدا ويعود إلى صدر الإسلام، وأن سبع عشرة سفارة إسلامية قد وردت من الخلافة الأموية إلى عاصمة الصين، في حين ورد من الخلافة العباسية خمس عشرة سفارة(٥٤)، علاوة على عشر سفارات أخرى وردت من حكام فرغانة والري وسرنديب وسمرقند والهند والشاش وفارس، ومن السامانيين(٥٥) والغزنويين. وشاهد ماركوبولو، بأم عينيه، عشرات المساجد الإسلامية في الصين، وخاصة "الجامع الطاهر" في مدينة "تشوان تشو" الذي يعود تاريخ بنائه إلى عام ٥١٨ هجري بتبرع من تاجر عربي ثري يدعى مجيب مظهر الدين الذي اشترى قطعة الأرض جنوب المدينة وأنشأ عليها مسجدا ثم خصص له أوقافا عقارية لإنفاق ريعها على من يقوم بأمور المسجد من رجال الدين(٥٦). كما شاهد ماركوبولو مسجد " الذكرى " في مدينة "خانقو Canton"(٥٧) حيث يعيش المسلمون في محلة خاصة تقع غرب المدينة وتعرف باسم "فانغ فنغ" أي محلة الأجانب، وفيها شيخ المحلة الذي ينتخب من قبل المسلمين ويتولى أمورهم باسم الملك. وقد كان هذا الشيخ ينتخب أحيانا من قبل العرب، وأحيانا أخرى من قبل الإيرانيين(٥٨). وشاهد بولو أيضا مسجدا قديما آخر غابت معالمه في مدينة " تشانغ-آن" وهي عاصمة الصين القديمة الواقعة شمال الصين الغربية، وكان هذا المسجد قد أنشئ في عام١٥٥ هجري أثناء حكم الإمبراطور "تونغ تشونغ" من أسرة "تانغ". وقد ذكرنا من قبلُ أن متمردا صينيا يدعى "أنلوشان" قام بحركة تمرد على أسرة "تانغ" فبعث الإمبراطور "تونغ تشونغ" برسول إلى الولاة العرب الذين كانون يتولون الأمور نيابة عن الخليفة في آسيا الوسطى التي كانت ضمن ولاية خراسان، ليستنجد بهم بالمعونة العسكرية. وفعلاً تجاوب الولاة العرب مع مطلب الإمبراطور وأرسلوا له في "تشانغ-آن" وحدة عسكرية مكونة من أربعة آلاف جندي من جنود المسلمين المختلطين من العرب والأتراك والإيرانيين لقمع الثورة في الصين. فلما انتهوا من مهمتهم وردوا الأمن إلى نصابه في شمال الصين، أذن الإمبراطور لهم بالبقاء والاستيطان في عاصمته "تشانغ-آن" وبناء مسجد لهم(٥٩).

وقد تزوج هؤلاء الجنود من نساء صينيات في المنطقة ونشروا الإسلام في تلك المناطق الصينية في مرحلة مبكرة جدا من التاريخ الإسلامي. وكانت توجد جالية إسلامية كبيرة في ميناء "يانغ تشو" ولكنها تضاءلت بعد المذبحة التي تعرض أفرادها لها على يد الثائر الصيني " تيان زين كونغ" في عام ١٥٨ هجري الذي تمرد على حكم

الإمبراطور "سو تشونغ" وهاجم المدينة وأنزل بأهاليها القتل والذبح فهلك في هذه النكبة آلاف من التجار العرب والإيرانيين.

وكان التجار المسلمون في الصين في عصري أسرتي " تانغ Tang " و"سونغ Sung " قد سيطروا على جانب عظيم من التجارة البحرية بين الموانى الصينية والخليج الإسلامي، فكسبوا أموالا طائلة عن طريق التجارة. وكان من أشهر العرب الذين أقاموا مدة طويلة في الصين أيام حكم أسرة " سونغ" تاجر يسمى أبا على إبراهيم المشهور بالصيني أو أبو السوقين[٦٠]. وقد لقب بهذا اللقب لأنه كان يشغل الرئيس في السوقين اللذين سيطر عليهما المسلمون. وكان أحد هذين السوقين في مدينة "خانقو" والآخر في مدينة "تشوان تشو"، فأصبح أبو السوقين هذا فيما بعد مديرا عاما لإدارة جديدة أحدثت لمقتضى الحال ولم تكن موجودة من قبل في الصين، وسميت تلك الإدارة الجديدة " إدارة المراقبة على الملاحة والتجارة البحرية" {زي به شيه} التي كانت تتضمن المسؤولية عن الشؤون الجمركية والمراقبة على الواردات إلى الصين[٦١].

ومع فتوحات المغول وتأسيس أسرة "يوان" المغولية في الصين في سنة ٦٧٤ هجرية أخذ المسلمون ينهضون بسرعة كبيرة وينشرون نفوذهم في أمور الصين الداخلية ويؤثرون فيها تأثيرا مباشرا، وكان ذلك عن طريق إضافة عناصر جديدة إلى جاليات العرب والإيرانيين الذين استوطنوا في الصين من قبل حتى نهض المسلمون بمراكزهم في الصين إلى درجة ممتازة أيام حكم المغول، فقوي تأثيرهم فيها وخصوصا فيما يتعلق بسرعة زيادة السكان المسلمين ونفوذهم في أنحاء البلاد.

كانت هناك عوامل عديدة تساعد على سرعة تصاعد نفوذ المسلمين وأثرهم في الصين في عصر المغول. وكان أهم هذه العوامل هو أن كثيرا من أبناء المسلمين من أصل عربي ومن الإيرانيين والأتراك قد هاجروا إلى آسيا الوسطى وبلاد التركستان واتخذوها أوطانا منذ القرون الماضية فدخل بعضهم في خدمة الجيش المغولي واشتغلوا في المناصب المختلفة من وظيفة جندي بسيط إلى كبار الضباط والقواد تحت أوامر جنكيزخان وخلفائه. لقد حارب هؤلاء المسلمون مع الجيش المغولي أمراء الخيطان وحكام أسرة "سونغ" في شمال الصين وغربها. ثم بقوا في الصين موظفين في الحكومة المغولية وأظهروا كفاءتهم في إدارة الأمور، ثم ارتقوا إلى مناصب رؤساء الدواوين في العاصمة والولايات التابعة للإمبراطور المغولية الواسعة التي أعلن عن تأسيسها في عام ٦٧٤ هجري كما أسلفنا. ومن بين أولئك الموظفين المسلمين ، كان هناك قائد يدعى شمس الدين عمر، مسقط رأسه مدينة بخارى[٦٢]. وقد دخل في خدمة "تاي تشونغ" أولاً أي " أوقتاي خان" {٦٢٦-٦٤٧ هـ} . فامتاز بالخدمة كضابط في الجيش فرفع إلى منصب الحاكم العسكري في مدينتي "تاي يوان" و"بنيانغ" ، ثم نقل إلى منصب القاضي في مدينة "بنينغ" أو بكين، ثم عين حاكما عليها. ولما بعث بجيش إلى

ولاية "سينشوان" بجنوب الصين لقمع الثورة فيها عين رئيسا لفرقة التموين العسكري فقام بخدمة ممتازة خلال تلك المدة.

ولما نودي بقبلاي خان إمبراطوراً على الصين (٦٦١-٦٨٤ هجرية) واختار بكين عاصمة لإمبراطوريته الواسعة، عين شمس الدين عمر مديرا سياسيا في البلاد ومنح لقب " السيد الأجل". وفي عام ٦٦٢ هجري أرسل إلى ولاية سنشوان حاكماً عاماً عليها، ثم أصبح في سنة ٦٦٤ هجرية حاكما عاما على ولاية "يونان"[٦٣].

كان السكان في تلك الولاية النائية، كما ذكر في تاريخ "يوان" ، في حالة بربرية لا يعرفون الآداب والأخلاق، ولم يكن عندهم نظام للتعليم والتهذيب. فكان رجال الولاية ونساؤها يختلطون اختلاطا حرا إباحيا ويحرقون موتاهم. وكانت القراءة والكتابة معدومتين عندهم. فالسيد الأجل هو الذي أدخل الإصلاحات في الحياة الاجتماعية وعاداتها، وعلم الأهالي الآداب والأخلاق والسلوك ووضع الترتيبات للزواج بواسطة الوسيط بين الطرفين ثم وضع نظاما يقضي باستعمال التابوت في دفن الموتى. وبعد هذا وذاك، وضع مشروعا للري وعلم الأهالي الحراثة والزراعة[٦٤] وشيد معبدا لأتباع ديانة كونفوشيوس.

نالت تلك الحقائق المفاجئة وذلك الوجود الإسلامي الراسخ في إمبراطورية المغول {يوان} من نفس ماركوبولو الذي كانت كلمته مسموعة لدى الخان الأكبر، فأزمع على زرع الفتنة وانتظر اللحظة المواتية للإقدام عليها. وحانت تلك الفرصة عندما وصلت سفارة من أباقة خان بن هولاكو لحمل قوبلاي خان على اضطهاد المسلمين والتعرض لحرياتهم الدينية وتحركهم في الصين. وكان السبب في ذلك أن بعض المسيحيين الذين نالوا نفوذا عظيما عند هولاكو بعد زواجه من امرأة مسيحية قد وسوسوا إلى ابنه أباقة خان قائلين له: "إن في القرآن، وهو كتاب المسلمين المقدس، آية تأمر بقتل المشركين ونصها هو: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم "، فاستفظع أباقة خان ذلك وكلم أباه بالأمر وأصدر تعليماته بحرمان المسلمين من الخدمة في قصور المغول في فارس وتركستان والعراق، ثم أرسل أباقة خان بن هولاكو سفارة خاصة إلى الخان الأكبر قوبلاي خان يحذره فيها من المسلمين الذين يعتبرون المغول مشركين، وبالتالي فإن قتل المغول هو أمر يأمر به القرآن المسلمين[٦٥]. فكان لهذه السفارة وقع عظيم في نفس قوبلاي خان الذي استشار ماركو بولو بالأمر فأكد له مضيفا أن المسلمين لا يعتبرون المغول وحدهم مشركين بل ينظرون إلى كل من يخالف دينهم على أنه مشرك من الواجب عليهم قتله. وعندها أمر الخان الأعظم باضطهاد المسلمين فألغى حريتهم الدينية وأمر باتباع أحكام "الياساق " المغولية في أمور الزواج وأنزل الأئمة من المنابر وأكره المسلمين على أكل اللحوم المخنوقة على طريقة المغول[٦٦]. ولم يفكر قوبلاي خان في عاقبة هذا الاضطهاد على واردات

خزينته من التجارة البحرية الإسلامية التي كانت كانتون مركزا رئيسيا لها. فقد فر التجار المسلمون مع عائلاتهم من الصين متجهين إلى جزائر الرامني والصنف وسولو وجمقا. وتدخل شمس الدين عمر لدى الإمبراطور قوبلاي خان دونما نتيجة، واستمر الاضطهاد سبع سنوات نقصت خلالها إيرادات الخان الأعظم نقصا فظيعا. فعاد شمس الدين عمر يشرح له أن سبب ذلك النقص هو فرار التجار المسلمين بفعل التضييق عليهم في ممارسة شعائرهم الدينية، وعندها انصاع الخان الأعظم لنصيحة قائده المسلم فأمر برفع الإجراءات التقييدية عن المسلمين، لا بل إنه سار شوطا أبعد من ذلك فأمر ببناء مسجد كبير لهم في عاصمته "خان بالق" وسط امتعاض ماركوبولو الشديد وخيبة أمله من نجاح خطته نجاحا كاملا، خاصة وأن قوبلاي خان عيّن السيد الأجل شمس الدين وزيرا سياسياً في بلاط عاصمته الجديدة "بكين" وهو منصب منافس لمنصب ماركوبولو الخان الأعظم. ولم يكن السيد الأجل هو المسلم الوحيد في البلاط المغولي، بل كان هناك العشرات مثله في الحكومة المغولية التي كانت مؤلفة من ست وزارات هي: وزارة الأمور المدنية، وزارة المالية والسكان، وزارة التعليم، وزارة الحرب، وزارة القضاء، وزارة الصناعة والتجارة. وفي كل وزارة ست إدارات أو أقل حسب متطلبات الوزارة المختصة واحتياجاتها. وكان من العادة أن يشغل المسلمون مناصب الكتاب في كل إدارة من إدارات الوزارات.

وأما في الخدمات العسكرية فكان المسلمون يشغلون مناصب داروغة خواجة، أيْ قائد لعشرة آلاف بحرية وقائد لعشرة آلاف مشاة ونائب قائد وحدة عسكرية مؤلفة من عشرة آلاف جندي ومستشار عسكري ومُدّع عام عسكري ومفتش عام عسكري. كما كان في سكرتيرية البلاط المركزية ١٤ مديراً عاماً و١٤ رئيسا للشعبات و٩ موظفين في الجناح الأيمن من القصر وخمسة موظفين في الجناح الأيسر من المسلمين. كان في إدارة التفتيش العامة لولايتي " كيانو " و"جيكيانغ " مفتشان مسلمان ومفتش مسلم آخر في ولاية شيني في مركز الشرطة "بتادو "[العاصمة الكبيرة] مسلم واحد يشغل منصب المدير وفي "بشاندي" [العاصمة العليا] ثلاثة مسلمين في منصب المدراء[٦٧].

ولم يكن الحضور الإسلامي قويا فقط في الأوساط السياسية والعسكرية في البلاط المغولي، بل كانت مؤسسات الهيئة الفلكية والمستشفيات والمدفعيات تحت إشراف الأخصائيين المسلمين وإدارتهم، بالإضافة إلى أن القصر المغولي في بكين وحدائق "بحيرة الشمال" {باي هاي بارك} كانت من مجهودات مهندس مسلم يسمى مختارا، كما كان رئيس إدارة الهيئة الفلكية مسلما يسمى جلال الدين وكان يعاونه ثلاثة مراقبين مسلمين ووكيلان للمراقبين ومسلمان مساعدان ومسلم واحد في منصب الأخصائي الفني وكاتبان وأستاذ للتدريب ومدير لشعبة الهيئة ومدير آخر لشعبة التقويم

ومدير ثالث لشعبة الساعات المائية وثمانية عشر موظفا مسلما يشتغلون في مراقبة سير الأفلاك – الشمس والقمر والنجوم– وتسجيل حركاتها مع الملاحظة على تغييرات الأوقات في الليل والنهار .

وأما مؤسسة المستشفيات التي كانت معروفة باسم "إدارة الطب الخيري" فقد أسست في عصر المغول لأغراض عسكرية أولاً. وكان ذلك لتقديم التسهيلات الطبية والمعالجة لرجال الجيش ثم للمحتاجين الآخرين وكان فيها مديران مسلمان: أحدهما كان مسؤولاً عن إدارة الطبابة والمعالجة بما فيها الإشراف على أمور إدارية للمستشفيات {بيمارستان} وعمل الترتيب لقبول المرضى للعلاج الداخلي والتشخيصات العلاجية، والآخر مسؤولاً عن تحضير الأدوية وإعدادها لمعالجة الأمراض المختلفة، وكان يعاونه أربعة نواب مدير ومساعدان ومأموران إداريان ومستشار فني في تحضير الأدوية ومستشار فني آخر في شؤون التمريض[٦٨].

كل ذلك الحضور الإسلامي القوي كان في ظل خان مغولي أعظم هو قوبلاي خان الوثني، وكان ذلك مؤشراً قوياً على أن المسلمين قد نجحوا في احتواء البربرية المغولية وفي جذب المغول تدريجيا نحو اعتناق الإسلام. وكانت عملية أسلمة المغول الرئيسية تتم بشكل واسع في المناطق التي يحكمها هولاكو بحكم تماسهم المباشر مع الإسلام، في حين أن العملية كانت تسير بشكل أبطأ في الأطراف البعيدة .

في عام ٦٧٨ هجري توفي السيد الأجل شمس الدين عمر عن تسع وستين سنة، وأحدثت وفاته حزنا عاماً بين سكان ولاية يونان وفي أوساط البلاط المغولي حيث حضر الخان الأعظم الجنازة بنفسه ودفن السيد الأجل وفقا للشعائر الإسلامية. وقد ترك وراءه خمسة أولاد أكبرهم نصر الدين الذي يناديه الصينيون باسم "ناسولانغ" وثانيهم حسن و ثالثهم حسين ورابعهم شمس الدين عمر الثاني وخامسهم مسعود الذي تعوّد الصينيون على مناداته باسم "ماسوهو". ونظرا لمكانة المتوفى لدى الخان الأعظم فقد أمر هذا الأخير بتوليتهم جميعا مناصب عالية في إمبراطوريته المترامية الأطراف[٦٩].

وأما في منطقة حكم "أباقا بن هولاكو" الذي اختار مدينة تبريز قاعدة لعملياته ضد المماليك بعد هزيمة "عين جالوت" ومقتل كتبغا ابن هولاكو ، فقد استؤنفت العمليات الحربية مجددا، فهاجم أباقا مدينة حمص في بلاد الشام فرده المماليك على أعقابه. ولكن السلطان ركن الدين الظاهر بيبرس توفي فجأة في دمشق بعد عودته من حملة لتحرير أنطاكية من الفرنج في عام ٦٧٦ هجري، فخلفه ابنه الملك السعيد بركة الذي سرعان ما خلعه مماليكه وبعثوا به إلى الكرنك سنة ٦٧٨ هجرية، فملك بعده أخوه الملك العادل سلامش فبقي في السلطة أربعة أشهر فقط ثم خلع وملك بعده الملك المنصور قلاوون الملقب بالألفي لأن أحد قادة المماليك ويدعى أقسنقر الكاملي كان قد اشتراه بألف دينار[٧٠].

ويشاء القدر أن يصاب المغول بالآفة نفسها التي أصابت المسلمين وفتت شملهم، ألا وهي فتنة التنافس والصراع على السلطة وسط زحمة الأحداث الهائلة التي كانت تشهدها أقطار الإسلام على اختلافها. فقد أسلم "تكدار بن كتبغا" وتسمى بأحمد ولقب نفسه بأحمد السلطان[٧١]، وخاطب الملوك المغول الآخرين بتحوله إلى الإسلام وبولائه للخليفة العباسي في القاهرة، فثار عليه عسكره المغول وقتلوه وولوا مكانه أخاه أرغون بن كتبغا الذي كان قد أسلم أيضا مع أخيه ولكنه قبل بالارتداد عن الإسلام بعد مقتل أخيه فعاد إلى عبادة الأوثان. غير أن المقام لم يطل به في السلطة إذ مات في عام ٦٧٨ هجري وملك بعده أخوه "كيختو بن كتبغا" فساءت سيرته وأفحش في سلوكه فقتله غلمانه سنة ٦٨١ هجرية فملك بعده ابن أخيه "بيدو بن طرخاي بن هولاكو" الذي قتل بعد ثمانية أشهر من ولايته فولي بعده "قازان بن أرغون بن كتبغا "[٧٢].

وبشكل موازٍ لتلك التطورات، شهدت القاهرة وفاة السلطان قلاوون الألفي ودفن في القاهرة بعد أن حارب الفرنج سنوات طويلة في بلاد الشام واسترد منهم حصن المرقب قرب مدينة بانياس الساحلية، وخلفه على الحكم أخوه الأشرف خليل وصياً على ابن أخيه محمد بن قلاوون الذي كان عمره خمس سنوات. وبالرغم من قسوته ونفور الناس منه، فإن الأشرف خليلاً تابع تطهير بلاد الشام من بقايا الاحتلال الصليبي واستطاع طردهم نهائياً من تلك البلاد وحرر آخر معقل من معاقلهم وهو مدينة عكا في عام ٦٩٠ هجري، وعاد إلى القاهرة تحفُ به مواكب النصر وتسير تحت ألويته قوافل الأسرى من الأعداء. ويبدو أن النصر المؤزر الذي حققه قد جعله ثملا بنشوته، فأنشأ يمضي وقته في اللهو والحفلات إلى أن انقض عليه بعض المماليك وقتلوه وهو يلهو في حفلة صيد بعد أن أمضى في الحكم ثلاث سنوات وشهرين فقط. وبايع المماليك محمد بن قلاوون سلطاناً، وكان في الرابعة عشرة من عمره وحمل محمد لقب الناصر. ورغم صغره كان محباً للجهاد كأبيه قلاوون. فما أن استقر على عرش السلطة في مصر إلا وسمع أن المغول يغيرون على بلاد الشام، فاستنفر قوته وسار على رأسها واستقبلته دمشق استقبال الفاتحين، لكن المغول بقيادة الإليخان السابع قازان بن أرغون ابن كتبغا، تظاهروا بالانسحاب نحو العراق، فاطمأن الناصر واستسلمت قواته إلى الراحة، فعاد المغول فجأة وأوقعوا بالناصر وجيشه هزيمة نكراء[٧٣]، فانتشر الحزن والذعر في بلاد الشام، وعاد الناصر إلى مصر ليستنفر الرعية للجهاد. ولما علم أن المغول بقيادة قازان قد غزوا بلاد الشام مجددا، وأن الألوف قد لجؤوا إلى الجامع الأموي بدمشق، سار الناصر مجددا إلى دمشق والتقى بالمغول في سهل "مرج الصفر" وهزمهم شر هزيمة، ثم أرسل أسطوله البحري ليحرر جزيرة أرواد من الصليبيين فتحقق له ذلك أيضا[٧٤].

ويشاء القدر مرة أخرى أن يغيب عن الساحة المنتصر والمهزوم في آن معا، فقد توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ هجرية وملك بعده الملك المظفر بيبرس الجاشنكير[٧٥]، في حين مات قازان بعد أن أسلم بقليل وسمى نفسه (قازان محمود)[٧٦] وملك بعده أخوه " خدابندا بن أرغون" فافتتح أمره بالدخول في الإسلام وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين، وأقام دين الإسلام وعظّم الخلفاء وكتب أسماءهم في سكته على الدراهم والدنانير، ونقش عليها أسماء الأئمة الاثني عشر، وحذف اسم الشيخين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما من الخطبة، وبنى مدينة جديدة في أذربيجان أسماها السلطانية[٧٧]. وكان إسلام "خدابندا" نقطة تحول في العلاقات بين المغول والمسلمين إذ اعتنق المغول الإسلام طواعية وبدون حرب، وصاروا سيفا في خدمة الإسلام لا سيفا مسلطا عليه. ولكن ما وراء النهر بقي بيد أحفاد جنكيز خان الآخرين الذين تنصّر بعضهم في حين بقي أغلبهم وثنيين. وأما اليمن وحضرموت فقد شهدتا تطورات كبيرة منذ رحيل الإمام عبد الملك بن علوي إلى كوجرات بالهند إذ أن عمر بن مهدي، عامل الملك المسعود الأيوبي قد استولى على حضرموت بكاملها بحلول عام ٦١٥ هجري، ثم قامت قبيلة نهد بقتل ابن مهدي بمقره بشبام واستولت على سائر حضرموت وذلك في عام ٦٢١ هجري، غير أن نهداً تنازلت لآل يماني بزعامة مسعود بن يماني عن حكم تريم. ومنذ تسلم مسعود بن يماني حُكمَ تريم عادت الحرب ضروسا بينه وبين القبائل الأخرى في الشحر وشبام وظفار والهجرين حتى سقطت تريم وحضرموت مجددا بيد الغز الأيوبيين وكانوا بقيادة الملك المنصور نور الدين علي بن عمر بن رسول بن هارون الذي عين ابن عبيد والياً على تريم. وحكم المنصور سائر البلاد من حضرموت إلى مكة المكرمة، وأمر الخطباء أن يخطبوا له في المنابر في سائر اليمن، وأن تضرب السكة على اسمه فاشتد ذلك على صاحب مصر الملك العادل فأرسل سرايا إلى مكة سنة ٦٣٥ هجرية حتى بلغت الرياض. فلمّا علم الأيوبيون خرجوا من مكة ودخلها المنصور معتمرا وفرق فيها أموالا عظيمة، وطلب جماعة من الأمراء المصريين الأمان فأمنهم وأكرمهم. وهكذا أفشل حملة ملكه العادل لتأديبه، وبقي المنصور يحكم واحدا وعشرين عاما حتى قتله مماليكه في عام ٦٤٧ هجري ثم توفي بعده بعام مسعود بن يماني.

وأما بالنسبة للطالبيين في تريم، فقد توفي الفقيه المقدم محمد بن علي في عام ٦٥٣ هجري وخلفه في رئاسة النقابة ابنه الشيخ علوي بن الفقيه الذي شهد بعد سنوات زوال الدولة العباسية على يد هولاكو، ثم تنافس أمراء اليمن [الملك يوسف بن عمر] من بني رسول وسلاطين حضرموت آل راشد في الشحر وآل الحبوظي في ظفار وآل مسعود في تريم للسيطرة على اليمن وحضرموت والحجاز، ولم يمهل القدر الإمام علوي بن الفقيه المقدم كثيرا كي يرى على من ستدور الدوائر إذ توفي عام ٦٦٩

هجري وخلفه ابنه الشيخ علي بن علوي المعروف باسم أبي محمد مولى الدويلة أو صاحب يبحر، ومعنى الدويلة هو يبحر الدويلة، لأنه بنى بلدا قرب بلدة الدويلة العتيقة أسماها يبحر فصار الناس يلقبونه بمولى الدويلة أو بصاحب يبحر(٧٨).

وكان الإمام أبو محمد مولى الدويلة تربطه صلات قوية ووثيقة بسلطان تريم والشحر أحمد بن يماني، وعندما حاول سلطان اليمن يوسف بن عمر من بني رسول الاستيلاء على الشحر، أشار الإمام أبو محمد على أحمد بن يماني بمحاربة يوسف بن عمر ففعل وانتصر عليه ومنعه من السيطرة على الشحر. وفي عهد الإمام أبي محمد ازدهرت هجرة الطالبيين إلى الهند وأفريقيا الشرقية وجزر جاوا وسومطرة، وكان يصحبهم دوما الكثير من الحضارمة الذين تصاهروا معهم مثل آل الجنيدي، وآل باهارون وآل حمدون باجحدب وآل بروم وآل الشاطري وآل العطاس. وكان السبب الرئيسي للهجرة هو عدم الاستقرار السياسي في البلاد وسلسلة الحروب المتصلة بين السلاطين وضيق ذات اليد والقحط الطويل الذي وقعت فيه حضرموت. وآل الحكم في حضرموت للملك الأشرف ابن الملك المظفر يوسف بن عمر الذي كانت سيرته بين الناس محمودة حتى توفي في عام ٦٩٦ هجري فخلفه أخوه الملك المؤيد الذي جعل أمر وزارته للقاضي موفق الدين علي بن محمد النحوي المعروف بابن الصاحب.

وكان المؤيد ملكا جواداً وشجاعا لا يهاب شيئاً، فقد أمر باطلاق أسد كان محبوسا عنده، وأخلي المجلس له وللأسد فبارزه وقاتله حتى قتله بسيفه(٧٩). وفي عام ٧٩٩هجري توفي الإمام علي بن علوي أبو محمد مولى الدويلة فخلفه ابنه الشيخ عبد الرحمن السقاف الذي كان يوزع أوقاته بين تريم وشبام ودوعن ووادي عمد والفيل وبروم وعدن مستوعباً المذاهب الإسلامية بجانب الزعامة الاجتماعية. وكانت له حلقات دراسية أينما ذهب في حضرموت وظفار، وتتلمذ على يده الكثير من العلماء من آل البيت وغيرهم مثل محمد بن حسن جمل الليل، وعبد الرحمن بن محمد الخطيب وسعد بن علي المذحجي وعبد الله بن محمد باشرحبيل وعبد الله بن أحمد العمودي(٨٠).

وأما في كوجرات ومليبار فقد ازداد الحضور الإسلامي بشكل ملحوظ فيهما، وفي البنجاب أيضاً. ووصل الإسلام إلى أعماق القارة الهندية حيث كان الدعاة العرب والإيرانيون والأتراك ينشرون تعاليمه فيها. وقد كانت حصة العرب كوجرات ومليبار، في حين التفت الدعاة الإيرانيون إلى أعماق الهند منذ فتوحات السلطان شهاب الدين الغوري الذي جاء من موطنه الأصلي في "فيروزكوه " شرقي هرات(٨١) إلى الهند. وكان شيخ الوعاظ الكبير نظام الدين أولياء، المولود في الهند، قد أمضى جل حياته في الدعوة إلى الإسلام في المناطق البعيدة في الهند وترك وراءه ثلة من التلاميذ ممن تابعوا رسالته كنصير الدين الذي نشط في البنجاب(٨٢)، وسراج الدين الذي تفرغ لنشر

العلوم الإسلامية في "بنكالة" و "بهار" و "أسام" ، وبرهان الدين الذي كان يرشد الناس في منطقة "الدكن" [٨٣]. ثم توفي العلامة نظام الدين في عام ٧٢٥ هجري ودفن في دهلي.

وكان الدور الإيراني كبيرا في الدعوة إلى الإسلام في الهند بحكم العلاقات الوثيقة والوشائج العميقة التي كانت قائمة بين البلدين قبل الإسلام. ومن المفارقات العجيبة أن الآية قد انعكست بعد انتشار الإسلام، فقد كان دين القارة الهندية وهو البوذية متجها في تبشيره نحو الغرب إلى فارس حيث تأثر قسم كبير منها بالبوذية. ولو لم يظهر الإسلام ويصل إلى إيران لحظيت البوذية بالقبول والتقدم أكثر من ذي قبل. الواقع أن فارس ما قبل الإسلام كانت منفتحة على الكثير من الأديان التي كانت سائدة فيها وفي الهند وآسيا الوسطى[٨٤] كالبوذية والمسيحية والمزدكية والمانوية والزرداشتية، لا بل إن سكان بعض المناطق في فارس كانوا يعبدون بطلا أسطوريا يدعى "سيافوش" ويماثل البطل الإله أدونيس عند الإغريق القدماء[٨٥]. وقد لعبت المدن الحدودية بين الهند وفارس دورا كبيرا في تبادل نشر الأفكار والمذاهب الدينية بين فارس والهند. فمدينة " باكتريا " [بلخ] التي أسماها العرب أم المدن كانت المهد الرئيسي لنشاط التبشير الزرداشتي[٨٦]، و "باغرام "[كابول] وغزنة[٨٧] و"بلوشستان" كانت مناطق يتكلم فيها الناس اللغة الهندية الدرافيدية والبراهوية والبكترية. وأما مدينتا مرو وهيرات فقد كانتا أساساً بارثيتيين ثم ساسانيتين ثقافيا، وامتد نفوذهما حتى سلسلة جبال هندوكوش الهندوسية[٨٨].

ولما فتح المسلمون مدينة مرو الإيرانية وجدوا فيها معبداً بوذياً[٨٩]. وكانت المدينة نفسها قاعدة للتبشير المسيحي في آسيا الوسطى وبخاصة النساطرة. ومن المعلوم أن أسقفاً مسيحياً نسطورياً هو الذي أخذ جثة الملك الساساني يزدجرد الثالث عندما قتله القائد عبد الله بن أمير في عام ٣١ هجري بعد مطاردته من إصطخر إلى كرمان إلى خراسان، ومنها إلى سجستان ، في حين هرب بهروز بن يزدجرد إلى الصين[٩٠].

وعلاوة على تلك الأديان القديمة الوثنية، كانت فارس الشرقية أرضاً لعدة بؤر يهودية في همدان وقم وبلخ، وصابئة وسامارية. وكانت مدينة فرغانة في بلاد الصغد مركزا للمزدكية، في حين كانت سمرقند مركزا للمانوية[٩١]. وقد بقيت جذوة تلك البؤر متقدة حتى بعد الفتح الإسلامي لفارس، وتعزيز أهلها دينَ الإسلام بدخولهم فيه. فقد حدث في عام ١٢٩ هجري أن ثار متمرد في نيسابور يدعى " بيها فريد " ويدين سراً بالزرداشتية والمزدكية على الخلافة الأموية، وادعى النبوة قبل أن يتمكن أبو مسلم الخراساني من قتله[٩٢]. والمهم في الأمر أن بقايا الزرداشتيين قد فروا إلى الهند في صدر الفتوحات الإسلامية، كما أن بعضهم قد اتجه إلى الصين لينضم إلى أحفاد بهروز

الذي كان قد حل ضيفاً على إمبراطور الصين عندما لجأ إليه للحماية بعد مقتل أبيه يزدجرد الثالث على يد القائد المسلم عبد الله بن أمير[٩٣]. وهكذا فإن الوجود الفارسي في الهند هو وجود قديم جداً وتعزز بالفتوحات الإسلامية فيها، وقد بلغت ذروتها في عهد السلطان محمود الغزنوي[٩٤]. ثم تعزز الفتح الإسلامي أكثر عندما دخلت كشمير في دار الإسلام في عام ٧١٥هجري على يد داعية مسلم يدعى شاه ميرزا دخل إلى مدينة "سري نكر" على عهد "سيه ديو" حاكمها المهراجا الهندوسي، وأقبل على خدمة هذا الحاكم إلى أن نفذ إلى قلبه. ولما توفي الحاكم ملك بعده ابنه "رنجن" فجعل شاه ميرزا وزيرا لديه. وتوفي رنجن بعد مدة وملكت بعده زوجته فتزوجها شاه ميرزا وأسلمت على يديه وصار حاكما لكشمير باسم السلطان شمس الدين[٩٥].

حواشي الباب الرابع

(١) انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي "، الجزء الثاني ، ص ٥١١ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٥١١ .

(٣) لما قويت شوكة الأتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء طمع بعضهم في الولايات كما حدث في فارس ، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع العباسية في بلاد الفرس. وإليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها :

اســم الدولة	مقـرها	مـدة تأسيسها	مؤسسهــا
١ – الطولونية	مصــر	٢٥٤ – ٢٩٢ هـ	أحمد بن طولون
٢ – الإيلخانية	تركستان	٣٢٠ – ٥٦٠ هـ	عبد الكريم شنــق
٣ – الإخشيدية	مصــر	٣٢٣ – ٣٥٨ هـ	محمد الاخشيد
٤ – الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ – ٥٨٢ هـ	البتكيـن

وتدرج الأتراك في الولايات الإسلامية كما تدرج الفرس قبلهم، أي من الإمارة إلى السلطنة وهم أول من سموا سلاطين في الإسلام، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الإسلام فيها. على أن هذه الإمارات نشأت فروعا للدولة العباسية، وكان أمراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها. وكانت السنة قد تقوت بظهور الإمارات التركية . فلما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر، عظم أمر الشيعة في العالم الإسلامي وتضعضعت السنّة فتشتت شمل الخلافة العباسية. ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة إلى جدها سلجوق التركماني الذي ينتسب إلى قبائل الغز وعرف باسم " تيمور لانغ " أي القوس الحديدي، فجاءت في حال الحاجة إليها، لأنها لمت شعث الخلافة العباسية[السنية] بعد أن كادت تضمحل بين يدي مناهضيها في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب وأوشكت أن تستولي على المشرق كله، فجاء السلجوقيون من أقاصي الشرق فاستولوا على الخلافة العباسية وجمعوا شملها. وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي. ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان. فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها، وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الإسلام، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غربا ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا الديار العباسية، وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض، وأصبح العالم الإسلامي تتنازعه ثلاث دول إسلامية، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب، والثالثة دولة بني أمية في الأندلس.

فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها، لأن هذه إمارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها. وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على يد البويهيين وغيرهم من الشيعيين. والدولة الإيلخانية نشأت مستقلة أيضا، لكنها قلما أثرت في الديار الإسلامية.

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد، ولكنها تمتاز بعضها من بعض بأماكن حكمها، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعا.
وإليك الدول السلجوقية ومقدار مُدّة حكمها :

١ – السلاجقة العظام	حكموا من سنة ٤٢٩ – ٥٥٢ هـ ،
٢ – سلاجقة كرمان	حكموا من سنة ٤٣٣ – ٥٨٣ هـ ،
٣ – سلاجقة الشام	حكموا من سنة ٤٨٧ – ٥١٠ هـ ،
٤ – سلاجقة العراق وكردستان	حكموا من سنة ٥١١ – ٥٩٠ هـ ،
٥ – سلاجقة بلاد الروم [آسيا الصغرى]	حكموا من سنة ٤٧٠ – ٧٠٠ هـ .

فحكمت الدولة السلجوقية على الإجمال نحوا من ثلاثة قرون، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين إلى آخر حدود الشام. {انظر: جرجي زيدان، " تاريخ التمدن الإسلامي "، المجلد الثاني، الصفحة ٤٧٢ – ٤٧٢] .

(٤) انظر: " الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة "، الجزء الأول، الصفحة ٦ .

(٥) انظر : ابن القوطي " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب "، ص ١٢٠٤ .

(٦) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ١٨٤– ١٨٥.

(٧) انظر: الدكتور محمد بديع شريف ، "القادسية الكبرى "، ص ١٦٨ .

(٨) انظر مقالا بقلم د. أحمد محمود الساداتي بعنوان " تاريخ جهانكشاي لعطا ملك الجويني"، موسوعة " تراث الإنسانية "، الجزء السابع ، ص ١٢١.
ويذكر عطا ملك الجويني في كتابه المشهور " تاريخ جهانكشاي " قصة الإسماعيلية في ألموت منذ بدايتها عندما سافر حسن الصباح إلى مصر بدعوة من الفاطميين وهرباً من وجه نظام الملك الوزير السلجوقي القوي وعدو الباطنية اللدود، ثم عودته إلى كوهستان بخراسان داعيا للنزارية واتخاذه ألموت مقراً له بعد استيلائه على الكثير من الحصون والقلاع، ثم اغتيال جماعة الصباح للوزير نظام الملك .

(٩) وكان السلاجقة قد انحصروا في وسط الأناضول وقبلوا السيادة الإيلخانية بينما كانت الإمارات التركمانية التابعة اسمياً للسلاجقة تحاول الاستفادة من الأزمة السياسية التي تعيشها الدولة البيزنطية بعد أن ضعفت قوتها المركزية، فبدأت نشاطاً مكثفاً في غرب الأناضول وأخذت تتشكل في شكل دويلات صغيرة. وكانت إمارة أبناء قرمان الذين ادعوا الحق في ميراث السلاجقة قد سيطرت على حاضرة الدولة القديمة، ونجحت في اكتساب موقع متفوق بين الإمارات الأخرى، واستطاع القرمانيون أن يواصلوا ادعاءاتهم في ميراث السلاجقة ويواصلوا سياستهم بحماس إزاء الإمارات التركمانية الأخرى ، ولعل أهم الخصائص المميزة لهم كونهم أضافوا عناصر تكوينهم الذاتي إلى نظام الدولة التقليدية في الشرق الأوسط. والدليل على ذلك أنهم استخدموا اللغة التركية لغة رسمية لأول مرة ، وكانوا نموذجا في ذلك للإمارات الأخرى مما مهد السبيل لتطورات مهمة لا يزال تأثيرها موجودا حتى اليوم. ولا شك أن التطبيق الأمثل لذلك حققه العثمانيون فيما بعد، وكانت القوة الوحيدة التي نافست القرمانيين في الربع الأخير من القرن الثالث عشر هي إمارة أبناء كرميان التي ظهرت في كوتاهية وأطرافها على الحدود البيزنطية، فقد نجح أبناء كرميان في توسيع نفوذهم حتى غرب الأناضول، إلا أن تقسيم أراضيهم بين أفراد العائلة نتيجة لمفهوم الدولة عند الأتراك قد أضعف من قوتهم، مما ساعد التجمعات التركمانية في مناطق نفوذهم القديمة على أن تقيم إدارات مستقلة لها. ومن تلك الإمارات إمارة قاره سي وإمارة آيدين وإمارة أبناء صاروخان التي كانت تعيش كلها على الجهاد بالغارات البحرية. وبينما كانت إمارة أبناء منتشا تواصل العمل على النمط نفسه، كانت

إمارة أبناء جاندر تقع في منطقة سينوب وقسطموني ، وأمراء جبتي على حدود إمبراطورية الروم في طرابزون على البحر الأسود، وأبناء حميد وتكة في منطقة أنطاكيا ودولة أرتقا والقاضي برهان الدين في وسط الأناضول، وإمارة أبناء رمضان وإمارة ذي القفار في شرق الأناضول وجنوبه. وفي النهاية بدأت تظهر إمارة صغيرة على قطعة أرض انحصرت بين إمارتي كرميان وجاندر دون أن تلفت النظر في البدائية أبدا بين كل هذه الإمارات، وهذه الإمارة هي إمارة أبناء عثمان التي أخذت على عاتقها دورا جديدا في تاريخ غرب الأناضول، ووضعت بذلك أسس التطورات التي قدر لها أن توجه فيما بعد وجهة التاريخ العالمي. {انظر : " الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة " ، الجزء الأول ، ص ٧-٨ }.

(١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢٠ .

(١١) ألموت : حصن في جبال البرز شمال غربي قزوين ، كان قلعة الإسماعيلية بناه حسن الواعي الحق في عام ٨٦٠ م واحتله حسن الصباح وجعله مركزا لقيادته في عام ١٠٩٠م . {انظر: المنجد في اللغة والأعلام ، بيروت ١٩٧٣، الصفحة ٧٢ }.

من أهم حكام " ألموت " :

- الحسن بن الصباح	١٠٩٠م – ١١٢٤م
- بزرك أميد	١١٢٤م – ١١٣٨م
- محمد بن برزك	١١٣٨م – ١١٦٢م
- الحسن بن محمد	١١٦٢م – ١١٦٦م
- نور الدين محمد	١١٦٦م – ١٢١٠م
- جلال الدين حسن	١٢١٠م – ١٢٢٠م
- علاء الدين محمد	١٢٢٠م – ١٢٥٥م
- ركن الدين بن محمد	١٢٥٥م – ١٢٥٧م.

(١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢١ .

(١٣) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢٤

(١٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢٤

(١٥) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢٥ .

(١٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٤

(١٧) وردت قصة السلطانة رضية كاملة في رحلة ابن بطوطة المعنونة بـ " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، منشورات دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٩٦ ص ٤٣٥. وقد حكمت السلطانة رضية لمدة أربعة أعوام ، وكانت ثاني امرأة تحكم في الإسلام بعد شجرة الدر. وهذه حقيقة يبدو أنها لم تكن معروفة لدى القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ /١٤١٨م إذ أنه يقول في كتابه " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " السفر الثاني المعنون بـ"ولايات الأمصار "، سلسلة المختارات من التراث العربي رقم ٣٦ – منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية – دمشق ١٩٨٥، ص ١٨٤، أن أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب قد حكمت مصر في شهر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة فأقامت ثمانية أشهر، ولم يملك مصر في الإسلام امرأة غيرها. وأما الدكتور أحمد محمد الساداتي فقد قال في مقاله [المرجع السابق /٤٣٠] ص ١٢٥ أن السلطانة رضية قد عاصرت شجرة الدر المصرية .

(١٨) انظر موسوعة " تراث الإنسانية " ، الجزء السابع ، ص ١٢٥

(١٩) انظر: هاني المبارك " الظاهر بيبرس" [سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي" منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت ١٩٩٨م/١٤١٩هـ، ص٧.

(٢٠) المرجع السابق نفسه، ص ٨ . وانظر أيضا الدكتور قتيبة الشهابي "صمود دمشق أمام الحملات الصليبية "، ص ١٥٣ – ١٩٠ . ويصف سليمان مظهر في مقالته المعنونة بـ" عندما جثا لويس رافعا راية التسليم "مشهد استسلام الملك الفرنسي للجيوش الإسلامية كالآتي: " من خلال هذه المخاضات استطاع الإفرنج أن يقتحموا المعسكرات المصرية حيث أخذوا يقتلون ويأسرون. وأسرع فخر الدين وأشترك بنفسه في المعركة الغادرة حتى سقط شهيدا في الميدان. وأطلت شجرة الدر من القصر وشهدت القوات المهاجمة تقترب. وفجأة فوجئ المهاجمون بقذائف من القصر مع كتل بشرية رهيبة تندفع من خلفها أمواج هادرة من الجيش والشعب، وخرّ الأمير "دارتو" شقيق لويس صريعا، وانهزم جنوده وولت فلولهم هاربة إلى معسكر الملك، تاركة في شوارع المنصورة أكثر من ألف وخمسمائة قتيل. وتمزقت الحملة الصليبية شر ممزق بعد أن انتشرت ثلاثون ألف جثة فرنسية على أرض الدلتا. ورفع الملك الأهوج المتعصب يديه ورفع على رأسه راية التسليم، واقتيد لويس وقواده إلى السجن في دار لقمان تحت حراسة الطواشي صبيح، فقد أيقن الملك أنه لم يعد أمامه للحفاظ على حياته سوى أن يقبل عار التسليم بلا قيد أو شرط" . {انظر مجلة " العربي " الكويتية ، العدد ٤٦٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧م ، الصفحة ٦٧}

(٢١) المرجع السابق نفسه " الظاهر بيبرس " ، ص ٩ .

(٢٢) انظر : الشهيد آية الله مرتضى المطهري " الإسلام وإيران " [منشورات رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ، طهران ١٩٩٧م/١٤١٧ هـ] ، ص ٣٢٣ .

(٢٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٢٤) انظر : محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح ، " شمس الظهيرة " ، الجزء الثاني ، ص ٥٢٢

(٢٥) انظر : " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، الصفحة ٢٨٢ .

(٢٦) المرجع السابق نفسه، الصفحة ٣٨٦ .

(٢٧) انقلب هذا الوضع في نهاية القرن ١٢ م عندما تحولت مـدن الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة جاوا ، بحكامها الجاويين والعرب والصينيين، إلى مراكز التحكم بشبكة تجارة التوابل ، وذلك على حساب سومطرة .

– انظر : موسوعة " Indonesian Heritage "

الجزء المعنون بـــ " Early Modern History " الصفحة ٢٠

– وانظر أيضا بالإنكليزية كتاب " Nusantara " لمؤلفه الهولندي " Bernard Vlekke"، منشورات جامعة هارفارد ، كامبردج ، ماساتشوستس ١٩٤٤ صفحة ٧٣.

(٢٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٩١ .

(٢٩) انظر: مقالا بقلم د. محمد محمود الصياد بعنوان : " رحلة ماركوبولو " ، موسوعة " تراث الإنسانية " ، الجزء الرابع ، ص ٨٠٤ .

(٣٠) انظر: محمد محمود الصياد ، "رحلة ماركوبولو" ، سلسلة " تراث الإنسانية " ، المجلد الرابع ، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة ، ص ٨٠٤ إلى ٨١٥. وانظر أيضا د. قتيبة الشهابي، "صمود دمشق أمام الحملات الصليبية "، مطبوعات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية – دمشق، ١٩٩٨ ، ص ٢٥.

(٣١) المرجع السابق " رحلة ماركوبولو " ، ص ٨٠٥ .

(٣٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٨٠٥ .

(٣٣) انظر: القلقشندي ، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ١٩٠ .

(٣٤) انظر مقالا بقلم د. أحمد محمود الساداتي بعنوان "تاريخ جهانكشاي لعطاء ملك الجويني، موسوعة " تراث الإنسانية "، الجزء السابع ، ص ١٢٨ .
وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني ،" العلاقات بين العرب والصين "، مطبوعات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ ، الصفحة ٢٠١ .

(٣٥) انظر: د. محمد بديع شريف، " القادسية الكبرى " ، ص ١٦٨ .

(٣٦) انظر: جرجي زيدان، " تاريخ التمدن الإسلامي" ، الجزء الثاني ، ص ٥١٢ – ٥١٣.

(٣٧) يعادل ذلك بالتاريخ الميلادي ١٧ كانون الثاني / يناير ١٢٥٨ .

(٣٨) انظر : القلقشندي : "مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني ، ص ٢٠٧ .

(٣٩) يقول المستشرق " هود غسون " في كتابه " The Venture of Islam " منشورات جامعة شيكاغو عام ١٩٧٤، صفحة ٣٦٨ ما يلي : " كانت هذه الظروف السياسية السيئة قد أفضت بكثير من المسلمين – علماء وصوفية – في المناطق الخاضعة لحكم الخلافة العباسية إلى الهجرة والاتجاه إلى المناطق التي أسلمت جديدا بصفة خاصة، فما أن استهل القرن الحادي عشر الميلادي حتى أصبح الجزء الغربي لبغداد خاليا من السكان، بل كانت الهجرة الجماعية للإيرانيين والعرب المقيمين في فارس أكثر حيث تركها كثير من علماء السنّة الأمر الذي كان دافعا لنمو الشيعة، بينما نجد كثيرا منهم قد استقروا في الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي. فكان للهجرة الجماعية الفضل الكبير في الإسراع بعدد كبير من الناس في شبه القارة الهندية وشرق أوروبا وجنوب شرقها والأرخبيل أيضا لاعتناق الإسلام خلال الفترة من النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي. وكل هذه العمليات قد أسهمت في قيام نهضة كان "هود غسون Hudgson" يسميها" الحركة العالمية للإسلام السنّة". {انظر: د. أزيوماردي أزرا، " شبكة العلماء " ، منشورات مركـز الدراسات الإسلامية والاجتماعية ، جاكرتا ١٩٩٩ ، ص ١٣ } .

(٤٠) من الموثق أن الإمام الفقيه المقدم هو قطب صوفي بين الطالبيين، فقد شهد بذلك محمد بن علي خرد، صاحب كتاب " غرر البهاء " ، المتوفى سنة ٩٩٠ هجرية {انظر: صالح الحامد، " تاريخ حضرموت "، الجزء الثاني ، ص ٧١ } .

(٤١) في كتاب "مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، للقلقشندي، قيل أن الخلافة الإسلامية العباسية قد شغرت بعد مقتل المستنصر بالله لمدة سنتين . {انظر ص ٢٠٧ } .

(٤٢) المرجع السابق رقم /٩/ نفسه .

(٤٣) انظر: هاني المبارك ، الظاهر بيبرس "، سلسلة " أحب أن أعرف إعلام أمتي "، منشورات دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر بيروت ، ص ١٠ .

(٤٤) انظر: هاني المبارك " الظاهر بيبرس "، ص ١٢ .

(٤٥) وردت تفاصيل ذلك في كتاب "مآثر الإنافة في معالم الخلافة " للقلقشندي، السفر الثاني، المعنون بـــ "ولايات الأمصار " ، ص ٢٠٥ ، منشورات دار الثقافة السورية ، سلسلة " المختار من التراث العربي " ، رقم ٣٦ ، دمشق ١٩٨٥ .

(٤٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٤٧) انظر: موسوعة " تراث الإنسانية " ، الجزء الرابع ، ص ٨٠٦

(٤٨) غير بعيدة من بكين حاليا .

(٤٩) الفنون السبعة قد يكون المقصود بها أركان الحكمة الفلسفية .

(٥٠) هي منطقة الصين الشمالية .
(٥١) انظر: موسوعة " تراث الإنسانية " ، الجزء الرابع ، ص ٨٠٩ .
(٥٢) الغيلان جمع من غول، هو وحش أسطوري ورد في الأساطير العربية، ويأتي ذكر الغول عادة ضمن ما يسمى بمستحيلات العرب الثلاثة وهي: الغول والعنقاء والخل الوفي.
(٥٣) الإلياذة والأوديسية هما رائعتان من روائع هوميروس اليوناني الذي ظهر في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. (انظر: مقالا بقلم د. محمد صقر خفاجة بعنوان :" الإلياذة لهوميروس"، موسوعة " تراث الإنسانية "، الجزء الأول ، ص ٢٣٠ – ٣٢٩.
(٥٤) لقد سجل مع كتب الصين القديمة وصول أربعة وثلاثين سفارة من بلاد "تاشي" [العرب] في قرن ونصف قرن من ٧٥١ إلى ٨٠٠ م. وكان مع وفود العرب وفود من البلاد الأخرى، مثل فرغانة وسمرقند ومن بلاد الأواغر، ومن أرمينيا وسرنديب وبلاد فارس. ومعنى هذا أن سفرهم كان عن طريق البر ، كما كان عن طريق البحر .

ومن تاريخ " تانغ " ، نعرف أن سبع عشرة سفارة قد وردت من العرب إلى عاصمة الصين في زمن الأمويين وخمس عشرة في زمن العباسيين. فالسفارات العباسية ابتدأت من سنه ٧٥٢م ، وما قبلها من الوفود قد وفدوا في زمن بني أمية .

إن السفارات التي بعثت إلى عاصمة الصين في عصر بني أمية كانت في السنين الآتية: ٦٥٥ ، ٦٨١ ، ٧٠٣ ، ٧١١ ، ٧١٦ ، ٧١٩ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٣ ، ٧٤١ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٧ م . والسفارة التي وردت في سنة ٦٥٥ م كان معها وفد من أرمينيا ، والتي في سنة ٦٨١ م معها وفد من فرغانة ، والتي في عام ٧١١ ، ليست من بلاد العرب، بل من مدينة الري ، وفي هذه السنة نفسها وصلت سفارة من سرنديب ، وفي سنة ٧١٩ م جاء وفـد من العرب كما جاء من فرغانة ومن سمرقند وجنوب الهند. وفي سنة ٧٢٥م وصلت سفارتان : الأولى في الشهر الأول والثانية في الشهر الثالث ، وكان سليمان رئيسا لهاتين السفارتين يرافقه ١٣ عضوا من العرب . فكان الغرض في المرة الأولى هو التهنئة بعيد أول السنة الصينية ، وفي المرة الثانية تقديم حاصلات بلاد العرب ومنها الخيول ومنسوجات صوفية .

ولا نستطيع أن نعرف من المصادر الصينية كم سفارة وردت من الخلفاء الأمويين إلى عاصمة الصين لأن كلمة " تاشي" في تاريخ " تانغ "، ولو أن المراد منها العرب، لكن ليس من الضروري أن يراد بها العرب الذين بدمشق أو بالعراق. ومن المحتمل أن يطلق على العرب الذين استوطنوا آسيا الوسطى أو غرب الهند. ويظهر أن السفارات التي جاءت في حكم أمراء العرب بما وراء النهر وخراسان، كانت أكثر مما بعث خلفاء بني أمية في دمشق. فالسفارة التي نعتقد إلى درجة اليقين أنها بعثت من دمشق، كانت في سنة ٧١٦م لأن تاريخ الصين ذكر هذه السفارة بوضوح جدا حتى رفع كل الشكوك في عدم صحتها. يقول "جفوير أنكوي": " في الشهر السابع من السنة الرابعة لعهد "كاثي يوانغ" وهي توافق سنة ٧١٦م وردت سفارة من بلاد العرب مبعوثة من أمير المؤمنين سليمان لتقديم الهدايا إلى إمبراطور الصين، وكانت مشتملة على عباءات منسوجة من خيوط الذهب والعقيق ورشاشات العطور وأشياء نفيسة خاصة ببلاد العرب. فوصفوا بلادهم وقدموا إليه بيانا كافيا عنها. فأنعم الإمبراطور على السفير برتبة الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه بفائق الاحترام ومزيد الإكرام. ولا نعرف سفارة أخرى غير هذه السفارة جاءت من دمشق رأساً، لأن السفارات التي قبل سنة ٧١٧م ، ولو نسبها تاريخ الصين إلى بلاد " تاشي " [العرب] لكنها غير معلومة من أين وصلت، وأغلب الظن أنها وردت

من العمال أو القواد الذين وصلوا إلى ما وراء النهر يحملون لواء الفتوحات والانتصارات. وأما ما وصل من وفود العرب بعد سنة ٧١٧م، فكان من عمال المسلمين الذين بآسيا الوسطى، لأنك إذا نظرت إلى البيان الذي يوجد في تاريخ الصين عن سفارة سنة ٧١٩ م ظنّ ذهنك بالبداهة أنّ العرب الذين وردوا في هذا البيان غير الذين في دمشق. لقد ادعى تاريخ الصين أن وفودا من العرب قدموا في هذه السنة لتقديم الخراج، كما كان يفعل وفود فرغانة وسمرقند وجنوب الهند. ومن المعلوم أن العرب في زمن الأمويين لم يدفعوا الخراج لأية دولة من الدول. ثم إن الخراج لا يدفع إلا من دولة مغلوبة على أمرها إلى دولة مسيطرة عليها، فالعرب لم يكونوا مغلوبين أمام القوات الصينية في أواسط آسيا، فلا معنى إذن لكلمة " الخراج " هنا. بيد أنه من الممكن أن بعض العمال فيما وراء النهر قد أهدوا أشياء لإمبراطور الصين وبعثوا بعثات خاصة لهذه الأغراض أو لأغراض أخرى كجس نبض سياسة الصين وأحوالها الداخلية. فادعى تاريخ الصين أن هذه الهدايا هي الخراج من العرب، والله أعلم بالصواب .

وأما السفارات التي وردت في سنة ٧٢٥ م، فمن قائد من قواد العرب بما وراء النهر بدون شك، ولقولنا هذا بعض الأدلة. وبناء على ما جاء في تاريخ الصين نفهم أن وفد العرب قد ورد مرتين في هذه السنة. فكانت المرة الأولى في الشهر الأول والأخرى بعد شهر . ويذكر أيضا أن رئيس الوفد في كل مرة هو سليمان يرافقه ١٢ رجلا من العرب. ومن اليقين أن مدة وجيزة نحو شهرين لا تكفي لفارس أو راجل أن يقطع تلك المسافة البعيدة بين عاصمة الصين وهي " جانغ – آن " وبين دار الخلافة وهي في دمشق. فهاتان السفارتان إذن لم تكونا إلا من بلدة قريبة من حدود الصين ، وذلك لا شك فيه .

أما رئيس الوفد سليمان، فمن كان وما علاقته بالعرب فيما وراء النهر؟. ويظهر من تاريخ العرب في آسيا الوسطى، أنه سليمان بن أبي الساري الذي اشترك في محاصرة " خجند"، بلدة قريبة من كشغر تحت قيادة سعد بن عمر الحراشي، وكان ذلك في سنة ٧٢٢م. ولعل سعد بن عبد الله بعثه إلى الصين سنة ٧٢٥م لكسب صداقة إمبراطور الصين وترغيبه عن مساعدة الأتراك الذين كانوا يعرقون طريق العرب في فتوحاتهم إلى الشرق، ويقضّون مضاجع حكوماتهم التي لم تستقر بسبب النزاع القائم بين اليمنيين والمضريين في تلك البقاع من أرض الله.

يخبرنا تاريخ الصين بورود وفود العرب في سنتي ٧٢٨ و ٧٢٩م ولا يظن أن الوفد الذي قدم في سنة ٧٢٨م كان من بلاد العرب، لأن اسم رئيسه وهو "ديدو" كما ثبت في المصادر الصينية لا يدل على عروبة صاحبه. قال المصدر الصيني " جفويوانكوي " انه قائد من قواد العرب جاء إلى عاصمة الصين مع ثمانية آخرين من أصحابه فأنعم الإمبراطور عليه برتبة الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه مع أصحابه بالحفاوة والإكرام. ومن المحتمل أن هذا القائد تركي الأصل كان تحت حكم قائد من قواد العرب ببخارى أو سمرقند . وكان من بين عمال تلك البلاد، وقتئذ، نصر بن سيار وأسد بن عبد الله وسعيد بن عمر الحراشي، ولم أستطع أن أصل إلى معرفة من كان يشتغل معه "ديدو" من هؤلاء القواد الثلاثة، لأن سكوت المصادر الصينية والعربية حال بيننا وبين ذلك فاكتفينا بما أوردنا هنا. فالسفارة التي وقعت في سنة ٧٣٣م، كانت من جنيد، قائد من قواد العرب تحت إمارة نصر بن سيار في عهد الخليفة هشام الأموي وكان من بين الذين قد اشتركوا في فتح بخارى وسمرقند للمرة الأخيرة. وبناء على تحقيقات الأستاذ "جب" أن جنيدا قد اتصل بإمبراطور الصين في آخر عهده بسمرقند في سنة ١١٥ هجرية / ٧٣٣م ،

ويظهر من اسم رئيس هذه البعثة ، وهو مسلم ترخان، كما ورد في " فتوحات العرب لآسيا الوسطى " للأستاذ جب أن أصله من الترك، وأغلب الظن أن زملاءه الذين رافقوه إلى الصين أيضا من الترك. فالسفارات التي وردت إلى عاصمة الصين في سنوات: ٧٤١ و٧٤٤، ٧٤٧، م كلها من أعمال العرب بأوساط آسيا. فالتي ترأسها حسن، كما جاء في تاريخ الصين في سنة ٧٥١م كانت من الشاش. ولعل حسينا كان أحد الشخصيات البارزة التي تحت سيادة نصر بن سيار في آسيا الوسطى لأنه كان موصوفا بزعامة العرب في تاريخ الصين، فأنعم عليه الإمبراطور برتبة القائد اليمين، وخلع عليه خلعة سنية مع منطقة منسوجة بخيوط الذهب . يقول الأستاذ جب إن نصر بن سيار بعد أن استقر في سمرقند ، بعث عدة سفارات إلى الصين، واحدة منها في سنة ٧٤٤م ، وكان ذلك لتنظيم العلاقات التجارية تنظيما متقنا. وكان مع هذه السفارة وفود من الصغد وتخارستان والشاش وزابلستان. وأما السفارتان اللتان في سنتي ٧٤٥ و ٧٤٧م فكانتا أيضا منه لأنه أول من شعر بأن أركان الحكومة بما وراء النهر تحتاج إلى دعم الطبقات المتوسطة ، خصوصا طبقات التجار والزراعيين. وقد فعل بقدر استطاعته كل ما يلزم لإنهاض التجارة في الولايات التي كان والياً عليها .

وبقيام الخلافة العباسية في سنة ٧٥٠م ابتدأت العلاقات الدبلوماسية بين خلفاء بغداد وأباطرة الصين، وأهم السفارات التي وقعت في هذه الأيام ما كان مبعوثا من قبل أبي العباس مؤسس الدولة العباسية وأبي جعفر المنصور مؤسس دار السلام، وهارون الرشيد بطل العهد الذهبي. وكان العباسيون في تاريخ الصين معروفين باسم " خي تاشي" أي العرب ذوي الملابس السود تمييزاً لهم عن الأمويين الذين عرفوا باسم "بي تاشي" أي العرب ذوي الملابس البيض. وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن بين ٧٥٠ و٨٠٠ م لكنه لم يذكر أغراضها ولم يلم بتفصيلها سوى أنه قال أنها جاءت إلى الصين لزيارة ودية أو لتقديم الهدايا. وبناء على ما ورد في "جفويو فكوي" إن هذه السفارات وقعت متتابعة في سنة ٧٥٢ و٧٥٣ و٧٥٤ و ٧٥٥ و ٧٥٦ و ٧٥٨ و ٧٦٠ و ٧٦٢ و ٧٦٨ و ٧٧٢ و ٧٩١ و ٧٩٨ م . ويروي هذا المصدر أن ثلاث سفارات قد وصلت في سنة ٧٥٤م في الشهر الثالث لتقديم الحاصلات وفي الشهر الرابع لزيارة ودية وفي الشهر الثاني عشر لتقديم ٣٠ جوادا هدية إلى إمبراطور الصين. وأما السفارة التي جاءت في سنة ٧٥٦ م فكانت مشتملة على ٢٥ عضوا ورئيسها من زعماء العرب الكبار .

ومن المصادفات الغريبة أن سفارة العباسيين التي وردت إلى عاصمة الصين في سنة ٧٥٨م وكانت مشتملة على ستة أعضاء اجتمعت مع سفارة من بلاد الأواغرة وكانت مكونة من ثمانين عضوا. فكانت كل جماعة تريد أن تدخل قاعة التشريفات قبل غيرها فتنازعتا عند الباب، فإذا بأمين التشريفات يصلح ما بين الجماعتين بإدخال كل جماعة من باب مستقل. واستمرت علاقات الصين بالعرب والمسلمين طوال عهد أسرة "سونغ" التي حكمت الصين أكثر من ثلاثمائة سنة [٩٦٠-١٢٧٦ م] حتى سقوطها بيد المغول. ويمكن معرفة نوعية الهدايا التي كان الخلفاء يرسلونها لأباطرة الصين من خلال قائمة من الأغراض حملها معه تاجر عربي عظيم إلى كانتون ويدعى إبراهيم بن إسحاق الكوفي الذي تعلم اللغة الصينية وأجاد أدبها حتى صار يطلق عليه لقب الصيني. وقد قدم تلك الهدايا للإمبراطور الصيني " سونغ تاي جونغ " مشفوعة برسالة باللغة الصينية جاء فيها ما يلي:

ترجمة الرسالة المقدمة إلى إمبراطور الصين :

من ربان العرب إبراهيم .

" إن الكواكب لا تحيط بالقمر ، والأنهار لا تسير إلا إلى البحر، كحكمة الرحمة التي تجلب قلب غريب إلى الطاعة، أو كسياسة اللين التي تجذب أذن بعيد إلى السمع والطاعة وذلك لأن أوصاف صاحب الجلالة على قوانين السماوات والأرض منطبقة وسياسته كالكواكب السبع في مسالكها دائرة وعواطفه على أهل البلاد كالأنهار جارية وإحسانه إلى الأمم بالجهات الأربع كأمطار الرحمة بالغة فيمدحه أقوام غير متمدنين وأتوا إليه بنوادر التحف وافدين .

كنا في بلاد نائية، فيها عادات مختلفة، فطرق آذاننا صيت ركن الدولة الزاهرة فتحركت القلوب الراجفة إلى رؤية الشمس والآمال في وجه السماء. كنا بأوطاننا فجاء أمر من رئيس الجالية الأجنبية بكانتون يطلب حضورنا إلى العاصمة، تمجيداً لمحاسن صاحب الجلالة وإجلالاً لفيضان العواطف الملكية على الأجانب، بمرسوم سام من ذات جلالته العالية إلى صاحب كانتون ترخيصا بفتح أبواب الموانى للمتجر من البلاد القاصية. فركبنا البحر ورافقنا بعض الخدام بنية حضور القصر ذي التنين، تيمناً برؤية موطن الإمبراطور وتبركا بإرشاداته الحكيمة وتبريدا للقلوب الظامئة. وصلت الآن إلى مدينة كانتون غير أنني لا أستطيع مواصلة السفر إلى الباب العالي بسبب الضعف والشيخوخة، والمرض الذي منعني عن المشي والحركة، فالأماني في قصد العاصمة العامرة ، وهذه حالتي تثير الأعين باكية والقلوب ثاكلة.

ومن الاتفاق أن يحضر [لياف] العاصمة وافدا، فوكلته في تقديم هدية حقيرة إلى السدة الإمبراطورية مشتملة على قطعات من برنيان وأدوية وغيرها من حاصلات بلادنا، فأرجو التفضل بالقبول :

وتفاصيلها :

١ – العاج ...	خمسون عددا
٢ – الكندر ...	ألف وثمانمائة رطل [صيني]
٣ – البرنيان الأحمر...	قطعة واحدة
٤ – البرنيان الملون...	أربع قطع
٥ – قماش الجوت ...	قطعتان
٦ – التوتيـــا...	قارورة واحدة
٧ – أعجوبة غريبة...	قطعة واحدة
٨ – مـــاء الورد ...	مائة قارورة .

فتفضل الإمبراطور وأنعم على إبراهيم بن إسحاق برسالة ثنية يشكر له فيها هداياه شاهداً على القبول، كما أنعم عليه بخلعة الشرف وصناعات فضية في مقابل هداياه .

ولم يعد إبراهيم بن إسحاق إلى دياره، فقد طاب له العيش في الصين واستقر في كانتون، وبعد ذلك بخمس سنوات، أي في عام ٩٩٥م، جاء ابنه ويدعى عبد الله يحمل للإمبراطور هدايا أخرى هي :

١– الكافور...	مائة مثقـــال
٢ – سرو كلاب البحر...	مائة عدد
٣ – ملح التين...	في علبة فضية
٤ – الزئبق...	٢٦ قارورة
٥ – السكر ...	ثلاثة جرار كبيرة

٦ – التمر ... ستة صناديق

٧ – التوابل... ست قوارير

٨ – مساء الورد... عشرون قارورة

٩ – البرنيان... قطعتان

١٠– المنسوجات الصوفية... ثلاث قطعات

١١– منسوجات الجوت... ثلاث قطعات

١٢– سلطان الكندر... عدد واحد

فلما ورد أبو عبد الله إلى العاصمة جاء أمين القصر ودله على قاعة التشريفات، فلما مثل بين يدي الإمبراطور، قال بواسطة الترجمان أن أباه إبراهيم قد أبحر إلى كانتون لطلب أسباب الرزق وكسب المنافع فلم يرجع منذ خمس سنوات، فجاء بأمر الوالدة للبحث عنه فوجده في مدينة كانتون. ولقد تكلم عن إنعامات الإمبراطورية من رسالة وخلعة وعمامة مزركشة مزخرفة بزهرتين فيهما صورتان للعنقاء، إحداهما مفروشة بخيوط الفضة والأخرى بخيوط الذهب، وعشرين قطعة حريرية، فأمرني أن أحضر إلى العاصمة لرفع كلمة الشكر إلى السدة السامية على هذا العطف الكريم وتقديم بعض أشياء حقيرة من حاصلات بلادنا، فسأله "سونغ تاني جونغ" عن بلاده فأجاب قائلا :إنها قرية من بغداد، وتحت أمر حاكمها وواقعة بين الجبال والبحار .

ثم سأله : " ماذا تحصلون من جبالكم وبحاركم ؟

فقال : " الفيلة والكركدنات والأدوية !

قال له : " بأية حيلة تصيدون الفيلة والكركدنات ؟

قال :" أما الفيلة فتخدع بالفيلة وتربط بالحبال، وأما صيد الكركدان فيصعد الصياد إلى الأشجار العالية أخذا الأقواس والسهام منتظرا ظهورها ومجيئها فيقتلها بالسهم، وأما صغارها فلا تحتاج إلى الرمي بالسهم ، بل كفى باليد صيدا .

فأمر الإمبراطور بأن يخلع عليه خلعة وينعم عليه بأشياء أخرى ثمينة وأنزله عنده ضيفاً عدة شهور ، ثم ودعه بحفاوة وإكرام، ورد الهدايا بأحسن منها من ذهب وحرير وشكر له ما بعث به إليه أبوه . {انظر: " العلاقات بين العرب والصين "، لبدر الدين حي الصيني ، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٠ ،الصفحات من ١٩٤ ولغاية ٢٠٥ } .

(٥٥) وفي بعض الأحيان كانت السفارة من العرب ترد معهم في وقت واحد ، فمثلا السفارة التي جاءت في سنة ٩٩٧م كانت معها سفارة من فاليمبانغ بجنوب سومطرة . فقد اشتركتا في الاحتفال بعيد القناديل وحضر أعضاؤها وليمة هذا العيد .

أما أسماء رؤساء السفارات فقد دون تاريخ الصين بعضها دون بعض، وذكر أن مجيبا هو اسم لرئيس السفارة المبعوثة في سنة ١٠٠٠م، من ربان عربي، فتكرم الإمبراطور بمنحه خيلا مسرجة مع رسالة تفيض بالعطف والكرم ، والتي جاءت في ١٠٠٣ م كان رئيسها أبا رشيد الساماني وأهدى إلى الإمبراطور مقدارا عظيما من اللآلي والجواهر. ومن اسم الرئيس نعرف أن هذه السفارة لم تكن من العرب، بل من الدولة السامانية التي كانت بينها وبين الصين علاقات من قبل ذلك الأوان كما سترى.

فكان الرئيس للسفارة التي وردت ١٠١٩م أبا محمود التبريزي ونائب الرئيس كان أبا قاسم، وقد دخلوا الصين بطريق البر. وكان أول بلد وصلوا إليه هو "شانشو" ثم ولاية "قانصو" ثم " جانشو" . ومن هذا القول نعرف أنهم جاؤوا من إيران. ومن المعلوم أن إيران قد وردت منها

عدة سفارات في هذه الأيام لأن الحديث عنها يوجد في تاريخ الصين. فمثلا في سنة ١٠٢٢م جاءت منها سفارة عن طريق البر فوصلت أولا إلى كانتون ، ثم إلى العاصمة، وكان رئيسها أبا سعيد، كان رجلا فاضلا نال منزلة عالية عند الإمبراطور حتى وظفه في الحكومة وجعله مديرا لإدارة التوظيف والخدمة في مدينة "وويتينغ" وهي " نانتشانغ Nanchang " الآن ،

وجاء في تاريخ الصين حديث عن سفير اسمه سعادت نور، كان مأمورا في سنة ١٠٦٨م في إدارة المراقبة على الأجانب فترقى إلى منصب القاضي بكانتون، ويظهر أنه كان ذا ثروة وفيرة فاقترح تحسين مدينة كانتون على نفقته الخاصة، فلم يقبل صاحب المدينة ذلك. وفي سنة ١٠٧٤م بعث شخص من رؤساء تبريز، وقد حفظ تاريخ الصين اسمه في رسم " أبي تبريزي " ابنا له يسمى محمودا إلى عاصمة الصين لتقديم الهدايا إلى الإمبراطور وكان يلبس الملابس العربية، كما ورد في " علاقات الصين القديمة بالعرب ". وفي السنة نفسها، وردت سفارة من الموصل ومن مالابار . ويذكر تاريخ الصين أيضا وصول سفارات إسلامية في سنة: ١١١١ و ١١٣٩ و ١١٣١، لكنه لم يذكر من أية بلاد كانت، ولا أسماء الرؤساء. وأغلب الظن أنهم جاؤوا من العرب الذين كانوا بالبلاد المجاورة للصين .

هـذا من جهة العلاقة الدبلوماسية بطريق البحر، وأما من جهة طريق البر، فقد نقل مؤلف " علاقة الصين القديمة بالعرب " عن تاريخ [كين] قائلا : إن سفير الدولة السامانية قد ورد إلى عاصمتها بشمال الصين في سنة ٩٢٤م أتى بالفيل هدية إلى ملوك[كين] ويطلب يد ابنته لأحد الأمراء السامانيين. وفي سنة ١٠٢١م جاء السفير مرة أخرى إلى عاصمة [كين] وهو أحد الأمراء الكبار من الدولة السامانية وزوجها بابن سلطانها. فمملكة "كين " المعروفة في تاريخ الصين قبل أيام المغول هي التي اشتهرت في الكتب العربية باسم "ماصين " وفي الكتب الفارسية باسم " ماجين" . وكانت لها علاقة متينة بالدول السامانية منذ يوم تأسيسها بأوساط أسيا. وكانت في بادئ الأمر منحصرة في ناحية التجارة كما أشرنا إليها من قبل، ثم اتسعت إلى الناحية السياسية والدبلوماسية. فقد جاء ذكر هذه الناحية في الكتب العربية فضلا عن الكتب الصينية، ولعل أبا دلف مسعر بن مهلهل الينبعي، هو أول العرب الذين كتبوا عنها، ثم نقل عنه ياقوت والقزويني. وأما أبو دلف هذا، فكان رئيسا لبعثة رسمية أرسلها نصر بن أحمد الساماني إلى إمبراطور "كين" بسندابل . ومن كلامه أن ملك الصين واسمه "قالين بن الشخير " هو الذي بعث رسولا إلى نصر بن أحمد أولا، راغبا في مصاهرته وطامعا في مودته. وكان يريد أن يخطب ابنة نصر لابنه، فأبى ذلك نصر واستنكره لحظر الشريعة زواج المسلمة من غير المسلم ، غير أن قالين استرضاه بتزويج بنته بابنه، فأجاب إلى ذلك فانتهز أبو دلف هذه الفرصة وقصد بلاد الصين على رأس بعثة دبلوماسية لنصر بن أحمد إلى إمبراطور "كين" ، فسلك بلاد الأتراك التي ذكرناها عندما تكلمنا عن تجارة البر إلى الصين، حتى وصل مع رفاقه إلى مدينة سندابل ، وبها دار الملك قالين. فعرض الرسول عليه ما جاء لأجله، وهو طلب يد بنت قالين لنوح بن نصر، فأجابه إلى ذلك فأحسن مثوى أبي دلف ومن معه من الرجال، وأقاموا عنده ضيوفا مدة حتى انجزت أمور المرأة وتم تجهيزها فسلمها إليه يرافقها نحو مائتي خادم وثلاثمائة جارية، فحملت إلى نوح بن نصر بخراسان فتزوجها فتولدت عن هذا الزواج علاقة متينة بين دولة السامانيين وبين مملكة "كين" بشمال الصين . (انظر: المرجع السابق نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠) .

(٥٦) انظر: بدر الدين حي الصيني، " العلاقات بين العرب والصين "، ص ١٦٦-١٦٧.

(٥٧) خانفو هي مدينة كانتون الصينية الحالية .

(٥٨) انظر: العلاقات بين العرب والصين "، ص ١٦٧.

(٥٩) المرجع السابق نفسه، الصفحات من ٣٨ إلى ٤١ . وانظر أيضا للمؤلف نفسه، " تاريخ المسلمين في الصين "، منشورات دار الإنشاء {طرابلس – لبنان}، ص ٢٢ .

(٦٠) ذكره بدر الدين حي الصيني في كتابه " العلاقات بين العرب والصين "، وفي كتابه " تاريخ المسلمين في الصين ""، ص ٢٣ .

(٦١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣ .

(٦٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧ .

(٦٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧، وذكر المؤلف أن المستشرق الفرنسي الشهير " ويسير " قد كتب فصلاً خاصا في كتابه المعنون بـ" دراسة عن المسلمين في الصين " عن السيد الأجل وعمله في نظام الري في يونان .

(٦٤) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧ .

(٦٥) انظر: بدر الدين حي الصيني، " العلاقات بين العرب والصين " ، ص ٢٠١ .

(٦٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠١ .

(٦٧) ووفقا لقائمة المناصب الرسمية في الإمبراطورية المغولية {أسرة يوان} التي أوردها المؤلف الصيني بدر الدين في كتابه " تاريخ المسلمين في الصين "، نجد الأسماء الآتية من المسلمين في المناصب العالية :

الاســم	المنصب الرئيسي	وظيفة قام بها
– حســن	يوجينغ	المساعد الأول لرئيس الوزراء
– دولة شاه	توجينغ	المساعد الثاني لرئيس الوزراء
– بدر الدين	توجينغ	المساعد الثاني لرئيس الوزراء
– السيد الأجل	بينغ جانج	مستشار سياسي
– أحمــد	بينغ جانج	مستشار سياسي
– سيف الدين	بينغ جانج	مستشار سياسي
– بيــان	بينغ جانج	مستشار سياسي
– عــلاء الدين	بينغ جانج	مستشار سياسي
– فخر الدين	بينغ جانج	مستشار سياسي
– عبيد الله	بينغ جانج	مستشار سياسي
– بيان جبــر	بينغ جانج	مستشار سياسي
– قطب الدين	بينغ جانج	معاون مستشار سياسي
– شمس الدين	-----	مستشار الدولة

وبناء على القائمة التي أعدها الأستاذ وو تينغ هسيوه Prof. Wu Ting Hsiueh ، كان عدد المسلمين الذين ولوا المناصب العالية في الإمبراطورية المغولية قد وصل إلى ثلاثين شخصا ، كما ذكرت إدارات المنطقة التي كانت تحت اختصاصهم وإشرافهم، وكانت منها ولاية "قانصو" و" يونثان" و "سيتشوان" و "شنسي" و " جينكيانغ" و "هانان" و " كيانبي"، و "ليوبانغ" وغيرها. هذه هي المقاطعات التي يوجد فيها أكبر عـدد من المسلمين حتى اليوم [قبل استيلاء الشيوعيين على الصين].

وفي ضوء ما قاله رشيد الدين فضل الله المؤرخ الإيراني الشهير المتوفى سنة ١٣١٨م في كتابه "جامع التواريخ" إن الإمبراطورية المغولية تحت قوبلاي خان كانت منقسمة إلى ١٢ ولاية، وكان على ثمانٍ منها حكام مسلمون في السنوات المختلفة يساعدهم في أغلب الأحيان وكلاء من المسلمين وهذه الولايات هي :

١ – الولاية الثانية التي كانت عاصمتها مدينة "تشوان تشو" الواقعة على طريق "تانيغ" أي "ليوبانغ" الحالية في منشوريا. وكان الحاكم عليها هو علاء الدين بينغ جانج بن حسام الدين المغالي، وكان وكيل الحاكم هو حسن توجينغ .

٢ – الولاية السادسة التي كانت عاصمتها هي "خناي" وهي مدينة "هانغ تشو" الحالية في مقاطعة "جيكيانغ" وكان الحاكم عليها هو علاء الدين بينغ جانج بن سيف الدين ويعاونه وكيل اسمه عمر ينيغ جانج وله مساعد يسمى خواجة طوسي بينغ جانج .

٣ – الولاية السابعة التي كانت عاصمتها "فونتشو" الواقعة في مقاطعة "فوكين" اليوم، وكان حاكمها الأول هو إخوان داشمن، ثم عين أمير عمر أخو بيان بينغ جانج حاكما عليها. وأما ميناء "تشوان تشو" على ساحل "فوكين" فقد كان تحت إشراف بهاء الدين القنفوزي.

٤ – الولاية الثامنة التي تسمى "تانكوت" . كان عليها حاكم مسلم يسمى حسناً وهو أخو بيان بينغ جانج يعاونه وكيل يسمى حسناً أيضا وهو من إخوان لاشين .

٥ – الولاية التاسعة التي سماها العرب "صين الصين" أو "صين كلا" أي الصين الكبرى. وكان الحاكم عليها هو ركن الدين التتري بينغ جانج.

٦ – الولاية العاشرة هي "كارجانغ" التي كان أكثر سكانها مسلمين، وكان الحاكم عليها هو باغان بك من أبناء علي بك من عائلة بلواج.

٧ – الولاية الحادية عشرة هي "تانكوت" [شيني] التي كان الأمير أننسد ، ثم تيتميس أخو داشمن حاكما عليها ومعاونة عمر الخطائي وبورت أننسد .

٨ – الولاية الثانية عشرة هي "كانتشو" [قانسو] الحالية وكانت جزءا من "تانكوت" ، وكان الأمير خوجة حاكما عليها .

(٦٨) وعلاوة على إدارة " الطب الخيري" فقد أسست حكومة الإمبراطورية المغولية في الصين كليتين إسلاميتين للطب والمعالجة: إحداهما في "تادو" [العاصمة الكبرى] وهي بكين اليوم ، والأخرى في "شاندو" [العاصمة العليا] وهي مدينة "كاي بينيغ" في ولاية "جاهار" اليوم. وكان ذلك لدراسة الطب الإسلامي والأبحاث فيه .

وأما إدارة المدفعية فقد أسست في السنة الحادية عشرة من جلوس الإمبراطور "جي يوان" الموافقة لـ ١٢٧٤م، ثم غير اسمها إلى إدارة المدفعيين ومركز التدريب للفن المدفعي تحت إشراف داروغة خواجة يساعده قائد لعشرة آلاف من المدفعيين ووكيل القائد من الرتبة نفسها وجماعة من الأخصائيين الفنيين والمستشارين والموظفين الاداريين ومترجم ومراقبان .

(٦٩) المرجع السابق نفسه، ص ٢٨ .

(٧٠) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ٢٠٨ .

(٧١) انظر : القلقشندي، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة "، السفر الثاني، ص ٢١١ .

(٧٢) هو الذي هزم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في بلاد الشام، [انظر: هاني المبارك، "الناصر محمد بن قلاوون"، سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي "، ص ٨].

(٧٣) المرجع السابق نفسه، ص ٨ .

(٧٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١١ .

(٧٥) جاء في " صبح الأعشى " ، المجلد الخامس، ص ٤٦٠، أن الجاشنكير هو الذي يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفا من أن يدس عليه سم ونحوه .

(٧٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٢ .

(٧٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٢ .

(٧٨) انظر : العلامة عبد الرحمن المشهور بـــ " شمس الظهيرة " ، تحقيق محمد ضياء شهاب، الجزء الأول ، ص ٨٣ .

(٧٩) المرجع السابق نفسه، ص ٧٤١ .

(٨٠) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت "، الجزء الثاني، ص ٥٥٩ .

(٨١) كانت جدران منازل سمرقند وأفراسياب وبخارى، قبل الإسلام، تزين عادة بصور ملحمية كبيرة تعكس ثراء أصحابها. وقد سجل الشاعر الإيراني الفردوسي تلك الصور في ملحمته "الشاهنامة"، كما كانت الأيقونات المسيحية والمانوية والبوذية منتشرة في غرب إيران، في حين كانت الأيقونات المزدكية منتشرة في شرق إيران. ومما كان يميز تلك الأيقونات جميعها أنها كانت تخلو من التماثيل أو الصور التي تعبد، وتقتصر على مجرد لوحات بشرية ملونة تزيينية .
[انظر : " The Golden Age of Persia: The Arabs in the East " ،Richard N. Frye
منشورات History of Civilization لندن ١٩٧٤، ص ٤١ .

(٨٢) انظر : شهيد آية الله مرتضى المطهري، " الإسلام وإيران " ، ص ٣٢٤ .

(٨٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٤

(٨٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٨٥) المرجع السابق بالإنكليزية [٧٦] ، ص ٢٨ .

(٨٦) المرجع السابق بالإنكليزية ، ص ٢٩ .

(٨٧) غزنة مدينة تقع في أفغانستان حاليا .

(٨٨) المرجع السابق [٧٦] بالإنكليزية ، ص ٣٥ .

(٨٩) دمر القائد العربي يعقوب بن ليث معبداً بوذيا في مدينة " باميان " في أفغانستان عام ١٩٩ هجري، كما يوجد معبد بوذي آخر في " قادبهار " أو " فيهار " في مدينة بلخ .

(٩٠) المرجع السابق [٧٦] بالإنكليزية ، ص ٦٧ .

(٩١) المرجع السابق نفسه، ص ٤٤. والاسم القديم لسمرقند هو " مارا كندا " ، كانت أهم مدن "زارافشان " ويحكمه حاكم يلقب " خشيد " وهو لقب كان سائدا في فرغانة أيضاً، وقد حرفه العرب ليصبح " طرخون " .

(٩٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢٨. ومن المعلوم أنه بعد مقتل أبي مسلم الخراساني بأمر الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ثار شخص إيراني آخر يدعى "سندباد" على الخلافة وخلع الطاعة، وكان أتباعه مزدكيون وزرداشتيون في معظمهم مع بعض ولاة المسلمين المؤمنين بعودة المهدي المنتظر، لأن تلك العودة تتقاطع مع التعاليم الزرداشتية التي تقول بأن هناك مهدياً منتظراً في مدينة النحاس واسمه " قاهرام فارجافان " . وقد لقي سندباد حتفه على يد حاكم طبرستان .

(٩٣) غادر آخر المانويين العراق إلى سمرقند في عهد الخليفة العباسي المقتدر [٩٠٨-٩٣٢م]، وفي عام ٣٦٩ هـــ /٩٧٩م هاجم المسلمون في شيراز بقايا الزرداشتيين فهربوا إلى الهند والصين،

ولم يتحسن وضع الزرداشتيين في دار الإسلام إلا في عهد البويهيين ، خاصة في زمن عضد الدولة الذي لقبه الشاعر الكبير المتنبي بملك الملوك. ومن المفيد ذكره أن ابن المقفع مؤسس علم النثر العربي ومترجم القصة المشهورة "كليلة ودمنة " عن الهندية كان مانويا واتهم بالزندقة وتم قتله عام ١٣٩ هـ/٧٥٧ م ، وقد كان اسمه قبل أن يسلم " روزبية " وقد ألحقت تهمة الزندقة أو الانتماء إلى المزدكية بأدباء مشهورين مثل الشاعر بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس. وكان المسلمون ينظرون إلى المزدكية نظرتهم إلى بدعة زندقة، في حين كانوا يتساهلون أكثر مع المانوية التي تقترب بر أيهم إلى حدود " العقيدة الفلسفية " .

(٩٤) صبغ السلطان محمود الغزنوي حروبه في الهند صبغة إسلامية ، فكان جنوده يتقدمون في حروبهم باندفاع وحماس إلى الجهاد الإسلامي المقدس. وسيرة السلطان الغزنوي في جانب الهند ليست غريبة في الشبه عن سيرة عبد الرحمن الداخل فاتح إسبانيا. {انظر: آية الله مرتضى المطهري، " الإسلام وإيران " ، طبع رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية " ، طهران ١٩٩٧، ص ٣٢١- ٣٣٢ }.

(٩٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٠٠ .

الباب الخامس

في جمقا وسلندوغ

جمال الدين الحسيني بين ملوك أنكور

[حوار الثقافات والأديان]

وأما جماعة الطالبيين في كوجرات فقد ازدهرت أحوالهم أكثر من ذي قبل بعد وفاة الامام عبد الله عظمة خان ودفنه في الهند واستلام ابنه أحمد رئاسة النقابة في مدينة كوجرات الدكن فتغير في عهده لقب رئيس الطالبيين من الامام إلى "السيد" دلالة على النسب الشريف إلى آل البيت . وعلاوة على لقب "السيد"، كان أحمد يحظى بالوجاهة الاجتماعية بحكم وراثته للقب "الأمير" من جده عبد الملك وأبيه عبد الله. وهكذا صار الناس ينادونه بـ " السيد أحمد شاه جلال " نسبة إلى مدينة جلال أباد الدكن. وكان للسيد أحمد سبعة أولاد هم: فاضل، علوي، نور العالم، قمر الدين، زين العابدين، محيي الدين، ثناء الدين، وجمال الدين الحسين[١]. وكانوا جميعهم يعملون في التجارة ويتمكنون من العلوم والفقه على يد كبار الشيوخ وفي مقدمتهم والدهم السيد أحمد شاه جلال. غير أن أصغرهم جمال الدين الحسين كان أكثرهم توقا إلى السفر خارج الهند ومواصلة رسالة نشر الإسلام في المناطق البعيدة إلى الشرق.

وتطبيقا للآية الكريمة " فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم"، وتكرارا لكل مسيرة الطالبيين منذ نهاية عصر الخلفاء الراشدين، فقد امتحن الطالبيون مرة ثانية وفي السند هذه المرة، وفي مدينة أحمد أباد تحديدا التي يحكمها أمراء مسلمون من آل طغلق، إذ خشي الأمراء من نفوذ الطالبيين ومن قوة كلمتهم في السند، فعمدوا إلى مضايقتهم، وتحالف بعض ملوك الهند الآخرين مع آل طغلق ضد الطالبيين فنشبت الحرب بين الطرفين .

وكان من عادة الطالبيين أن يحملوا السلاح معهم أينما ارتحلوا، وهي عادة كانوا قد اكتسبوها منذ هجرتهم من البصرة إلى اليمن، ولذلك لم يستطع آل طغلق أخذهم على حين غرة عندما عمدوا إلى مهاجمتهم في دورهم و أحيائهم في المدينة[٢]. ولكن توازن القوى كان في صالح آل طغلق وحلفائهم، فهاجر الكثير من الطالبيين إلى مدن أخرى في السند ومنها مدينتا جلال أباد وحيدر أباد.

وقد اغتنم جمال الدين الحسين ابن السيد أحمد شاه جلال الفرصة ليستأذن أباه في الهجرة خارج الهند باتجاه " جمقا " [*Jamgha*] فأذن له، وركب جمال الدين مع

عائلته وحاشيته سفينة اسمها " بركة الإسلام " أبحرت من ميناء كمباي في كوجرات باتجاه ميناء " جينيا كونغ " على خليج البنغال ومنها إلى " جمقا " أو بلاد الصنف كما يسميها الرحالة المسلمون عبر مضيق ملقا بعد أن مروا بطريقهم على جزيرة " أكياب" ليتزودوا بالمياه العذبة فيها، فوجدوا جالية مسلمة يعمل أفرادها في التجارة والزراعة وقد مضت على وجودهم في الجزيرة سنوات طويلة. وقد أخبر شيخ هؤلاء المسلمين مولانا جمال الدين أنهم كانوا قد قدموا أساسا من البنغال[٣].

اختار جمال الدين " جمقا " بسبب ما كان قد سمعه من التجار المسلمين عن جمال تلك البلاد وثرائها وخصوبة أرضها لنشر الدعوة الإسلامية، خاصة وأن جمقا تقع في منتصف الطريق بين الهند والصين حيث يوجد حضور إسلامي كبير، كما أنها تقع على طريق الأسفار البحرية الرئيسية، وبالتالي فمن الضروري أن تمر السفن الشراعية التي تقصد المشرق بهذه الشواطئ، وقد تبقى مدة من الزمن للتبادل التجاري مع السكان المحليين وخاصة لشراء العود من قمار وانتظار الرياح المواتية. وكان جمال الدين قد سمع من أبيه نقلا عن جده أن المسلمين قد وصلوا إلى جمقا قبل حوالي قرن و نصف من الزمن حيث دخلوا نهر " كمبوجا " بمراكبهم العديدة يريدون غزو مملكة " أنكور *Angkor* " الهندوسية الشهيرة. وكان العرب يسمون بلاد الصنف " سفالة الهند " ويقصدون بذلك ما يعم بورما وجبال الكامرون[٤] وممالك سيام والملايو وكمبوجا . وأول ما دخل الإسلام في منطقة " سفالة الهند " انما كان في موضع في التيبيت يقع أسفل " تيانغ تاغ – هوفانغ ها " وما يليها[٥] . وأما وصول الإسلام إلى بورما فقد حدث في الوقت نفسه الذي وصل فيه إلى جمقا تقريبا، إذ وصل تجار مسلمون إلى ميناء ساحلي قرب " رانكون *Rangoon* " سماه البحارة المسلمون من العرب والإيرانيين "سير إيام" أو ما معناه " مصب النهر " حوالي عام ٤٠٠ هجري في عهد الملك " آنا واراهانا " مؤسس مملكة " فاقن Pagan "، ثم في عهد الملك "ناراتي هاقات Narathi Hapate "[٦]. ثم استقر هؤلاء التجار على الساحل وأنشأوا مرفأ " بندر مكان "[٧] في منطقة تدعى " آراكن "[٨] .

والمهم هو أنه بعد إبحار استمر حوالي الأربعين يوما وصلت سفينة الشيخ جمال الدين الحسين إلى جمقا ورست في منطقة جبلية خلابة تحوطها الغابات الكثيفة من كل الجهات وتدعى " كوجينغ جينا " حيث دفع الشيخ مجموعة من البحارة لاستطلاع الداخل فعادوا بعد فترة يطمئنون الشيخ والمسافرين إلى أن المنطقة هادئة، وأنهم، أي البحارة، قد شاهدوا بعضا من سكان البلاد يعملون في أراضيهم الزراعية وتبادلوا معهم التحية. وبعد عدة أسابيع من رسو السفينة شرع الشيخ وأبناؤه يخرجون من مستوطنتهم قاصدين الداخل بغية استكشاف المنطقة والاتصال بسكانها والوقوف على هوية حكامها. وقد لاحظ أولئك القادمون الجدد أن البلاد آمنة على الساحل، وأن

الفلاحين يعملون في أراضيهم بحرية خلافا لمعظم الفلاحين الهنود والبنغاليين الذين يعاملهم أصحاب الأراضي من الملاك والمهراجات معاملة العبيد والخدم. واحتك الشيخ وصحبه بالناس فوجدوهم على ملة الهندوسية ولهم معابد ضخمة ونظيفة هي على النقيض من معابد الهندوس الهنود، غير أن أصحابنا اجتمعوا أيضا بدعاة بوذيين في بعض القرى ممن يقومون بالتبشير ودعوة السكان إلى الديانة البوذية دونما أن يعترض سبيلهم أحد من الشرطة أو الناس.

وكان أمير المنطقة على علم بوصول القادمين الجدد منذ أن وطئت أقدامهم الساحل، غير أنه تريث في الاتصال بهم ريثما يجمع بعض المعلومات عنهم. ولما توفر له ذلك أرسل يدعو الشيخ جمال الدين للمثول أمامه والتعرف عليه وعلى غايته من زيارة البلاد عن كثب. ولما حضر الشيخ إلى قصر الأمير في خفارة من الحرس الأميري، استقبله الأمير أحسن استقبال، ورحب به وتبادل معه بعض المعلومات المفيدة عن تاريخ كل من جمفا والمسلمين. ولاحظ شيخنا أن الأمير مطلع بشكل جيد ويعرف مدى قوة المسلمين في أسيا. وقد شرح الأمير لضيفه أن اسم بلاده القديم هو "فونان "[٩]، وأن الهنود حملوا إليها لغتها القديمة الشبيهة باللغة السنسكرتارية، والديانة الهندوسية. وبقيت البلاد على تلك الحال حوالي ثمانية قرون إلى أن ظهر ملك قوي من شعب البلاد الخمير اسمه "جايافارمان الثاني *Jayavarman II* " في عام ٢٠١ هجري وحد أقاليم[١٠] البلاد وأنشأ إمبراطورية قوية باسم " أنكور *Angkor* "[١١]، وقد توسعت الإمبراطورية حتى شملت الأراضي الممتدة من بورما إلى بحر "صندر فولات" أو بحر الصين الجنوبي، وازداد ثراء الإمبراطور فأمر بإنشاء سلسلة من المعابد الهندوسية الرائعة على امتداد البلاد[١٢].

سأل الشيخ جمال الدين مضيفه الأمير عن اسم الملك الحالي للبلاد وعن مدى قوته، فأخبره الأمير أن الإمبراطورية قد شهدت بعد "جايافارمان الثاني" عدة أباطرة مرهوبي الجانب مثل " إندرفارمان الأول *Indravarman I*" وسوريافارمان الثاني، ثم قال الأمير أنه أخبر جلالة الإمبراطور بقدوم وفد من المسلمين إلى الساحل وأن جلالته قد أمر بأن يمثلوا بين يديه[١٣].

شكر الشيخ الأمير على حسن وفادته كما عبر عن فائق سروره بالمثول في حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور" جايا فارمان السابع *Jayavarman VII*، وتم الاتفاق على أن تتحرك القافلة التي ستقود الشيخ وأتباعه إلى قصر الإمبراطور بعد يومين. وفي الوقت المحدد، فوجئ الشيخ وأتباعه بوصول موكب ضخم من الفيلة و قد أمسك بكل منها دليل ومعه بعض الحرس الأميري، فامتطى الوفد ظهور الفيلة وودعوا رفاقهم ونساءهم وأولادهم الذين بقوا ينتظرون عودتهم. ثم انطلق الموكب عبر الغابات متجها نحو الشمال، فتارة يجتازون الأدغال وطوراً يركبون في سفن تسير في نهر

كبير يسمى" نهر ميكونغ *Mekong* . ويبدو أن خط السير كان وفق خطة مسبقة هدفها التأثير على الوفد واظهار مدى قوة الإمبراطورية و تماسكها. وهكذا فقد توقف الموكب أكثر من مرة في معابد هندوسية رائعة الجمال قد أقيمت في الغابات النائية، ومنه معبد "أنكور وات *Angkor Wat*" الذي يعادل ارتفاعه الأهرامات المصرية وتتجه واجهته صوب الغرب أي باتجاه موطن الهندوسية الأصلي وهو الهند، وقد بناه الإمبراطور" سوريافارمان الثاني " واستغرق إنشاؤه ثلاثين عاما ، ودفن الإمبراطور فيه بعد وفاته. ومنها أيضا معبد " أنكور ثوم " الذي أمر ببنائه ليكون رمزا لقوة الإمبراطورية . وقد شيد المهندسون في المعبد مائتي تمثال ضخم أكبرها لوحة جدارية طولها حوالي ثلاثمائة متر وتمثل الفيل الملكي والطائر الأسطوري "غارودا *Garuda*" [١٤]. كما توقف الموكب في معبد "تا بروهم " الذي أنشئ في عام ٥٨٥ هجري ليمثل أوج قوة إمبراطورية " أنكور " وفي معبد " بانتياي سري " المخصص لتقديس جمال المرأة، وهو أقدم من سابقيه، فقد أنشئ في عام ٣٨٦ هجري ويقع جنوب العاصمة "أنكور" بحوالي عشرين فرسخا[١٥].

وبعد أيام وصل الموكب إلى قصر الإمبراطور الفخم في العاصمة حيث استقبل مسؤول التشريفات الشيخ جمال الدين وصحبه وقادهم إلى صحن القصر الداخلي ثم إلى القاعة التي يستقبل فيها الإمبراطور ضيوفه. وبعد استراحة قصيرة مثل الشيخ وصحبه في حضرة الإمبراطور الجالس على سدة مرتفعة عن الأرض لكي يكون أعلى من ضيوفه. ورحب الإمبراطور بالضيوف ثم استفسر منهم عن الإسلام والمسلمين مشددا على معرفة طبيعة العلاقات بين المغول الصينيين والمسلمين. ثم شرح الإمبراطور لضيوفه مدى قوة حكمه والأخطار التي تواجه الإمبراطورية عارضا على الضيوف الإقامة في ربوع البلاد مقابل التحالف معه ضد أعدائه السياميين[١٦] الذين يهددون استقرار البلاد سياسيا وعسكريا، ويبثون الدعاة البوذيين في أنحاء الإمبراطورية لنشر الديانة البوذية فيها وإحلالها تدريجيا مكان الديانة الهندوسية. وبطبيعة الحال، لم يكن أمام الشيخ أي خيار آخر سوى الموافقة على اقتراح الإمبراطور والتحالف معه وتقديم الوعود له بمخاطبة مسلمي الهنود ودعوتهم للتحالف مع " أنكور" ضد جيرانها. وعندما انتهت الزيارة جال الوفد في المدينة وتعرفوا على معالمها ثم حملهم الإمبراطور بالهدايا وعادوا بموكبهم إلى بلدتهم في الجنوب حيث طمأنوا أهاليهم وبقية المسلمين من أهل البلاد إلى حسن نتائج زيارتهم للإمبراطور في "أنكور". وما هي إلا فترة قصيرة حتى وضع هذا التحالف على المحك عندما طلب الإمبراطور من الشيخ مساندة قوته للتصدي لملك غيلون السيامي واسمه "فرامكايا " الذي غزا البلاد، ولم يتراجع الشيخ عن تعهده إذ أرسل ابنه إبراهيم زين الدين على رأس قوة محاربة مسلحة للقتال إلى جانب قوات الإمبراطور الهندوسي. واستطاع الإمبراطور أن يدحر الملك فرامكايا[١٧]

عن بلاده بعد معركة فاصلة بينهما شارك فيها المقاتلون المسلمون بكل شجاعة و قتل فيها العديد منهم. وبعد الانتصار زار ممثل الإمبراطور الشيخ جمال الدين وشارك في مراسم التعزية بالقتلى حسب الشعائر الإسلامية. وكان لمشاركة المسلمين إلى جانب الإمبراطور في التصدي للعدو الخارجي السيامي أكبر الأثر في انضواء عدد كبير من أهل البلاد تحت راية الإسلام وتحولهم إلى الإسلام، وصار المسلمون يطلقون على الشيخ جمال الدين الحسين لقب " مولانا الإمام ".

وما هي إلا أشهر قليلة حتى بعث الإمبراطور مجددا لمولانا الشيخ طالبا منه الحضور إلى قصره لأمر هام. ولما مثل الشيخ في حضرة الملك دعاه للجلوس و أخبره أن حرباً ضروسا اشتعلت في بورما بين المغول بقيادة قائدهم نصر الدين ابن حاكم ولاية يونان[١٨] وبين ملك بورما، وأن النصر قد حالف المغول. وقد أهدى البورميون فيلا أبيض للإمبراطور قوبلاي خان[١٩] استلمه القائد العسكري حسين، وهو شقيق القائد نصر الدين. وشعر الشيخ أن الأمير مسرور بانتصار المغول على البورميين لأنه كان يعتقد أن المغول لن يتوقفوا عند حدود بورما بل سيعبرونها إلى سيام حيث بإمكانهم القضاء على ملكها الذي يشكل أكبر تهديد لجمقا. وهكذا سيزول الخطر الأكبر الماثل أمام البلاد وعرش الأمير، كما أن كون المغول يمتون بصلة للإسلام سيعزز تحالفه مع المسلمين في جمقا وقد أخذ عددهم يزداد تباعا. وبطبيعة الحال فإن الشيخ أيضا شعر بسرور بالغ لمثل هذه الأنباء، ولكن لدواع مختلفة، إذ أنه أدرك لتوه أن شكلا من أشكال التحالف كان موجودا بين المسلمين والمغول إلى درجة تخول الإمبراطور المغولي تعيين قائد مسلم على جيوشه الجرارة، علاوة على أن ذلك كله يعني اقتراب النفوذ الإسلامي من حدود جمقا.

وبهذه المناسبة نعود إلى صاحبنا ماركوبولو الذي تركناه في قصر الإمبراطور المغولي قوبلاي خان. فقد ازداد نفوذه وأصبح آل بولو من الأثرياء وبدأوا يخشون مما يمكن أن يحدث بعد وفاة الخان. وكان قوبلاي قد صم أذنيه عن كل حديث يتصل بعودتهم إلى بلادهم فلبثوا في بلاطه عشرين عاما. ثم واتتهم الفرصة بمحض المصادفة فقد حدث أن فقد "أرغون " خان فارس وابن أخ قوبلاي أحب زوجاته إليه في سنة ٦٨٧ هجرية وكانت وصيتها وهي على فراش الموت ألا يشغل مكانها إلا أميرة من قبيلتها. ومن ثم أرسل أرغون السفراء إلى بلاط بكين ليعودوا بأميرة. ووقع الاختيار على "كو كاشين " وهي فتاة في السابعة عشرة من عمرها. وكان الطريق البري من بكين إلى تبريز تحف به أنذاك مخاطر الحرب.

واقترحت بعثة أرغون أن تعود بطريق البحر. وكانت قد التقت بالبنادقة الثلاثة فودت لو تتمكن من الإفادة بخبرتهم، ومن ثم التمست من الخان أن يرسلهم في صحبة الأميرة.

ووافق قوبلاي على طلب البعثة، وأمر بتجهيز أسطول يتكون من أربع عشرة سفينة وأغدق العطاء لآل بولو وبعث معهم برسائل الود إلى البابا وإلى ملوك فرنسا وإسبانيا وإنجلترا. وأقلع الأسطول من ميناء الزيتون[٢٠] متجها إلى جنوب بحر صندرفولات *Laut Cina Selatan* [٢١] إلى أن وصل إلى جزيرة الرامني *Sumatera*[٢٢] حيث رست سفن الأسطول الصيني في مملكة آتشيه وذلك في عام ٦٩٢ هجري، وقد فوجئ ماركو بولو وصحبه بأن الملك مسلم منذ عهد قريب ويدعى الملك الصالح. ولدى استقبال الملك لماركو بولو سأله هذا الأخير عن كيفية تحوله إلى الإسلام ومتى حصل ذلك، فأخبره الملك أنه تحول إلى الدين الإسلامي قبيل سنوات على يد شيخ عربي يدعى إسماعيل قدم من مكة المكرمة عبر مليبار بالهند، وأن الملك الصالح كان اسمه قبل أن يسلم مراح سيلاو *Marah Silau*[٢٣]. ثم تبادل الملك أطراف الحديث مع ماركو واستفسر منه عن طبيعة مهنته، وكاد الملك أن يمتعض من محدثه الإيطالي عندما استعمل هذا الأخير كلمة " سراسان" بدلا عن كلمة مسلم لأن في الكلمة الإيطالية شيئا من التعالي التمييزي الذي لا يعترف بالإسلام ديناً سماوياً وإنما عقيدة يسير عليها "السراسان" أي المسلمون، وهي كلمة تطلق على القوم الذين كانوا يحمون ثغور الإسلام في الاندلس وشمال أفريقيا. وبعد أن اعتذر ماركو بولو صفح عنه الملك وأمر باكرام الوفد الضيف. وقد استغل ماركوبولو ضيافة الملك فراح يعاين البلاد ويتوغل في مجاهلها بعيدا. ولولا مرافقة حراس الملك له لكادت قبائل آكل لحوم البشر تلتهمه وجبة شهية في إحدى المرات. وقد كانت تلك المغامرة تجربة لا تنسى بالنسبة له إذ لم يتجرأ بعدها على الخروج من المدينة، كما أصابته حمى بسبب الرعب مما حدث له. وقبل مغادرة الأسطول الصيني لآتشيه، اشترى ماركوبولو كمية كبيرة من الياقوت والجواهر النادرة لكي يتاجر بها في طريقه إلى إيران. ثم استأذن الوفد الملك الصالح بالمغادرة فأذن لهم وودعهم محملا إياهم بالهدايا وبخالص تحياته إلى الإمبراطور قوبلاي خان، وأقلع الأسطول باتجاه ساحل كرومندل ثم إلى هرمز حيث وصلها بعد أن مضت سنتان على مغادرة الأسطول لميناء الزيتون، ومات في هذه الفترة معظم الأشخاص الستمائة الذين رافقوا الأميرة وآل بولو فلم يبق منهم سوى ثمانية عشر شخصاً، والأنكى من ذلك أن الجماعة المكدودة وصلت إلى بلاد إيران لتعلم أن أرغون قد مات. ولما كانت الأميرة لم يقع نظرها عليه من قبل فلم يقلل من سعادتها أن تزف إلى ابن أخيه قازان الذي سرعان ما أعلن إسلامه وتسمى باسم محمود قازان. وقد امتعض ماركوبولو لهذا التطور غير المتوقع فأزمع على الرحيل نهائياً عن المغول[٢٤]. وبالفعل لم يطل المقام بآل بولو في إيران بعد أن انتهوا من مهمتهم فواصلوا سفرهم إلى البندقية بطريق تبريز والقسطنطينية فوصلوها في أواخر عام ٦٩٥ هجري بعد أن غابوا عنها أربعاً وعشرين سنة.

بعد رحيل ماركوبولو بسنوات، توفي السلطان الملقب بالملك الصالح في عام ٦٩٦ هجري ودفن إلى جانب الملوك السابقين في المقبرة الملكية في قرية " بلغ مي " ونقش على شاهدة قبره العبارات التالية باللغة العربية:

"هذا قبر المرحوم المغفور له التقي الناصح الحسيب النسيب الكريم العابد الفاتح السلطان الملقب بالملك الصالح "، ثم نقش بعدها الأبيات الشعرية الآتية:

إنمـــــا الدنـــــيا فـــــناء	لـــــيس للدنـــــيا ثـــــبوت
إنمـــــا الدنـــــيا كبيـــــت	نســـــجته العنكـــــبوت
ولقـــــد يكفـــــيك مـــــنها	أيهـــــا الطالـــــب قـــــوت
لـــــيس إلا عـــــن قلـــــيل	كـــل مـــن فـــيها يمـــوت (٢٥)

وتولى السلطة بعده ابنه السلطان محمد الظاهر الذي بقي في سدة الحكم حتى عام ٧٢٧ هجري حيث توفي بدوره ودفن إلى جانب أبيه. وقد نقش على شاهدة قبره العبارات التالية: "هذا قبر السعيد الشهيد المرحوم السلطان ابن السلطان، الملك الظاهر شمس الدنيا والدين بن الملك الصالح، توفي ليلة الأحد والثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ٧٢٦ من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وآله "(٢٦). وتولى الحكم بعد السلطان محمد الظاهر ابن السلطان أحمد .

وفي إيران توفي أيضا السلطان محمود قازان و ملك بعده أخوه " خدا بندا " بن أرغون الذي أسلم أيضا وتسمى باسم محمد غياث الدين، كما أوضحنا سابقا، وأدى إسلامه إلى انضمام عدد كبير من بلاط المغول في دار الإسلام طواعية وبدون حرب، وصار المغول في إيران سيفا ضاربا في خدمة الإسلام. وأما المغول الآخرون القاطنون فيما وراء النهر (مملكة جقطاي) وفي الصين (مملكة أقطاي) وفي بلاد القفجاق (مملكة خوجي) فقد بقوا وثنيين عموما، في حين تنصّر بعضهم. وهذه الفئة من المغول هي التي اجتاحت بلاد الشام بعد اهتداء قازان للإسلام وحمله لقب قازان محمود، وهي التي هزمت على يد المصريين في موقعة مرج الصفر جنوبي دمشق كما شرحنا سابقا. وعندما توفي خدا بندا محمد غياث الدين – وهو من أحفاد هولاكو – في عام ٧١٦ هجري، ملك بعده ابنه أبو سعيد وهو ابن ثلاث عشرة سنة، يعاضده الوصي على العرش جوبان الذي كان نائبا لخدا بندا. وقام جوبان بتدبير دولته، ثم عظم شأن أبي سعيد وقوي سلطانه، وانتظم الود بينه وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية سنة ٧٢٣ هجرية، وترددت الرسل والمكاتبات. ولما بلغ أبو سعيد سن الرجولة أنكر جميل جوبان عليه فأمر بقتله في عام ٧٢٦ هجري، ثم مات أبو سعيد سنة ٧٣٦ هجرية دون أن يعقب أي ولد فانقرض بموته ملك بني هولاكو، واختلف أهل دولته وافترقت الأعمال التي كانت بيده، وصار المغول طوائف.

ثم نصب أهل الدولة موسى خان، وهو من أسباط المغول على بغداد وتبريز وأعمالهما، وقام بتدبير دولته علي باشا، وهو من أمراء دولتهم[٢٧]. غير أن هذا التدبير لم يدم، فقد خرج الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا بن هولاكو المعروف بالشيخ حسن الكبير، وهو ابن عم السلطان أبي سعيد، من مسجد الروم حيث كان معتقلاً. ما إن وصل بغداد حتى خلع موسى خان ونصب مكانه محمد بن عنبرجي، وهو من عقب هولاكو، في حين استولى الشيخ حسن على بغداد وتبريز. ولم يرق هذا التدبير لحسن بن دمرداش من بلاد الروم فسار إلى الشيخ حسن وغلبه على تبزيز وقتل محمد بن عنبرجي، واستقر دمرداش بتبريز ونصب ملكة عليها " صاتبيك " أخت السلطان أبي سعيد، وزوجها لسليمان خان من أسباط هولاكو. ثم استولى أولاد جوبان على مملكة أذربيجان والسلطانية، في حين استولى الخان طغيمتر من بني جنكيزخان على خراسان وأعمالها. وأما مملكة الشمال التي قاعدتها مدينة السراي فقد انتقلت من طقطقاي خان إلى ابن أخيه أزبك بن طغرخان الذي أسلم واتخذ مسجدا للصلاة، وخطب له السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر بنتا من أقاربه، فزوجه إياها وبعث بها إليه إلى الديار المصرية. فلما وصلت العروس إلى دمياط حملت في النيل إلى ساحل بولاق ومنها إلى القلعة حيث مقر سكنها مع الناصر قلاوون. وكان هذا الزواج بمثابة تحالف غير معلن بين مغول إيران وبين مماليك مصر البحرية[٢٨].

والواقع أن وصول المماليك البحرية إلى الحكم في مصر هو عبرة لمن اعتبر، فقد كانت مصر في عهد الدولة الأيوبية دولة عسكرية في طبيعتها ووظيفتها، لذلك فإن تلك الدولة كانت تعمل على طلب الجند بأي ثمن كان، والإكثار من المماليك وخاصة في أيام سابع سلاطينها الصالح نجم الدين أيوب الذي اشترى منهم آلافا مؤلفة أسكنهم بجزيرة الروضة فسموا بذلك بالبحريين. وكان من الطبيعي أن يحوز هؤلاء المماليك الدولة عندما ضعف السلاطين، وهذا هو الذي حدث فعلا بعد موت الصالح نجم الدين أيوب وقتل ابنه توران شاه، إذ عجزت عصمة الدين أم خليل الملقبة بشجرة الدر عن مقاومة المماليك فغلبها إيبك التركماني وتولى السلطة سنة ٦٤٨ هجرية، وبدأت بذلك دولة المماليك الأولى المعروفين بالمماليك البحرية، وأعظمهم[٢٩] عز الدين إيبك، وسيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس والمنصور سيف الدين قلاوون. وكان البحريون قوادا عسكريين ممتازين وإداريين قادرين، وقد علا اسم مصر في أيامهم واتسعت سيطرتها وزاد رخاؤها وأصبحت مركزا للعلوم والآداب في العالم الإسلامي كله[٣٠].

ورغم استتباب الأمور بشكل قوي لصالح الإسلام في إيران والشام ومصر وشمال أفريقيا، فقد بقيت هناك بؤرة صدامية مقلقة مع الأفرنج في الأندلس ومع بعض أجنحة المغول الوثنيين فيما وراء النهر وحدود الهند. غير أن المناوشات المستمرة مع

الإفرنج في الأندلس لم تكن بشيء يذكر مقارنة مع الصراعات الدموية داخل الأسر الحاكمة في مدنها وخاصة غرناطة التي كانت وما معها من شرق الأندلس بيد الفقيه محمد بن محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر حتى وفاته سنة ٧٠١ هجرية، فملك بعده ابنه محمد المخلوع بن محمد فتمرد عليه أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه وقبض عليه واستولى على مملكته، فأساء السيرة في الرعية والجند فقبضوا عليه وملّكوا مكانه أبا الوليد إسماعيل بن أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الذي سرعان مالقي حتفه على يد أقاربه سنة ٧٢٣ هجرية فملك بعده ابنه محمد بن أبي الوليد إسماعيل حتى قتل غدراً سنة ٧٣٣ هجرية، وملك بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل[٣١]. وبطبيعة الحال فإن هذا الصراع على السلطة أضعف الدولة وأثار شهية الإفرنج الذين شددوا هجماتهم ضد المسلمين في الأندلس.

وهكذا يمكن إيجاز تقاسم السلطة وتوازن القوى السائد في العالم الإسلامي والآسيوي في تلك الأونة كالتالي:

مصر: فيها الخليفة العباسي الثالث، منذ سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو وانتقالها إلى القاهرة في عام ٦٥٨ هجري، المستكفي بالله الذي استلم الحكم بعد وفاة الحاكم بأمر الله في عام ٧٠١ هجري. وكان الخليفة رمزا للخلافة فقط في حين كانت الدولة بيد المماليك البحرية بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون .

تونس وأفريقيا : بيد السلطان أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص .

المغرب: بيد أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب يوسف .

الشام : بيد المماليك المصريين

بغـداد : بيد الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا بن هولاكو .

الأناضول: بعد انهيار السلاجقة تفتت القبائل التركمانية إلى عشائر ضعيفة متنازعة إلى أن ظهر قائد قوي يُدعى عثمان، بل ويساعده شيخ يُدعى أده بالي، واستطاع هذا القائد أن يعيد تجميع صفوف القبائل تحت شعار الجهاد، وألحق هزيمة نكراء بالبيزنطيين في عام ٧٢١ هجري مهيئاً بذلك الظروف لتأسيس سلالة العثمانيين لاحقا[٣٢].

اليمن: بيد الملك المجاهد سيف الدين علي بن الملك المؤيد من بني رسول.

حضرموت : دولة آل يماني المتصارعة مع دولة آل الحبوظي .

إيران:

١- تبريز بيد حسن بن دمرداش والملكة صاتبيك أخت السلطان أبي سعيد بن خدابند بن آرغون .

٢- أذربيجان: بيد أولاد جوبان نائب الملك خدابند ومدبر أمور الدولة أبي سعيد بن خدابند محمد غياث الدين.

٣ – خوارزم : بيد المغول الايلخانيين بني هولاكو .

٤ – خراسان : الخان طغيتمر من بني جنكيزخان .

٥ –مملكة الشمال: بيد أزبك بن طغرخان حليف السلطان الناصر قلاوون.

تلمسان و الجزائر : بيد أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن المريني .

غرناطة : بيد أبي الحجاج يوسف أبي الوليد إسماعيل من آل نصر .

الصيــن : بيد الإمبراطور المغولي قوبلاي خان .

ماوراء النهر : مملكة جقطاي المغولية بقيادة الملك محمود .

آتشيــة : بيد السلطان أحمد الطاهر بن السلطان محمد الطاهر .

جمقـا: تحالفٌ بين إمبراطورها جايافارمان السابع ومولانا الشيخ جمال الدين الحسين.

سيــــام : بيد الملك " فرامكايا " البوذي عدو إمبراطور جمقا .

جــــاوة : مملكة " ماجافاهيت .

الهنــــد : بيد سلاطين دهلي .

البنغــال : بيد سلاطين البنغال .

كان موقف مولانا الشيخ جمال الدين الحسين في جمقا قد تعزز أكثر من ذي قبل بكثير منذ أن وافقت آراؤه التفاؤلية بشأن الغزو المغولي الصيني لسيام، عدوة إمبراطور جمقا، آراء هذا الإمبراطور، وإمكانيةَ انعكاس ذلك ايجابياً على التنافس بين سيام وجمقا لصالح تلك الأخيرة. ونتيجة لتلك الأجواء الجيدة فقد ازداد تسامح الإمبراطور مع الجالية المسلمة، الأمر الذي أتاح لها فرصة الانتقال إلى مدن مجاورة مثل "كوجينغ جينا" و"هونا نترانغ" و " قاران " و" قوين كوئين". وغالبا ما كان الإمبراطور يدعو مولانا الشيخ إلى قصره لتبادل الرأي معه حول أوضاع البلاد. وقد حاول الشيخ أكثر من مرة أن يقنع الإمبراطور بالتحول إلى دين الإسلام، غير أن الإمبراطور كان يصده عن غايته متذرعاً بقوله أن ما يؤمن به هو دين أجداده وشعبه، وأنه، تالياً، لا يمكن له أن يحكم البلاد إذا تحول عن دين قومه إلى دين آخر. وفي جلسة من الجلسات التي اصطحب فيها مولانا الشيخ جمال الدين أولاده ابراهيم وعلياً نور العالم وبركات[٣٣] قص الإمبراطور على مسامع ضيوفه حكاية مملكة قوية حليفة

له تقع في نوسانتارا *Nusantara* [٣٤] الواقعة جنوب جزيرة " فوا فوا "[٣٥] ويحكمها ملك قوي يدين بالهندوسية أيضا، ولديه رعايا كثيرون يدينون بالبوذية وعندهم معبد بوذي هو الأكبر من نوعه كانت قد بنته لهم سلالة " شايلاندرا *Syailendra* حوالي عام ٢٥٠ هجري، واسم هذا المعبد "بوروبودور *Borobudur* ". وقد بنى المعبد في موقع يقال أن بوذا قد مر به خلال حياته[٣٦].

وفهم مولانا الشيخ أنّ الديانتين الهندوسية و البوذية منتشرتان بقوة في نوسانتارا؛ وفي أندلاس *Andalas*[٣٧]، وأن الديانة البوذية هي الأعم انتشارا منذ عهد مملكة " سريفيجايا *Sriwijaya* " القديمة التي استبدلت اللغة السنسكرتية، التي حملها معهم المهاجرون الهندوس القادمون من الهند، بلغة الملايو، وهم أهل البلاد الأصليون[٣٧]. غير أن البوذية عانت من الانقسام حوالي سنة ٢٠٠ هجرية إلى طائفتين دينيتين هما: "هنيايانا" وطائفة " ماهايانا "[٣٩] ومعناهما على التوالي " العربة العظيمة " و"العربة الصغيرة". وقد سار هندوس أندلاس أو هندوس سومطرة على هدى " هنيايانا " ثم قام وفد من كبار رجال الدين من طائفة "هنيايانا " بزيارة " سريفيجايا" ونشر تعاليمهم فيها، فنجحوا في ذلك وأصبحت البوذية في " سريفيجايا " تسير وفق تعاليم " هنيايانا "[٤٠]. وأما في " نوسانتارا " أو جاوا فقد كان الناس يدينون بالبراهمانية الهندوسية و يعبدون إلهين اثنين هما : " شيفا " و" فيشنو "[٤١]، ولهم معابد كثيرة خاصة في هضبة " دينغ *Dieng*" في جبال " براهو " الشاهقة[٤٢]. و شرح الإمبراطور لمولانا الشيخ أن مركز الهندوس الرئيسي في سومطرة هو ميناء فاليمبانغ الذي يعد المقصد الرئيسي للسفن الإسلامية والتجار المسلمين[٤٣] .

وأما في جاوا، وسطها وشرقها، فقد كانت توجد سلالة قوية أسسها ملك محلي يدعى " دارماوانغسا *Darmawangsa*"[٤٤]. وقد قام هذا الملك بعمل جبّار عندما أمر بكتابة القوانين والتشريعات باللغة الجاوية، كما أمر بترجمة ملحمة "مهابراتا " من السنسكرتية إلى اللغة الجاوية، وأسس هذا الملك مملكة قوية يهابها القاصي والداني من جيرانه، وأقام قوته على مزج ذكي لسلاح السياسة والحرب والثقافة، واستطاع ضم جزيرة بالي إلى حكمه. ومنذ ذلك الوقت صار ملوك بالي تابعين لملوك جاوا وأضحت اللغة الجاوية هي الرسمية في بالي. وبعد ذلك مد الملك سيطرته إلى جزيرة بورنيو، ثم انتقل إلى المهمة الأصعب ألا وهي القضاء على مملكة " سريفيجايا " البوذية القوية في الساحل الشرقي لجزيرة سومطرة . وهنا أوضح الإمبراطور لمولانا الشيخ جمال الدين أن مملكة " سريفيجايا " تلك كانت قوية إلى درجة دفعتها إلى غزو جمقا عدة مرات وفرض هيمنتها على بحر صندرافولات الصيني بكامله، في حين عقدت اتفاقات صداقة مع ملوك الصين و الهند[٤٥] .

حيث أن أحد ملوك سلالة "شايلاندرا" تلك التي تحكم مملكة "سريفيجايا" قد وصل إلى الهند في إحدى غزواته وقام بإهداء قرية تقع قرب " نيغاباتنام " على الساحل الجنوبي الشرقي للهند معبداً بوذيا(٤٦). وكانت قوة الملك "دارمافانسا " ضئيلة بالمقارنة مع قوة خصمه ملك " فالمبيانغ "، ومع ذلك عزم الأول على مهاجمة الأخير طوال سنوات ففعل دون أن يكلل هجومه بالانتصار. ولما أيقن " دارمافانسا " بعبثية المحاولة سحب قواته إلى مملكته في جاوا ، فما كان من ملك " سريفيجايا " إلا أن لحق بتلك القوات بحرا و برا واحتل عاصمة الملك ثم أحرق القصر الملكي الذي كان يدعى "كراتون [*Keraton*]" وقتل دارمافانسا فانهارت المملكة وتمزقت إلى إمارات صغيرة واختفى اسم مملكة دارمافانسا إلى الأبد وحل مكانه اسم مملكة "سريفيجايا" وغدت قوة مهيمنة على جزيرتي سومطرة وجاوا والجزر المحيطة بها.

ومع انتصار مملكة " سريفيجايا " انتشرت الديانة البوذية في الجزر على حساب الديانة الهندوسية، وذلك في وقت كانت البوذية تشهد فيه تراجعا قويا أمام الإسلام في الهند وأمام المغول في الصين، وأصبحت فاليمبانغ، عاصمة مملكة سريفيجايا البوذية، معقلها الرئيسي في سومطرة وفي العالم بشكل عام حيث صارت المدينة محجا لتلاميذ البوذية الذين يقصدون مدارسها الواقعة على ضفاف نهر " موسي [Musi]" (٤٧). ومن

في غرب جاوا[٤٩] الذي يحكمه أمير يضفي على نفسه من ألقاب العظمة ما يشغل ثلاثة أسطر لكي يضاهي بذلك قوة خصمه الملك "إرلانغا" في جاوا الشرقية. ولما كان الاثنان يدينان بالهندوسية المحلية، فقد عمد "إرلانغا *[Erlangga]*" إلى الأمر بتأليف ملحمة جاوية أدبية أطلق عليها اسم " أرجونا فيفاها " مشتقة من ملحمة " مهابهاراتا " الهندية، مع تعديل شخصيات الملحمة بحيث تصبح الشخصية الرئيسية فيها هي شخصية الملك " إرلانغا " نفسه المتجسد في حياة روح القديس "أرجونا *[Arjuna]*" [٥٠]. وهكذا سحب "إرلانغا " الشرعية السياسية من تحت أقدام خصمه السوندي وهمشه تهميشا كاملا داخل حدود إمارته، لاسيما وأن " إرلانغا " كان يمضي جل وقته في التأمل في صومعة الزهاد والنساك فنال بذلك دعم و تأييد رجال الدين وعامة الشعب. ولما مات " إرلانغا " في عام ٤٤٤ هجري انقسمت مملكته القوية إلى مملكتين يحكمهما كل من ولديه، فانهارت قوتها وسطوتها[٥١]. وبدلا من مملكة إرلانغا صار هناك مملكة " كاديري " و"داها " ومملكة " جانغالا " التي برز منها ملك قوي يدعى " جايا بايا " حكم من عام ٥٣٩ هجري إلى عام ٥٥٩ هجري واهتم ببناء ثقافة محلية جاوية غير أنه اضطر في عمله إلى الاقتباس من ملحمة " مهابهاراتا ". وأما مملكة " كاديري " فيبدو أن ملكها قد قرر الالتفات نحو القوة بدلا من الآداب في علاقاته الخارجية، فسيطر على بالي وجزر السوندا ووصلت قواته إلى سواحل كاليمنتان الغربية والأجزاء الجنوبية من جزر سولاويسي. غير أن بروز قوة " كاديري " البحرية جلب لها تحديا غير متوقع، ألا وهو التجارة، إذ قصدها التجار بأعداد غفيرة وخاصة من الصينيين والمسلمين الذين جاؤوا إليها للتجارة للمرة الأولى[٥٢].

ولما ازداد تواجد المسلمين في "كاديري" عظم نفوذهم وحانت لهم فرصة للانخراط في تحالفات مع الأمراء الجاويين جعلتهم يشهدون أفول مملكة "كاديري" في عام ٦٤٢ هجري و نشوء مملكة " سينغوساري Singosari " بقيادة ملكها "كين أروك Ken Arok" الذي عاد فوحد مملكتي "كاديري" و"جانغالا " في شرق جاوا[٥٣]. بعد أن تآمر مع زوجة الملك الملكة " ديديس Ken Dedes" على تصفية زوجها. ونظرا لمجيء "أروك" من مستوى اجتماعي وضيع، فقد التف حوله الفقراء وعامة الشعب من السونداويين الذين سحقتهم تعاليم البراهمية الهندوسية و أبقتهم في أدنى درجات السلم الاجتماعي. وها هم الآن بفضل " أروك " يصبحون أندادا للمهاجرين الهندوس الذين استقروا في البلاد وهيمنوا عليها وعلى شعبها من خلال التقسيم الهندوسي للمجتمع في شرائح مختلفة وزرع فكرة حتمية الفقر والانتماء إلى شريحة " المنبوذين " حكما دون إمكانية التغيير نحو الأفضل وبشكل يقتل طموح الإنسان .

وبعد توحيد المملكة تغير اسم " إرلانغا " الذي يعني حرفيا " ذلك المرء الذي يخرب كل شيء "إلى اسم " راجاسا *Rajasa*" ، ولكن المقام لم يدم طويلا له فقد تآمر

عليه ابن زوجته و قتله غيلة. ثم آل الحكم إلى الملك الحالي واسمه "كارتا نيغارا *Kartanegara* " الذي وفق بين الهندوسية والبوذية وحاول جعلهما دينا واحدا فبنى معبدا جعل الطابق الأول منه مخصصا للإله " شيفا " والثاني لبوذا.

وتابع الإمبراطور قصته لمولانا جمال الدين قائلا: هذا ماحصل في جاوه، وأما في سومطرة، فبعد انهيار مملكة " سريفيجايا " سيطرت قبائل من القراصنة من السكان الملايو على المنطقة، وقد حاولت تلك القبائل غزو الأقاليم المجاورة ووصلت إلى الهند، ولكن جيراننا ملوك سيام قضوا على نفوذها البحري فاغتنم الملك " كارتاناغارا " فرصة ضعف القراصنة فهاجمهم برا وبحرا و فرض سيطرته على سومطرة، ثم ضم كاليمنتان وجزر الملوك التي تقع شمالها(٥٤).

توقف الإمبراطور عن الحديث وتناول تفاحة من صحن أمامه وأخذ يحدق في وجه مولانا الشيخ جمال الدين لمعرفة آثار حديثه الطويل عليه، ولم يفت الشيخ إدراك غرض الإمبراطور من هذا الحديث، إذ فهم منه دعوة ضمنية له لاحترام عقيدة الإمبراطور الهندوسية التي وصلت في امتداداتها إلى تلك الجزر البعيدة في أقاصي المعمورة، كما فهم أن الإمبراطور " جايافارمان السابع " متحالف مع الملك الجاوي "كيرتاناغارا". غير أن ماراوه الإمبراطور لمولانا الشيخ فتح عينيه على واقع جديد بالنسبة له، ألا وهو أن التجار المسلمين قد وصلوا إلى تلك الجزر في " سيماننجونغ "(٥٥).

واستقر بعضهم فيها بما يعني إمكانية تكرار نجاح تجربة نشر الإسلام في السند والهند مرة أخرى، ولكن هذه المرة في جاوا وسومطرة نظرا لاختلاف الظروف الاجتماعية وخصوبة الأرضية اللازمة لذلك بفعل تناحر الديانتين الهندوسية والبوذية وتنافس رجالات الديانتين على النفوذ والسيطرة على بلاد وسكان لاعلاقة لهم أساسا بتلك الديانتين اللتين أتيتا من الخارج .

وخرج مولانا الشيخ وهو عازم على التوجه إلى جزيرة جاوا بنفسه للوقوف على مدى صدق حكاية الإمبراطور "جايافارمان السابع " بشأن جاوا وسومطرة .

كان الفتى إبراهيم ابن مولانا الشيخ جمال الدين قد أصبح شابا يساعد أباه في أمور الدعوة والسياسة والتجارة، وكان أسمر البشرة، قوي البنية، جميل المحيا، حسن الطلعة. وقد لفتت انتباهه، خلال زيارته المتكررة مع أبيه إلى قصر الأمير فتاة جمقاوية لطيفة وخجولة تختال في مشيتها ثقة وحياء في الوقت نفسه، وكأنها تجمع الضدين في شخصها: القوة والضعف الأنثويين، وهما الخصلتان اللتان لا تتصارعان إلا في شخص المرأة. واستقصى إبراهيم عن الفتاة فعلم أنها ابنة الأمير "وولان" واسمها " جندا وولان ". ففاتح إبراهيم أباه بشأن الزواج من الفتاة فوافق مولانا الشيخ ثم تم الزواج بين الأميرة وإبراهيم وحضر الحفل والدا العروس الأمير "وولان" وممثل عن الإمبراطور الذي أرسل الكثير من الهدايا الثمينة للعروسين.

وكان هذا الزواج أول زواج تختلط فيه الدماء الجمقوية بالدماء العربية الإسلامية التي تصل إلى العترة النبوية الشريفة، ولذلك فإن الاحتفالات غلب عليها طابع القداسة والاحترام الشديد من جانب مسلمي جمقا. ولما كان إبراهيم أسمر الأدمة فقد صار الناس ينادونه تحببا " إبراهيم أسمارا " تحريفا لكلمة أسمر العربية، وإبراهيم زين الدين احتراما لمكانته الدينية الرفيعة ودوره في نشر الإسلام بين السكان الأصليين. وما أن مرت سنة حتى رزق إبراهيم وزوجته " جندا وولان " ابناً أسمياه " علياً " ففرح به جده فرحا كبيرا واستبشر به خيرا في نشر عقب مسلم له في تلك البلاد. ثم اكتملت الفرحة مجددا عندما أصبح لعلي شقيق جديد أسماه والده إسحاق، فصار الطفلان علي وإسحاق حديث الناس وقرة أُعين أهليهما العرب والجمقاويين(٥٦) .

وكان إبراهيم أسمارا كأبيه وأجداده يحب السفر والترحال ويبحث عن المجد في أمصار لم يسمع بها إنسان من قبلُ. ولذلك فإنه تأثر بما كان قد سمعه من الإمبراطور عندما زاره مع أبيه وشقيقيه علي نور العلم وبركات، وبقي يتحين الفرصة المواتية لكي يشبع طموحه. وقد سنحت تلك المناسبة له عندما استأذن أباه بالسفر إلى أرض " سلندوغ " البعيدة الواقعة في جزائر فيليفين(٥٧)، فأذن له وأرسل معه العديد من المسلمين ليكونوا عونا له في رحلته تلك. وأبحر إبراهيم أسمارا باتجاه الشرق ودامت رحلة السفينة حوالي الشهر تعرضت فيه إلى الأعاصير والأمطار الغزيرة التي كادت أن تودي بها وبركابها، وتمزقت أشرعتها فصارت سرعتها أقل والقدرة على التحكم بها أصعب، ولولا مهارة الأدلاء الجمقاويين لتاهت السفينة في البحار الهائجة ولم يعد منها مخبر. واستطاع ربان السفينة الرسو في شاطئ جميل خصيب مليئة أطرافه بالغابات والجبال وأمواجه خفيفة.

واستقبل سكان الشاطئ السفينة بزوارقهم الصغيرة السريعة التي رافقت إبراهيم أسمارا والبحارة الذين ركبوا أيضا مركبا صغيرا حتى الشاطئ. واستفسر إبراهيم من الناس عن اسم الشاطئ فقالوا له: هذه المنطقة اسمها "قولانغي " واسم الشاطئ هو "ميندناو"(٥٨). وفوجئ الزوار بأن الناس ليس لهم أمير يحكمهم، بل هم قبائل تتعاطى التجارة مع السفن التي تزورهم من حين لآخر. وقد تأثر أفراد تلك القبائل بمنظر الزوار وبشكل ملابسهم ودماثتهم فأخذوا يتقربون منهم كثيرا ويتمعنونهم عندما يؤدون صلاتهم جماعةً. وكانوا يسألون عن معنى تلك الحركات التي يؤديها المسلمون في صلاتهم فيجيبهم الضيوف برحابة صدر ويشرحون لهم تعاليم الدين الإسلامي بإفاضة. وازداد إعجاب الناس بالمسلمين لما رأوه من حسن تعاملهم التجاري معهم وعدم غشهم لهم، حتى إذا مرت فترة من إقامتهم هناك فوجئ إبراهيم أسمارا بوفد كبير من السكان يقدمون عليه و يشهدون إسلامهم . ففرح المسلمون كثيرا وصاروا يلقنون أهالي "قولانغي" أهم التعاليم الدينية الإسلامية. ولكي يكتمل التعارف، تزوج إبراهيم أسمارا

بفتاة من المسلمين الجدد هي ابنة رئيس القبيلة الكبيرة في " فولانغي " وأقام في البلاد حوالي السنة رزق خلالها ببنت صغيرة أسماها " فراميسولي *Paramisuli* "[٥٩]وهي من ألقاب الملكات باللغة المحلية . وقرر ابراهيم أسمارا أن يعود إلى جمفا للاطمئنان على والده، فودع زوجته وأهلها والجالية المسلمة في " فولانغي " وترك معهم الكثير من البحارة الذين تزوجوا من أهلها وقرروا الاستقرار فيها. وأقلع إبراهيم مجددا متجها غربا هذه المرة حيث وصل إلى " كوجينغ جينا " ليجد أن أباه عازم على الرحيل إلى جاوا مصطحبا معه جميع أولاده وأفراد العائلة، وذلك باتفاق مع الإمبراطور "جايافارمان السابع" الذي وصلته معلومات مقلقة للغاية عن تحركات لأسطول الإمبراطور قوبلاي خان في بحر صندرا فولات بهدف إخضاع جميع ملوك المنطقة تحت سيطرته. وبطبيعة الحال فإن أكثر ما خشي منه الإمبراطور "جايافارمان السابع " هو أن يقع حليفه ملك جاوا " كيرتاناغارا" تحت هيمنة قوبلاي خان، وهذا يعني استفراد المغول بالهيمنة في البحار والتفاتهم إلى إخضاع جيرانهم برا ومنهم جمفا نفسها.

حواشي الباب الخامس

(١) انظر: عبد الرحمن بن حسين المشهور بـ" شمس الظهيرة " ، الجزء الثاني ، ص ٥٣٠
(٢) انظر " رحلة ابن بطوطة " ، ص م ٤٥٠ - ٤٦٥.
(٣) كان العرب يطلقون في بعض العصور على بلاد الملايو و سيام والهند الصينية اسم بلاد ملك الصنف، ويطلقون اسم بلاد المهراج على جزائر إندونيسيا . والصنف هي " جمقا" على قاعدتهم في النطق بالشين المعدمة صادا ، كما قالوا " صين " بدلا من " جين ". وبلاد الصنف تحديدا يقصد بها كمبوديا الحالية .
(٤) قال أبو الفداء أن جبال كامرون هي حجاز بين الهند والصين، ثم نقل عن المهلبي أن مدن كامرون ومنها " كوكرا " و" أكشميون " و " مراس " وهي كورة في آخر بلاد كامرون و أول بلاد الصين . ومن كامرون كان التجار العرب يجلبون دهن " العود " الأعلى ثمنا. {انظر: عادل محيي الدين الألوسي، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، ص ٢١٤ }.
(٥) تقول الحكايات الصينية أنه كانت توجد مستوطنات فارسية و يمنية في سواحل بورما حوالي عام ٨٦٠ م ، كما أن الرحالتين ابن خرداذبة الفارسي و سليمان السيرافي العربي ذكرا وجود المسلمين في تلك المناطق و أشارا إلى أن للملك ١٥ ألف فيل {انظر: السيد علوي بن طاهر الحداد، "المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ١٨٨ }.
(٦) الملك " أنامار اهانا " مؤسس مملكة " فاقن " {٩٧٧ - ١٠٤٤ م} و الملك " ناراتي هافات " { ٩٨٧ - ١٢٥٤ م } - المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٨ .
(٧) هذا المرفأ مازال قائما ، ويدعى باللغة البورمية " بودرامكانس " وهي كلمة محرفة عن الأصل العربي والفارسي ، إذ أن كلمة " بندر " تعني في منطقة الخليج العربي - الفارسي " مرفأ "، وهي كلمة ما زالت ذائعة في كل من إندونيسيا و ماليزيا و بروناي .
(٨) " آراكن " تقع على الساحل الغربي من البلاد، وتحولت إلى إمارة إسلامية في عام ١٤٣٠ م، وبقيت كذلك حتى عام ١٧٨٤ م. وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في البلاد إلى عام ١٨٤٥ م. وزالت تلك الإمارة عندما استولى عليها ملك بورما " بيرما بودوابيا Birma Bod Wapya " ثم بريطانيا من بعده، وواجه المسلمون منذئذ ظروفا سيئة. {انظر المرجع السابق " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ١٩٠ } .
(٩) انظر بالإنكليزية مجلة " Cambodia " الصادرة عن وزارة السياحة الكمبودية ، العدد الثالث من عام ١٩٩٧ م ، مقال بعنوان : History of the Kingdom ص ٢٤ - ٢٥ .
(١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٤ .
(١١) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٤ .
(١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٥ .
(١٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٥ .
(١٤) سبق أن أوضحنا أن هذا الطائر الأسطوري يمثل كائنا خرافيا نصفه إنسان و نصفه الآخر طائر العقاب ، وهو رمز شركة الخطوط الجوية الإندونيسية حاليا .
(١٥) المرجع السابق بالإنكليزية ، مجلة " Cambodia " ، ص ٢٥ .
(١٦) سيام هو الاسم القديم لتايلاند .
(١٧) انظر " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ١٨٥ .

(١٨) نصر الدين هو ابن شمس الدين عمر الملقب بالسيد الأجل الذي سبق ذكره وشغل مناصب قيادية عليا في خدمة قوبلاي خان إمبراطور المغول في الصين ، وتوفي في عام ٦٧٨ هجري .

(١٩) انظر: علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ١٨٨ .

(٢٠) هي مينا " تشابخنشاو " الحالية "

(٢١) هو بحر الصين الجنوبي حاليا .

(٢٢) هي جزيرة سومطرة حاليا .

(٢٣) انظر البحث المقدم من د. أزيوماردي أزرا ، بعنوان " مجيء وانتشار الإسلام في العالم الملايوي – الإندونيسي : نظرة عامة " إلى الندوة الدولية المنعقدة في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٩ ، الصفحة ٢٠. وأما قصة إسلام الملك مراح سيلاو في آتشيه فهي مستقاة من حكايات " راجا باساي " الشعبية الملايوية : " ثم إن تاريخا رسميا محليا لآتشيه قد ذكر أيضا أن أحدهم كان من أصل عربي اسمه الشخ جمال العالم الذي كان مبعوثا من السلطان العثماني لدعوة سكان آتشيه إلى اعتناق الإسلام ، بينما ذكر تاريخ آتشي آخر أن الإسلام دخل منطقة آتشيه على يدي عربي اسمه الشيخ عبد الله العارف حوالي سنة ٥٠٦ هجرية / ١١١١ م .

(٢٤) لمزيد من التفاصيل حول رحلة ماركوبولو يمكن الرجوع إلى المقال المكتوب بقلم د. محمد محمود الصياد، في موسوعة " تراث الإنسانية " المجلد الرابع ، الصفحة ٨٠٤ ، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة ، ونقتطع من المقال المقطع التالي: " يحدثنا " جون بابتيس رامسيو John Baptist Ramusio " الذي كان أول من كتب سيرة ماركوبولو بعد وفاته بأكثرمن قرنين عن وصول آل بولو إلى بيت الأسرة في ثياب غريبة، وإنكار الناس من أهل البندقية لهم و الحيل التي لجؤوا إليها ليحصلوا على اعتراف المجتمع البندقي بهم. ثم تسمع بعد ذلك عن ماركوبولو كمحارب. فقد زادت الغيرة بين البندقية وجنوة خلال القرن الثالث عشر. وفي سنة ١٢٩٨ م قرر الجنوبيون أن يضربوا منافسيهم البنادقة في عقر دارهم. فأرسلوا أسطولا قويا تحت قيادة لامبا دوريا إلى البحر الأدرياتي، وأعدت البندقية أسطولا أكبر للقاء المغيرين، وعقد لواؤه لأندريا داندولو، وكان على كل مركب بندقي ٢٥٠ بحارا برأسهم ربان. وكان ماركوبولو أحد ربابنة هذه السفن. وتقابل الأسطولان المتعاديان في السادس من سبتمبر غير بعيد من جزيرة كورتزولا. وبدأت المعركة في اليوم التالي ، وانتهت بهزيمة البنادقة ووقع ماركوبولو في الأسر فلبث فيه نحو عام ثم عاد إلى البندقية في يولية أو أغسطس من عام ١٢٩٩ م. ولا نعرف سوى القليل عن تاريخ ماركوبولو بعد خروجه من الأسر، ولكن توجد بعض وثائق فيها إشارات إليه يمكن أن ننسج منها شيئا عن الرجل. وأهم هذه الوثائق وصيته. فقد أرسل الرجل وقد اشتد به المرض في التاسع من يناير ١٣٢٤ في طلب قسيس وموثق عقود يملي عليها وصيته ، وتوفي في اليوم نفسه ودفن وفقا لرغبته في كنيسة سانت لورنزو ، ويستفاد من الوصية أنه ترك زوجة تدعى " دوناتا " وثلاث بنات هن : فانتينا، وبلليلا، وماريتا. وبجانب هذه الوصية نجد في محفوظات البندقية وصيتي عميه ماركو ومفيو، وفي كلتيهما إشارة إليه. كما توجد بعض الحجج الخاصة بملكية بيت الأسرة في سانت كرايسو ستوم، ويرد اسم ماركو مرة أو مرتين في سجلات المجلس الكبير و يلقب في هذه السجلات بالنبيل ماركوبولو " الألفي " و هو لقب أطلق عليه لما كان يرويه عن رحلاته من قصص عدها الناس شبيهة بقصص " ألف ليلة و ليلة " فأطلقوا عليه لقب " الألفي " . ونعرف من كتابات ماركو بولو أنه كان يهتم بمتع الحياة اهتمامه بالعمل، وكان دقيق الملاحظة، مغرما بالصيد و القنص . وكان متحررا متسامحا فهو رغم مسيحيته وعدائه الصريح للهرطقة، يظهر إعجابا بالبوذية وتعاليمها. وكان الرجل

محبا للفكاهة ولكنه لم يكن يسرف في الضحك. ولعل أعظم عيوبه أنه كان ميالا للمبالغة. فكل بلدة من البلاد البعيدة التي مر بها " عظيمة " وكل شيء في الصين "يفوق الوصف " وكل تصرفات قوبلاي خان من " معجزات الحكمة ". ولعل للرجل عذره فقد بهرته الأشياء التي رآها وكانت كلها جديدة عليه فكانت المبالغة في وصفها والحديث عنها. كان من الممكن أن تطوى قصة ماركوبولو مع الأيام لولا أنها سجلت في كتاب. وكان أسر ماركوبولو هو السبب المباشر في وضع هذا الكتاب، فحتى ذلك الحين كان الرجل يقص أخباره على أصدقائه، وكان بعضهم يستمع إليها كأساطير. ومن هنا كان تلقيب الرجل " بالألفي ". وبقدر ما ذاع قصص ماركوبولو بقدر ما كذبه الناس. وقد حدث وهو على فراش الموت أن جاءه بعض أصدقائه يعودونه ويتوسلون إليه " أن ينكر الأكاذيب التي قصها " قبل أن يلقى ربه فأجاب المريض المحتضر: "اني وأيم الحق لم أرو نصف ما رأيت! ". ووقع ماركو في أسر الجنوبيين مع سبعة آلاف من زملائه البنادقة. وفي سجن جنوة التقى بأسير من أهل بيزا يدعى روستيتشيانو، وكان ذا موهبة أدبية فراح يسجل أخبار رحلة مراكو بولو بإملائه، ويقول أن المسؤولين في جنوة قد أذنوا للرحالة بالكتابة إلى البندقية يطلب مذكراته. وهذا هو الذي يفسر دقة التفاصيل التي سجلها "روستيتشيانو " عن رحلة بدأت منذ أكثر من خمسة و عشرين عاما.

(٢٥) انظر: السيد علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٢٨٥ .

(٢٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٨٦ .

(٢٧) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " السفر الثاني ، ص ٢١٩ .

(٢٨) انظر : جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " ، الجزء الأول ، ص ٩٩ .

(٢٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٩ .

(٣٠) حكم المماليك البحريون مصر ١٣٦ سنة {٦٤٨ هجرية / ١٢٥٠ م إلى ٧٨٤ هجرية/١٣٨٢ م}، وأعقبهم المماليك البرجية الذين حكموا مصر ١٢٩ سنة { ٧٨٤ هجري / ١٣٨٢ م إلى ٩٢٧ هجرية /١٥١٧ م } . وكانوا قادة عسكريين ممتازين ، ولكنهم لم يظهروا أي كفاية إدارية أو مالية . وقد ضعفت مصر في أيامهم شيئا فشيئا، واضطربت ماليتها بعد تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح وأظهروا قصر نظر مخجل فيما يتعلق بموقفهم من الخطر العثماني مما انتهى بسقوط مصر في أيدي الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٣ هجرية/ ١٥١٧ م .

(٣١) انظر : للقلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ٢٢٥

(٣٢) انظر كتاب " الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة " ، الجزء الأول، ص ٨ – ٩

(٣٣) انظر: عبد الرحمن بن محمد المشهور، بـ" شمس الظهيرة "، الجزء الثاني ، ص ٥٣٠ .

(٣٤) " نوسانتارا " اصطلاح مستعمل في لغة جاوا الإندونيسية للدلالة على جزيرتي جاوا و بالي فقط، لكن الكلمة صارت تعنى لاحقا جميع الأرخبيل الإندونيسي منذ أن اعتمدها الاستعمار الهولندي.

(٣٥) " فوا فوا "، المراد بها جزيرة " بابوا غينيا الجديدة " وامتدادها الإندونيسي المسمى "إيريان جايا". وكان العرب القدامى يسمونها جزر الواق الواق باعتبار أنها آخر اليابسة قبل دخول البحر الزفتي الشرقي أي المحيط الهادي .

(٣٦) انظر مجلة " Cambodia " بالإنكليزية ، ص ٢٥ وانظر أيضا بالإنكليزية كتاب " Nusantara " للمؤلف " برنارد فليكه " منشورات جامعة هارفارد، ماساتشوستش ١٩٤٤، ص ٢٣

(٣٧) " أندلاس " و " قرجا " ، من أسماء جزيرة سومطرة القديمة .

(٣٨) انظر كتاب " Nusantara " ، ص ٢٠ .

(٣٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠

(٤٠) المرجع السابق نفسه ،الصفحة ٢١ .

(٤١) المرجع السابق نفسه، الصفحة ٢١. وكلمة " شيفا " هي كلمة سنسكرتية تعني "المدمر "، وهو رمز لإله هندوسي يمثل قوى الطبيعة التي تدمر بهدف الخلق مجددا. و" شيفا " يمثل الإله الأكبر، وله أربعة أذرع. وأما " فيشنو" فهو إله الضوء، ويمثل دوما وهو يمتطي الرجل – العقاب الأسطوري المسمى " غارودا " .

(٤٢) ترتفع جبال " براهو " إلى ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

(٤٣) شهدت مملكة سري بوزا، أو هي مملكة زباج ذاتها، و تطلق عليها المصادر العربية باسم مملكة السهاراجا أو طبقا للمصادر الصينية يطلق عليها اسم " شيه لي فو شيه Shih-Li-Fo-Shih " أو " سان فو شي San-Fo-Chi " تطورا وتوسعا كبيرين في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي حيث امتدت المناطق الخاضعة لها لتشمل جزيرة سومطرة كلها تقريبا ثم بعد ذلك بخمسة قرون امتدت لتشمل شبه جزيرة الملايو وجزيرة جاوا، وقد لعبت هذه المملكة دورا هاما في الوساطة التجارية بين الشرق الأوسط والشرق الأقصى، بل كانت قوة مهيمنة في الأرخبيل فأصبحت عاصمتها فاليمبانغ مركزا تجاريا له ثقله في المنطقة. ولأهمية المكانة التي احتلتها فقد سجل الكاتب الصيني المشهور " شوو شو في Shou-chu-fei " في " لينغ واي تاي تا Ling-wai-tai-ta " سنة ١١٧٨ م مايلي: " تقع مملكة سر يفيجايا " على " تان هاي " أي المحيط الجنوبي، وكانت تمثل مركزا تجاريا هاما بين البلاد الاجنبية، وتقع على جانبها الشرقي بلاد جاوا بينما تقع على جانبها الغربي " أنتشيه " أي بلاد الغرب " كولنين -كون لون " أي الجزر الواقعة على الجنوب عموما وما إلى ذلك، وليس هناك طريق للوصول إلى الصين إلا بالمرور عبر المناطق الخاضعة لها .

وطبقا للمصادر الصينية فمكانة سري ويجايا كمركز علمي بوذي في الأرخبيل لا تقل أهمية. فقد أقام بها كثير من طلاب العلم والزوار البوذية سنوات يدرسون ويترجمون النصوص الدينية (البوذية) قبل استئناف رحلتهم العلمية إلى المراكز البوذية العلمية منها والدينية بالهند، والرحالة أي تينج الذي أنفق سنوات من عمره في فاليمبانغ أثناء رحلته من وإلى الهند يقترح على طلاب العلم الديني أن يذهبوا أولا إلى سري ويجايا لكونها مركزا علميا بوذيا قبل الذهاب إلى الهند لاستئناف دراستهم، وفي ذلك يقول: " يوجد بمدينة " بوغا " أي فاليمبانغ، تلك المدينة المحروسة بقلعة، أكثر من ألف راهب بوذي جل اهتمامهم كان منصباً على الدراسة وأعمال الخير ، ويدرسون جميع المواد الموجودة هناك ، تماما كما هو الحال في " ماديا ديس Madhya - Desa " أي المملكة الوسطى بالهند . وكانت المقررات و المراسم الدينية فيها أي سري ويجايا لا تختلف إطلاقا عما في الهند، فإذا أراد أحد من الرهبان الصين أن يذهب إلى الغرب لغرض الاستماع إلى المحاضرات الدينية أو لقراءة النصوص البوذية الأصلية فإن من المستحب أن يقيم أولا في بوغا مدة سنة أو سنتين ملتزما بجميع التعاليم الدينية ثم يستأنف رحلته إلى الهند الوسطى . وعلى الرغم من أن سري ويجايا تمثل أقدم مركز علمي بوذي فإنها مملكة منفتحة على العالم، فقد أخبرنا " أي تينج " أنه ركب سفينة عربية أو فارسية في طريقه إلى ميناء سري ويجايا. وصح " يوان تشاو Yuannchao " في كتابه " تشينج يوان سين تينج كياو سولو Tceng-yuan-sin-ting che-kiau-mou-lou " الذي ألفه في أوائل القرن التاسع الميلادي انه في سنة ٩٩ هـ /٧١٧ م وصلت حوالي ٢٥ سفينة فارسية في فاليمبانغ. وبعد حدوث الاضطرابات في كانتون أخرج كثير من المسلمين العرب والفرس منها فاتجهوا إلى فاليمبانغ حيث يتمتعون فيها بالحماية والأمن .

ويتضح من هذه الروايات أن قطاعات معينة من مواطني سري ويجايا كان لهم تعامل مع المسلمين الذين أتوا من الشرق الأوسط وتعرفوا إلى حد ما على بعض التعاليم الإسلامية، وهذا مطابق لما ذكره الرامهرمزي في كتاب عجائب الهند السابق من إشارة إلى وجود عدد من المسلمين من مواطني سري ويجايا نفسها . ويؤيد " شاو جو كوا" فيما يبدو مارواه الرامهرمزي حين قال: " إن هناك عددا كبيرا من سكان هذه البلاد {سان فو شي} يحمل في أول اسمه كلمة "فو Pu " ووفقا لهيرث Hirth " و "روخيل Rockhill " فان الكلمة " فو Pu " مشتقة من "بو Bu " اختصارا لكلمة " أبو " التي تبدأ بها أسماء كثيرين من المسلمين .

ويؤيد تاريخ صيني أخر وهو " سونج شيه Sung Shih " هذه الحقيقة وهي أن لمواطني سري ويجايا كنية " أبو " ، فطبقا " لسونج شيه " جاء أنه في سنة ٢٩٣ هجرية /٩٠٤ م أرسل ملك سري ويجايا مبعوثا باسم " فو هو لي Pu Ho-Li " أو " هو سو Ho-su " وهي تعني (أبو) علي أو (أبو) فضل أو (أبو) حسين إلى مملكة "تانج Tang " . وكان يطلق عليه زعيم الأجانب في المملكة . ولذلك فمن المحتمل جدا أن يكون مسلماً شرق أوسطي المولد والنشأة ، وليس مواطنا أصليا . ثم إن " باكامورا " نقلا عن المصادر الصينية قد قام بترتيب جدول السفراء الذين بعثتهم سري ويجايا إلى الصين ، وقد ظهروا في قصر الصين فيما بين النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي و العقد الأول من القرن الثاني عشر الميلادي وهم علىالترتيب :

- {لي يعني علي ؟ محمد} " Li A-mu لي أ مو " و كيل سفير ٩٦٢ م
- {علي محمد} " Li Ho-mu لي هو مو " سفير ٩٧١ م
- {أبو ادم} " Pu To-han بو تو هان " سفير ٩٧٥م
- { أبو حية } " Li Pu-hui لي بو هوي " مبعوث تجاري ٩٨٠ م
- { أبو عبد الله} " Pu-ya-to-lo فو يا تو لو " سفير ٩٨٣ م
- { حاكم واجات} " Chin-hun-cha شين هوا شا " مالك سفينة ٩٨٥ م
- { أبو عبد الله} " Pu-ya-lo-li بو يا تو لي " سفير ٩٨٨ م
- { أبو عزام} " Pu-po-lam بو فو لن " وكيل سفير ١٠٠٨ م
- { أبو موسى} " Pu-mo-hsi بو مو هسي " سفير ١٠٠٧ م
- {أبو عبد الله} " Pu-ya-to-lo-hsieh بو يا تو لو هسيه " سفير ١٠٢٨ م
- { إسماعيل } " Ssu-ma-chieh سو ما شيه " سفير ١١٥٥ م
- { أبو سنسه } " فو شيسن "
- { أبو غانسي} " Pu-chin Pu-hsia-erh بو هسيا ايره "
- { أبو عبد الله } " Pu-ya-to-li بو يا تو لي "

وواضح من هذه المصادر انه في تلك الفترة كان هناك مسلمون كثيرون في سري ويجايا سواء أكانوا تجار أم مالكي سفينة أم سفراء، ويبدو أن دورهم الهام لم يكن قاصرا على التجارة فحسب وإنما لهم دور كبير أيضا في مجال توطيد علاقة المملكة بالعالم الخارجي شرقا وغربا . وجدير بالذكر أن " بو يا تو لو هسيه Pu-ya-to-lo-hsieh "، أعني أبا عبد الله قد ظهر أيضا في سنتي ٩٩٥ م و ٩٩٩ م سفيرا رسميا ل" تا شيه " أي العرب . وهذا يؤكد احتمال أن يكون هو والسفراء الاخرون كانوا من العرب أو الإيرانيين . وإذا كان ذلك صحيحا فهو يعني ضمنا أن سري ويجايا والمسلمين العرب أو الفرس سواء أكانوا مقيمين أم نازلين أم مارين تربطهم أوثق العلاقات لدرجة أن سري ويجايا يثــق فيهم فيعينهم سفراءه .

إن الوثائق التاريخية التي كتبت علاقات سري ويجايا السياسية و الدبلوماسية ليست قاصرة على المصادر الصينية، وإنما وردت أيضا في المصادر العربية التي وإن كانت متفرقة، لكنها تعبر

عن هذا الواقع . وهذه المصادر العربية التي قام الباحث فاتيمي بدراسة حرة منها دراسة وافية ، ومنها الجزء الخاص بخطابين ثبتت صحتهما وتأكد أنهما قد أرسلهما مهاراجا أي ملك الملوك بـ " سري ويجايا " إلى خليفتين في الشرق الأوسط .
والخطاب الأول أو الإشارة إليه على أصح التعبير ورد في كتاب الحيوان المشهور للجاحظ ١٦٢ – ٢٥٥هجرية / ٧٨٣ – ٨٦٩ م حيث أورد بإسناده عن الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال : " رأيت في ديوان معاوية كتابا من مهاراجا ..." ، ولم يذكر الجاحظ فحوى الخطاب و إنما أشار إلى ما وصل إليه سري ويجايا من تطور ، ومع ذلك يمكن أن نستشف منه الأسلوب المماثل لما كان يستخدمه ملوك الأرخبيل عندما يبعثون بخطاب رسمي، والفقرة وردت كما يلي : " عن الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال : " رأيت في ديوان معاوية كتابا من {مهاراجا} الذي مربطه ألف فيل و بنيت داره من لبن الفضة والذهب ويخدمه ألف من بنات الملوك و له نهران ... إلى معاوية .
أما الخطاب الثاني المماثل فأكمل بكثير، وقد حفظ لنا ابن عبد ربه ٢٤٦ – ٣٢٩ هجرية / ٨٦٠ – ٩٤٠ م من الخطاب مقدمته وفحواه في كتابه " العقد الفريد " ما يدل على عظمة المهاراجا ومملكته. وقد بعث بخطابه إلى الخليفة عمر بن العزيز {٩٩-١٠٢ هجرية /٧١٧ – ٧٢٠ م } : يقول نعيم بن حماد : " أرسل ملك الهند (أي الأرخبيل) خطابا إلى عمر بن عبد العزيز ورد فيه: " من ملك الملوك { المهاراجا} هو ورفيقته في العرش من سلالة الألف ملوك على مربطه ألف فيل ، يجري بين مملكته نبتت منهما أشجار { غاهارو Gaharu } و تنتشر فيها معطرة ومع الكافور التي تفوح منها رائحة تعطر مسافة ١٢ ميلا .
إلى الملك العربي عمر بن عبد العزيز الذي لا يشرك في الله أحداً .
لقد أرسلت إليكم هدايا ليست بكثير، إنما هي مجرد تعبير عن الأخوة . و أنا أود أن تقوموا بإرسال من يعلمني الإسلام و يبين لي أحكام الشريعة الإسلامية ، وفي رواية أخرى يعلمني الإسلام و يبينه لي " .
وقد نقل التغري بردي {٨١٣-٨٧٤ هجرية/ ١٤١٠ – ١٤٧٠ } الخطاب نفسه في كتابه " النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة " بإسناد ابن عساكر {٤٨٨- ٥٧١ هجرية /١١٠٥ – ١١٧٦ م} مع زيادة كلمات وردت في آخر الخطاب بشكل مثير الاهتمام وهو يقول: " لقد أرسلت إليكم من عطور و.. و.. و..أرجو أن تكون لديكم مقبولة لأني أخوكم في الإسلام ".
وكان التغري بردي حريصا على تسجيل تاريخ و ورود الخطاب وهو سنة ٩٩ هجرية /٧١٧م أي بعد مبايعة الخليفة عمر بن عبد العزيز بقليل. ومن هنا فإن فاتيمي يرى أن الخليفة قد تسلمه في الشهور الأخيرة لسنة ١٠٠ هجرية / ٧١٨ م .
وأما المهاراجا الذي كان يحكم سري ويجايا في تلك الفترة فهو " سري إيندرا وارمان " الذي تطلق عليه المصادر الصينية اسم " شي لي تو فا مو Shih-li-to-fa-mo " ، وهذا الاسم الصيني يدل على أنه لم يكن مسلما بعد، ويقال أنه كان يبعث عددا من السفراء إلى الصين ، وحدث ذلك في السنوات ٨٣ هجرية/٧٠٢ م و ٩٨ هجرية /٧١٦ م و ١٠٦ هجرية /٧٢٤ م .
وجدير بالذكر أن من بين الهدايا التي تقدم بها السفراء إلى ملك الصين سنة ١٠٦ هجرية /٧٢٤م ما يطلق عليه " تينج شي Tsung-chi" يعتقد أنه منقول من المصطلح العربي "الزنجي".
وإذن، فالهدية أمة زنجية . فبصرف النظر عن السؤال عما إذا كان المهاراجا قد أسلم أم لا، فالظاهر أنه كان يتلقى عددا من الزنجيات يمكن أن يكنّ هدية من الملوك أو التجار العرب، وكانت إحداهن قد تقدم بها المهاراجا هدية إلى ملك الصين. أما الترحيب لدى المهاراجا يتلقى تلكم الهدايا فإنما يدل على العلاقات الوثيقة القائمة بين سري ويجايا وأطراف معينة في الشرق

الأوسط . { انظر كتاب " شبكة العلماء " للدكتور أزيوماردي أزرا ، الصفحة ١٦-١٧-١٨- ١٩ }.

(٤٤) يشبه الباحث الهولندي برنارد فليكه الملك الإندونيسي " دارمافانسا " بالملك الإنكليزي شارلمان الذي كان أول من أمر بنقل الملاحم من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنكليزية. لمزيد من المعلومات عن تلك الفترة يمكن الرجوع إلى كتاب الباحث الهولندي باللغة الإنكليزية والمعنون بـ " Nusantara " منشورات جامعة هارفرد و جامعة كمبردج في ولاية ماساتشوستس الأمريكية عام ١٩٤٤ ، الصفحات من ٢٩ إلى ٣٥ .

(٤٥) ذُكر في " فتاوى مجلس العلماء الإندونيسي " تأليف محمد عطاء مظهر ، الصادر عن مركز دراسات الإسلام و المجتمع التابع لوزارة الشؤون الدينية في جاكرتا عام ١٩٩٦، في الصفحة ٦ منه أن مملكة " سري ويجايا " أوفدت سنة ٩٦٢ م إلى الصين بعثة باسم تاجر عربي مما يؤكد أن التجار العرب قد أثبتوا وجودهم في هذه المملكة في ذلك الوقت . والحقيقة هي أن المملكة قد أوفدت منذ هذه السنة حتى سنة ١١٥٥ م عشر بعثات إلى الصين ، وتمت تلك البعثات في السنوات : ٩٦٢م – ٩٧١م – ٩٧٥م – ٩٨٠م – ٩٨٧م – ٩٨٨م – ١٠٠٨م – ١٠١٧م – ١٠٢٨م – ١١٥٥م .

(٤٦) انظر المرجع السابق " Nusantara " ، ص ٣٠ .

(٤٧) " فاليمبانغ " هي عاصمة مملكة " سري ويجايا " البوذية التي هي نفسها ما كان يسميه الجغرافيون العرب مملكة الزابج أو مملكة المهاراجا . وأما باللغة الصينية فيقال لها " شيه لي فو شيه". وتقع العاصمة على مرسى نهر بوغا أو سري بوغا الذي سُمّي فيما بعد نهر موسي.

(٤٨) يشبه الباحث الهولندي فليكه هذا الملك الإندونيسي بالملك البريطاني ألفريد الذي عاش فترة طويلة أيضا مختبئا في الغابات . { انظر " Nusantara " ص ٣٢ } .

(٤٩) السوندا ، كلمة إندونيسية محلية تطلق على جاوا الغربية .

(٥٠) "أرجونا " في ملحمة " مهاباراتا " تعني الزاهد الذي أمضى حياته في النسك و العبادة حتى وصل إلى درجة عالية من التصوف و القوة الروحية حدت بالآلهة أنفسهم إلى طلب معونته في صراعهم ضد الشيطان غير المرئي .

(٥١) تقول الحكاية الشعبية الجاوية أن الملك " أرلانغا " عندما حضرته الوفاة أمر ناسكا اسمه "بهارادا" ممن لديه قدرات ميتافيزيقية قوية إلى درجة أنه يستطيع التحليق في الجو، أمره بأن يشرف بنفسه على ترسيم الحدود بين مملكتي الابنين الاثنين اللذين ورثا الحكم من أبيهما.{انظر "Nusantara " ، ص ٣٧}

(٥٢) كانت مدن " غرسيك " و "مادورا " أماكن لاصلاح سفن التجار المسلمين إذا أصابها عطل، ولشحن بضائعهم وأزوادهم. وشارك التجار في تأسيس ممالك "جنكالا" و"داها " و "سينغاساري". وهناك دليل مادي على وجود المسلمين في تلك المنطقة من إندونيسيا و هو شاهدة قبر عثر عليها في ليران وكتب عليها باللغة العربية : " هذا قبر فاطمة بنت ميمون المتوفاة في عام ٤٩٥ هجري ". {لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى الكتاب المرجعي للعلامة السيد علوي بن طاهر الحداد المعنون بـ " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " مطبوعات مؤسسة عالم المعرفة ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٥ هجرية/١٩٨٥ م} .

(٥٣) كتاب الملوك المسمى باللغة الجاوية " باراراتون " يتكلم بإسهاب عن شخصية الملك أروك .

(٥٤) هي الجزر التي سماها المسلمون جزر الملوك ، وهي المعروفة اليوم بأسماء الجزر التالية : ترناتيه – باجين – جيلولو – تيدوريه – أمبون .

(٥٥) " سمنانجونغ [Semenanjung] " هو اصطلاح يطلق على الأراضي و الجزر والبحار التي تمتد بين بحر الصين و بحر ملقسا .

(٥٦) انظر : السيد عبد الرحمن بن محمد بن حسين المشهور ، " شمس الظهيرة " ، ص ٥٢٤ .

(٥٧) " سلندوغ " أو " لوزون " ، هي الأرض الكبيرة الواقعة في شمال أرخبيل الفيلبين

(٥٨) تعددت الروايات حول بداية انتشار الإسلام في الفيلبين واختلط التاريخ بالحكايات وتلك بالأسطورة . وعلى هذا الغرار وردت روايات في " ترسيلا " أي سلسلة الملوك المسلمين لسلطنة " سولو " بالفيلبين . فهناك رواية تقول: إن الإسلام قد انتشر في ربوع هذه البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على يد عربي اسمه " شريف أولياء كريم المخدوم ". وكان قد جاء من " ملاقا " سنة ٧٨٢ هجرية /١٣٨٠ م، كما تذكر رواية أخرى أن شريفاً هذا هو والد مولانا الملك ابراهيم أحد الأولياء التسعة الذين تم على أيديهم دخول جزيرة جاوا كلها في الإسلام. ثم جاء بعده عربي اسمه أمين الله المخدوم الملقب بالسيد النقاب . ويعتقد أنه جاء إلى هذه المنطقة ضمن بعثة تضم عددا من المسلمين الصينيين . واستمرت حركة انتشار الإسلام بعد ذلك في " سولو " خصوصا في مناطقها الريفية عندما أتى عربي اسمه سيد أبو بكر إلى المنطقة، وتجمع " التراسيل " أي كتب سلسلة الملوك كلها على أنه نصب أول ملك لسلطنة " سولو " وكان ملقبا بالشريف القاسم . وهناك شخصيتان عرف عنهما الفضل الكبير في نشر الإسلام في تلك المناطق ؛ أولهما يسمى " موهادوم " والاخر علوي بالفقيه، ويقال أنهما شقيقا سيد أبي بكر . ويسجل الرحالة الغربية " هانت " المتواجد في المنطقة في ذلك الوقت " أن شريفا أخر واسمه " سيد بالفقيه " وصل من مكة واستطاع أن يجعل السكان كلهم يدخلون في الإسلام ".

(٥٩) انظر: السيد علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام إلى الشرق الأقصى"، ص ٢٧١ . كما ورد ذلك في شجرة الأنساب الفيليبينية المسمى " Tarsila " دون تحديد الاسم الحقيقي لشريف أولياء ، حيث يظن أن المقصود هو جمال الدين الحسين وليس ابنه ابراهيم أسمارا وفقا لهذه الشجرات .

{ انظر : " Cesar Adib Majul ، " Islam's Advent and Expansion in the Philippines
بحث منشور في الكتاب الصادر عن IRCICA في إسطنبول ١٩٩٩ وعنوانه :
" Islamic Civilization in the Malay World " ، الصفحة ٣٢ .

البــــــاب الســــادس

فــي جاوا والزابــج

انـهيار ممالك وتأسيس سلطنات

[نهاية عهد وبداية عهد جديد]

أقلعت سفينة مولانا الشيخ جمال الدين الحسين جنوبا متجهة إلى جاوا الشرقية، وكانت الرياح مواتية تماما، فلم تعترض الرحلة مخاطرُ جدية اللهم باستثناء بعض الأمطار الغزيرة الموسمية. ومرت السفينة في طريقها بمحاذاة "سراواك [*Serawak*]"، ومنها انعطفت شرقا ثم جنوبا باتجاه "مكاسر[*Makassar*]" وبلاد البوقيس[1]، ومنها تابعت إلى "مادورا [*Madura*]" ثم جاوا الشرقية حيث رست السفينة في ميناء " ليران[*Leran*]" الحافل بجميع أنواع السفن من شتى أمصار الدنيا. وكان يوجد في الميناء الكثير من السفن التجارية التي تحمل أسماء إسلامية إلى درجة أن اللغة العربية كانت تطرق آذان الزوار الجدد حيثما وجدوا وهم في طريقهم إلى نزل اختاروه للإقامة فيه مؤقتا[2]. وبعد استراحة لعدة أيام، عمد مولانا الشيخ إلى إرسال مبعوث خاص للملك "كيرتاناغارا Kertanegara" في عاصمته " ترووولا Trowula " يخبره عن وصوله إلى بلاده ورغبته بالاجتماع به وتسليمه رسالة خاصة من إمبراطور "جمقا" "جايافارمان السابع Jayawarman VII ". وسرعان ما عاد المبعوث ليخبر مولانا الشيخ بضرورة حضوره فورا إلى قصر الملك ففعل لتوه. ولما مثل بين يدي الملك قدم له الهدايا الثمينة التي حملها له معه من جمقا، فرحب به هذا الأخير ترحيبا حارا، وكان الترجمان من أصل عربي مسلم من أهل البلاد ويعرف اللغتين العربية والجاوية بطلاقة. وراح مولانا الشيخ ينقل للملك وجهة نظر إمبراطور جمقا من محاولات إمبراطور المغول قوبلاي خان السيطرة على البحار، وبالتالي خوفه من أن يصل أسطول المغول إلى جاوا فيدمر حليفته مملكة "سينغاساري Singosari " بقيادة الملك " كيرتاناغارا ". وعرض مولانا الشيخ اقتراح إمبراطور جمقا على الإمبراطور الجاوي بإقامة تحالف مع المسلمين الذين وراءهم خلافة قوية وأسطول بحري ضخم يجوب البحار. أنصت الإمبراطور الجاوي بعناية لمولانا الشيخ حتى انتهى من مقاله، فتبادل أطراف الحديث مع مستشاريه لفترة، وبعد ذلك شكر مولانا الشيخ لأمانته في نقل رسالة الإمبراطور "جايافارمان السابع " ورحب به وصحبه في بلاده ثم قال له: إن مخاوف الإمبراطور "جايافارمان السابع" مبالغ فيها لأن مملكة " سينغاساري " قوية وتستطيع أن ترد أي

غازٍ على أعقابه مدحورا حتى ولو كان المغول أنفسهم. ثم أضاف قوله أن بلاده ترحب بإقامة أي تحالف مع المسلمين لا سيما وأنهم اعتادوا إقامة علاقة مع جاوا الشرقية منذ مئات السنين وأن هناك عدداً كبيراً من المسلمين الجاويين الآن ممن يقاتلون إلى جانب قوات مملكة "سينغاساري" ضد أعدائها. وقد دهش مولانا الشيخ من درجة اعتداد الملك بنفسه إلى درجة عدم مبالاته بخطر الصينيين المغول وأدرك أن الملك ليس على دراية فعلاً بما يحدث خارج جاوا، وفهم أن السفن الصينية الكثيرة التي رآها في الميناء إنما غرضها الرئيسي دراسة أحوال البلاد ومراكز قوتها وضعفها ثم العودة بتقارير مفصلة عن إمبراطورية "سينغاساري" للإمبراطور قوبلاي خان. ومع ذلك، فقد كتم مولانا الشيخ أفكاره تلك وجعلها حبيسة رأسه، ولكنه سأل الملك عن تاريخ تواجد المسلمين في جاوا الشرقية فتجنبه الملك وحدثه عن قصة رحالة مسلم يدعى رابوراغ بن شهريار الرامهرمزي كان قد زار مملكة "الزابج " {سريفيجايا الهندوسية} البوذية في فاليمبانغ بسومطرة في عام ٣٨٠ هجري والتقى بملكها [وهو خصم كارتانيغارا اللدود} آنذاك الذي أخرج هذا الرحالة المسلم خلال استقباله له مع وفد من تجار العرب قادمين من حضرموت لأن التقاليد الملكية كانت تقضي آنذاك بأن كل من يريد أن يلتقي، بالملك سواء كان مواطنا أو أجنبيا، يجب عليه أن يجلس متوكئاً، وكانت هذه التقاليد تتعارض مع التقاليد الإسلامية. وقد شرح التاجر المسلم للملك وجهة نظرهم فتقبل الملك ذلك، وأمر باستثناء التجار المسلمين من تلك التقاليد[٣]. وقال الملك: إن هناك مقابر عديدة للمسلمين في منطقة تدعى " تارالان " بالقرب من مدينة " تراوولن "، وهي كلها قبور ترجع إلى عصر سلالة ملوك سنغاساري حوالي عام ٦٨٠ هجري. ثم هناك قبور أخرى أكثر قدما وتعود إلى عام ٤٣١ هجري مثل قبر أحمد بن أبي إبراهيم في بانرانغ جنوب تشامبي في شرق جاوا، وقبر فاطمة بنت ميمون المتوفاة في عام ٤٧٥ هجري، وهو تاريخ يعود إلى عصر مملكة " فنجالو " في جاوا الشرقية[٤]، وكلا شاهدتي القبر كتبت بالخط الكوفي العربي .

وشرح الملك لضيوفه أنه يتسامح مع التجار المسلمين الذين منحهم مستوطنة خاصة بهم في منطقة " ترولويو" ومع الإسلام ديناً، وأن الكثير من الدعاة المسلمين يتجولون بحرية في البلاد دون أن يعترضهم أحد[٥]. وكان الملك ينظر خلسة إلى كبير الكهنة الهندوس الجالس إلى يمينه وهو يتلفظ بجملته الأخيرة، وبما يدل على عدم وجود توافق في الرأي بين الملك والكاهن. وزيادة في إكرام الضيوف فقد قدم لهم الملك مجموعة من البيوت المبنية من الخشب والقصب هدية لهم لكي يقيموا فيها ما شاؤوا في المدينة.

لم تكن ثقة الملك " كيرتاناغارا " المطلقة بنفسه في محلها. فبعد أن كان أباطرة الصين يقنعون بهدايا الملوك من جيرانهم ورسائل ولائهم لهم، والجزية السنوية المقدمة

من أولئك الملوك لأباطرة " إمبراطورية السماء"[٦]، قرر قوبلاي خان المغولي تغيير طبيعة علاقاته مع أولئك الجيران طالبا منهم القدوم إلى بكين سنويا و تقديم الطاعة له شخصيا لا عبر تبادل الرسائل والمبعوثين. ولما تردد البعض من الملوك في تلبية مطالب الإمبراطور الصيني، أطاحت جيوشه الجرارة بعروشهم وقوّضت ممالكهم. وكانت سيام ثم كوريا أولى الضحايا. ولما وصلت الأنباء إلى بلاد المهراج والصنف سعى ملوكها إلى إقامة التحالفات السريعة لمناصرة بعضهم بعضاً بغية التصدي لأساطيل قوبلاي خان. وذات يوم من عام ٧٠٩ هجري وصل سفراء الخان الأكبر إلى بلاط الملك "كيرتاناغارا" في جاوا مستفسرين عن سبب عدم انصياعه لرغبة الإمبراطور قوبلاي خان بالمثول بين يديه ومنذرين إياه بأسوأ العواقب. فشعر الملك بالإهانة فأمر بتشويه وجوه السفراء وإعادتهم إلى إمبراطورهم. وكان الملك يعتقد أن قدراته السحرية قادرة على حماية مملكته، كما أنه كان مطمئنا إلى عدم قدرة أسطول الخان الأكبر على تدمير مملكته، خاصة وأن تقارير كانت قد وصلته عن غرق أسطول مغولي كبير قرب السواحل اليابانية قبيل زيارة سفراء الخان الأكبر لبلاطه في جاوا بسنتين فقط[٧]. ولكن تشويه الملك الجاوي وجوهَ سفراءِ الخان الأكبر قوبلاي خان لم يترك لهذا الأخير أي خيار آخر سوى إرسال أسطول مؤلف من ألف سفينة حربية على متنها عشرون ألف مقاتل وذلك في عام ٦٩٢ هجري لمعاقبة الملك "كيرتاناغارا". وتعمد الإمبراطور أن يرسل مبعوثين عنه إلى حكام أقاليم جاوا المعارضين للملك "كيرتاناغارا " عارضاً عليهم التحالف وشارحا لهم أن رغبته هي فقط معاقبة الملك ثم إعادة قواته إلى الصين، وأن الشعب الجاوي هو شعب صديق[٨].

وقع مولانا الشيخ جمال الدين وأولاده وصحبه أسرى للأحداث، كما تورطوا في تحالف فرض عليهم فرضا مع الملك الجاوي بحكم التحالف القائم بينه وبين إمبراطور جمقا. وباتوا ينتظرون بدء المعركة التي دعوا للمشاركة فيها دونما إيمان بمشروعيتها ودونما قناعة بأهدافها وغايتها. وهكذا سلموا أمرهم لله ووقفوا على أهبة الاستعداد. غير أن المعركة لم تحدث لأن الملك " كيرتاناغارا " مات في ظروف غامضة على يد أمير " كاديري " وذلك قبيل وصول أسطول المغول بأسابيع وخلفه في الحكم ابنه الأمير " فيجايا[*Wijaya*]" الذي فوجئ بانفضاض جميع حكام الأقاليم عنه ففر إلى جزيرة " مادورا " قبيل[٩] رسو الأسطول الصيني في فرجة نهر ". برانتاس[*Berantas*]". وهناك خيَّره قاتل أبيه أمير "كاديري" من مملكة" داها[*Daha*] " بين أن يخضع له أو أن يسلمه للمغول، فاختار الطاعة لقاتل أبيه الذي منحه إقطاعية في منطقة تقع قرب نهر "برانتاس"، فبنى فيها الأمير "فيجايا" قرية أسماها " ماجافاهيت[*Majapahit*]" وتعني باللغة الجاوية "الفاكهة المرة "[١٠]. ومن القرية الجديدة جدد الأمير فيجايا صلاته مع العديد من مؤيدي أبيه، واستطاع إقامة تحالف قوي مع أمير من

جزيرة مادورا ضد أمير" كاديري"، ثم حبك الأميران خطة محكمة للإيقاع بين قواد أسطول المغول وبين أمير كاديري الذي نقل العاصمة إلى " داها " التي تبعد يومين عن توبان[١١]. وكان الأمير فيجايا قد رحب بقواد الأسطول الصيني لدى وصولهم برانتاس، واعترف بطاعته لسلطة الإمبراطور قوبلاي خان واستعداده للمثول شخصيا في حضرته لتقديم الطاعة ودفع الجزية، وطلب مقابل ذلك مساعدة قواد الأسطول المغولي للقضاء على مغتصب عرش أبيه وهو الأمير كاديري، فقبل القادة الصينيون ذلك وتحركت قواتهم باتجاه قصر الأمير كاديري فاحتلته وسيطرت على العاصمة وشتتت قوات الأمير كاديري وأقامت مكانه في القصر الأمير فيجايا. واعتقد القادة الصينيون أن النصر المؤزر الذي أحرزوه يسمح لقواتهم بالخلود إلى الراحة فأطلقوهم في أرجاء البلاد، ولم يخطر ببالهم للحظة أن يكون أول من يطعن بهم الأمير فيجايا نفسه الذي اغتنم فرصة انشغال الصينيين بمتع بلاده على البر فأمر قواته أن تهاجم ما تبقى من تلك القوات في العاصمة والمرفأ ودمر العديد من سفنهم[١٢] بحيث لم ير قادة الأسطول مفرا من تجميع قواتهم المتبقية والفرار بعد أن أقنعوا أنفسهم أنهم قد انتقموا للإهانة التي كان الملك "كيرتاناغارا " قد ألحقها بالخان الأعظم قوبلاي خان. غير أن الحقيقة هي غير ذلك، فقد ساهم الأسطول الصيني دون أن يدري في تقوية سلطة مملكة ابن الملك الذي جاء الأسطول ليعاقبه ويقضي عليه[١٣] فيها متزامنا مع وصول ماركوبولو مبعوث الخان الأعظم قوبلاي خان[١٤] إلى شمال سومطرة واكتشافه وجود مملكة إسلامية قوية في آتشيه يحكمها الملك الصالح[١٥]، وأخرى في " فيرلاق " القريبة منها وثالثة في " سامودرا " الواقعة إلى الشمال الغربي من " فيرلاق " على بعد حوالي مائة فرسخ. ولكن ماركوبولو غادر انشيه دون أن يدري بما حدث لأسطول سيده إمبراطور الصين في جاوا. واحتفل الأمير فيجايا بالنصر على المغول وجعل مقر عاصمته قرية "ماجافاهيت " التي كان قد أسسها بنفسه وأضفى على نفسه لقب ملك، وأرسل مبعوثيه إلى الممالك القوية المجاورة ليعلمهم بانتصاره على أسطول المغول. وكان مولانا الشيخ جمال الدين وأولاده من جملة من قدموا التهنئة له، واغتنم مولانا الشيخ فرصة مغادرة مبعوثي الملك الجديد إلى الممالك المجاورة، ومن بينها إمبراطور جمقا، فأرسل مبعوثا عنه أيضا يحمل رسالة مطولة للإمبراطور "جايافارمان السابع" يشرح له فيها ما شهدته جاوا من تطورات ويطلعه على التوازنات والتحالفات القائمة في المنطقة ويبلغه هزيمة الأسطول المغولي.

ورغم أن الأسطول المغولي قد انسحب رغما عنه من جاوا، فإن الكثيرين من البحارة والجنود بقوا في جاوا وتزوجوا بناتها واستقروا مع عائلاتهم فيها ناشرين الديانة البوذية مجددا في جاوا، وكذلك فعلوا في كاليمنتان حيث لجأت إليها بعض سفن الأسطول المتضررة، وبقي البحارة فيها لأن قادة الأسطول رفضوا المكوث في جزيرة

كاليمنتان انتظارا لإصلاح السفن المعطوبة. وهكذا انسحب الصينيون عسكريا وتركوا وراءهم حضورا ثقافيا ودينيا واستقرارا دائما لجاليات كبيرة منهم في ربوع بلاد المهراج، حيث كانوا يسكنون في بيوت مبنية من الحجر الأحمر خلافا لبيوت السكان الأصليين المبنية من الخشب والقصب(١٦).

وسار الملك " فيجايا " على هدى أبيه متسامحا مع الدعاة والمبشرين المسلمين والهندوس والبوذيين، واستفاد أولئك الدعاة من أجواء التسامح فنشطوا. وكان من الواضح أن المعركة على التبشير إنما تنحصر بين المسلمين والبوذيين بشكل رئيسي لأن المجتمع الجاوي لم يكن هندوسيا في الواقع، لأن الهندوسية دين الطبقات الحاكمة وذوي السلطة أساسا، وهذا الدين قائم على فكرة التقسيم الطبقي للمجتمع واعتبار الفقراء من أهل البلاد بمثابة طبقة منبوذة ووضيعة حكما(١٧)، ولذلك فإن الشعب في أغلبيته في جاوا لم يكن يميل إلى هذا الدين الذي يضع حدا لتطلعاته باتجاه الأفضل. وهكذا فإن الشعب الجاوي حوّل الفلسفة الهندوسية إلى فنون وخيالات وأساطير محلية حتى أصبحت مادة للعبة " الوايانغ [*Wayang*] " التي تحكي تراث سكان جاوا وتستخدم فيها شخصيات وهمية يحركها الراوي(١٨).

وأما الدعاة المسلمون، وخاصة علي نور العالم وبركات، فقد لقوا تأييدا عارما من جانب عامة الشعب لأنهم كانوا يدعون إلى وحدانية الله وإلى العقيدة التي تدعو إلى كرامة الإنسان بغض النظر عن الشريحة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وهو أمر لم يكن ليخطر على بال أحد قبل الإسلام، كما كان الدعاة يدعون إلى العدالة والحرية الشخصية وصفاء الإيمان والابتعاد عن الظلم. وكان أكثر ما يؤثر بأهل جاوا من الأشياء هو منظر المسلمين عندما يصلون جماعة سوية دونما تمييز بين أحد، وكذلك هيئة الدعاة البسيطة التي يغلب عليها الطابع المتصوف القادر أكثر من غيره على التأثير في الناس الفقراء والمساكين(١٩).

وبطبيعة الحال كان مولانا الشيخ جمال الدين وأولاده ابراهيم أسمارا وعلي نور العالم وبركات رأس الحربة في عملية الدعوة حتى صار الناس يطلقون على مولانا الشيخ اسم شريف أولياء تيمنا بنفسه وقرابته للرسول محمد بن عبد الله (ﷺ). ولاقت الدعوة الإسلامية نجاحا منقطع النظير في جاوا الشرقية فقرر شريف أولياء أن يذهب إلى بلاد البوقس لينشر فيها الإسلام وأرسل ولده إبراهيم أسمارا إلى ميندناو، كما أرسل علي نور العالم وبركات ليتابعا الإشراف على الدعوة في جاوا. ولاقى شريف أولياء نجاحا أكبر في البوقس ومكاسر في جزيرة سولاويسي، وما هي إلا فترة حتى انتشرت المساجد فيها وكثر عدد المسلمين بين السكان المحليين الملايويين، وأما ابراهيم أسمارا فقد وصل في سفينة شراعية إلى غرب ميندناو، حيث تزوج هناك من ابنة أحد الزعماء المحليين التي أنجبت له ابنة أسماها أبوها "بارامیسولي". وبعد إقامة

طويلة له في الجزر الفيليبينية والملايوية طعن شريف أولياء في السن وتعب من كثرة السفر والترحال فتوفاه الله في بلاد البوقس ودفن في منطقة "تواجو" جنوب سولاويسي في عام ٧٣٦ هجري[٢٠]، فانتقلت راية القيادة الأسرية والدينية لابنه الأكبر إبراهيم أسمارا الذي بزّ والده في الدعوة وفي اجتذاب قلوب الناس إليه. ولم يكن إبراهيم ينشط وحده في مملكة "ماجافاهيت"، بل كان يساعده أخواه علي نور العالم وبركات، وكذلك ابناه إسحاق وعلي المرتضى اللذان جاءا معه عندما هاجروا من جمقا. وأما ابنه الثالث علي رحمة الله فقد كان قد تركه في جمقا مع والدته، كما كان يساعده أيضا ابن شقيقه بركات الشاب ملك إبراهيم، وابن شقيقه علي نور العالم الشاب عبد الله [٢١].

ولكي يكون نشاط الدعوة واسعا في كامل الأراضي التي يسيطر عليها الملك فيجايا، فقد وجه إبراهيم أسمارا ابنه إسحاق لنشر تعاليم الإسلام في "باساي" بسومطرة. ولم يلبث الابن الثالث علي رحمة الله أن وصل إلى جاوا، من جمقا، في عام ٧٥١ هجري وعمره عشرون عاما فاجتمع بأبيه وإخوته وأعمامه ورهطهم ثم توجه إلى فاليمبانغ غرب جزيرة الرامني {سومطرة} حيث توجد جالية مسلمة كبيرة جدا من العرب والإيرانيين والهنود باعتبار أن فاليمبانغ كانت منذ قديم الأزمان أول مرفأ ترسو فيه السفن الإسلامية القادمة من كوجرات والبصرة وحضرموت والأبلة، ونظراً لمكانة إبراهيم أسمارا أو كما صار ينادَى "سونن أنفاسيك توبان" في جاوا، وللنسب الشريف الذي يحمله ابنه علي رحمة الله فقد استضاف أمير فاليمبانغ " آريادامر " وهو ابن الملك فيجايا الداعية الشاب علياً في قصره وصار يناديه "رادين رحمة الله " أي السيد رحمة الله. وحدث آنذاك ان الملك "ماجافاهيت" الأب الهندوسي الديانة تزوج من ابنة أمير "جومبي" الواقعة في شمال سومطرة وذلك عربونا عن أواصر التحالف بينهما، وكانت العروس الجديدة مسلمة فغارت منها الملكة وضغطت على زوجها كيلا يتزوجها. ونظرا للإحراج الشديد الذي وقع فيه الملك إزاء حليفة الأمير، والد العروس، فقد أرسل الملك الفتاة إلى ابنه "أريادامر " حاكم ولاية فاليمبانغ في سومطرة الجنوبية لكي تكون عروسا له فتزوجها الابن .

وخلال إقامة الشيخ علي رحمة الله في القصر استطاع إقناع مضيفه الأمير بالإسلام ففعل وغيّر اسمه إلى عبد الله، كما أسلم معه كبير قادته "جايا ويشو " الذي تسمى باسم عبد الفتاح[٢٢]. وما هي إلا أسابيع حتى سرت الأخبار في الولاية بإسلام أميرها عبد الله وكبير قادته عبد الفتاح. فأقبلت الرعية على مساجد فاليمبانغ تشهر إسلامها، وتكرر في فاليمبانغ ما كان قد حدث في آتشيه وغيرها من ممالك سومطرة الشمالية منذ أكثر من مائة وخمسين عاما.

عندما وصل مبعوث شريف أولياء إلى الإمبراطور "جايافارمان السابع" وقف منه على التطورات المذهلة التي حدثت بين حليفته مملكة " ماجافاهيت " وبين أعدائه

المحتملين المغول الصينيين. وقد سر الإمبراطور بالأنباء واعتبرها جيدة ولصالح إضعاف الهيمنة المغولية على المنطقة المحيطة ببلاده. وتعبيرا عن مودته وتجديدا لتحالفه مع الملك فيجايا، أرسل الإمبراطور ابنته الجميلة "دوا راواتي " لتكون عروسا له. وهكذا أصبحت " داوا راواتي " زوجة الملك الجاوي " فيجايا " خالة لزوجة إبراهيم أسمارا التي كان قد تزوجها في جمقا واسمها " جندا وولن ". فقويت بذلك صلة المسلمين بالقصر الملكي في مملكة " ماجافاهيت " وتعزز نفوذهم في بلاطها(٢٣).

وفي " سمودرا باساي " ازدادت قوة المملكة الإسلامية متانةً أيضاً في عهد السلطان الملك أحمد ابن السلطان محمد الظاهر الذي عقد سلسلة من التحالفات مع الممالك الإسلامية الأخرى في سومطرة القريبة من مملكته وخاصة أتشيه ومملكة " قاليمبانغ " التي يحكمها الملك عبد الله، كما حج إلى مكة المكرمة وصارت سفنه تقوم برحلات مباشرة إلى البصرة وحضرموت. وأما في الهند فقد كان سلاطين كوجرات من آل طغلق مايزالون يسيطرون على إقطاعاتهم الكبيرة، غير أنهم كانوا يخشون من احتكاكهم بالمغول الوثنيين التابعين لإمبراطورية الخان الأعظم قوبلاي خان.

توفي السيد أحمد شاه جلال نقيب الطالبيين والجد الأكبر لـ" شريف أولياء " وأولاده و إخوانه. وقد خلفه في النقابة ابنه علوي، وقد اتسعت نقابة الطالبيين في تلك الفترة اتساعاً كبيراً إذ ورد منهم إلى كوجرات أعداد غفيرة من آل الحراث وآل الكاف وآل الجفري في قاليقوط بماليبار {المعبر} وآل العيدروس وآل عبد الرحمن في رازفور في منطقة " راجبور " وآل باعمر في "سورات " وآل الشاطري(٢٤).

في مصر توفي الخليفة العباسي المستكفي بالله وخلفه الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله في عام ٧٤٠ هجري، وكان القائم بأمور الدولة الملك الناصر محمد بن قلاوون من المماليك البحرية. وبقيت بغداد بيد الشيخ حسن الكبير، في حين استمرت خراسان وماوراء النهر بيد المغول "جقطاي " وهم من غير بني هولاكو الذين أسلموا. غير أن الخليفة العباسي الجديد خلع في عام ٧٤١ هجري بعد حكم دام سنة واحدة فقط وخلفه على الحكم أخوه الواثق بالله الذي بايعه الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية القوي قبل أن يخلع بدوره في عام ٧٤٤ هجري فملك بعده أخوه الملك الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون إلى أن خُلع بدوره في العام نفسه ليملك بعده أخوه الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون الذي أحضره المماليك من الكرك. واستمر الملك الناصر أحمد في الحكم حتى خلع نفسه بنفسه سنة ٧٤٣ هجرية لعدم تمكنه من فرض سيطرته على مماليكه ولخوفه من قتلهم إياه. وتولى الحكم بعده أخوه الملك الصالح(٢٥) إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون الذي بقي في الحكم حتى توفي سنة ٧٤٦ هجرية فانتقلت السلطة بعده إلى أخيه الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون فبقي في سدتها حتى خلع سنة ٧٤٧ هجرية فملك بعده أخوه الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون(٢٦). وهكذا دخلت دولة المماليك في دوامة

عدم الاستقرار وضعف نفوذها و تراجعت سطوتها. ثم توفي الخليفة العباسي الواثق بالله في عام ٧٤٨ هجري فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله، أبو بكر بن سليمان بن أحمد أبو الفتح الذي تسمى المعتضد بالله. ووجد هذا الخليفة لدى تسلمه سدة الخلافة خارطة متحركة لتوازنات القوى داخل مصر وخارجها، فبعد أن أشرف صاحب الدولة المصرية المظفر هاجي بن الناصر محمد بن قلاوون على بيعة الخليفة العباسي الجديد خلع ثم قتل في الشهر نفسه على يد مماليكه، وملك بعده أخوه الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم حتى سنة ٧٥٢ هجرية، فخلع وحل مكانه أخوه الملك الصالح صالح بن الملك الناصر فخلع بدوره في عام ٧٥٥ هجري ليملك بعده أخوه الملك الناصر حسن المقدم الذي بقي يحكم حتى عام ٧٦٢ هجري حيث خلعه مماليكه وقتلوه، وسلموا الدولة بعده إلى ابن أخيه الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي ابن النصر محمد بن قلاوون(٢٧).

وكانت اليمن بيد الملك المجاهد علي بن المؤيد هزبر الدين داود الذي قرر في عام ٧٥١ أن يحج إلى مكة المكرمة في أيام الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام. وكان الأمير "طاز" أحد أكابر أمراء الديار المصرية قد حج في تلك السنة نفسها، وأشيع في يوم الحج أن ملك اليمن ابن علي يكسو الكعبة، وهذا خروج على العادة المتبعة وهي أن تقوم ملوك مصر بتقديم الكسوة سنويا. فاهتاج الأمير طاز واستنصر جنده فوقعت الفتنة بين العسكر المصري والعسكر اليمني فانهزم الملك المجاهد ووقع أسيرا بيد الأمير طاز الذي حمله إلى مصر حيث اعتقل فيها لمدة سنة ثم أطلق سراحه في دولة الملك الصالح صالح الذي وجه معه الأمير قشتمر المنصوري ليوصله إلى بلاده، فلما بلغ به ينبع قرب المدينة المنورة ارتاب منه واشتم فيه الغدر فرجع به إلى مصر حيث حبس في الكرك، ثم أطلق سراحه وأعيد إلى ملكه مداريا صاحب مصر(٢٨).

وأما بغداد وما معها من ايران فقد انتقلت من يد الشيخ حسن الكبير بعد وفاته في عام ٧٥٧ هجري إلى يد ابنه أويس ابن الشيخ حسن. وكانت مملكة الشمال من بلاد الترك بيد ماماي المستولي عليها بعد قتله لطقتمر، غير أن قائدا من قواد الشيخ يدعى صلجي جركس زحف عليه وملكها من يده، ثم انتقل الحكم إلى " أيبك خان " ومنها إلى ابنه " قاني بك خان". وفي حضرموت توفي السلطان يماني بن عمر في عام ٧١٤ هجري، فآل الأمر من بعده إلى أخيه أحمد بن يماني الذي اصطدم بمناوشات مستمرة مع قبيلة الصناهجة التي تبعد مضاربها عن تريم عشرة فراسخ(٢٩). وعاصر السلطان أحمد هذا الفقيه محمد مولى الدويلة الطالبي عميد ونقيب أسرة الطالبيين في حضرموت، ولما تنازل السلطان أحمد عن عرشه لابنه محمد بن أحمد كان مولى الدولة قد توفي واستلم رئاسة نقابة الطالبيين في حضرموت مكانه الإمام عبد الرحمن السقاف في عام ٧٦٩ هجري(٣٠).

حواشي الباب السادس

(١) "مكاسر" و بلاد " بوقس " هي مناطق تقع في جنوب جزيرة سولاويسي الإندونيسية .

(٢) يذكر الحبيب أحمد السقاف في كتابه " تاريخ سلطنة بانتن " لمكتوب بخط اليد في جاكرتا عام ١٩٤٥ ، في الصفحة ٤٥ بعضا من أسماء السفن العربية التي كانت تؤم المرافئ الإندونيسية أنذاك. ومن تلك الأسماء: هداية – الرحمن – فتح الأرزاق – بيرق – فتح السلام – نسر البحر. كما يذكر د . حسن معارف أنباري وجود تجمعات إسلامية كبيرة في مدينة تراولان في ذروة قوة إمبراطورية ماجاباهيت الهندوسية. (انظر: د. حسن معارف أنباري ، " Old Banten : An Islamic City in Indonesia " بحث منشور في " Islamic Civilization in the Malay World " مطبوعات IRCICA اسطنبول ١٩٩٩ ، الصفحة ٥٨) .

(٣) القصة وردت في كتاب " شبكة العلماء " للدكتور أزيوماردي أزرا، الصادر في جاكرتا في عام ١٩٩٩ عن مركز الدراسات الإسلامية والاجتماعية – انظر صفحة ٥، مع فارق أن إلغاء عادة التوكو تمت بناء على طلب تاجر مسلم من عمان، وليس بناء على طلب الرحالة شهريار الرامهرمزي .

(٤) انظر محاضرة د. أوكا جاندرا ساسميتا المعنونة بـ:" مجيء وانتشار الإسلام في إندونيسيا " باللغة الإنكليزية ألقيت في الندوة الدولية التي جرت في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٩ تحت عنوان " مجيء الإسلام وانتشاره في جنوب شرق آسيا " . والمحاضر هو عضو في معهد الدولة للدراسات الإسلامية في جامعة شريف هداية الله الحكومية بجاكرتا .

(٥) المرجع السابق نفسه ، صفحة ٥. والواقع أن تسامح الملك مع المسلمين وغيرهم قد ورد في أكثر من مرجع إسلامي وصيني، ومن بين هذه المراجع ابن الفقيه المتوفى عام ٢٩٠ هجري . فقد أشار في كتابه إلى أن مملكة " سريويجايا " منفتحة لكل الشعوب ، وأن المرء يجد من يتحدث فيها باللغة العربية والفارسية والصينية . (انظر : فتاوى مجلس العلماء الاندونيسي Nusantara لمحمد عطا مظهر الصادر عن مركز الدراسات الإسلامية والاجتماعية التابعة لوزارة الشؤون الدينية في جاكرتا ١٩٩٦، ص ٧ .

(٦) إمبراطورية السماء هي الاسم الرمزي للصين. وهناك معانٍ أخرى لكلمة " الصين " مثل " وسط الدنيا " أو " مركز العالم " .

(٧) انظر " Nusantara " ، ص ٤٩ .

(٨) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٤٩ .

(٩) المرجع السابق نفسه، ص٥٠. وهناك مرجع صيني قديم وجد في شرق جاوا ويرجع لعام ١٤٨٦م، يشير إلى أن انهيار إمبراطورية ماجاباهيت حصل بفعل هجوم مملكة كديري [داها] الهندوسية عليها التي نقلت العاصمة إلى كديري عام ١٤٧٨ م.

(انظر : Uka Tjandrasasmita ،" The Arrival and Expansion of Islam in Indonesia " ، بحث منشور في كتاب " The Islamic Civilization in the Malay World " مطبوعات مركز IRCICA اسطنبول ١٩٩٩ ، الصفحة ٤٨ . ولكن Cesar Adib Majul ، يعزو سقوط ماجاباهيت إلى تأثير انتشار الإسلام في الإمبراطورية الهندوسية، انظر : المرجع السابع نفسه الصفحة ٢١.

(١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٠ .

(١١) أدى صعود دولة " ماجاباهيت " في جاوا في نهاية القرن ١٣ م إلى صياغة شبكة تجارة جديدة في المنطقة، وفي الوقت نفسه فقد بدا أن الغزوات المغولية قد أدت إلى دور أكبر لتداول العملة الصينية النحاسية في اقتصاد جاوا، وكذلك إلى انتشار أكبر للطرائق الصينية في بناء السفن في جاوا . ففي القرن ١٤ م كانت تحكي قصص " ناغارا كارتاغاما " الماجاباهيتية عن تجار من الهند وكمبوديا والصين وفييتنام وتحشامبا وسيام كانوا يأتون إلى جاوا. وأدى الإقبال المتزايد على السلع الثمينة في القرن ١٤م إلى قيام ماجاباهيت باستيراد الحرير الصيني والخزف مستخدمة في ذلك العائدات التي تجنيها من تجارة البهارات والعطور وتزودنا النصوص الصينية بمعلومات حول بعثات التجارة الدبلوماسية من دويلات إندونيسيا للصين خلال نهاية القرن ١٤ م وبداية القرن ١٥ م، وهي بعثات من الملك الغربي والملك الغربي في جاوا، وكذلك من مبعوثين تجاريين مرسلين من مهراجا فاليمبانغ المدعو / سانغو كي/ ومن عدة ملوك في سمودرا . وكان يقود بعثات جاوا أشخاص لقبهم " أريا " أو " باتيه " مع أن الكثيرين منهم يحملون أسماء صينية، وكانوا يبيعون العطور والبهارات والخيول والحيوانات النادرة إلى الصين، ويشترون منها الحرير والخزف والحديد. وأما مبعوثي الصين إلى جنوب شرق آسيا في تلك الفترة فقد كانوا إما مبعوثو سياسيين أو تجاراً يجلبون معهم الخزف والحرير . وفي بداية القرن ١٥م، أرسى الإمبراطور " يونغ لي " من سلالة " مينغ " سلسلة من السياسات الرامية لتعزيز موقعه وبسط نفوذ سلالته خارج حدود الصين . وتضمنت تلك السياسات إرسال أمراء بحر مخصيين كان أشهرهم أميرال مسلم يُدعى " زينغ هي " الذي أرسل إلى آسيا و الشرق الأوسط. وحملت العديد من الرحلات في الفترة من ١٤٠٥ م – ١٤٣٣ م العديد من القوات العسكرية الصينية والتجار إلى مرافئ جاوا وفاليمبانغ وملقا وآرو وسمودرا وأتشيه، وحتى المحيط الهندي. وكان من نتائج تلك البعثات بدء ما يُسمى بعصر التجارة الأسيوي في القرون القادمة. وكانت السفن الصينية تصل أولا إلى توبان ثم غرسيك ثم سورابايا وماجاباهيت حيث يعيش الملك. وكانت جاوا تزود التجار الصينيين بخشب الصندل والمجوهرات والفولاذ وقواقع السلاحف. وقد انتهت الحملات البحرية الصينية في الثلاثينات من عام ١٤٣٠م. وهكذا تضاءلت البعثات الصينية الرسمية إلى الأرخبيل تضاؤلا كبيرا بعد ذلك، في حين استمر مبعوثو جاوا بالوصول إلى الصين حتى النصف الثاني من القرن ١٥ م . وكانت لهذه البعثات الجاوية فائدة اقتصادية كبيرة دفعت بالإمبراطور الصيني في عام ١٤٤٣ م إلى إصدار تعليمات إلى حاكم جاوا لتحديد عدد بعثاته إلى واحدة كل ثلاث سنوات. ثم توقفت التجارة الرسمية بين الصين و دويلات إندونيسيا نهائيا قبل عام ١٥٠٠ م .

{انظر بالإنكليزية موسوعة " INDONESIAN HERITAGE "، الجزء المعنون بـ " EARLY MODERN HISTORY "، ص ٣٢ } .

(١٢) – المرجع السابق نفسه ، ص ٥٠ .

(١٣) – المرجع السابق نفسه ، ص ٥٠

(١٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٥١ .

(١٥) الملك الصالح (١٢٩٧م) واسمه الحقيقي " مراح سيلو Marah Silu " كان رئيسا في " Samudra " ويعتبر مؤسس أول سلطنة إسلامية في شمال سومطرة ، ومن غامبونغ سامودرا انتقل الإسلام إلى " ترينغانو Trengganu " {ماليزيا} في القرن ١٤ م. دفن الملك الصالح في " غامبونغ Gampung " . وقد التقى هذا الملك بالرحالة الإيطالي ماركو بولو خلال توقف هذا الأخير في مملكته شمال أتشيه الحالية.

(١٦) انظر الصفحة ٥٥ من كتاب " تاريخ سلطنة بانتن " بخط اليد للحبيب أحمد السقاف ، جاكرتا ١٩٤٥ .

(١٧) شن العلماء المسلمون حربا لا هوادة فيها على " قانون العادات " و رؤساء " العادات " واتهموهم بالخرافة والزندقة. وقد ساعد على نجاح هذه الحملة أن هؤلاء عاشوا في بذخ وترف حرم ملايين الناس من العيش الكريم، بل وجعلهم يعيشون على حافة الجوع. ذلك أن " قانون العادات" اعتبر الثروة والأملاك حقا مشاعا، على حين نزع الإسلام إلى تبني منح الحقوق الفردية في الملكية وتوزيع الإرث وفق الشريعة الإسلامية مما لا عم كل الملاءمة مطامع و مصالح الطبقات العامة. ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام كان ذا تأثير ثوري وداعية للتجديد، بحيث شعر الاندونيسيون وهم يتحولون إلى الإسلام بمزيد من الاستقلال الفردي. ومن جهة أخرى غذى الإسلام حركة المقاومة ضد الهولنديين، وأصبح رمزا لمقاومة النفوذ الأجنبي وعاملا موحدا للشعب الاندونيسي، علاوة على كونه معارضا صلبا لنظام الطبقات الهندوكية .

والمقصود بقانون العادات هو القانون الديني والعادات والتطبيقات الشائعة في المجتمع الاندونيسي القديم قبل وصول الإسلام، وهو قانون بدائي يشمل الأعراف التي نبعت من القبائل التي عاشت على صيد الحيوانات وصيد الأسماك في سومطرة وبورنيو والسليبيس وغينيا الجديدة (إيريان)، وكذلك نتاج الأعراف والعادات القبلية التي تكيفت على مر القرون. وكان لهذا القانون البدائي مكان بارز في الحياة الإندونيسية، حين وصل الهولنديون في بداية القرن السابع عشر واستعمروا البلاد ، تبنوا ثنائية في النظام التشريعي وطبقوا القوانين الأوروبية على الأوروبيين وقانون العادات على المجتمعات الإندونيسية الأصلية. وشجعوا الرؤساء القبليين والدينيين الذين أطلق عليهم اسم "شيوخ العادات " كبديل ومعارض للإسلام والشريعة الإسلامية. وحين حل الإسلام محل الإمبراطورية الهندوكية المسماة " ماجاباهيت" ، اختلط العرب بالسكان المحليين وأصبحوا حكاما على المقاطعات و تصاهروا مع الأسر النبيلة . ولعل من أسباب نجاح العرب في إندونيسيا أنهم جلبوا معهم أفكارا ثورية من النواحي الاجتماعية والسياسية صادفت هوى في قلوب الجموع المضطهدة المغلوبة على أمرها بسبب صلابة التقسيم الاجتماعي الطبقي وسيطرة الكهنة البراهمة و" شيوخ العادات". وكذلك استطاع العرب المسلمون أن يُدخلوا أفكار المعارضة والاهتمام بالأمور اليومية في مجتمع دمغته الهندوكية والبوذية بالصوفية السلبية. أضف إلى ذلك أن الإسلام لعب دوره كقوة قومية وحدت الإندونيسيين ضد تدخل الهولنديين. وقد ظل الإسلام يلعب دوره ضد السيطرة الهولندية حتى استقلال إندونيسيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية. (لمزيد من المعلومات الممتعة حول هذه النقطة ، يمكن الرجوع إلى مقال الأستاذ فيصل السامر بعنوان : " الإسلام في إندونيسيا " والمنشور في مجلة " عالم الفكر " الكويتية، العدد رقم / ١/ الصادر عام ١٩٨٤ ، ص ٢١٠ إلى ٢٢٠).

(١٨) " الوايانغ " هي لعبة شعبية إندونيسية قديمة تحاكي ما يسمى في البلاد العربية بمسرح الدمى أو مسرح العرائس . ويتم خلال عرضها تقديم شخصيات أسطورية من تراث إندونيسيا يحركها راوٍ يختفي وراء ستار .

(١٩) وصف الباحث جونز في دراسته عن الصوفية باللغة الإنكليزية والمعنونة بـ: J. Scuh ،" " pages : ١٠-٢٣، II (١٩٦١) ،٢ Sufism as a Category in Indonesian Literature and History " الصوفيين في إندونيسيا كالآتي: "هم دعاة الإسلام يقومون بالسياحة في أنحاء العالم الذي يعرفونه، يعيشون فقراء عن رضا، يرتبطون أحيانا بجماعات التجار وأحيانا أخرى بأصحاب الحرف اليدوية وفقا لطرقهم الصوفية ، وهم يقومون بتعليم الثيوصوفيا (معرفة الله عن طريق الكشف الصوفي) سالكين منهج التوفيق بين المعتقدات المختلفة. وكان للاندونيسيين علم بذلك في الغالب. واستطاع أولئك الصوفية أن يوفقوا بين هذه التعاليم و بين الشريعة الإسلامية أو أن يعتبروها تطويرا للعقائد الإسلامية، وكان لديهم كرامات يستطيعون بها أن يحرروا الإنسان من

الأمراض، كما أن لديهم استعدادا للتسامح مع ما كان عليه السوء فيما سلف، وقد طوعوا المصطلحات والعناصر الثقافية (المحلية) للاستخدامات الإسلامية .

وهكذا يرى جونز أنه بحكم هذه الكرامات وهذا النفوذ الخارق استطاع بعض الشيوخ الصوفية أن يتزوجوا من بنات الأسر الملكية في الأرخبيل فهم يعطون لأبنائهم شرف الملك مع النفوذ الديني في الوقت نفسه. والنتيجة التي وصل إليها جونز هي أن الإسلام لم يكن راسخا متأصلا لدى سكان المناطق في الأرخبيل و لم يتم إسلام ملوكهم إلا بعدما قام الصوفية بمهمتهم ، وهي ظاهرة لم تكن موجودة قبل القرن الثالث عشر الميلادي .

ولمزيد من الأبحاث عن الصوفية في إندونيسيا يمكن الرجوع إلى المقالات التالية المنشورة في مجلة "ستوديا إسلاميكا" الصادرة في جاكرتا باللغتين العربية والإندونيسية:

العدد رقم (٢) السنة الثالثة ١٩٩٦ ، مقال بعنوان : " التصوف في إندونيسيا ، دراسة لنسخة كتاب " مطالب السالكين " تأليف يوسف المكاسري ، بقلم أويس قرني من صفحة ١٦٨ إلى صفحة ١٨٩ .

العدد رقم (٣) السنة الثالثة ١٩٩٦، مقال بعنوان "التصوف والطرق الصوفية في إندونيسيا، الاستمرارية والتجديد"، بقلم حامد نصوحي زين، من الصفحة ١٥٣ إلى صفحة ١٨٥ .

العدد رقم (١) السنة الخامسة ١٩٩٨ ، مقال بعنوان " المعاهد التراثية والشيوخ والطرق الصوفية " ، بقلم خير الأنوار ، من صفحة ٧٣ إلى صفحة ١١٠ .

(٢٠) انظر محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ص ١٨٠ .

(٢١) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨١ ، و " شمس الظهيرة " ، ص ٥٢١

(٢٢) انظر عبد الرحمن بن محمد المشهور ، " شمس الظهيرة "، الجزء الثاني ، ص ٥٢٥.

(٢٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٢٥ .

(٢٤) يوجد في فاليمبانغ حارة تسمى " يسرين "، واسم الحارة هو نسبة للقب علوي يسرين بن أحمد بن عبد الرحمن من آل الكاف الذين كان لهم في فاليمبانغ سفنٌ يملكونها و يتاجرون بها مع جميع الأمصار المحيطة بإندونيسيا .

(٢٥) يعتقد د. محمد أحمد السنباطي ان النفوذ البحري الدولة الفاطمية في مصر قد وصل إلى الهند وملقا ، وأن اختيار أوائل الملوك المسلمين في شمال سومطرة لاسم " الملك الصالح " و " الملك الظاهر " كان تقليدا للألقاب المستعملة آنذاك في مصر. ويضيف قوله: إن العصر الذهبي لاستخدام الألقاب المصرية في سومطرة كان خلال حكم المماليك، وأن لقب " الملك الصالح " قد وصل إلى إندونيسيا على يد الأدميرال إسماعيل الصديق قائد حملة الأسطول البحري للمماليك الذي أبحر إلى إندونيسيا لغزو الممالك الفاطمية في سومطرة فاستولى على مملكة دايا باساي ونصب عليها مرح سيلو وسماها مملكة سامودرا باساي عام ١٢٤٨ م ولقبه " الملك الصالح " عام ١٢٨٥م. غير أن هذه الرواية غير دقيقة وحافلة ، برأينا ، بالمبالغات غير الموثقة تاريخيا. { انظر : د . محمد أحمد السنباطي ، " حضارتنا في إندونيسيا " ، منشورات دار القلم – الكويت – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ، الصفحة ١٧١ } .

(٢٦) انظر : القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، ص ٢٢٨

(٢٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢٨) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٢٩) انظر : صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " ، الجزء الثاني ، ص ٥١٥ .

(٣٠) انظر لمحة موسّعة عن حياة الإمام عبد الرحمن السقاف في المرجع السابق "تاريخ حضرموت "، الجزء الثاني ، ص : ٧٤١ – ٧٤٧ .

البـــــاب السابــــــع

مع ابن بطوطـة

[غريب بلا غربة في بلاد الملايو]

وأما ما بقي من الأندلس بيد المسلمين وهو غرناطة وما معها، فقد كان بيد يوسف بن أبي الوليد الذي توفي في عام ٧٥٥ هجري فولي مكانه ابنه محمد بن يوسف إلى أن خلع في عام ٧٦٠ هجري وولي مكانه أخوه إسماعيل بن يوسف. وكانت تونس وأفريقيا وتلمسان والمغرب بيد السلطان أبي عثمان المريني المعروف برعايته للعلماء والأدباء. ومن هؤلاء العلماء فقيه كان يتردد على قصر السلطان اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم من قبيلة اللواتي البربرية الكبيرة المنتشرة على طول الساحل الأفريقي من بحر الظلمات[1] حتى ليبيا. وكان أصحابه ينادونه " ابن بطوطة "[2] وفي يوم من الأيام فاتح ابن بطوطة السلطان أبا عثمان المريني برغبته في أداء مناسك الحج فأذن له السلطان وأمر له بعطاء ومرافقين يرافقونه في رحلته إلى الحجاز. وانطلق ابن بطوطة من مدينة طنجة مسقط رأسه يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام ٧٢٥ هجري بغية الحج دون أن يدري أن الأقدار ستجعله رحالة وجغرافيا مشهوراً رغم أنفه إذ لم يَدُرْ في خَلَده أن الأنواء ستقذف به إلى مختلف الأصقاع فلا يعود إلى وطنه إلا بعد سنين طويلة .

اجتاز ابن بطوطة الجزائر وتونس وليبيا حتى وصل إلى الإسكندرية في مصر سنة ٧٢٦ هجرية حيث تعرف على إمام زاهد مشهور فيها يدعى الشيخ برهان الدين الأعرج وأمضى في ضيافته ثلاث ليال كانت كافية لكي يلقي في روع ابن بطوطة حب التنقل والترحال إذ دخل عليه ابن بطوطة صباح اليوم الثالث محييا ومودعا فقال له الشيخ: أراك تحب السياحة في البلاد، فقال له ابن بطوطة: " نعم إني أحب ذلك ". فأجابه الشيخ: " لا بد لك من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكريا بالسند، وأخي برهان الدين في الصين، فإذا لقيتهم فأبلغهم مني السلام ! "[3]. فنظر ابن بطوطة في وجه مضيفه مستغربا ومفكرا في مدلول تلك الكلمات، ثم ودعه واتجه جنوبا صوب دمياط ومنها إلى ميناء عيذاب على بحر القلزم[4] لكي يعبر إلى الحجاز، ولكنه فوجئ بحرب ضروس ناشبة بين سلطان المنطقة وقبائل البجاة تحول بينه و بين عبور البحر فعاد إلى القاهرة ومنها إلى الشام ثم إلى الحجاز. وبعد أدائه الحج قصد البصرة مع الركب العراقي ومنها إلى الأبلة ثم أصفهان وشيراز وكازرون، ثم عاد

مجددا إلى مكة فبقي فيها ثلاث سنوات وانتقل منها إلى اليمن حيث زار "زبيد" عاصمة السلطان نور الدين علي من بني رسول ثم صنعاء ثم عدن حيث ركب سفينة حملته إلى زيلع في أفريقيا ثم مقديشو وبعدها " كلوا ". وبعد ذلك عاد إلى ظفار في حضرموت ثم إلى عمان ومنها إلى هرمز وسيراف. عاد بعدها إلى بلاد الشام ثم أنطاكية وقونية وأزمير وسينوب على البحر الأسود حيث عبر منها إلى جزيرة القرم ونزل في مدينة الكفا التابعة لجمهورية جنوة مسقط رأس الرحالة ماركوبولو فشاهد فيها أكبر سوق للرقيق المملوكي رأته عيناه، كما سمع ابن بطوطة فيها صوت نواقيس الكنائس لأول مرة في حياته. وبعد عدة أيام اكترى عربة حملته إلى مدينة القرم ومنها إلى آزوف في القوقاز حيث طلب مقابلة السلطان محمد أوزبك خان من مغول القبيلة الذهبية في معسكره في موضع يدعى "بش داغ" فأذن له بالمثول بين يديه. ولما حضر ابن بطوطة إلى المعسكر بين يدي السلطان الذي كان جالسا على سرير مذهب وجد نفسه لأول مرة أمام زوجات السلطان الأربع وهن: الخاتون طيطغلي تليها الخاتون كبك ثم الخاتون بيلون وبعدها الخاتون أردوجا(٥). وكان يقف أسفل السرير على اليمين ابن السلطان تين بك، وعن اليسار الابن الثاني جان بك، في حين كانت ابنته إيت كجك تجلس بين يديه. ورغم أن السلطان المغولي مسلم فإن استقباله لابن بطوطة وغيره كان على أعين الناس دون احتجاب. وأذن السلطان لابن بطوطة بالكلام فقدم نفسه ونقل تحيات السلطان المريني له وشرح له الرحلات التي قام بها مبديا إعجابه الشديد بالدور القوي الذي يقوم به السلطان المغولي في حماية ثغور الإسلام من الإفرنج . وكان السلطان محمد أوزبك شديد القوة ورفيع المكانة بين قومه وقاهراً حكّام القسطنطينية يناجزهم القتال باستمرار وينتصر عليهم. وسأل السلطان المغولي ابن بطوطة عن بعض مسائل الدين الإسلامي فأجابه عنها بطريقة أثارت إعجابه، ثم سأله عمن هم برأيه أعظم الملوك الذين سمع بهم فقال له ابن بطوطة: إن ما أعرفه هو أن هناك سبعة ملوك عظام في الدنيا وهم مولانا السلطان المريني، وسلطان مصر والشام وسلطان العـــراق وحضرتكم وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. فسر الخان المغولي من إجابته وأمر له بعطاء وفير وجعله يحضر مجلسه طوال إقامته في معسكره، ثم اصطحبه معه إلى مدينة الحاج ترخان(٦)، حيث رغبت زوجته الثالثة خاتون بيلون، وهي بنت ملك الروم أندرونيكوس الثالث، أن تزور أباها لتضع حملها عنده، فأذن الخان لزوجته وأرسل معها ابن بطوطة. ووصلت الخاتون إلى قصر أبيها الملك الرومي ومعها ابن بطوطة الذي فوجئ بعد أيام بعدم رغبة الخاتون بالعودة إلى زوجها فقفل عائدا إلى عاصمة الخان في مدينة السرا على نهر الفولغا فأخبره بقرار زوجته عدم العودة فاحتد الخان غيظا وتوعد أباها بالويل والثبور. وقد آثر ابن بطوطة عدم البقاء أكثر من ذلك في بلاط الخان خوفاً من أن يوقع به أحد من جلساء الخان

بسبب فعلة زوجته الرومية، فسافر إلى خوارزم ومنها إلى بخارى وسمرقند وترمذ وبلخ وغزنة وكابول حيث وصل إلى بنج آباد في وادي السند في عام ٧٣٤ هجري، أي بعد مضي تسعة أعوام منذ مغادرته طنجة. وبنج آباد[٧] هي أول عمالة السلطان المعظم أبي المجاهد محمد شاه ملك الهند والسند. وكانت أقرب المدن إليها مدينة "ملتان" قاعدة بلاد السند التي يحكمها الأمير قطب الملك التابع لأمير أمراء السند "سرتيز"، وهو مملوك للسلطان. واستقبل الأمير قطب الملك (ابن بطوطة) ورحب به وأرسل يعلم السلطان المعظم بقدومه فأمر بإرساله إليه في دهلي. وكان من عادة السلطان أبي المجاهد إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة، ومعظم خواصه وحجّابه ووزرائه وأصهاره غرباء، وأمر بأن يسمى الغرباء وأبناء السبيل في بلاده الأعزة فصار ذلك لهم اسما وعلما ومكانة. وتنفيذا لأوامر السلطان المعظم سير الأمير قطب الملك ابن بطوطة إلى دهلي وهي على بعد خمسين يوما، ومر الموكب بمدينة "جناني" على ضفاف نهر السند وتسكنها طائفة يقال لهم السامرة، وهم من أصول عربية وإسلامية استوطنوا المدينة قديما حين فتحها المسلمون على أيام الحجاج بن يوسف الثقفي.

وانبهر ابن بطوطة عندما التقى في المدينة بشيخها الأكبر ركن الدين أبي الشيخ صالح شمس الدين ابن الشيخ بهاء الدين زكريا القرشي، وهو أحد الثلاثة الذين كان قد أخبره عنهم الشيخ برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية[٨]، وقال له الشيخ ركن الدين أن جده الأكبر كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي الذي شهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته الأموية على العراق، وأن ذريته يُعرفون باسم السامرة، فهم لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد. وقد قدم الشيخ ركن الدين ابن بطوطة إلى أمير الجماعة السامرية وهو الأمير "ونار" وتبادل معه الحديث بلغة عربية نقية. ثم غادر ابن بطوطة إلى مدينة سيوستان حيث التقى بشيخها " الشيباني " وهو عربي أيضا كان جده الأكبر قد جاء إلى هذه المدينة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز للخطابة فيها، وبقيت ذريته فيها، وهم يتوارثون الخطابة في مسجدها منذ ذلك العهد. وخلال الرحلة نشأت علاقة صداقة ومودة بين ابن بطوطة ورئيس الوفد المرافق له وهو والي مدينة لاهور الفقيه علاء الملك الخراساني الذي أقنعه بالمرور في مدينته وهم في طريقهم إلى دهلي فوافق الضيف مسرورا فانتقل الموكب إلى سفينة الوالي واسمها "الأهوزة " التي سارت في النهر خمسة أيام حتى وصلت إلى المدينة التي نهر السند بحرها ورست السفينة في مرفئها المليء بالسفن القادمة من اليمن وإيران والعراق. وبعد استراحة قصيرة اصطحب علاء الملك ضيفه إلى موضع يدعى " تارنا" ملئ بحجارة على مثل صور الإنسان والبهائم، وهناك آثار سور وجدران ودور، وكان

الموضع تفوح منه رائحة نتنة، واستفسر ابن بطوطة عن قصة هذا الموضع فقال له الشيخ: إن تلك البلدة كانت مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة، تماما كما مسخ الله تعالى أصحاب الرس في حضرموت(٩).

ثم انطلق الموكب إلى مدينة بكار في خليج نهر السند واجتمع فيها ابن بطوطة إلى فقيه المدينة الإمام صدر الدين الحنفي وقاضيها أبي حنيفة والشيخ شمس الدين محمد الشيرازي. ومن بكار وصل الموكب إلى مدينة " أوجة " حيث استقبلهم أميرها جلال الدين الكيجي استقبالا حسناً وقدم الأمير ابن بطوطة للشيخ الصوفي الشريف قطب الدين حيدر العلوي، وهو من الطالبيين المقيمين في السند. وأخبر الشيخ الصوفي ابن بطوطة أن الكثيرين من عترة النبي (ﷺ) موجودون في بلاد الدكن وكوجرات وجمقا وبلاد المهراج والصنف. وتكريما لابن بطوطة، فقد خلع عليه الشيخ الصوفي الخرقة الصوفية فشكره الرحالة الشكر الجزيل. ثم ارتحل الوفد إلى "ملتان" فاستقبله أميرها قطب الملك وأقام على شرف ضيفه حفلا كبيرا تعرف فيه ابن بطوطة على الشيخ خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ، وإخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين، ومبارك شاه من كبار تجار سمرقند، وأرن بغا من كبار تجار بخارى. وكانت العادة المتبعة هي أن ينتظر الضيوف الذين يقصدون دهلي في مدينة " ملتان " انتظاراً لأوامر السلطان المعظم محمد شاه. ثم وصل حاجب السلطان ومعه الأوامر فسار الموكب إلى دهلي، وعلى الطريق توقف المسافرون ليلا في مدينة " أجودهن " حيث انبهر ابن بطوطة مجددا إذ وجد فيها شيخا اسمه فريد الدين البنداوني وهو الاسم نفسه الذي كان شيخ الإسكندرية قد تنبأ له بلقياه في الهند. وقد نقل ابن بطوطة لهذا الشيخ سلام الشيخ برهان الدين الأعرج فعجب لذلك وقال: أنا دون ذلك السلام(١٠). وفي النهار تابع الموكب سيره حتى مدينة "سرشي " ومنها إلى مدينة " هانسي " ولها سور عظيم وعمران كبير. وقد أخبر حاجب السلطان ابن بطوطة أن من وجهاء هذه المدينة قاضي قضاة الهند كمال الدين صدر جهان، ومعلم السلطان قطلوخان والشيخين نظام الدين وشمس الدين. ومن " هانسي " وصل الموكب إلى مسعود أباد حيث رحب بأفراده ملكها (هو شنج) ابن الملك كمال كرك. ولما وصل الموكب إلى دهلي استقبل أفراده وزير السلطان المعظم المسمى أحمد بن إياس لأن السلطان كان خارج دهلي. وعين الوزير مرافقين لكل ضيف من الضيوف، وكان نصيب ابن بطوطة الشيخ البسطامي والشريف المازندراني حاجب الغرباء، والفقيه علاء الدين الملتاني. وقد دهش ابن بطوطة من ضخامة المدينة وعظمة سورها وشرح له الشيخ البسطامي أن المدينة مؤلفة من أربع مدن هي دهلي القديمة التي كانت مبنية قبيل فتح المسلمين لها في عام ٥٨٤ هجري على يد الأمير قطب الدين أيبك، وهو أحد مماليك السلطان شهاب الدين الغوري ملك غزنة وخراسان الذي تغلب على الملك إبراهيم ابن السلطان الغازي

محمود بن سبكتكين الذي ابتدأ فتح الهند قبيل السلطان الغوري. والمدينة الثانية هي سيري المسماة أيضا دار الخلافة، وهي التي أعطاها السلطان علاء الدين طرمشيرين لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر بالله لما قدم عليه(١١). وبها كان سكن السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين. والمدينة الثالثة تسمى طغلق آباد نسبة إلى بانيها السلطان طغلق والد السلطان المعظم محمد شاه، والرابعة تسمى جهان، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه الذي بناها(١٢).

ولما وصل السلطان المعظم محمد شاه إلى قصره استدعى الضيوف فدخلوا إلى بلاطه المسمى "هزار أسطون"(١٣) فكان بينهم وبينه حوالي مائة من النقباء والحجاب وسادة الحجاب وشرف الحجاب ووكيل الدار ونائبه ثم كبير الحجاب فيروز ملك ابن عم السلطان ثم الوزير. ويقف على الطرفين من سدة الحكم القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان وأصهاره والأمراء الكبار ثم الأمراء الأعزة وهم الغرباء ثم قواد الجند. وكانت مراسم الاستقبال تلك هي أعظم ما شهده ابن بطوطة في ترحاله. وصادف استقبال السلطان للضيوف في هذا اليوم وصول موافقة الخليفة العباسي بالقاهرة على طلب السلطان المعظم توليته على بلاد الهند والسند، فوزع السلطان العطايا وأكرم الناس إكراما لا مثيل له، ومن بينهم طبعا كان رحالتنا ابن بطوطة وبقية أعضاء الموكب.

وخلال إقامة ابن بطوطة في دهلي اتصل بالكثير من الناس والعلماء ووقف منهم على جانب آخر من شخصية السلطان المعظم الذي كان يتحدث بالفارسية. ومما قيل له أن السلطان كان قد قتل أخاه مسعود خان ابن بنت السلطان علاء الدين بعد أن رجم الأم بتهمة الزنا، كما قتل الشيخ شهاب الدين الخراساني لأنه رفض أن يخدم السلطان في قصره، كما قتل الفقيه عفيف الدين الكاشاني والشيخ زاده هود حفيد الشيخ الصالح ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكريا الملتاني، والشيخ علي الحيدري والي مدينة كنباية في ساحل الهند، وشقيقين من آل الفرغاني قدما عليه ضيفين في مدينة فرغانة لمجرد أنهما أرادا العودة إلى مدينتهما دون استئذانه(١٤).

أعجب السلطان المعظم بمواهب ابن بطوطة فعينه في منصب قاضي القضاة بدهلي لمدة خمس سنوات تجول خلالها ابن بطوطة في أطراف الهند والسند، وشارك في استقبال الملوك والأمراء وأقام أحكام الشرع وشاهد بأم عينيه عادة السكان الهندوس في إحراق زوجات الموتى بعدهم، كما زار نهر الغانج المقدس. واستمتع ابن بطوطة بإقامته في دهلي إلى حد أنه نسي نفسه وغفل عن متابعة رحلته إلى أن جاء يوم بعث إليه السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة واستدعاه للقصر. ولما مثل في حضرته قال السلطان له: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى ملك الصين، فإني أعلم حبك للأسفار والجولات. وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك

وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا، منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون، ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، ومثلها من التراكش مزركشة، ومثلها سيوفاً. وطلب من السلطان من يأذن له ببناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل ويعرف الموضع الذي هو به بـــ "سَمْهَل " وإليه يحج أهل الصين، وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه. ولما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية. فان رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى. وكافأه على هديته بخير منها[١٥].

وعين السلطان للسفر مع ابن بطوطة الأمير ظهير الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم، والفتى كافور الشريدار، وإليه سلمت الهدية، وبعث معهم الأمير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلهم إلى الموضع الذي يركبون منه البحر، وتوجه معهم أرسال ملك الصين، وهم خمسة عشر رجلا، يُسمى كبيرهم ترسي، وخدامهم نحو مائة رجل.

ولما بلغ الموكب مدينة كول وجد ابن بطوطة وصحبه أنفسهم يشاركون في معركة ضد الهندوس الذين انهزموا أمامهم بعد أن قتلوا الفتى كافور الشريدار حامل هدية السلطان المعظم. ثم اعترض بعض اللصوص طريق الموكب واسروا ابن بطوطة نفسه وأرادوا قتله ولكنه هرب منهم والتجأ إلى أمير قندهار واسمه جالنسي وهو هندوسي ولكنه تحت حكم الإسلام ويدفع جزية سنوية لسلطان الهند المعظم، فأرسل هذا الأمير مبعوثا إلى دهلي على الفور ثم عاد هذا المبعوث بأوامر السلطان بالاهتمام بابن بطوطة وتسهيل مهمته. فانطلق ابن بطوطة في مركب يملكه الناخودة إبراهيم ويسمى " الجاكر " وجعل فيه من خيل الهدية سبعين فرسا. ورَسا المركب في قوقة وهنور ثم بلاد المليبار في كولم ثم مدينة فاكنور التي يحكمها أمير هندوسي يدعى " باسدو " وعنده ثلاثون مركبا حربيا يقودها ملاح مسلم يسمى " لولا "، وكان يستخدم تلك المراكب في قطع البحر وسلب التجار والاستيلاء على تجارات الناس في عرض البحر. وبعد فاكنور وصلت السفينة إلى خور الدنب ببلاد المليبار فوجد ابن بطوطة فيه الكثير من السفن الإسلامية القادمة من ايران واليمن، ويحكم خور الدنب سلطان هندوسي اسمه " رام دو " ولديه أربعة آلاف مسلم يعيشون في المدينة. ومن خور الدنب اتجهت السفينة إلى قاليقوط فتعرّف ابن بطوطة فيها على أمير تجارها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين، وعلى قاضيها فخر الدين عثمان، والشيخ شهاب الدين الكازروني. وصادف رسو السفينة في قاليقوط وجود ثلاثة عشر مركبا من مراكب الصين[١٦].

وعلم ابن بطوطة أن عبوره إلى ديار ملك الصين لا يتم إلا بمراكب الصين[١٧]. ولما حان موعد السفر أمر سلطان قاليقوط بوضع ثلاثة جنوك بتصرف ابن بطوطة وصحبه لكي تحملهم إلى الصين. وشاء حسن حظ ابن بطوطة ألا يعجبه المركب المخصص له فطلب من وكيل الجنوك سليمان الصفدي الشامي[١٨] التريث قليلا حتى يجد ضالته لأنه يريد نقل جواريه وزوجاته معه. وقرر تمضية ليلته على الساحل ليستقل مركبا آخر يقلُّ له متاعه، ولكن الريح العاتية قلبت المركب الذي كان قد رفض النزول به ومات ركابه جميعهم وابتلع البحر هدية السلطان لإمبراطور الصين في حين هربت المراكب الأخرى التي كان مفروضا أن يركبها وفيها كل متاعه وغلمانه وجواريه، وبقي ابن بطوطة وحيدا على الساحل لا يملك سوى سجادة صغيرة وبضعة دنانير في جيبه. وكان هذا الحادث كفيلا بأن يفلَّ عزم ابن بطوطة ويصرفه عن مواصلة السفر إلى الصين، خصوصا وقد انتفى الغرض منها بضياع هدية السلطان. فمكث ابن بطوطة بساحل مليبار شهرا ثم سافر إلى جزائر ذيبة المهل[١٩] فوجد عليها سلطانة تدعى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر البنغالي. وقد سلمت السلطانة منصب القضاء لابن بطوطة وزوجته بأربع نسوة إحداهن ربيبة السلطانة نفسها. ولكن قاضينا هذا تشدد في تنفيذ أحكام الشرع الإسلامي في جزيرة تخرج فيها النساء مكشوفات الشعر ولا ترتدين إلا فوطة تسترهن من السرة إلى الأسفل تاركات أجسادهن مكشوفات. فأدى تشدده إلى إيغار صدر الناس عليه فاضطر بعد سنة ونصف إلى مغادرة الجزيرة إلى ساحل كرومندال ثم البنغال ومنها إلى مدينة "سنرهكاوان وسنر" في بلاد الصنف قرب جمقا. وهناك وجد ابن بطوطة مركبا متجهاً إلى بلاد المهراج فركبه، وبعد خمسة عشر يوما رست السفينة في بلاد البرهنكار[٢٠] من جزر الملايو للتزود بالمياه العذبة. ومنها تحركت السفينة نحو أتشيه في شمال سومطرة فوصلتها بعد خمسة وعشرين يوما، ودخلت السفينة إلى المرسى فخرج أهل البلاد في مراكب صغيرة لاستقبال القادمين ومعهم جوز النخيل والموز والسمك، وهي عادة لديهم إذ يهدون ذلك للتجار فيكافئهم هؤلاء كلٌ على قدره. ونزل البحارة إلى البر فاستقبلهم نائب رئيس المرسى بهرور والقاضي أمير سعيد الشيرازي والفقيه تاج الدين الأصفهاني، ثم توجه الجميع إلى قصر السلطان الملك الظاهر حيث استقبلهم نائبه عمدة الملك الذي قاد الضيوف إلى بلاط السلطان حيث رحب بالقادمين أيما ترحيب وناظر ابن بطوطة في الفقه الشافعي[٢١] وأحبه فأحسن وفادته. وبعد ذلك بخمسة عشر يوما استأذن ابن بطوطة السلطان بالسفر فأمر بتجهيز جنك كبير له ولصحبه ليتجه بهم صوب الصين وحمّلهم الهدايا الكثيرة. ثم أقلع المركب شمالا حتى وصل إلى ميناء الزيتون [*Canton*] { تشوان تشو فو}، ولما رسا المركب في المرسى ونزل ركابه إلى البر استقبلهم صاحب البحر فقيد في سجلات أسماء القادمين و نوعية بضاعتهم بدقـــة

متناهية ثم أمر باصطحابهم إلى نُزُلٍ قريب تماماً كما كان قد حدث مع التاجر الرحالة سليمان بن وهب قبيل ذلك بقرون عديدة. ووجد ابن بطوطة كذلك أن أهل الصين مازالوا يتعاملون بالكواغد، وهي عملة ورقية كبيرة على صورة الإمبراطور. وكم كانت دهشة ابن بطوطة كبيرة عندما شاهد صورته وصورة أصحابه منقوشة على الحيطان وبعض الكواغد في السوق وهم يرتدون الزي العراقي، ولما استفسر عن ذلك قال له مرافقه: إن تلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم من غرباء، فإذا فعل الغريب ما يستوجب فراره عنهم، بعثت صورته إلى أنحاء البلاد للبحث عنه وإلقاء القبض عليه[٢٢]. وشعر ابن بطوطة أن بلاد الصين آمنة ولا خوف فيها على التجار وأموالهم لأنهم تحت رقابة مستمرة من رجال الحاكم. والتقى ابن بطوطة في ميناء الزيتون بالأمير الصيني الذي كان قد التقاه في دهلي عندما جاء حاملا الهدية للسلطان أبي المجاهد محمد شاه من إمبراطور الصين قوبلاي خان التتري، فسلم كلاهما على الآخر سلاما حارا وأنزل الأمير ضيفه في منزل حسن حيث زاره قاضي المسلمين في ميناء الزيتون تاج الدين الأردويلي، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني، وكبير التجار شرف الدين التبريزي، والفقيه برهان الدين الكازروني. ثم كتب الأمير إلى الخان الأكبر يخبره بقدوم ابن بطوطة من جهـــة ملك الهند، فأمر الخان بحضوره للحال إلى عاصمته في بلاد الصين[٢٣]. وسافر ابن بطوطة وصحبه عبر النهر طوال سبعة وعشرين يوما حتى وصل المركب إلى " قونجونفو " فنزل ابن بطوطة عند القاضي أوحد الدين السنجاري والشيخ ظهير الدين القرلاني والفقيه قوام الدين السبتي.

وبعد " قونجونفو" اتجه الموكب إلى مدينة الخنسا[٢٤] فاستقبله فيها قاضيها فخر الدين وعثمان بن عفان المصري أحسن استقبال، ثم تابع الموكب سيره حتى وصل إلى مدينة " خان بالق " عاصمة الخان الأكبر.

وكان أول المستقبلين الشيخ برهان الدين الصاغرجي الذي يخاطبه الخان الأكبر بصدر جهان، أي صدر الدنيا. وقال الشيخ لابن بطوطة إن الخان الأكبر غائب لخروجه لقتال ابن عمه فيروز في بلاد الخطا وأن سبب القتال هو قيام الخان الأكبر بتعديل قوانين " اليساق " المغولية. وما هي إلا أسابيع إلا ويأتي الأمير فيروز إلى خان بالق ومعه جثة الخان الأكبر وجثث كبار أعوانه فدفنوا في ناووس كبير تحت الأرض مع سلاحهم ومعهم أربع من الجواري وستة من خواص غلمانهم أحياء. واختار الأمير المغولي فيروز أن ينقل عاصمة ملكه من خان بالق إلى مدينة قراقرم لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر، ولكن بقية الأمراء خالفته على ذلك فعظمت الفتن وأسقط في يد ابن بطوطة فيما يفعل حتى أشار عليه الشيخ برهان الدين أن يهرب من الصين إلى الهند، ففعل وقفل عائدا إلى ميناء الزيتون حيث وجد في المرسى جنكا للسلطان الظاهر ملك اتشيه فركبه، وكانت الرياح في بحر صنجي موانية ولكن بعد

عشرة أيام كثر المطر وأظلم الجو ثم فقدت السفينة الاتجاه حتى اقتربت من جبل في جزيرة بورنيو [Borneo] فأخذ بحارة السفينة يبكون ويتضرعون، ولما سألهم ابن بطوطة عن السبب قالوا له انه ليس جبلا بل هو طائر الرخ العملاق(٢٥) الذي يبتلع السفن والبحارة في عرض البحر. وبعد يومين من الابتهال والتضرع إلى الله بالتوبة اختفى الجبل عن الأنظار وتابعت السفينة سيرها حتى وصلت مجددا إلى آتشيه وحضر فيها ابن بطوطة عرس ولد السلطان الظاهر و يدعى زين العابدين على ابنة أخيه(٢٦). وكان السلطان يحارب آنذاك مملكة الهندوس قرب " مينانكابو" [Minangkabau] باعتبار أن سومطرة، باستثناء آتشيه، كانت خاضعة لمملكة "ماجاقــاهيت [Majapahit] الهندوسية. ثم غادر ابن بطوطة آتشيه إلى كولم في الهند ومنها إلى قاليقوط ثم ظفار التي وصلها سنة ٧٤٨ هجرية حيث حل ضيفا على سلطانها الملك الناصر ابن الملك المغيث ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر. وفي ظفار اجتمع ابن بطوطة بالإمام محمد مولى الدويلة رئيس نقابة الطالبيين في حضرموت وابنه الشيخ عبد الرحمن السقاف وأخبرهم بنبأ أقاربهم في الهند والصين وجمقا وسومطرة وميندناو [Mindanau] وجاوا وطمأنهم إلى أن الجميع بخير وأنهم قد نشروا الإسلام في تلك البقاع النائية من الدنيا، فحمد الإمام محمد وابنه الشيخ عبد الرحمن الله كل الحمد وقروا عينا برؤية الرحالة ابن بطوطة الذي غادر هرمز فالعراق فالشام فمصر فتونس ففاس حيث وصلها في عام ٧٥٠ هجري بعد أن غاب عنها خمسة وعشرين عاما ومثل بين يدي سلطانها أبي عنان المريني الذي شمله بعطفه وغمره بإحسانه وأمر كاتبه محمد بن جزي الكلبي أن يكتب أخبار ابن بطوطة في كتاب، ففعل وخرج الكتاب بعنوان: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"(٢٧).

حواشي الباب السابع

(١) " بحر الظلمات " هي التسمية التي كان يطلقها العرب والمسلمون على المحيط الأطلسي .

(٢) انظر : مقالا بقلم د. محمد محمود الصياد بعنوان "رحلة ابن بطوطة"، [موسوعة تراث الإنسانية "، الجزء الخامس ، ص ١٠٣] .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ١٠٨ .

(٤) "بحر القلزم" هي التسمية القديمة التي كان يطلقها العرب و المسلمون على البحر الأحمر.

(٥) انظر: ابن بطوطة : " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " [منشورات دار إحياء العلوم ، بيروت ١٩٩٦ م / ١٤١٧ هـ] .

(٦) هي المدينة المعروفة الآن باسم " استراخان " في آسيا الوسطى .

(٧) كلمة فارسية معناها : المياه الخمسة .

(٨) انظر " رحلة ابن بطوطة " ، ص ٤٦٥ .

(٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٤١٣

(١٠) المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٤٢٦ .

(١٢) بعد تولى السلطان ناصر الدين بن شمس الدين للمش أمور الحكم في دهلي من أخته رضية، لاقى حتفه على يد نائبه السلطان غياث الدين بلبن الذي حكم بدوره عشرين سنة. وكان لبلبن هذا ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده وكان واليا لأبيه ببلاد السند وساكنا بمدينة ملتان وقتل

الباب الثامن

في فاليمبانغ وغرسيك وتوبان

انهيار ماجافاهيت وانتشار الإسلام

[انتصار الحق بلا حرب]

ومن المفارقات العجيبة أن ماركوبولو الذي سبق ابن بطوطة في طوافه في الأماكن الجغرافية البعيدة نفسها ومكث في رحلته سبعة عشر عاما قد مات قبل أن يبدأ ابن بطوطة رحلته بعام واحد وأن القدر قد رسم لكلا الرحالين مسارا مشابها في ديار الصين وسومطرة. ولكن الشيء الهام هو أن الإسلام كان قد سبق ماركوبولو إلى تلك الأصقاع النائية بمئات السنين. وأما أول مبشر مسيحي إلى جاوا فقد وصل إلى مملكة " ماجافاهيت " بعد عشرين عاما من الدعوة الإسلامية القوية التي قادها إبراهيم أسمارا [*Ibrahim Asmara*] وأدت إلى انتشار الإسلام انتشاراً سريعاً في جاوا وماحولها من الجزر وخاصة سولاويسي وسومطرة. وكان هذا المبشر المسيحي كاثوليكيا واسمه "فرانسيسكو أودوريكو دي بوردينوني Franciscan Odorico di Pordenone " ولم يطب له المقام في جاوا فارتحل عنها سريعا عائدا إلى روما(١).

ولقد تزامن الانتشار الإسلامي ووصول أول مبشر مسيحي إلى جاوا مع ظاهرة بدء الصينيين بالاستيطان في جزيرتي جاوا وسومطرة. وكان أوائل أولئك الصينيين هم الجنود الذين رفضوا العودة مع الأسطول المغولي المهزوم، ولكن هجرة صينية حقيقية تلت فيما بعد، وجاءت إلى سواحل جزيرة بورنيو بحثا عن الثروات الهائلة الموجودة في ركام السفن الغارقة، الأمر الذي أدى إلى تشكيل عصابات من القراصنة الصينيين تهاجم السفن وتسبيها، خاصة في فرجة نهر موسي [*Musi*] الذي كان يوماً ما قلعة "سريفيجايا " [*Sriwijaya*]. وتزوج الصينيون من نساء البلاد ولكنهم نقلوا ثقافتهم ودياناتهم، فقوي حضور الديانة البوذية أيضاً، إلى جانب الإسلام والهندوسية. وقد جرى هذا التمازج وملوك جاوا في ذروة قوتهم في عهد الملك فيجايا [*Wijaya*] عديل الإمام إبراهيم أسمارا.

وكان علي رحمة الله ابن الإمام ينشر الإسلام في جاوا حيث تزوج من فتاة اسمها " مانيلا " [*Manilla*] وهي ابنة والي " توبان " [*Tuban*] المسلم. وأما أخوه

يكون بجزائر ذيبة المهل وأثوابا من بنجالية، وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم. ولهذا السلطان على كل مركب ينزله ببلاده جارية ومملوك و ثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجليها. ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر، فيهلك أو يقارب الهلاك .

(٢١) يصف ابن بطوطة استقبال السلطان الملك الظاهر إياه في صفحة ٦٣٢ و صفحة ٦٣٣ من كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " نقتطف منها ما يلي:

ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه، والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل، ركب من معه الخيل. وإذا ركب الفرس، ركبوا الفيلة. ويكون أهل العلم عن يمينه. فركب ذلك اليوم على الفيل، وركبنا الفيل وسرنا معه إلى المشور، فنزلنا حيث العادة، ودخل السلطان راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب، ووزراؤه الأربعة، فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم، ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم. وكذلك تفعل كل طائفة، ثم صف الشرفاء والفقهاء، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء، ثم صف وجوه العسكر، ثم صف الفتيان والمماليك. ووقف السلطان على قبة إزاء قبة الجلوس، ورُفع فوق رأسه شطر مرصع ، وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة، وعن شماله مثلها، وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها، وهي خيل النوبة ، ووقف بين يديه خواص الحجاب. ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه، وأتي بخيل مجللة بالحرير، لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة، فرقصت الخيل بين يديه. فعجبت من شأنها ، وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره و انصرف الناس إلى منازلهم .

وكان له ابن أخ متزوج ابنته، فولاه بعض البلاد. وكان الفتى يتعشق بنتا لبعض الأمراء ويريد تزوجها. والعادة هناك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح، فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها، فإن أعجبته صفتها تزوجها، وإلا تركها يزوجها أولياؤها من شاءوا. والناس هناك يرغبون في تزويج السلطان بناتهم، لما يحوزون به من الجاه والشرف. ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان، بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها. واشتد شغف الفتى بها، ولم يجد سبيلا إليها. ثم إن السلطان خرج إلى الغزو، وبينه وبين الكفار مسيرة شهر، فخالفه ابن أخيه إلى سومطرة، ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ، وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون، وعلم عمه بذلك، فقفل راجعا عائدا إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر، وأخذ الجارية التي يعشقها وقصد بلاد الكفار جاواة. ولهذا بنى عمه السور على سومطرة.

(٢٢) – ذكر ابن بطوطة أن الروم كانوا يفعلون الشيء نفسه مع الغرباء . وضرب مثلا على ذلك أسطورة تقول: إن ملك فارس سابور ذا الأكتاف دخل يوما إلى بلاد الروم متنكرا وحضر وليمة صنعها ملكهم . وكانت صورة سابور على بعض الأواني، فنظر إليها بعض خدم قيصر الروم فأدركوا أن ملك الفرس موجود معهم في الوليمة، وعمدوا إلى إخبار القيصر الذي قال: " إن هذه الصورة تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس! ". (انظر صفحة ٦٤٣ من كتاب رحلة ابن بطوطة المذكور آنفا).

(٢٣) بلاد الصين تدعى " صين كلان " و معناها " صين الصين " .

(٢٤) يقول ابن بطوطة انها أكبر مدينة رآها على وجه الأرض ، وقد خص في رحلته تلك المدينة بوصف تفصيلي (صفحة ٦٥٠ – ٦٥٣) نقتطف منه ما يلي :

" .... إن الخنساء {وهي هانغ تشو الحاضرة} مكونة من ست مدن تحيط إحداها بالأخرى والملك يقيم داخل المدينة السادسة. وأما المسلمون فيسكنون في المدينة الثالثة. ومدينتهم جميلة لهم فيها أسواق مرتبة على شاكلة الأسواق التي نراها في جميع البلدان الإسلامية. ولهم الإمام والمؤذن. لقد سمعنا الأذان لصلاة الظهر حين كنت زائرا لأحد التجار العرب في السوق ...".

".... قد نزلت عند عثمان بن العفان المصري . إنه تاجر ثري و قد بنى جامعا وزاوية وأوقف عليهما العقارات . وأما المسلمون فعددهم كبير في المدينة . يوما دعانا أمير المدينة إلى وليمة في بيته فأتى بطباخ مسلم إذ هو يذبح الذبائح على الطريقة الإسلامية. فانه قد بعث ابنه لاصطحابنا في النزهة بالخليج { بحيرة هانغ تشو المشهورة } فركبنا زورقا وركب ابن الأمير زورقا آخر عليه أهل الطرب والمغنون. إنهم قد غنوا الأغاني العربية و الفارسية و الصينية. وكان ابن الأمير رجلا معجبا بالغناء الفارسي. كما كانوا قد غنوا نوعا من الأغاني الفارسية أمرهم بتكرارها وإعادتها مرة بعد مرة حتى حفظت عن ظهر القلب مايلي :

تـــا دل بمحســـنت داديم   در بحـــر فكـــر أفتاديم

جون در نمـــاز ايستاديم   قوى در محراب اندريم

إن ما ذكره ابن بطوطة كما ذكره في رحلته، كان محرفا . والصحيح هو كما يلي :

" تا دل بمهرت داده ام در بحر فكر افتاده أم جون در تمار ايستاده أم كوى بمحراب اندرى "، ومعناها بالعربية يكون بما يلي :

عندما نذرت لك قلبي حبا   و قعت غريقا في بحر الأفكار

و إذا وقفت للصلاة قائما   كأني أراك مشهودا بالمحراب

إن الوصف الذي جاء في بيان ابن بطوطة عن حالة الجاليات الإسلامية في " هانغ تشو " في القرن الرابع عشر الميلادي لا يعطينا فحسب صورة صادقة عن حالة المسلمين فيها وعن نظمهم الاجتماعية و نفوذهم في أسواق المدينة . بل يكشف لنا تأثيرهم الثقافي بين أبناء المدينة . ومن أمثال ذلك كان هناك أهل الطرب يغنون الأغاني العربية والفارسية . فالغناء الفارسي الذي أورده ابن بطوطة في كتابه كان من إحدى القصائد المشهورة للشيخ سعدي الشيرازي الذي عاش في آخر القرن الثالث عشر الميلادي واشتهر بأنه من أكابر العلماء الإيرانيين الذين دعوا الناس إلى التمسك بمكارم الأخلاق و قيــم الدين .

(٢٥) طائر الرخ أو العنقاء ورد في قصص السندباد البحري، وقد ذكره ابن الوردي المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية في كتابه " خريدة العجائب "، كما ذكره الدميري في كتابه " حياة الحيوان " والقزويني في كتابه " عجائب المخلوقات " . قال زكريا بن محمد القزويني في كتابه: "وملك هذه الجزيرة { الزابج } يسمى المهراج ، ثم ذكر ما فيها من العجائب، وذكر " دابة الزباد " ، وفارة المسك والحيات العظام والقردة البيض وأنواع طيور الببغاء وما تسمى الدرة، وأنها ما بين بيض وحمر وصفر وخضر، وذكر جزيرة " لامي " و ذكر ما فيها من العجائب .

وذكر جزيرة " الرخ " الذي تعرف به هذه الجزيرة طير عظيم غريب مهول الهيئة حتى أن طول جناحه الواحد عشرة آلاف ذراع . ذكر ذلك الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بكتاب الحيوان. وكان قد وصل إليه رجل من المغرب ممن سافر إلى الصين وأقام به بجزائره مدة طويلة وحضر بأموال عظيمة وأحضر معه قصبة من ريش ذلك الرخ تسع قربة ماء. وكان الناس يتعجبون من ذلك. وكان هذا الرجل يعرف بالصيني لكثرة إقامته هناك واسمه عبد الرحمن المغربي .

ثم ذكر قصة ذكرها هذا المغربي عن بيضة الرخ التي هي كالقبة العظيمة ، فمن أراد ذلك فليراجعها في " خريدة العجائب " .

والذي نراه ان هذا مأخوذ من أهل فيلبين ، ثم تزيد فيه الرواة . وهنا نذكر ما في تاريخ فيلبين قال فيه : " قبل كابونغسوان { السيد محمد بن علي زين العابدين الذي أسلم على يديه أهل ميداوناو } كانت " ماكينداناو " مغمورة بالمياه ، وكان البحر يغطي على جميع الأراضي فلا يظهر للعين سوى الجبال. وكان الناس قد لجأوا إلى الأماكن المرتفعة ، كان عددهم كثيرا عاشوا في هناء في عدة قرى ، متفرقين في كل مكان ، ولكن هذا الهناء و ذاك الأمن لم يدم طويلاً كما يظهر. فقد حدثت مصيبة من حيوانات هائلة تبلع كل إنسان تجده. وأحد هذه الحيوانات يسمى كوريتا {سرطان} مخيفا جدا يعيش في البحر وفي البر يقصد جبال " كبالي " ويقضي على جميع الحيوانات الموجودة . والثاني يدعى " تارا بونسو " و هو شبه الإنسان ولكنه كبير جدا يهوى قتل كل من يجده في جبال " ما توتون " و غيرها .

فهذا الكلام يصف نوعين من السمك تطول حياته بعد خروجه من البحر وهو كثير في بحر فيلبين ، ومنه كبير قد يغرق بعض المراكب الشراعية، ويصف القردة المسماة بالغوريلا .

والثالث طائر عظيم يدعى " قاءة " ، ومن عظمه إذا طار يحجب الشمس و يظلم الجو {أسفل البيض مثل البيت} . فهذا عين ما تقدم عن الرخ المذكور في " خريدة العجائب " لابن الوردي ، وفي " حياة الحيوان " للدميري .

وفي " عجائب المخلوقات " للعالم المؤرخ زكريا بن محمد القزويني قال : " و جزائر السلاهي وهي جزائر كثيرة من دخلها لا يخرج منها لكثرة خيرها و فيها ذهب كثير . قال: " ومنها جزائر الواق الواق تتصل بجزائر الرابح أو الزابج وهي " بورنيو " {كاليمانتان} والسير إليها بالنجوم، قالوا إنها ألف و سبعمائة جزيرة تملكها امرأة .

قال موسى بن المبارك السيرافي : " دخلت عليها فرأيتها على سرير عريانة وعلى رأسها تاج من الذهب و عندها أربعة آلاف وصيفة أبكارا . وذكر المقريزي دابة تستوطن شيئا من الجزائر هناك لها رؤوس كثيرة و وجوه مختلفة و أنياب و قعقعة، ولها جناحان تأكل دواب البحر .

قال في تاريخ الفيلبين في تمام الكلام على طير الرخ {قاءة}: " هذا {قاءة} يقيم جبل بيستا قال في تاريخ الفيلبين في تمام الكلام على طير الرخ {قاءه} : " هذا {قاءه} يقيم جبل بيستا وشرقي منطقة " رانوا " يلتهم الناس و يخرب البلاد، وسكانها في خوف عظيم، ومن هرب اختفى في كهف، أو في بلد قريب " .

الرابع طائر عظيم أيضا له سبعة رؤوس ، يقيم في جبل " كورين " و البلدة القريبة منه تخربت بصورة مدهشة جدا . وقد وصل هذا الخبر المحزن إلى البلدان البعيدة ، وحزن الناس لهذه الحوادث التي جرت في " ميداناو " .

وذكر هنا الطائر المسمى " العنقاء " في كتب العرب. قال القزويني في كتابه " عجائب المخلوقات ": "عنقاء أكبر الطيور جثة و أكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر. كان في قديم الزمان يخطف من بيوت الناس فتأذوا من جناياته إلى أن سلب يوما عروسا مجلية فدعا عليها حنظلة {بن صفوان} فذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط تحت خط الاستواء، وهي جزيرة لا يصل إليها الناس وفيها حيوانات كثيرة كالفيل والكركدن والجاموس والنمر والسباع وجوارح الطير. والعنقاء لا تصيد منهم لأنهم تحت طاعتها. وإذا نالت صيداً تأكل منه، والباقي يأكـل الحيوان منه. ولا تصيد إلا فيلاً أو سمكا عظيما أو تنينا. فإذا فرغ منه يخلي البقية له و يصعد إلى موضعه ويتفرج على أكلها. وعند طيرانه يسمع من ريشه كهجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح. و{حكي} عن بعض التجار قال: ضللنا الطريق في البحر المحيط وتحيرنا، فإذا نحن بسواد عظيم كغيم مظلم، فذكر الملاحون انه

العنقاء فتتبعناه حتى دخلنا تحت السواد، ثم فتحنا اللسان بالدعاء، فما زال يمسي حتى وجدنا الطريق ثم غاب عنا ... إلى آخر ما أطال به " .

وليس مقصودنا ذكر تلك الأساطير بطولها ، فمن أحب الاطلاع فليطالعها في تلك الكتب. وإنما مرادنا أن الأساطير التي في تواريخ فيلبين ذكرها العرب في كتبهم، ذكروها واقعة في هذه الجزائر، فسواء أكانت حقيقة أو أسطورة أو خرافة، فنقل العرب يدل على اتصالهم بهذه الجزيرة ومعرفتهم بلغة أهلها حتى أخذوها عنهم وسيروا أخبارا في البلاد العربية. والعنقاء ذكرها الدميري في حياة الحيوان وذكر عنها روايات كثيرة. وذكر أن سبب هلاكها دعوة حنظلة ابن صفوان، وفي رواية أخرى بدعوة خالد بن سنان . وقد تطورت القصة على ألسنة البحارين العرب وأهل فيلبين. فأهل فيلبين يقولون إن سبب هلاك ذلك الطائر راج سليمان . ودونك ما جاء في تاريخ فيلبين: " فلما بلغ الملك " راج أندرا فترا راج " شعر بمزيد الحزن والأسف ودعا " راج أندرا فورا " أخاه الأكبر " راج سليمان " و طلب أن يذهب إلى " مينداناو " لانقاذ هذه البلدة من تلك الحيوانات العاتية . وحزن " راج سليمان " مع شعوره بالحماس و الطاعة لأخيه ودعا له " راج أندرا فورا " بالسلامة ، وناوله خنجرا يدعى " جدور فاكل " قبل أن يرحل، فأخذ " راج أندرا فورا " غصنا من شجرة وغرزه وأقامه، لاعتقاده انه سوف يخبره بكل ما يحدث. فراح سليمان بعد رحيله، فقال لراج سليمان إذا انتعش هذا الغصن فإنك تنتعش، وإذا ذوى فهو دليل موتك . وغادر راج سليمان " سانتا فولي " وتوجه إلى ميندانا و بطريق الجو ، فلم يسر على قدميه ، ولم يركب البحر . وأول مكان وصل إليه هو " كبالن " فوقف هناك على قمة جبل وتأمل ما حوله إلى السهول والقرى، ولكنه لم يشاهد إنسانا واحدا، فأينما وجه نظره أحس بالأسف، فقال: مساكين، إن هذا التخريب عظيم. فلما قال كلمته هذه تحركت الجبال جميعها واهتزت و خرج من الأرض حيوان عظيم يهاجمه، وانتشب فيه أظفاره. فلما رأى سليمان ذلك السرطان علم أن هذا حيوان مخيف ، فسل سيفه وقطع السرطان إربا إربا. ثم توجه إلى " كما توتون " فرأى هناك التخريب العظيم ، عندما كان على قمة جبل سمع صوتا ينبعث من الأجام ورأى الأشجار تتحرك، ثم ظهر " تاربونسو " الذي اقترب منه و له صوت عظيم، وحاول أن يهجم على سليمان و يقتلعه، فأراد سليمان قتله، فقال الحيوان: إذا أردت قتلي فإني أموت شهيدا. وفي ذلك الوقت كسر الأغصان الكبيرة وهجم على سليمان، والتحم في معركة طويلة حتى تعب الحيوان و سقط إلى الأرض فضربه سليمان بسيفه وقتله. وقبل موته أثنى على سليمان ، فأجاب سليمان بقوله : إن عملك السابق هو الذي سبب موتك. ثم توجه سليمان إلى جبل " بيستا " فكان الخراب أعظم، ومر على بعض المنازل فرآها خالية لا يوجد فيها إنسان حي، ما عدا خراب وفناء عام، فقال: لنمش. ولكن فجأة أظلم الكون، فاستغرب سليمان ذلك، فمد طرفه إلى الجو فرأى طائرا غريبا كبيرا ينزل عليه من السماء ، فعرف حالا هذا الطائر وقصده، فأسرع إلى سل سيفه و أطلقه على الطائر فقص جناحه فخر إلى الأرض ميتا، ولكن الجناح سقط على سليمان فمات " .

فهذه القصص فيها مشابهة كثيرة لما حكى بحارو العرب و مسافروهم إلى هذه الجزيرة عن الرخ و غيره من الحيوانات ، و" تارابوسو " و " كوريتا " توجد في ذلك البحر ، وبحارو العرب تلقوا هذه القصص عن أهل هذه الجزائر على قدر التفاهم فيما بينهم و صارت في كتب العرب ، وهذا يدل على امتزاج تام .

وقد ذكر العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه المرجعي " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " صفحات هامة عن الدراسات المقارنة بين الأساطير العربية و الأساطير الفيليبينية والإندونيسية، وذلك في الصفحات من ٣٦٤ إلى ٣٧٢. ومن تلك الأساطير تلك التي

تتحدث عن النساء اللواتي يخرجن من أصول شجر البامبو [*Bambu*] . وقد جاء في الكتاب المذكور آنفا ما يلي بهذا الصدد:

" إذا قرأنا في حكايات ألف ليلة وليلة، نرى شبيها بما نراه في التاريخ الثيوثوري هذه الجزائر. فقد ذكر في الكتاب الملايوي المخطوط المسمى بكتاب " شجرة ملايو " المكتوب سنة ١٠٢١ هجرية الموافق ١٦١٢ م أن السلطان محمداً حكى الناس عنه أنه تبع كلبه ذات مرة في الصيد إلى غابة قصب [بامبو] وهناك وجد جذع قصبة كبيرة جدا فأخذ عدة مفاصل منها إلى قصره ، فألبس أحد المفاصل ثوب امرأة تكريما له ، فلم يلبث أن انفلق ذلك المفصل من القصبة عن بنت فسماها " ملكة القصب " .

هكذا يتناقل الأهالي هذه القصة، وفي تاريخ فيلبين أمثالها. وقد سمعها البحارة العرب والتجار والرحالون منهم و صارت كما سنرويها فيما بعد .

وشبيه بما ذكر عن " شجرة ملايو " [*Pohon Melayu*] ما ذكر في تاريخ فيلبين بعد ما ذكر وصول محمد زين العابدين (كابو غسوان) و إدخاله الإسلام سلما إلى مكيندانو قال : لم يمر زمن على وصوله إلى مكيندانو تزوج شريف كابوغسوان بالأميرة " توتيناغ ما مالو " التي جاءت من غصن الغاب . حدث هذا في عهد " تابوناوي " وما مالو عندما قطع الغصن ليصنع منه مصيدة للسمك، فلما عاد "مامالو" سأله " تابوناوي " هل قطعت جميع الأغصان ؟ فقال مامالو: قطعت الجميع إلا واحدا فقط لأنه مازال غضا. فقال تابوناوي: اقطعها جميعا، فإن ذلك علامة نحس لمصيدة السمك إذا تركت غصنا واحدا. فقطع مامالو الغصن فظهرت منه فتاة دعيت " فوتري يونيتا " [*Putri Yunita*] وكان قد جرح خنصرها من ضربة الفأس .

ومن أهل فيلبين من لا يزال يفتخر بأن جدتهم الأولى ليست من نساء بني آدم و إنما خرجت من باطن شجرة الغاب .

وقد نقلها رحالة العرب و بحاروهم على قدر ما تقبله عقولهم . فقد قال ابن الوردي في " خريدة العجائب " في روايته عن عيسى بن المبارك السيرافي: وبهذه الجزيرة شجر يحمل ثمرا كالنساء بصور وأجسام وعيون وأيد وأرجل وشعور وأبدان وفروج كفروج النساء حسن الوجوه يخرجن معلقات بشعورهن ، يخرجن من خلف كالأجربة الكبار، فإذا أحسسن بالهواء و الشمس يصحن "واق – واق " حتى تنقطع شعورهن . فإذا انقطعت ماتت .

وأهل هذه الجزيرة يفهمون هذا الصوت ويتطيرون منه. في كتاب الجوالة أنه من تجاوز هؤلاء وقع على نساء يخرجن من الأشجار أعظم منهن قدودا وأطول منهن شعورا وأكمل محاسن وأحسن أعجازا وفروجا. ولهن رائحة عطرة طيبة. فإذا انقطعت شعورها ووقعت من الشجرة عاشت يوما أو بعض يوم، وربما جامعها من يقطعها أو يحضر قطعها فيجد لها لذة عظيمة لا توجد في النساء .

فهذه الأسطورة التي كانت منتشرة في هذه الجزائر أخذها الملاحون العرب و التجار والرحالة عن أهل هذه الجزائر ورووها على ما يفهمون، إذ لم يدخل في عقولهم أن في الدنيا بشراً يتناسلون، أمهاتهم يخرجن من ثمر الأشجار. ولكن هذه الأسطورة لا يذكرونها إلا لزوجات ملوكهم فيما وقعت عليه. فلعلها رمز للاحترام ، لهم عقلاؤهم وكتابهم ويفهمه عوامهم حقيقة واقعة. والدليل على ذلك أن تاريخ فيلبين أو جزائر السلا والسلاهي يذكر في موضع آخر أن "مامالو" من ذرية و أشراف أولياء السابقين . ويشير في موضع آخر أن " بوتري يونيتا " هي بنت " مامالو "، وبذلك نعلم أن كل ما رواه العرب بأنه من غرائب و عجائب في هذا البحر الذي يسمونه بحر الصين له أصل . و قد دخل في كتاب " ألف ليلة و ليلة " ولا سيما حكاية السندباد البحري أشياء موجودة في هذه الجزائر . وقد أقر بذلك و نوه به بعض المستشرقين مع تعصبهم الذي لا نظير له على العرب من أجل دين الإسلام .

ومما ذكره القزويني من العجائب بهذه الجزائر أن بها نوعين من النسانيس لهما أجنحة كأجنحة الخفافيش . وهذا نوع من الخفاش وهو موجود كما ذكره ، ومنها سمكة تسمى " سيلاء " . قال

صاحب " تحفة الغرائب ": هذه السمكة تبقى على اليابس يومين حتى تموت. فإذا جعلت على القدر وغطى رأسه تنضج ، وإن ترك رأس القدر مكشوفا فإذا أثرت فيها النار طفرت وهربت". فهذه السمكة يذكرها أهل شمال كاليمانتن . وأما السرطان الذي يخرج من البحر ، فإذا بان عنه صار حجرا . فقد تطابقت على ذكره كتب الطب و العقاقير و كتب الغرائب . وذكر الأطباء أنه يدخل في الأكحال { أدوية العيون } .

(٢٦) يصف ابن بطوطة مجريات حفل الزواج في صفحة ٦٦٠ من كتابه " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" فيقول: "وشاهدت يوم الجاوة ، فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبرا كبيرا، وكسوه بثياب الحرير. وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه، ومعها نحو أربعين من الخواتين، يرفعن أذيالها ، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه، وكلهن باديات الوجوه، ينظر إليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع. وليست تلك بعادة لهن إلا في الأعراس خاصة. وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء، يلعبون ويغنون. ثم جاء الزوج على فيل مزين، على ظهره سرير وفوقه قبة شبيهة البوجة، والتاج على رأس العروس المذكور، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء، قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة، وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة، وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية. ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله. وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك. ونزل ابنه وقبّل رجله وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها، والخواتين يروّحن عنها، وجاؤوا بالفوفل التنبول فأخذه الزوج بيد ، وجعل منه في فمه. ثم أخذت هي بيديها جعلت في فمه . ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول جعلها في فمها، وذلك كله على أعين الناس، ثم فعلت هي كفعله. ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر. وأكل الناس وانصرفوا. ثم لما كان من الغد جُمع الناس، أجرى له أبوه ولاية العهد، وبايعه الناس أعطاهم العطاء الجزل من الثياب الذهبية أقمت بهذه الجزيرة شهرين، ثم ركبت في بعض الجنوك ".

(٢٧) لمزيد من التحليل لرحلة ابن بطوطة يمكن الرجوع إلى المقال الهام الذي كتبه الدكتور محمد محمود الصياد في تراث الإنسانية " المجلد الخامس ، ص ١٠١ إلى ص ١١٦ ، منشورات الدار المصرية للتأليف و الترجمة ، القاهرة .

الباب الثامن

في فاليمبانغ وغرسيك وتوبان

انهيار ماجافاهيت وانتشار الإسلام

[انتصار الحق بلا حرب]

ومن المفارقات العجيبة أن ماركوبولو الذي سبق ابن بطوطة في طوافه في الأماكن الجغرافية البعيدة نفسها ومكث في رحلته سبعة عشر عاما قد مات قبل أن يبدأ ابن بطوطة رحلته بعام واحد وأن القدر قد رسم لكلا الرحالين مسارا مشابها في ديار الصين وسومطرة. ولكن الشيء الهام هو أن الإسلام كان قد سبق ماركوبولو إلى تلك الأصقاع النائية بمئات السنين. وأما أول مبشر مسيحي إلى جاوا فقد وصل إلى مملكة " ماجافاهيت " بعد عشرين عاما من الدعوة الإسلامية القوية التي قادها إبراهيم أسمارا [*Ibrahim Asmara*] وأدت إلى انتشار الإسلام انتشاراً سريعاً في جاوا وماحولها من الجزر وخاصة سولاويسي وسومطرة. وكان هذا المبشر المسيحي كاثوليكيا واسمه "فرانسيسكو أودوريكو دي بوردينوني Franciscan Odorico di Pordenone " ولم يطب له المقام في جاوا فارتحل عنها سريعا عائدا إلى روما(١).

ولقد تزامن الانتشار الإسلامي ووصول أول مبشر مسيحي إلى جاوا مع ظاهرة بدء الصينيين بالاستيطان في جزيرتي جاوا وسومطرة. وكان أوائل أولئك الصينيين هم الجنود الذين رفضوا العودة مع الأسطول المغولي المهزوم، ولكن هجرة صينية حقيقية تلت فيما بعد، وجاءت إلى سواحل جزيرة بورنيو بحثا عن الثروات الهائلة الموجودة في ركام السفن الغارقة، الأمر الذي أدى إلى تشكيل عصابات من القراصنة الصينيين تهاجم السفن وتسبيها، خاصة في فرجة نهر موسي *[Musi]* الذي كان يوماً ما قلعة "سريفيجايا " [*Sriwijaya*]. وتزوج الصينيون من نساء البلاد ولكنهم نقلوا ثقافتهم ودياناتهم، فقوي حضور الديانة البوذية أيضاً، إلى جانب الإسلام والهندوسية. وقد جرى هذا التمازج وملوك جاوا في ذروة قوتهم في عهد الملك فيجايا [*Wijaya*] عديل الإمام إبراهيم أسمارا.

وكان علي رحمة الله ابن الإمام ينشر الإسلام في جاوا حيث تزوج من فتاة اسمها " مانيللا " [*Manilla*] وهي ابنة والي " توبان " [*Tuban*] المسلم. وأما أخوه

إسحاق فيقوم بالمهمة نفسها في " باساي "*[Pasai]* بشمال سومطرة، وأما أولاد عمهما ملك إبراهيم وعبد الله فقد كانا ينشطان في " غرسيك "*[Gresik]* بجاوة الشرقية.

وذات يوم مرضت الأميرة " ديوي سكاردادو "*[Dewi Sekardadu]* بنت ملك فاليمبانغ في سومطرة الجنوبية والتي كانت أميرة لدى أبيها مرضا شديدا فاستدعى الملك أفضل الأطباء والسحرة لعلاجها فلم يفلحوا. وجاء من نقل للملك قدرات الشيخ إسحاق الروحية الخارقة فاستدعاه الملك وطلب منه معالجة ابنته واعداً إياه إن هي أبلت من مرضها أن يزوجه إياها ويعتنق هو الإسلام ويعلن إسلامه. وفعلاً شفيت الأميرة " ديوي " على يد الشيخ إسحاق فزوجها إيّاه والدها، ولكنه رفض أن يبر بوعده بالنسبة للشق الثاني من الوعد وهو أن يشهر الملك إسلامه، فألح عليه إسحاق مرارا حتى استاء الملك من إلحاحه وطرده من فاليمبانغ وأقسم ليقتلن من تلده ابنته من زوجها إسحاق. ولما ولدت الأميرة طفلها أسمته محمدا وأرسلته إلى مدينة "غرسيك" وفوضت تربيته وكفالته إلى امرأة مسلمة هناك تدعى " نياي قديه فيناتيه " وهي أرملة أمير يدعى " كي قديه سمبوجا". وقد لقبت تلك المربية الطفل محمداً بلقب " عين اليقين " في حين صار الأهالي ينادونه بـ " رادين فاكو " [Raden Paku] حتى بلغ الثانية عشرة من عمره[٢] فأرسلته مربيته إلى عمه علي رحمة الله في أمفيل فدرس الدين الإسلامي على يديه ثم تزوج ابنة عمه " عشيقة " التي ينادونها بلقب "راتو أيو موميسي " أو "ديوي مرتا سيام " *[Dewi Marta Siam]* باللغة الجاوية[٣]. وأما العم علي رحمة الله بن إبراهيم أسمارا، فبعد أن أسلم أمير فاليمبانغ " آريادامر" *[Arya Damar]* على يديه وتسمى عبد الله ، ثم كبير قادته " جايا ويشو "*[Jaya Wisyu]* الذي أسلم و تسمى عبد الفتاح، فقد توجهوا جميعهم إلى جاوا الشرقية، واصطحب علي رحمة الله معه أولاده إبراهيم وهاشماً وجعفر الصادق وزين العابدين وعبد الجليل. ولما وصلوها تزوج علي رحمة الله بنت أمير توبان المسماة " نياي آقنغ مانيلا " *[Nyai Ageng Manila]* ورزق منها ولدين هما هاشم وإبراهيم. ويحث علي رحمة الله عن أبيه إبراهيم أسمارا الذي صار الناس ينادونه " سونان أنفاسيك توبان " *[Sunan Anfasik Tuban]* أي والي "أنفاسيك توبان " نسبةً إلى اسم المنطقة التي كان يعيش فيها، فقيل أنه يقوم بالدعوة في قرى جاوا الشرقية. ثم عرف لاحقا أنه توفي في منطقة " غفورا "*[Gapura]* قرب مدينة " غرسيك " في جاوا الشرقية. وقد عمد علي رحمة الله لنشر الإسلام بفتح رباط للطلبة في منطقة " أمفيل "*[Ampel]* بمدينة "سورابايا "*[Surabaya]* بهدف تهيئتهم كدعاة لنشر الإسلام في جاوا. وهكذا صار أتباعه ينادونه بلقب "سونان أمفيل" *[Sunan Ampel]* أي شيخ منطقة أمفيل الصالح[٤]. وكان من تلاميذه محمد عين اليقين ابن أخيه اسحاق ويلقبه الناس بـــ " رادين فاكو " *[Raden Paku]*. ولفظ " رادين " لقب شرف جاوي

يطلق في الأصل على من هو من نسل الملوك. وأما لفظ " فاكو " فهو بمعنى المسمار أو الوتد ، فكأنهم أطلقوا عليه هذا اللقب اعتقادا بأنه من الأشراف الأوتاد(٥).

واشتهر محمد عين اليقين بن إسحاق بن إبراهيم أسمارا بلقب " سونن قيري " لأنه كان يقيم في دار على رابية مرتفعة وصار اسمه يعني "والي الرابية المرتفعة، وكان يقصده طلاب علم من الجزر البعيدة مثل مادورا ولومبوك وترناتي ومكاسر وهيتو .

وأما والده اسحاق الذي صار الناس ينادونه بلقب " المخدوم اسحاق"(٦) فقد قرر مغادرة جاوا على متن سفينة شراعية يملكها للتجول في الجزر البعيدة ودعوة الناس للإسلام. ووصل المخدوم اسحاق إلى باساي في شمال سومطرة وإلى جوهور وملقا. وعرج ذات يوم على أهله ممن بقوا في " ميندناو" عندما هاجر جده الأكبر مولانا جمال الدين الحسين إلى جاوا. وكم كانت فرحة الناس كبيرة باللقاء. وبطبيعة الحال فإن أخته " فراميسولي " *Paramisuli* ووالدتها وزوجة أبيه " جندا وولان" *Jinda Wulan* كانتا كلتاهما أسعد الناس بهذا اللقاء، وكذلك بقية المسلمين. وسرعان ما سألت " جندا وولان " عن زوجها إبراهيم فقال لها إنه توفي قبل أشهر في جاوا وهو يدعو إلى الإسلام، وطمأن أخته "فراميسولي" إلى أن إخوتها جميعهم بخير. وكانت زيارة المخدوم إسحاق تلك فرصة ليتعرف على زوج أخته الشريف "ماراج" وولديهما "تابوناوي *Tabunawi*" و"ممالو *Mamato*"(٦)، فاكتملت بذلك سلسلة التعاوف الأسروي. وعندما حانت لحظة الوداع مجددا استأذن المخدوم إسحاق أهله عائدا إلى جاوا.

كانت الأميرة " داراواتي *Dara Wati* ابنة ملك جمقا وأخت " جندا وولن " وزوجة ملك مجافاهيت " فيجايا " هي خالة علي رحمة الله أو سونن أمفيل. فقرر هذا الأخير أن يزورها في قصرها فاستقبلته الأميرة أحسن استقبال وجعلت صلته بالقصر جيدة و قدمته للملك الذي سر بصحبته فجعل له نفوذا على بعض القرى في منطقة أمفيل سورابايا، وزوجه حفيدته الأميرة " كليوون ". ومن هنا جاء لقبه " سونن أمفيل.

وذات صباح من عام ٧٣١ هجري أذيع نبأ وفاة الملك فيجايا فعمت الأحزان في أرجاء مملكة ماجافاهيت وحضر الأمراء وقادة الجند جميعا إلى القصر لحضور مراسم الدفن على الطريقة الهندوسية حرقا. وبعد انتهاء الجنازة أعلن الوزير " غاجاه مادا *Gajah Mada* أن الملك الجديد سيكون " أديتيا فارمان" *Aditiya Warman* أول ملوك " مينانغكابو وطلب من الجميع مبايعته. وكان مشهور عن الملك الجديد ميوله إلى الديانة البوذية وضعفه وعدم قدرته على حماية المملكة من أعدائها الخارجيين، فتململ الأمراء وتهرب بعضهم من المبايعة وصار واضحاً أن الأمور تسير نحو الأسوا، لا بل إن بعض أمراء الجند رفضوا علنا المبايعة وهددوا بقتل الملك الجديد(٨). وأدى هذا الموقف إلى هرب الملك خارج قصره تاركا مهمة تدبير الأمور لوزيره الداهية " غاجه

مادا Gajah Mada " . فتوجه الوزير إلى معسكر الجند ونشر إشاعة حول مقتل الملك ودرس ردود الأفعال في وسط القادة والأمراء، فرأى أن الكثيرين منهم غير متفقين على من يحكم المملكة وسيحاربون بعضهم بعضاً. وعندها دبر الوزير ثورة مضادة أعادت الملك إلى قصره معززا مكرما، فكافأه الملك على إخلاصه بمنحه أعلى لقب بعد الملك وهو لقب " باتيه *Patih* "[٩] ومعناه " رئيس الوزراء كلي القوة " غير أن المملكة أضحت هشة بعد تلك الهزة ولم يبق من ممتلكاتها سوى جنوب غرب بورنيو بعد أن انفصلت بالي وسومطرة عنها.

وبعد استتباب الوضع لصالح الملك " أديتيافارمان " توجه رئيس الوزراء على رأس قوة عسكرية لإخضاع المناطق المتمردة بعد أن أقسم أمام الملك أنه لن يمتع بعد اليوم ناظريه بمشهد شجرة الماء الجميلة في القصر حتى يعيد ممتلكات المملكة التي انفصلت عنها[١٠]. وبالفعل استطاع " غاجه مادا " أن يعيد مأثرة الملك " كيرتاناغارا " [*Kartanegara*] فأعاد بالي أولاً ثم توجه إلى سومطرة آخذاً معه أميراً شاباً من الملايو كان يعيش في قصر الملك في جاوا فنصبه أميرا على جاوا وتابعا للملك "أديتيافارمان". وكان الأمير الشاب نبيهاً وراقب عن كثب أساليب عمل رئيس الوزراء وحاكاها محاكاة ذكية استطاع من خلالها مد نفوذه، بدوره في سهول سومطرة إلى جبال " مينانغكابو Minangkabau " حيث انشأ مملكة بوذية لأول مرة في تاريخ سومطرة. ولما تم له ذلك قدم بقية الأمراء في وسط وشمال سومطرة الطاعة لملك " ماجافاهيت " وأرسلوا له الهدايا. ورغم استقلال تلك الإمارات داخليا فإنها كلها صارت تابعة للملك "أديتيافارمان" وتحت حماية أسطوله البحري الجاوي. وأما سلطنة آتشيه الإسلامية في شمال سومطرة فقد بقيت وحدها مستقلة عن أي هيمنة خارجية. وبفعل انتشار أسطول " ماجافاهيت " حول جاوا وسومطرة وبورنيو، فقدّ حد من نشاط سفن القراصنة الصينيين، واضطرت جزر بورنيو وبالي [*Bali*] ولومبوك [*Lombok*] ومكاسر [*Makassar*] وتيمور [*Timor*] وفواقوا[١١] إلى الخضوع لمجافاهيت. وبعد هذه الانتصارات لم يبق خارج نطاق سيطرة ماجافاهيت سوى مملكة فاليمبانغ جنوب سومطرة وهي التي خلفت مملكة " سريفيجايا " القديمة وقد سقطت بيد الوزير " غاجة مادا " في عام ٧٥٧ هجري بعد أن أرسل ملكها مبعوثا عاجلا إلى الصين لطلب المساعدة بحكم علاقات الصداقة القديمة القائمة بين المملكتين ومقترحاً أن يكون تابعا للإمبراطور بدلا من أن يكون تابعا لملك "ماجافاهيت ". ووافق إمبراطور الصين وأرسل قوة بحرية للمساعدة، لكن تلك القوة وصلت متأخرة وبعد فوات الأوان. فعندما رست السفينة الصينية في الميناء وجدت الجنود الجاويين يحتلون المدينة بالكامل فحاول بعض القادة الصينيين تغيير الوضع فألقي القبض عليهم وتم قتلهم شر قتلة والتمثيل بجثثهم. ولم يتجرأ إمبراطور الصين على الانتقام لتلك الإهانة الثانية التي

لحقت بأسطوله في تلك الجزر. وعقابا لمملكة فاليمبانغ، قرر الملك " أديتيافارمان " أن يعين عليها حاكما جاويا بدلا من جعلها ولاية تابعة له ويحكمها أمير من أهلها. واحتفالا بتلك الانتصارات أمر رئيس الوزراء بتأليف ملحمة للأغاني الجاوية تحكي عن تلك الانتصارات وسميت الملحمة بـ " ناغارا كيرتاغاما " *Negara Kartagama*، كما أمر بإنشاء معبد كبير ذكرى للأعمال المجيدة التي قام بها رئيس الوزراء، كما ألّف شاعر القصر الملكي "برابانكا " *Prapanca* قصيدة جميلة يمتدح فيها مهارة وحنكة رئيس الوزراء(١٢).

ولم تقر عين الملك " أديتيافارمان " بتلك الانتصارات إذ توفي وخلفه ابنه وحفيد الملك " فيجايا " الملك الشاب " هايام ووروك " [*Hayam Wuruk*] الذي أراد أن يتزوج ابنة ملك السوندا [*Sunda*] في غرب جاوا فأرسل إلى والد الفتاة ملك السوندا يدعوه للحضور مع ابنته إلى قصر الملك " هايام ووروك " في "ماجافاهيت ". وحضر الملك فعلا ومعه حاشية كبيرة جدا ونزل في منطقة تقع شمال العاصمة يرتادها نبلاء "ماجافاهيت " للعب والتسلية. وكان ملك السوندا فخورا بتزويج ابنته لملك " ماجافاهيت" الكبير ويأمل من وراء تلك المصاهرة إقامة تحالف قوي بين المملكتين يجلب القوة والمنفعة المادية للسوندا الفقيرة قياساً على ثروة ماجافاهيت الهائلة، ولكن رئيس الوزراء لم يكن متحمسا(١٣) لهذا الزواج معتقدا أن ملكه هو أعلى مستوى من ملك السوندا، ويستحق أن يتزوج ابنة ملك أعظم منه شأنا. ولكي يفشل هذا الزواج قام بتسريب خبر لملك السوندا بأن ابنته ستنضم إلى جواري الملك، وأنها لن تحمل لقب الملكة بل سيكون زواجها من الملك بمثابة عربون ولاء من أبيها لملك ماجافاهيت. ولما كان ملك السوندا معتدا بنفسه وغيورا على استقلاليته، فقد رفض وأراد الرحيل، فأمره رئيس الوزراء بتسليم ابنته قبيل رحيله وأحاط بقواته معسكر الملك الضيف الذي قرر أن الموت أفضل من الإهانة واشتبك مع قوات رئيس الوزراء الذي أبادهم عن بكرة أبيهم وقتل ملكهم وانتحرت ابنته بالقرب من جثته(١٤). ولم يكتف رئيس الوزراء بتوجيه دفة السياسة والحرب في المملكة بل تدخل أيضا في أعمال الدعوات الدينية، فمنع الدعاة البوذيين من ممارسة نشاطهم في غرب جاوا والأقاليم الأخرى التابعة للمملكة، في حين سمح للهندوس بممارسة نشاطهم الديني في جميع أنحاء المملكة، وكذلك للمسلمين. وكان التنافس بين المسلمين والهندوس محسوماً مسبقا لصالح المسلمين لأن الدعاة الهندوس الذين كانوا يدعون لديانة شيفا كانوا ينتمون إلى طبقة البراهمة الفوقية التي تنظر إلى الطبقات الدنيا من الناس نظرة احتقار ومذلة، في حين أن الدعوة الإسلامية كانت تقوم أساساً على الرحمة بين الناس والتضامن بين الغني والفقير وعدم التمييز بين المؤمنين أيّاً كانت طبقتهم الاجتماعية .

ومع وفاة رئيس الوزراء "غاجة مادا " في عام ٧٦٤ هجري عقد الملك مجلسا لقادة الدولة والعائلة قرر على إثره أن يقسم العمل الذي كان يقوم به رئيس الوزراء الراحل على أربعة وزراء وبعد أربع سنوات انتخب الملك أحد الوزراء ليكون رئيسا للوزراء الأربعة، لكي يخفف عنه أعباء الحكم اليومية ليتفرغ لملذات الحياة الدنيوية[١٥]. ولكن تلك الملذات ومؤامرات النساء في حريم الملك أدت إلى انهيار مملكة ماجافاهيت . فالملك " هايام ووروك " لم يكن عنده ابن شرعي من الزوجة الملكة[١٦]، وكل أبنائه من النساء الأخريات، بمن في ذلك ولد صبي من إحدى جواريه، كان معترفا بهم رسميا ولكن لا يحق لهم أن يخلفوا أباهم لأنهم كانوا يُعتبرون من مستوى اجتماعي وضيع[١٧]. وأما الزوجة الملكة فقد خلفت فتاة لا صبيا، ولكي لا يحرم الملك ابنه الوحيد "فرابـــو أنكاويجايا " [Prabu Anggawijaya] من السلطة فقد عمد إلى تقسيم مملكته مدمرا بذلك كل الجهود التي قد بذلها أبوه وجده من قبل، وكذلك الأعمال العظيمة التوحيدية التي نذر لها نفسه الوزير الأول " غاجة مادا "، وزارعاً بذلك بذور انهيار مملكة "ماجافاهيت"، وسرعان ما استقلت المناطق البعيدة في جزر الملوك عن ولائها لملك " ماجافاهيت " فعمت بذلك بذور التفكك والفوضى[١٨].

في ظل تلك التطورات كان هاشم وإبراهيم ابنا علي رحمة الله [سونان أمفيل][١٩] يقومان بالدعوة للإسلام في الشواطئ الشمالية لجاوا الشرقية بالتعاون مع محمد عين اليقين [سونن قيري *[Sunan Giri]*][٢٠] ابن عمهم المخدوم اسحاق الذي يناديه الناس بلقب " علو الإسلام " أو بلقب " مولانا إسحاق من فاليمبانغ " نسبة للمنطقة التي كان يبشر فيها بالإسلام . وقد نشط إبراهيم بن علي رحمة الله في منطقة "بونانغ " *[Bonang]* [٢١] فصار الناس يلقبونه بـــ " سونان بونانغ " وذاع صيته في أرجاء جاوا وتكاثر الطلبة على رباطه المدرسي. ولما عظم شأنه بين مريديه صار هؤلاء ينادونه " هانيكراواتي " أي سلطان العلماء أو شيخ الإسلام[٢٢]. وأما أخوه هاشم فقد صار مرجعا دينيا هاما في جاوا وأطلق عليه أتباعه لقب "سونن درجات " *[Sunan Drajat]* [٢٣]. وكانت علاقات ولاء الدعاة مع قصر الملك جيدة بحكم صلاة القرابة القائمة بينهم باعتبار أن الملكة "دارلواتي " هي خالتهم وأخت جدتهم " جنداوولن ". وعندما بدأت المملكة تتفتت لم يتدخل الدعاة في شؤونها و آثروا الابتعاد عن الصراع على السلطة والتفرغ للدعوة الإسلامية.

وتوفي في تلك الأثناء بركات زين العالم ابن مولانا الشيخ جمال الدين الحسين ودفن في " جرمين " ببورنيو . وبطبيعة الحال فإن ابنه ملك إبراهيم كان يتابع الدعوة أسوة بأبيه حتى صار مرجعا وله رباط مدرسي، كما صار الناس يلقبونه بالولي أو "سونن" أيضا.

تزامن تفتت مملكة " ماجافاهيت " مع انهيار الإمبراطورية المغولية في الصين {عصر يوان} في ظل حكم الإمبراطور " توخو تيمور " آخر أباطرة المغول[٢٤] والذي كان قد خلف الإمبراطور قوبلاي خان بعد وفاته. وكان لابد لهذا التغيير الكبير من أن يترك نتائج هامة للغاية على توازنات القوى في تلك المنطقة من العالم، كما أن مجيء حكم صيني أصيل {عصر مينغ} بدلا عن حكم المغول غير الصيني قد أثر بشكل عميق في حياة ومكانة المسلمين الصينيين الذين كان لهم دور قيادي في ظل حكم المغول.

والواقع أن أكثر المسلمين من العرب والإيرانيين الذين قدموا إلى الصين في عصر " تانغ *Tang* " للكسب والاتجار قد عقدوا النية في أغلب الأحيان على البقاء في الصين ونظموا حياتهم الاجتماعية والدينية في محيط خاص بأنفسهم، فقد كانوا يقيمون في محلات خاصة في المدن والموانئ التي وضعوا أقدامهم فيها ووجدوا فيها مجالا واسعا للقيام بالأعمال التجارية.

وأما في عصر " سونغ " {٢٣٠ – ٦٧٦ هجري}، فقد امتاز المسلمون المستوطنون في الصين بنشاط عظيم في الأعمال التجارية بامتداد نفوذهم، عن طريق مباشر أو غير مباشر، إلى بعض الدوائر الحكومية وبالأخص إدارات الجمارك ومراقبة الملاحة والتجارة البحرية في الموانئ التي تمتد على طول سواحل الصين.

وأما في عصر "يوان *Yuan*" المغول {٦٧٧ – ٧٦٨ هـ} فقد اكتسبوا نفوذاً أوسع في الأمور الداخلية وسياسة البلاد نتيجة للمراكز الممتازة التي شغلوها في شتى الإدارات بالعاصمة والولايات.

كانت سيطرة المسلمين على المراكز العالية في الإمبراطورية المغولية في الصين قد أحدثت نوعاً من الضغينة والحسد والشكوك في نفوس بعض جماعات من الصينيين ولو أنهم لم يظهروا كراهيتهم للمسلمين في البلاد. بيد أنه من المفهوم أنهم قد طووا في قلوبهم نوعا من الضغينة والنفور نحو المسلمين، فعدّوهم أجانب وردوا إلى الصين تجاراً ورجال جيش للاستثمار ومساعدة الحكم المغولي – غير الصيني – على استغلال البلاد لمنافعهم الخاصة. وبطبيعة الحال فإن حياة المسلمين الاجتماعية وعاداتهم الخاصة التي لا تمتُ بصلة إلى طبيعة الصينيين أصبحت مع مرور الزمن موضع القدح والسخرية من قبل جيرانهم الصينيين الذين كانوا ينظرون إلى الحياة بعين مختلفة، فلذا نرى أن الأحاديث الساخرة عن عقائد المسلمين وشعائرهم الدينية قد ظهرت في مؤلفات أدبية روائية كتبت في أواخر أيام حكم المغول. ومعنى هذا أن المجتمعات الصينية المحافظة حينذاك لم تنظر إلى دين الإسلام الذي ينتشر بسرعة في الصين بعين الاحترام والتقدير. كان هذا الموقف ومثله من الصينيين يشكل تحذيرا

نفسيا للمسلمين بأنه يجب عليهم أن يغيّروا بعض مظاهر الحياة وأساليبها إن كانوا يأملون في البقاء في الصين بصفة دائمة كما يجب عليهم أن يقلدوا الصينيين في العادات والآداب السائدة في البلاد حتى يستطيعوا أن يعيشوا في وسطهم ومجتمعهم (٢٥).

إن تغيير الأسرة الحاكمة في الصين من أسرة {يوان} المغولية(٢٦) إلى أسرة "مينغ" في سنة ٧٦٨ قد أوجب على المسلمين أن يغيروا مظاهرهم وعاداتهم الاجتماعية إلى حد حتى يستطيعوا أن يتقربوا إلى الحياة الصينية وثقافتها تقربا نفسيا وفكريا وأن يظهروا في المجتمعات العامة كالصينيين بدون أي تمييز. وكان ذلك عن طريق اختيار بعض العادات الصينية والتقيد بها في معيشتهم الخاصة والعامة من الآن فصاعدا.

ومن المعلوم أن المسلمين قد سكنوا في محلات خاصة بالصين قبل عصر "مينغ" وليس مستبعداً أنهم قد احتفظوا بلغتهم الخاصة وتكلموا بها فيما بينهم وفي المعاملات مع الصينيين وتخاطبوا بأسماء إسلامية واستعملوها على طريقتهم سواء أكانوا في الوظائف الرسمية أو في مباشرة أعمالهم الخاصة ولعلهم حتى ذلك الوقت لم يتعودوا على لبس الملابس الصينية، ومع بعض التحفظ في الاختلاط مع الصينيين المحليين، بيد أنه مع تأسيس الأسرة الحاكمة الجديدة – أسرة " مينغ " وهي صينية أصيلة – كان المسلمون في الصين من المهاجرين العرب والأتراك والمغول والإيرانيين ومن أبنائهم المولودين في الصين والذين أخذوا يكثرون ويزدادون يوما فيوما حتى انتشروا في كثير من المدن الكبيرة في شمال الصين وغربها ووسطها وجنوبها وفي وادي نهر "اليانتسي " وازدهروا فيها، يشعرون بلزوم إحداث بعض التغيير في مظاهر حياتهم اليومية، فرأوا من الملائم أن يعيشوا عيشة أقرب إلى حياة الصين الاجتماعية التي تنبثق من صميم ثقافتها وحضاراتها الموروثة، كما كان الوقع السياسي في البلاد يوحي بالالتزام بخطوة مثل هذه، فلذا بدأوا يختارون أسماء العائلات الصينية وسموا عائلاتهم بأسماء { ما} اختصارا من مسعود أو محمد، و{حا} اختصارا من حسن وغيره، و{ نا} اختصارا من ناصر الدين أو نصير وغيرهما، و{ باي } اختصارا من بدر الدين أو بهاء الدين إلخ. هذا من جهة، وأما من الجهة الأخرى فإن المسلمين قد اتخذوا خطوات عملية لتوثيق العرا بينهم وبين العائلات الصينية الأصيلة بصلات الزواج مثل {إينغ } و{ تاي} و{لي} و{تشانغ } وغيرها. وقد كسبوا بهذه الطريقة عددا كبيرا من أتباع جدد للإسلام، وبالتالي أخذ المسلمون يلبسون الملابس الصينية ويتزينون بأزيائهم حتى تعودوا على عادات الصينيين ومالوا إلى دراسة اللغة الصينية وفهم الثقافة الصينية بالروية والدقة فتصينوا مع مرور الزمن في الآداب

الصينية والمعيشة اليومية وأصبحوا صينيين تماما في مظاهر الحياة وعاداتها باستثناء العقيدة والعبادات الدينية.

بالرغم من حدوث هذا التغيير الكبير في حياة المسلمين في الصين ، فإنهم كانوا بدون شك قد دأبوا على الاحتفاظ بكل جد وثبات بميزتين بهما يتميزون من سائر الأفراد الصينيين في البلاد: إحداهما هي تمسكهم الشديد بالعقائد الدينية الإسلامية والأخرى هي الامتناع التام عن استعمال لحوم الخنزير أو شحومها في الأطعمة اليومية، وبالتالي كان المسلمون في الصين لا يتميزون في العادات والآداب الاجتماعية عن سائر الصينيين بغير العقيدة الدينية وعدم أكل لحوم الخنزير وشرب الخمر. وأما في الأمور الأخرى فأصبحوا صينيين تماما مع ملاحظة أن بعض الأفراد منهم على الأخص مسلمي شمال الصين الغربي مازالوا يحتفظون ببعض الملامح الخاصة التي تشهد بأصولهم الأجنبية التي حدثت في الماضي البعيد .

وكما أن المسلمين في الصين كانت لهم مكانة ممتازة منذ عصر "سونغ " إلى آخر عصر " يوان " المغول، فقد استطاعوا أن يحتفظوا بمركز عالٍ في الإمبراطورية الصينية حتى " مينغ ". كانت صلاتهم مع الأسرة الحاكمة مبنية على الاحترام المتبادل الذي عاد بفوائد كثيرة على الطرفين على السواء. كما أن صلاتهم مع مختلف الطبقات في الصين قد بنيت على أسس صداقة متينة وتفاهم شامل، فلذا لا نجد في تاريخ الصين الرسمي لعصر " مينغ " أي ذكرٍ عن وقوع حادث أو اصطدام بينهم وبين الصينيين بسبب الاختلاف في العقيدة وشعائر الدين. وكان الفضل في ذلك يرجع جزئيا إلى السمعة الحسنة التي كسبها المسلمون منذ عصر "سونغ " وجزئيا إلى اصطباغهم بصبغة صينية في المعيشة و العادات وتقريبهم إلى الحياة الصينية اجتماعياً وثقافياً. وكان هناك عمل ثالث ساعد في تعظيم هذا التفاهم الطيب بين المسلمين وغير المسلمين وهو وجود عدد لا بأس به من كبار المسلمين المعتمد عليهم من قبل البلاط، ثم إنّ الصلات الطيبة التي قامت بين أسرة " مينغ " وبين البلاد الإسلامية بآسيا الوسطى قد ساعدت على تقوية مركز المسلمين في الصين بوجه عام. ونذكر هنا مثلا آل تيمور في سمرقند وشاهرخ في هرات والملوك المسلمين الذي بعثوا بعثات رسمية عديدة إلى ملوك " مينغ " لتعزيز العلاقات، وبالإضافة إلى العلاقات الحسنة التي كانت قد وجدت بين ملوك " مينغ" وبين الأمراء المسلمين الذين كان لهم إمارات مستقلة بسواحل الهند الممتدة إلى الخليج العربي.

ومن بين كبار الشخصيات من المسلمين الذين ارتفعوا إلى رتبة عالية في عصر "مينغ " يجب علينا أن نذكر اسم القائد " تشانغ يو تشونغ *Chang Yu Chung* والحاج جهان

[تشينغ هو – Cheng-Hu [٢٧] وكانا ركنين عظيمين في بناء عظمة أسرة "مينغ " في الصين. لقد ساعد الأول الإمبراطور " مينغ تاي تو – Ming Tai - Tau على الاستيلاء على الحكم وتأسيس أسرة " مينغ " في الصين. وأما الثاني فقد ساعد على بناء عظمة الإمبراطور " مينغ جينتو Ming Chen - Tau بتوسيع نفوذه إلى ما وراء البحار. وقد كان هذان الإمبراطوران من أعظم أباطرة الصين في عصر " مينغ ".

وأما القائد " تشانج – تسونج "، فقد كان الساعد الأيمن لـــ " جو يوان – تشانج" مؤسس أسرة " مينغ " في الصين منذ قيامه بالثورة في منطقة نهر "الخوي " والخروج على الحكم المغولي المحتضر. كان ضابطاً بسيطا فارتقى إلى رتبة رئيس طليعة الجيش مأمورا بإنقاذ المارشال " هيوتا " المحصور في مدينة " ليو تانغ " من العدو. ثم ارتقى إلى رتبة القائد بعد فك الحصار عن المارشال المشار إليه. وعندما كان " جويو – تشانغ " اختار لقب " وو – وانغ " أي أمير الحرب في سنة ٧٦٤ هجرية ورُفِع إلى رتبة " بينجانغ " أي المستشار السياسي مكلفاً بمهام العمليات العسكرية نحو الشمال. فاستولى أولا على جميع الولايات بشمال النهر الأصفر، ثم على مدينة "تاي يوان " عاصمة ولاية " شي". وبعد ذلك تلقى الأوامر لتعقب " تو خو تيمور" آخر أباطرة المغول في الصين الذي كان لا يزال متحصنا في " كايبينج ". ومع سقوط هذه المدينة في يد القائد " تشانغ يو – تشونغ " في سنة ٧٦٩ هجرية وإلقاء القبض على عشرة آلاف رجل من الجيش المغولي، مع " تو خو تيمور " أصبحت أسرة " مينغ " التي أعلن تأسيسها في عام ٧٦٨ هجري مأمونة من الخطر الداخلي أيا كان نوعه. بيد أن القائد " تشيانغ يو تشونغ " لم يمض زمن طويل على بقائه حيا ليتمتع بانعام واف كان يستحقه من أول إمبراطور أسرة " مينغ " إذ وافته المنية في "ليو هو تشو" متأثراً من ضغط الدم العالي وكان لم يتجاوز ٤٠ عاما من العمر. وكانت وفاته قد أحدثت أسفا عميقا من " مينغ تاي تو " الذي تم اعتلاؤه على عرش الصين بفضل هذا القائد المسلم الوفي الكبير وتفانيه المخلص في خدمته. فتولى الإمبراطور "مينغ تاي تو" نفسه بوضع الترتيبات لتشييع جنازته ودفنه تقديرا لخدمته الجليلة، فدفن في مدينة " لونكانج ".

وأما الحاج جهان ، أكبر بحار يفتخر به الصينيون، فهو الشخصية الثانية الممتازة من المسلمين في عصر " مينغ " بدون شك . فقد لقب بـــ " سان باو – تاي جهان " أي الحصن الكبير في بلاط " مينغ " وقد أدى لأباطرة " مينغ " بمن فيهم " مينغ جينتو " ومن جاء بعده من الملوك خدمة فريدة عظيمة كان لها أكبر التأثير وأبعده في رفع شهرة الصين فيما وراء البحار حتى سواحل جزيرة العرب وشرق أفريقيا، وهو الشخص الذي كسب للصين احتراما وتقديرا بين الحكام المعاصرين في هذه البلدان .

كان الحاج جهان من مواليد " يونان " ومن أحفاد السيد بيان الذي كان حاكما على تلك الولاية أيام حكم المغول . فالصينيون يعتبرونه أكبر بحار ظهر في الصين

وأثبت تأثيره في تاريخها المديد. كان الرجل ذا مواهب فذة وهو الذي جعل جميع البلدان التي زارها في أسفاره البحرية العديدة تشعر بوطأة نفوذ الصين السياسي عليها. ركب البحر سبع مرات إلى ما وراء البحار لتنسيق العلاقات بين الصين والبلدان التي تمتد من جزيرة جاوا إلى شرق أفريقيا بما فيها الملايو وسومطرة وسيلان ومليبار وجزيرة هرمز وظفار وعدن ومكة المكرمة و بعض الموانى بسواحل شرق أفريقيا.

حواشي الباب الثامن

(١) انظر " Nusantara " ، ص ٥٢ .

(٢) انظر : عبد الرحمن بن محمد بن حسين المشهور ، " شمس الظهيرة " ، الجزء الثاني، ص ٥٢٥ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٢٥ .

(٤) انظر : محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الامام المهاجر " ، ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٠ – ١٨٩ .

(٦) هناك ذكر للعديد من الشخصيات التاريخية الدينية التي يطلق عليها لقب المخدوم وتعني خادم الله أو خادم الدين ، فقد ذكر اسم مخدوم أمين الله Makhdum Aminullah مثلاً وهو مدفون في " بود أغاد Bud Agad " داخل جزيرة " صولو " الفيليبينية ويقال أن له علاقة بالأسطول الصيني الذي قاده الأميرال " تشنغ هو Cheng-Ho " ووصل إلى صولو حوالي عام ١٤٠٠ م . وهناك ذكر لشخصية أخرى " كريم المخدوم Karim Al-Makhdum " جاء إلى الفيليبين قبل ١٠ سنوات من وصول " راج باكيندا Raja Baginda " والد زوجة السيد أبي بكر { والمعروف باسم السلطان شريف } أي حوالي عام ١٣٨٠ م . وقصة " راج باكيندا " محورية في تاريخ نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا لأن الروايات تقول: مع انهيار أمبرطورية " سريفيجايا " عام ١٣٩٧ م ، قام أمير من العاصمة فاليمبانغ بالتخلي عن ولايته لإمبراطورية ماجافاهيت الجاوية ، الأمر الذي دفع بإمبراطور هذه الأخيرة إلى غزو أراضي الأمير الذي هرب إلى ماليزيا وأسس مدينة ملقا ثم توجه إلى " بوانا " في صولو بالفيليبين وأسلم ثم نشر الإسلام فيها. {انظر : Cesar Adib " Islam's Advent and Expansion in the Philippines "،Majul منشورات Ircica اسطنبول ١٩٩٩ م ، الصفحة ٢٩ – ٣٠ } .

(٧) انظر المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأوسط ، ص ٢٦٢ .

(٨) انظر بالإنكليزية " Nusantara " ، ص ٥٣ .

(٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٣ .

(١٠) كلمة بحرة جميلة فيها ذهب و سمك تعني باللغة الجاوية " Palapa " ، ويبدو أن الوزير الأول كان يعتاد التمتع بالنظر إليها. وأما الهولندي فليكه ، فهو يرى في كتابه " Nusantara " أن الكلمة تعني نوعا من الطعام الشهي أو المال (صفحة ٥٣) .

(١١) جزر " فافوا " سبق لنا أن حددناها بأنها القسم الإندونيسي من جزيرة بابوا غينيا الجديدة، وهو القسم الذي يطلق عليه اسم " إيريان جايا " حاليا.

(١٢) انظر بالإنكليزية كتاب " Nusantara " ، ص ٥٦ – ٦٠ .

(١٣) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٥٧ .

(١٤) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٥٧ .

(١٥) يقول الشاعر عن برابانكا: " حقا أن الملك " هايام ووروك " هو عاهل عظيم فهو لا يعتمله القلق ولا تشغله العناية، وهو يتساهل مع كل الملذات حتى أن كل جميلات " جانغالا Jonggala " وكاديري " Kediri {جزأين من جاوا الشرقية} يتم انتقاؤهن له مهما كان عددهن . وكذلك هناك السبايا اللواتي يؤتى بهن من الغزوات في الخارج ، إذ يتم جلب أجمل جميلاتهن إلى حريمه . {انظر مؤلفة برنارد فليكه، ص ٦٢ }.

(١٦) انظر المرجع السابق نفسه، ص ٦٨ .

(١٧) المرجع السابق نفسه، ص ٦٨ .
(١٨) المرجع السابق نفسه، ص ٦٨ .
(١٩) واقع الأمر أن نشاطات سونان أمبيل في الدعوة هي استمرار لنشاطات سلفه " ملك إبراهيم مولانا " ، ويعرف بأنه { سونان أمبيل } أول مخطط لإنشاء الدولة الإسلامية في جزيرة جاوا ، وبدأ نشاطه بإنشاء " المعهد الديني" في أفضل المواقع قريباً من مدينة " سورابايا "، جاوا الشرقية، فاستقطب عديدا من الشباب لتأهيلهم في مجال الدعوة وأرسلهم إلى أنحاء جزيرة جاوا لهذا الغرض. ومن بين هؤلاء الدعاة الشاب "رادين فاكو " المعروف فيما بعد بـــ " سونان غيري"، و"رادين فتح " { أول سلطان لسلطنة في " بانتورو / ديماك } ، و " رادين مخدوم إبراهيم { نجل سونان أمبيل نفسه } الذي يعرف بـــ " سونان بونانغ " ، و " شريف الدين " المعروف فيما بعد بـــ " سونان دراجات " ، و" مولانا اسحاق " المبعوث إلى منطقة فاليمبانغ وغيرهم .
ذكرت "Babad Diponegoro " {أصول ديبونوغورو } أن سونان أمبيل يتمتع بنفوذ كبير في أوساط مملكة ماجافاهيت، بل ويقال: عقيلته هي من أوساط قصر " رادين فتح " . فبتقارب أمبيل مع أوساط هذا القصر انفرجت نشاطات دعوته في مملكة ماجافاهيت واسعاء لاسيما وأن " رادين فتح " ابن ملك ماجافاهيت قد أصبح كذلك من كبار الدعاة . وكما ذكرنا فإن سونان أمبيل هو أول مخطط لإنشاء دولة إسلامية في جزيرة جاوا بعاصمتها " بينتارو { ديماك } هو الذي أوصل " رادين فتح " إلى سدة السلطة هناك، مما يمكن اعتباره بأن له فضلاً جليّاً في إرساء قواعد الدور السياسي للمسلمين في الأرخبيل الإندونيسي. إضافة إلى ذلك انه قد ساهم بجهود ملحوظة في إنشاء أول جامع { يعرف الآن باسم جامع ديماك } مع غيره من الدعاة المسلمين، حيث أولى له المسلمون ثقتهم بوضع أسطوانة الجامع لجهة جنوب غربه ، أما " سونان كاليجاغا " فقد تولى وَضْعَ ثلاث أسطوانات أخرى للجامع، في حين حصل " سونان بونانغ " على شرف وضع أعمدة الجامع في جهة شمال غربه ، وحصل " سونان غونغ جاتي " على شرف وضع أعمدة الجامع لجهة شمال شرقية .
يبدو جليا من نشاطات " سونان أمبيل " أنه يرغب جاداً في أن يعتنق سكان " ديماك " الدين الإسلامي بشكل صحيح بعيد عن الخرافات التي تعودوا عليها كتقديم المأتم للأرواح أو الموائد لها . هذه الظواهر يجب أن تزول من المجتمع الإسلامي الجديد فوراً . غير أن الدعاة الآخرين يرون ضرورة التريث في طمسها لصعوبة أو لاستحالة تحقيق ذلك في وقت قصير . واقتنع هو [سونان أمبيل] بذلك ، بل وفي سبيل جذب معتنقي الديانة الهندوسية والبوذية في جزيرة جاوا ، اقترح دمج ثقافة هؤلاء مع الثقافة الإسلامية رغم أنه ما زال يعتبر تلك الظواهر الاجتماعية الدينية من الخرافات والبدع . { انظر : " Ensiklopedi Islam " منشورات " PT. Ichtiar Baru van Hoeve" جاكرتا ، المجلد الخامس ، الصفحة ١٧٤ }.
(٢٠) اسمه الأصلي " رادين باكو " وكنيته " برابو ساتماتا " ويدعى أحيانا بسلطان عبد الفقيه وهو ابن لمولانا اسحاق الذي أوفده سونان أمبيل لنشر الدعوة إلى " بلامباغان Blambangan . وكان أخوه " رادين عبد القادر " [يعرف باسم " غونونغ جاتي "] يعتبر كذلك من ضمن هؤلاء الأولياء التسعة ، له علاقة مع " رادين فتح " بالمصاهرة نظراً لكون زوجتهما شقيقتان .
حدث أن سافر مولانا إسحاق إلى " بلامباغان " ، كما ذكرنا . وخلال وجوده في تلك المنطقة تقرر سفره إلى " باساي " بهدف الدراسة ، لكنه لم يعد إلى جزيرة جاوا بعد انتهاء دراسته هناك . في هذه الحالة ، كما ذكر التاريخ القديم لجزيرة جاوا، وقررت امرأة ثرية اسمها " أغينغ " أو " أغينغ تانديس " بنت " رادين فاكو " [يعني سونان غيري] تعليمه في معهد " سونان

أمبيل " . وهنا ارتبط بعلاقات صداقة طيبة مع رادين مولانا مخدوم إبراهيم نجل سونان أمبيل المعروف فيما بعد بـ " سونان بونانغ " .

في طريقهما [سونان غيري و مخدوم إبراهيم] إلى مكة المكرمة لأداء شعائر الحج ، عرّجا إلى باساي ، أتشيه ، لفترة من الوقت ودرسا العلوم الألوهية والتوحيد والتصوف إلى أن حصل "سونان غيري " العلم اللدني ، ومنحه أستاذه لقب " عين اليقين " ، ولهذا يعرف سونان غيري باسم " رادين عين اليقين " . بدأ " سونان غيري " بعد عودته من الحجاز نشاطاته بإنشاء المعهد الديني في غيري، الذي يؤمه الطلبة من أبناء صغار التجار. وبعد أن تخرجوا أرسلهم غيري إلى مختلف أنحاء جزيرة جاوا ، وخارج الجزيرة مثل جزيرة مادورا – باويان – ترناتي – تيدوري. لهذا ذاع صيت المعهد الديني في ظل إدارة سونان غيري في أنحاء البلاد .

والمعروف عن سونان غيري أنه مربٍّ مُتجل بالروح الديمقراطية وأنه أعطى تلاميذه العاباً محشوة بالروح الدينية، وكان يعتبر من كبار الأشخاص المتمتعين بنفوذ كبير في إدارة دولاب سلطنة ديماك ، إذ ما من مرة تواجه السلطنة فيها مشكلة عويصة إلا وتمكن من تذليلها حيث عجز الآخرون من الدعاة عن تسويتها . { انظر : المرجع السابق ، الصفحة ١٧٧ } .

(٢١) يعتبر " سونان بونانغ " من أوائل رواد تطوير التعاليم الإسلامية في سواحل شمال جاوا الشرقية، وهو نجل " رادين رحمت " من زوجته " ديوي ساراواتي " من سلالة سونان كاليجاغا "، ويعرف كذلك باسم " رادين مولانا مخدوم إبراهيم [كلمة " مخدوم " لقب منح لكبار الدعاة في الهند] وقد أنجب من زوجته " ديوي هيره " بنتا تسمى " ديوي رخيل " التي اتخذها " سونان قدس" زوجة فيما بعد. عاد سونان بونانغ إلى توبان بجاوا الشرقية بعد أن أتم دراسته الإسلامية في باساي – أتشيه، فأنشأ معهدا دينيا كذلك يؤمه طلاب من مختلف الأرخبيل الإندونيسي. غير أن المعهد بقي شبه معطل بعد وفاة سونان أمبيل لعدم وجود من يتولى أموره إلى أن بادر " سونان بونانغ " بإجراء مشاورات مع غيره من الدعاة لإحياء المعهد أسفرت عن اختيار " رادين فتح " لرئاسته.

انتهج سونان بونانغ وغيره من الدعاة منهج سلفه في نشر الدعوة، أيْ دمج الثقافة الإسلامية مع الثقافة المحلية التي تسودها الهندوسية والبوذية، وهو معروف بالأراجيز " "Wayang Kulit والطبول " Gamelan " واتخذ الحفلات الشعبية [تعرض فيها الأراجيز بأنغام طبولها] مسرحاً أو بوقــاً لنشر الدعوة وأدخل من خلال الأبيات الشعرية التي تلقى فيها روحاً دينية إسلامية على شكل علم التوحيد وعدم الشرك بالله. ففي كل مقطع من الشعر مثلاً أدخلت كلمة " سكاتين" [أي شهادتي / لا إله إلا الله محمد رسول الله] ترافقه أنغام الطبول الجاوية، علماً بأن بونانغ نفسه قد ألف أغنية " " مليئة بمشاعر التوتر والوحشية والإثارة. تركزت نشاطات دعوة سونان بوناغ حوالي جاوا الشرقية وبالذات في منطقة " توبان " جاعلا المعهد الديني قاعدة لتنشئة كوادر الدعاة . كما أبدل أسماء الأرواح الشريرة بأسماء الملائكة بهدف ترغيب مقتنعي الديانة الهندوسية والبوذية باعتناق الدين الإسلامي . كما تولى بونانغ بنفسه تنشئة " رادين فتح " بن ملك ماجافاهيت " برابو ويجايا " الخاص الذي أصبح [رادين فتح] أول سلطان لسلطنة ديماك . ويقال أن الأشعار التي ألفها بونانغ والتي تم تدوينها جاءت على غرار أشعار " أونتر " جاوا الوسطى وهي محشوة بالكلمات العربية . توجد هذه المؤلفات في مكتبة جامعة ليدن بهولندا . [انظر المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٦٧].

(٢٢) انظر : العلامة علوي بن طاهر الحداد " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٢٧٩ .

(٢٣) اسمه الأصلي " رادين قاسم " أو شريف الدين . ونظراً لأن جثمانه دُفن في " سيدايو " فيعرف الشارع المسلم قاطبة بأنه " سونان سيدايو " . يعرف من خلال سلالة " دراجات " بأنه ابن لسونان أمبيل من زوجته الثانية " ديوي تشاندراواتي " . له ست أخوات من بينهن " ستي شريفة" [زوجة رادين عثمان الحاج] و " ستي مطمئنة " زوجة رادين محسن ، " ستي صوفية " زوجة رادين أحمد سونان مالاكا ، ورادين مولانا مخدوم إبراهيم رادين بونانغ ، بالإضافة إلى الأختين الأخريين وهما " ديوي مرتاسية " [زوجة رادين فتح] و" ديوي مرتسمة " [زوجة رادين فاكو / سونان غيري]، علما بأن زوجة رادين قاسم / سونان دراجات نفسه وهي ديوي صفية هي بنت سونان غونونغ جاتي .

وكان سونان دراجات قد اشترك كذلك في المشاورات التي أجريت لتقرير من سيخلف سونان أمبيل في ادارة ذلك المعهد الديني . وعندما ناقش الدعاة موضوع دمج الثقافة الإسلامية بالثقافة الجاوية طرح سونان دراجات أيضاً أناشيد جاوية تعرف بأناشيد " بانكور " تتمتع بمحبيها حتى الآن . (انظر المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٧٩) .

(٢٤) انظر " تاريخ المسلمين في الصين " لبدر الدين حي الصيني ، الصفحة ٣٣ .

(٢٥) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٣٤ .

(٢٦) حكمت أسرة يوان المغولية الصين من ١٢٨٧ م إلى ١٣٦٨ م .

(٢٧) أشارت المصادر التاريخية إلى وجود رحالة مسلم جاء من بلاد الصين مع مطلع القرن الرابع عشر ويدعى " شينغ هو – *Cheng-Hu* " استغرقت رحلته إلى وسط أسيا وجنوب شرقها ٢٧ عاما في ٧ رحلات من الصين إلى الأرخبيل الإندونيسي – الماليزي وبالعكس. ترك القائد بصماته في هذه البلاد التي لا تزال شاهدا على قدوم هذا البطل البحار المسلم. وسبب قيام القائد " تشينغ هو – *Cheng-Hu* بهذه الرحلات إلى جنوب شرق أسيا كما يقول همينيج في كتابه هو أن ملك الصين من أسرة " مينج " الشهير بعدله وحبه لشعبه أشار على القائد " تشينج هو " أن يقوم برحلات لزيارة البلاد المجاورة وعقد الصداقة مع الشعبين وكذلك لترويج وتبادل التجارة معهم. فبدأ القائد بإعداد أسطول كبير ومئات من الرجال وحمّل مركبه بمختلف الهدايا من الخزف الصيني والحرير والمشغولات اليدوية، وبجانب البضائع التي حملوها خصيصاً للتبادل التجاري، فقد كانوا يرغبون في شراء التوابل والبهارات لبيعها في بلاد الصين . ولقي القائد المسلم الذي اشتهر بدماثة الخلق هو وأتباعه أحسن الترحيب من سكان الأرخبيل سواء الإندونيسي أو [الماليزي الآن]. واستقر به المقام في عدة مدن على الساحل الشمالي لجزيرة جاوا، ويدل على ذلك الآثار التي تركها بمدينة " سمارانغ " حيث أقام الصينيون من بعده معبداً لإحياء ذكرى مجيئه إلى هذه المنطقة، وأقاموا له تمثالا كما أسس بنفسه مسجدا بسمارانغ في جاوا وفاليمبانغ في سومطرة . وأصبحت زيارات " شينغ هو " المتعددة للأرخبيل من الحكايات الشعبية التي تتناولها الناس جيلا بعد جيل خاصة للتقريب بين العنصرين الإندونيسي والصيني .

كان " شينغ هو " مسلما طموحاً ، يعتز بإسلامه ويقدم المثل الأعلى للمسلم سواء أكان في أرض الوطن أم في البلاد التي رحل إليها. ومن أهم نشاطاته الدينية في البلاد التي زارها. زيارة قبور المسلمين الصينيين في مقاطعة " فوجيان Fujian " الشهيرة بمينائها ومركزها التجاري، حيث كانت مركزا لنشر الإسلام في الصين، كما كان يزور المساجد الموجودة بالمدن العربية ومقابر الدعاة العرب والفرس الذين قدموا إلى البلاد، وكانت زيارته التي قام بها في ٣١ مايو ١٤١٧ م قبل بدء رحلته الخامسة لزيارة مقابر الدعاة وأسلافه بمقاطعة " قوانزو Quanzou " وقام بأداء الصلاة في مسجد المدينة. والشيء الجدير بالذكر أنه في رحلاته إلى المغرب دائما يصطحب المسلمين ، خاصة ممن يجيدون اللغة العربية والفارسية ليقوموا بمهمة الترجمة له .

وقد شملت رحلاته دول آسيا وأفريقيا منتصف القرن الخامس عشر، كما كان يصطحب أحد الأئمة مثل " الإمام الحسين " أحد علماء وأئمة مسجد " يامغ شي " بمدينة " جيان " الذي اشترك في الرحلة الرابعة عام ١٤١٣ ، وكان يقوم بإمامة الصلاة وصلاة الجنائز في البحر وغير ذلك من أمور المسلمين. توفي هذا الرحالة الصيني المسلم عام ١٣٧١ م. {انظر: كونج يوانري، "الرحالة الصيني المسلم: شينغ هو"، كتاب بالإندونيسية تلخيص د. نبيلة لوبيس، مجلة " ألو إندونيسيا " ، العدد ٢١ ، تموز/يوليو ٢٠٠٠ ، الصفحة ٤٩ } .

البـــــاب التـاســـــع

في ملقا وآتشيه وديماك وبانتن وسولو وجهور وجزر الملوك

الصدام بين الإسلام والاستعمار الأوروبي

[الإسلام يشكل هوية النضال الوطني في الأرخبيل]

ولم يكن التغيير في الصين وتفتت مملكة "ماجافاهيت" في جاوا وسومطرة هما الحدثان الهامان الوحيدان اللذان غيرا موازين القوى في المنطقة، إذ أن مملكة أخرى قد انهارت وهي من أخلص حلفاء مملكة ماجافاهيت ونعني بذلك مملكة " أنكور " في جمقا التي يحكمها " جايافارمان السابع Jayawarman VII " . فقد انهارت تلك المملكة الهندوسية القوية تحت وطأة هجوم مملكة سيام البوذية وحلت الديانة البوذية سريعا مكان الديانة الهندوسية، وانتقلت العاصمة إلى مدينة " لوفيك " جنوبا ثم إلى مدينة "أودونغ "(١).

بعد انهيار إمبراطورية يوان المغولية بأربعة عشر عاما عادت الصين قوة كبرى في المنطقة، فأرسل الإمبراطور "مينغ تسو" مبعوثيه إلى الممالك المحيطة للحصول على ولاء ملوكها وأمرائها، وأرفقت تلك البعثة الدبلوماسية بأسطول كبير لثني المتمردين عن أي مناورة. وشملت تلك البعثة مرافئ جاوا وملقا وأرو Aru وسمودرا وأتشيه والهند والحجاز، وقد ساهمت تلك الدبلوماسية التجارية النشطة في زرع بذور النهضة التجارية أو ما يسمى بعصر التجارة الآسيوي، وهو أمر سيؤدي لاحقا إلى جذب انتباه الأوروبيين إلى المنطقة بغية نهب ثرواتها الهائلة. وقد رست السفن الصينية في جاوا في مرافئ توبان وغرسيك وسورابايا وبالي حيث اشترى التجار الصينيون الخشب والجواهر والفولاذ وقواقع السلاحف، ثم زارت تلك السفن ميناء فاليمبانغ في سومطرة حيث اشترى التجار الصينيون العاج والعطور. وأما مبيعات هؤلاء التجار في جاوا وسومطرة فقد كانت عبارة عن الخزف والحرير الصيني(٢).

وقد أسرع ملك ملقا إلى تقديم الولاء قبل غيره لأن المقاومة كانت غير مجدية ولأن حماية الإمبراطور الصيني لملقا ستلقي الرعب في قلوب كل طامع فيها. ونجح

المبعوثون الصينيون في مهمتهم خير نجاح في جميع المناطق التي زاروها حيث خضع حكام تلك المناطق للإمبراطور الصيني ووعدوا بزيارته في عاصمة بكين لتقديم الولاء شخصياً. وكان أول ملك يزور بكين هو ملك بوني[٣] الذي لديه أسطول من القراصنة والذي وصل إلى القصر فقدم هداياه وطلب من الإمبراطور أن يعفيه من دفع الجزية التي تترتب عليه لمملكة "ماجافاهيت" لكي يدفعها مباشرة للصين، وهو أمر يعني وضع نفسه تحت حماية الصين ضد مملكة ماجافاهيت المحتضرة. ووافق الإمبراطور جذلاً. وهكذا تحول ملك بوني القرصان إلى ملك حقيقي معترف به من قبل بكين وتحت حمايتها المباشرة. ثم تلا ذلك زيارة راجا ملقا " باراميسوارا Paramiswara "[٤] الذي قدم الولاء للإمبراطور ولاقى النجاح ذاته الذي لقيه ملك بوني، إذ حصل راجا ملقا على أمر إمبراطوري موجه لملك سيام بضرورة مغادرة قواته لملقا حالاً. ثم زار سفراء الإمبراطور ماجافاهيت، وكانت الصراعات فيها محتدمة بين أولاد الملك الأربعة، وتورط السفراء دون أن يدروا في تلك الصراعات التي ذهب ضحيتها مائة وخمسون من الجنود الصينيين. غير أن ملك ماجافاهيت "أديتياوارمان Aditiyawarman " قدم اعتذاراً رسمياً عما حدث ودفع دية الجنود وجزية كبيرة للإمبراطور الصيني اتقاءً لغضبه[٥].

وعندما وصل مبعوثو الإمبراطور الصيني لسومطرة وجدوا عاصمة مملكة سريفيجايا، فاليمبانغ *Palembang* واقعة تحت سيطرة زعيم القراصنة الصينيين الذي كان يقوم بدور الملك فيها، ولم يتردد المبعوثون في القبض على زعيم القراصنة وأرسلوه فوراً إلى بكين حيث أعدمه الإمبراطور .

في تلك الأثناء حدثت تطورات هامة في ملقا فقد وصلها المخدوم إسحاق الملقب بـــ: "علو الإسلام" والد "محمد عين اليقين" على متن سفينته الشراعية في عام ٨٠٠ هجري وكان يحكم ملقا حاكم وثني وهو "راجا [ملك] ملقا باراميسوارا " الذي كان قد جاء أساساً من " توماسيك " هرباً من جيوش سيام التي كانت تطارده، فاجتمع إليه المخدوم إسحاق وأقنعه بالتحول إلى الإسلام ففعل وتسمى بالسلطان محمد إسكندر شاه[٦]، وتزوج أميرة مسلمة هي ابنة سلطان فيرلاق المسلم مخدوم علاء الدين مالك محمد أمين شاه الثاني[٧]. وكان المخدوم إسحاق يملك قدرات ومعارف عجيبة على الشفاء من الأمراض، وهي قدرات ساعدته كثيرا في إقناع الناس بصدق قناعاته الدينية.

وبفضل إسلام الملك اسكندر شاه الذي استبدل لقبه بسلطان، انتشر الإسلام بسرعة أيضا في جوهور *Johor* القريبة من ملقا[٨] لا سيما وأن ملقا صارت ملتقى

التجار العرب والمسلمين بعد الاضطرابات العنيفة التي حدثت في سومطرة وأدت إلى تراجع دور ميناء فاليمبانغ .

ولما تولى الإمبراطور الصيني "مينغ تسو" في عام ٨٠٣ هجري بعث السلطان محمد شاه وفدا لتقديم التهنئة باعتلائه العرش، فاستقبل الوفد استقبالاً حسناً ثم غادر أفراده مصحوبين بوفد صيني يحمل الهدايا النفيسة للسلطان محمد الذي كان يبعث كل عام للصين مقدارا من الذهب دليلاً على الولاء والتبعية. وفي عام ٨٠٩ هجري أرسل الإمبراطور قائده العسكري "جينغ هو" إلى سلطنة ملقا إظهاراً لحماية الصين لسلطانها الذي كان يخشى عدوان سيام عليه. ولما عاد القائد إلى بكين، قدم تقريرا للإمبراطور قال فيه: إن التجارة مزدهرة جدا في ملقا وإن التجار المسلمين يأتون إليها من بلاد العرب والهند وإيران للتجارة والدعوة الإسلامية، وهم يجدون فيها إخواناً لهم في الدين وحكومته ترعى المسلمين(٩).

وبقي "علو الإسلام المخدوم إسحاق" يدعو للإسلام في ملقا وجوهور ومينداناو في ظل رعاية كريمة من سلطانها محمد شاه حتى توفي في أتشيه خلال زيارة لها ودفن في "باساي "(١٠). وبطبيعة الحال كانت شعلة الدعوة في أوجها على يد علي رحمة الله [سونان أمبيل *SunanAmpel*] وابن أخيه إسحاق، محمد عين اليقين [سونان قيري *Sunan Giri*] الذي أضيفت إلى ألقابه لقب "راجا جرمين " أي " ملك جرمين" وعمه ملك إبراهيم وابن عمه علي نور العالم عبد الله .

وفي العام نفسه الذي توفي فيه المخدوم إسحاق أي ٨٠٥ هجري، كلف الإمبراطور الصيني "يونغ لي" ثم بعده "مينغ تسو" كبير البحارة الصينيين الحاج جيهان بالقيام برحلة بحرية هامة. وكان اختيار الإمبراطور للحاج جيهان رئيساً لهذه المهمة الخطيرة يعزى إلى أن جده وأباه قد زارا مكة المكرمة لأداء مناسك الحج، وبالتالي كانا من أعرف الناس علماً بأوضاع البلدان الممتدة من جنوب بحر الصين إلى الخليج العربي، كما أنهما قد عرفا اللغات والعادات وأحوال الشعوب في تلك البلدان. هذا من ناحية، وأما من الناحية الثانية فإن الحاج جيهان كان هو نفسه موظفاً كبيرا ذا كفاءة عظيمة. وكان يعمل تحت إمرته عدد من الموظفين الأكفاء وحوله جماعة من الأصدقاء والأوفياء الذين لهم معرفة بأحوال البلدان بجنوب البحر وما وراء جنوب البحر الصيني .

أخذ الحاج جيهان معه في رحلته هذه فرقة بحرية مكونة من ٢٧٤٠٠ جندي وقافلة كبيرة متضمنة ٦٢ سفينة وكانت كل واحدة منها تقارب ٤٤٠ قدما طولاً و١٨٠ قدما عرضاً. وقد زار الحاج جيهان أثناء هذا السفر البحري الذي استغرق أكثر من

سنتين جميع الجزائر حول جاوا وشبه جزيرة الملايو. فأظهر أمام أهالي هذه الجزر القوة العسكرية الهائلة التي يملكها أباطرة " مينغ " في الصين وعاد محملا بهدايا لا تحصى من قبل حكام تلك الجزر إلى إمبراطور "مينغ تشو " .

ونظرا لنجاح الحاج جيهان في مهمته الأولى، فقد عهد إليه الإمبراطور بمهمة ثانية زار خلالها جزيرة سيلان وسواحل الهند. ثم زار بعد ذلك شرق أفريقيا وجزيرة هرمز. وفي المرة الأخيرة زار عدن ومكة المكرمة، فأدى فريضة الحج، ولذلك لقب بالحاج جيهان .

وعلاوة على هؤلاء المسلمين في بلاط ملوك "مينغ"، كان هناك عدد غير قليل من المسلمين الممتازين في الصين في هذا العصر يعملون لدى ملوك مينغ. وكان من بينهم العلماء، وبالأخص علماء علم الفلك والنجوم وهو العلم الذي أخذ يزدهر في بكين منذ عهد قوبلاي خان .

وكان أول أباطرة مينغ مولعاً بالعلوم والمعارف مثل قوبلاي خان في عصر "يوان" . إن علم الفلك كان لازما للملوك والأباطرة لأسباب شتى بما فيها التنبؤ بتغيُّر حالة الجو الطبيعي والسياسي وإعداد التقويم الزراعي والتقدير لتقلبات المواسم والفصول إلى تأثير مباشر في استنبات البذور وشتلة النباتات وبدء العمل في إصلاح المزارع. وفوق كل هذا، يستكشف الأسرار الكونية والسماوية التي تنذر – كما كان معتقدا لدى الصينيين في تلك الأيام الغابرة وفقا لتفسير المنجمين – بوقوع كارثة طبيعية أو بشرى لقدوم سنة سعيدة مليئة بضروب من الهناء والرخاء. كل هذا من خصائص هذا العلم. ولهذه الأسباب كان ملوك مينغ قد استمروا بالعمل بالسياسة التي اتبعها أباطرة المغول في تشجيع نشر علم الفلك في أنحاء البلاد والاهتمام بدراسته. فلذا أمر بإبقاء إدارة علم الفلك والنجوم وتعيين العلماء المسلمين في الإشراف على أمورها. ونذكر هنا مثلا الشيخين حضر وعبد الله، وكانا من العلماء المسلمين الذين خدموا في الإدارة نفسها أيام حكم المغول في الصين، فعُينا فيها من جديد بمرسوم إمبراطوري من مينغ "تاتسو". وفي سنة ٧٧٠ هجرية قسمت هذه الإدارة إلى أربع شعب هي :

[١] شعبة الفلك ،

[٢] الساعة المائية ،

[٣] شعبة التقويم العام ،

[٤] شعبة التقويم الإسلامي .

وكان على كل شعبة رئيس مسلم مسؤول عن شؤونها. ففي سنة ٧٨٢ هجرية صدر أمر إمبراطوري إلى مشاهير العلماء في علم الفلك والنجوم من أمثال الأستاذ "لي جونغ" و " وو به حونغ " والشيخ الأكبر للمسلمين وغيرهم للقيام بترجمة " كتب

المسلمين " في علم الفلك والنجوم والعلوم الأخرى إلى اللغة الصينية. وكان عدد الكتب التي شملها الأمر الإمبراطوري لترجمتها يتجاوز مائة كتاب. وكانت هذه الكتب موجودة في بكين عاصمة المغول الزائلة، فوصلت إلى أيدي ملوك مينغ بعد الاستيلاء عليها(١١).

بعد عودة الحاج جيهان إلى بكين، توفي السلطان محمد شاه في عام ٨١٤ هجري وتولى مكانه ابنه اسكندر شاه ذو القرنين. فكان أول عمل قام به هو الذهاب إلى الصين لتجديد عهد الصداقة، واصطحب معه كلاً من سلطان آتشيه علي زين العابدين الذي كان قد خلف أباه السلطان أحمد الظاهر(١٢) في عام ٨٠٩ هجري وملك بروناي *Brunei*. وكان استقبال الإمبراطور للسلطانين والملك حافلا وحمّلهم الهدايا الثمينة. وقد عاد كل من سلطان ملقا وسلطان آتشيه إلى بلادهما، في حين لحقت المنية بملك بروناي وهو في بكين فدفن فيها. ثم كرر سلطان ملقا زيارته لبكين في عام ٨١٩ هجري ليجدد البيعة والصداقة والتحالف مع الإمبراطور الصيني بعد أن بدأت مملكة سيام تهاجم القرى التابعة له والقريبة من الحدود، وحصل من بكين على وعد بالحماية وأرسل الإمبراطور مبعوثا إلى ملك سيام يحثه على عدم مهاجمة سلطان ملقا، وإلا تعرض لغضب الإمبراطور.

ما إن استتبت الأوضاع في ملقا وجوهور وآتشيه وانتشر الإسلام في مناطقها انتشاراً خصبا حتى راودت "راجا جرمين *Cermen*" أو محمد عين اليقين المعروف بـــ "سونن قيري *Sunan Giri*" فكرة التوجه إلى جاوا لدعوة ملك ماجافاهيت "برابو أنكاويجايا Angkawijaya إلى الإسلام، وهو الذي خلف أباه "هايام ووروك *Hayam Wuruk*" على رأس قسم من مملكته بعد تقسيمها، وكان يؤمن بالهندوسية والبوذية معاً(١٣). ولكي يطمئن الملك إلى حسن نواياه جاء سونن قيري بابنته معه لكي يقدمها للملك زوجة إذا قبل أن يسلم، كما اصطحب معه كل أخواله وأتباعه وزوجته التي هي ابنه الملك السابق "هايام ووروك" إظهاراً للروابط العائلية التي تجمع بين الطرفين. ووصل الوفد إلى " جنكالا *Jenggala* " ومنها إلى قرية " ليران Leran " القريبة من " غرسيك Gresik " حيث أنشأوا مسجدا واتصلوا بسكان القرية وهدوهم للإسلام. ثم أرسل سونن قيري ابنه محمد الصديق إلى الملك يستأذنه في القدوم إلى مقره، فوافق "راج ماجافاهيت " [أي ملك ماجافاهيت] على لقاء سونن قيري ولكن خارج البلد لا في قصره خشية تأثير زوجة أبيه "دواراواتي" التي هي عمليا خالة "راج جرمين" باعتبارها شقيقة والدته "جنداولن" وكلتاهما ابنه ملك جمقا "جاياوارمان السابع".

وجاء مع " راج جرمين " أربعون شخصا من أتباعه الصالحين بينهم عمه ملك إبراهيم واخوته وأولادهم. فتلقاهم "راج ماجافاهيت" تحت فسطاط أقيم خصيصاً من أجلهم ولتكريمهم. ثم إن "راج جرمين" قدم للملك ماجافاهيت هدية في سلة مملوءة من

فاكهة الرمان ليعلم إذا قبل أو رد ما يرجوه من ملك ماجافاهيت من إمكان قبوله الإسلام أو امتناعه. فقبل ملك ماجافاهيت الهدية ولكنه هجس في نفسه كيف أن ملكاً يأتي من الخارج فيقدم هدية تافهة كهذه، كأن هذه الفاكهة لا توجد في جاوا. تحدث بهذا في نفسه ولم يُبْدِه لهم. ولكن "راج جرمين" فهم ما هجس في نفس الملك، ولم يطل مقامه بل رجع مع أتباعه إلى ليران. ولم يبق عند الملك إلا مولانا محضار ابن مولانا إبراهيم، أحد أصحاب سونن قيري، فهو وحده الذي بقي في المقام بصحبة الملك [ليختبر الأمر ويستبطن الحال]. وبعد أن ذهبوا أحس الملك ماجافاهيت بدوار في رأسه فشق رمانة من ذلك الرمان المقدم هدية من "راج جرمين" ونظر إلى ما بداخلها فإذا هو محشو بالجواهر بدلاً عن حبوب الرمان المعتادة. فتعجب لذلك واستعظم همة "راج جرمين"، وقال لوزيره إن "راج جرمين" من الناس أهل الرفعة والسمو، واستدعى مولانا محضار وأرسله ليستقدم راج جرمين ثانياً. ولكن راج جرمين اعتذر ولم يقبل أن يعود، واستمر ذاهباً إلى ليران. وبعد أن مكث بها أربعة أيام انتشر المرض بين أتباعه ومات منهم عدد كبير، منهم ثلاثة من أعمامه الذين جاؤوا معه، وهم السيد قاسم والسيد غارث فدفنوا هناك، وقبورهم معروفة بالقبور الطويلة. ومرضت الأميرة فمرَّضها أبوها بنفسه وجعل يدعو الله أن يشفيها ليزوجها من ملك ماجافاهيت إذا شاء الله[١٤]، فصلى مع أتباعه ودعوا الله على نية استخارة إن كان الملك "فرابو انكافيجايا" أو "راج ماجافاهيت" لا نقدر على إدخاله الإسلام فليعجّل الله بوفاة البنت هذه. فلم تمض مدة قليلة حتى ماتت وقبرت مع أعمامها. وقد أجروا كالعادة عادات الدفن من القراءة وغيرها، وعينوا مولانا إبراهيم ليحافظ على تلك القبور. ثم إن "راج جرمين" أبحر مع بقية أتباعه راجعين، وتوفي أثناء سفرهم السيد جعفر فذهبوا به إلى "مادورا *Madura* " حيث دفنوه في قرية "فلاكرا "، والسيد رفيع الدين، وهو الباقي من أعمام راج جرمين، توفي قرب جزيرة " باويان " فدفن بها. وأحب "أنكافيجايا" أن يجتمع بـ "راج جرمين" ثانياً فوصل في أتباعه إلى ليران بعد سفر راج جرمين بثلاثة أيام فسمع بوفاة البنت الأميرة ففكر: كيف أن ديانة راج جرمين لم يمكنها أن تمنع موتها وتزيل المرض المنتشر بجاوا؟. وذهب به الفكر إلى أن ديانة الإسلام ليست حسنة ! ولما تحدث بذلك أمام مولانا إبراهيم، أجابه بقوله :" هذه الخيالات الباطلة تأتي بسبب عبادة الشياطين من دون الله[١٥]. وكانت عبارة مولانا إبراهيم " عبادة ديوا – ديوا Dewa-dewa ". فغضب "أنكاويجايا Anggawijaya" غضبا شديدا، وأخذ أتباعه يهدؤونه ويسكنونه حتى سكن غضبه، وعاد راجعا إلى عاصمته. وقد حدث ذلك في عام ٨٢٠ هجري[١٦]. وما هي إلا أشهر قليلة حتى يتوفي الولي ملك إبراهيم في ليران فصلى عليه ابن أخيه

راج جرمين في مسجد القرية الذي كانوا قد بنوه سوية قبيل لقائهم بالملك "راج ماجافاهيت" ودفن المرحوم في " غفورا Gapura " قرب مدينة " غرسيك[١٧] .

ولكن الله عوض المسلمين عدم اهتداء الملك الهندوسي إلى الإسلام بانضواء "أديباتي *Adipati* " إلى الإسلام، وهو أحد حكام الملك الهندوسي على الولايات الساحلية[١٨].

في الوقت الذي كان الإسلام ينتشر سلماً في جزر سومطرة وجاوا وبورنيو وسولاويسي وملقا وجوهور وبروناي وفي جمقا والصين، ورغم القضاء على أباطرة الصين من المغول، فإن حفيدا من أحفادهم يدعى " تيمور لنك"[١٩] ترعرع في دولة أقطاي ما وراء النهر وتوصل إلى رتبة الوزارة في ظل الخاقان المغولي المسلم محمود، وسرعان ما طمع في الملك فقضى على الملك وحمل على العالم كما كان قد فعل قبله جده جنكيزخان، ففتح إيران بعد أن سفك دماء غزيرة، ولم تمض سبع سنوات حتى استولى على خراسان وجرجان ومازاندران وسجستان وأفغانستان وأذربيجان وكردستان وكامل إيران. كما غزا العراق ودمرها وأخذها من يد أحمد بن أوليس قائد الجلاريين الذين كانوا قد تملكوها بعد هولاكو، ثم حول أعنة خيوله شرقاً نحو الهند فغزا كشمير ودهلي. وما أن تم له ذلك حتى تحول غربا لفتح آسيا الصغرى التي كانت في حوزة العثمانيين بقيادة سلطانهم بيازيد. ووصل تيمور لنك إلى أنقرة وحارب بيازيد وأسره في عام ٨٠٤ هجري واكتسح سائر بلاد الشرق إلى آخر حدود الشام. ولما وصل إلى دمشق حصر ما يقدر بثلاثين ألفا من الرجال والنساء والأطفال في المسجد الأموي الكبير وأضرم فيهم النار، ثم حمل معه صانعي الأسلحة والأدوات الزجاجية والصناعات اليدوية الأخرى إلى سمرقند ليقيموا فيها الصناعة والعمران[٢٠].

وإزاء هذا الزحف القوي بايع سلاطين مصر، وهم من المماليك البرجية برئاسة السلطان الناصر فرج بن المنصور حاجي، تيمور لنك على الطاعة. وكان الخليفة العباسي آنذاك المتوكل على الله في ولايته الثانية إذ عاد إلى الحكم بعد أن كان قد خلعه المستعصم بالله في ولايته الأولى، ثم خلع الواثق بالله المعتصم بالله بدوره إلى أن أعاد الأتابكة المماليك المتوكل على الله إلى سدة الخلافة في القاهرة. وبعد أن حصل تيمور لنك على مبايعة مماليك مصر والشام فتك بهم وأسر الألوف منهم وكان بينهم العالم الجليل ابن خلدون[٢١] وسيطر على بغداد وإيران والهند، وحوّل أعنة خيوله شرقا لمحاربة أباطرة الصين الجدد من سلالة "مينغ" الذين حرروا بلادهم من قبضة أباطرة المغول من سلالة "يوان"، ولكن الأجل اعترض طريق تيمور لنك فتوفي سنة ٧٠٨ هجرية ودفن في سمرقند ونشبت الخلافات بين خلفائه وقادته فانتهى بهم الأمر إلى الضعف والانهيار وذهبت الفتوحات العسكرية هدراً وعادت البلاد التي فتحها بالقوة إلى ملوكها الأولين. وبوفاة تيمور لنك انقضى العصر المغولي في آسيا وغابت هيمنة

هذا الشعب عن دار الإسلام وعن الصين. وتنفس سلاطين الهند والسند وملوك سومطرة وجاوا وبلاد الصنف الصعداء(٢٢).

غير أن الفراغ الهائل الذي تركه تيمور لنك وراءه دفع قوى جديدة للتنافس على ملكه. وكانت تلك القوى في الشرق الإسلامي ثلاثاً: العثمانيون الأتراك، والصفويون الإيرانيون، والمماليك في مصر والشام. وأما في الشرق البعيد فإن القوى المتصارعة كانت تختلف عن ذلك تمام الاختلاف. فالصينيون الجدد من سلالة "مينغ" يريدون فرض أنفسهم قوةً مهيمنة على الممالك المحيطة، ومملكة ماجافاهيت تحتضر ببطء في ظل فراغ مخيف لا يعرف أحد من سيملؤه، ومملكة سيام البوذية كانت قد احتلت أقساما كبيرة من جمقا، ووجه ملكها(٢٣) "باراشاو واسي" إنذاراً لسلطان ملقا إسكندر شاه بالخضوع له طواعية، وإلا فهي الحرب. فاستنجد إسكندر شاه بإمبراطور الصين "تشانغ تسو" الذي أرسل فورا سفيراً للملك السيامي " باراشاو واسي" لينذره بالكف عن تهديد حليفه في ملقا(٢٤)، كما أرسل قاصدا خاصاً به إلى السلطان إسكندر شاه، ومع القاصد كاتبان له من مسلمي الصين، الأول اسمه "ماخوان"، والآخر اسمه "فاشين:" (٢٥). وقد طمأن القاصد حليف سيده إلى أن ملك سيام لن يجرؤ على مهاجمته. وقام القاصد بعد ذلك بزيارة سلطان آتشيه صلاح الدين شقيق السلطان علي زين العابدين الذي توفي ودفن إلى جانب أبيه السلطان أحمد الظاهر في المقابر الملكية في قرية "بلنغ في Blang Pie " ونقل القاصد للسلطان صلاح الدين رغبة الإمبراطور الصيني بتجديد عُرا التحالف مع سلطنة آتشيه، فوافق العاهل صلاح الدين وحمل القاصد هدايا ثمينة للإمبراطور، ولكنه تعمد قبل مغادرة القاصد أن يدعوه إلى جولة في أطراف سلطنته لكي يطلعه على مدى اتساع السلطنة وشدة بأسها الآن بالمقارنة عما كانت عليه الحالة من قبل. ولما عاد القاصد إلى بكين أخبر سيده أن سكان "أروا" و"سمودرا" و"تاكوليتاي" و"لمقولي" يدينون بالإسلام، وكذلك أهل ملقا(٢٦).

ولم يكن الإسلام ينتشر بقوة وسرعة في سومطرة وملقا فقط، بل في أقاليم جاوا التي كانت تعتبر من مقدسات الهندوسية مثل جزيرة "مادورا". فقد كان لملك ماجافاهيت "قرابو أنكافيجايا" ولد أمير يدعى "ليمبو فتنغ *Lembu Peteng* " من زوجته الملكة "داراواتي *Darawati* " ابنة ملك جمقا وخالة الداعي الأكبر سونن قيري محمد عين اليقين. وقرر الملك ذات يوم أنه قد آن الأوان لابنه الأمير أن يتعلم مسؤولية الحكم فأرسله أميراً على جزيرة "مادورا" الواقعة شرق جاوا. وكانت علاقات الصداقة بين الأمير "ليمبو فتنغ" وسونن قيري متينة جدا، ولذلك استأذن هذا الأخير الأمير بارسال أحد مساعديه المقربين وهو الشيخ شريف "خليفة حسين" معه لكي يدعو إلى الله في أنحاء إمارته، فوافق الأمير دون تردد، وما هي أشهر حتى بنى الشيخ الشريف مسجدا

سماه مسجد "فاغيران شريف *Pangeran Syarief* " وبنى كذلك رباطا تعليميا لتفقيه الناس أسماه "بيسانترين *Pesantren* ".(٢٧)

في تلك الأثناء كانت موجة هجرة إسلامية جديدة تنطلق من حضرموت باتجاه الشرق، وهذه الهجرة من نسب عبد الله بن علوي بن محمد صاحب مرباط، وهو شقيق عبد الملك بن علوي بن محمد صاحب مرباط الذي انطلقت منه موجة الهجرة الأولى قبيل قرون باتجاه الهند ومنها إلى جمقا ثم جاوا وسومطرة وملقا. فقد وصلت سفينة عربية من حضرموت إلى جوهور ونزل منها مسافر يرتدي الملابس العربية التقليدية ومعه حاشيته من الأصحاب والبحارة. وكان واضحا من طريقة تعامل أولئك المرافقين له معه أن الرجل ذو شأن وجاه بين قومه فبعث صاحب المرفأ بأوصاف المسافر وصحبه إلى السلطان إسكندر شاه ذي القرنين الذي أمر فورا بإنزاله في ضيافته. ولما مثل المسافر في حضرة السلطان سأله عن اسمه فقال : أنا الشريف زين العابدين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن علوي بن علي بن محمد بن علوي بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ﷺ)(٢٨). وهنا امتزجت دهشة السلطان الكبيرة بشعوره البالغ بمكانة ضيفه ورفعة مقامه فهو من العترة النبوية الشريفة. فهبط السلطان من سدة عرشه إلى الأرض وجلس إلى جانب الشريف زين العابدين تواضعاً، وطفق يستفسر منه عن الأوضاع في ديار الإسلام وفي الهند. وأمر السلطان بانزال الضيف الكبير في جناح خاص لكبار الضيوف في القصر وسهر على راحته بنفسه، فكان يحرص على أداء الصلاة خلف الشريف زين العابدين ويتناول معه وجبة العشاء كل يوم. وهكذا قويت الصلات بين الرجلين إلى درجة أن السلطان إسكندر زوج ابنته "جاسول آسقين"(٢٩) لضيفه فأنجبت له من الأبناء أحمدَ وعلياً ومحمد الأكبر الذي لقبه الأبوان باسم ملايوي هو: "كابونغسوان *Kabungsuan* " (٣٠) ثم محمد الأصغر(٣١) أو حسن زين العابدين .

ونظراً لاستقرار الشريف زين العابدين في جوهور وازدهار أحواله المالية بفعل التجارة في ملقا، والمعنوية بحكم تعيين السلطان إياه قاضياً للقضاة في سلطنته فقد استسمح الشريف السلطان ذات يوم في أن يجلب ابنا له يدعى أبا بكر مقيماً في مكة المكرمة، فأجاز له السلطان ذلك وما هي إلا سنة إلا وأبو بكر قد وصل إلى ملقا وانضم إلى أبيه وإخوته من زوجة أبية الملايوية وهي ابنة السلطان ذي القرنين نفسه. وسرعان ما انتشر صيت الابن أبي بكر في جوهور وملقا فقيهاً وعالماً بالدين كأبيه، وكان ذلك ثمرة إقامته في مكة المكرمة ولنسبه الشريف حيث تمكن بفعل ذلك من الأحكام الشرعية ومبادئ الدعوة الإسلامية. وبناء على طلب السلطان إسكندر شاه، ألف أبو بكر كتابا أسماه "الدرر المنظوم " يتضمن تسعين مادة إسلامية دينية لتكون

منهجا للسلطان في الحكم ومثلا يحتذي به من سيأتي بعده. وقد اقتبس الكثير من مواد هذا الكتاب مما كان قد تعلمه على يد أستاذه أبي إسحاق الشيرازي عندما كان في مكة المكرمة .(٣٢).

توفي السلطان إسكندر شاه ذو القرنين في عام ٨٢٣ هجري وخلفه ابنه قاسم مظفر شاه الذي تميز بعدالته في الحكم وعمران البلاد، وازدهار التجارة في عهده والتزامه بأحكام الشرع والدين، كما توفي في الفترة نفسها سلطان آتشيه صلاح الدين فخلفه ابنه عبد الله المتزوج الملكة بهية ابنة عمه المتوفى سلطان آتشيه المشهور علي زين العابدين. وكانت للملكة بهية شقيقة تحبها تدعى " بوهن فرابو " لم تتزوج وعاشت مع أختها في القصر الملكي(٣٣).

ونظراً لازدهار التجارة في ملقا وجوهور أصبحت ملقا مرفأ منافسا لمرفأ سمودرا باساي في شمال سومطرة الذي تحكمه امرأة ملكة تدعى " نهرا سيارا وانساكاديو " منذ عام ٨٠٠ هجري ومتحالفة مع سلطنة آتشية المسلمة(٣٤). وبفعل هذا التواصل الديني والتجاري على امتداد مضيق ملقا الذي يفصل بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة، فقد انتشر الإسلام دينا في مدينتي " بيديه Pidie " و"أرو Aru "(٣٥) وحدث الأمر نفسه في جاوا حيث برز نجم مدن "غرسيك Gtesik " و"جيفارا Jepara " و" ديماك Demak" كمرافئ إسلامية تجارية هامة ومقصدا للتجار من كل حدب وصوب(٣٦). واستمرت علاقات التحالف بين المدن الإسلامية في ملقا وجوهور وآتشيه من جهة والصين من جهة ثانية قائمة لا تشوبها شائبة، فتكاثر تبادل السفارات والهدايا بين تلك الأطراف، ووصل الأمر بالإمبراطور الصيني إلى أن أرسل أسطولا حربياً لتأديب قراصنة البحر الصيني المنتشرين في بحر صندر فولات وفي مياه جزر الملايو، كما أرسل أسطولا لتأديب قراصنة صينيين آخرين كانوا قد احتلوا مرفأ فاليمبانغ ونهبوه(٣٧). وكثرت المساجد المبنية على الطراز الصيني في ملقا وجوهور، وكذلك المبادلات التجارية بين التجار المسلمين الصينيين والتجار المسلمين العرب والإيرانيين والملايويين والهنود في شبه جزيرة الملايو.

ولم تكن الممالك الإسلامية هي الوحيدة هي التي تستقوي بتحالفها مع الصين على أعدائها وخصومها، بل إن ملوك ماجافاهيت المتحضرة كانوا يسعون إلى ذلك أيضاً، فقد أرسل ملوكها العديد من السفارات والهدايا إلى إمبراطور الصين طمعاً في حمايتهم لهم، ولكن الصينيين لم يتجاوبوا كثيرا مع تلك الطلبات بسبب تجربتهم السابقة مع ملوك ماجافاهيت القدامى وغدر هؤلاء بهم أكثر من مرة في الماضي. ولما فقد ملك ماجافاهيت " فرابو أنكافيجايا " الأمل بنجدة الصين له، التفت صوب خصوم الصينيين الألداء في " ريوكو " و"فييتنام "(٣٨). ومن المفارقات العجيبة آنذاك أن

البعثات التجارية التي كانت ترسلها إمبراطورية ماجافاهيت إلى الصين ثم إلى خصوم الصين إنما كان يرأسها تجار صينيون لا جاويون(٤٠).

بلغ محمد كابونسوان أشده، وظهر على محياه اختلاط دمه العربي من جهة أبيه وأجداده بالدم الملايوي من جهة أمه وأجدادها، فكان بحق رمزا لأسباب القرابة والتآخي وصلة الرحم بين القادمين المسلمين العرب والسكان الأصليين الملايويين. وتزوج كابونسوان فتاة من أقارب السلطان أنجبت له ولدا أسمياه " سمبكن " أو "سربيادا " وبنتا أسمياها " مزاونق"(٤١). وذات يوم فاتح كابونسوان أباه برغبته في الإبحار ونشر الإسلام في الجزر البعيدة المنتشرة بين جوهور والصين. فبارك الشريف رغبة ابنه تلك واستأذن له السلطان فأذن له وأبحر كابونسوان مع شقيقيه علي وأحمد في عدة سفن مصطحبين معهم عائلاتهم وأولادهم ومرافقيهم(٤٢). ولما وصلت السفن إلى عرض البحر الكبير أطلقت أشرعتها للرياح القوية التي هبت من الشمال محملة بالأمطار الغزيرة، فتحولت الرياح المترافقة بالأمطار إلى عاصفة بحرية فرقت السفن عن بعضها ودفعت كلا منها في اتجاه، فلم يعد أحد منهم يعلم بحال الآخر. وما أن هدأت العاصفة حتى وجد الأخ الأكبر أحمد نفسه في بروناي وشقيقه الأصغر في "سولو Sulu"(٤٣) سنداكن(٤٤) وكابونسوان في " مينداناو Mindanau " وبموضع هادئ يسمى " ناتوبكن " عند مخرج نهر " ريوكرند(٤٥) حيث كان هناك صيادون يصطادون السمك بأشباكهم لرئيسي تلك المنطقة. فأسرع الصيادون يعلمون رئيسهم بخبر وصول السفينة فجمع هؤلاء أهل البلاد وذهبوا إلى الشاطئ يلوحون للركاب ويلتمسون منهم النزول على البر فهبط محمد كابونسوان وبعض مرافقيه من السفينة وتوجهوا بزورق صغير إلى اليابسة. ولما رست أقدامهم على البر تقدم إليهم وجيهان من وجهاء المنطقة يحييانهم وعقدت الدهشة لسان كابونسوان الذي يعرف اللغة العربية ويتكلمها عندما لاحظ أن الأكبر بين الوجيهين يستخدم بعض المفردات العربية. ولما سأله عن اسمه قال: "أنا ممالو رئيس المنطقة وهذا أخي تابوناي، ونحن ابنا الشريف " ماراجا " و"فراميسوالي "(٤٦) ابنه شريف أولياء المسلم، وهو تاجر عربي يدعى إبراهيم بن جمال الدين الحسين الذي جاء من جمقا ونشر الإسلام في ربوع تلك المناطق منذ زمن بعيد. وأضاف الوجيهان قائلين أنهما رئيسا سكان تلك المنطقة الذين يقال لهم شعب " سامل " ويعملان في خدمة الملك " راجا بكيندا *Raja Baginda*" وهو ملك تلك الجزر. ترقرقت الدموع في عيني كابونسوان وطلب أن يصلي ركعتين شكرا لله تعالى على مشيئته بأن تحمل العاصفة سفينته إلى منطقة سبقه إليها أجداده من التجار والدعاة المسلمين العرب. وبعد ذلك نزل ركاب السفينة جميعهم إلى اليابسة وانتشروا بين السكان المحليين المسلمين، ثم عمدوا خلال الأشهر التالية، إلى زيارة القرى المحيطة واحدة بعد الأخرى، وكلما جاؤوا قرية جمعوا أهلها وهدوهم إلى الإسلام حتى دخل

الإسلام قلوب السكان الوثنيين جميعا من " مينداناو " وإلى " تيتوندن "، أي أن قرى "مانفي" و"سلانفين" و "سموي" و "كابتون" وجزائر "سيبو" و "سولو" و"كوتا بهارو" و"شمباو" و"بمنونغن" و " باقمبين" و "اسنا" و "بوايان" و "باسيلان" و سيبوكي" و"سارانغاي" وبحيرة "دابو" قد أصبحت كلها مناطق إسلامية(٤٧) ولكل منها مسجد كبير جامع. وأما من رفض من سكان القرى الأخرى أن يسلم فقد وجب عليه دفع الجزية. وأحاط الملك المسلم "راجا بكيندا" محمد كابونسوان وصحبه بكل رعاية وصار الناس يطلقون على الضيف لقب الشريف (٤٨) تعظيما لنسبه واحتراما لمقامه. وتزوج الشريف

العرب من قاليقوط وتضييق الخناق على سلطانها حتى يخضع للبرتغال[٩٧] وقطع التجارة العربية بين البصرة والهند[٩٨].

وفي المقابل، فإن القوى الأخرى المسلمة في ملقا وجوهور وأتشيه وديماك وترنايت كانت متحدة ضد البرتغاليين، خاصة وأن تلك الممالك الإسلامية صارت لها الكلمة العليا في البلاد بعد سقوط مملكة ماجافاهيت ووُقوعها بيد أمير كديري " فرابو أودارا *Prabu Udara* ". ودرءاً للخطر فكر عبد الفتاح تلميذ " سونن أمفيل " في ديماك بالانقضاض على ذلك الأمير وتدمير إمارته وإقامة مملكة إسلامية مكانها تكون مركزا لتوحيد ممالك وإمارات جاوا الإسلامية. غير أن أستاذه " سونن أمفيل " ثناه عن ذلك طالما أن الأمير "أودارا " لم يهاجم المسلمين[١١٤].

ولم يكن الوضع العام يميل لصالح أعداء المسلمين بشكل عام، سواء في جزر أرخبيل الملايو أو في المحيط الهندي. فقد كان للخلافة العثمانية والدولة الصفوية في إيران والدولة المغولية في الهند دور كبير في دفع عجلة التوسع الإسلامي في شواطئ المحيط الهندي وفي جعل المياه المنتشرة بين أفريقيا والصين مياه إسلامية بحتة. ثم جاءت انتصارات السلطان العثماني سليمان القانوني على الدولة الصفوية تحت حكم الشاه إسماعيل في موقعة خالديران في عام ٩٢٠ هجري، وعلى دولة المماليك في سورية ومصر سنة ٩٢٢ هجرية لتزيد من هيبة وهيمنة الخلافة العثمانية وظهورها أكبر مدافع عن الإسلام والمسلمين. واستفادت الخلافة العثمانية من انتصاراتها محاولة الحصول على تأييد المسلمين جميعا لها. ولتثبيت السلطان سليمان القانوني فقد عمد هذا السلطان إلى استخدام لقب الخليفة وخادم الحرمين الشريفين فاستطاع بذلك أن يعمق تضامن المسلمين[١١٥].

وطبقا لمكانته خادماً الحرمين فقد وضع السلاطين العثمانيون سياسات خاصة لتأمين رحلة الحج وتنظيمها حيث تم التحكم لهم في الطرق التي يمر بها الحجاج ليصلوا إلى مكة دون عقبة تذكر أو خوف من أي تهديد. وفي سنة ٩٤٥ هجرية كلف السلطان سليمان الأول حاكمه على مصر سليمان باشا بقيادة أكبر أساطيله إلى تحرير الموانى التي سيطر عليها البرتغال تأمينا لرحلة الحج إلى جدة.

وكانت البرتغال قد اعترضت قبل أعوام قليلة سفينة تجارية من أتشيه متجهة نحو جدة واستولى البحارة البرتغاليون على البضاعة غصباً وباعوها في هرمز[١١٦]. وبالطبع وصلت تلك الأنباء إلى الخلافة العثمانية في إسطنبول في تقرير رفعه قائد القوات البحرية العثمانية في البحر الأحمر الأدميرال سليمان الريس[١١٧] وبعد عودة البوكيرك إلى " غوا *Goa*" ، عاد فطلب إمداده بمزيد من السفن الحربية والجنود من البرتغال. فلبى ملكه هذا الطلب، وسرعان ما أعد البوكيرك أسطولاً حربيا من تسع عشرة سفينة على متنها ثمانمائة بحار مقاتل وتوجه بهم مجددا إلى ملقا. ورغم ضآلة عدد السفن وقوام الجنود فإن ضخامة السفن وقوة تسليحها كانتا حاسمتين في جعل ميزان القوى يميل لصالح البرتغاليين[١١٨]. ولذلك لجأ سلطان ملقا إلى السياسة بدلا

وتزامن النفوذ الإسلامي في المنطقة مع توقف البعثات البحرية الصينية نهائيا منذ عام ٨٤١ هجري، ثم تضاءلت السفارات البحرية الصينية الرسمية أيضا حتى انعدمت، فتراجع دور التجارة الصيني لتحل مكانه أدوار أخرى. ومن بين الذين ملؤوا الفراغ الصيني تجار مملكة ماجافاهيت والمرافئ شبه المستقلة الأخرى في جاوا، وهم في معظمهم بحار صينيون ومسلمون جنوا ثروات هائلة من تجارة البهارات والخشب وجوز الطيب والقرنفل والحرير والبورسلان. وكانت المحطات الرئيسية لهذه التجارة هي جزر " ترناتي " و" تيدور " و"باكان" و"بورو " و" سيرام " و "أمبون "[٦٣]. وقام ملوك سومطرة بإرسال بعثات دبلوماسية وتجارية إلى إمبراطورية الصين تقربا منها. ومن بين أولئك الملوك مهراجا فاليمبانغ " سانفوكي " الذي اعتمد إرسال سفرائه بمرتبة " آريا " أو "باتيه"[٦٤]، وكانت اهتماماته التجارية محصورة بتصدير العطور والبهارات والخيول والحيوانات الاستوائية النادرة إلى الصين واستيراد الحرير والخزف والحديد من هناك[٦٥].

ولما كانت الأرباح التجارية تسير باتجاه واحد لصالح جاوا وسومطرة وجزر الملوك وعلى حساب الصين فقد اضطر الإمبراطور الصيني في عام ٨٤٣ هجري إلى إرسال تنبيه لإمبراطور ماجافاهيت بأن يلتزم بإرسال بعثة تجارية واحدة كل ثلاث سنوات[٦٦]. ونظراً لهذا التضييق فقد حلت فييتنام مكان الصين في التجارة البحرية خاصة بعد أن استعادت مرفأ " تشامبا" *Champa* من الصين. وكان جل مبيعات فييتنام إلى التجار المسلمين والصينيين في جاوا وسومطرة عبارة عن الخزف والبورسلان اللذين كانا يستخدمان لإنشاء وتزيين المساجد في " ديماك " و " تراولان " شرق جاوا، وفي آتشيه وباساي وسمودرا، شمال سومطرة[٦٧]. وفي ظل تلك الحركة التجارية في جزر الملايو والصين واليابان وفييتنام فقد تطورت المفاهيم التجارية عن ذي قبل تطورا كبيرا، وصارت الطرق البحرية أكثر نشاطاً وأمانا من طريق الحرير البري القديم الذي يصل بين تجارة قارتي آسيا وأوروبا عبر ديار الإسلام، فأدى ذلك إلى تطور صناعة السفن و ازدياد التنافس التجاري بين الممالك الكبيرة المسيطرة على البحار، وهو الأمر الذي استدعى إنشاء مرافئ للتموين والتزود بالمياه العذبة والبضاعة على الطريق بين مرافئ المنشأ والمقصد. فقد كان التجار العرب والإيرانيون والهنود يسافرون بحراً دون توقف لأشهر طويلة في البحر ويتعرضون لمخاطر هائلة قبل أن يصلوا إلى هدفهم النهائي. وأما الآن فقد صار بوسع السفن مهما كانت تابعيتها، أن تتوقف على الطريق في أكثر من مرفأ حيث يجد التجار ضالتهم المنشودة من التجارة المرغوبة في المرافئ: باساي وآتشيه في شمال سومطرة، وملقا وباهانغ وفطاني *Pattani* في جوهور وملقا، وبانتين *Banten* وديماك وغريسك في جاوا وكمباي في الهند. وكان التجار المسلمون، في أغلب الحالات، هم الذين يحتكرون تجارة البهارات

والعطور والخزف والحرير، حيث كانوا ينقلون بضاعتهم إلى البصرة والأبلة[٦٨]، ومنها إلى دمشق وحلب ثم الموانئ الإيطالية في البحر المتوسط. كما كان بعض التجار الحضرميين واليمنيين يذهبون ببضاعتهم إلى مصر حيث يبيعونها للمماليك المصريين الذين يعيدون تصديرها لأوروبا عبر ميناء الاسكندرية، فيجنون، من وراء ذلك ثروات هائلة، وقد أدت آلية إعادة التصدير تلك إلى رفع كلفة البضاعة لدى وصولها إلى المستهلك الأوروبي، خاصة وأن الضرائب كانت تدفع لحكام وملوك كل المرافئ والممالك التي كانت تمر بها تلك البضائع. ولذلك بدأ الأوروبيون بالتفكير بشكل جدي بضرورة التخلص من تبعية أوروبا التجارية لخصومها المسلمين، أي البحث عن طريق بحري جديد للوصول إلى الهند والملايو[٦٩]. وازداد ذلك التفكير ضراوة عندما سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين الأتراك في عام ٨٥٣ هجري، فانقطع بذلك طريق التجارة التقليدي القديم الذي كانت المرافئ الأوروبية تتعامل معه، وأضحت "كمباي" في الهند والبصرة في العراق وملقا وجزر الملوك وديماك وغريسك في جزر الملايو المراكز التجارية الرئيسية في العالم[٧٠].

بعد انحسار التتر عن ديار الخلافة بقيت مصر في حوزة السلاطين المماليك البرجية[٧١] المتنازعين على السلطة والكسب. وأما الشام فبعضها في أيدي أولئك المماليك، وبعضها الآخر في أيدي أعقاب الأيوبيين حتى يكاد كل بلد يستقل بنفسه. وكان العراق وإيران ومابين النهرين موضع تنازع بين الإيلخانيين والجيلاريين والتيموريين والمظفريين، وما وراء النهر وأفغانستان في سلطة المغول التيموريين. وأما آسيا الصغرى فتتنازعها بقايا السلاجقة مع العثمانيين، وشمال أفريقيا مقسم على نفسه بين المرينين والحفصين، في حين لم يبق من الأندلس سوى الدولة النصرية في غرناطة. وكانت الحجاز مفتتة بين أمراء صغار يتنافسون فيما بينهم ويتآمرون ضد بعضهم بعضاً، في حين كاد دور الخليفة العباسي رمزياً محضاً[٧٢].

وعندما سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين كان الخليفة العباسي في القاهرة المستكفي بن المتوكل[٧٣]، في حين كانت الأوضاع في جزر الملايو قد تغيرت صورتها تماما أيضا، فقد توفي سلطان آتشيه عبد الله بن صلاح الدين فخلفته زوجته الملكة بهية بنت زين العابدين ثم خلفتها أختها " بوهين فرابو " التي توفيت بدورها في عام ٨٤٨ هجري فخلفها الملك عبد الملك المبين الذي أنشأ قصرا جديدا للحكم أسماه " دار الكمال "[٧٤].

وأصبحت معظم الممالك الأخرى في سومطرة يحكمها سلاطين مسلمون، وكذلك الحال في المدن الساحلية الكبرى في جاوا، ولم يبق نفوذ ماجافاهيت الهندوكي – البوذي إلا على المناطق الداخلية من تلك الجزيرتين. وأما مينداناو وسولو سنداكن، فقد كان يحكمهما الشقيقان محمد كابونغسوان وأبو بكر اللذان اتصلا بأجدادهما

الأشراف الطالبيين القاطنين منذ مئات السنين في جزيرة "كناوي" وفي جزر "بوهانغين" و" هارفو "و" فاليمبـــانغ " و" فاكتفات "الواقعة إلى شرق كناوي، وفي جزر"سوبافوكل" و"كاويمفانغ " و" تيكس " و " بينتنغ *Bintang*" و" كوتاباتو *Kota Batu*" و" باكوس " الواقعة إلى شمال كناوي(٧٥). فاكتملت بذلك حلقة انتشار الإسلام في تلك الجزر النائية البعيدة. وأما أبو بكر فقد توفي في عام ٨٨٥ هجري و دفن في سولو التي صار يحكمها أيضا شقيقه محمد كابونغسوان الذي توفي بدوره في ميندناو فخلفه ابنه الشريف " ماكالانغ سربيادا "(٧٦). وفي بروناي توفي الشريف أحمد بعد أن نجح في هدي ملكها " أورانغ تباتر " إلى الإسلام في عام ٨٧٦ هجري، وفي الانطلاق من بروناي لنشر الإسلام في بورنيو لدي قبائل " الداياك " و "اللانو "(٧٧). و بعد إسلام تلك القبائل عين السلطان " أوانغ بتاتر " عليها أمراء من بروناي، وأسلمت أسر بكاملها في يوم واحد مثل أسرة " بليون " في ساريكي وأسرة " بينانانغ"(٧٨). ولما توفي الملك " أوانغ بتاتر *Awang Batatar* " آل الحكم إلى تاجر وداعية عربي يدعى علي بلقية كان قد صاهر الملك وتزوج ابنته، فلما مات الملك أصبح علي العربي سلطانا على بروناي. وفي جوهور وملقا توفي السلطان عبد الله منصور شاه في عام ٨٧٧ هجري و خلفه ابنه علاء الدين رعاية شاه.

لكن التطور الهام والحاسم شهدته إمبراطورية مجافاهيت نفسها. ونحن نذكر أن علي رحمة الله { سونن أمفيل } قد استقر في " أمفيل " بسورابايا في جاوا الشرقية وأنشأ رباطا مدرسيا فيها. وكان من بين تلاميذه عبد الفتاح الذي كان اسمه سابقا " جايا ويشنو *Jaya Wisnu* " وأسلم على يد سونن أمفيل في فاليمبانغ مع أميرها " أريا دامر *Arya Damar*" الذي غير اسمه إلى عبد الله . ولما اكتمل تأهيل عبد الفتاح العلمي أرسله أستاذه إلى " بينتارا *Bintara*" الواقعة في الساحل الشمالي من جاوا لكي يكوّن فيها مركزا إسلاميا، ففعل عبد الفتاح ما طلب منه أستاذه ولاقى نجاحا كبيرا بين السكان، وصار موقع المركز الذي أنشأه يعرف باسم " ديماك "(٧٩). وكانت مملكة ماجافاهيت تحتضر منذ الثورة الأولى التي قام بها المتمرد " ويرابومي *Wirabumi* " من عام ٨٠١ لعام ٨٠٥ هجري، ثم جرت مناوشات عديدة سبق أن شرحناها. وفي عام ٨٧٨ هجري هاجمت فئة هندوكية من " كالينغا *Kalinggu* " عاصمة المملكة فاحتلتها وقتلت آخر حاكم لها" قريندرا إيفدرا واردانا"، ولكنها انسحبت منها بعد ذلك فدخلها الأمير الهندوكي " فرابو أودارا*Prabu Udara* " وهو من "كديري *Kediri* " ودمرها عن بكرة أبيها. وعندما رأى عبد الفتاح تلك الفوضى أراد أن يرسل قوة لحرب المهاجمين، فاستأذن أستاذه " سونن أمفيل " في ذلك، ولكن هذا الأخير ثناه عن ذلك مادامت ماجافاهيت لا تعتدي على المسلمين، علاوة على أن ملوكها كانوا لا يتعرضون للمسلمين أبدا، كما أن كبيرة أميراتهم الملكة " دواراواتي " المسلمة ابنة ملك جمقا" جايافارمان السابع "خالة " سونن

أمفيل" ما تزال على قيد الحياة وتعتني بشؤون المسلمين قدر استطاعتها رغم طعنها في السن[٨٠] ولما انهارت مملكة ماجافاهيت تماما، التفت معظم أمرائها وحكام أقاليمها الساحلية إلى مصاهرة العلماء والتجار المسلمين تقربا منهم وضمانا لمستقبل أولادهم وبناتهم بعد غياب الحامي القوي الذي كان متمثلا بمملكة ماجافاهيت. وهكذا تحولت مدن سواحل جاوا كافة إلى إمارات إسلامية يسيطر عليها التجار المسلمون من جهة والأمراء الجاويون من جهة ثانية[٨١] وتتكدس بين ايديهم الثروات الهائلة من احتكار التجارة مع التجار المسلمين القادمين من البصرة وكمباي وعدن ومصر.

بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين في عام ٨٥٣ هجري، عادت النزعة الصليبية الى أوجها في أوروبا، وكانت الساحة المثلى للصدام مع المسلمين هي الأندلس الضعيفة. فقام الأمير هنري البرتغالي ابن الملك يوحنا الأول بإجلاء آخر المستوطنات العربية عن البرتغال في عام ٨٦٤ هجري، وكان هذا الأمير مولعاً بالملاحة البحرية حتى سمي بهنري الملاح[٨٢] ورئيساً لتجمع ديني عسكري يدعى "فرسان يسوع المسيح "، وبالتالي كان مشبعاً بالعداء الديني للمسلمين. وبعد نجاحه بطرد المسلمين من البرتغال، رأى أن أسهل الوسائل المؤدية لاضعاف المسلمين خارج الأندلس هو الاستيلاء على مستوطناتهم التجارية في أفريقيا وخاصة في غانا، إذ يضيق عليهم الخناق ويفسح المجال للسفن الأوروبية بالمتاجرة مع شواطئ البحر الأحمر والهند والصين. وكان الأمير هنري في صباه قد لعب الدور الأعظم في نزع مدينة سبتة المغربية من أيدي أصحابها المسلمين في عام ٨٥١ هجري، وفي تلك المدينة سمع من أهلها والتجار الأوروبيين عن ثروات المسلمين في غانا الأفريقية، وهي منطقة لم يكن الأوروبيون يعرفون عنها شيئا، ولم يكن البرتغاليون الوحيدين الشرهين إلى اكتساح تجارة المسلمين والانتقام منهم لسقوط القسطنطينية، بل كان يبزهم في الشراهة تلك جيرانهم الإسبان بقيادة الملك فرديناند الثاني والملكة إيزابيلا اللذين حققا نصراً مؤزراً لأوروبا المسيحية بالقضاء على آخر معاقل المسلمين في غرناطة في عام ٨٩٢ هجري[٨٣]. غير أن طموحات الإسبان كانت محصورة بالصراع على النفوذ في البحر الأبيض المتوسط لا خارجه. ولذلك تردد الملك فرديناند الثاني في تلبية مطلب كريستوفر كولومبوس، وهو بحار برتغالي مغامر جاءه يلتمس ثلاث سفن فقط للبحث عن بلدان الشرق الهندية عبر بحر الظلمات. ولكي يسترعي البحار كولومبوس انتباه الملك لأهمية خطته قال له ما يلي: "إن مقاطعة هندية واحدة فقط تستطيع أن تجعل عموم أوروبا في درجة المتسول. وقد أكد هذا ماركوبولو والسير" جون ماندفيل" وغيرهما من سواح الشرق. ألا يوجد في أوروبا من يتبرع بثلاث سفن فقط للسيطرة على تلك الثروة العظيمة التي لا تقدر؟ أقول إن من يتجه نحو الغرب لغرض الوصول إلى الهند لا يكفيه ألف سفينة تحمل تلك الثروات التي سوف يعثر عليها، فإن هذه

الأموال ستملأ كل مكان في السفن وستفيض إلى سطوحها، وهذا ماسوف أقدمه لإسبانيا... " .

وقال: " وأضيف أيضاً ان هذه السجادة المبسوطة على البلاط غنية جداً بالنسبة لنا في أوروبا، وقد أصبح تجار السجاجيد الهندية من أعاظم الأثرياء، تزداد ثرواتهم عاما بعد عام، فمن أين حصلنا على هذه السجادة؟ لم نحصل عليها من الهند مباشرة، بل اشتريناها من التجار المسلمين في حلب والاسكندرية الذين يسيطرون على المسالك التجارية إلى الشرق الأقصى. ومهما استطعتم أن تطردوا الكفار{ أي المسلمين} من إسبانيا، فإنكم مضطرون إلى شراء كل حاجاتكم من أسواقهم بالأثمان التي يريدونها ... "[٨٤].

وبعد استماعه إلى شروحات كولومبوس، أمر الملك فرديناند بوضع ثلاث سفن تحت تصرف البحار لكي يصل إلى جزر الهند الشرقية غرباً بدلا من الاعتماد تجارياً على العرب والمسلمين. وأقلع كريستوفر بسفنه الثلاث متجها نحو الغرب في المحيط الأطلسي، وتاهت تلك السفن أشهرا طويلة في خضم المحيط الهائل، وكاد البحارة يفقدون الأمل بالبقاء على قيد الحياة حتى ظهرت لهم اليابسة فهللوا من فرحتهم معتقدين أنهم وصلوا إلى جزر الهند الشرقية وحققوا حلم كولومبوس بالالتفاف على خطوط الملاحة والإمداد الإسلامية. ولكنهم لما هبطوا من سفنهم متعبين فوجئوا بأنهم قد وضعوا أقدامهم فوق أرض جديدة لم تكن معروفة من قبل فأطلقوا عليها اسم " جزر الهند الغربية ". ورغم عدم وجود بهارات وحرير وخزف صيني في تلك الأرض الجديدة، فإن ثروات أخرى أكثر أهمية ظهرت لعيان البحارة، وهذه الثروات هي الذهب والجواهر والأراضي العذراء. ولم يكن سهلا أبداً الاستيلاء على تلك الثروات لأنها كانت بيد ممالك متطورة من سكان البلاد الأصليين، فأزمع البحارة على مهاجمة تلك الممالك بأسلحتهم النارية التي لم تكن معهودة في العالم الجديد، الأمر الذي أدى إلى إبادة مملكتي " أنكا " و" الأنديز " إبادة تامة واستيلاء الغزاة على ثروات هائلة ثم نقلها إلى السفن والعودة بها إلى إسبانيا. ولما وقف الملك فرديناند والملكة إيزابيلا على حجم ثروة تلك الأراضي الجديدة، فقد أمرا بتجهيز أسطول كبير من السفن للتوجه ثانية نحو الأرض الجديدة والاستيلاء على ثرواتها لصالح التاج الإسباني. وطار الخبر إلى البرتغال فأرسلت بدورها الأساطيل البحرية لاقتسام غنائم العالم الجديد. واحتدم الصراع بين الإسبان والبرتغاليين للسيطرة على العالم الجديد وحاذى الطرفان الصدام العسكري فتدخل البابا ألكسندر السادس بينهما وأصدر في عام ٨٩٣ هجري قراره بتقسيم المستعمرات الجديدة بين إسبانيا والبرتغال، وذلك بتصور خط تقسيم يمر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي عبر المحيط الأطلسي إلى الغرب من جزر الآزور مسافة ٣٧٠ فرسخا، فيكون كل ما يكشف إلى الشرق منه للبرتغال، وكل مايكشف إلى

الغرب منه لإسبانيا[٨٥]. ثم تم التوقيع في عام ٨٩٤ هجري على هذا الاتفاق في "توديسيللاسي " برعاية البابا نفسه[٨٦].

ورغم الاكتشاف البحري الهائل الذي تحقق بالوصول إلى جزر الهند الغربية، فإن طموحات البرتغاليين القديمة بالوصول إلى جزر الهند الشرقية لم تتراجع. وما مضى على نزع مدينة " سبتة " المغربية من يد العرب أربعة وعشرون عاما حتى كان عام ٨٩٧ هجري عندما خرج ملاح برتغالي يدعى "فاسكو دي غاما " من لشبونة على رأس عدة سفن حربية متجها نحو الجنوب الأفريقي حيث توجد المستوطنات التجارية العربية التي تحتكر قسما من تجارة الهند و جزر الهند الشرقية[٨٧]. وكان أول مكان رست فيه سفن فاسكو دي غاما هو غانا، حيث هاجمت تلك السفن سواحلها بالمدافع واعترضت سفن التجار المسلمين في البحر وأغرقت عددا منها في حين استولت على حمولة بعضها الآخر. ثم تابعت السفن إبحارها جنوبا لتصل إلى بقعة متلاطمة الأمواج حيث كانت تتكسر سفن برتغالية فيها من قبل. وبالفعل غرقت إحدى سفن الأسطول في تلك البقعة[٨٨] وتضررت السفن الأخرى وكاد القبطان دي غاما أن يعود أدراجه لولا وصوله إلى آخر الساحل الأفريقي الغربي جنوبا فهدأت العواصف والأمواج وبدا للعيان أنه يمكن الالتفاف شرقا لمتابعة الإبحار على ساحل أفريقيا الشرقي. فاستبشر القبطان خيراً وأطلق على تلك المنطقــة اسم "رأس الرجاء الصالح "[٨٩].

وبعد عبور ذلك الرأس تابعت السفن البرتغالية صعودها شمالا على امتداد الساحل الأفريقي حتى وصلت إلى موزامبيق[٩٠] حيث استقبل ملك البلاد القادمين أحسن استقبال ولكنهم غدروا به وأمعنوا في أعمال القرصنة والنهب وسرقة مستودعات البلاد[٩١]. ثم خرج فاسكو دي غاما *Vasco de Gama* من موزامبيق شمالا إزاء شاطئ أفريقيا الذي كان عبارة عن مدن إسلامية مزدهرة[٩٢]. فكان كلما حل بثغر وجده مسكونا بالعرب والمسلمين الذين يمتنعون عن إرشاده إلى الطريق البحري الذي تسلكه سفنهم المتاجرة مع الهند. وهكذا واصل القبطان البرتغالي إبحاره شمالا حتى" كلوة" و"ممباسا " ثم رسا في " مليندي " حيث تعرف على ملاح عربي يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي ويلقبه الناس بـ" ابن ماجد *Ibn Majid* "[٩٣]، وكان هذا الملاح خبيرا بطرق التجارة بين أفريقيا والهند، وقبل أن يرشد القبطان البرتغالي إلى سر الطريق البحري الذي تسلكه السفن الإسلامية الذاهبة إلى الهند. وبالفعل وصلت السفن البرتغالية بفضله إلى ميناء قاليقوط في الهند[٩٤] التي يحكمها سلطان سامري يدعى " زامرين". فتوجس ذلك السلطان الشر من البرتغاليين الأوروبيين الذين يزورون الهند للمرة الأولى في التاريخ خاصة وأن التجار المسلمين حذروا السلطان من أن أولئك البحارة هم لصوص بحر لا عمل لهم سوى النهب والسلب، وقد سبق لهم أن هاجموا مرافئ شرق أفريقيا[٩٥]، فازداد خوف السلطان منهم إلى درجة أنه اعتقل

فاسكو دي غاما واحتجز أكثر سفنه ورجاله وكاد أن يفتك بهم لولا مهارة الملاح البرتغالي الذي طمع السلطان بإعطائه احتكار التجارة الإسلامية الهندية مع البرتغال، فوافق السطان " زامرين " وعقد معاهدة تجارية بهذا الخصوص وسمح للبرتغاليين بإنشاء معقل لهم على ساحل مالابار. ثم عاد دي غاما مع سفنه إلى البرتغال محملا بالبضائع الثمينة وبالخرائط البحرية التي مكنته من الوصول إلى الهند، لا بل وأكثر من ذلك، فقد استفاد الملاح البرتغالي من رحلته الطويلة تلك ليتجسس على أحوال العرب والمسلمين ومعرفة مواضع ضعفهم وحجم قوتهم ومدى قوة سفنهم.

وما إن عاد الملاح إلى لشبونة حتى أطلع ملكه على ما لديه من معلومات زافّا إليه البشرى باكتشاف أسرار الطريق البحري المؤدي إلى الهند عبر أفريقيا[٩٦]. فازداد ملك البرتغال زهواً بعد أن ملك أسطوله أسرار الطريق البحرية غرباً وشرقاً، وسرعان ما قرر الملك إرسال أسطول برتغالي بحري عظيم بنيت سفنه بحيث تكون أكبر حجما بكثير من السفن الإسلامية التي كان قد وصفها دي غاما بعد رحلته الأولى وتم تسليحها بالمدافع الكبيرة والمعدات الحربية المتطورة، ووضع على رأس تلك الحملة قائداً يدعى " كبرال " توجه مباشرة إلى الهند. فوصل إلى قاليقوط في عام ٩٠٠ هجري، وهناك احتجز سفينة تجارية يملكها عرب وأهداها إلى سلطان المدينة " زامرين " لكي يزرع الفتنة بين السلطان والمسلمين، ولكن المسلمين ثاروا لنفسهم من خلال تدمير المعقل البرتغالي على شاطئ الملابار وذبحوا حاميته البرتغالية. فرد عليهم " كبرال " بتدمير عشر من سفنهم الكبيرة الراسية في قاليقوط، فاعترض السلطان على عملهم هذا لأن ذلك كفيل بتقويض مكانة قاليقوط التجارية، فما كان من " كبرال " إلا التوجه إلى ملك "كوتشين " وهي مرفأ آخر في ساحل الملابار كان أميرها في حالة حرب مع السلطان " زامرين "، فوعده "كبرال" بأن يساعده في ضم قاليقوط إلى أملاكه، كما فعل كبرال الشيء نفسه مع أمير مرفأ "كنافور". فتحالف الأميران مع البرتغاليين ضد " زامرين ".

وعاد كبرال إلى البرتغال لينقل ما حصل من تطورات معه إلى ملكه في لشبونة، فأمر هذا الملك قائداً آخر يدعى " دي نوفا " بالتوجه إلى الهند على رأس أسطول حربي كبير . ففعل ووصل إلى قاليقوط فرفض سلطانها السماح له بالرسو في مرفئه، فقصد الأسطول " كنافور " حيث علم فيها بتأهب السلطان " زامرين" لمهاجمته بأربعين سفينة. واصطدم الأسطولان فهزم السلطان بسبب صغر حجم سفنه وعدم تسلحها بالمدافع والأسلحة النارية الأخرى. لكن البرتغاليين دب الخوف في قلوبهم خشية أن يكون إقدامهم على مهاجمة تلك البلاد واحتكار تجارتها من شأنه أن يثير ضدهم ملوكها وسلاطينها. وهكذا عاد "دي نوفا " مجددا إلى لشبونة ليطلع الملك البرتغالي على ماحصل معه في الهند. فأمر الملك مجددا فاسكو دي غاما بالتوجه على رأس أسطول مؤلف من عشرين سفينة حربية مع تعليمات واضحة باستئصال شأفة

العرب من قاليقوط وتضييق الخناق على سلطانها حتى يخضع للبرتغال[٩٧] وقطع التجارة العربية بين البصرة والهند[٩٨].

في البحر الأحمر الأدميرال كورتوغلو هيزير ريس بالإبحار فوراً إلى أتشيه ومعه عدد كبير من سلاح المدفعية والجنود والأسلحة(١٦٣). ولما وصل الأسطول العثماني إلى أتشيه كان السلطان علاء الدين قد توفي فقام خلفه بتجديد الاتفاقية العسكرية والسياسية مع السلطان العثماني(١٦٤) الذي سمح للأسطول الآتشي بأن يرفع الأعلام العثمانية ردعا للبرتغاليين.

منذ وصول البرتغاليين إلى ملقا حدثت أمور وتطورات كبيرة في العالم . فقد برز رجل دين مسيحي كاثوليكي في عام ٩١٧ هجري يدعى " مارتين لوثر" أثار الفاتيكان عليه ولكنه حظي بموازرة العديد من المسيحيين ودعمهم. فأعلن استقلاله عن الكنيسة الكاثوليكية وتأسيسه الكنيسة البروتستانتية. وقد جرى ذلك في ظل ذروة نفوذ الإمبراطور الإسباني " شارل الخامس " بعد احتلال أساطيله المكسيك وأجزاء واسعة من القارة الأمريكية في عام ٩١٩ هجري. كما أن السلطان العثماني سليمان القانوني كان قد زحف على بلاد الشام ومصر فاحتلهما في عام ٩١٧ هجري ثم احتل العراق والحجاز وأعلن نفسه خادما للحرمين الشريفين وسلطانا لكل المسلمين، وأمر ببناء أسطول بحري كبير ينافس الأساطيل الإسبانية والبرتغالية(١٦٥).

لكن الإمبراطور الإسباني كان سباقا في التوغل في البحار إذ أرسل بعثة بحرية بقيادة ملاح إسباني يدعى " ماجيلان " بهدف الوصول إلى جزر الهند الشرقية عبر جزر الهند الغربية أي أمريكا. وفي عام ٩٢١ هجري دارت سفينة ماجيلان {فيكتوريا} حول الكرة الأرضية ووصلت إلى بروناي قادمة من البحر الزفتي الكبير، فحقق الملاح رغبة ملكه، ولكنه عندما غادر بروناي و سار في ميندناو واشتبك مع المسلمين فيها قتلوه ودفن فيها(١٦٦). ولكن وصول السفينة الإسبانية إلى بروناي قادمة من الاتجاه المعاكس للطريق الذي جاءت منه السفن البرتغالية، جعل البرتغاليين يجفلون ويرتعدون رعباً وغضباً إزاء إمكانية حلول الإسبانيين مكانهم في جزر الملايو، فلجؤوا، تاليا، إلى تعزيز وجودهم في جزر التوابل وقرروا بناء قلعة كبيرة ومركزة حامية قوية فيها، ولكنهم احتاروا في اختيار البقعة التي ستبنى فوقها القلعة لأن كلاً من أميري "ترنايت [*Ternate*]" و"تيدور [*Tidore*]" طلب من البرتغاليين أن يبنوا القلعة في جزيرته طمعا في الحصول على الثروة بتحول جزيرته إلى مركز تجارة البرتغاليين الرئيسي في المنطقة(١٦٧). وقرر البرتغاليون في نهاية المطاف إقامة تحالف مع أمير ترنايت وبناء القلعة في جزيرته، وهو قرار ألّب ضدهم أمراء الجزائر الأخرى(١٦٨) مع العلم أن أميري ترنايت وتيدور كانا كلاهما مسلمين، لا بل إن أمير ترنايت كان أشد تعصبا للإسلام(١٦٩) ورافضا لأي تبشير مسيحي في قرى جزيرته، في حين أن أمير تيدور كان لايمانع في القيام بذلك.

والمهم أن الاتفاق الموقع بين أميرترنايت والبرتغاليين ضمن لهؤلاء الأخيرين احتكار تجارة القرنفل معتقدين، خطأ، أنهم قادرون على منع زراعة شجر القرنفل خارج ترنايت. ولكن الذي حصل كان عكس ذلك تماما إذ بدأت أشجار القرنفل تزرع وتثمر وتنتج في الجزائر الأخرى وخاصة جزيرة "باندا[*Banda*]" التي رفض أميرها عقد تحالف مع البرتغاليين[١٧٠] وجزيرة أمبون.

وبغضّ النظر عن فشل البرتغاليين في احتكار تجارة القرنفل وجوزة الطيب، فقد استطاعوا أن يقيموا خطاً بحرياً تجاريا آمناً بين جزائر الملوك ومركزهم في ملقا وقاعدتهم في "غوا[*Gowa*]" [١٧١] دون اتباع خط السير الاعتيادي الذي يمر عبر سواحل بورنيو إلى بحر جاوا ثم جنوب سولاويسي إلى غرسيك، لأن كل تلك المنطقة أضحت مسلمة وتقع تحت نفوذ السلاطين المسلمين أعداء البرتغاليين الرئيسيين، وذلك منذ عام ٩٧٥ هجري عندما جاء داعيتان مسلمان يُدعيان " توان ري باندانغ " و"تونغانغ بارانغان " من جنوب سولايسي إلى مملكة " كوتيه [*Kutai*]" في شرق " بورنيو" حيث قابلا ملكها "أجي ديلانغار " الذي كان يدين بالهندوسية، في حين أن بقية قبائل بورنيو كانت وثنية بدائية[١٧٢]. واستقبل الملك الداعيتين في قصره داعياً إياهما إلى مناظرته في أمور الدين، فإنْ هما فازا سمح لهما بالدعوة إلى الإسلام في مملكته، وان خسرا المناظرة توجّب عليهما المغادرة وعدم العودة. وجرت المناظرة ففاز بها الداعيتان المسلمان باعتراف الملك نفسه الذي احترم وعده وسمح لهما بنشر تعاليم الدين الإسلامي بين رعية المملكة. وهكذا أقبل الناس بأعداد غفيرة على الدخول في الإسلام حتى تحولت مملكة "كوتيه" إلى مملكة إسلامية بعد وفاة ملكها "ديلانغار" [١٧٣]. وأما في جنوب سولاويسي نفسها، فقد كان فيها خمسون ملكا وثنيا ممن يعبدون الأصنام والتماثيل والصور، حتى جاءهم تلاميذ " سونن قيري " وهم " داتو ري باندانغ " الآنف الذكر و"داتو ري تيرو " و" داتو سليمان" فهدوا الناس إلى الإسلام، ثم تلاهم الملوك وأهمهم ملكا "غوا [*Gowa*]" وفالو[*Palu*] " اللذان انتشر الإسلام بفضلهما إلى جزر بون [*Bone*]" وواجو[*Wajo*]" و"سوبينغ [*Soppeng*]" في جنوب سولاويسي[١٧٤]. تحرك البرتغاليون مجددا للسيطرة على الطرق التجارية فاحتجوا ضد زيارة البحار الإسباني "ماجيلان " الى بروناي ومينداناو معتبرين أن تلك الزيارة تشكل خرقا لاتفاق " تور ديسيلاسي " الذي أشرف عليه البابا في عام ٨٩٤ هجري بين البرتغال وإسبانيا لتقسيم الأراضي المكتشفة بينهما. وأسفر الاحتجاج عن عقد اجتماع في عام ٩٢٤ هجري ضم خبراء من البلدين. لكن أولئك الخبراء، ومنهم جغرافيون مشهورون عجزوا عن الاتفاق على موقع جزر الملوك على الخريطة الجغرافية[١٧٥] فانفضّ الاجتماع دونما نتيجة. وما هي إلا أسابيع ويقلع أسطول إسباني جديد مؤلف من سبع سفن حربية عبر مضيق " ماجيلان"[١٧٦] متوجها إلى جزائر الملوك. ولم يصل من هذا الأسطول إلى

وفي المقابل، فإن القوى الأخرى المسلمة في ملقا وجوهور وأتشيه وديماك وترنايت كانت متحدة ضد البرتغاليين، خاصة وأن تلك الممالك الإسلامية صارت لها الكلمة العليا في البلاد بعد سقوط مملكة ماجافاهيت ووقوعها بيد أمير كديري " فرابو أودارا *Prabu Udara* ". ودرءاً للخطر فكر عبد الفتاح تلميذ " سونن أمفيل " في ديماك بالانقضاض على ذلك الأمير وتدمير إمارته وإقامة مملكة إسلامية مكانها تكون مركزا لتوحيد ممالك وإمارات جاوا الإسلامية. غير أن أستاذه " سونن أمفيل " ثناه عن ذلك طالما أن الأمير "أودارا " لم يهاجم المسلمين(١١٤).

ولم يكن الوضع العام يميل لصالح أعداء المسلمين بشكل عام، سواء في جزر أرخبيل الملايو أو في المحيط الهندي. فقد كان للخلافة العثمانية والدولة الصفوية في إيران والدولة المغولية في الهند دور كبير في دفع عجلة التوسع الإسلامي في شواطئ المحيط الهندي وفي جعل المياه المنتشرة بين أفريقيا والصين مياه إسلامية بحتة. ثم جاءت انتصارات السلطان العثماني سليمان القانوني على الدولة الصفوية تحت حكم الشاه إسماعيل في موقعة خالديران في عام ٩٢٠ هجري، وعلى دولة المماليك في سورية ومصر سنة ٩٢٢ هجرية لتزيد من هيبة وهيمنة الخلافة العثمانية وظهورها أكبر مدافع عن الإسلام والمسلمين. واستفادت الخلافة العثمانية من انتصاراتها محاولة الحصول على تأييد المسلمين جميعا لها. ولتثبيت السلطان سليمان القانوني فقد عمد هذا السلطان إلى استخدام لقب الخليفة وخادم الحرمين الشريفين فاستطاع بذلك أن يعمق تضامن المسلمين(١١٥).

وطبقا لمكانته خادماً الحرمين فقد وضع السلاطين العثمانيون سياسات خاصة لتأمين رحلة الحج وتنظيمها حيث تم التحكم لهم في الطرق التي يمر بها الحجاج ليصلوا إلى مكة دون عقبة تذكر أو خوف من أي تهديد. وفي سنة ٩٤٥ هجرية كلف السلطان سليمان الأول حاكمه على مصر سليمان باشا بقيادة أكبر أساطيله إلى تحرير المواني التي سيطر عليها البرتغال تأمينا لرحلة الحج إلى جدة.

وكانت البرتغال قد اعترضت قبل أعوام قليلة سفينة تجارية من أتشيه متجهة نحو جدة واستولى البحارة البرتغاليون على البضاعة غصباً وباعوها في هرمز(١١٦). وبالطبع وصلت تلك الأنباء إلى الخلافة العثمانية في إسطنبول في تقرير رفعه قائد القوات البحرية العثمانية في البحر الأحمر الأدميرال سليمان الريس(١١٧) وبعد عودة البوكيرك إلى " غوا *Goa*" ، عاد فطلب إمداده بمزيد من السفن الحربية والجنود من البرتغال. فلبى ملكه هذا الطلب، وسرعان ما أعد البوكيرك أسطولاً حربيا من تسع عشرة سفينة على متنها ثمانمائة بحار مقاتل وتوجه بهم مجددا إلى ملقا. ورغم ضآلة عدد السفن وقوام الجنود فإن ضخامة السفن وقوة تسليحها كانتا حاسمتين في جعل ميزان القوى يميل لصالح البرتغاليين(١١٨). ولذلك لجأ سلطان ملقا إلى السياسة بدلا

من الحرب والصدام طالبا التفاوض مع البوكيرك فقبل هذا الأخير محددا شروطه بأن يدفع السلطان نفقات وأضرار الحرب وأن يسمح للبرتغاليين ببناء قلعة عسكرية في ملقا[١١٩]. وبطبيعة الحال رفض السلطان تلك الشروط المذلة والخطرة التي تعرض استقلال ملقا لمخاطر جسيمة. فبدأ البوكيرك يهاجمون ملقا دون إحراز أي نجاح. وبعد أسابيع من الحصار والمعارك طلب ضباط البوكيرك منه إيقاف الحرب والعودة إلى غوا، خاصة وأن المناخ الصعب للمنطقة كان يفتك بالبحارة [١٢٠]، غير أن البوكيرك عبأ جنوده مرة ثانية وأخمد معارضة ضباطه وكرَّ هاجماً على ملقا براً وبحراً حتى سقطت بيده ، غير أنه لم يستطع القبض على السلطان الذي انسحب إلى الجنوب من ملقا حيث تابع القتال من هناك[١٢١].

أضحت ملقا مدينة برتغالية في قلب جزر الملايو. وكان أول عمل قام به البوكيرك هو إنشاء قلعة ضخمة فيها استخدم لبنائها حجارة قبور المسلمين[١٢٢] فألب السكان عليه. ثم ارتكب خطيئة ثانية عندما قتل شيخ تجار ملقا وهو من أصول جاوية بحجة أنه يتآمر ضد الوجود البرتغالي في المدينة، في حين أن دوافعه الحقيقية كانت القضاء على احتكار التجارة الإسلامي في الجزر الملايوية [١٢٣]. وأما القرار الثالث الذي اتخذه البوكيرك فكان تنظيمه لغزوات عسكرية إلى كل من سيام والصين وجزر الملوك[*Maluku*] مع ايلاء أهمية خاصة لتلك الجزر الأخيرة باعتبارها مصدر الثروة المشرقية لتجار جاوا وسومطرة وكوجرات المسلمين[١٢٤] الذين يحتكرون تجارة القرنفل، وهي مادة كانت تزرع أساسا وبشكل حصري في جزر ترنايت وتيدور وهلماهيرا، في حين أن جوزة الطيب كانت تزرع في أمبون وجزر باندا *Banda*[١٢٥]. وكانت ذروة طموح البرتغاليين احتكار تجارة تلك المواد عبر القضاء على الوسطاء المسلمين وإيصال تلك المواد بنفسهم من المصدر إلى أوروبا. وسرعان ما انعكست سياسة البرتغاليين تلك سلبيا على التجار المسلمين في الملايو والهند والعراق وسورية ومصر وإسطنبول . ولكي ينجح البرتغاليون في سياستهم فقد حاولوا اكتساب مودة منتجي المواد الملايويين المسلمين، غير أن محاولتهم باءت بالفشل. ثم أرسل البوكيرك ضابطا لديه يدعى " أنطونيو دابرو" إلى جزر الملايو وزوده بتعليمات واضحة بألا يتصرف كعسكري وإنما كتاجر ووضع تحت تصرفه ثلاث سفن. وقد وصلت تلك السفن إلى ميناء غرسيك في جاوا فلم يتعرض لها المسلمون، ثم غادرت شمالا باتجاه جزر الملوك فهبت عليها عاصفة أغرقت واحدة منها قرب جزائر باندا. وأما الاثنتان المتبقيتان فقد تعرضتا لأضرار جسيمة دفعت بالقبطان إلى الإسراع بإصلاحهما وشراء حمولة كبيرة من القرنفل من جزر باندا دون أن يساوم حتى على السعر، وعزف عن زيارة ترنايت وتيدور، وأقلع عائدا إلى ملقا فغرقت سفينة أخرى على الطريق قرب أمبون يقودها القبطان " سيروا " ولم تصل إلى ملقا سوى سفينة واحدة من أصل السفن

الثلاث[١٢٦]. وأما القبطان " سيروا " فقد أنقذه أحد القراصنة الملايويين فأوصله إلى جزيرة ترنايت حيث اتفق معه على مساعدة القراصنة على بناء سفن قوية . وقد نجح هذا القبطان في مسعاه حتى تقرب من سلطان ترنايت المسلم واكتسب ثقته. وهكذا أفلح القبطان " سيروا " حيث فشل القبطان " دابرو"، وكان سلطان ترنايت قبل أن يعلن إسلامه يدعى " بولاوا " أي القرنفل. وخلال زيارة له إلى غرسيك في جاوا اجتمع بداعية تاجر مسلم اسمه " توهو باها هول " أقنعه بالتحول إلى الإسلام فقبل السلطان واصطحب معه هذا الداعية إلى ترنايت[١٢٧].

أدى التواجد البرتغالي في ملقا إلى تغيير الصورة التجارية في الملايو. وكان أول مظهر للضرر الناجم عن هذا التواجد يتعلق بالتجارة مع الصين. فقد خشي الجاويون أن يقضي البرتغاليون على تجارتهم مع الصين كما فعلوا مع سلطان ملقا وجوهور. وكان الجاويون هم المصدر الرئيسي لتصدير الرز إلى البرتغاليين في ملقا، فتحالف الجاويون المسلمون مع سلطان ملقا محمود شاه المخلوع على تخريب خطوط تجارة البرتغاليين. ولكن تلك الجهود تعرضت، بدورها، لمؤامرة من جانب أمير "كديري " الذي كان يترقب الفرصة للقضاء على الممالك الإسلامية في جاوا، إذ أرسل هذا الأمير مبعوثا سريا لطلب مساعدة البرتغاليين له ضد الممالك الإسلامية الثلاث الرئيسية في جاوا، خاصة مملكة "ديماك"[١٢٨] التي يملك سلطانها نفوذا عظيما على خطوط التجارة بين غرسيك وجزر الملوك ويحتكر تصدير مادة الرز إلى ملقا، كما كان له نفوذ في فاليمبانغ وسومطرة.

ولما علم عبد الفتاح بأمر الاتصالات السرية بين أمير كديري والبوكيرك، استأذن أستاذه علي رحمة الله بالهجوم على ماجافاهيت، فأذن له فهاجمها وقضى على آخر معقل هندوكي في جاوا الشرقية، وفرّتْ فلولُ ما تبقى من الهنادكية إلى مناطق أخرى ومنها بالي[١٢٩]. وبعد هذا الانتصار اختير عبد الفتاح ليكون سلطانا على ديماك الإسلامية وعلى جاوا الشرقية. ولم يبق في جاوا معقل وثني أو هندوكي آخر إلا في مملكة "فاجاجاران *Pajajaran*" في جاوا الغربية. ولم يقيض القدر لعبد الفتاح أو "رادين فتاح *Raden Fatah* "، كما يناديه قومه، أن يرى جاوا وقد أصبحت كلها في حيز الإسلام، إذ مات وتولى الحكم بعده ابنه " فاتي يونس *Pati Unus* " المعروف بلقب أمير العدوة الشمالية لأنه كان قبل توليه الملك قد أبلى بلاء حسنا في مقاتلة البرتغاليين عبر البحر إلى جانب السلطان. وكان أول قرار اتخذه السلطان الجديد هو إرسال أسطول حربي مؤلف من مائة سفينة على متنها حوالي عشرون ألف مقاتل إلى جوهور لمساندة سلطان ملقا المخلوع محمود شاه ضد البرتغاليين الذي احتلوا عاصمته . واصطدم هذا الأسطول مع القبطان البرتغالي " بيريز داندرادا " الذي كانت سفنه أكبر حجماً وأضخم

تجهيزاً من سفن المسلمين . وانجلت المعركة عن انتصار البرتغاليين وتراجع السلطان محمود شاه إلى أقصى الجنوب من بلاده حيث أقام عاصمته الجديدة في توماسيك(١٣٠)، وقد أدت تلك المعركة إلى تحالف البرتغاليين مع ملك " فاجاجاران " الهندوكي في جاوا الغربية، وقبل أن يتصدى " فاتي يونس " لهذا الخطر الهندوكي الجديد توفي وخلفه في الحكم أخوه الأصغر " رادين ترينغونو *Raden Trenggano* "(١٣١). وفي عام ٩٩٢ هجري أوفد حاكم ملقا البرتغالي البوكيرك مبعوثا سريا يدعى " هنريك ليمي "ببعض الهدايا إلى ملك السوندا(١٣٢) في فاجاجاران بقصد عقد معاهدة تجارية – سياسية بين الطرفين. فوافق الملك على مطالب البوكيرك ومن بينها السماح للبرتغال ببناء قلعة في السوندا، لا بل إنه عين قطعة الأرض التي ستبنى القلعة فوقها وأقام نصبا تذكاريا للمعاهدة بوجود المبعوث ليمي، وأقام الملك لهذا الغرض حفلا عظيما في عاصمة ملكه " سوندا كلافا *Sunda Kelapa* "(١٣٣).

في تلك الفترة الحرجة من انهيار ممالك ونشوء سلطنات في أرخبيل الملايو، ازدادت جذوة الدعوة إلى الإسلام وتعاظم شأن الدعاة المنحدرين من الأصول الطالبية الشريفة، وبرز منهم جيل جديد حمل الشعلة إلى مناطق أخرى من الجزر الملايوية بعد أن توفي محمد عين اليقين { سونن قيري } بعد خمس سنوات من زوال مملكة ماجافاهيت، كما توفي إبراهيم { سونن بونانغ *Bonang*} بن علي رحمة الله { سونن أمفيل} بعد وفاة ابن عمه محمد عين اليقين بثلاث سنوات ، ودفن " سونن بونانغ " في توبان *Tuban*. وتوفي أيضا هاشم شقيق إبراهيم الذي اعتاد الناس على مناداته بلقب "سونن دراجات *Sunan Derajat*"(١٣٤) ودفن قرب مدينة " سدايو *Sedayu*". ولم يبق على قيد الحياة من أولاد علي رحمة الله سوى جعفر الصادق الملقب بـــ " سونن قدس *Sunan Kudus*" نسبة إلى المدينة التي أسسها في وسط جاوا وأسماها " قدس " وأنشأ فيها مسجدا ضخما أسماه "المسجد الأقصى " تبركا بالمسجد الأقصى في فلسطين(١٣٥).

وكان من بين الذين حملوا راية الدعوة علي رحمة الله و" هداية الله " بن عمدة الدين عبد الله بن علي نور العالم بن الشريف جمال الدين الحسين القادم من جمقا. أي أن هداية الله هو ابن ابن أخي إبراهيم أسمارا. وقد عاش هذا الداعية أولا في مملكة باساي الإسلامية شمال سومطرة، ثم أقام بعد ذلك في مكة المكرمة لطلب العلم، وعاد بعدها إلى ديماك حيث تقرّب من السلطان "ترينغونو" وصار من خاصة جلسائه، فصار يستشيره في أدق الأمور الدينية والسياسية. ولشدة محبة السلطان للشريف هداية الله فقد زوجه ابنة السلطان المتوفى عبد الفتاح سلطان ديماك المسلم الأول، وكان لهداية الله زوجة أخرى هي علوية بنت علي رحمة الله {سونن أمفيل} له منها ولد هو حسن الدين. وكان من عادة هداية الله أن يختلى كثيرا في منطقة تدعى " قونونغ جاتي

[*Gunung Jati*]" قرب " تشيربون [*Cirebon*]" ، ومعناها جبل خشب الساج. فصار الناس يدعونه "سونن قونونغ جاتي [*Sunan Gunung Jati*] لشدة تقواه وورعه(١٣٦). ووضع هداية الله بالتعاون مع السلطان " ترينغونو القوانين والأنظمة في سلطنة ديماك على أساس الشريعة الإسلامية .

وقد وجدت السلطنة نفسها فجأة أمام عدوين خطرين: عدو داخلي يتمثل في مقاومة بعض الهندوس الذين أسلموا كرهاً وعادوا يبثون عادات وثنية بين المسلمين، وعدو خارجي يتمثل بالبرتغاليين(١٣٧).

وكان هؤلاء البرتغاليون يكنون في قلوبهم الكراهية والبغضاء للإسلام بسبب الحروب الطاحنة التي اصطدموا فيها مع المسلمين في الأندلس طوال عشرات السنين(١٣٨). ولذلك فقد عمد البرتغاليون إلى التحالف مع الوثنيين في فاجاجاران لمحاربة المسلمين في جاوا. وتم فعلاً التوقيع على معاهدة تجارية بين " البوكيرك " و"برابو سيليواغي *Prabu Siliwangi*" في عام ٩٢٢ هجري تنص على أن يهب البرتغاليون لمساعدة حليفهم " فرابو سيليواغي " ضد السلطان " ترينغونو " وقائده الشريف هداية الله {سونن قونغ جاتي}(١٣٩). فلما علم هذا الأخير بأمر المعاهدة استأذن السلطان "ترينغونو " بمهاجمة(١٤٠) فاجاجاران التي كان لها ميناء رئيسي يقع في "بانتن *Banten*" وعاصمتها "سونداكلافا *Sunda Kelapa*" كما أوضحنا سابقا. ولما وصلت الجيوش الإسلامية بقيادة " سونن قونوغ جاتي " إلى " بانتن " حررتها واعتنق رؤساء ووجهاء المدينة الإسلام وانضموا إلى الجيوش الفاتحة. وعلم " سونن قونوغ جاتي " أن البرتغاليين سيمدون حليفهم ملك فاجاجاران بالعدة والسلاح، ولذلك نصب مدافعه على التلال المطلة على الساحل وفي القلاع العسكرية التي بنتها قوته بسرعة. فلما جاء البرتغاليون بمراكبهم نزل فريق من جنودهم إلى البر فتصدى لهم جنود المسلمين في حين أخذت المدافع تصلي مراكب البرتغال ناراً حامية من فوق الجبال فتمزق الأسطول البرتغالي وتم النصر للمسلمين. ثم زحف "سونن قونوغ جاتي " إلى "سندا كلافا *Sunda Kelapa*" فحررها في عام ٩٢٥ هجري وأطلق عليها اسم " جاياكرتا *Jayakarta*". ومعنى "جايا" هو "الفتح "، ومعنى " كرتا " هو "المبين "(١٤١) فيصبح اسم المدينة باللغة العربية "الفتح المبين". فعم الإسلام جاوا الغربية بكاملها تحت سلطة السلطان " فغيران ترينغونو " في ديماك، وذلك لأول مرة في تاريخ الجزيرة. وهرب ملك فاجاجاران " فرابو سيلي واغي " وقائد جنوده وابنه في الوقت نفسه، " فرابو سيدا" إلى منطقة جبلية تعرف باسم "بدوي" قرب مدينة " فاكوان *Pakuan*"(١٤٢).

بلغ السلطان " ترينغونو" خبر الانتصار الباهر الذي حققته جيوشه بقيادة الشريف هداية الله فسر به سروراً كبيراً. وكان السلطان ذا خبرة واسعة ومهارة تامة

في إدارة شؤون السلطنة. فلما حصل الانتصار وانضمت مملكة فاجاجاران إلى ملكه، أراد أن يكافئ الشريف فعين ابنه مولانا حسن الدين بن هداية الله أميرا على " بانتن" في عام ٩٢٧ هجري وزوجه ابنته[١٤٣] كما زوج السلطان بصري بن الشريف هداية الله ابنته الأخرى.

تخلص السلطان " ترينغونو " من العدو الخارجي المتحالف مع ملك فاجاجاران، فالتف بعد ذلك إلى العدو الداخلي المتمثل بتعاليم كان شيخ مسلم من أصل هندوسي قد دأب على نشرها في ديماك منذ أيام السلطان عبد الفتاح. وهذا الشيخ يدعى " سيتي جينار[*Siti Jenar*][١٤٤] ويدعو إلى نزعة توفيقية بين عقائد الإسلام والفلسفات الهندوكية. وكان يساعده في بث دعوته تلك تلميذ فريد له يدعى "كي كوبو كنوغو *Ki Kebo* *Kenongo*] ". ولاقت دعوة هذا الشيخ بعضا من النجاح بلغ مسامع الشريف هداية الله والعلماء المسلمين، فاشتكوا إلى السلطان "ترينغونو " الذي استدعى الشيخ وتلميذه فوراً وأمرهما بمناقشة العلماء أمامه في شؤون الدين. وتمت المناقشة فأقام عليه العلماء الحجة وأفتوا بقتله بتهمة البدعة وبث الفتن. فأمر السلطان بإعدامه فوراً. وبعد ذلك خفتت حدة الدعوات الانشقاقية والتوفيقية وتوحدت الجزيرة بكاملها تحت سيطرة السلطان " ترينغونو" بعد ضم مدن " تشيربون *Circbon* " و" سومداغ *Sumedang* " و"كالوه *Galuh*". ولم يبق في كل الجزيرة بقعة لا تدين بالإسلام إلا مدينة " فاكوان [Pakuan]" عاصمة ملك فاجاجاران الهارب[١٤٥]. وقد قاتل إلى جانب الشريف هداية الله إخوته عبد الجليل الملقب " رادين أسمورو *Raden Asmoro* و باب الله الملقب "سونن ترناتيه "، وكذلك أولاد أخيه عبد الجليل وهم: شمس الدين وفتح العارفين والشريف جديد وبصري نجم الدين ودماري عيسى قطب الدين وتوفيق الدين وبدر الدين وسمير الدين ونصر الدين يونس[١٤٦].

وبعد هذا الانتصار أقنع شريف هداية الله السلطان ترينغونو بمساعدة الأمير "سامودرا *Samudra*" في " بنجرماسين *Banjarmasin*" جنوب كاليمنتان في جهاده ضد مملكة " داها *Daha* " الوثنية. فوافق السلطان على إرسال حملة بحرية كبيرة لهذا الغرض على أمل أن تلقى تلك المساعدة تقدير الأمير سامودرا ويدخل الإسلام إلى قلبه. وبالفعل انتصر الأمير في عام ٩٣٦ هجري على خصومه بفضل مساعدة سلطان ديماك ونصيحة شريف هداية الله. فاعتنق الإسلام وصار أول سلطان لسلطنة "بنجرماسين " في كاليمنتان واختار لقب "سوريانا الله"[١٤٧].

ونشط الشريف هداية الله في الدعوة للإسلام في قرى جاوا الغربية المحيطة بفاكوان حيث امتحنه كبار الكهنة الهندوسيين في شفاء فتاة صغيرة مصابة بالجذام، فانقطع إلى مجالستها طوال أيام وهو يقرأ القرآن الكريم ويعطيها بعض

الأدوية حتى شفيت تماما من بلائها فكان ذلك مدعاة إلى أن يعلن أهل القرية بكاملهم إسلامهم فوراً[١٤٨].

وبعد تولى الشريف حسن الدين الحكم في بانتن، عاد والده الشريف هداية الله إلى ديماك لأن السلطان " ترينغونو" كان بحاجة إليه مستشاراً وقائداً عسكرياً بسبب تمرد امرأة ارتدت عن الإسلام إلى الهندوسية وتدعى "سوفيت أورانغ [Supit Urang]" وانضم كل أعداء الإسلام إلى صفوفها في منطقة " فاسوروان [Pasuruan]". وأخذت تلك الزعيمة مدينة قرسي، وأحرقت قيري. لذلك حاصرها المسلمون مدة طويلة، ثم استولى عليها هداية الله بحيلة، وذلك أن المسلمين أطلقوا إلى المدينة أسرابا من الحمام علقوا بأذنابها فتائل مشتعلة نارا فوقعت على أكواخ العش فاحترقت وسرت النيران إلى غيرها وارتفع اللهب فاضطرب السكان فدخل المسلمون المدينة .

وفي عام ٩٤٦ هجري نفسه توجه هداية الله على رأس قوة لحرب "فاسوروان " والتحمت معارك عنيفة سقط فيها كثير من الجانبين وجرح هداية الله. وفي يوم وقع نفر من الوثنيين أسرى في قبضة المسلمين، واجتمع المسلمون للاستماع إلى بيانات الأسرى في " فاناروكان [Panarukan]" فإذا يد غلام في العاشرة تمتد بطعنة أصابت صدر السلطان، وحملت جثته إلى ديماك، ورفع الحصار[١٤٩].

ثم بدأت حوادث التمرد يتسع مداها مع ظهور حنين إلى الديانة القديمة في نفوس الذين لم تنشرح صدورهم للإسلام، فتكررت حوادث القتل وسادت الفوضى وتمكن صاحب مدينة " فاجانغ [Pajang]" "أدي ويجويو" [Adi Wijoyo] من أن يقيم سلطنة خاصة به في جاوا الوسطى[١٥٠]. وفي ظل تلك الفوضى ترك الشريف هداية الله ميدان السياسة في عام ٩٥٢ هجري وانقطع للعلم والعبادة في مدينة "تشيربون" في وسط جاوا بعد أن فوّض إلى ابنه الأول "فغيران[Pangeran] حسن الدين "إمارة سلطنة " بانتن "، وابنه الثاني " فغيران فاسروان [Pasuruan]" إمارة سلطنة " تشيربون". وسرعان ما قام الابنان بإعلان استقلالهما عن ديماك لكي لا تسري الفوضى إلى مناطقهما فتنتشر بذلك عدوى التفكك والمنازعات. وكانت المخاوف في مكانها، إذ انبرى "هادي فيجايا [Hadi Wijaya]" إلى إعلان انفصاله عن سلطنة ديماك وتأسيس سلطنة " فاجانغ [Pajang] " في جاوا الوسطى في عام ٩٦٧ هجري[١٥١] التي استطاعت إخضاع سلطنة ديماك لها. ثم حاول "هادي فيجايا" أن يخضع بانتن التي لم تعترف بسلطنته، ففشل في محاولته وانكفأ على نفسه، فغدت سلطنة بانتن السلطنة الأقوى. ومنذ ذلك الوقت تلقب حسن الدين بلقب سلطان بانتن الأول، واستطاع أن يستولي على منطقة "لامبونغ *Lampung*" بسبب غناها بالفلفل، ولكي يعزز قبضته على المنطقة فقد تزوج ابنة أميرها " إندارابورا *Indrapura*" الذي منح السلطان أيضا مقاطعة "سلبيار" وهي أغنى مقاطعات المنطقة بالفلفل[١٥٢]. ودانت جاوا الغربية كلها للسلطان حسن الدين، وتقدمت بانتن في

ازدهارها حتى فاقت في أهميتها التجارية ملقا بعد رحيل التجار المسلمين عنها وتحولهم إلى بانتن بسبب احتلال البرتغاليين لملقا وفرضهم ضرائب باهظة على التجارة .

وصار التجار يتوافدون إلى بانتن من كوجرات وإيران والصين وبلاد الأتراك وسيام. وكان التجار الصينيون يأتون بسكوكات نقدية تسمي "كيفيغ *Keping*" مصنوعة من الرصاص الأسود ويأتون بالأواني الصينية الخزفية والحرير والمخمل والخيوط الذهبية والأقمشة المطرزة بالخيوط الذهبية والإبر والأمشاط والمظلات والأحذية والمراوح والقرطاس وغير ذلك، ويشترون الفلفل والتبل والجندانا والقرنفل والجوز والفنيو والقاديغ.

أما الإيرانيون فيأتون بالمجوهرات والأدوية، والقرواتيون يبيعون الأقمشة والقطن والحرير وباتيك بلاد المعبر والبز الأبيض الذي نساءُ بانتن باتيك يجعلنه أويطرزنه، ويشترون التوابل. والبضائع التي من الخارج تأتي بها سفن الجاويين وغيرهم إلى بانتن فتحمل تلك السفن الملح من جاوالشرقية والسكر من جيفارة *Jepara* وجاكرتا والأرز من مكاسر وسمباوه *Sumbawa*، والسمك الناشف من كراوانغ *Kerawang* وبنجرماسين، والعسل من جاكرتا وكروانغ وتيمور وبنجرماسين وفاليمبانغ، وزيت النارجيل من بلمبانان*Blambangan*، الأبازير من جزيرة الملوك، والفلفل من لأمبونغ ومليبار، والجندانا من جزائر السندا الصغرى [*Sunda Kecil*]، والقاديغ من سومطرة، والمنسوجات من بالي وسمباوا، والرصاص الأبيض والأسود من فيراك [*Perak*] وقدح[*Kedah*] ورأس سيلونغ[*Tanjung Selong*] في ملقا، والحديد من كاريماتا [*Karimata*]، والدامر {المستكاة} من باندا وبنجرماسين. والبرتغاليون يأتون فيما يأتون به بالأقمشة من أوروبا والهند(١٥٣).

وكان السلطان حسن الدين مزواجاً كأهله وأجداده. فقد تزوج ابنة السلطان "ترينغونو" التي أنجبت له ابنه " آريا[*Arya*] " الذي أرسلته أمه إلى أختها "راتوا كالينيامات [*Ratu Kalinyamat*]" في " جيفارة " لتربيته، ثم تزوج حميدة بنت إسحاق بن إبراهيم {شقيقة سونن قيري} التي أنجبت له ابنه يوسف، وأخيرا تزوج ابنة ملك "إندرافورا " في سومطرة الغربية التي أنجبت له عدة أولاد. واستطاع السلطان حسن الدين بفضل رشده وحسه السياسي المحنك أن يستقطب التجار المسلمين من كل جدب وصوب حتى ازدهرت بانتن وشمل نفوذها لامفونغ وبنكولو [*Bengkulu*] وفاليمبانغ. واستولت بانتـن على جانبي مضيق سوندا، أي ضفتي جزيرتي جاوا وسومطرة، كما صارت بانتن مركزا لالتقاء التجار ممن لا يرغبون بالتعامل مع البرتغاليين في ملقا(١٥٤). فكانت الزوارق والسفن الكبيرة تأتيها من الصين(١٥٥) والعراق وإيران ومن كوجرات(١٥٦). وأمر السلطان حسن الدين ببناء الحصون والقلاع تأهباً لأي صدام مع

البرتغاليين، كما وجّه عناية إلى العلم ببناء المدارس لتعليم الكتابة والحساب واللغة العربية والدين الإسلامي مجانا(١٥٧).

لم يهدأ بال السلطان محمود، فقام بهجمات متكررة على البرتغاليين بالتحالف مع سلطانتي ديماك وبانتن، ولكن الحظ لم يحالفه فلاذ في عاصمته جوهور التي كانت جزءاً من سلطنة ملقا في عهده. وظهرت على الساحة سلطنة أتشيه التي استولت على جميع مناطق سومطرة الشمالية والشرقية محاولة توحيد سومطرة تحت سيطرتها، كما فعلت سلطنة ديماك. ولكن قسما من تلك المناطق كان عمليا تابعا للسلطان محمود شاه المخلوع، فاصطدمت السلطنتان المسلمتان في معارك جانبية طاحنة كان البرتغاليون أكبر المستفيدين منها، مع العلم بأن سلطان أتشيه علي معايت شاه[*Ali Muayat Syah*] بمساعدة أخيه إبراهيم الذي استولى على مدن " فيدي[*Pidie*] " و" باساي " و" أروا " هاجم البرتغاليين في ملقا أربع عشرة مرة(١٥٨) وطردهم كذلك من فاساي من دون مساعدة الخلافة العثمانية(١٥٩).

وهكذا صارت أتشيه تحارب على جبهتين: جوهور المسلمة وملقا المحتلة من قبل البرتغاليين الذين هم أساساً أعداء جوهور نفسها. ولم يطل هذا الوضع كثيرا إذ استولت أتشيه بقيادة السلطان علاء الدين رعاية شاه القهار، الذي خلف أباه ، على جوهور وأسرت السلطان محموداً ثم أعادته إلى حكم بلاده في عاصمة جديدة هي "باتو ساوار [*Batu Sawar*]" فتوقفت المعارك بين السلطنتين المسلمتين. ثم قتل السلطان محمود شاه في ظروف غامضة فانتهت بمقتله أسرة سلاطين ملقا المسلمين، وتولى الحكم بعده وزيره عبد الجليل الذي حمل لقب سلطان أيضا(١٦٠). عندما تربع السلطان علاء الدين رعايت شاه القهار على عرش أتشيه أحس بأنه بأمسّ الحاجة إلى وجود حليف قوي يعاضده في وجه البرتغال. فأرسل سفارة خاصة إلى الباب العالي العثماني مؤلفة من عدة سفن في عام ٩٨٢. ومن هذه السفن سفينة محملة بالهدايا النفيسة للسلطان العثماني.

ولكن البرتغاليين اعترضوا السفن في البحر الأحمر ونهبوها بعد معركة دموية بين الطرفين(١٦١). وقد نجا بعض المبعوثين الآتشيين الذين رووا للسلطان العثماني في إسطنبول ما حدث لهم فأمر هذا السلطان بإرسال ٣٠٠ جندي بقيادة ابن أخي الباشا العثماني في مصر إلى أتشيه ومعهم سفن مليئة بالأسلحة، كما وقّع السلطان اتفاقية عسكرية وتجارية مع سلطان أتشيه تحصل اسطنبول بموجبها على امتيازات تجارية خاصة في باساي(١٦٢). ولما وصلت السفن العثمانية إلى أتشيه، استخدم سلطانها المعونة العثمانية لفتح سلطنة "أرو" وضمها إلى سلطته، فاستنجد سلطان أرو بالبرتغاليين الذين أسرعوا بإرسال سفن عسكرية إلى مرسى نهر أرو، فاستنجد السلطان علاء الدين القهار مجددا بالسلطان العثماني الذي وجّه قائد البحرية العثمانية

في البحر الأحمر الأدميرال كورتوغلو هيزير ريس بالإبحار فوراً إلى أتشيه ومعه عدد كبير من سلاح المدفعية والجنود والأسلحة(١٦٣). ولما وصل الأسطول العثماني إلى أتشيه كان السلطان علاء الدين قد توفي فقام خلفه بتجديد الاتفاقية العسكرية والسياسية مع السلطان العثماني(١٦٤) الذي سمح للأسطول الآتشي بأن يرفع الأعلام العثمانية ردعا للبرتغاليين.

منذ وصول البرتغاليين إلى ملقا حدثت أمور وتطورات كبيرة في العالم . فقد برز رجل دين مسيحي كاثوليكي في عام ٩١٧ هجري يدعى " مارتين لوثر" أثار الفاتيكان عليه ولكنه حظي بموازرة العديد من المسيحيين ودعمهم. فأعلن استقلاله عن الكنيسة الكاثوليكية وتأسيسه الكنيسة البروتستانتية. وقد جرى ذلك في ظل ذروة نفوذ الإمبراطور الإسباني " شارل الخامس " بعد احتلال أساطيله المكسيك وأجزاء واسعة من القارة الأمريكية في عام ٩١٩ هجري. كما أن السلطان العثماني سليمان القانوني كان قد زحف على بلاد الشام ومصر فاحتلهما في عام ٩١٧ هجري ثم احتل العراق والحجاز وأعلن نفسه خادما للحرمين الشريفين وسلطانا لكل المسلمين، وأمر ببناء أسطول بحري كبير ينافس الأساطيل الإسبانية والبرتغالية(١٦٥).

لكن الإمبراطور الإسباني كان سباقا في التوغل في البحار إذ أرسل بعثة بحرية بقيادة ملاح إسباني يدعى " ماجيلان " بهدف الوصول إلى جزر الهند الشرقية عبر جزر الهند الغربية أي أمريكا. وفي عام ٩٢١ هجري دارت سفينة ماجيلان {فيكتوريا} حول الكرة الأرضية ووصلت إلى بروناي قادمة من البحر الزفتي الكبير، فحقق الملاح رغبة ملكه، ولكنه عندما غادر بروناي و سار في ميندناو واشتبك مع المسلمين فيها قتلوه ودفن فيها(١٦٦). ولكن وصول السفينة الإسبانية إلى بروناي قادمة من الاتجاه المعاكس للطريق الذي جاءت منه السفن البرتغالية، جعل البرتغاليين يجفلون ويرتعدون رعباً وغضباً إزاء إمكانية حلول الإسبانيين مكانهم في جزر الملايو، فلجؤوا، تاليا، إلى تعزيز وجودهم في جزر التوابل وقرروا بناء قلعة كبيرة ومركزة حامية قوية فيها، ولكنهم احتاروا في اختيار البقعة التي ستبنى فوقها القلعة لأن كلاً من أميري "ترنايت [*Ternate*]" و"تيدور [*Tidore*]" طلب من البرتغاليين أن يبنوا القلعة في جزيرته طمعا في الحصول على الثروة بتحول جزيرته إلى مركز تجارة البرتغاليين الرئيسي في المنطقة(١٦٧). وقرر البرتغاليون في نهاية المطاف إقامة تحالف مع أمير ترنايت وبناء القلعة في جزيرته، وهو قرار ألّب ضدهم أمراء الجزائر الأخرى(١٦٨) مع العلم أن أميري ترنايت وتيدور كانا كلاهما مسلمين، لا بل إن أمير ترنايت كان أشد تعصبا للإسلام(١٦٩) ورافضا لأي تبشير مسيحي في قرى جزيرته، في حين أن أمير تيدور كان لايمانع في القيام بذلك.

والمهم أن الاتفاق الموقع بين أميرترنايت والبرتغاليين ضمن لهؤلاء الأخيرين احتكار تجارة القرنفل معتقدين، خطأ، أنهم قادرون على منع زراعة شجر القرنفل خارج ترنايت. ولكن الذي حصل كان عكس ذلك تماما إذ بدأت أشجار القرنفل تزرع وتثمر وتنتج في الجزائر الأخرى وخاصة جزيرة "باندا[Banda]" التي رفض أميرها عقد تحالف مع البرتغاليين(١٧٠) وجزيرة أمبون.

وبغضّ النظر عن فشل البرتغاليين في احتكار تجارة القرنفل وجوزة الطيب، فقد استطاعوا أن يقيموا خطاً بحرياً تجارياً آمناً بين جزائر الملوك ومركزهم في ملقا وقاعدتهم في "غوا[Gowa]" (١٧١) دون اتباع خط السير الاعتيادي الذي يمر عبر سواحل بورنيو إلى بحر جاوا ثم جنوب سولاويسي إلى غرسيك، لأن كل تلك المنطقة أضحت مسلمة وتقع تحت نفوذ السلاطين المسلمين أعداء البرتغاليين الرئيسيين، وذلك منذ عام ٩٧٥ هجري عندما جاء داعيتان مسلمان يُدعيان " توان ري باندانغ " و"تونفانغ بارانفان " من جنوب سولايسي إلى مملكة " كوتيه [Kutai]" في شرق " بورنيو" حيث قابلا ملكها "أجي ديلانغار " الذي كان يدين بالهندوسية، في حين أن بقية قبائل بورنيو كانت وثنية بدائية(١٧٢). واستقبل الملك الداعيتين في قصره داعياً إياهما إلى مناظرته في أمور الدين، فإنْ هما فازا سمح لهما بالدعوة إلى الإسلام في مملكته، وان خسرا المناظرة توجّب عليهما المغادرة وعدم العودة. وجرت المناظرة ففاز بها الداعيتان المسلمان باعتراف الملك نفسه الذي احترم وعده وسمح لهما بنشر تعاليم الدين الإسلامي بين رعية المملكة. وهكذا أقبل الناس بأعداد غفيرة على الدخول في الإسلام حتى تحولت مملكة "كوتيه" إلى مملكة إسلامية بعد وفاة ملكها "ديلانغار" (١٧٣). وأما في جنوب سولاويسي نفسها، فقد كان فيها خمسون ملكا وثنيا ممن يعبدون الأصنام والتماثيل والصور، حتى جاءهم تلاميذ " سونن قيري " وهم " داتو ري باندانغ " الآنف الذكر و"داتو ري تيرو " و" داتو سليمان" فهدوا الناس إلى الإسلام، ثم تلاهم الملوك وأهمهم ملكا "غوا [Gowa]" وفالو[Palu] " اللذان انتشر الإسلام بفضلهما إلى جزر بون [Bone]" وواجو[Wajo]" و"سوبينغ [Soppeng]" في جنوب سولاويسي(١٧٤). تحرك البرتغاليون مجددا للسيطرة على الطرق التجارية فاحتجوا ضد زيارة البحار الإسباني "ماجيلان " الى بروناي ومينداناو معتبرين أن تلك الزيارة تشكل خرقا لاتفاق " تور ديسيلاسي " الذي أشرف عليه البابا في عام ٨٩٤ هجري بين البرتغال وإسبانيا لتقسيم الأراضي المكتشفة بينهما. وأسفر الاحتجاج عن عقد اجتماع في عام ٩٢٤ هجري ضم خبراء من البلدين. لكن أولئك الخبراء، ومنهم جغرافيون مشهورون عجزوا عن الاتفاق على موقع جزر الملوك على الخريطة الجغرافية(١٧٥) فانفضّ الاجتماع دونما نتيجة. وما هي إلا أسابيع ويقلع أسطول إسباني جديد مؤلف من سبع سفن حربية عبر مضيق " ماجيلان"(١٧٦) متوجها إلى جزائر الملوك. ولم يصل من هذا الأسطول إلى

ميندناو إلا سفينة واحدة بعد غرق السفن الباقية الواحدة تلو الأخرى. و قد استطاع بحارة السفينة الناجية الاتصال بسلطان تيدور حيث أكرمهم السلطان وأحسن وفادتهم بغية استخدام الإسبان ضد البرتغاليين وضد خصمه سلطان ترنايت. ونجح في ذلك أيما نجاح إذ اندلعت الحرب بين الإسبان والبرتغاليين في جزائر الملوك فكانت إمدادات الإسبان تأتي من حاكم المكسيك "هيرناندو كوريكز"، وإمدادات البرتغاليين تأتي من ملقا و"غوا". وانتصر الإسبان في المعركة وجرى عقد اتفاقية جديدة بين البلدين في أوروبا لتقسيم المنطقة بينهما[١٧٧] على أساس ألاّ يتجاوز الإسبان في اكتشافاتهم البحرية الخط الذي يمر بالدرجة البحرية السابعة عشرة إلى الشرق من جزر الملوك. غير أن الإسبان لم يحترموا تعهدهم هذا فتابعوا احتلالهم للعديد من الجزائر احتلالا عسكريا مباشراً جاعلين تلك الأراضي تابعة لتاج الملك فيليب ملك إسبانيا، ومن بين هذه الأراضي الجديدة كانت الجزائر الواقعة شمال ميندناو حيث احتلوا مدينة "منة الله " وأطلقوا عليها اسم مدينة " مانيلا " [*Manila*] في عام ٩٧١ هجري[١٧٨] وقضوا على السلطنة الإسلامية بقيادة السلطان عبد القاهر[١٧٩].

اعتقد البرتغاليون أنّ نشر الكاثوليكية بين الملاويين الوثنيين والمسلمين أفضل وسيلة للخلاص من عزلتهم ولتعزيز نفوذهم، فعمدوا إلى إرسال المبشرين إلى معظم القبائل الوثنية في جاوا وسومطرة وبورنيو وسولاويسي وجزر الملوك، لكن هؤلاء المبشرين اكتشفوا أنهم وصلوا متأخرين، لأن الإسلام كان قد رسخ في مناطق تلك القبائل. ولم يحالف النجاح أولئك المبشرين إلا في جزيرة أمبون إلى الشمال الشرقي من بحر " هلماهيرا" [١٨٠]. ورغم مجيئ القديس " سان فرانسيس كزافييه " من البرتغال، فإن الأمور لم تتغير، بل ان هذا القديس رفع تقريرا إلى ملك البرتغال والفاتيكان يحتج فيه على التحالف القائم بين الضباط البرتغاليين وأمير ترنايت المسلم الذي يمنع التبشير الكاثوليكي في أرضه[١٨١]. وجاءت الأوامر من لشبونة بالعمل على إزالة سلطة سلطان ترنايت هارون بالقوة رغم سماحه للبرتغاليين ببناء قلعة أخرى في أمبون[١٨٢]. واحتال الحاكم البرتغالي على السلطان داعيا اياه إلى القلعة لتجديد التحالف بين الطرفين، فحضر السلطان هارون وأقسم على القرآن الكريم أن يحافظ على الصداقة مع البرتغاليين، وكذلك فعل الحاكم البرتغالي واضعا يده فوق الإنجيل المقدس. وبعد انتهاء مراسم القسم اعتقل الحاكم البرتغالي ضيفه وقيّد يديه ونزع عنه ملابسه وعصب عينيه ثم أرغم شيوخ ووجهاء الجزيرة بالقوة على حضور إعدام سلطانهم بحد السيف[١٨٣] وجرى ذلك في عام ٩٧٠ هجري، فهاجت ترنايت بالثورة ضد البرتغاليين بقيادة السلطان باب الله ابن السلطان هارون الذي أقسم أن ينتقم لأبيه بطرد البرتغاليين من الجزيرة[١٨٤].

وقد أثار نجاح البرتغاليين والإسبان في جزائر الملايو فضول وشهية دول أوروبية أخرى مثل فرنسا التي أرسلت في عام ٩٣٠ هجري تاجراً وبحاراً وأديبا وجغرافيا من مدينة " دييب " يدعى " جان برمنتيه " على متن سفينة انطلقت من ساحل نورماندي في شمال فرنسا ووصلت إلى مدغشقر بعد أربعة أشهر ثم إلى غرب سومطرة بعد ذلك بثلاثة أشهر(١٨٥). غير أن هذا التاجر المثقف لم تَرُقْ له الإقامة في تلك الجزائر الملايوية فعاد أدراجه إلى فرنسا ليرفع تقريرا إلى الملك الفرنسي قال فيه: إن التفكير باستعمار تلك المنطقة عملية خاسرة للتاج الفرنسي. وهكذا خرجت فرنسا من لعبة المصالح في الملايو لقرون(١٨٦).

في غضون ذلك استطاع السلطان باب الله أن يدمر قلعة البرتغاليين في ترنايت ويخرجهم نهائيا من جزيرته، فتحول بنصره هذا إلى رمز وطني وديني يدين له الجميع بالفضل، وصارت ترنايت في عهده مركزا رئيسيا للنضال ضد البرتغاليين وللتجارة(١٨٧)، غير أن تحدياً جديداً طرأ فجأة على ساحة الأحداث عندما ضم ملك إسبانيا البرتغال إلى مملكته في عام ٩٨٠ هجري، وهذا يعني أن قوى البرتغاليين والإسبان في جزائر الملايو ستتحد من الآن فصاعداً ضد المسلمين. وللخلاص من هذا الخطر الجديد اعتقد باب الله أن فتح الباب أمام أوروبيين آخرين قد يخفف من درجة هذا الخطر، فرحَّب ببعض الزوار الإنكليز الذين وفدوا إلى ترنايت مثل السير " فرانسيس دريك " و" توماس كافدينش " و "جيمس لانكاستر "، غير أن خطته باءت بالفشل بسبب أعمال القرصنة التي قام بها أولئك الزوار في مضيق ملقا(١٨٨).

وعلى كل حال، فإن السيطرة الإسلامية على جزائر أرخبيل نوسانتارا (١٨٩) والملايو قد أصبحت شبه مطلقة بعد تأسيس أول دولة إسلامية في البوقيس [*Bugis*]، جنوب سولاويسي، وهي دولة "لوو وو" في عام ٩٧٠ هجري، ثم تلاها تحول ملوك " غوا" و" تاللو " في مكاسر إلى الإسلام بعد ذلك بأعوام(١٩٠) على يد الملك " كارينغ ماتوبوتا " ملك " تاللو " و حاكم " غوا " الملايوي(١٩١).

وقبل ذلك بأعوام توفي السلطان حسن الدين في عام ٩٦٠ هجري ودفن في "ساباكنغ كنغ ". ونظرا لاحترام رعيته له وإخلاصه للدين صار الناس ينادونه بعد وفاته بـــ "سونن ساباكنغ كنغ[*Sunan Saba Kingking*] ". وقد توفي السلطان حسن الدين في العام نفسه الذي توفي فيه أبوه الشريف هداية الله [سونن قونونغ جاتي – *Sunan Gunung Jati*](١٩٢).

ورغم وفاة السلطان بانتن القوي حسن الدين ابن الشريف هداية الله في عام ٩٦٠ هجري، فان مكانة السلطنة بقيت على ماهي عليه بفضل ابنه السلطان يوسف بن حسن الدين(١٩٣) الذي بلغت السلطنة في عهده قمة العمران والمجد والقوة. وكان أول عمل قام به السلطان الجديد هو تدمير ما تبقى من رموز مملكة "فاجاجاران"

في مدينة " فاكوان ". فحقق بذلك حلم جده هداية الله بتحويل جاوا كاملة إلى أرض إسلامية[١٩٤] وذلك بالقضاء على آخر معقل للديانة الهندوسية فيها[١٩٥].

وكان يساعد السلطان يوسف في إدارة شؤون السلطنة مجلس سلطاني، غير أن صاحب النفوذ الأكبرفي السلطنة كان بدون أدنى شك الوزير الأكبر "جايا نقارا [Jaya Negara] " من " منكوبومي[Mangkubumi] "[١٩٦].

وعادت التجارة تروج مجددا في المنطقة عندما رفع الإمبراطور الصيني "مينغ" الحظر عن التجارة مع الخارج في عام ٩٧٦ هجري، فأعطى ذلك دفعاً قويا للتجار المسلمين والصينيين على حساب الإسبان والبرتغاليين[١٩٧].

بعد انهيار البرتغاليين في ترنايت تحت وطأة ثورة سكانها بقيادة السلطان باب الله، تحركت آتشيه ضد البرتغاليين في ملقا واتصل سلطانها علاء الدين رعاية شاه القهار، كما أوضحنا، بالسلطان العثماني في عام ٩٧١ هجري طالباً مساعدة عسكرية فأرسل له السلطان فورا أسلحة من جميع الأنواع مصحوبة بخبراء في صنع البنادق والمدافع[١٩٨]. ولما وصلت المساعدة العثمانية في عام ٩٧٣ هجري كان السلطان علاء الدين قد توفي وخلفه ابنه السلطان حسين رعاة شاه الذي لم تطل فترة حكمه إذ توفي في عام ٩٧٩ هجري وتولى الحكم بعده ابنه الطفل الذي لقب بالسلطان الشاب. وبطبيعة الحال لم يرضَ كبار الأمراء والقواد بهذا السلطان بسبب عجزه عن الوقوف في وجه البرتغاليين في ملقا، فتآمروا على قتله وولوا بعده شقيق السلطان حسين وهو السطان سري عالم الملقب بـ "راج فريامن [Raja Pariaman]" [١٩٩].

وقبل أن يستعد هذا السلطان لمهاجمة البرتغاليين قتل غيلة في قصره فآل الحكم لابنه السلطان زين الدين الملقب ب " جينال " الذي حاول مد سلطنته إلى "فيرلاق" المسلمة فهاجمها وأسر سلطانها أحمد وجاء به إلى آتشيه حيث أقام في قصر السلطان زين الدين وتزوج ابنته. وكان السلطان أحمد متمسكا بأمور الدين وعالما بشؤون السياسة. ونظرا لفظاظة السلطان زين الدين وسوء معاملته لقواده ومستشاريه، فقد تآمروا على قتله وولوا مكانه السلطان أحمد – الذي هو أساسا أسير حرب وسلطان "فيرلاق " وزوج ابنة السلطان المقتول. وفي سنة ٩٩٠ هجرية أرسل السطان أحمد أساطيله لمحاربة ملقا فلم يفلح في احتلالها، وكرر الهجوم مرات عديدة إلى أن قتل في إحدى الحملات العسكرية، فخلفه "راج هاشم" ابن سلطان جوهور عبد الجليل شاه الذي تزوج بنت الملك المنصور. غير أن كبار السلطنة وأعيانها لم يوافقوا على توليته هذا الملك فخلعوه واختاروا مكانه ملكاً آخر من أمراء " إندرافورا [Indrapura]" هو " رياي ابن منور" سلطانا عليهم، لكن السلطان الجديد قتل في إحدى المعارك في عام ٩٩٧ هجري ودفن في مقبرة " فندي " فخلفه على عرش سلطنة اتشيه أمير من أمراء الجيش يدعى "لاكسامانا[Laksamana]" الذي اختار اسم السلطان علاء الدين رعاية شاه

سيد المكمل. وبينما كانت الأمور تتطور على هذا النحو في أتشيه وفيراق وملقا وجوهور وأرواء كانت " بانتن[Banten] " قوية يهابها القاصي والداني في ظل سلطانها يوسف بن حسن الدين. لكن السلطان مرض في عام ٩٨٠ هجري مرضاً شديداً وشعر أهل البلاط بدنو أجله. وكان هؤلاء يرغبون في أن يخلفه أخوه الأصغر " فغيران أريا فيجايا [Arya Wijaya]" الموجود في " جيفارة [Jepara]" لأنه إذا تولى الحكم ابن السلطان يوسف الأصغر محمد الذي لم يبلغ سن الرشد بعدُ، فإن الوصي عليه لامحالة سيكون الوزير الأعظم " جايا نقارا[Jaya Negara] " المكروه من الناس عامة. ولما توفي السلطان يوسف، سار " فغيران أريا فيجايا " إلى بانتن بإيعاز من خالته " راتو كالي نيامات[Ratu Kalinyamat] " مطالبا بعرش سلطنة بانتن، لكن الأهالي والوزير الأعظم ووالدة السلطان محمد " راي فداوا ناقيري " وقاضي القضاة عارضوا ذلك، فوقع القتال وطرد " أريا فيجايا " من بانتن، وولي محمد عليها باسم " كانجنغ راتو بانتن Kanjeng Ratu Banten " وصار الوصي على السلطان الوزير الأول " جايا نقارا " نفسه(٢٠٠). وفي عهد السلطان محمد تم إنشاء أسطول بحري قوي وقلاع ومستودعات للأسلحة وأخرى للبضائع(٢٠١).

ولما كبر السلطان محمد وصار شابا، جاء تجار بانتن يشتكون إليه من احتكار تجار فاليمبانغ من سومطرة الجنوبية لتجارة الفلفل، ومن تحالف سلطانها مع سلطان " ماتارام [Mataram] " ضد بانتن. وكان يحكم " ماتارام آنذاك "سينوباتي [Senopati]" المعادي لبانتن والمتربص بها الدوائر(٢٠٢) والذي وجد نفسه يحارب على عدة جهات لتثبيت سلطته. فهناك السلاطين الآخرون الذين كانوا قد تقاسموا معه إرث سلطنة ديماك. وهناك أيضا البرتغاليون الذين يهددون مرافئه باستمرار. واحتار " سينوباتي " في السياسة التي ينبغي اتباعها إلى أن وجد حلاً لتلك الحيرة عندما وصلت في عام ٩٩٦ هجري سفينة هولندية إلى "غرسيك " وعلى متنها سفراء و تجار مكلفون بالتفاوض مع السلطان .

استقبل " سينوباتي " السفراء الهولنديين قائلا لهم: "يمكن الاتجار بحرّية في بلادي دون دفع أي مكوس أورسوم، لأني لست تاجراً مثل سلاطين بانتن وسورابايا الذين يخشون منافستكم لهم"(٢٠٣). وقد سر الهولنديون بهذا الانفتاح لكنهم أدركوا أن تنازلات السلطان تلك إنما تعكس يأساً ووضعاً حرجا وضعفاً في توازنات القوى القائمة، فعمدوا إلى استثمار هذا الوضع بكل ما أوتوا من قوة مستعرضين غرورهم أمام السلطان. وكان البرتغاليون قد استقبلوا بترحاب قبل أشهر السفن الهولندية الأربع في غرب سومطرة. ثم توجهت تلك السفن إلى بانتن قبل توجهها إلى غرسيك. وفي مرفأ بانتن احتك بهم التجار البرتغاليون وشرحوا لهم غنى تلك الجزر والثروات الهائلة التي تجنى منها، لكن قائد الأسطول الهولندي كان متعالياً وفظاً في تعامله مع

البرتغاليين أيضا، فانفض التجار من حوله [illegible]

الأبد بنظر أمراء وسلاطين جاوا وسومطرة المسلمين، وتالياً إلى خروجهم نهائيا من دائرة الصراع على جزر الملايو لصالح الهولنديين الذين سرعان ما أرسلوا أسطولا مؤلفاً من اثنتين وعشرين سفينة في عام ٩٩٨ هجري، جاءت ثلاث عشرة سفينة منها عبر رأس الرجاء الصالح بالدوران حول أفريقيا، في حين توجهت السفن التسع الأخرى عبر مضيق ماجيللان ولكن لم يصل منها إلى جاوا سوى سفينة واحدة يقودها القبطان " أوليفر فون نورت *Olivier van Noort*]"(٢٠٨). وانتشرت تلك السفن في كل المرافئ في سومطرة وجزر الملوك وبروناي ومانيلا وسيام وكانتون، لا بل إنها وصلت إلى اليابان في عام ١٠٠٠ هجري(٢٠٩) في الوقت الذي كانت اليابان تتوحد فيه بقيادة " توكوغاوا شوغوناتا".

وكان سلوك الهولنديين مع سكان البلاد جيدا، فرحب بهم الأمراء والسلاطين وخاصة في جزر الملوك. ولم يشذّ عن الترحيب بالهولنديين سوى آتشيه و "مادورا *Madura*]" لأن سلطانيها كانا قد التقيا مسبقا بالقبطان "كورنيليس هوتمان " ونفرا منه. ثم عاد هوتمان نفسه مرة أخرى يقود سفينة من سفن الأسطول الهولندي إلى ميناء آتشيه حيث هاجمه السكان وقتلوه وأسروا شقيقه فريدريك(٢١٠). وفي مسار مقاومة المسلمين في كل مكان للبرتغاليين، انتقلت حماسة التصدي لهم مجددا إلى شواطئ أفريقيا الشرقية بعد أن قام البرتغاليون بمهاجمة " ممباسا " وقتلوا سلطانها حاتماً وأسروا ابنه الطفل يوسف الذي أرسلوه إلى مستعمرتهم في "غوا" حيث قاموا بتنصيره وتعليمه ولم يبلغ سوى السابعة من عمره، ثم أرسلوه إلى البحر ليتدرب على فنون القتال البحري. ومع مرور الأيام وما أن بلغ العشرين من عمره حتى قاموا بتتويجه ملكا على ممباسا وماليندي وبيمبا تحت اسم "دوم جيرو نيمو" ومنح رتبة فارس، وأرسل إلى ممباسا في عام ١٠٤٥ هجري مع راهب مستشار له وزوجة برتغالية اسمها " إيزابيلا ". هذا السلطان نفسه الذي ارتدى الزي البرتغالي وأجبر على اعتناق المسيحية وهو طفل، لم يمر على تنصيبه سوى ثلاث سنوات حتى اكتشف القائد البرتغالي العسكري المسؤول عن قلعة ممباسا، أنه يقوم سراً كل ليلة بزيارة قبر والده السلطان القتيل وأداء الصلاة الإسلامية هناك. وقرر القائد البرتغالي العسكري خلعه وإرساله إلى " غوا " متهماً إياه بالخيانة في عام ١٠٥٠ هجري، إلا أن إشارة إلى قراره هذا وصلت إلى السلطان يوسف، فاقتحم القلعة البرتغالية وقتل القائد البرتغالي وجنوده، وعاد إلى قصره فنزع ملابسه البرتغالية وارتدى ملابسه الوطنية، وأعلن نفسه باسمه الحقيقي السلطان يوسف بن حسن. وكان انتقامه من البرتغاليين المقيمين في ممباسا ردّ فعل عنيف على الفظائع البرتغالية في المحيط الهندي مدة قرن تقريباً. وصد هذا السلطان عدة حملات بحرية ضد القلعة التي تحصن فيها واستولى على

إحدى سفن الأسطول البرتغالي، وقام بتسليحها وشحنها بالمؤن وبدأ بشن حرب عصابات بحرية ضد الأساطيل البرتغالية إلى أن قتل في إحدى المعارك البحرية.

ونذكر أن السلطان محمداً كان قد استاء من ممارسات فاليمبانغ فأمر أسطوله البحري بالتوجه بحرا إلى فاليمبانغ في حين سار هو على رأس جيش بري من لامبونغ، غير أن رصاصة طائشة أصابته في رأسه فمات في عام ٩٩٦ هجري، الأمر الذي أدى إلى رفع الحصار على فاليمبانغ وعودة الجيش والأسطول إلى بانتن(٢١١). وكان للسلطان محمد ابنٌ عمرُه خمسة أشهر يسمى محمود عبد القادر أبا المفاخر، فتولى الحكم مكان أبيه في ظل وصاية الوزير الأعظم " جايا نقارا " تساعده في ذلك جدة الطفل " "باي فداوا ناقيري" ومربيته "بي أمبان رانكوع ". وفي ذلك الوقت كانت جاكرتا داخلة في حدود بانتن، ولكن لم تكن لها أهمية تجارية. ولكن بعد حادثة فاليمبانغ، أرسل الإنكليز مندوبا إلى سلطان ماتارام " سينوباتي " ليأذن لهم ببناء قلعة بجزيرة " بنكا [*Bangka*]" لأن الجزيرة تابعة لفاليمبانغ، وفاليمبانغ تابعة بدورها لماتارام(٢١٢). فأذن لهم سينوباتي بذلك قبل أن يتوفى في عام ١٠٠١ هجري، فخلفه ابنه " ماس جولنغ الثاني [*Mas Jolang II*]" ، ثم توفي الوزير " جايا نقارا " بعد ذلك بعام أي في عام ١٠٠٢ هجري، وولي مكانه أخوه الذي توفي في العام نفسه فخلفه وزير آخر من منكوبومي، وصارت الوصية على العرش هي الجدة " باي فداوا ناقيري " التي تزوجت الوزير الجديد. وازداد نفوذ هذا الوزير في البلاط حتى ثار خلاف بينه وبين جماعة من الأشراف { فغيران } أسفر عن مقتله، وولي مكانه الشريف " أريا رانا مفالا " في عام ١٠٠٨ هجري. وكان هذا الوزير أشد الناس حذرا من الأوروبيين، لذلك لم يسمح للهولنديين ببناء مخزن للبضائع في بانتن ورفض عقد معاهدة تجارية معهم(٢١٣). وقد أدى ذلك إلى انتقال الهولنديين بقيادة "بيتر بوت" إلى جاكرتا التي كان الوالي عليها هو "فغيران وجايا كراما"(٢١٤). واحتال الهولنديون على الوالي حتى أذن لهم بالإقامة وتعاطي أسباب التجارة في المدينة. وأسس الهولنديون " شركة الهند الشرقية " وجعلوا مقرها في جاكرتا، ثم طلب بيتر بوت " مدير الشركة من الوالي في عام ١٠١٠ هجري شراء قطعة أرض سعتها ٩٤ مترا فقط بثمن غال جدا هو ٢٧٠٠ روبية، فوافق الوالي بشرط أن يدفع الهولنديون شيئا معلوما على كل مايشترونه في جاكرتا، وألا يدخل البرتغال والإسبان إلى المدينة(٢١٥). ثم طلب بيتر بوت من "ويجايا كراما[*Wijaya Krama*] " أن يسمح له ببناء قلعة فرفض الوالي الطلب، غير أنه أجاز بناء مخزن للبضائع المعدة للتصدير شرقي نهر " جي ليونغ [*Ciliwung*]"(٢١٦).

لم يتسامح الوزير الأعظم في بانتن مع سلوك الوالي " ويجايا كراما " الذي أقدم على توقيع اتفاق مع الهولنديين بدون استشارة السلطان أبيالمفاخر ومجلس الأوصياء. وكان من السهل على بانتن عدم الاعتراف بالاتفاق، لكن الوزير المحنك أدرك أن مثل

هذا الموقف قد يؤدي إلى حرب مع الهولنديين في وقت غير مناسب، خاصة و أن خصم بانتن الرئيسي وهو " ماس جولنغ الثاني " سلطان ماتارام يسعى للتحالف مع الهولنديين للقضاء على سلطنة بانتن وضمها إلى ملكه. ويظهر أن الهولنديين فهموا أن التعاقد مع ويجايا كراما فقط بدون مصادقة سلطنة بانتن قد لايجديهم نفعا إذ لم يتم الاعتراف به. ولذلك طلبوا المصادقة على الاتفاق في بانتن نفسها. فوافق الوزير وجرى التصديق على الاتفاق فعلا في القصر الملكي بحضور السلطان أبي المفاخر وجدته ومربيته(٢١٧). وفي عام ١٠١٣ هجري توفي سلطان ماتارام "ماس جولنغ الثاني" وخلفه ابنه الأمير" ماس رانسانغ عبد الرحمن [*Mas Rangsang Abdurrahman*]" الذي سرعان ماعين أحد ولاته المخلصين والياً على جزيرة مادورا. وهذا الوالي هو "فغيران جكرانغرات الأول [*Pangerang Jakaningrat I*]" الذي جعل مركز إقامته في مدينة " سامفنغ [*Sampang*]" .

وقد سار الأمير الجديد " رانسانغ عبد الرحمن " على خطا أبيه وجده في السعي للتحالف مع الهولنديين ضد بانتن، فأذن للهولنديين ببناء قلعة في جيبارة. وبشراء الأرز بدون رسوم جمركية(٢١٨). وفي العام نفسه أي ١٠١٣ هجري حل "يان فيتر زون كون [*Jan Pieterszoon Coen*] مكان بيتر بوت في رئاسة مركز شركة الهند الشرقية في جاكرتا وبانتن، فأخذ يحاول إذكاء نار الحسد والغيرة بين بانتن وجاكرتا لكي يستفيد من الطرفين، فصار يورد البضائع المهمة القادمة من بلاد الهند إلى جاكرتا فقط لأن الشركة لا تدفع فيها رسوماً جمركية، الأمر الذي اضطر الوزير " رايانا مفالا [*Rayana Mapala*]" إلى إعفاء تلك البضائع من الرسوم الجمركية أيضا.

حواشي الباب التاسع

(١) انظر بالإنكليزية مجلة " Cambodia " ، ص ٢٦ .
(٢) انظر : " Nusantara " ، Bernard Vlekke ، ص ٦٩ .
(٣) " بوني " هي بروناي الحالية أو المنطقة التي تقع في شمال بورنيو .
(٤) " راجا " أو "راج " لقب يطلق على الملك ، وقد يطلق على الأمراء وحكام البلدان ، ولكن أول ما يتبادر إلى الذهن من معنى لهذه الكلمة هو الملك .
(٥) انظر : " Nusantara " ، Bernard Vlekke ، ص ٧٠ .
(٦) يشير د. أزيوماردي أزرا في كتابه القيم "شبكة العلماء" الصادر في جاكرتا عام ١٩٩٩ عن مركز الدراسات الإسلامية والاجتماعية، في الصفحة ٧ منه إلى أنه طبقاً لحكايات ملوك فاساي المؤلفة عام ١٣٥٠م فقد وصل السيد عبد العزيز العربي الأصل من جدة إلى ملقا فأسلم ملكها "باراميسوارا" على يديه وتلقب، باسم السلطان محمد شاه. وأما التاريخ المحلي الآخر وهو حكايات " ميردانغ ماهاونسا" التي تم تأليفها عام ١٦٣٠م فقد ورد فيه أيضا أن هناك شيخا يسمى عبد الله اليمني الأصل وصل من مكة أو بغداد إلى الأرخبيل واستطاع أن يجعل المواطنين يدخلون في الإسلام أفواجاً، حكاماً ووزراء وسكاناً في "كيدة Kedah " [الشاطئ الغربي من ماليزيا] ، وكان الملك في كيده [وهي نفسها ملقا] يدعى أوانغ ماهاونغسا " فأسلم أيضا واختار لنفسه لقب السلطان مظفر شاه .
(٧) انظر : " Malay Polity in Southeast Asia : Islami " ، منشورات IRCICA ، إسطنبول ١٩٩٧، ص ١٥ .
(٨) جوهور أو جوهر أو جهور هي المنطقة الواقعة في أقصى شبه جزيرة الملايو الماليزية إلى الشمال من سنغافورة حاليا .
(٩) انظر : العلامة علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٩٦.
(١٠) تنسب الأساطير المحلية الإندونيسية قدرات خارقة لمن يطلق عليهم اسم " المخدومين " كقدرتهم على السير فوق الماء، إذ يقال أن (كريم المخدوم) كان يسير فوق الماء بفعل قدراته الصوفية الخارقة. وتقول بعض الروايات: إن (كريم المخدوم) هذا الذي ينشر الإسلام في الفيليبين من أعضاء الجماعة القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني [١٠٧٧-١١٦٦م] الصوفي المعروف الذي يقول أتباعه: إن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه القدرة على السير فوق الماء. ومن المفيد ذكره، بهذا الصدد، أن الجيلاني هذا كان يعتبر ملهم التجارة المسلمين في القرون الوسطى بسبب تلك القدرات المنسوبة إليه .

انظر : Cesar Adib Majul، " Islam's Advent and Expansion in the Philippines " بحث منشور في كتاب " Islamic Civilization in the Malay World " ، مطبوعات IRCICA، إسطنبول ١٩٩٩، الصفحة ٣٢ .

(١١) كان للدين الإسلامي احترام عظيم عند " مينغ تاي تسو " أول أباطرة " مينغ "لأسباب عديدة، وقد ذكر بعضها في السطور السابقة. ومن شواهد هذا الاحترام البليغة الصامتة وجود القصيدة الصينية التي نظمها جلالة الإمبراطور "مينغ تاي تسو" بيده الكريمة مدح فيه دين الإسلام مدحا بالغاً. وهذه القصيدة تعرف الآن بقصيدة " المدح بمائة كلمة" وهي منقوشة في لوح حجري

نصب في الجامع الكبير الذي بني في سنة ١٤٦٧م بمرسوم إمبراطوري في مدينة نانكين . وكان ذلك تحقيقا لطلب القائد المسلم " تشانغ يو تشونغ" الذي ذكرناه آنفا. {انظر: بدر الدين ول . جي تاريخ المسلمين في الصين "، ص ٣٨ – ٣٩ } .

(١٢) دفن السلطان أحمد الظاهر في محل يسمى "مناست مجت" في قرية "بلغ في" وكتب على شاهدة قبره باللغة العربية ما يلي : " هذا قبر المرحوم السعيد الكريم السلطان أحمد الملقب بأبي زين العابدين. كانت الوفاة إلى رحمة الله ومغفرته تعالى يوم الجمعة الرابع من شهر جمادى الأخرة سنة تسع وثمانمائة من الهجرة النبوية ".{١٤٠٧م}.. ورد ذلك في الصفحة ٢٨٧ من كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " تأليف العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد .

(١٣) درج مؤرخو الإسلام في جاوا في بيان البلاد المسماة " جرمين" على قولهم "داري سبرانغ Dari Seberang " أي القادم من الخارج. أما اسم جرمين فيوجد في إندونيسيا في عدة مواقع متباعدة. والمقصود بالقادم من الخارج هو "مونان قبري" وعمه ملك إبراهيم. وبالنسبة لجرمين فهي مثلا جزيرة مقابلة لشمال بورنيو ، كما يوجد الاسم نفسه في بروناي قرب "كوتا باتو" الذي هو اسم لموضعين بجانب القصر القديم على نهر بروني الصغير تحت المقبرة القديمة للسلاطين القدماء، والأخر سد صناعي في النهر بين جزيرتي " كي أوانغ " و " فولو جرمين ".

(١٤) انظر: السيد علوي بن طاهر الحداد الحضرمي، " عقود الألماس " ، منشورات مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م ، الجزء الأول ، ص ١٥٠ .

(١٥) كانت الحياة في إندونيسيا تتميز بالولائم [سلاماتن] الكبيرة التي يتم فيها ذبح الثيران والمواشي والماعز والدجاج. وتميز سكان جاوا بأنهم الأكثر عقدا للولائم. وفي المدن كانت توجد ثلاث ساحات لعقد الولائم، ومعظم الولائم تقام في القرى أو بين العائلات. بعض الولائم يعقد للاحتفال بالدورة الزراعية، فيتم فيها مثلا تنظيف القرية. ولكن معظم الولائم ترتبط بدورة الحياة كالزواج والولادة وقطع الحبل السري والجلوس على الأرض، أي مرور ٢٥ يوما على ولادة الطفل والختان والموت. وخارج مجتمع جاوا، كانت تعقد جلسات طقوسية بالدفن تدعى " شامانية [الشامانية دين بدائي يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الألم والشياطين وأرواح السلف وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان، أي الكاهن الساحر] لاستحضار الأرواح الثانية أو للاحتفال بذكرى أجداد مهمين . { انظر: " Indonesian Heritage "، الجزء المعنون بـ " Early Modern History " ، ص ١٧ } .

(١٦) لأن الديانة البوذية تؤمن بعبادة الشياطين، وهم يجعلونها عشرة أصناف، وعبادتهم تتم بالرقص والأغاني واللهو.

(١٧) كتب على شاهدة قبره ما يلي :

" هذا قبر المرحوم المغفور له الراجي رحمة الله تعالى مفخر الأمراء ، عمدة السلاطين والوزراء وغيث المساكين والفقراء ، السيد الشهيد طراز بهاء الدولة والدين ملك إبراهيم المعروف بـ " كاكي – كاكي " بنتل [أي الذي عمر طويلا حتى انحنى ظهره] تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه دار الجنان، توفي في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ٨٢٢ هجرية ، وهو من أعمام ملك جرمين " . {انظر: السيد علوي طاهر الحدادا ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ٢٨٠ } .

(١٨) انظر بحث د. أوكا تشاندرا ساسميتا المعنون بـ:" مجيء الإسلام وانتشاره في إندونيسيا " الملقى أمام الندوة الدولية حول انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا المعقودة في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٩، الصفحة ٦ .

(١٩) انظر: جرجي زيدان ،" تاريخ التمدن الإسلامي " ، الجزء الثاني ، ص ٥١٣ .

(٢٠) انظر: الدكتور محمد بديع شريف " القادسية الكبرى "، ص ١٧١ .

(٢١) الفيلسوف العربي الاجتماعي ابن خلدون . اسمه الكامل ولي الدين عبد الرحمن بن محمد [١٣٣٦ – ١٤٠٥ م] وينتهي نسبه إلى عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي. قدم جده خلدون الحضرمي من المشرق ونزل إشبيلية . تنقل ابن خلدون بين الأندلس والمغرب ومصر والشام إلى أن وقع في قبضة تيمور لنك أيام خروج الملك الناصر فرج إلى الشام . وقد حافظ تيمور لنك على حياة ابن خلدون بسبب انبهاره بعلمه وثقافته ولكن ابن خلدون هرب إلى القاهرة ومات فيها عام ١٤٠٥ م ، (انظر : حسين راجي، " ابن خلدون أسير تيمور لنك " ، جريدة تشرين السورية – ٢٥ كانون الأول ٢٠٠١) .

(٢٢) عملياً بقيت الدولة التيمورية فيما وراء النهر حتى سنة ٩٠٦ هجرية، وكانت خراسان وما وراء النهر وما يتاخم بلاد تبريز بيد شاه روخان بن تيمور لنك .

(٢٣) انظر: العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ٩٤ .

(٢٤) المرجع السابق نفسه. ص ٩٣. وقد تحدث ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان " عن ملقا، وذلك للمرة الأولى في الأدبيات الإسلامية، كما تكلم عن ملقا أيضا كل من زكريا محمد محمود في كتابه " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات "، وأبو يحيى القزويني في كتابه " أسرار البلاد وأخبار العباد ". وكذلك فعل أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب في كتابه "تقويم البلدان" حيث قد أهم ملك الجزر الواقعة في الأرخبيل الإندونيسي [مهراج – لاموري – كلاخ – جابا – فانسور – سنتف – قمر] مضيفا قوله : " في الأدب الفارسي توجد لمحات عن المجتمع الملايوي. فعلى سبيل المثال ذكر سعدي شيرازي في ديوان شعره " بستان " اسم ملقا [كما تكتب بالعربية]، أو ملكا [كما تكتب بالفارسية].

وبالنسبة لمعنى الكلمة، فإن البروفيسور ساندرو والبروفيسور وينلي قالا في بحوثهما ان كلمة ملقا قد تكون أحد الأمور التالية :

١- اسم نوع من أنواع السمك المشهورة في المنطقة : Malagas

٢- مأخوذة من الشجرة المعروفة في المنطقة باسم : Malaka

٣- مشتقة من الكلمة العربية " ملاقاة " .

وما يؤكد أن اسم المنطقة مأخوذ من كلمة "ملاقاة" العربية هو تأكيد البروفيسور ياندرو الأنف الذكر أن ملقا لم تكن معروفة بهذا الاسم قبل عام ٦٥٤ هجري، قبل انتشار الإسلام فيها .

(٢٥) انظر: " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، الصفحة ٣٨٧ .

(٢٦) انظر: العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد ، "المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٨٧ .

(٢٧) اعتمد الدعاة المسلمون في إندونيسيا في نشر دعوتهم على الأسلوب التعليمي. فإلى جانب المساجد، أنشأوا المدارس والمعاهد لتفقيه الناس بأمور الدين. وتسمى هذه المعاهد في سومطرة باسم " سوراو Surau " وفي جاوا باسم " بيسانترين Pesantren" .

وكلمة "بيسانترين " مشتقة من كلمة "سانتري" ومعناها المتدين أو عالم الدين. وهكذا فإن "بيسانترين" تعني مكان إعداد وتأهيل "السانتري" . ومادة التعليم فيها دينية بحتة وليس هناك سلم تعليمي ولا مراحل. وما زالت تلك المعاهد قائمة في إندونيسيا حتى الآن حيث يقبل الطالب فيها بعد حصوله على الابتدائية ويدرس بضع سنوات حسب قناعة شيخه. ويقيم التلميذ في حرم البيسانترين في أكواخ تسمى باللغة الإندونيسية "بوندوك Pondok " ، وبعضهم يحرفها خطأ إلى كلمة " فندق". لمزيد من التفاصيل حول الموضوع يمكن الرجوع إلى رسالة الدكتوراة (باللغة

الهولندية] المقدمة من الباحث الهولندي كاريل ستينبرينخ إلى جامعة " نيميخن " بهولندا عام ١٩٧٤ تحت عنوان :

" PESANTREN، MADRASAH، SEKOLAH، : Recente Ontwikkelingen in Indonesisch Islamonderricht "

(٢٨) ورد ذلك التسلسل في كتاب " عقود الألماس بمناقب الإمام أحمد بن حسن العطاس " لمؤلفه العلامة علوي بن طاهر بن عبد الله الحداد الحضرمي، مطبعة المدني – القاهر، صفحة ١٣١ .

(٢٩) انظر: العلامة علوي بن طاهر بن عبد الله الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ٢٢٤. وسمعنى كلمة " جاسول أسيقين " ، جوز العاشقين، مأخوذة من العربية. {انظر: عقود الألماس "، الجزء الثاني ، ص ١٣٧ } .

(٣٠) " كابونغسوان " كلمة ملايوية تعني الولد الصغير .

(٣١) هناك تضارب في عدد أولاد زين العابدين من زوجته جوز العاشقين ، إذ أن كتاب " عقود الألماس " يذكر في الصفحة ١٣٧ من الجزء الأول أن الزوجين أنجبا ثلاثة ذكور، ولكن لم يذكر منهم سوى اسم محمد، في حين أن العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتابه " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " يشير في صفحة ٢٢٧ وصفحة ٢٢٨ إلى أن لزين العابدين عدة أولاد ، هم : أحمد وعلوي ومحمد الأكبر ومحمد الأصغر ولكن من أكثر من زوجة واحدة.

(٣٢) انظر : العلامة علوي بن طاهر بن عبد الله الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ٢٣٩ . وهناك روايات تقول إن أبا بكر هذا هو نفسه السلطان شريف المتحدر من الفترة النبوية الشريفة . والمهم هو ان هذا الشخص قد وجد فعلا وقبره موجود حتى الآن في هضاب في منطقة مندناو وقد نقش على شاهدة القبر اسمه الكامل " Paduka Maha Sari Maulana al-Sultan al-Syarief al-Hasyimi " وقرب قبره هذا يوجد قبر يعتقد أنه لابنه ويدعى كمال الدين. وتقول شجرة الأنساب الفيليبينية المسلمة أن أبا بكر هذا قد ترك في ذريته ١٧ سلطانا حكموا في الفيليبين . { انظر : Cesar Adib Majul ، المرجع بالإنكليزية سبق ذكره أنفا ، الصفحة ٣٠ }.

(٣٣) انظر: العلامة علوي بن طاهر الحداد الحضرمي، " عقود الألماس" الجزء الثاني ، الصفحة ١٥٣.

(٣٤) انظر بالإنكليزية البحث الشيق المنشور في صحيفة " Indonesian Observer " الإندونيسية الصادرة بتاريخ ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٠ بعنوان " Ache's Women Have their Say " بقلم الكاتبة كادلا بيانيون .

(٣٥) انظر بالإنكليزية موسوعة " Indonesian Heritage " الجزء المعنون بـ " Early Modern History " منشورات " Archipelago Press " ، سنغافورة ١٩٩٦، الصفحة ٤٨-٤٩ .

(٣٦) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٠ .

(٣٧) المرجع السابق نفسه ، ص، ١١ ، وقد سبق لنا وأن تطرقنا إلى تلك الحادثة في موضع آخر من البحث .

(٣٨) المرجع السابق نفسه، الصفحة ٣٢-٣٣، وكلمة " ريوكو " هنا يقصد بها اليابان بالتسمية القديمة، والتسمية نفسها تعني حالياً جزيرة " أوكيناوا " اليابانية .

(٣٩) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١١ .

(٤٠) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٣٣ .

(٤١) يرى العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتابه المرجعي " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، الصفحة ٢٥٦ أن اسم " مزاونق " مأخوذ من اسم " مزنة " على عادة أهل الملايو في تحريف الأسماء . فيقولون مثلا في خديجة خيتيجة و خليجة ، ويقولون بن بيدين بدلا من بن العابدين ،، جينال بدلا من جمال .

(٤٢) وردت تلك الرواية في كتاب " عقود الألماس " ، الصفحة ١٤٠ ، وفي كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " الصفحة ٢٣٦ .

(٤٣) سولو أو صولو من أرخبيل الفيليبين، شرقية تعتبر قسما من جزيرة ميندناو ، وغربية يشكل مجموع جزائر سولو أو أرخبيل سولو، وهو حاليا يقع في الجزء الجنوبي من الفيليبين الذي تسكنه أغلبية مسلمة تقودها جبهة تحرير مورو الإسلامية المطالبة بالاستقلال عن الفيليبين .

(٤٤) الرواية الأسطورية الملايوية الواردة في كتاب "عقود الألماس " ، الصفحة ١٣٩ تتجاهل كون "كابوناوي " و" ماماالو " مسلمين. وتقول: إن هذين الأخيرين دعوا " كابونسوان " للنزول إلى البر فأبى قبول دعوتهم إلا أن يسلموا فوعدوه وعاهدوه على ذلك. ولكنه تشدد في أنه لا يمكن أن يطأ بر ميندناو إلا إذا أسلم أهلها، فجاؤوا واغتسلوا وشهدوا شهادة الحق بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فاجتمعوا وأسلموا. وهناك حكاية أسطورية أخرى ورد ذكرها في كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، في صفحة ٢٦٤ تقول: إنّ امرأة أو ملكة قتل زوجها فأعلنت للعموم استعدادها لأن تتزوج بأي شخص كان يستطيع أن ينتقم من قاتل زوجها ، فجاء صياد سمك وقتل المعتدي فتزوجته. وموضوع صياد السمك يتولى الملك يتكرر دوما في الأساطير الملايوية والفيليبينية. ولذلك فان تمثال صائد السمك الشعبي هو من الصناعات اليدوية الرائجة في جنوب شرق آسيا .

(٤٥) انظر: عقود الألماس " ، الصفحة ١٣٩ .

(٤٦) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ١٣٩ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٤٨) لفظ شريف كلمة عربية معناها النسبة إلى نسب شريف، وهي في الأغلب لقب لذرية رسول الله (ﷺ)، واللقب التام هو السيد الشريف. فالعرب والإيرانيون يلتزمون كلمة السيد فقط، ولكن مسلمي الفيليبين لا بد أن يستعملوا الكلمتين [السيد الشريف] لشدة اعتزازهم بهم .

(٤٩) انظر: العلامة علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٢٣٩ .

(٥٠) جاء في كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، صفحة ١١٠ أن حكام بروناي والجزائر التي حولها من أسرة واحدة، ومبدأ هذه الأسرة هو وصول السيد أحمد بن زين العابدين من جوهور .

(٥١) أوضحنا سابقا أن سولو هي جزء من الفيليبين ؛ غير أن بعض المراجع القديمة ككتاب " تحفة الدهر في عجائب البر والبحر " للشيخ شمس الدين أبي عبد الله بن محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، ذكرت [ص ٩١٤] أن جزائر سلاويسي [الإندونيسية حاليا] وما يليها هي جزائر سولو سنداكن. وأما كتاب " عقود الألماس " فيذكر في صفحة ١٤٧ أن راجا بكيندا الذي استولى على سولو وسلدونغ Salandung مذكور في عداد الأشراف ملوك بروناي وجرمين وسراواك وما يليها من بورنيو وسلندونغ وتعرف الآن باسم " لوزون Luzon"، وهي الأرض الكبيرة في شمال أرخبيل الفيليبين، وكانت تؤدي إليه الجزية سنوياً بمقدار كنتنغ من الذهب. والكنتنغ مكيال يكون تارة نحو خمسة أمداد وتارة ثمانية أمداد على اختلاف البلاد .

(٥٢) حكم من عام ١٤٢٦ م إلى عام ١٤٣٥ م .

(٥٣) حكم من عام ١٤٣٥ م إلى عام ١٤٤٥ م .

(٥٤) انظر العلامة علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٩٤ .

(٥٥) انظر : العلامة علوي بن طاهر الحداد، " عقود الألماس "، ص ١٤١ .
(٥٦) انظر : المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٠ .
(٥٧) انظر : المرجع السابق نفسه ، ص ١٤١ .
(٥٨) انظر : " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، الصفحة ٢١٠. ومعنى اللقب: السلطان الشريف مولانا شاه .
(٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(٦٠) أي يريد محو عقد الإقطاع واستملاك الأراضي مع فلاحيها، كما كانت الحال في بلاد اليمن وبعض الإقطاعات الإسلامية الأخرى في القرون الوسطى .
(٦١) انظر :عقود الألماس " ، ص ١٤٣ .
(٦٢) جزر هالماهيرا هي من جزائر الملوك حاليا ، واصكيفون يعتقد أنها اسم أستراليا القديم أو اسم جزيرة ايريان جايا الإندونيسية حاليا ، وأما " فوافوا " فهي جزء من جزيرة " غينيا الجديدة كان الرحالة المسلمون القدامى يسمونها جزر " واق الواق " باعتبار انها آخر البر قبل ولوج البحر الزفتي الكبير (المحيط الهادي) .
(٦٣) هذه الجزر مجتمعة أسماها العرب جزر الملوك لكثرة ما وجدوا فيها من ملوك . وقد حافظت تلك الجزر على تسميتها حتى الآن مع بعض التحريف الذي أدخله البرتغاليون عليها عندما احتلوها لتصبح جزر " مالوكو " بدلا من ملوك .
(٦٤) انظر بالإنكليزية " The Indonesian Heritage " ، الصفحة ٣٢ ومنصب "آريا أو باتيه" يعطى للشخص الذي يلي الملك عادة .
(٦٥) المرجع السابق نفسه ، الصفحة ٣٢ .
(٦٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٢ .
(٦٧) المرجع السابق نفسه، ص ٣٣ .
(٦٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣ .
(٦٩) أشار د. عادل محيي الدين الألوسي في كتابه القيّم " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " في الصفحة /٨١/ إلى المسألة بوضوح حينما قال: إن الملاحة التجارية في البحر المتوسط كانت مقصورة على الأجزاء الخاضعة لحكم المسلمين لا تتجاوزها . وكانت العلاقات مع المرافئ المسيحية ذات صبغة حربية وهي في أكثر الأحيان عرضة لهجمات القراصنة. لذلك ظل المحيط الهندي المجال الحيوي لقيام العرب بأعظم الصفقات التجارية. وتكلم المستشرق " كرامرز " في الاتجاه نفسه في كتابه " الجغرافية والتجارة " المنشور عام ١٩٥٤ في القاهرة ، ص ١٠٦ .
(٧٠) انظر مقالا بقلم د. سليم أنطون ، بعنوان " رحلات حول العالم للكاتب جيمس كوك "، ص ٧٤٤، ومقالا بقلم د. حسين فوزي النجار ، بعنوان " تأثير القوى البحرية على التاريخ لألفريد ميهان " ، الصفحات من ٨٩٤ إلى ٩٠٠ [موسوعة " تراث الإنسانية"، المجلد الثامن] .
(٧١) يقول عنهم المؤرخ جرجي زيدان في كتابه المرجعي الهام " تاريخ التمدن الإسلامي " ، المجلد الأول ، الصفحة ٩٩ ، أنهم حكموا مصر /١٢٩/ سنة من عام ٧٨٤ هجري /١٣٨٢ م إلى ٩٢٣ هجري /١٥١٧ م ، وكانوا قادة عسكريين ممتازين و لكنهم لم يظهروا أي كفاية إدارية أو مالية . وقد ضعفت مصر في أيامهم شيئا فشيئا ، واضطربت ماليتها بعد تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح ، وأظهروا قصر نظر مخجل فيما يتعلق بموقعهم من الخطر العثماني ، مما انتهى بسقوط مصر في أيدي الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٣ هجرية /١٥١٧ م. كان أول المماليك البرجية السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق و آخرهم طامان باي الثاني ، (الكتاب من منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت) .

(٧٢) المرجع السابق نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٥١٤ .

(٧٣) يقول شوقي أبو خليل ، وهو محقق كتاب القلقشندي المعنون بـ : " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " ، السفر الثاني ، الصفحة ٢٥٧ أن الخلافة العباسية في الديار المصرية بعد المعتضد بالله كما يلي :

- أبو ربيعة المستكفي بن المتوكل	٨٤٥ هجري
- أبو بكر حمزة القائم بن المتوكل	٨٥٥ "
- أبو المحاسن يوسف المستنجد بن المتوكل	٨٥٩ "
- أبو الأعز عبد العزيز المتوكل بن المستعين	٨٨٤ "
- أبو الصبر يعقوب المستمسك بن المتوكل	٩٠٣ "
- المتوكل بن المستمسك	٩٢٢ "
- المستمســــك	٩٢٣ "

(٧٤) انظر : العلامة علوي بن طاهر الحداد، "المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٣٨٨ . وفي الفترة نفسها توفي في آتشيه العديد من العلماء المسلمين الذين لا تزال قبورهم موجودة حتى الآن ، ونذكر منهم: عماد الدين بن السيد إسحاق الحسيني المتوفى في عام ٨٥٧ هجري ، ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد القادر بن جعفر العباسي المتوفى في عام ٨٢٠ هجري ، والعالم الشريف حسن مير بن علي استرابادي المتوفي في عام ٨٣٣ هجري . { انظر المرجع نفسه ، ص ٢٨٤} .

(٧٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٩١ .

(٧٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٧٧) المرجع السابق نفسه ، ص ١١٢ .

(٧٨) المرجع السابق نفسه ، ص ١١٢ .

(٧٩) تقول رواية أخرى وردت في كتاب " الأب المهاجر أحمد بن عيسى " تأليف كل من محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، منشورات دار الشرق – جدة ١٩٨٠: إن ملك" ماجاقاهيت " الهندوكي نصب عبد الفتاح {رادين فتاح} أميرا على بينتارا ، وهي منطقة بناحية الجنوب من جبل موريا[*Muria*] ، فبنى هناك مركزا للسلطة صار بعد ذلك قيادة لمملكة تحاول السيطرة على جزيرة جاوا بكاملها . وهذه القيادة هي " ديماك " . ومملكة ديماك هذه صارت عظيمة تحت حكم " رادين فتاح " الذي هو من نسل ملوك ماجاقاهيت.

(٨٠) انظر : العلامة عبد الرحمن بن حسين المشهور، " شمس الظهيرة " ، [منشورات عالم المعرفة – جدة ١٩٨٤] ، الجزء الثاني ، ص ٥٢٥، تحقيق وتعليق محمد ضياء شهاب .

(٨١) انظر : Bernard Vlekke ، " Nusantara " [منشورات جامعة هارفارد ، كامبردج ، ماساتشوستس ١٩٤٤] ، ص ٧٣ .

(٨٢) العلامة علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٣٧

(٨٣) آخر حاكم لغرناطة هو أبو عبد الله الصغير الذي قالت له أمه وهي أندلسية مسيحية جملتها المشهورة عندما رأته يبكي بعد أن سلم مفاتيح المدينة للملكة ايزابيلا: " ابك كالطفل ملكا لم تعرف كيف تصونه كالرجال " .

(٨٤) أوردها محمد ضياء شهاب في حاشيته على الصفحة ٥٨ من كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى للعلامة السيد علوي بن طاهر الحداد . وقد نقل شهاب هذا النص عن كتاب " وولتر هودجر " المعنون بـ " Colombus Seils " صفحة ٣٠ – ٣١ ، المنشور عام ١٩٤٧.

(٨٥) – ألفريد ميهان ، " تأثير القوى البحرية على التاريخ " تعليق على منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، [مطبوعات دار الرشاد – القاهرة ، ص ٨٩٧]

(٨٦) موسوعة " Indonesian Heritage " الجزء المعنون " The Early Modern History " ص١١ .

(٨٧) كانت موزامبيق في أفريقيا مركزا تجاريا للعرب والهنود ، وكانت تردها البضائع المتجهة لأوروبا عبر موانى المغرب. وكان هناك طرق أخرى للتجارة مثل البصرة التي توزع بضائعها لأوروبا عبر دمشق وحلب والإسكندرية وكذلك البحر الأحمر الذي ينقل تلك البضائع لتجار البندقية الإيطاليين عبر الإسكندرية والقاهرة . { انظر " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٣٨ .

(٨٨) المرجع السابق نفسه، صفحة ٣٣٤ حيث ينقل المؤلف عن كتاب " البرق اليماني في الفتح العثماني " لقطب الدين النهروالي (وهو مخطوط في الخزانة التيمورية) ما يلي: "وقع في أول القرن العاشر من الحوادث النوادر دخول البرتغان (البرتغال) اللعين من طائفة الإفرنج الملاعين إلى ديار الهند. وكانت طائفة منهم يركبون البحر من زقاق سبتة (بالأندلس) في البحر ويلججون في الظلمات ويمرون خلف جبال القمر ويصلون إلى الشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل و الجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك وهم يهلكون في ذلك المكان، ولايخلص من طائفتهم أحد، إلى أن خلص منهم غراب إلى الهند ، فلازالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له المليندي وعاشره في السكر، وقال: " لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج. فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر الكثير من مراكبهم، فكثروا في الهند و بنوا في كـوة، هو اسم الموضع في بلاد الدكن في الهند " .

(٨٩) الكابتين جيمس كوك ، " رحلات حول العالم " ، تعليق على الكتاب بقلم د . سليم أنحلون، [موسوعة " تراث الإنسانية " ، الجزء الثامن] ، ص ٧٤٤ .

(٩٠) العلامة علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٣٨.

(٩١) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣٨ .

(٩٢) كنا قد أشرنا سابقا في بداية الكتاب إلى كيفية انتشار الإسلام في ذلك الساحل منذ القرون الهجرية الأولى ، وإلى دور الأسر الطالبية في نقل الحضارة و الدين و التجارة الإسلاميتين إلى شرق أفريقيا بعد فرار أفراد تلك الأسر من الاضطهاد .

(٩٣) هو الملاح العربي المشهور المنسوب إلى مدينة جلفار في الخليج العربي وهي المدينة التي تدعى الآن " رأس الخيمة " في دولة الامارات العربية المتحدة . وله تصانيف عديدة في علوم البحر منها: كتاب " الفوائد في أصول علم البحر و القواعد " ، باشر الأستاذ غبريال فران بنشره في باريس سنة ١٩١٢ م (١٣٣١ هجرية) بالتصوير الفوتوغرافي. وقد طبع قسم منه وأضيف إليه بعض رسائل في فن البحر للمعلم سليمان بن أحمد المهري المحمدي .

واليك فهرست المصنفات :

١ – رسالة قلادة الشموس واستخراج قواعد الأسوس للمعلم سليمان المهري .

٢ – تحفة الفحول في تمهيد الأصول ، له أيضا

٣ – العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية

٤ – المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر .

٥ – الأرجوزة المسماة بالسبعية للمعلم شهاب الدين أحمد بن ماجد .

٦ – القصيدة لابن ماجد

٧ – القصيدة المسماة بالهدية .

٨ – شرح تحفة الفحول في تمهيد الأصول لسليمان المهري .

(٩٤) قال ابن ماجد لفاسكو دي غاما: " لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج "، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند . {انظر " المدخل في تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٣٣٤، و " قاليقوط " هو الاسم العربي القديم لمدينة كالكوتا الهندية } .

(٩٥) العلامة علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٣٩ .

(٩٦) انظر " Bernard Vlekke "، " Nusantara " [منشورات جامعة هارفارد ، كامبردج ، ماساتشوستس ١٩٤٤] ، ص ٧٣ .

(٩٧) " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٤٠ .

(٩٨) " Nusantara " ، ص ٧٣ .

هذه الفظائع التي شهدها المحيط الهندي طيلة ما يقارب القرنين ما لبثت أن أصبحت هي العادة وتشير صفحات الكتاب المعنون بـ: " إمبراطوريات الرياح الموسمية " إلى دخول القوى الغربية الأخرى المنافسة للبرتغاليين مثل الفرنسيين والانجليز ، والصراع على النفوذ في سواحل المحيط الهندي مع تركيز أكثر على سواحل أفريقيا الشرقية التي كان التغلغل فيها هدفـا للمغامرين و الحملات العسكرية .

لقد وضعت هذه التدخلات الاستعمارية أساس خراب حياة سكان مناطق حوض المحيط الهندي وتسببت في قطع أواصر العلاقات التجارية والحضارية بين سكانها، ولم يعُدْ للسكان المحليين الحرفية الكافيـة للمتاجرة أو تسيير السفن إلا بإذن من الأساطيل الغربية. وفقد الكثير من الحكام العرب والهنود الذين تطل موانئهم على سواحل المحيط الهندي استقلالهم، إلا أن الحاميات البرتغالية والانجليزية كثيرا ما كانت تتعرض للتدمير على يد ثورات وانتفاضات محلية، بالاضافة إلى المقاومة التركية التي كانت قاعدتها مصر ، وكان الأتراك قد بدأوا يفكرون بربط البحر الأحمر بالنيل عن طريق قنـاة تسمح لسفنهم الحربية بالانتقال من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر ثـم المحيط الهندي في أواخر القرن السادس عشر . { لمزيد من المعلومات حول تلك الأحداث يمكن الرجوع إلى كتاب الباحث البريطاني ريتشارد هول المعنون بـ" إمبراطوريات الرياح الموسمية " : تاريخ المحيط الهندي و غـزاته " } . بالإنكليزية :

" Empires of the Monsoon : A History of the Indian Ocean and its Invadors " .

(٩٩) يقول العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتابه " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ص ٣٤١ : إن السلطان قانصوه الغوري توعد البابا أنه إذا لم يخرج البرتغال من الهند فإنه سيقوم بتخريب الأماكن المسيحية المقدسة ببيت المقدس .

(١٠٠) العلامة علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ٣٤١ .

(١٠١) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٠ .

(١٠٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٠ .

(١٠٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٢ .

(١٠٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٠ .

(١٠٥) حاشية محمد رضا شهاب على كتاب العلامة علوي بن طاهر الحداد " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ص ٩٤ .

(١٠٦) انظر : Bernard Vlekke ، " Nusantara " ، ص ٧٤ .

(١٠٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٣ .

(١٠٨) موسوعة " Indonesian Heritage " الجزء المعنون بـ" The Early Modern History " ص٣١.
وكان مما يسهل عمل أولئك القراصنة وجود تجار صينيين مسلمين عديدين في كل مرافئ جنوب شرق أسيا ، ففي بداية القرن ١٥ كانت توجد ١٠٠٠ عائلة صينية في مدينتي توبان وغرسيك في جاوا ، والآلاف من الصينيين في مدينة فاليمبانغ في سومطرة .
(١٠٩) المرجع السابق /٢٨٣/ ، ص ٧٤ .
(١١٠) المرجع السابق /٢٨٤ / ، ص ١٢
(١١١) يقول السيد محمد ضياء شهاب في تعليقه على كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، صفحة ٢٢٤: إن الإسلام جاء إلى جزائر الملوك من جاوا الشرقية إلى جزيرة ترنايت حوالي عام ١٤٤٠ م بواسطة الشيخ جمال الدين الحسيني الذي كان الناس ينادونه بـ " مولانا حسين " .
(١١٢) أشار إلى ذلك د. أوكا جاندا ساسميتا في بحثه المعنون بـ" مجيء الإسلام إلى إندونيسيا" ص ٧.
(١١٣) حاشية محمد ضياء شهاب على كتاب " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى"، ص ٩٤
(١١٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٣٤ .
(١١٥) انظر الدكتور أزيومردي أزرا ، "شبكة العلماء" ، ص ٢٧ .
(١١٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٨ .
(١١٧) كتب سلمان الريس في تقريره ما يلي : " لقد سيطر البرتغال أيضا على ميناء فاساي في جزيرة كبيرة سُمّيَت " شامترا " (أي سومطرة)الواقعة بعد " سيلان " المذكورة من قبل . وكان فيه ٢٠٠ من الكفار التابعين لهم ، و كان هؤلاء الكفار هم الذين قاموا أيضا بالسيطرة على ميناء ملاقا المواجهة لسومطرة مع ان التوابل كلها جاءت أصلا من هذه الجزيرة، ويبدو أنها الآن قد وقعت في أيدي البرتغال، وقد كنا من قبل نكتسب عائدات كثيرة من التجارة بتلك التوابل في مصر بجانب البضائع الأخرى الموجودة. وقد قيل أن البرتغال، لعنة الله عليهم ، استطاعوا أن يسيطروا على تلك الموانى بقوات تضم ٢٠٠ فردا فقط، ولذلك فإن شاء الله عندما يتم تجهيز القوات ونتحرك لمواجهتهم فإنهم لن يفلتوا من الدمار الذي سيقع عليهم لأن قلعة واحدة لن تستطيع أن تمد الأخرى بالمساعدة وبالتالي لن يستطيعوا المواجهة في صف واحد. (المرجع السابق ، ص ٢٩).
(١١٨) Bernard Vlekke ، " Nusantara " ، ص ٧٤ .
(١١٩) المرجع السابق ، ص ٧٤
(١٢٠) ذكر برنارد فليكه في كتابه " Nusantara " أن أحد الهولنديين قال عندما قدموا إلى جزر الملايو: " ان الأوروبيين الذين يبقون على قيد الحياة بعد تعرضهم لمناخ الجزر الملايوية ينبغي عليهم ان يشكروا الرب لقاء أعجوبته تلك " انظر صفحة ٧٤ .
(١٢١) انسحب إلى أقصى الساحل الجنوبي لملقا، ويعتقد أنها المنطقة التي تشكل سنغافورة اليوم.
(١٢٢) مشاهدة مأخوذة من " Nusantara " ص ٧٥ .
(١٢٣) المرجع السابق ، ص ٧٥ .
(١٢٤) يقول برنارد فليكه في كتابه، ص ٧٥: إن ما مقداره مائة كيلوغرام من القرنفل كان يباع في جزر الملوك "بدوكتين اثنتين "، في حين أن الكمية نفسها كانت تباع في ملقا بمقدار عشر دوكات.
(١٢٥) شجرة جوزة الطيب تبدأ بالعطاء بعد عشر سنوات من زرعها ثم تتوقف عن الإثمار عندما يبلغ عمرها ستين عاما ، والبعض منها يبقى مثمرا حتى يبلغ عمرها مائة سنة .

(١٢٦) Bernard Vlekke ، " Nusantara " ، ص ٧٨ .
(١٢٧) انظر بحث د. أوكا جانداساسميتا المعنون بـ"مجيء وانتشار الإسلام في إندونيسيا"، ص٧.
(١٢٨) سلطنة "ديماك" تسيطر على المنطقة الممتدة من جبارا إلى غرسيك . { انظر " الإمام المهاجر" ص ١٧٢ – ١٧٣ }.
(١٢٩) لا تزال جزيرة بالي الإندونيسية حتى الآن معقلا للديانة الهندوسية في إندونيسيا
(١٣٠) هي سنغافورة حاليا ، أو جنوب ماليزيا
(١٣١) تأليف محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ١٧٣ .
(١٣٢) "السوندا " هو اسم غرب جاوا . والمقصود بالنص هنا هو مملكة " فاجاجاران " هو الاسم القديم لمدينة جاكرتا الحالية .
(١٣٣) انظر " الإمام المهاجر " ، ص ١٧٥ .
(١٣٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .
(١٣٥) سونان قـدس : اسمه الحقيقي جعفر الصادق ، كنيته " رادين أوندونغ " ويدعى أحيانا بـ " رادين أمير الحاج " لأنه كثيرا ما يترأس الحجاج الإندونيسيين إلى الديار المقدسة المعروف باصطلاح " أمير الحج " . إنه ابن " رادين عثمان الحاج " ناشر الإسلام في منطقة " جيفانغ بانيلان بلورا " ، وانه – وفقا لسلسلته – ينتمي إلى النبي محمد(ﷺ)، وهي كما يلي : محمد جعفر الصادق بن رادين عثمان الحاج بن راجا فيندتا بن إبراهيم السمرقندي بن مولانا بن محمد جماد الكبرى بن زين الحسين بن زين الكبرى بن زين العالم بن زين العابدين بن السيد حسين بن علي بن أبي طالب (ﷺ).

منطقة عمله لنشر الدين الإسلامي هي منطقة " قدس " وحواليها . وهو عالم كبير في علوم الفقه خاصة والتوحيد والحديث والتفسير والمنطق . وهو الوحيد من بين الأولياء التسعة الذي حرص على لقب " الولي العالم " لسعة علمه . لهذا يؤمه طلبة من أنحاء الأرخبيل الإندونيسي ، إضافة إلى ذلك انه قائد باسل لسلطنة " ديماك بنتورو " قادر على إدارة الحكم في منطقة قـدس، أي انه أصبح حاكما لها وناشرا دينيا فيها .

يقال انه درس علومه في بيت المقدس بفلسطين ، كما يقال انه استطاع معالجة المرض الذي كان متفشيا هناك ، سقط بسببه عديد من الضحايا ، لهذا منحه أمير فلسطين سلطة فيها ، لكنه طلب من الأمير نقل هذه السلطة إلى جزيرة جاوا فقبل طلبه. بمجرد عودته إلى الجزيرة أنشأ جامعا في منطقة " لوران " عام ١٥٤٩ م وسمى المسجد الأقصى أو مسجد المنار ثم أبدل اسمه بجامع Kudus مشتق من مدينة القدس بفلسطين .

اتبع سونان قـدس في الدعوة أسلوب التثقيف الديني كذلك ، وكان له مؤلفات قصص دينية أشهرها Gending Maskumambang و Mijil . { انظر : Ensiklopedi Islam ، سبق ذكر المرجع ، الصفحة ٥ – ٦ } .
(١٣٦) عبد القادر بن عبد الله بن العيدروس العلوي ، " اظهار الحقيقة فيمن أدخلوا الإسلام إلى جنوب شرق آسيا و خصوصا إندونيسيا العزيزة " ، منشور عام ١٩٩٨ – جاكرتا، صفحة ٧٤ – ٧٨ .
سونان غونونغ جاتي . يعتبر سونان غونونغ جاتي أحد الأولياء التسعة الذي فضل في نشر الدين الإسلامي في جزيرة جاوا ، لاسيما قرى جاوا الغربية ، كما يعتبر كذلك أحد مؤسسي سلطنة " تشيربون Cirebon " . اسمه الحقيقي شريف هداية الله ، وهو مؤسس سلالة ملوك " تشيربون " و ملوك " بانتن Banten " ، وهو نفسه حفيد ملك " Pejajaran " أو " Silliwangi " الذي أنجب من زوجته " Nyai Subang Larang " ابنين، هما رادين ولانغ سونفسانغ ، و مالك سنغارا ، وبنتا واحدة هي Nyai Lara Santang .

وبعد وفاة والدتهم ، سافر " رادين والانغ سونغانغ " إلى " غونونغ أنغاران جاتي " ، ثم لحقته شقيقته " لارا سانتانغ " ليتعلما الدين الإسلامي من الشيخ " داتو كهفي " والشيخ " نور الجاتي " . وبعد ثلاث سنوات من ملازمة استاذهما ، أمرها بالسفر إلى مكة المكرمة لأداء شعائر الحج . وهنا تعرفت " لارا سانتانغ " بالشاب العربي من بني هاشم ومن أشرافهم وهو شريف عبد الله [مولانا سلطان محمود] فتزوجها ، وأنجبا ولداً يسمى شريف هداية الله . وبعد بلوغه سن الرشد قرر القيام بالدعوة في جزيرة جاوا بدلاً من بقائه في السعودية ، وسافر إليها فعلاً .

وكان "والانغ سونغسانغ" قد عاد إلى تلك الجزيرة بعد أداء شعائر الحج وأقام في Pasambangan التي أصبحت فيما بعد مدينة " تشيربون " . وهنا التقى شريف هداية الله بـ " سونغسانغ " [عمه] الذي حصل على لقب أمير " تشاكرا بوانا " . على أثر وفاة عمه ، حل شريف هداية الله محله في مجال الدعوة ، وعمل على تحويل " تشيربون " إلى سلطنة ونجح في ذلك ، فأحرز لقب " غونونغ جاتي " .

وبعد أن أصبحت " تشيربون " سلطنة إسلامية مستقلة من سيادة " باجاجاران " ، عمل شريف هداية الله [سونان غونونغ جاتي] على إقناع القرى المجاورة التي لم يصل إليها الدين الإسلامي بعد، ولقيت دعوته صدى طيبا في منطقة جاوا الغربية ، ودخلت مناطق " ماجالينكا " و " كونينغان " و " موالي " و " سوندا كلابا " و " بانتن " في الدين الإسلامي . وقد أقام في بانتن فترة من الوقت حيث أصدر التشريعات الإسلامية وقواعد التعامل التجاري الإسلامي في عام ١٥٢٥ م أو عام ١٥٢٦ م . لكنه اضطر إلى العودة إلى " تشيربون " ونقل إدارة " بانتن " إلى ابنه سلطان مولانا حسن الدين الذي خلف فيما بعد سلالة ملوكها .

على يد هؤلاء الملوك تمكن المسلمون من فتح مملكة " باجاجاران " ، كما بادر شريف هداية الله إلى شنّ حرب على " سوندا كلابا Sunda Kelapa " في عام ١٥٢٧ م بقيادة فتح الله [توفي عام ١٥٢٠ م] قائد قوات مملكة " ديماك " زوج ابنة شريف هداية الله .

أورد بعض الكتب التاريخية أن " سونان غونونغ جاتي " ، باعتباره أحد الأولياء التسعة، قد حظي بتقدير كبير من ملوك جاوا الآخرين مثل ملك " ديماك " و " باجانغ ". ونظرا لمكانته المرموقة ملكاً وعالماً مُنح لقب " ملك فانديتا ". وبعد وفاته اضطربت " تشيربون"، ومع ذلك لم يندثر آثار دوره التاريخي الديني المشهود. [انظر : الموسوعة الإسلامية بالإنكليزية ، الصفحة ٨ -٩] .

(١٣٧) اصطدم الشيخ هداية الله بتعاليم الشيخ " ليماه أبانغ [*Lemah Abang*]" الملقب بالشيخ سيتي جينار [Siti Jenar] معتبرا أن تعاليمه الدينية المسماة" كاولا غوستي [Kawulagusti]" خطرة على الناس الذين كانوا قد أسلموا لتوهم . (انظر بحث د . أوكا جانداساسميتا المعنون :" مجيء و انتشار الإسلام في إندونيسيا " الذي ألقي في الندوة العالمية حول مجيء و انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا ، المنعقدة في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٩ ، ص ٦ .

(١٣٨) انظر " تاريخ سلطنة بانتن " مخطوط باليد بقلم الحبيب أحمد السقاف، عام ١٩٤٥ م / ١٣٦٥ هجري في جاكرتا ، ص ١٦ .

(١٣٩) المرجع السابق نفسه ، ص ١٦ .

(١٤٠) كان الوثنيون الملايويون يوجدون في داخل البلاد ، ولذلك فقد تأخر انتشار الإسلام بينهم، والسبب هو أن سكان الساحل كانوا على اتصال مبكر بالمسلمين بفعل التجارة واحتكاك هؤلاء السكان بهؤلاء التجار المسلمين ، بينما كان سكان المناطق الداخلية يعتمدون على الزراعة لا على التجارة ، وبالتالي لم يكن لديهم أي احتكاك مباشر مع التجار المسلمين في مرحلة مبكرة . (انظر البحث المقدم من د . أزيومارد ي أزرا باللغة الإنكليزية والمعنون بـ:" مجيء و انتشار

الإسلام في العالم الملايوي – الإندونيسي، نظرة عامة " ، الملقى أمام الندوة الدولية المنعقدة في جاكرتا في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٩ حول مجيء و انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا ، صفحة ٤ .

(١٤١) بقي هذا الاسم يطلق على العاصمة الإندونيسية حتى استولت هولندا على البلاد فأعادت تسمية المدينة عام ١٦٢١ ميلادي باسم " باتافيا Batavia " . ويقول السيد محمد ضياء شهاب في احدى حواشيه على كتاب " شمس الظهيرة " للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن حسين المشهور {منشورات دار عالم المعرفة – جدة ١٩٨٤} في الجزء الثاني – ص ٥٢٦ – ٥٢٧ ، أن البروفسور حسين جايا دينيغرات يرى أن ذلك في أواخر ديسمبر ١٥٢٦ م أو أوائل يناير ١٥٢٧ م. وقال: إن هداية الله رجل عالم و زعيم ديني، والسلطان ترنغانو تلميذه و صهره ، والجيش الذي بعثه السلطان من أجل نشر الإسلام والدفاع عنه مؤلف من المختارين المعروفين بالحماس الديني الموثوق بهم بأنهم لن يتخلوا عن هداية الله في الظروف الحرجة ، ولا سيما أن زوجته أخت السلطان كانت بصحبته. فإذا كان استيلاؤه على " سوندا كلابا " في وقت قريب من يوم عيد الأضحى فلنا أن نعتبر أن هداية الله ومن معه كانوا يحمدون الله مبتهجين بالنصر الذي لم ينالوه عفوا. ثم قال: إننا على يقين بأن الأعياد الإسلامية كعيد ذكرى مولد الرسول (ﷺ) وعيدي الفطر والأضحى يحتفل بها المسلمون في كل مكان يوجد فيه من يتولى ذلك ، خصوصا إذا كان الملك مسلما. فمن المؤكد أيضا ان المسلمين قد احتفلوا بعيد النصر في ذلك العيد، وأنّ أقرب عيد وقع في أواخر ديسمبر ١٥٢٦م {أو أوائل يناير ١٥٢٧م } هو يوم ١٢ ربيع الأول ٩٢٣ هجرية الذي كان يوم الاثنين ١٧ ديسمبر ١٥٢٦م. وقال ان الشريف هداية الله من سلالة الرسول(ﷺ) فهو حسن النظر حاد الذاكرة إلى الموقف الباهر الذي قاله رسول الله (ﷺ) بفتح مكة ومرت بذاكرته الآية " إنا فتحنا لك فتحا مبينا " فاستلهم من هذه الآية كلمة " فتحا " فأطلق على " سندا كلابا " اسم " جاياكرتا" ومعناه النصر المبين. وهنا تبدو حصافة الشريف هداية الله إذ اختار لنفسه لقبا من سورة الفتح في كلمته الأصلية واختار للمدينة ترجمة قول الله تعالى " فتحا مبينا " وهي " جاياكرتا ". وقد أكرمت السلطات الإندونيسية ذكرى هذا الرجل العظيم بإنشاء جامعة حكومية تحمل اسمه هي جامعة الشريف هداية الله

(١٤٢) انظر " تاريخ سلطنة بانتن " مخطوط باليد بقلم الحبيب أحمد السقاف ، جاكرتا ١٩٤٥ م / ١٣٦٥ هجرية ، ص ١٦ .

(١٤٣) المرجع السابق نفسه ص ١٧ .

(١٤٤) أي " الأرض الحمراء " ، ص ١٩٤ .

(١٤٥) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ١٩٦ – ١٩٧ . لكن المدينة ستسقط لاحقا بيد المسلمين سنة ١٥٧٩ م أي ٩٧٩ هجرية .

(١٤٦) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٥ .

(١٤٧) يشير د . أزيوماردي أزرا في كتابه " شبكة العلماء " ، صفحة ٢١، إلى أن تورط المسلمين العرب و الفرس في العلاقات الدبلوماسية بالأرخبيل ليست قاصرة على المناطق الخاضعة لحكم سري ويجايا، فقد قرر " شاو جو كوا Chau Ju-Kua " في سنة ٣٦٧ هجرية / ٩٧٧ م أنّ هناك مملكة في غرب " بورنيو " أرسلت هي الأخرى سفيرا يحمل اسم " فو آ لي Pu A-li " إلى مملكة الصين التي كانت تحت سيطرة سلالة " سونغ "، و طبقا لـ " هيرث " و " روخيل" فإن اسم " Pu A-li يحتمل جدا ان يكون اسما لتاجر وهو أبو علي ، ويؤيد ذلك ما ورد في تاريخ سلالة " سونغ " (٩٦٠ – ١٢٧٩) الكتاب رقم : ٤٨٩) أنه في السنة نفسها (٢٦٧ هجرية / ٩٧٧ م) أرسلت المملكة " برنيو " الغربية ثلاثة سفراء إلى قصر " سونج " كان أحدهم " فو

لو هيسه Pu lu-hsich " أي أبا عبد الله ، وكان هذا السفير تاجرا عربيا ترسو سفينته في مرسى نهر بوتيو الغربية وطلب منه الملك المحلي أن يكون على رأس الوفد الذي أرسله إلى الصين ، ويذكر ان هذا الملك واسمه " هيانغ تا Hiang -Tu " لم يكن مسلما بعد . وهكذا ، فان التواجد الإسلامي الفردي في بورنيو / كاليمانتان هو قديم جدا ويرجع إلى القرن الرابع الهجري.

(١٤٨) انظر " تاريخ سلطنة بانتن "، ص ٢٣ .

(١٤٩) انظر " شمس الظهيرة " ، ص ٥٢٧ .

(١٥٠) لم تعش تلك السلطنة الا مدة حياة صاحبها

(١٥١) انظر " تاريخ سلطنة بانتن " ، ص ٢٩ .

(١٥٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٩ .

(١٥٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣ .

(١٥٤) انظر : سنوسي فاسي ، " تاريخ إندونيسيا " ،[منشورات بالاي فوستاكا ، جاكرتا ، ١٩٥٠] ، ص ١٨١ . و قد ذكر الدكتور الهولندي دوس ديكر الشيء نفسه في كتابه المعنون بـ" نظرات سريعة في تاريخ إندونيسيا " ، ص ٧٣ .

(١٥٥) الدكتور حمكا ، " تاريخ إندونيسيا " باللغة الإندونيسية ، الجزء الثاني ، مطبوع عام ١٩٦١، ص ١٨٣ – ١٨٤ . وقد ذكر محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح في كتابهما " الإمام المهاجر" في الصفحة ٢٠٣ أسماء السفن العربية التي كانت ترسو في بانتن، وعدّدا منها ما يلي: " هداية الرحمن " – فتح الأرزاق " – " بركة الرسول " – " بيرق " – " جعفر " – " بركة الإسلام " – " فتح السلام " – " نور البحر " .

(١٥٦) ورد ذلك في كتاب " شجرة بانتن " باللغة الهولندية تأليف الدكتور حسين جايا ديننغرات، صفحة ٣٦ . والمعلومات اقتبسها مؤلفا كتاب " الإمام المهاجر " من كتاب د. حسين (صفحة ٢٠٣) .

(١٥٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠٣ .

(١٥٨) انظر: العلامة علوي بن طاهر الحداد ،" المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٩٥ .

(١٥٩) انظر : الدكتور أزيوماردي أزرا ، " شبكة العلماء "، ص ٣٠ .

(١٦٠) انظر " تاريخ سلطنة بانتن " ، ص ٩٥ .

(١٦١) انظر صفحة ٣٠ من كتاب " شبكة العلماء " .

(١٦٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٣١ .

(١٦٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٢ .

(١٦٤) وتؤكد ذلك المصادر البرتغالية . فقد أورد سكرتير الملك البرتغالي بـ" غـوا Gowa " وهو " جورغي دي ليموس Jorge de Lemos " في تقريره إلى ليسبون Lesbon " أن سلطان أتشيه قد تفاوض من جديد مع الخلافة العثمانية للحصول على مساعدة عسكرية للهجوم على البرتغال . وكان السلطان التالي وهو السلطان علاء الدين رعايات شاه (٩٨٨ – ١٠١٣ هجرية / ١٥٨٨ – ١٧٠٤ م) يواصل ما عليه سلفه من تأكيد العلاقات بين البلدين . (انظر المرجع السابق ، صفحة ٣٣) .

(١٦٥) " Indonesian Heritage " ، ص ١٢ .

(١٦٦) Bernard Vlekke، " Nusantara " ، ص ٨٠ ، يقال أن قبائل وثنية هي التي قتلته، ولكني أميل إلى الرأي القائل بأن المسلمين هم الذين قتلوه عندما حاول استفزازهم و التعامل معهم كبدائيين ، شأن تعامل الإسبان مع سكان أمريكا الأصليين .

(١٦٧) Bernard Vlekke، " Nusantara " ، ص ٨٠ .

(١٦٨) ترنايت و تيدور جزيرتان من جزائر الملوك و تقعان إلى الغرب من بحر هلماهيرا.

(١٦٩) Bernard Vlekke، " Nusantara " ، صفحة ٨٠ .

(١٧٠) المصدر السابق نفسه ، ص ٨١ .

(١٧١) المصدر السابق نفسه ، ص ٨١ .

(١٧٢) أوضح د. عادل محيي الدين الآلوسي طبيعة تلك الوثنية المسماة " Animis " {الحيوية} في الصفحة ١٧٩ من كتابه القيم " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " ، منشورات وزارة الثقافة العراقية – سلسلة الدراسات رقم ٣٥٨ ، بغداد ١٩٨٤ . وقد جاء في الصفحة المذكورة أن تلك النزعة الحيوية إنما تشكل الأساس والمنطلق لكل تصورات الإندونيسيين الدينية القديمة القائمة على فكرة أن كل تقلبات الطبيعية ومظاهرها هي نتيجة لعمل قوى ما فوق الطبيعة و أغلبها أرواح شريرة يمكن إرضاؤها وتجنب غضبها بمنتهى الحذر والتعقل، وأن المكونات الأساسية لهذا الدين الإندونيسي البدائي هي :

أ – اعتقاد مفاده أن كل حي و كل شيء له نفس Soul هي قوة حياته والتي هي واحدة عند الجميع ، ولكنها قد تكون أقوى في واحد دون آخر أو أنها أكثر تمركزا في جزء من أجزاء جسم الإنسان منه في جزء آخر ، وأن عادة أكل لحوم البشر Cannibalism وصيد الرؤوس ليست إلا للحصول على مركز قوة الحياة من العدو المقتول .

ب – الاعتقاد بوجود نفس فردية تلازم الشخص الحي طوال حياته ، وعند موته تبقى ملازمة للأماكن التي كان فيها أو ما يجاورها ، وأن هذه النفس لا تنسحب من الاهتمام بشؤون الجماعة بل تبقى مهتمة بها و مشاركة فيها ، وأن هذه النفس تغضب إذا ما خرج الأبناء على عادات الأجداد أو كفوا عن تأدية الواجبات لهذه الأرواح . ولذلك يحرص الإندونيسيون على المحافظة على قيمهم القديمة من خلال عبادة الأجداد و التمسك بالتراث.

(١٧٣) انظر: د. أوكا جاندا ساسميتا، في بحثه المعنون " مجيء وانتشار الإسلام في إندونيسيا " إلى الندوة الدولية حول " مجيء وانتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا " المنعقدة في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٩٩ ، ص ٨ .

(١٧٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٨

(١٧٥) " Nusantara " ، صفحة ٨٦ .

(١٧٦) هو المضيق الذي عبر منه ماجيللان من القارة الأمريكية إلى المحيط الهادي في طريقه إلى بروناي و الفيلبين .

(١٧٧) Bernard Vlekke، " Nusantara " ، ص ٨٦ .

(١٧٨) هي عاصمة الفيلبين حاليا .

(١٧٩) من المعروف أن سكان جزر الملوك مقاتلون أشداء إلى درجة أن طقوس التدريب القتالية عندهم كانت تشكل جزءا من حياتهم اليومية حتى عندما يأكلون . وقد وصفت موسوعة : " INDONESIAN HERITAGE " ، في جزئها المعنون: EARLY MODERN HISTORY

في الصفحات ١٦ – ١٧ – ٦٢ – ٦٣، حياة سكان جزيرة " باندا " كما كانت في عام ١٥٩٨، نقتطف منها ما يلي: "كان الناس يجلسون على شكل حلقة كبيرة، ويقوم أحد الأشخاص بتوزيع الطعام عليهم وذلك بسكب كمية من الرز المطبوخ مع حساء اللحم في ورقة كبيرة من أوراق شجر الموز موضوعة أمام كل شخص بدلا من الصحن. ومع كل شخص قطعة من الخبز يسمونها " ساغو"، ويتناول الناس غذاءهم بأيديهم وهم في غاية السعادة، وذلك بأن يقبضوا

بأيديهم على كمية من الرز ثم يرمون محتويات القبضة في الفم، وخلال ذلك يقوم بعض المحاربين الأشداء من العائلات الكبيرة بتقديم عروض قتالية ". ومن الملاحظ بالنسبة لغذاء سكان أرخبيل الملايو، أنه على الرغم من توفر أنواع عديدة من الأطعمة والفواكه حولهم، فقد كان الناس يفضلون دوما تناول الرز المملح و السمك المملح المجفف وبعض أنواع الحبوب فقط. وبعد عام ١٥٠٠ م صاروا يأكلون البهارات والتوابل الحارة.

(١٨٠) انظر : حسين أمين في مقاله المعنون بـ: "الهجرة العربية إلى الشرق الأقصى" [بيروت – بلا تاريخ]، ص ٥١.

(١٨١) Bernard Vlekke، " Nusantara " ص ٨٥.

(١٨٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥.

(١٨٣) أدى تدخل البرتغال في تلك الجزيرة ونشر الكاثوليكية بين سكانها إلى مذابح مستمرة بين المسلمين والمسيحيين طوال قرون. وقد تكررت المذابح مؤخرا بين طائفتي السكان في الجزيرة إلى درجة أضحت تهدد وحدة وسلامة أراضي إندونيسيا

(١٨٤) Bernard Vlekke، " Nusantara "، ص ٨٤.

(١٨٥) " Indonesian Heritage " الجزء المعنون بـ: "The Early Modern History" ، الصفحة ٥٧

(١٨٦) انظر Bernard Vlekke، " Nusantara " ص ٨٤.

(١٨٧) زار مبشر ديني كاثوليكي ايطالي الجزيرة في ذلك العهد و لاحظ أن اثنتين و سبعين جزيرة من جزر الملوك وما حولها تدين بالطاعة للسلطان بابُ الله. {انظر " Nusantara "، ص ٨٨ }.

(١٨٨) المرجع السابق نفسه، ص ٨٨.

(١٨٩) أشرنا في ملاحظة سابقة إلى أن الكلمة تعني الاسم القديم لإندونيسيا وأن كلمة " نوسانتارا " هي اصطلاح ورد في مؤلفات جاوية بمعنى جاوا وبالي، وكان أول من استعملها الفيلولوجي الهولندي براندس Brandes في دراسته الفيلولوجية العلمية عن إندونيسيا عام ١٨٨٩ م، ثم ورد استعمال المصطلح على يد المؤرخ الهولندي دوس ديكر Douwes Dekker عام ١٩٣٠ و بعده فليكه Vlekke عام ١٩٦٥ على أساس أن جاوا و بالي هما مادة أساسية لدراسة تاريخ عموم إندونيسيا.

(١٩٠) – تشير المراجع الغربية إلى أن تحول أولئك الملوك إلى الإسلام قد تم في عام ١٠٠٠ هجري، غير أن الكثير من المراجع الإسلامية يشير إلى انتشار الإسلام في تلك البقع منذ عام ٨٠٠ هجري عندما تم إنشاء دولة البوقيس في مكاسر.

(١٩١) ورد ذلك في موسوعة " Indonesian Heritage " الجزء المعنون بـ: " The Early Modern History " ص ١٢.

(١٩٢) خلف السلطان حسن الدين من زوجاته ستة أولاد هم :

١ – فغيران يوسف
٢ – فغيران أوفاني
٣ – فغيران سندليكا
٤ – فغيران مندورا
٥ – فغيران أريا رانا منغالا
٦ – فغيران قاباع.

{انظر "تاريخ سلطنة بانتن"، ص ٣٦ }.

(١٩٣) ذكر د. أوكا جاندرا ساسميتا في بحثه المعنون بـ: "مجيء وانتشار الإسلام في إندونيسيا" الآنف الذكر أن السلطان يوسف كان يدرس في الرباط المدرسي " بيسانترين " الواقع في " كمبونغ

دوكوه كاسونياتان " في بانتن ، حيث تعلم على يد الأستاذ كياي دوكوه الذي كان قد تتلمذ بدوره على يد مولانا شريف هداية الله . (انظر صفحة ١٠ من البحث المذكور) .

(١٩٤) انظر محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٠٣ .

(١٩٥) الواقع انه بعد مقتل " فرابو سيدا " في المعركة، توجهت فلول من أتباعه إلى الجبال التي تعرف الآن باسم " بدوي ". ويقول محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح في كتابهما " الإمام المهاجر " أن المسلمين شبهوا هؤلاء الناس بالبدو لابتعادهم عن الحضر ، وهم الآن في أشعارهم وأغانيهم يذكرون فاجاجاران بحنين قوي ويعتقدون أن ملكهم " فرابو سيليواغي " لم يمت بل يعيش في عالم أخر إلى أجل قادم. وتوجد مثل تلك القناعات لدى فئة من غلاة المسلمين الشيعيين أيضا .

(١٩٦) انظر : الحبيب أحمد السقاف ، " تاريخ سلطنة بانتن "، ص ٥٣ .

(١٩٧) الواقع أن ازدهار التجارة في جنوب شرق أسيا قبل وبعد الصدام الحضاري مع الإسبان والبرتغال قد حمل معه أيضا أشياء ايجابية وتغيرات عميقة في سلوك الناس. فقد أصبحت السفن الحربية تزود بالمدافع النارية، وكبر حجم السفن، وصار الحكام والناس يرتدون ملابس جديدة بفضل النسيج الهندي والحرير الصيني، كما صار اقتناء أواني الخزف الصينية ترفا مطلوبا لدى كل الأغنياء والأثرياء. ولم تعد السفن تنتظر هبوب الرياح الموسمية المناسبة للسفر، بل تحسن أداء الملاحين بفعل اختراع البوصلة ، فصار السفر متيسرا أكثر من ذي قبل، والرحلات أسرع و بالتالي عائدات التجارة و ربحها صارت أسرع و أكثر وتيرة عما كانت عليه من ذي قبل .

(١٩٨) السيد علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٩٠، حيث يقول المؤلف: إن مجيء خبراء أتراك في صناعة البنادق و المدافع لم يكن مفيدا بسبب عدم توفر معدن الحديد في إندونيسيا .

(١٩٩) المرجع السابق ، ص ٣٩٠ .

(٢٠٠) محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٢٠٥ .

(٢٠١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠٦، حيث ينقل المؤلف على لسان المستشرق الهولندي دويس ديكر أن صناعة السفن تقدمت إذ ذاك في بانتن ونشطت الملاحة، وأن المساجد تبنى بالأجر والحجر مع رصف البلاط في قاعاتها. وتتخذ تلك المساجد مدارس لتعليم الصغار القرآن والكتابة والحساب واللغة العربية .

(٢٠٢) " Nusantara " ، الصفحة ٨٩ .وكلمة " سينوباتي Senopati " تعني قائد الجيش أو القائد .

(٢٠٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٠ .

(٢٠٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٠ .

(٢٠٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٠ .

(٢٠٦) أورد برنارد فليكه نص الاتفاق بين سلطان بانتن و أمير هولندا موريس دي نساو في الصفحة ٩٣ من كتابه " Nusantara " ، ونص الاتفاق ورد كالآتي :

" As it pleased God، our Lord، and you، Sirs، that you came to visit us with four ships، and as we have seen the patent letter which His Excelency، Prince Maurice of Nassau، graciously ordered shoun to us، by which letter we learn that His Excellency offers all friendship and alliance to us which friendship is to be confirmed by you، we are well content to have a permanent league of alliance and friendship with His Highness the Prince and with you، gentlemen، and we swear to maintain this friendship and alliance and to order all our subjects to do the same .

(٢٠٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٦ .

(٢٠٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٦ .

(٢٠٩) هذا أول اتصال غربي باليابان قبل إعلان اليابان حدودها مع الخارج في عام ١٦٣٥م أي ١٠٣٥ هجري، ثم بتقييد التجارة اليابانية مع الخارج بميناء ناغازاكي وحصر التعامل بالهولنديين و الصينيين فقط .

(٢١٠) بقي في الأسر سنتين تعلم خلالهما اللغة الملايوية وألّف قاموسا هولنديا – ملايويا خلال سجنه، وأطلق سراحه وبقية الأسرى بخطاب رجاء من حكومة هولندا . {انظر " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٩١ } .

(٢١١) انظر : الحبيب أحمد السقاف، " تاريخ سلطنة بانتن "، ص ٦٢. وسينوباتي هذا ابن "باماناهان [*Pamanahan*] " أحد النبلاء وكان السلطان باجانغ [*Pajang*] قد أعطاه إقطاعة ليديرها. وقد أناط السلطان بسينوباتي هذا منصب قائد الجيش. ولكن سينوباتي سرعان ما انقضّ على السلطان فأزاحه واستلم الحكم مكانه ووسع حدود المملكة من تشيربون إلى باليمبانغ، ومن ضمنها مـدن مثل مديون[*Madiun*] و كاديري [*Kediri*].

(٢١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٢ .

(٢١٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٢ .

(٢١٤) هو ابن " راتو باقوس أنكي " و " راتو فمبايون " التي هي سبطة حسن الدين وابنة فغيران "قاجاجاران " { تاريخ سلطنة بانتن ، ص ٧٥ }.

(٢١٥) قطعة الأرض التي كانت مساحتها ٩٤ مترا عام ١٠١٠ هجري صارت بعد ١٧٦ سنة تعادل مساحة مادورا و جاوا بكاملها أي ٥٠٠ر١٣١ ألف كم مربع . وقد أوضح ذلك الحبيب أحمد السقاف في كتابه " تاريخ سلطنة بانتن " ، ففي الصفحة ٩٩ من الكتاب ورد ما يلي :

– اشترت هولندا تلك القطعة في جاكرتا	عام ١٦١٠
– ثم استولت على جاكرتا بعد ٩ سنوات	عام ١٦١٩
– واستولت على كراواغ	عام ١٦٧٧
– واستولت على سمارانغ	عام ١٦٧٨
– واستولت على شربون و بريغن	عام ١٧٠٥
– واستولت على مدورة وتوبان و جرنا ورمبنغ	عام ١٧٤٣
– واستولت على ثغل فيكالوغان	عام ١٧٤٦
– واستولت على بانتن	عام ١٧٥٢
– واستولت على ماترام عام ١٧٤٩ ثم صولو وجكجا	عام ١٧٥٥
– واستولت على بانيوواغي	عام ١٧٧٧

(٢١٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٥ .

(٢١٧) انظر : الحبيب أحمد السقاف، " تاريخ سلطنة بانتن " ، ص ٧٩ .

(٢١٨) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ١١٥ .

البـــــاب العاشـــــر

فـــي الملايـــــــو

على طريق النصر

[تكامل في السراء والضراء]

أدى نجاح الهولنديين إلى توقيع أمراء آخرين معاهدات تحالف معهم ضد البرتغاليين. ففي عام ١٠٠٠ هجري تم التوقيع على معاهدة تحالف بين القبطان "ستيفن فان ديرهاغن " وسلطان أمبون يقوم الهولنديون بمقتضاها ببناء قلعة في أمبون[*Ambon*] وحماية الجزيرة من البرتغاليين مقابل احتكارهم تجارة البهارات[1] وقد طلب الأمراء والسلاطين في جزر الملوك معلومات عن هولندا وسألوا عن ملكها القوي الذي استطاع تحدي البرتغال والقضاء على نفوذها في الملايو ولم يكونوا عارفين أنَّ هولندا لا يحكمها ملك بل هي مجموعة من الجمهوريات. واضطر الهولنديون إلى الكذب على الملايويين قائلين لهم إن ملك هولندا يدعى " موريس " الذي هو عمليا أمير مقاطعة "أورنج " لا غير[2]. وفي عام ١٠٠٢ هجري هاجم البرتغاليون اليائسون بقيادة القبطان " فورتا دودي ميندوزا " السفن الهولندية قرب بانتن ولكنهم خسروا المعركة وانهزموا مجددا فانسحبوا إلى ملقا وتعزز بذلك موقف الهولنديين السياسي وكسبوا المعركة التجارية أيضاً، فقرروا إنشاء شركة الهند الشرقية في عام ١٠٠٢ هجري لاحتكار كل أنواع التجارة بين أوروبا وجزر الهند الشرقية. ولم يكن أسطول الشركة تجارياً بحتا، بل عسكريا أيضا، إذ صدرت الأوامر إلى قادة الأسطول بإخراج البرتغاليين نهائيا من المنطقة. فهاجم القبطان الهولندي " فان ديرهاغن " البرتغاليين في جوهور وأمبون وتيدور وأخرجهم منها وعقد سلسلة من المعاهدات التحالفية مع سلاطين تلك الجزر. واتفق القبطان مع سلطان جوهور على العمل سوية ضد البرتغاليين في ملقا على أساس دخول ملقا تحت سيطرة شركة الهند الشرقية إذا تم تحريرها من البرتغاليين، وهاجمها القبطان بالتعاون مع سلطان جوهور وملقا ولكنهما لم يفلحا في إخراج البرتغاليين منها[3].

وفي الوقت نفسه كان أسطول إسباني قادم من مانيلا يهاجم مواقع الهولنديين في جزر الملوك ويقضي على حليفهم سلطان ترنايت المسلم، وهكذا تحول التنافس بين

الأوروبيين على جزر أرخبيل الملايو إلى حروب ضروس سالت فيها دماء الجميع فوق مياه تلك الجزر[٤]. وكان الخاسرَ الأكبرَ في تلك الحروب السكانُ المسلمون في المنطقة الذين تخلصوا من البرتغاليين ليقعوا تحت قبضة الهولنديين[٥]، فكانوا كما يقول المثل العربي كالمستجير من الرمضاء بالنار.

تزامن تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية مع وفاة السلطان "سينوباتي" سلطان ماتارام في عام ١٠٠١ هجري، ومع تأسيس الإنكليز مركزاً لهم في بانتن بعد ذلك بعام، أي في عام ١٠٠٢ هجري. ولم يحدث احتكاك عدائي بين الهولنديين والإنكليز البروتستانت، وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن يتآزرا في وجه البرتغال والإسبان الكاثوليك[٦]، لكن الهولنديين أبدوا شيئا من التسامح مع الإسبان في ترنايت عندما وصلت إلى الجزيرة سفن إسبانية حربية في عام ١٠٠٦ هجري قادمة من مانيلا فهاجمت الجزيرة وأسرت سلطانها وولي عهده وكبار وجهاء القوم وأرسلتهم إلى مانيلا. ولم يتحرك الهولنديون لنجدة حلفائهم من السكان الأصليين الملايويين. وهكذا تم تقسيم الجزيرة عمليا إلى قسمين يحكمهما كل من الإسبان في الشرق والهولنديين في الغرب[٧].

وازدادت الانقسامات السياسية في جاوا وكثر عدد السلطنات. فقد انقسمت سلطنة ديماك إلى أربعة برز منها سلطنة ماتارام بقيادة " سينوباتي"[٨] الذي توفي فخلفه ابنه " جولنغ الثاني [*Jolang II*]" ، ثم حفيده الأمير " رانغسانغ [*Rangsang*]" الذي تابع مسيرة جده فوسّع مملكته واحتل سورابايا[*Surabaya*] في عام ١٠٠٢ هجري بعد ضرب الحصار عليها لسنوات طويلة، وخلع على نفسه لقب "سوسوهونان [*Susuhunan*]". وأما في سلطنة بانتن، فقد حيَّد الأمير "رانا مانغالا" سلطان بانتن الصغير عبد القادر في عام ١٠٠٩ هجري وصار هو الوصي الوحيد على العرش والحاكم الفعلي للبلاد.

وكانت حركته تلك مبعثها استياؤه من التنازلات العديدة التي قدمها السلطان الصغير للإنكليز والهولنديين[٩] والتي أدت إلى تدهور دخول السلطنة والتجار من الأرباح التي تدرها تجارة التوابل. لذلك فإنّ أول قرار اتخذه الأمير" رانا مانغالا [*Rana Manggala*]" كان فرض رقابة قاسية على تجارة الفلفل . وبطبيعة الحال فإن شركة الهند الشرقية الهولندية عارضت سيطرة الأمير على الحكم وبدأت تتآمر على حكمه للإطاحة به[١٠].

ولما كان الشريف "رانغسانغ " والأمير" رانا مانغالا" يعتملهما الطموح نفسه للهيمنة على كل جاوا، فقد كان حتميا أن يصطدما في طريقهما لتحقيق طموحاتهما وأن تحاول شركة الهند الشرقية الاستفادة من هذا التنافس. وكان على الطريق بين بانتن وماتارام مدينة جاياكرتا[*Jayakarta*] التي كان قد أسسها الشريف هداية الله، فأمر الحاكم

العام لشركة الهند الشرقية " كوين " سفنه بالاستيلاء على المدينة وتغيير اسمها إلى "بتافيا [*Batavia*] " وكانت جاياكرتا تابعة آنذاك لسلطنة بانتن. وعوضا عن أن يتابع الشريف " رانغسانغ " مسيره نحو بانتن، عاد أدراجه وهاجم الهولنديين في جاياكرتا التي تقع على مسافة بعيدة من عاصمة[١١] ملكه مراراً وتكراراً دونما فائدة بسبب بُعد خطوط تموين قواته عن ساحة المعركة. واستمر حصاره للمدينة حتى عام ١٠٢٨ هجري عندما غير وجهة مسيره فعاد نحو الشرق في فاليمبانغ، وكانت آخر معقل من معاقل الهندوسية في جاوا. وكان حاكم بالي الهندوسي "جلجل" يمدها بأنواع الدعم كافة، غير أن الشريف " رانغسانغ " حاصرها طويلا حتى سقطت بيده[١٢] في عام ١٠٤٠ هجري فتحولت جاوا بأكملها إلى أرض إسلامية من أقصى شرقها إلى أقصى غربها[١٣].

وقبل أن يتم النصر الساحق على " فاليمبانغ " أرسل الأمير الشريف "رانغسانغ" وفداً إلى مكة سنة ١٠٥١ ركب أفراده سفينة إنكليزية متجهة إلى "سورات " *Surat* بالهند، ومن هناك ركبوا سفينة من سفن المسلمين المتجهة إلى جدة. وكما هو متوقع فان شريف مكة استجاب لطلب الأمير فمنحه لقب " السلطان " واشتهر الأمير منذ ذلك الحين باسم " سلطان أقونغ[*Sultan Agung*]" الذي عدّل نظام التاريخ الجاوي لينسجم مع التاريخ الهجري[١٤] وأرسل بعد مرور سنة بعثة كانت تضم مجموعة من الجاويين لأداء فريضة الحج على نفقته محملا إياهم هدايا لشريف مكة تعبيراً عن شكره وتقديره لما منحه إياه شريف مكة من لقب سامٍ. ولكن السفينة الإنكليزية التي كانت تحملهم تعرضت لهجوم من القوات البحرية الهولندية قرب شواطئ " باتافيا[*Batavia*]"، وكان الرجل الوحيد الذي تم إنقاذه في هذا الهجوم قد أسرته القوات الهولندية ثم أعادته إلى "ماتارام " وأوصته أن يبلغ السلطان الشروط التي حددتها هولندا للسماح لمرور رحلة الحجاج من جاوا على شواطئ " باتافيا". وكان أول هذه الشروط أن تحرر مملكة "ماتارام " أسرى الهولنديين لديها. وقد أغضبت السلطانَ هذه المعاملة فأصدر أوامره بأن يُرمى "أنطونيو باولو *Antonio Paulo* رئيس الأسرى الهولنديين إلى التمساح فيأكله[١٥].

وأصبح السلطان " أقونغ[Agung]" رمزا لقوة جاوا ولمنعة جزر الملايو خاصة وأن مؤامرات شركة الهند الشرقية ضد الأمير " راما مانغالا " نجحت في نهاية المطاف في القضاء على سيطرته وإعادتها إلى السلطان عبد القادر في عام ١٠٢٤ هجري فتحسنت بذلك العلاقات بين بانتن والهولنديين. غير أن الإنكليز لم يتركوا المجال رحبا لهيمنة الهولنديين فقد جعلوا من باتافيا [جاياكرتا] مركزا رئيسيا لتجارتهم في جزر الملايو، وعقدوا اتفاقا مع السلطان عبد القادر يمنعون بموجبه أي محاولة يقوم بها الهولنديون لضرب الحصار البحري على المدينة. فازدهرت سلطنة بانتن ازدهاراً كبيرا بلغ ذروته في عام ١٠٧٠ في عهد السلطان عبد الفتاح أقونغ ومستشاره

الصيني الشهير "كايتسو"[١٦]، خصوصا وأن السلطان أقونغ توفي في ماتارام في عام ١٠٤٥ هجري و دفن في قمة جبل تدعى "إيموجيري[*Imogiri*] " وخلفه ابنه "أمنكورات الأول[*Amangkurat I*] " الذي أطلق على نفسه لقب " فغيران أريو فرابو أدي ماتارام [*Pangeran Aryo Prabu Adi Mataram*]" والذي عين مباشرة "جكرانغرات الثاني [*Cakraningrat II*] " ابن "جكرانغرات الأول" [*Cakraningrat I*] واليا على "مادورا" . وكان أول عمل سياسي قام به السلطان " منكورات الأول " هو تعزيز التحالف مع الهولنديين وإعداد العدة لمهاجمة بانتن، وعمد إلى ذبح العلماء المسلمين الذين عارضوا توجهه هذا[١٧]، فثارت الجماهير ضده بزعامة المجاهد "ترونو جويو [*Trunojoyo*]" بدعم من المجاهد " كاريغ فاليسووع " من مكاسر و تأييد من "سونن قيري " وسلطان بانتن. وحرر المجاهد " ترونوجويو " مادورا واستقل بأمرها، فاستنجد " أمنكورات الأول " بالهولنديين الذين انهزموا أمام مقاومة الثائرين، فطلبوا التفاوض مع القائد "ترونو جويو" الذي رفض التفاوض واستولى على ديماك وسمارانغ في عام ١٠٧٦ هجري. وإزاء ذلك لم يجد "أمنكورات الأول" طريقة للحصول على مساعدة الهولنديين بقوة سوى عقد معاهدة معهم تضمن لهم تحمل السلطان مصاريف الجيش الهولندي مقابل القضاء على الثورة. وقد تم ذلك بعد القبض على المجاهد " ترونو جويو " والسير به أسيرا إلى " أمنكورات الأول " الذي قتله بيده قبل أن يختل عقله بقليل و يهيم على وجهه في البراري حتى مات فيها[١٨].

وأما في آتشيه وباساي وسمودرا، فقد توفي السلطان علاء الدين رعاية شاه سيد المكمل في عام ١٠٠٤ هجري بعد حكم حديدي قضى خلاله على معظم خصومه في الداخل ومن بينهم العديد من كبار التجار والنبلاء الذين كانوا يحيكون المؤامرات في السابق ضد السلاطين فأدى ذلك إلى تراجع أهمية ميناء آتشيه التجارية وفرار كبار التجار من المدينة[١٩]. ولكي يعوض تلك الخسائر عمد السلطان إلى الترحيب بالإنكليز والهولنديين في مرافئه على أمل أن تمتلئ خزائنه بالذهب ويبعد الخطر البرتغالي عنه[٢٠]. ولما توفي السلطان علاء الدين خلفه حفيده السلطان إسكندر المعروف بتدريبه جيشاً خاصاً مؤلفاً من الفيلة والذي حاول عبثا احتكار تجارة البهارات مستخدماً الإنكليز والهولنديين والفرنسيين[٢١] ضد تجار كوجرات الهنود والعرب والإيرانيين، ثم شن هجوما عنيفاً وشاملا ضد البرتغاليين المتحصنين في ملقا في عام ١٠٢٩ هجري ففشل في تدمير قلاعهم وإخراجهم من تحصيناتهم المنيعة. وعزز هذا السلطان علاقاته مع الدول الإسلامية في الهند والحجاز، كما أرسل سفارة إلى السلطان العثماني في ثلاث سفن محملة بالهدايا الثمينة طالبا المساعدة العسكرية ضد البرتغاليين. ووصلت السفن إلى إسطنبول بعد رحلة بحرية استغرقت عامين ونصف عام عن طريق " تانجونغ بينهارابان *Tanjung Pengharapan* [رأس الرجاء

الصالح}. وعندما رجع الوفد إلى آتشيه أعطوا عدداً من الأسلحة واثني عشر خبيراً عسكريا وخطاباً أشادت فيه الخلافة العثمانية بالعلاقة بين البلدين وأكدت استمرار العلاقة الدبلوماسية التي كانت موجودة من قبل. وقد اعتبر أولئك الخبراء العسكريون أبطال آتشيه حيث سيساعدون السلطان "إسكندر مودا [Iskandar Muda]" على إقامة قلعته المتينة في آتشيه(٢٢).

وكانت العلاقات مع الدولة العثمانية قد بدأت منذ عهد السلطان عبد القهار الذي بعث وفدا إلى السلطان العثماني مصطفى، فعادت السفن محملة بالأسلحة والصناع وأربعين ضابطاً مدفعياً، وكذلك بوسام شرف عثماني للسلطان في آتشيه(٢٣).

توفي السلطان إسكندر مودا في عام ١٠٣٧ هجري فتولى خلافته صهره وزوج ابنته تاج العلم، الأمير إسكندر الثاني بن أحمد بن عبد القادر بن زين العابدين الذي كان معروفاً بتقواه وورعه وبميله للفقه لا للتصوف وتتلمذ في ذلك على يد شيخ الإسلام في آتشيه نور الدين الرانيري [Nuruddin Ar-Raniri] وهو من الهند. فكان أول قرار اتخذه السلطان الجديد هو فرض الشريعة الإسلامية على السلطنة وإعدام الكثير من البرتغاليين الأسرى الذين رفضوا أن يتحولوا إلى دين الإسلام(٢٤)، واتهام العلماء السابقين في عهد السلطان إسكندر مودا بالضلال والفتنة وإصدار الدعوات لقتلهم وحرق كتبهم أمام جامع بيت الرحمن في "بندا آتشيه". وكان من بين أولئك العلماء اثنان من كبار الصوفيين في آتشيه هما حمزة الفانصوري [*Hamzah Al-Fansuri*] وشمس الدين السومطراني[*Syamsuddin As-Sumatroni*] (٢٥).

ولم يهتم السلطان إسكندر الثاني بالدين فقط بل شهد عهده حركة تجارية مزدهرة، وعادت السفن إلى مرافئ آتشيه مجددا بعد انقطاع طويل بسبب الحرب مع البرتغاليين، وأنشأ السلطان الحدائق الملكية(٢٦) الرائعة ذات الطراز الإسلامي الملايوي المتأثر باللمسات المعمارية الهندية(٢٧). ولما توفي السلطان إسكندر الثاني في عام ١٠٤١ تولت بعده السلطانة صفية الدين بنت إسكندر موداء فكانت تلك المرأة هي الحالة الرابعة في التاريخ الإسلامي بعد رضية في الهند وشجرة الدر في مصر وخديجة في جزائر ذيبة المهل [*Maladewa*]. وسارت السلطانة صفية الدين على هدي أبيها في النظام والعدل والإصلاح، وأنشأت مجلسا للشورى جعلت فيه نواب المناطق ومن بينهم ثماني عشرة امرأة(٢٨). وأبقت السلطانة الشيخ الرانيري شيخاً للإسلام، وأرسلت شركة الهند الشرقية ممثلا عنها يدعى " بيتر سوريج " للتفاوض مع سلطانة آتشيه صفية الدين التي دعت الممثل التجاري الهولندي إلى حضور جلسة لمجلسها الاستشاري حيث تجري مناظرة بين شيخ الإسلام وعالم آخر يدعى سيف الرجال قدم من مدينة سورات بالهند بعد دراسته هناك على أيدي كبار العلماء، ولكنه أصلا من مدينة مينانغكابو [*Minangkabau*] في سومطرة الغربية. وكان أستاذ هذا القادم الجديد قد

طرد من آتشيه في عهد السلطان إسكندر الثاني بسبب آرائه التي وصفها الرانيري بالضالة والمنحرفة. والمهم أن سيف الرجال عاد بعد ذلك واستطاع استمالة قلوب الناس وصار له مريدوه وأتباعه.

وبدأت المناظرة بين العالمين بحضور المبعوث الهولندي، ثم تحولت المناظرة إلى جدل عقيم أوقع السلطانة في حرج كبير لأنه تطرق إلى مسألة صلاحية أن تحكم المرأة في الإسلام. فأوقفت السلطانة المناظرة[٢٩]، وأصبحت المسألة تنذر بخطر الفرقة. ولم يستطع المجلس الاستشاري والوزراء إيجاد حل لها فرفعوها إلى السلطانة نفسها لكي تبت فيها، لكنها رفضتها بحكمة لقصور معرفتها بمثل هذه المسائل الدينية، وأحالت القضية إلى مجلس العرف[٣٠] الذي اعتذر عن الإفتاء بدوره، فسادت فوضى سياسية ودينية في البلاد مما حدا بالتاجر الهولندي إلى أن يشتكي لدى السلطانة من التأخير الذي أصاب شؤونه التجارية نتيجة الفوضى[٣١]. وإزاء هذا الوضع عمدت السلطانة إلى البت بنفسها في المسألة فاستدعت سيف الرجال إلى القصر وعاملته بكل احترام مغلقة الباب أمام الرانيري الذي لم يجد بدا من مغادرة البلاد في عام ١٠٥٤ هجري متجها إلى مسقط رأسه في بلدة رانهير في كوجرات بالهند حيث مات بعد ذلك بأعوام[٣٢]. ولكن المعركة بين الفقه والتصوف في آتشيه لم تنته برحيل الرانهيري عنها. ففي عام ١٠٦١ هجري عاد من مكة المكرمة شيخ آتشوي هو عبد الرؤوف السنكلي بعد أن أمضى فيها عشرين عاما تتلمذ خلالها على أيدي أنصار الفقه، فاشتعلت المجابهة من جديد بينه وبين سيف الرجال، وانقسم الناس إلى معسكرين متنافرين[٣٣].

في الوقت الذي كانت تجري فيه المناظرات الدينية في آتشيه، كان الهولنديون يعززون قبضتهم على جزر الملايو تجارياً وسياسياً وعسكريا. ووصل عدد سفنهم العاملة في مياه تلك الجزر إلى /٢٥٧/ سفينة في عام ١٠٦٠ هجري[٣٤]. وقد مكن هذا التركيز البحري الهائل شركة الهند الشرقية من السيطرة على معظم التجارة في جزر الملايو وما حولها، خصوصا أن النفوذ الإنكليزي قد تراجع بعض الشيء بفعل الثورة التي قام بها كرومويل في لندن ونجاحه في القضاء على التاج البريطاني في عام ١٠٤٢ هجري، كما أن الصين شهدت تغيرات عميقة في عام ١٠٤٤ هجري عندما انتهت سيطرة سلالة "مينغ" وبدأت سيطرة سلالة " تسينغ " { المنشورية}[٣٥]، وهي السلالة التي اضطهدت المسلمين في الصين بعدما وقف قائدان مسلمان إلى جانب الأمير " يتجان وانغ " آخر أمراء سلالة " مينغ " وساعداه في ثورة فاعلة لاسترداد العرش المفقود من أيدي المنشوريين، كان أحدهما يسمى " تنغ كو تونغ " والآخر " ميرا اين ". فقد رفعا لواء العصيان في قانصو في السنة الخامسة من جلوس الإمبراطور "هيون جي " في عام ٩٤٨ هجري واستوليا على مدينة " كونجانغ".

فانتبهت الأسرة الحاكمة الجديدة وهي "تسنغ" إلى هذا الحادث الخطير وبعثت على الفور بالمارشال "مونغ جيو فانغ " لقمع الثورة. وفي معركة وقعت بقرب " لانتشو " قتل " ميرا اين " والأمير " *ينجان وانج* ". غير أن القائد " *تنغ كو تونغ* " استطاع الهرب إلى كانتشو. وفي عام ٩٤٩ هجري اتصل هذا القائد بالأمير " تور تاي بن بابر خان " أمير هامي بشرق تركستان الصينية وحالفه سراً. فدخل الأمير *تورتاي* بجيشه مضيق " *جيا كو كوانج* " وهاجم " *سوتشو* ". وقد كان القائد " *تنغ* " يساعده في ذلك، غير أنهما قتلا في نهاية الأمر على أيدي الجيش المنشوري الذي كان يتفوق عليهما كثيرا في السلاح والعتاد. وهلك معهما خمسة آلاف من المسلمين في هذه المعركة الوحيدة(٣٦).

ولم تكن الثورات ضد حكم سلالة " *تسنغ* " تهب من جانب المسلمين الصينيين فحسب، بل إن جزيرة تايوان ثارت ضدهم أيضا، فتأثرت الحركة التجارية الصينية مع الخارج وصار مرفأ " *كسيامن* " المركز الرئيسي للتجارة الصينية، ولم يكن هذا المرفأ قد خضع بعد لسلطة السلالة المنشورية الجديدة(٣٧).

وأما *سولاويسي* فقد كان يسكنها ثلاثة شعوب: المكاسريون في جنوب غرب الجزيرة، والماندريون في الشمال الغربي، والبوقيسيون الذين هم الغالبية ويسكنون معظم مناطق الجزيرة الأخرى. وقد دخل الإسلام إلى الجزيرة على يد الدعاة المسلمين القادمين من آتشيه(٣٨). وتميزت الحياة السياسية في الجزيرة طوال الفترة من ١٠٠٠ هجرية إلى ١٠٦٩ هجرية بسيطرة سلالة "غوا – تاللو" على مقدرات الجزيرة، الأمر الذي دفع بالبوقيس من مملكة " بون [*Bone*]" إلى التحالف مع شركة الهند الشرقية لتدمير مكاسر في عام ١٠٦٩ هجري. فأدى ذلك التحالف إلى ثلاث نتائج هامة: الأولى هي سيطرة شركة الهند الشرقية الهولندية على مكاسر، والثانية هي أن مملكة " بون" أصبحت أهم مملكة في جنوب غرب سولاويسي بسبب دعم الهولنديين لها. والثالثة هي تشريد شعب البوقيس وخاصة أتباع التاجر" واجو [*Wajo*]" الذي كان قد تحالف مع غوا المكاسرية ضد البوقيس مملكة البون عندما نشبت الحرب بين الطرفين. وقد هاجر شعب البوقيس إلى جاوا حيث انخرط محاربوه في الصراعات التي جرت في ماتارام، كما هاجر قسم آخر برئاسة محارب فذ يُدعى *"داينغ Daeng مانغيكا"* إلى جزيرة ريو *Riau* قرب ملقا، التي أصبحت مقر قيادة سلطان جوهور المسلم إبراهيم، وعرضوا مساعدتهم للسلطان ضد البرتغال(٣٩) في عام ١٠٧٩ هجري.

وقد نجح التحالف بين البوقيس وسلطان جوهور إلى درجة تعيين المحارب البوقيسي الشجاع " داينغ باراني *Daeng Barani*" نائبا للسلطان عبد الجليل في ريو في عام ١١٢٢ هجري(٤٠). وهكذا فقد انخرط البوقيس بعد تشريدهم من بلادهم في سولاويسي في النزاعات والحروب كافة التي نشبت في أرخبيل الملايو في القرن

الحادي عشر الهجري، وبرزوا بشكل خاص في مقاومتهم للاحتلال الهولندي بقيادة محاربين وقادة ملاويين تتلمذوا على يد علماء مثل السيد الصوفي باعلوي بن عبد الله في قرية "بونتو الا" وجلال الدين العيديد الذي قدم من آتشيه إلى كوتاي في بورنيو قبل أن يستقر في " شينكوانغ:، و"دايانغ تاسامانغ "[٤١]. وقد تتلمذ على يد هؤلاء شباب من أبناء بوقيس يدعى محمد يوسف المقاسيري {نسبة إلى مكاسر} في سولاويسي[٤٢] اعتاد الناس على مناداته باسم " شيخنا العظيم من غوا "[٤٣] وذلك بعد أن انتقل من " شيكوانغ " إلى مدينة "غوا" عاصمة السلطان علاء الدين المعروف محليا باسم "مانغارانغي داينغ مورايا " نظرا لصلة القرابة التي كانت تربط بين السلطان ووالدة الشيخ المقاسري[٤٤]. وتزوج الشيخ ابنة السلطان "ستي داينغ نسانغا"[٤٥] ثم استأذن السلطان بالذهاب إلى مكة المكرمة لمواصلة تعلُّمه الديني فأذن له[٤٦] فغادر الشيخ مدينة مكاسر[٤٧] متوجها إلى الجزيرة العربية في عام ١٠٥٤ هجري على متن سفينة ملايوية توقفت في بانتن التي كان يحكمها السلطان عبد القادر بعد أن أعاده الهولنديون إلى الحكم، والذي خاطب شريف مكة عام ١٠٤٨ هجري لمنحه لقب سلطان ففعل أسوة بما حصل عليه السلطان آقونغ سلطان ماتارام. وفي بانتن بنى الشيخ السلطان عبد القادر الأمير " سورية [*Surya*]" [٤٨]، ثم توجه إلى آتشيه حيث اجتمع بالشيخ الرانيري[٤٩] وتأثر به بالغ التأثر وخاصة في مسألة معاداة فكرة وحدة الوجود التي أسسها ابن عربي[٥٠] وفي معاداة الهولنديين والبرتغاليين .

ومن آتشيه توجه المقاسري إلى كوجرات في الهند ومنها إلى اليمن حيث درس على يد زبيد علي محمد بن عبد الباقي النقشبندي وسيد علي الزبيدي ومحمد الوجيه السعدي اليمني[٥١]. كما التقى بحضرموت بشيوخ الطالبيين الذين كانوا قد بقوا في تريم. وكان قد تسلسل منهم منذ وفاة عميد نقابتهم الإمام عبد الرحمن السقاف في عام ٨١٩ هجري، ابن الإمام المذكور أبي بكر عبد الرحمن[٥٢] ثم الإمام عمر المحضار[٥٣] ثم الإمام عبد الله العيدروس[٥٤] ثم الإمام علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن[٥٥] ثم الإمام أبي بكر بن عبد الله العيدروس[٥٦] ثم الإمام أحمد بن علوي باحجدب[٥٧] وبعده الإمام زين العابدين علي[٥٨] وعلى أثره الإمام محمد المصطفى[٥٩] الذي كان نقيب الطالبيين وقت مجيء الشيخ المقاسري، واغتنم الفرصة للسؤال عن أقاربه وأهله في الهند وجزر الملايو فطمأنه الشيخ المقاسري إلى أنهم بخير وأنهم موزعون في معظم الجزر ويقومون بأمر الدعوة الإسلامية خير قيام. فحمد الإمام محمد المصطفى الله سبحانه وتعالى وأثنى كل الثناء على بني عمومته وأحفاده الذين اختاروا الهجرة منذ زمن بعيد فرارا من الاضطهاد ونشراً لدين الإسلام[٦٠]. ومن اليمن انتقل المقاسري إلى مكة المكرمة والمدينة فاجتمع هناك بشيخ اخر من اتشيه هو

عبد الرؤوف السنكلي ونهل الاثنان طوال سنوات من كبار شيوخ الحجاز أمثال محمد ميرزا أحمد القشاشي وإبراهيم القرني وحسن العجمي(٦١).

وخلافاً للسنكلي الذي قرر العودة إلى أتشيه بعد انتهاء دراسته، توجه المقاسري إلى دمشق بناء على اقتراح أستاذه محمد ميرزا لكي يتتلمذ هناك على يد العلامة أبي البركات أيوب الدمشقي الخلوتي الذي منح تلميذه لقب "تاج الخلوتية"(٦٢). ومن دمشق توجه المقاسري إلى إسطنبول فاجتمع هناك مع العلماء العثمانيين وأطلعهم على الوضع في جزر الملايو وهيمنة الهولنديين على مقدرات الأمور بعد خروج البرتغاليين. ومن إسطنبول ذهب المقاسري إلى جزيرة سرنديب ومنها إلى مدينة غوا بعد أن غاب عنها مدة عشرين عاما. وكان الشيخ مشبعا بالتعاليم الدينية الأصيلة التي اقتبسها من أساتذته العلماء خلال رحلته الطويلة. فلما رجع إلى بلاده وجد المسلمين لا يطبقون التعاليم الإسلامية، فقد بقيت الاعتقادات التي يؤمن بها قبل اعتناقهم الإسلام سائدة، وإن كان الحكام والنبلاء قد أعلنوا اعتناقهم الإسلام، إلا أنهم يتخوفون من تطبيق الأحكام الشرعية في بيئتهم ومجتمعهم، وهم لا يستطيعون تحرير أنفسهم من العادات التي كانوا عليها من الميسر ومصارعة الديوك وشرب الخمر وتناول المخدرات، بل لقد احتفظوا بالخرافات التي يؤمنون بها بأن يقدموا القرابين لأرواح أجدادهم رغبة في الحصول على معيشة أكثر رفاهية(٦٣).

كما خاب أمل الشيخ المقاسري عندما قامت الحرب بين سلطان غوا حسن الدين وشركة الهند الشرقية الهولندية وانحاز فيها " آرو بالاكا[*Aru Palaka*] " للهولنديين حتى عقدت اتفاقية " كاباياري بوجايا " بين السلطان حسن الدين والحاكم الهولندي "سفيلمان" مما أدى إلى الحد من حرية سلطنة غوا وتدخل الهولنديين في شؤونهم وضعف السلطنة وانتشار المعاصي فيها(٦٤).

وعندما شاهد المقاسري تلك الظواهر في الحياة الاجتماعية الدينية دعا حكام "غوا " والنبلاء إلى بذل الجهود لإزالة كل ظاهرة غير إسلامية وتطبيق الأحكام الشرعية، ولكنهم أصروا على الاحتفاظ بماهم فيه لأن إزالة الميسر ومحاربة تناول المخدرات قد تتسبب مثلا في نقص ما يحصلون عليه من أموال، وكانت النتيجة أن ذهب المقاسري إلى بانتن حيث بدأ فيها حياته العملية، ولكنه كلف أبرز تلاميذه بالبقاء، منهم نور الدين بن عبد الفتاح وعبد البشير الضرير وعبد القادر كارانغ جينو .

ولما وصل إلى بانتن كان صديقه القديم ولي العهد الأمير "سورية" قد صار سلطانا على بانتن ويحمل اسم "أقونغ تيرتا ياسا[*Agung Tirta Yasa*]" أو أبي المعالي أبي المفاخر. ورغم عقد السلطان معاهدة صداقة مع الحاكم الهولندي، فإنه كان يرفض التعاون مع الهولنديين. وقد فرح السلطان بقدوم صديقه الشيخ المقاسري ودعاه

للإقامة عنده. ولكي يضمن بقاء الشيخ في بانتن فقد زوجه السلطان ابنته " ستي شريفة"[٦٥].

وصارت بانتن ملاذا أمنا للمجاهدين المسلمين الهاربين من الجزر الأخرى فراراً من الهولنديين حتى صارت هولندا تعتبر السلطان " أقونغ " عقبة رئيسية يحول دون تحقيق أطماعها. وبناء على نصيحة الشيخ المقاسري فقد عمل السلطان " آقونغ " على توسيع دائرة صداقاته وتحالفاته وعلاقاته السياسية إلى خارج جاوا وسومطرة، فوثق علاقاته مع سلطان سورات في الهند ومع سلاطين كوجرات، ثم أرسل نجله الأمير عبد القهار إلى إسطنبول وقام هو نفسه بالحج إلى مكة المكرمة في عام ١٠٨٤ هجري حيث منحة شريف مكة لقب سلطان رسميا والعلم واللباس المقدسين، وما يعتقد أنه من أثر النبي محمد (ﷺ) [٦٦].

كانت هذه الظروف الاجتماعية السياسية والدينية المتحسنة لسلطنة بانتن بلا شك مؤاتية للمقاسري لكي يقرر الإقامة. وكان زواجه بكريمة السلطان يجعله مرتبطا أوثق الارتباط مع السلطنة، وترقى إلى شغل المناصب العليا فيها وأصبح أقوى الأعضاء في المجلس الاستشاري تأثيرا على السلطان.

وفيما هو مقيم في بانتن وإن كان يزداد تورطا في الأعمال السياسية فانه كان مستمراً في تدريس المريدين في العاصمة وفي القيام بالتأليف. وكان من أبرز تلاميذه ولي العهد الأمير عبد القهار الذي حج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة وعاد منها ومعه لقب جديد هو السلطان الحاج، وما هي إلا فترة حتى دعا المواطنين في بانتن إلى ارتداء اللباس العربي التقليدي[٦٧].

استمر السلطان " ترتاياسا " في حكم سلطنة بانتن التي بلغت أوج عظمتها في زمانه بمساعدة صديقه وزوج ابنته ومستشاره الشيخ يوسف المقاسري ولكن ولي عهد بانتن الأمير عبد القهار اتصل بالهولنديين سراً وتآمر معهم ضد أبيه. فاتفق السلطان مع الشيخ المقاسري على أن يقنع ابنه بالذهاب لأداء فريضة الحج ففعل. وما إن غادر ولي العهد إلى مكة المكرمة حتى اغتنم السلطان الفرصة وعين ابنه الثاني الأمير " فورباي[*Purbaya*]" ولياً لعهده وخليفة له[٦٨]. ولما عاد الأمير عبد القهار ورأى ما فعله أبوه به اتصل بالهولنديين طالبا المساعدة للإطاحة بحكم أبيه. وبمساعدة الهولنديين تم القبض على السلطان " أقونغ " في عام ١٠٨٢ هجري ونفيه إلى " بتافيا *Batavia*" حيث توفي فيها في سنة ١١٠٣ هـ . وهرب المقاسري إلى ريف جاوا الغربية يناضل ضد الهولنديين حتى قبض عليه هؤلاء بالحيلة في عام ١٠٨٣ هجري[٦٩] ونفوه إلى سرنديب مع زوجته وأولاده واثني عشر من مريديه[٧٠]. فعكف الشيخ على توثيق علاقاته بكبار العلماء هناك أمثال سيدي ماتيلايا وأبي المعني إبراهيم منهان، وعبد الصديق بن محمد صادق الذين ضغطوا على سلطانهم "أوراجزيب" لكي تعيد هولندا

الشيخ إلى بلاده. فلما فعل السلطان ذلك عمدت هولندا إلى نفي الشيخ إلى قرية " تانجونغ هارابان *Tanjung Harapan*" في مستعمرتها في جنوب أفريقيا ومعه ٤٩ شخصا من أفراد أسرته وأتباعه[٧١] وذلك في عام ١١٠٦ هجري حيث كان حاكمها آنذاك "سيمون فاندير ستيل[٧٢]. ولما توفي الشيخ المقاسري في عام ١١١١ هجري دفن في قرية " فاوري " في جنوب أفريقيا. تزامنت وفاة الشيخ المقاسري مع وفاة كل من الشيخين الرانهيري والسنكلي في أتشيه. ولكن جيلا آخر من الدعاة كان قد حمل راية المقاومة لكي يكمل المسيرة لتحرير الأرخبيل الملايوي من المستعمر الأوروبي[٧٣] وفي مقدمة أولئك الدعاة برز محمد أرشد البنجري من كاليمنتان الذي تزوج ابنة السلطان تحليل الله في عام ١١١٢ هجري وذهب إلى الحرمين الشريفين للدراسة فأمضى هناك ثلاثين عاما في مكة وخمس سنوات في المدينة المنورة. ولما عاد إلى كاليمنتان نزل في مدينة " مارتافورا *Martapura]* " حيث أنشأ مؤسسة إسلامية كبيرة لتعليم المسلمين فوق قطعة أرض وهبها إياه السلطان تحميد الثاني .

ولكن ظهور دعاة ملايويين أمثال الشيخ السنكلي والبنجري والمقاسري على ساحة الأحداث مثّل، بحد ذاته، انتقال راية الدعوة الإسلامية والنضال ضد الأوروبيين من الأشراف العرب الذين كانوا قد قدموا إلى جزر الملايو إلى أبناء البلاد الأصليين، فقد أدى التزاوج والاختلاط بين هؤلاء السادة الأشراف المنحدرين من أصول طالبية ومن العترة النبوية الشريفة، والملايويين إلى صهر السكان الأصليين في بوتقة الإسلام وإلى رسوخ التواجد العربي والإسلامي في تلك المنطقة من العالم. والواقع أن أولئك السادة الأشراف الذين حملوا لقب "سونن والي سونغو [*Wali Songo*]"[٧٤] أي " ***الأولياء التسعة*** " لم يتوقفوا عن نشاطهم بعد وفاة علي رحمة الله {سونن أمفيل}، إذ ظهر فيهم الإمام جعفر الصادق الذي أسس مدينة قدس [*Kudus*] في وسط جاوا وأنشأ فيها مسجدا كبيرا أسماه "المسجد الأقصى" تبركا بالمسجد الأقصى في بيت المقدس بفلسطين.

ولذلك فقد صار الناس يلقبونه بـــ "سونن قدس". وقد برع هذا الإمام في استخدام المسرح الشعبي الجاوي المسمى بـــ "وايانغ [*Wayang*]" لنشر الدعوة الإسلامية بطريقة مبسطة بين الناس، فعمد إلى استبدال أبطال ملحمتي "رامايانا[*Ramayana*]" و"المهابراتا [*Mahabrata*]" الهندوسيتين بأبطال مسلمين، وكذلك استبدال كلمة " كاليماسادا [*Kalimasada*] " التي تعني السهم السحري بكلمة " الشهادة "، وكلمة " جاميلان سيكاتين [*Gamelan Sekaten*]" الموسيقية الصاخبة بكلمة " شهادتين"[٧٥]. كما برز بين الدعاة "رادين شهيد" المشهور باسم "سونن كاليجاغا [*Sunan Kalijaga*]" في ديماك والإمام حسام الدين الملقب "سونن لاموغن [*Lamongan*]" نسبة للمكان الذي عاش ودفن فيه والمسمى " لاموغن "، وشقيقه زين العابدين الملقب " سونن ديماك [*Demak*]"، والمدفون في ديماك. غير أن الكثيرين من ذرية أولئك العلماء قاتلوا ضد البرتغاليين والسياميين

والهولنديين والإنكليز وسقطوا في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وجزر الملايو والصين، ومن هؤلاء نذكر عبد الله بن علي نور العالم المدفون في " جمقا " وشمس الدين إسماعيل وفتح العارفين عبد المولى اللذين حاربا ضد البرتغاليين في سيام ودفنا فيها، والشريف جديد المعتصم بالله دماري وعيسى قطب الدين اللذين قاتلا في الصين ودفنا فيها، ونصر الدين يونس الذي سقط صريعا في " سومطرة " وهو يحارب البرتغاليين، وسمير الدين علوي الأكبر الذي توفي بأنام أيضا وهو يقاتل البرتغاليين(٧٦) استمرت شعلة المقاومة ضد الهولنديين بعد رحيل البرتغاليين. فظهرت أسماء لامعة كانت تلهب تلك الشعلة ضد المحتلين الأوروبيين مثل إمام "بونجول [*Bonjol*]" محمد شهاب المشهور باسم " توانكو مودا [*Tuanku Muda*]" (٧٧) والبدريين الثلاثة الحاج مسكين والحاج فيوبانغ والحاج سومانيك(٧٨) وتينكو [Tengku] دي تيرو Di Tiro"(٧٩) والحبيب عبد الرحمن بن الزاهر(٨٠). والسلطنات الإسلامية وسقوط بعضها بيد الأوروبيين(٨١) مثل فطاني *Fattani* وقدح *Kedah* و فيرلاق *Perak*(٨٢) وفرليس *Perlis*(٨٣) في شبه جزيرة الملايو(٨٤) وميندناو في أرخبيل الفيلبين(٨٥). وقد شذت عن تلك القاعدة وعن ذلك الانهيار سلطنة أتشيه فقط التي حافظت على استقلالها، فتوالى على حكمها بعد السلطانة صفية الدين السلطانة نقية ثم السلطانة عناية زكية الدين ثم السلطانة كمالاتشاه(٨٦) التي تزوجت داعية وتاجراً عربياً هو هاشم جمل الليل(٨٧) فخلفها على الحكم ابنهما الشريف إبراهيم الملقب "فركاسا عالم شريف Perkasa Alam Syarif الذي بقي على سدة الحكم حتى عام ١١١٦ هجري(٨٨). وتكررت بهذه المصاهرة بين سلطانة أتشيه والداعية العربي مآثر الجيل الأول من رواد الدعاة في أرخبيل الملايو، وترسخ المصير المشترك الذي يجمع بين المسلمين أينما كانوا في وجه أعدائهم ومن يتربص بهم الدوائر....

حواشي الباب العاشر

(١) يقول فليكه في الصفحة /٩٩/ من كتابه " Nusantara " إن الاتفاق لم يحترم و لم يدم طويلاً ولم يتم بناء القلعة .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٩ .

(٣) ستخرج البرتغال نهائيا من ملقا في عام ١٠٣٧ هجري .

(٤) كانت قد حصلت ثورة هولندية في أوروبا ضد إسبانيا في عام ١٥٧٢ م – ٩٧٢ هجري بسبب أطماع فيليب الثاني بهولندا واحتلاله لها .

(٥) اتبع الهولنديون سياسة مماثلة للبرتغاليين في سعيهم في الحصول على احتكار تجارة التوابل في ترنايت، ولكنهم، كالبرتغاليين، تحققوا من عبثية محاولاتهم فرض هذا الاحتكار بالقوة بدون تعاون محلي من السكان الإندونيسيين. وفي عام ١٦٥٢ – ١٦٥٣، أدخل الهولنديون سياسة قطع أشجار البهارات في جزر الملوك بهدف مراقبة الإنتاج والحفاظ على الأسعار العالمية العالية في أوروبا. فقيدوا نمو شجرة جوزة الطيب في أرخبيل باندا (يقع إلى الجنوب من سيرام وأمبون. ومن أهم جزره : نيرا – لونثور – غونونغ – أبي – آي – رون – روزينيغين)، وشجر القرنفل في أمبون . ولكن هذا الاجراء القسري لم يسفر عن أي نتيجة ملموسة . فقد استمرت التوابل بالوصول إلى العالم الخارجي عبر بلاد البوقيس و تجار سولاويسي الصينيين الذين كانوا يبيعون بضاعتهم في زوارقهم الصغيرة المسماة " باديواكانغ " متجهين إلى سيرام الشرقية وجزر بابوا حيث يحصلون على التوابل فيها ثم يبيعونها في باسير و سولو و مانيلا . وكان هناك تجار آخرون يذهبون من شرق جزر الملوك إلى أرخبيل غوام ومنها إلى جاوا . وهكذا فشلت خطة شركة الهند الشرقية باحتكار تجارة البهارات و نشأت غابات من أشجار القرنفل و جوزة الطيب في جزر إندونيسيا الأخرى . { انظر موسوعة : Indonesian Heritage ، صفحة ٤٠ }.

(٦) انظر " Nusantara " ، ص ٨٧ – ٨٨ .

(٧) انظر " Indonesian Heritage " ، ص ٥١ .

(٨) سلطنة ماتارام كانت تضم ما يسمى حاليا بمدينة جوكجاكرتا المشهورة بوجود معبد " بوروبودور [Borobudur]" البوذي فيها ، وكذلك معبد " برامبانان [Perambanan]" الهندوسي . { انظر موسوعة : " Indonesian Heritage " ، ص ٥٧

(٩) انظر " تاريخ سلطنة بانتن " ، ص ١٠٦ .

(١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ١٠٧

(١١) حوالي ٥٠٠ كم .

(١٢) بعد انتشار الإسلام في المعاقل البوذية والهندوسية الأخيرة في سومطرة وفاليمبانغ ومينانغكابو ، لم تترشح الدعوة الإسلامية في تلك المعاقل بسرعة فاختلطت الأساطير المحلية بالتاريخ الإسلامي حتى صار الحكام المسلمون يعتبرون أنفسهم جزءا من السلطات السياسية الكونية الكبيرة في العالم . ففي ميناغكابو الواقعة في سومطرة الغربية على سبيل المثال ، و وفقا لـ " تامبو Tambo " أي الروايات الأولى للتاريخ المحلي أن عالم " الميناغكابو " خلق من نور محمد مع عالمين آخرين هما " قارة الرهمو " أي الروم و تعني عندهم الخلافة العثمانية بتركيا – للسيطرة على الجانب الغربي للعالم ، و " قارة الصين " للسيطرة على الجانب الشرقي منه .

وواضح من هذه النظرة أنها متأثرة بنظرية الفيض في الفلسفة الإسلامية و التصوف ، الأمر الذي يؤيد ما افترضناه سابقا من أن التعاليم الإسلامية التي انتشرت في الأرخبيل منذ البداية هي ما أتت به الصوفية ، أعني الإسلام الذي تأثر بالتعاليم الصوفية . ولكن الذي يهمنا هنا هو أن حاكم " عالم المينانغكابو " قد اعتبر نفسه – طبقا لمرسيدن (Marsden) " أور الوم مهاراجا دي راجا" أي يعتقد أنه الشقيق الأصغر للسلطان " الرهوم " الذي يطلق عليه " ملك ألف ملوك . وإذن، فقد كان المواطنون في ميناغكابو يعتقدون أن ملكهم الأول من سلالة خليفة الروم أي العثمانية الذي تم تكليفه ليكون " شريفا " أي حاكما على هذه المنطقة . وقد صور " مارسيدن " ذلك الادعاء للحكام في عالم الميناغكابو في صورة أوضح كما يلي :

" السلطان ميناغكابو Menangcabow المتربع على عرش " فاغار ويونغPagar- uyuung " – نأسف لاضطرارنا لذكر اسمه – الذي هو ملك الملوك أن الملك إسكندر ذا القرنين الذي يملكه "ماونكوتو Mauncooto ، أتي به النبي آدم ، وهو السيد الثالث من شجرة " ماكومات Maccumat والذي كانت إحدى كراماته أنه يستطيع أن يجعل الأشياء تطير، وقد جاء من مدينة إسطنبول القصيّة بالمهرجانات التي قدمت في شهر ذي الحجة .

إن كثيرا من الحكام والملوك في الأرخبيل يجعلون الخليفة العثماني والإسكندر ذا القرنين والنبي سليمان وبلقيس والنبي حضراً كما أنهم يعتبرون أصولهم من أولئكم الشخصيات الأسطورية، وعلى هذا الغرار يستطرد " تاريخ ملايو " في مقدمته فتحدث في صفحات كثيرة عن سلالة الإسكندر ذي القرنين في محاولة للتأكيد على أن ملوك ملايو من سلالته . كما ظهر اسم الإسكندر أيضا في الوثائق التاريخية المحلية من أمثال " ميسا ملايو " و حكايات سياك {الملك العقل} التي كانت في بعض جوانبها تستلهم ما ورد في " تاريخ ملايو " . وفي الحكايات المحلية الأخرى تروى حكايات " ميرونج مهاوانسا " قصة عن الصداقة التي كانت بين ملك "الروهوم " و بين " ميرونج مهاوانسا ". وقد تشرف هذا الأخير بإرشاد صاحبه إلى الطريقة التي يستطيع بها الزواج من بنت الملك الصيني. ثم إن "ميرونج مهاوانسا " أنشأ مملكة " لانجكاسوكا" ولم يسلم عرشه إلى نجله " ميرونج مهاوانسا " رحل إلى " الرهوم " و فيما بعد عم الاعتقاد لدى الملوك في سيام { Siyam } و كيده { Kedah } وفطاني { Fatani} و فيراك { Perak } بأن جدهم الكبير هو " ميرونج مهاوانسا " .

ومرة أخرى نجد قصة عن نجل ملك "الرهوم" يعتقد أنه الجد الكبير لشعب "غايو Gayo" بشمال غرب سومطرة، وهذا الأمير " جينالي Genali " أو " كاوي Kawi " ولد مرتين ، مرة في الرهوم وأخرى عندما وصل إلى " لينجو Linge " ب "غايــو " . والقصة على غرابتها قد سجلهــا الشعراء ، كما ورد في مقطـــع شعري فيما يلي :

عندما تنبت الأعشاب وهي طالعة كالإبرة
عندما بدأت السماء تمطر متقطعة
عندما تمطر السماء غيثا في مواقع متفرقة
ظهر سهل " لينجي " لأول مرة
تحتقن الأعشاب أو تنبت
ثم ظهر النبـــــات
ثم تجمــد الزبـــد
فتكونت بذلك الجزيرة {سومطرة}
من أقصى آتشيه تنزل نجل ملك الروم
ملفوفا في قشور الفواكه

بدون طول، بدون حيز
لا في صورة إنسان

وقد ترعرع هذا الأمير بعد ولادته ويكبر بفضل تغذيته بالأسماك المحيطة به ، بينما تنحسر المياه . ويعتقد شعب " غايو " أن الأمير هو أكبر أبناء ملك " الرهوم " . أما أصغرهم فموجود بـ " انتشيه ". وقد بلغ من إعجاب هذا الشعب بالرهوم لدرجة أن وضعوه في الطبقة الرابعة في سلسلة انتقال الوحي الموثوق به من الله إلى ملوكهم {شعر} :

عقـود السلسلة
الوحي من الله
الحديث من النبي
الاجماع من جمهور الروم
الأمر الملكي من انتشية
وهذه أربعة عقود فتذكر .

وانه لمن الصعوبة أن نتحقق من هذه القصص كلها فضلاً عن التسليم بصحتها ولا نملك إلا أن نستغرب كيف أن كثيرا من المسلمين في الأرخبيل يجعلون ملك الرهوم أصلاً أساسيا تدور حول نظرتهم الدنيوية، ولماذا لا يعطون مثل تلك المكانة للعرب أو الفرس الذين يلقونهم بالأرخبيل، مع أنه لا يوجد دليل يثبت تواجد المسلمين الترك أو مشاركتهم في أنشطة الدعوة في العصور الأولى لقيام الدعوة الإسلامية بالأرخبيل؟ بيد أنه من المحتمل جدا أن يكون المسلمون قد وصل إليهم أخبار عن عظمة هذه المملكة {الخلافة} التي ظهرت ظهور الشهاب في سماء السياسة في الشرق الأوسط منذ سنة ٦٧٩ هجرية/ ١٢٨٠ م من خلال الأدب العربي أو الفارسي أو عن طريق التقاليد التي يلقونها فيمن يتعاملون معهم من العرب أو الفرس في الأرخبيل .

صحيح أنه قبل قيام الخلافة العثمانية بقرون يستخدم الأدب الفارسي أو التركي مصطلح " الروم " للدلالة على الإمبراطورية البيزنطية وأحيانا أخرى على إمبراطورية الروم. لكن عندما قامت الخلافة العثمانية وأصبحت أقوى دولة في الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط. في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ، أي بعد سقوط القسطنطينية سنة ٨٥٧ هجرية /١٤٥٣ م تحولت الدلالة لمصطلح الروم، فاستخدمت طبقاً ل " حب " و " يودين " للدلالة على الخلافة العثمانية . ومن ذلك الحين تمت الهيمنة السياسية والثقافية للخلافة العثمانية في مختلف أنحاء العالم بما في ذلك الأرخبيل . وهذه الهيمنة الثقافية ظهرت على سبيل المثال في المفردات التركية المتداولة فيما بين عدد من اللغات المحلية في الأرخبيل . ولذلك يكون أكثر منطقيا أن نقول – افتراضا – إنه ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي اتّجه المسلمون بالأرخبيل إلى استخدام المصطلح " ملك الروم " مطابقا للسلطان العثماني، وليس كما طرحه " ريد Reid " استنادا إلى العلاقة السياسية والدبلوماسية التي بدأت تتكون بين الخلافة العثمانية والدول الإسلامية بالأرخبيل. {انظر كتاب " شبكة العلماء " للدكتور أزيومردي أزرا ، صفحة ٢٣ إلى ٢٥ .

(١٣) انظر محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ٥٠٤ .
(١٤) انظر د . أزيومردي ازرا ، " شبكة العلماء " ، ص ٣٤ .
(١٥) انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٣٥ .
(١٦) انظر " The Indonesian Heritage " ، ص ٥١ .
(١٧) الحبيب أحمد السقاف ، " تاريخ سلطنة بانتن " ، ص ١٢٦ .

(١٨) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٠ . ومن المعروف أن الهولنديين قضوا على حليفتهم " ماتارام " عام ١٧٤٩ ، ثم قضوا على " بانتن " عام ١٨٣٢ . ولكن هولندا ما كادت تستريح من القضاء على بانتن حتى ثار عليها البدريون في سومطرة بزعامة الحبيب محمد شهاب بونجول واستمرت الثورة من عام ١٨١٨ لغاية عام ١٨٣٦ .

(١٩) " Indonesian Heritage " ، ص ٥٢ .

(٢٠) أقام الهولنديون في القرن ١٧ /١٢٠٠/ منجم للمعادن المختلفة في " مينانغكابو " في سومطرة، وكان يتم نقل الثروات إلى أتشيه و خاصة الذهب من مناجم " بوكيت باريسان " . ومعظم الذهب كان يباع لشركة الهند الشرقية الهولندية التي فتحت مناجم خاصة بها في " ساليدا" قرب " بادانغ Padang " عام ١٧٣٧ للذهب و الفضة . وأما الألماس فقــد وجــد في جزيرة كاليمنتان فقط . وكان ملوك الجزيرة يمنعون تصديره إلى أن استطاع الهولنديون عام ١٦٠٤ الاتجار مع تجار مناجم جنوب شرق كاليمنتان. وبحلول القرن ١٨ وقّع سلطان " بنجر ماسين " عقــدا لتزويد شركة الهند الشرقية بأحجار كريمة ثمينة. وأما في جنوب شرق كاليمنتان، فقد كانت المناجم بأيدي الملايويين الأصليين، في حين أن المناجم في الغرب كانت بيد الصينيين.
{ انظر بالإنكليزية موسوعة " Indonesian Heritage " ، ص ٢٠ – ٢١} .

(٢١) نقل لنا د. أزيزمردي أزرا في كتابه " شبكة العلماء " نص الخطابين اللذين أرسلهما السلطان إسكندر مودا إلى الملكين البريطاني و الفرنسي . ففي الخطاب الذي أرسله للملك البريطاني جيمس الأول سنة ١٠٢٢ هجرية /١٦١٣ م قال السلطان ما يلي: " من حضرة السلطان، ملك الملوك المعروف بكثرة الحروب التي خاض فيها ، والملك الوحيد بسومطرة ، وهو أكثر الملوك شهرة من سابقه، الملك المعظم فيّ والمهاب فيه بين الشعوب المتاخمة، قد تسمت من نفسه الصبغة الملكية الحقة، صاحب الحكمة العالية في الأمر ، داره مصنوع من أخلص المعادن ومزين بأجمل الألوان المختلفة، له من العرش أعلاه وأكمله كمثل نهر تجري فيه المياه الصافية صفاء الزجاج، من نفسه تفيض الرفاهية والعدالة، حضوره أغلى من الذهب الخالص ...." .
{للوقوف على النسخة الكاملة ، انظر :

"Sir William Foster، et، el، The Voyage of Thomas Best to The East Indies " 1612-14، London: Hakluyt, 1934, 211-2.

وللرسائل الأخرى إلى الملوك البريطانية و النسخ الأصلية باللغة الملايوية المكتوبة بحروف عربية ، انظر :

"W.G. Shellabear، An Account of Some Olders Malay MSS now Examn، JRAS 31 (1898)، 107-30. . " "

وبالأسلوب نفسه مرة أخرى نجد خطابا آخر لإسكندر مودا إلى ملك فرنسا بتاريخ ٢٧ يونيو ١٦٢١، قال فيه " من السلطان الأعظم الفاتح الكثير من البلاد بمعونة الله، الملك الذي شملت مملكته آتشية، وبتوفيق الله جميع البلاد في المشرق والمغرب .... إلى ملك فرنسا الكبير المعظم ...." . النسخة الكاملة وردت في :

" The Expedition of Commodore Deaulieu to the East Indies (1619-1622)، drawn by Himself "

ترجمة:" M. Thevenot، in Navigantum atque Iterantium Bibilotheca. Or a Comlete Collection of Voyage and Travels الطبعة المنقحة نشرها لأول مرة J Harris : ١٧٠٥ م ، ج/٢ ، لندن ١٧٤٤ ،] ٧٣٦ .

(٢٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣ .

(٢٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣ .

(٢٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣ . كان إسكندر مودا مولعا بتدريب الفيلة على طاعة أوامره، واستخدم مهارته الحربية تلك في العمليات العسكرية التي كان يشنها على البرتغاليين براء خاصة خلال الحملة التي شنها بنفسه عام ١٦٠٦ ضد قوة برتغالية يقودها" ألفونسو كاسترو" والتي هزم فيها عدوه شر هزيمة . (انظر : السيد علوي بن طاهر الحداد، " المدخل إلى تاريخ انتشار الإسلام في الشرق الأقصى " ، ص ٣٩١ .

(٢٥) هناك ثلاثة عقود في سلسلة خطوط التواصل العلمي بين العلماء في منطقة ملايو – إندونيسيا : وهي ما بدأت بالرانيري ثم الشنكلي اللذين سطع نجمهما في سلطنة أتشيه ، ثم المقاسيري المولود بسولاويسي و نشط في بانتن. وقبل سطوع نجم الرانيري، كان يوجد عالمان شهيران في أتشيه و باساي هما: حمزة الفانصوري وشمس الدين السومطراني اللذان عاشا في فترة حكم السلطان علاء الدين رعايات شاه، وشاركا في المناقشات التي جرت بين السلطان والمبعوث الإنكليزي السير جيمس لانكستر سنة ١٠١١ هجرية. وفي هذا الصدد كتب السير لانكستر في مذكراته ما يلي: "وكان أحد الشخصيتين الكبيرتين رئيس الرهبان في تلك المنطقة، الذي يتمتع باحترام الملك والشعب معا، وهو يستحق ذلك لكونه حليما ووقورا، وثانيهما من النبلاء القدامى، وكان يتمتع بالكفاءة أيما كفاءة، لكنه لم يكن مؤهلا لمتابعة مثل هذه المباحثات بحيث يرقى إلى مستوى صاحبه . وقد جرت المباحثات باللغة العربية التي تحدث بها كل منهما بطلاقة " .

وكان الفانصوري والسومطراني من مؤيدي نظرية " وحدة الوجود " في التصوف الفلسفي المستوحاة من تعاليم ابن عربي والجيلاني، وملتزمين التزاما دقيقا بآرائهما حول الوجود . فهما يفسران حدود العالم على سبيل المثال بناء على نظرية الفيض عند الأفلاطونية المحدثة واعتبار كل فيض تجليا إلهيا بحد ذاته. وكان هذان العالمان يسيطران على الساحة الفكرية في عهد السلطان إسكندر مودا، فلما توفي هذا واستلم السلطان إسكندر الثاني وعين أستاذه الرانيري شيخا للإسلام ، هاجم كلا من الفنصوري والسومطراني واتهمهما بالضلال وإثارة الفتنة، وأفتى بقتل كل من يرفض أن يترك ما عليه من ضلالة في عقيدته وبإلقاء كتبه في النار. (انظر البحث الهام المعنون بـ" رواد الحكايات التجديدية الإسلامية في الأرخبيل: علماء ملايو – إندونيسيا في الشبكة العلمية للقرن السابع عشر الميلادي"، المنشور في كتاب د . أزيومردي آزرا ، المعنون بـ" شبكة العلماء: حركة التواصل بين الشرق الأوسط والأرخبيل في القرنين ١٧ و١٨ م"، منشورات مركز الدراسات الإسلامية والاجتماعية – جاكرتا ١٩٩٩. (انظر: محمد عطاء مظهر، " فتاوى مجلس العلماء الإندونيسي "، [منشورات دراسات الإسلام والمجتمع التابع لوزارة الشؤون الدينية الإندونيسية – جاكرتا ١٩٩٦] ، ص ١٢ – ١٣ .)

(٢٦) الحدائق الملكية اسمها باللغة الملايوية " تامان غايره " .

(٢٧) موسوعة " Nusantara " ، ص ٣٩٤ .

(٢٨) علوي بن طاهر الحداد،" المدخل إلى تاريخ انتشار الإسلام في الشرق الأقصى "، ص ٣٩٤ .

(٢٩) أورد د. أزيومردي أزرا ، في كتابه القيم " رواد الحركات التجديدية الإسلامية في الأرخبيل " ، في الصفحة ١٥٣ مقاطع من مذكرات التاجر الهولندي " بيتر سورج " حول هذه المناظرة أوردها هنا حرفيا كما أوردها المؤلف: "كتب" سورج " في مفكرته أن وصول عالم (في الأصل: راهب) من " سورات " بالهند في أتشيه قد تسبب في حدوث جدل ليس له نهاية بينه وبين الرانيري، فقد اتهم الرانيري الأفكار التي روّجها الوجه الجديد بأنها ضلالة. وقد أوقع ذلك الجدل السلطانة في موقع حرج وصعب وقد كانت تسير على مذهب الرانيري ، أما وقد اكتسبت التعاليم التي أبنى بها الوجه الجديد دفعة قوية فالأمر الآن يختلف. وبعد ذلك بأسبوعين عاد

"سورج " فكتب في مفكرته معلومات أكثر حول الأسباب التي كانت وراء القضية . فبينما كتبه في اليوم ٢٢ أغسطس ، أورد مرة أخرى الجدل القائم بين العالمين، وهذه المرة تمت المناقشة أمام المجلس الاستشاري المشترك للسلطنة. والأهم من ذلك ذكر اسم الوجه الجديد وهو سيف الرجال، وهو " مينانكابوي {سومطرة الغربية} الأصل كان يتعلم في آتشيه على يد الشيخ "سالدين " {جمال الدين ؟} الذي طرد من آتشيه لآرائه التي ظهر أنها منحرفة بعد مجيء الرانيري . وما لبث أن احتل سيف الرجال موقعا لدى نفوس الناس لعلمه ولصلاحه حتى لقد أنفق كل ما لديه من بيت وما تحيّط به من أرض وسلمه للمؤسسة الدينية والرانيري يصور المشهد بقوله: "ثم جاء سيف الرجال فجادلنا موردا بما تعدنا فهم من حججهم القديمة وأجبناه بالسؤال: فهل تسلّم بصحة ما عليه القائلون: " والله – بالله – تالله والإنسان هو الله و الله هو الإنسان ؟ فأجاب نعم وقال هو اعتقادي وما عليه أهل مكة والمدينة ، واستطرد في الكلام ورجع الناس إلى ذلك الاعتقاد الباطل .

(٣٠) مجلس العرف باللغة الملايوية يقال له " أولو بالانغ " [Ulu Balang].
(٣١) المرجع السابق رقـــم / ٢٩ / ، ص ١٥٤ .
(٣٢) توفي في عام ١٠٦٨ هـــ / ١٦٥٨ م {موسوعة " Indonesian Heritage " ، ص ٥٦ .
(٣٣) انظر محمد عطاء مظهر ، " فتاوى مجلس العلماء الإندونيسي " ، ص ١٨ .
(٣٤) انظر " Indonesian Heritage " ، ص ٥٦ .
(٣٥) أشار بدر الدين حي الصيني في الصفحة ٤٦ من كتابه المعنون بـ: " تاريخ المسلمين في الصين" إلى أن المنشوريين كانوا دخلاء على الحكم بنظر الصينيين الأصلاء . فقد كان ينقصهم إدراك وفهم عام للعقائد الدينية وثقافات الشعوب الأخرى مما كان يمتازه أباطرة أسرة مينغ الذين امتدحوا الإسلام وأصدروا المراسيم المختلفة لضمان حرية المسلمين في مزاولة الدين الحنيف والقيام بشعائره السمحاء. وكان للمنشوريين عقلية خاصة تقوم على عبادة الأرواح والأسلاف، وهو أمر سبب نشوء احتكاكات مسلحة عنيفة بين الحكومة والمسلمين. ويذكر بدر الدين في كتابه الأمثلة التالية للدلالة على ما جرى في ذلك العهد :

أ – في الذكرى الثانية لجلوس الإمبراطور {يونغ تسينغ} ١٧٢٤ م بعث {جن شيه كوانغ} المفتش العام لولاية {شانتونغ} بتقرير إلى القصر الإمبراطوري قائلاً:".... يجب أن تمنع بتاتا بحكم القانون مزاولة الأعمال المعوجة التي تشوه أذهان الناس وعقائدهم. ومن هذا النوع من الأعمال المعوجة ما تزاوله جماعة {هوي – هوي } أي المسلمون. إن هؤلاء لا يعبدون السماء والأرض ويأبون أن يقدموا النذور إلى أرواح الأسلاف الصالحين. لقد أسسوا فرقة دينية خاصة بهم ويستخدمون تقويما غير التقويم الصيني. فكثر عدد هذه الجماعة بزيادة الأعضاء فيها وقاموا بدعوة الناس إلى أعمال الشر إفسادا لنفوسهم وعقولهم. وعليه، ألتمس من مقام القصر العالي إصدار أمر إمبراطوري بشأن إخراج هؤلاء المسلمين من عقائدهم وتخريب معابدهم و مساجدهم من الأساس .... " .

ب – مثال آخر : في الشهر الخامس من السنة الثامنة لجلوس الإمبراطور يونغ تسينغ {١٧٣٠ م} قـــدم {لو كوه هوا} رئيس الشرطة لولاية {آنهوي} تقريرا إلى القصر قال فيه: " .... إن المسلمين المقيمين داخل البلاد يسكنون في كل مكان وحيث يشاؤون ويمارسون جميع أنواع الأعمال الحرة و يعيشون بين الناس بدون أي فرق و تمييز و عليهم طبعا أن يتبعوا الناس في الحياة اليومية بمراعاة التقويم الذي تتبعه الأسرة الحاكمة في البلاد . لكن المسلمين لا يتبعون نظام تقويمنا الذي فيه أشهر كبيرة وأشهر صغيرة ولا يبالون بالسنة الكبيسة . فإنهم يستعملون تقويما خاصا ويحتفلون برأس السنة الجديدة حسب تقويمهم الخاص فيقيمون

فيه حفلات و يتبادلون التهاني والتبريكات فيما بينهم...". " ثم إنهم يلبسون فوق رؤوسهم كوفيات بيضاء صباحا ومساءً إذ كانوا يجتمعون في المعابد التي يسمونها {تسينغ جنغ تزي} أي المساجد . فلا أحد يعرف ما هي الأرواح التي هم يعبدونها وكذلك قد أقاموا نظاما للصوم في شهر خاص ..." .

" وبالنظر إلى أنهم من رعايا جلالة الإمبراطور العاقل الحكيم فإنه يجب عليهم أن يراعوا نظاما موحدا صحيحا ويلبسوا الألبسة المألوفة في البلاد، ولا ينبغي أن يشذوا في عمل الحساب أو السجل باتباعهم نظام تقويمهم الخاص أو يلبسوا الكوفيات البيضاء أو يسلكوا طرائق غريبة في شؤون الحياة اليومية مخالفين وحدة الشعار في البلاد ..". وبناء على ما ذكرته آنفا أتوسل إلى جلالتكم بإصدار مرسوم يفرض عليهم مراعاة النظام الموحد الصحيح في تدوين الوقائع وتسجيل المعاملات وفي الزي واللباس. وأما مساجدهم فينبغي أن تغلق، وأما أنفسهم فإذا أصروا على عدم الطاعة لحكم قانون البلاد يعاقبون وفق القانون الموضوع لمنع الأعمال المريبة ودفع الفتن. فأما الأشخاص من أهالي البلاد فإذا أظهروا عطفهم على المسلمين أو أعطوهم الملجأ في البيوت، يحاكمون أيضا وفقا لقانون ..." .

(٣٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٩ .

(٣٧) شهد القرن السابع عشر الميلادي بروز مرافئ جديدة وظهور سلع جديدة على الساحة التجارية. فالنص الصيني { دونغ كسي يانغ} وهو عبارة عن وصف للمحيطات الشرقية الغربية والمنشور عام ١٦١٨ يلاحظ تفاصيل عديدة عن التجارة الصينية لإندونيسيا، ويسجل بانتن مرفأً رئيسياً في جاوا ، في حين أن فاليمبانغ وجامبي وآتشيه تظهر مرافئ رئيسية في سومطرة، وسوكادانا وبنغرماسين في كاليمنتان وتيمور شرق جاوا. وبغضّ النظر عن العطورات مثل خشب الصندل والبهارات، فقد صدّرت تلك المرافئ للصين سلعا مثل قرون وحيد القرن وجلود الثور والألماس وخشب الرقان وجوز الهند .

وعلاوة على ذلك فإن بانتن التي برزت مركزاً عالمياً لتجارة الفلفل قد جذبت عددا كبيرا من التجار الصينيين، خاصة من مرفأ " فوجيان " إذ أن مسلمي بانتن أوصلوا تجارتها إلى "أيوتهايا " و " مانيلا " والصين و " ناغازاكي " {انظر موسوعة " Indonesian Heritage " ، صفحة ٣٣ .

(٣٨) ذكر د ز أزيومردي أزرا في الصفحة ٣٥ من كتابه " شبكة العلماء " أن رحالة فرنسا يدعى "فافيرينيه " زار " مقاسر " سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦٠ م وروى أنه في الوقت الذي كان يفكر فيه ملك " مقاسر " باعتناق الإسلام كان المبشر المسيحي البرتغالي يشجعه على اعتناق المسيحية. ويقال أن هذا الملك كان يبدي استعداده لترك ما عليه من وثنية إذا استطاع هؤلاء المحمديون أن يبعثوا إليه عالمين أو ثلاثة أو طبيبين أو ثلاثة من أكفاء العلماء والأطباء من مكة، وإلا فلترسل إليه المسيحية أحسن رهبانها ليتعلم مبادئ الدين. وكتب " نافيرينيه " يقول: ".... وفي خلال ثمانية أشهر بعث المسلمون ما طلبه الملك حتى عندما تأخر المسيحيون قرر اعتناق الإسلام ".

(٣٩) المرجع " Indonesian Heritage " ، ص ٩٠ – ٩١ .

(٤٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٩١ .

(٤١) المرجع السابق نفسه ، ص ٩١ .

(٤٢) الاسم الكامل هو محمد يوسف بن عبد الله أبو المحاسن التاج الخلواتي المقاسري

(٤٣) Tuanta Salamaka Ri Gowa

(٤٤) د. نبيلة لوبيس ، " الشيخ يوسف التاج المكاسري " ،[في مجلة " ألو إندونيسيا " العدد الحادي عشر – جاكرتا – تموز / يوليو ٢٠٠٠] ، ص ٢٤-٢٥- ٢٦ ، انظر أيضا " شبكة العلماء " ، الصفحة ١٨٤ – ١٨٥ .

(٤٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٤ .

(٤٦) د. أزيزمردي أزرا ، " شبكة العلماء " : حركة التواصل بين الشرق الأوسط والأرخبيل في القرنين ١٧ – ١٨ م " ، ص ١٨٦ حيث ورد مايلي : إن مختلف الروايات حول التربية الدينية الأولى التي تلقاها المقاسري تعكس مرة أخرى طبيعة التطور الإسلامي في سولاويسي – كما هي في المناطق الأخرى – وهي أن أكثر الدعاة السياح المتجولين من الصوفية هم الذين كان لهم الفضل الأكبر و الدور الحاسم في دخول المواطنين إلى الإسلام أفواجا ، وفي تعليم الأحكام الشرعية، بيد أن وصولهم إلى سولاويسي كان متأخرا عن وصولهم إلى الجزء الغربي من الأرخبيل، فلم نجد دليلا يثبت تواجدهم في هذه المنطقة إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ولكن لم يتم إسلام الغالبية العظمى من المواطنين في سولاويسي الا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي عندما يأتي أولئك الدعاة المتجولين من أتشيه وميناتكابو وكاليمنتان الجنوبية وجاوا وشبه الجزيرة الملايوية والشرق الأوسط إلى المنطقة . وقد كان نجاحهم أكثر انبهارا بعد اعتناق حكامهم الإسلام. وهكذا، فإنه في الوقت الذي ولد فيه المقاسري جسرت عملية ترسيخ التعاليم الإسلامية وإرسائها في مجتمع سولاويسي الجنوبية على قدم وساق . فما أن استهل العقد الثالث للقرن السابع عشر الميلادي حتى قام الحكام الذين دخلوا في الإسلام من جديد بجهود جبارة لتحويل أنظمتهم الاجتماعية والسياسية لممالكهم إلى الإسلام وموافقتها للشريعة الإسلامية، فتم وضع مناصب دينية مثل الإمام والخطيب والقاضي وإدخال من يشغلها ضمن الأسرة الملكية. وبوضع هذه المناصب على هذا الشكل يستدعي استقرار بعض الدعاة المتجولين ولم يعودوا يستطيعون أن يذهبوا إلى أماكن أو مناطق أخرى " .

(٤٧) هي مدينة " أوجونغ باندانغ " الآن .

(٤٨) الأمير " سورية " سوف يخلف أباه أبا المفاخر عبد القادر ويصبح اسمه الرسمي السلطان عبد الفتاح المعروف بالسلطان أقنغ تيرتاياسا .

(٤٩) يقول بعض المؤرخين أن المقاسري لم يجتمع بالرانيري ، لكن المقاسري نفسه قال في كتابه " سفينة النجاح " : " أما سلسلة خلافة السادة القادرية فقد أخذتها عن أخي وشيخي الفاضل العالم والعارف الكامل ، الجامع بين الشريعة والحقيقة الطالب للمعرفـة والطريقة سيدي وشيخي الشيخ محمد جيلاني المعروف باسم الشيخ نور الدين مسانجي بن محمد حميد القريشي الرانيري قدس الله سره و أنار ضريحه " ، ورد ذلك في كتاب " شبكة العلماء " ، ص ١٨٧ .

(٥٠) كان المقاسري عالما كبيرا قل من يماثله ، فهو صوفي لا شك أنه بالرجوع إلى تعاليمه والوقوف على تاريخ حياته كان أهم المجددين في تاريخ الإسلام بالأرخبيل . لقد عبرت التجربة التي عاشها عن عدم انفصاله بتصوفه عن الأمور الدنيوية و ذلك خلافا لبعض المتقدمين من الصوفية الذين كانوا يميلون إلى نبـذ الأمور الدنيوية . وما دعا إليه المقاسري في تعاليمه وتقيّد به في ممارساته الدينية إنما يدل على حركية ذات أبعاد واسعة. وكما كان الرانيري والسنكلي بالنسبة لسلطنة أتشيه، فإن المقاسري قد لعب دورا هاما في الحياة السياسية لسلطنة "بانتن " ، وليس في ذلك فحسب بل تقدم الآخرين فتقلد زمام الأمور لقيادة الحرب ضد هولندا عندما قبض على السلطان " أجينغ تيرتاياسا "[*Ageng Tirtayasa*] . بيد أن المقاسري، كما جرت به العادة ، لدى شبكة العلماء في القرن السابع عشر الميلادي، لم يستخدم الطرق الصوفية للتعبئة الجماهيرية خاصة لأغراض الحرب وكان المقاسري يؤلف كتبه باللغة العربية كاملة، والذي مكنه من ذلك طول المدة التي كان يقضيها في الشرق الأوسط، ويكاد يكون جميع مؤلفاته في التصوف وعلاقاته بعلم الكلام . وكما فعله الرانيري والسنكلي فإن المقاسري ينقل كثيرا من أقوال

السابقين كالغزالي والجنيد البغدادي و ابن عربي و الجيلي وابن عطاء الله تقوية لحججه و تثبيتا لأفكاره .

وكان أهم الأسس التي ارتكز عليها تصوف المقاسري تنقية العقيدة لوحدانية الله ، فبذل جهودا لبيان مخالفته تعالى للحوادث . وقد كانت هذه الفكرة هي ما ارتكز عليها موقف سابقيه في شبكة العلماء، وأبان أن وحدانية الله مطلقة لا يحدها حد وفقا لما قررته الايات القرانية من سورة الإخلاص {السورة رقم ١١٢} و آيات أخرى كمثل قوله تعالى " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " ، الآية : ١١ من السورة رقم ٤٢. فالتوحيد هو صلب العقيدة الإسلامية ، من أنكره فقد كفر . ومثل التوحيد كمثل شجرة أغصانها وأوراقها المعرفة بالله وثمرتها عبادة الله ، ومن ليس بعارف فهو جاهل ومن ليس بعابد ففاسق .

ورغم إيمانه بمخالفته تعالى للحوادث فإن المقاسري يؤمن بإحاطة الله لمخلوقاته وهي معه أينما كانت . بيد أنه كان حريصا على أن يجنب نفسه عقيدة وحدة الوجود بأن قال انه وإن كان الله يعبر عن نفسه أو يتجلى من خلال خلقه فلذلك لا يعني بالضرورة أن يكون الخلق هو الله . فالموجودات كلها وجود مجازي وليس لها وجود حقيقي. وهكذا فقد امن المقاسري كما آمن السنكلي بأن الخلق بمثابة ظلال الله و ليس الله نفسه. ويرى المقاسري أن معية الله لخلقه لا حضورا ماديا ولا طبيعيا في ذاته .فعلى أساس فكرتي الإحاطة والمعية ينزل الله عن إطلاقه المطلق، بينما يقوم الإنسان بالترقي إليه، وتلك هي العملية التي تودي إلى اللقاء بينهما. ومع ذلك، ينبهنا المقاسري إلى أن هذا اللقاء لا يتمثل في صورة اتحاد بين الله والإنسان، وكلما ازداد اتضح أن الله هو الله والإنسان هو الإنسان . ولهذا فقد اتضح أن المقاسري يعارض نظرية وحدة الوجود كما يعارض عقيدة الحلول . فقد رأى كما قرره القرآن " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " . وعلى العكس أخذ بدلا من ذلك عقيدة وحدة الشهود. وهكذا ، فبينما هو يجنب نفسه قبول فكرة وحدة الوجود المثيرة للجدل عند ابن عربي وفكرة الحلول، يقوم المقاسري بتبني فكرة الشهود عند أحمد السرهندي والشاه ولي الله.

وهناك فكرة كلامية بارزة عند المقاسري حاول فيها أن يوفق بين الآيات المتشابهة التي تبدو في ظاهرها متعارضة، خاصة فيما يتعلق بصفات الله تعالى. فالعقيدة الإسلامية تقضي بأن لله صفات تبدو في ظاهرها متعارضة ككونه تعالى أولا و أخيرا ، وظاهرا وباطنا، وهاديا ومضلا. فيرى المقاسري أن هذه الصفات وأمثالها التي تبدو في ظاهرها متعارضة يجب أن نفهمها على أساس عقيدتنا بوحدانية الله ووفقا لها ، فإذا اعتبرنا بصفة دون أخرى فذلك سيؤدي إلى اعتقاد فاسد و عمل باطل . فحقيقة صفة الله هي وحدة هذه الصفات ولا أحد يستطيع أن يتحقق بأسرارها إلا أولئك الذين أنعم الله عليهم بالمعرفة.{انظر المرجع السابق صفحة ٢٠٤ و ٢٠٥ }.

(٥١) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٧ .

(٥٢) توفي عام ٨٢١ هـ .

(٥٣) توفي عام ٨٣٣ هـ ، وفي عهده أبرم الاتفاق الأول بين السادة الطالبيين، ويقتضي هذا الاتفاق أن يقوم هؤلاء السادة بالحق بمقتضى كتاب الله وسنة رسوله بينهم لهم وعليهم، وأقاموا الإمام عمر المحضار رئيسا لهم ونقيبا عليهم بمنزلة نقيب النقباء، وجعلوا معه عشرة من النقباء عليهم يدور محور صلاح الأمور، ويرجعون في أمرهم إلى النقيب الأكبر ، ثم جعلوا على كل فرد من العشرة المذكورين خمسة كفلاء عليه بالقيام للعمل في صلاح الأمور باللطف والإحسان. ويشتمل الاتفاق على أنه إذا اختلف العشرة في أمر يكون الأرجح ما وافق عليه النقيب الأكبر . وإذا خالف أحد العشرة ما تعهد به أبدل مكانه غيره، وإذا ظلم أحد من النقباء ولم يقدر أن يزيل الظلمة فجميع العلويين عونٌ له. والتحري في إخراج صدقات مساجدهم، إذا غاب النقيب الأكبر

أقام رجلا ينوب عنه عليه. وإذا وقعت مظلمة على أحد العلويين من غيرهم ولم ينصفه منها فعلى النقيب الأكبر هجرانه، والضامن على ما في العقد – زيادة على ما تقدم – كل من يتولى حصن تريم من آل يابي أو غيرهم .وقع هذا الاتفاق حسب استقراء العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد في حدود ٨٢٠ أو ٨٢١ هجرية . عقد الاتفاق الثاني في ٢٥ ربيع الثاني ١٠٧٣ هجرية حضره من العلويين أكثر من أربعين رجلا. في هذا الاتفاق انتخب السيد النقيب محمد المصطفى المتوفى في ٧ شوال ١١٠٧ هجرية، ابن زين العابدين المتوفى ١٠٤١ هجرية، بن عبد الله المتوفي ١٠١٩ هجرية، بن شيخ بن عبد الله العيدرس. ويشتمل هذا الاتفاق على وجوب التناصح في الدين والتعاون على البر والتقوى وعلى اجتماع الكلمة والتأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والتناصر والتعاون على ما يوافق الكتاب و السنة وسيرة السلف الصالح، وإصلاح ذات البين ، والقيام على المعتدي حتى يردوه إلى الحق بالحسنى، وأن تكون يدهم واحدة على من يخالف الحق و أصر عليه ، وأن يكفوا عن الغيبة ، فلا يذكر أحد من ورائه إلا بخير، وإذا ظهر من أحد ما يشينه في دينه يعرفه في وجهه ، وإذا نابتهم نائبة اجتمعوا للتشاور ولا ينفرد أحد منهم بمصلحة يسوقها إلى نفسه وهو قادر أن يشرك إخوانه، وألا يتحاسدوا أو يتباغضوا أو يتدابروا، وأن يكون كل واحد سليم الصدر على أصحابه يحب لهم الخير و يكره لهم الشر ، وكل أمر يوجه إليهم من الأمور الهامة يرجعون فيه إلى والي أمرهم وهو السلطان إن كان فيما يرجع إليه فيه حسب السياسة المعروفة، وكل أمر تقتضيه السياسة المعهودة التي لا جور فيها ولا خروج عن العدل يسلمونه، إلا أن يسمح لهم أو للبعض منهم بذلك. وإذا حصل على أحد منهم من إخوانه السادة ما يكرهه يدعوه إلى تركه، فإن تركه... وإلا رفعه إلى الذي رضوا بتقديمه منهم ، وإن حصل على أحد منهم جور من الدولة رفعوه إليهم وعرفوهم به وسألوا منهم لكشفه. كبار النقباء أولهم سيدنا الإمام عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف، والسيد عبد الله العيدرس {المتوفى عام ٨٦٥ هجري} وابنه السيد أبو بكر {المتوفى عام ٩١٤ هجري} والسيد أحمد بن علوي با حجدب {توفي عام ٩٧٣ هجري} و زين العابدين علي وابنه محمد المصطفى .

النقباء العشرة في الاتفاق الأول و الضمناء

١ – **عبد الله بن عبد الرحمن السقاف** {المتوفى عام ٨٥٧ هجري}

الضمناء :

إخوته علي {المتوفى عام ٨٤٠ هجري} وإبراهيم {المتوفى عام ٨٧٥ هجري} وحسين { المتوفى عام ٨٥٢ هجري} و عقيـل {المتوفى عام ٨٧٦ هجري} و أحمـد بن أبي بكر السكران {المتوفى عام ٨٦٥} .

٢ ـــ **عبد الله بن علوي بن محمد** مولى الدويلة الذي أرسل الكتاب إلى أبناء السيد عبد الرحمن السقاف وجميع العلويين يذكرهم بهذا العقد .

الضمناء :

- أحمد { المتوفى عام ٨٧٣ هجرى } بن محمد جذلقـات بن علـوي بن محمد مولى الدويلـة (ابن أخيه) ،
- علي بن علوي بن محمد مولى الدويلة (أخوه) ،
- علي بن محمد جذلقات (ابن أخيه) ،
- علوي المثنى بن علوي بن محمد مولى الدويلة (أخوه) ،
- علوي بن عبد الرحمن بن محمد جذلقات .

٣ – **محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علوي بن الفقيه المقدم {المعروف بالمنفر}** .

الضمناء :

- ابنه علوي بن محمد ،
- عبد الله بن محمد شعنون ،
- محمد بن علوي الشيبه بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن علوي بن الفقيه المقدم ، عقبه آل المسيلة و آل تروم .
- أحمد بابريك بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن علوي بن الفقيه المقدم، جد آل بابريك.
- علوي بن أحمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن علوي بن الفقيه المقدم .

٤ –حسين شيخ بن علي بن محمد مولى الدويلة بن علي بن علوي بن الفقيه المقدم.

الضمناء :

- أخوه علي بن شيخ ، جد آل شيخ بن علي بن شيخ بالمخا ،
- أخوه علوي بن شيخ ،
- محمد بن عبد الله {عبود} بن علي بن محمد مولى الدويلة ،
- علي بن عبد الله {عبود} ،
- علوي بن حسن الورع بن محمد مولى الدويلة ،

٥ – الفقيه حسن بن علي بن عبد الله بن محمد مولى الدويلة .

الضمناء :

- عمه عبد الرحمن الأجمش بن عبد الله ،
- عمه حسين بن عبد الله ،
- علوي {المعروف بالأطلس} بن محمد {بادفن} بن عبد الله ، ابن عمه ،
- محمد {حمدون} بن أحمد {عرف بمقشم} بن عبد الله ، ابن عمه ،
- علي بن أحمد بن حسن الورع ،

٦ – حسين بن علي بن محمد بن أحمد بن الفقيه المقدم .

الضمناء :

- أخوه حسن جبهان ،
- عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفقيه المقدم {ابن أخيه} جد آل باعمر صاحب الحمراء .
- حسن المعلم بن محمد بن علي بن محمد ، جد آل السليط و آل قسم،
- أبو بكر بن محمد بن علي بن محمد ، جد آل الكاف و آل الجفري .
- علي بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفقيه المقدم .

٧ – أبو بكر بن حسن بن أبي بكر الورع بن أحمد بن الفقيه المقدم

الضمناء :

- ابنه حسن ،
- محمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر الورع ،
- أحمد باعمر بن عمر بن أحمد بن أبي بكر الورع ،
- علي باعمر بن محمد بن أحمد بن أبي بكر الورع ،
- أخوه أحمد بن عمر الملقب بالختم ، جد آل الختم .

٨ – علي بن محمد الشهير بجمل الليل با حسن بن حسن المعلم بن محمد أسد الله بن حسن بن علي بن الفقيه المقدم .

الضمناء :

- عمه أحمد {با حسن} بن حسن المعلم ،
- ابنه حسن بن علي
- حسن بن القاضي بعدن أحمد بن محمد أسد الله ،
- حسين بن علي بن أحمد بن محمد أسد الله ،
- علوي بن أبي بكر {المعروف بالحبشي} بن علي بن أحمد بن محمد أسد الله ،

٩ – محمد بن عمر بن علي بن عمر بن أحمد بن الفقيه المقدم المعروف بالرخيلة .

الضمناء :

- باعبدونه ، من آل عمر بن أحمد بن الفقيه المقدم ،
- ابنــه علوي ،
- أحمد بن محمد با عبدونه بن عبد الله بن محمد بن عمر بن أحمد،
- عبد الله بن علي بن عمر بن أحمد ،
- محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد ،

١٠ – محمد {المتوفى عام ٨٦٢ هجري} بن علي {صاحب الحوطة المعروف بصاحب عبديد } بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوي المعروف بعم الفقيه بن محمد صاحب مرباط

الضمناء :

- محمد بن حسن الطويل بن محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوي عم الفقيه جد آل با حسن الحديلي .
- فرج بن أحمد {يلقب بمرفة توفي عام ٨٧٢ هجري} بن محمد بن عبد الله بن أحمد ، جد آل با فرج .
- سعد بن عبد الله بن أحمد بن علوي بن أحمد ، جد آل با سعد ،
- عبد الرحمن {صاحب مسجد بايطية} بن أحمد بن علوي بن أحمد حسن بن أحمد مسرفة. (عن مجلة الرابطة ج ١٠ في جمادى الأولى ١٣٤٧ بقلم السيد علوي بن طاهر الحداد بتصرف في الترتيب) .

{ ذكرت هذه المعلومات في حاشية المحقق محمد ضياء شهاب على كتاب " شمس الظهيرة " للعلامة عبد الرحمن المشهور ، الجزء الثاني ، صفحة ٦١٤ – ٦١٨ } .

(٥٤) توفي عام ٨٦٥ هجري ،
(٥٥) توفي عام ٨٩٥ هجري
(٥٦) توفي عام ٩١٤ هجري
(٥٧) توفي عام ٩٧٣ هجري ،
(٥٨) توفي عام ١٠٤١ هجري ،
(٥٩) توفي عام ١١٠١ هجري .
(٦٠) ذكر محقق محمد ضياء شهاب في حاشيته على كتاب " شمس الظهيرة " في الصفحة ٦١١ ما يلي بشأن نقابة السادة الطالبيين الذين اعتاد البعض تسميتهم بالسادة العلويين :

" قال أبو الحسن الماوردي في كتابه " الأحكام السلطانية " في ولاية النقابة على ذوي الأنساب" هذه النقابة موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا

يساويهم في الشرف لكونه عليهم أجنبي، وأمره فيهم أمضى، روي عن النبي (ﷺ) وآله وسلم أنه قال: "أعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فإنه لا قرب للرحم إذا انقطعت وإن كانت قريبة، ولا بعد بها إذا وصلت وان كانت بعيدة " . إلى أن قال " والنقابة على ضربين: خاصة وعامة . فالخاصة هي أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامة حد، فلا يكون العلم معتبرا في شروطها ". ويلزمه في النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقا :

- **أحدها:** حفظ أنسابهم من داخل فيها و ليس منها ، فيلزمه حفظ الخارج منها كما يلزمه حفظ الداخل فيها .
- **الثاني:** تمييز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتى لا يخفى عليه منهم بنوات ولا يتداخل نسب في نسب ، ويثبتهم في ديوانه على تمييز أنسابه .
- **الثالث:** معرفة من ولد منهم من ذكر أو أنثى فيثبته، ومعرفة من مات منهم فيذكره حتى لا يضيع نسب المولود إن لم يثبته، ولا يدعي نسب الميت غيره إن لم يذكره.
- **الرابع:** أن يأخذهم من الآداب ما يضاهي شرف أنسابهم و كرم محتدهم لتكون حشمتهم في النفوس موفورة وحرمة رسول الله (ﷺ) فيهم محفوظة.
- **الخامس:** أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة، ويمنعهم من المطالب الخبيثة حتى لا يستقل منهم متبذل ولا يستضام منهم متذلل .
- **السادس:** أن يكفهم عن ارتكاب المآثم ويمنعهم من انتهاك المحارم ، ليكونوا على الدين الذي نصروه أغير وللمنكر الذي أزالوه أنكر، حتى لا ينطق بذمهم لسان ولا يشنأهم إنسان.
- **السابع:** أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم والتشطط عليهم لنسبهم فيدعوهم ذلك إلى المقت والبغض ويبعثهم على المناكرة والبعد، ويندبهم إلى استعطاف القلوب وتألف النفوس ليكون الميل إليهم أوفى والقلوب لهم أصفى.
- **الثامن:** أن يكون عونا لهم في استيفاء الحقوق حتى لا يضعفوا عنها، وعونا عليهم في أخذ الحقوق منهم حتى لا يمنعوا منها ، ليصيروا بالمعونة لهم منتصفين ، فإن من عدل السيرة إنصافهم وانتصافهم .
- **التاسع:** أن ينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم العامة في نهم ذوي القربى من الفيء والغنيمة الذي لا يختص به أخذه حتى يقسم بينهم حسب ما أوجبه الله تعالى لهم.
- **العاشر** : أن يمنع الأيامى من أن يتزوجن إلا من الأكفاء، لشرفهن على سائر النساء صيانة لأنسابهن و تعظيما لحرمتهن أن يزوجهن غير الولاة أو ينكحن غير الأكفاء .
- **الحادي عشر:** أن يقوّم ذوي الهفوات منهم فيما سوى الحدود بما لا يبلغ به حدا ولا ينهر به دماء، ويقيل ذا الهيئة منهم عثرته و يغفر بعد الوعظ زلته .
- **الثاني عشر:** مراعاة وقوفهم بحفظ أصولها وتنمية فروعها. وإذا لم يرد إليها جبايتها راعى الجباة لها فيما أخذوه، وراعى قسمتها إذا قسموه، وميز المستحقين بها إذا خصت، وراعى أوصافهم إذا شرطت، حتى لا يخرج منهم مستحق، ولا يدخل فيها غير محق ، انتهى .

وفي كتاب " حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر " كلام في النقابة مفصّل شروطها ومقاصدها ، تأليف عبد الرزاق البيطار ج ٢ ص ١٠٤٣ ، والكتاب موجود بمكتبة الحرم بمكة المكرمة .

(٦١) انظر كتاب " شبكة العلماء " ، صفحة ١٨٩ حيث يقول المؤلف ما يلي: " وكانت علاقة المفاسري بالقرني وثيقة جدا، وقيل انه أصبح موضع ثقة القرني لنسخ كتاب "الدرة الفاخرة " و"رسالة في الوجود " كلاهما لنور الدين الجامي المتوفى ٨٩٨ هجرية / ١٤٩٢ م و نسخ كتاب " شرح الدرة " لعبد الغفور اللاهوري المتوفي ٩١٢ هجرية / ١٥٠٦ م. وقد كتب القرني نفسه

فيما بعد شرحا للدرة الفاخرة سماه " التحريرات الباهرة لمباحث الدرة الفاخرة ". وكل هذه المؤلفات نجدها تنزع المنزع والاتجاه نفسه في التوفيق بين الآراء المتعارضة لدى المتكلمين والفلاسفة حول مسائل تصوفية فلسفية تتعلق بالله . ونجد هناك انطباعا بأن المقاسري كان يقرأ ويدرس هذه المؤلفات الثلاثة عند القرني و تحت رعايته وهو يقوم بالتدريس .

وخلافا للسنكلي، فإن المقاسري لم يذكر العلوم الدينية التي درسها على أولئك العلماء، واكتفى بالإشارة إلى شيوخه في معرض كلامه عن تعاليمهم وسلاسلهم أو بزيادة ملاحظات ختامية في نهاية بعض مؤلفاته. ونظرا لشمول المحاضرات العلمية من أولئك العلماء لا تجانب الصواب إذا قلنا: إن المقاسري لم يكن يتعلم التصوف فحسب، بل الحديث والتفسير والفقه وما إلى ذلك من فروع العلم المختلفة على أيديهم .

وبجانب تلك الأسماء اللامعة من الشيوخ، ذكر المقاسري شيوخا آخرين تتلمذ على أيديهم فمنهم محمد المزروع المدني، وعبد الكريم اللاهوري ومحمد ميرزا الشامي . وبينما لم أستطع التحقق من هوية الأول، فإن الثاني يحتمل أن يكون هو عبد الكريم الهندي اللاهوري المقيم بالحرمين والساطع نجمه في القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي، ويبدو أنه كان مرتبطا بشبكة العلماء وهو رفيق عبد الله البصري وأحمد النخلي وتاج القلعي وأبي طاهر القرني. ويصح القول بأن المقاسري كان على علم بالتقاليد العلمية الإسلامية بالهند من خلال عبد الكريم اللاهوري .

وأما محمد ميرزا الشامي فمن المحتمل جدا أن يكون هو محمد ميرزا بن محمد الدمشقي، وهذا الافتراض مبني على أن نساخ مؤلفات المقاسري يخطئون أحيانا كثيرة في نقل بعض أسماء شيوخ المقاسري. فقد كتبوا مثلا محمد الزجاجي النقشبندي بدلا من محمد بن عبد الباقي الزجاجي النقشبندي ومحمد باقي الله اللاهوري بدلا من عبد الكريم اللاهوري أو محمد بن عبد الباقي النقشبندي .

وهناك اعتبارات أخرى جعلتنا نعتقد أنّ محمد ميرزا من شيوخ المقاسيرى ، فهو أولا تلميذ تاج الدين الهندي النقشبندي، وكما هو الحال بالنسبة لمحمد بن عبد الباقي الزجاجي، فإن تاج الدين أخذ بيد محمد ميرزا إلى الطريقة النقشبندية بمكة، وإذن فقد كانوا رفاقا. ثم إنه إذا كان المقاسري أخذ الطريقة عن محمد بن عبد الباقي فمن المحتمل أن يقترح عليه شيخه هذا أن يلتحق بمحمد ميرزا عند مغادرته اليمن متوجها إلى الحرمين. لقد انتقل محمد ميرزا من دمشق للإقامة بالمدينة لمدة أربعين عاما قبل إقامته بمكة حيث توفي بها سنة ١٠٦٨ هجرية / ١٦٥٦ م بعد سنتين فقط من انتقاله إليها، ويعرف عن محمد ميرزا كونه صوفيا يشرح تعاليم ابن عربي بشكل مبسط ليسهل استيعابها .

(٦٢) انظر مقال د. نبيلة لوبيس في العدد رقم /١١/ من مجلة " آلو إندونيسيا " صفحة ٢٥ ، كما وردت معلومات هامة في كتاب " شبكة العلماء " حول العلامة أبي البركات الخلوتي نقتبس منها ما يلي: "ولد أيوب الخلوتي بدمشق وتوفي بها، وكان صوفيا محدثا سوريًا متمسكا في علوم الظاهر من فقه وحديث وتفسير وما إلى ذلك ومتحققا بعلوم الباطن من كلام و تصوف. وقد قال عنه المحبي والحموي أنه " الأستاذ الأكبر " وأنه لا يوجد له مثيل في سعة علمه و علو مقامه في دمشق في زمانه . ولذلك فلا عجب أن يأخذ السلطان إبراهيم – حاكم سورية – بنصائحه في المسائل المتعلقة بالأحكام الشرعية والتصوف. و قد زاد من رفعة سمعته الطيبة كونه مؤلفا غزير الإنتاج، وكانت مؤلفاته تشمل مجالات واسعة من التصوف و الكلام و الحديث وأحزاب الخلوتية. وفي مؤلفاته كان يحاول أن يقدم تفسيرات جديدة لأفكار ابن عربي وارائه، خاصة فيما يتعلق بفكرة " الإنسان الكامل " منطلقا في ذلك من وجهة نظر الشريعة . وكان له علاقات

واسعة من خلال دراسات الحديث ، وكانت سمعته العلمية جعلت حلقاته الدراسية مشهورة لدى المريدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .
ولم يذكر المقاسري متى كان التحاقه بأيوب الخلوتي، بيد أن من الثابت صحبته لمدة من الزمن، أكد له خلاله القدرة على استيعاب العلوم الظاهرة منها والباطنة، واحتل بها موقفا في قلب أيوب الخلوتي فمنحه لقب " التاج الخلوتي ". وقد أثنى المقاسري في مؤلفاته على أيوب الخلوتي وأورد اسمه في سلسلة الخلوتية. وان منهج المقاسري الذي كان يرجع الفضل في إرسائه إلى أيوب الخلوتي ليجعلنا نعتقد أنّ هذا العالم الدمشقي لم يكن مجرد صوفي كبير بقدر ما كان عالما علامة في العلوم الشرعية .
{انظر المرجع السابق نفسه ، ص ١٩٠ – ١٩١ }.

(٦٣) ذكرت د. نبيلة لوبيس في مقالها عن الشيخ المقاسري في العدد /١١/ من مجلة " آلسو إندونيسيا " أن المقاسري واجه السلطان بالمعاصي فأجابه السلطان بما يلي :
١ – بدون القمار والميسر ستغلق الأسواق ، وهذا معناه سد باب الرزق أمام الناس ،
٢ – بدون شرب الخمر ستقل شجاعة العساكر في الحرب
٣ – بدون الأفيون ستضيع القدرة على التخيل
٤ – بدون سباق الديوك لن يوجد فرق بين النبلاء و غيرهم .

(٦٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٥ ، و كتاب " شبكة العلماء " ، ص ١٩٥ .

(٦٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٥ ، وكتاب " شبكة العلماء " ، ص ١٩٥ .

(٦٦) انظر صفحة ٣٤ من كتاب " شبكة العلماء " حيث ورد المقطع التالي : " وإذا كان الكلام يدور حول العلاقات مع الشرق الأوسط، فإن أتشيه تمتاز بأنها هي الوحيدة من بين الدول الإسلامية بالأرخبيل التي لها علاقات سياسية وطيدة مع الخلافة العثمانية ، لكن تجب ملاحظة أن كثيرا من الدول الإسلامية في الأرخبيل قد كان لها علاقات مستقرة مع الحجاز منذ القرن السابع عشر الميلادي. ففي سنة ١٠٨٤ هجرية / ١٦٣٨ م حصل الحاكم في أتشيه على لقب " السلطان " من شريف مكة نتيجة الوفد الذي بعثه إلى الحرم، كما أنه حصل على العلم واللباس المقدسين وما يعتقد أنه من أثر رجلي النبي (ﷺ) من حاكم الحرمين، وكل هذه الهبات من شريف مكة قد عرضت على موكب يدور حول مدينة بانتن بمناسبة المولد النبوي، ويستمر بعد ذلك تبادل الرسائل والهدايا بين السلطان بانتين وحاكم الحرمين حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي ".

(٦٧) انظر د. أزيوماردي أزرا ، " شبكة العلماء " ، ص ١٩٥ .

(٦٨) المرجع السابق نفسه ، ص ١٩٥ .

(٦٩) يقول د . ازيومردي أزرا ، في كتابه " شبكة العلماء: " إن القائد الهولندي " فان هايل " قام بالتنكر فارتدى لباسا عربيا و أظهر نفسه كمسلم حتى استطاع أن ينفذ إلى أعماق دفاعات المقاسري حتى قبض عليه . {انظر صفحة ١٩٧ من الكتاب المذكور} .

(٧٠) يرى د. أزيزمردي أزرا ، في الصفحة ١٩٨ من كتابه المذكور سابقا أنه: " من الأهمية أن نلاحظ أن سريلانكا من المناطق خارج الأرخبيل التي سيطرت عليها هولندا في الفترة ما بين ١٠٥٠ هجرية / ١٦٤٠ م و ١٢١١ هجرية / ١٧٨٦ م ، وتمثل منفى ثابتا بعد " تانجنغ هارابان " تنفى إليه الشخصيات من ملايو – إندونيسيا الذين تم الحكم عليهم بالنفي . ولموقعه القريب من الأرخبيل كانت سريلانكا مفضلة لدى هولندا من " تانجونغ هارابان " لنفي أولئك الذين يشكلون خطورة أكثر إليها. وقد بدأت هولندا تجعل سريلانكا منفى لشخصيات الملايو – إندونيسيا فور احتلالها . و ليست لدينا معلومات إلا شيئا يسيرا عن حياة أولئك الذين تم نفيهم قبل القرن الثامن عشر الميلادي ، ولكن مما لا شك فيه أن المقاسري هو أبرز الشخصيات من

ملايو – إندونيسيا المنفية إلى سريلانكا. وقد يعتبر نفي المقاسري إلى سريلانكا من وجهة نظر معينة رحمة سخفية غير ظاهرة، فعندما كان بانتين وهو يواجه اضطرابات سياسية لم ينصرف كليا عن اهتماماته العلمية ، بل استطاع في ذلك الوقت أن ينتج بعض المؤلفات. أما وقد انقبع الآن في سريلانكا فإن له فرصة أكثر للرجوع بكليته إلى الحياة العلمية الخالصة . وفي تقديمه لكتاب " سفينة النجاح " يرجو المقاسري أن يكون لوروده إلى سريلانكا – بتوفيق الله – حكمة كما كانت لآدم فيما اعتقد المسلمون بأن سريلانكا هي أول أرض خط فيها آدم رجله عندما هبط من الجنة . وقد كرس المقاسري جهوده في التأليف ".

(٧١) وردت تلك المعلومات في مقال د. نبيلة لوبيس ، في مجلة " ألو إندونيسيا " العدد رقم /١١/ صفحة ٢٥ .

(٧٢) وبالنسبة للملايويين فإن تانجونغ هارابان تمثل أسوأ منفى عرفوه . فمنذ أن استعمرتها هولندا سنة ١٠٦٤ هجرية / ١٦٥٢ م كان عدد من الشخصيات البارزة في ملايو – إندونيسيا الذين يشكلون خطورة على هولندا ينفون إلى هناك، بيد أنها – كما كانت سريلانكا – ليس كل الملايويين المتواجدين فيها منفيين، بل كان بعضهم عبيدا تم إيفادهم إليها للقيام بحرث الأرض الخاصة للهولنديين فيها . وقبل ظهور المقاسري كان المنفيون الأوائل و العبيد يمثلون نواة للمجموعة الصغيرة من المسلمين المعروفين باسم خليج ملايو " Cape Malays " والمؤرخون للإسلام في أفريقيا متفقون على أن المقاسري أهم المنفيين من ملايو – إندونيسيا إلى جنوب أفريقيا . وقد وصل المقاسري إلى تانجونغ هارابان في ٢ أبريل ١٦٩٤ م ومعه معظم الأفراد البالغ عددهم ٤٩ هم الذين كانوا يرافقونه من قبل إلى سريلانكا . وبعدما مضى شهران من وصوله حمله الحاكم الهولندي ومرافقوه إلى " زانفليت Zanviler " و هي قرية زراعية تقع على منبع نهر " إيرستي Erste " وذلك حتى لا يتصل بأتباع نظام الحكم القديم كما قال "جيفريس Jeffreys " ولعلاقته التاريخية بالمقاسري أطلقت على المنطقة اسم " مكاسر " وشواطئها اسم شواطئ " مكاسر " .

وقد عومل المقاسري معاملة حسنة بشكل عام من جانب الحاكم الهولندي في تانجونغ هارابان ، ولقي ما يستحق من الاحترام ، بل لقد زامله الحاكم " شيمون فاندير ستيل Simon Vander Stel " ثم ابنه " وليم ادريان Willem Adrian " . ومع ذلك فإنهم يعرفون تماما أن المقاسري قد يعرضهم لمشاكل، ولذلك حاولت هولندا أن تعزله هو وأتباعه الملايويين الذين تم نفيهم إلى هذا المكان من قبل. ولكن محاولتهم قد باءت بالفشل . فعاد المقاسري رمزا لوحدة الملايويين الإندونيسيين، تلك الوحدة التي لم يكن الغرض منها مواجهة هولندا وإنما لتثبيت عقيدتهم وممارسة أعمالهم الإسلامية. فقد قام المقاسري الذي أصبح إماما الآن ومعه تلاميذه الاثنا عشر بعقد دروس للمنفيين الآخرين في مساكنهم مستخفين. ومن مثل هذه الأنشطة لم يكن المقاسري يستطيع أن يحافظ على إيمان من كانوا معهم فحسب بل استطاع أيضا أن يزيد من عدد المؤلفة قلوبهم .

ويبدو أن المقاسري كان يركز معظم جهوده لكسب أتباع جدد ، ولا يوجد سند نستطيع أن نثبت به انه كان يخصص من أوقاته للتأليف، لأنه لا شيء في مؤلفاته المعروفة يشير إلى أن كتابا ما ألفه في جنوب أفريقيا . وهذا يدل على أن المقاسري قد وضع في اعتباره أن الدعوة بالتعليم المباشر أهم لمجتمعه الملايوي الإندونيسي . وبالاختصار كان يركز اهتمامه على الحفاظ على تثبيت العقيدة الإسلامية ، ولا غرو فإن هولندا لم تكن تحرم على المسلمين أن يمارسوا عباداتهم في الأماكن المكشوفة فحسب ، بل قامت بالتبشير المسيحي و أرغمت العبيد المسلمين في تانجونغ على اعتناق المسيحية ، بل لقد تأسف العالم الإنجيلي البروتيستانتي الهولندي " زويمر

Zwemer " على فشل " بطرس كالدين Petrus Kalden " راهب الكنيسة الهولندية في " كيف تاون " في جعل المقاسري يعتنق المسيحية مع أنه كان يعيش في أرض الراهب ، وقد قال زويمر صراحة " أن كالدين قد ضيع فرصة ذهبية " . { انظر صفحة ٢٠٠ – ٢٠١ – ٢٠٢ من كتاب " شجرة العلماء " .

(٧٣) مثل عبد الصمد الفاليمباني في سلطنة فاليمبانغ ، ومحمد أرشد البنجري في كاليمنتان ، وعبد الوهاب البوقيسي في سولاويسي ، وداود بن عبد الله في فطاني ، ومحمد نفيس في كاليمنتان أيضا .

(٧٤) يعتبر الأولياء التسعة {والي سونغو} من كبار العلماء المسلمين في إندونيسيا ، و هؤلاء الأولياء هم :

١ – سونن غيرسيك {ملك إبراهيم} ، [*Sunan Gresik*]

٢ – سوان أمفيل { علي رحمة الله } ،[*Sunan Ampel*]

٣ – سونن بونانغ {إبراهيم بن علي رحمة الله }،[*Sunan Bonang*]

٤ – سونن قيري {محمد عين اليقين}،[*Sunan Giri*]

٥ – سونن دراجات {هاشم}، [*Sunan Drajat*]

٦– سونن كاليجاغا { رادين شهيد بن حاكم توبان ومستشار السلطان رادين فتح الله في ديماك }،

٧ – سونن قـــدس { جعفر الصادق} أو رادين أوندونغ ،[*Sunan Kudus*]

٨ – سونن مـــوريـــا {رادين عمر سعيد} أو رادين براووتو ، [*Sunan Muria*]

٩ – سونن قونونغ جاتي { شريف هداية الله}. [*Sunan Gunungjati*]

{انظر موسوعة " دائرة المعارف الإسلامية " باللغة الإندونيسية ، الجزء الخامس – مطبوعات جاكرتا – مؤسسة اختيار الجديدة بالتعاون مع مؤسسة " فان هوف " الهولندية .

(٧٥) أسهب الباحث فيصل السامر في مقالته المعنونة بـــ: " الإسلام في إندونيسيا " المنشورة في العدد رقم /١/ من مجلة " عالم الفكر " الكويتية عام ١٩٨٤، في التحدث عن هذه المسألة الفنية المتعلقة بالمسرح والموسيقى ومحاولة العلماء المسلمين الإندونيسيين التوفيق بين التراث المحلي المتأثر بالهندوسية و بين تعاليم الإسلام. واقتبس هنا مقطعاً ورد في الصفحة ٢٢٢ من المقال حول هذا الموضوع: "بقي أن نوضح موقف الإسلام من الفنون الإندونيسية القديمة التي ورثوها من المجتمعات الوثنية والمتأثرة بالحضارتين الهندية والصينية. وفي مقدمة هذه الفنون الموسيقى والمسرح، الفرقة الموسيقية الجاوية { الجاميلان *Gamelan* }. وهي مكونة من آلات تخرج أصواتا بالطرق وذات ايقاع صاخب، وهي تعزف عادة في حفلات الرقص وفي التمثيل الجاوي التقليدي { الوايانغ *Wayang* }. لقد تبنى السلطان {آغونغ*Agung*} هذه الموسيقى حيث وجدت في عهده أروع فرق {الجاميلان} في أواسط جاوا. وجدير بالذكر أن الفرق المرتبطة بالبلاط لم يكن يسمح لها بالعزف إلا في المناسبات الدينية كالمولد النبوي والأعياد الإسلامية. ومن هنا دخل على الموسيقى الجاوية تطور جديد، فأصبحت موسيقى ذات طابع ديني وأقرب إلى البساطة والصوفية. وفي عهد {آغونغ} اخترعت آلات موسيقية جديدة وأصوات موسيقية جديدة كذلك .

وفي حفلات البلاط في جاوا الوسطى ازدهرت فنون الرقص الجاوي التقليدي والقديم والمرتبط بطقوس دينية سحرية كانت سائدة قبل دخول الإسلام . وكانت فرقة الموسيقى الرسمية ترافق مجموعة الرجال والنساء الراقصين. وفي العهد الإسلامي كانت حفلات الرقص هذه تقام في الأعياد ، وتمارس الرقص في حركات إيقاعية تعبيرية – نبيلة . وكانت العادة أن تشترك فتيات من أسر عريقة {عدا أسرة السلطان} في أداء هذا الرقص الجماعي المصحوب بالغناء والموسيقى الإيقاعية الرتيبة. وتقوم بالرقصة الأولى التي تدعى باللغة الإندونيسية { بداية} –

وهو لفظ عربي تسع فتيات في وقت واحد يمثلن حوريات بحر جاوا ، ثم تأتي رقصة أخرى تقوم بها أربع فتيات يمثلن بطلات قصة معروفة أثرت عن الفترة الإسلامية تدعى قصة " ميناك Minak " . لقد اصطبغت هذه الرقصات الدينية بصبغة صوفية ووصلت إلى الكمال في عهد إمارة "ماتارام " الإسلامية. أما المسرح المسمى " وايانغ " والذي يقوم على أصول وأسس دينية هندوكية وإندونيسية بدائية، فقد مثل أساطير البلاد وبخاصة الصراع بين الخير والشر. ويقوم – حتى الآن – بتمثيله نساء ورجال ذوو أقنعة تمثل شخوصا أسطورية. ومن الواضح أن الإسلام لم يقرّ هذه الفنون السحرية ولم يبد الأمراء والمسلمون كبير حماس نحو هذه التمثيليات المقنعة .

وقبل أن نصل إلى ختام هذه الملاحظات الموجزة عن أثر الإسلام الثقافي والحضاري ، لا بد أن نكرس بعض السطور للآداب. والحق أن تراث إندونيسيا الأدبي القديم إنما يقوم على الأساطير والحكايات البطولية، مثل حكاية " هانغ تواه *Hang Tuah* " التي تروي قصة بطل قومي من الملايو عانى الأسفار في البحار وشهد عجائبها (وهنا نجد شبها بقصص السندباد البحري)، و"حكاية شجرة الملايو *Hikayat Sajerah Malayo* " التي ترتبط بتواريخ وسير الأمراء الملاويين. وهذه الآثار الأدبية كانت مرتبطة بالبلاط وبالخاصة، وكتبت بلغة ملاوية نقية نموذجية. وفي الفترة (الكلاسيكية) المتأخرة أُنتج كثير من الأعمال الأدبية ذات الطابع الوصفي شعرا و نثرا { الشعر *Syair* " ، وهي لفظة عربية}. إن أسلوب ومحتوى هذه الأعمال الأدبية متأثر باللغة العربية، والحكايات تذكرنا بحكايات { ألف ليلة وليلة *Kisah Seribu satu Malam*} والقصص العربية المأثورة ، من ناحية الفن الوصفي والخيال المغرق والشخوص الواقعية والأسطورية {كالخيول الطائرة و المصابيح السحرية ...إلخ} . وقد اشتهرت قصص " الأمير حمزة " وراجت في جميع الأوساط الشعبية، وهي تروي قصص فارس عربي مسلم يدعى حمزة. إن قصة " الأمير حمزة " تمثل شعر الملاحم الجاوية ، وهي تعرف كذلك بقصة " ميناك " إن الباحث في القصص العربية المعروفة بألف ليلة و ليلة ، ليجد أن هنالك كثيرا من الحكايات و بخاصة ما يرتبط بالبحر وأهواله وما فيه أو في جزره من مخلوقات وظواهر أسطورية ، يشبه إلى حد كبير التراث الأدبي الشعبي المعروف في إندونيسيا والفيليبين و بلاد الملايو. وربما جاء هذا الشبه عن طريق ما أدخله السواح والرحالة والبحارة الذين قصدوا تلك الجهات النائية وعادوا إلى بلاد العرب من رحلاتهم البحرية التجارية الطويلة .

(٧٦) انظر : محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح ، " الإمام المهاجر " ، ص ١٨٥ .

(٧٧) أورد محمد ضياء شهاب في حاشية له على كتاب " شمس الظهيرة " في الصفحة ١٤٨ تعريفا بإمام بونجول نقتطف منه ما يلي :

" بونجول اسم البلدة التي ينسب إليها ودفن فيها هذا العالم المجاهد الذي حارب الاستعمار الهولندي . كتب الكاتب المعروف يوسف عبد الله فوار، وهو من حفدة " فهلوان بأسا " الأول عم إمام بونجول أو خاله مقالا ذكر فيه أن المدعوة ستي رحمة والدة زين الأنوار هي الحفيدة السادسة للجدة حماتون والدة إمام بونجول، وعليه فابنها زين الأنوار السبط السابع {من سلسلة الأم }. ولد محمد شهاب { اسم إمام بونجول } عام ١٧٧٢ م، و يدعى في شبابه " فيتو شريف "، ثم اشتهر بـ " توانكو مودا " ، لقب العلماء. والدته حماتون، وخاله السيد عثمان من أصل عربي من اليمن الجنوبي . وكان والدهما قد أقام زمنا في المغرب. وصل السيد عثمان وأخته إلى سومطرة الغربية داعيين للإسلام، ثم استقدمهما أهالي " بونجول " لنشر علوم الدين، ووهب لهما

" داتو تمنكونغ " مزرعة في قرية " كوتو[Koto] " بناحية " بونجول ". ولقب السيد عثمان "داتو باكيندو سومان [Datuk Bagindo Suman]" وتوارث هذا اللقب أبناؤه وحفدته إلى عام ١٩٥٠م، كما توارثوا منصب القضاء في " كانكو هيلير Ganggu Hilir " في بونجول.

(٧٨) المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٩ – ١٥٠ . وورد فيهما مايلي :

" أول من كتب عن هذه الحادثة و توهم أسبابها ، واستلهم ما تصوره هو الكاتب الهولندي "تيمان"، واقتدى به بعض الكتاب ، منهم توماس أرنولد ، وجالوا حولها وأخذوها قضية مسلمة. فلندع التوهم الآن و لنقدمها مجلوة خالية من التخمينات .".

" في عام ١٢١٨ هجري (١٨٠٢ م) عاد ثلاثة من حجاج إندونيسيا إلى أوطانهم بعد أن أقاموا بالحرمين الشريفين من قبل عام ١٢٠٥ هجري (١٧٩٠ م) أي أكثر من ١٣ عاما يدرسون العلم وينهلون من الثقافة الإسلامية في الحرمين اللذين هما مهوى أفئدة المؤمنين وبغية طلاب العلم من مسلمي الأقطار. هؤلاء الثلاثة الذين عرفوا بألقابهم هم:

١ – الحاج مسكين ، ٢ – الحاج فيوبانغ ، ٣ – الحاج سوماتيك .

درسوا على أيدي المشاهير من العلماء في ذلك العهد ، فقد كان فيهما من العلماء من تزخر بهم البلاد كثرة ، نذكر من علماء ذلك العصر لا للحصر ما يلي:

- العلامة إبراهيم بن محمد الأمير الصنعاني المكي المتوفى في عام ١٢١٣هجري/١٧٩٩
- العلامة الشيخ محمد الدسوقي الشافعي المتوفى في عام ١٢٤٧ هجري بالمدينة المنورة،
- العلامة الشيخ محمد سعيد بن محمد سنبل المتوفى في عام ١٢١٥ هجري ،
- العلامة الشيخ طاهر بن محمد سعيد سنبل المتوفى في عام ١٢١٩ هجري
- العلامة الشيخ أحمد بن علوي جمل الليل المتوفى في عام ١٢١٦ هجري ،
- العلامة الشيخ حسين بن علي مفتي المالكية المتوفى في عام ١٢١٨ هجري ،
- لعلامة الشيخ صالح الغلاني العمري المتوفى في عام ١٢١٨ هجري بالمدينة المنورة ،
- العلامة الشيخ زين الدين عبد الغني بن محمد هلال المتوفى في عام ١٢١٨ هجري بمكة المكرمة
- العلامة الشيخ عبد الله ابن القاضي عبد المنعم مفتي الحنفية بمكة المكرمة ،العلامة السيد يوسف بن محمد البطاح الأهدل بمكة المكرمة
- الشيخ علي الصديقي، الشيخ عارف جمال، الشيخ يحيى بن محمد خباب، الشيخ محمد سعيد سفر الدين ملا عبد الله الإسلامبولي قاضي المدينة، الشيخ أحمد الجوهري، الشيخ محمد الجوهري، الشيخ عبد الحفيظ عجمي مفتكة سوبي، السيد عمر بن أحمد بن عقيل السقاف، الشيخ محمد عمر بن عبد الرسول وغيرهم. فمن هؤلاء استقى المجاورون برحاب البيت الحرام والحرم النبوي رحيق العلم وروحانية العبادة واقتبسوا من أخلاقهم وسماتهم و قلدوهم في ارائهم وأزيائهم وأسلوبهم الصوفي المعتدل .

عاد هؤلاء الثلاثة فيمن عادوا من المجاورين في العام الذي دخلت فيه الجيوش النجدية إلى الحجاز فاتحين في ١٨ صفر ١٢١٨ هجرية /١٨٠٣ م، عادوا إلى أوطانهم وملء قلوبهم الإخلاص للدين والكراهية للمعتدين عليه من أعدائه. فأخذوا يبثون تعاليم الإسلام والجهاد في سبيل الله والمحافظة على التقاليد الشرعية. ولكنهم وجدوا في سومطرة الغربية طائفة تسمى " أهل العادات " الذين يتمسكون في شؤون المواريث بما لا يتفق وأحكام الإسلام، فدعوهم بالحسنى إلى ترك ما هم عليه .ثم قــوي بهم آخرون أمثال " توانكو نان رينجنية " ناشر الإسلام بين قبائل " الباتاك Batak " عام ١٨٠٤ م وشيخه توانكو نن توا [Tuangku Tan Tuo] " الذي يدعو بالحسنى و " فيتو شريف " الملقب " إمام بونجول " و غيرهم .

ولكن بعض العلماء المتحمسين للدين اندفعوا بشدة ، فتطور الأمر إلى استعمال القوة فحدثت معارك بينهم وبين أرباب " العادات"، ولما طال القتال أحس أهل العادات بالحاجة إلى من يعضدهم، ووجد الهولنديون الفرصة سانحة فأيدوا أرباب العادات. وأخيرا أدرك الطرفان أن ما هم فيه لا يفيد إلا المستعمر، وأن الخلاف لا يجوز أن يؤدي إلى إسالة الدماء، ولا يمكن أن تجر الدعوة إلى كراهية أحد أو قتاله، فثاب الفريقان إلى الرشد، واتفقا وواجها المستعمر، وحدثت حروب قاسية زمنا طويلا قتل فيها من قتل وهم كثير بينهم علماء. وسميت هذه الحروب بحروب "بادري *Padri*". تعددت الآراء في تسمية " بادري " ، ولعلها لا تعدو التخمين . فظن البعض أنها نسبة إلى بلدة " فادري" وهذا بعيد، ورأى البعض أنها نسبة إلى " فادري " أي رهبان لأن المجاهدين كانوا بملابس بيض وعلى أعناقهم المسابح و على رؤوسهم العمائم، ولكن الرهبان لا عمائم لهم وفي الوقت الذي كانت خطوط المعركة مع الأوروبيين تحسم لصالح الجهاد الديني ضد المستعمر الغاصب في الأرخبيل، فإن أوروبا كانت تدخل عصر النهضة الصناعية وتحقق تقدما علميا كبيرا على المسلمين مكنها من قطع خطوط المواصلات بين الملايو والدول الإسلامية الأخرى ، ومن احتلال اجزاء شاسعة من الهند أيضا . وأدى ذلك إلى ضعف مقاومة الممالك ويقول " حمكا " في كتابه " توانكو أنتارا فاكتا دن خيال " ، ص ٣٠٧ ، إن هذه الملابس من سمات الإسلام ، فملابس هؤلاء كملابس الأمير " ديفانكارا " وأصحابه بينما حاربوا هولندا خمس سنوات ، من ارتداء الجبة البيضاء و العمامة والمسبحة. ويرى البعض أن الاسم نسبة إلى " بدر " وهذا أقرب إذ شبهوا أنفسهم في حربهم ضد الكفار بأهل " بدر" الذين جاهدوا مع سيدنا رسول الله (ﷺ). وهناك من يرى رأيا آخر قد يكون وجيها وهو أن معظم الذين درسوا في الحرمين الشريفين على علماء لهم في العبادة التزام ، وممن اتصلوا به وأخذوا عنه الشيخ أحمد بن محمد بن يونس البدري المدني، فانتسبوا إليه وتلقبوا بالبدريين. وقد ظهرت آثار هؤلاء العلماء في الطلبة في الملابس والسمات والتمسك بالعبادات و ما إلى ذلك .

أول من كتب من الهولنديين عن حروب " البدريين " [فيداري] هم الكولونيل " ريدر دي ستويرس Ridder de Stuers " والكولونيل " إيلوت Elout " و " لانغن Langen " . ومن جاء بعدهم إنما ينقل عنهم فمن الحزم التثبت فيما ينقل .

(٧٩) ومعنى هذه الجملة " علامة تيرو " عندما عاد الحبيب عبد الرحمن زاهر من تجواله في سبيل دعم الجهاد سياسيا وقوة سلاح جمع العلماء و رجال الدولة لمواصلة القتال، وقد نجح في توفير الأسلحة ، فاختار الحاضرون الشيخ محمد سمان بن عبد الله بن عبيد الله للقيادة الجهادية .

كان محمد سمان من العلماء تلقى من مشاهير علماء وطنه و الحرمين الشريفين وتولى التدريس في معهد خاله محمد أمين ابن الشيخ عبد السلام بن موسى في " تيرو "، فلقب " تنكو جيء دي تيرو " وهو لقب لا يطلق إلا لشخص واحد. ولما اختير للقيادة أمره العالم الجليل "تنكو جيء تانه أبوي *Tengku Ce Tanah Abeue* " أن يقسم اليمين والمصحف على رأسه ، فينطق أولا بالشهادتين ويحلف بالله تعالى بأنه باع نفسه لله عز وجل، ثم يقبل أيدي جميع العلماء الحاضرين وأولهم الشيخ " دي تانة أبوي " ، ثم ودع بقراءة الفاتحة و زار ضريح والده في "موناسة " وغامر في الجهاد من عام ١٨٨١ إلى ١٨٩١ . { المرجع السابق ، ص ٣٩٥ } .

(٨٠) بعد عودته قاد الجيوش لحرب الهولنديين ، بعد أن طاف القرى والبواجي حاثا على الجهاد، ودخل في معارك شرسة ، كان المسلمون يقاتلون الهولنديين بجياش قل نظيره واندفاع عظيم، ولا سيما الحبيب عبد الرحمن بعد أن طاف الأقطار ووصل إلى إسطنبول للاستنجاد. وقد وصلت الأسلحة للجنة في " فينانغ [*Penang*] " و استمر القتال، وكانت الأسلحة المشتراة بأموال اللجنة، في حين يجد " تيفانغ محمد " الأموال يدون حساب من السلطان الشاب ثقة به، ولا يدري

أنه ذو ميول للعنو، يعمل لمصلحة الهولنديين، مما جعل بعض رجال أتشيه يؤثر السكون أو الاستسلام أو التثبت في الغابات، واشتدت هجمات الهولنديين، وانساح الأمل حتى استسلم هو ومن معه في الكفاح في عام ١٨٧٨م، وتوفي بمكة المكرمة عام ١٨٨٥ م. (المرجع السابق، صفحة ٣٩٥).

(٨١) أبرز مثال على ذلك هو فطاني في جنوب تايلاند حيث وصلها الإسلام منذ القرن ١٢ م وانتشر فيها حتى بلغ الذروة في القرن ١٥ م عندما تأسست سلطنة فطاني. وعاشت تلك السلطنة في رخاء حتى سقوطها بيد السيامية سنة ١٢٠٢ هجرية / ١٧٨٦ م .

(٨٢) كانت سيام قد هاجمت قدح، فحارب السلطان أحمد الاستعمار السيامي في قدح وفيراق، وأعانه السلطان إبراهيم من " سيلانغور " ، ولكن الإنكليز وقفوا ضده مسايرة لسيام. وتوالت الأحداث وأخذ الإنكليز ينشبون أظافرهم في ولايات ملايو، وأخيرا بعد مفاوضات رأت سيام أنْ لا قبل لها بهذه الحروب فرضيت بمهادنة السلطان أحمد تاج الدين و عاد السلطان إلى ملكه عام ١٨٤٢م، وانفصلت فرليس عنها . وكانت سيام مهيمنة طوال كل تلك السنين على قدح وترنغانو و فرليس .

(٨٣) تقع هذه السلطنة في أقصى ماليزيا الحالية، سلاطينها من السادة آل جمل الليل. جاء السيد أحمد ابن حسين بن عبد الله بن عقيل بن عبد الله بن محمد بن سالم بن أحمد با حسن بن عبد الرحمن ابن علي بن محمد جمل الليل، ومعه ابنه هارون من مواليد فاليمبانغ إلى قدح في شبه جزيرة الملايو. تزوج السيد أحمد الأميرة صفية بنت السلطان ضياء الدين المتوفى في عام ١٢٣٠ هجري / ١٨١٦ م وكان قد عينه حاكما في "أرو" عام ١٢١٢ هجري /١٧٩٧م توفي أحمد في عام ١١٦٢ هجري و توفي ابنه هارون في عام ١٢٤٠ هجري، وللسيد أحمد ابن هو السيد حسين فكان أول من تولى السلطنة في فرليس من آل جمل الليل، ولد في عام ١٢٢٠ هجري (يناير ١٨٠٥ م) ونشأ تحت رعاية جده ضياء الدين وتمرن على مزاولة شؤون الدولة مع السلطان أحمد تاج الدين.

في عام ١٨٢١ م هاجم ملك سيام لبقور البلاد فدافع السيد حسين و الوزير " وان محمد أرشد " فارتد المهاجمون وهم من السياميين والصينيين فطاردهم المسلمون حتى وصلوا إلى "سينقورا"، ثم انقلب الأمر وانتصرت سيام وعينت حكومة سيام وكيلا لها على قدح ، وكانت فرليس تابعة لقدح، وبعد سنوات اتفق الوكيل " تنكو آنوم " وهو أحد أقارب السلطان مع الأميرة والسيد حسين على أن يكوّنوا وفدا إلى سيام وتم الاتفاق على إعادة البلاد إلى سلطان قدح وإطلاق الأسرى. ثم توجه الوفد إلى جزيرة " فينانغ " وفي الوفد السيد حسين لدعوة السلطان أحمد تاج الدين للعودة إلى قدح، وبعد لأي عاد السلطان وعين أمراء للمناطق ومنهم السيد حسين على " كابانغ " وأقام في " أرو " التي سميت أخيرا " فرليس " وتوفي في ١٢٩٠/١٠/١ هجري / ١٨٧٣/١١/٢٠ م بعد أن حكم نحو ٣٠ عاما. وتولى بعده ابنه أحمد وهو الثاني على فرليس *(Perlis)* وتوفي في ١٨٩٧/٥/٤ ، فخلفه ابنه علوي ولكنه توفي غريقا فخلفه ابنه السيد صافي بن علوي وهو الثالث. بعد وفاة السلطان أحمد تاج الدين سلطان قــدح *(Kedah)* اختلف أبناؤه على السلطة فتدخل السيد صافي بن علوي لحل الخلاف و عين على قــدح تنكو عبد الحميد حليم. وفي عهد السيد صافي تقدمت فرليس وازدهر عمرانها، ورتبت أنظمتها وعبدت الشوارع و حفرت قنوات المياه للزراعة وبنيت الجسور وابتعث الطلاب للدراسة في الخارج، منهم أولاده علوي وحمزة وحسين، وكانت الأحكام تنفذ بدقة ويفرض على بعض الجنود خدمة الزراع وكان القاضي إذا جانب الأخلاق الحسنة يفصل عن وظيفته. وزحفت القوات اليابانية وسيطرت على ماليزيا كما استولت على جميع أنحاء المشرق من عام ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ م، وسلمت للمملكة سيام هذه

المناطق إلى أن انتهت الحرب عام ١٩٤٥. واتحدت سلطات ماليزيا في دولة واحدة ملكية يتناوب السلاطين الملك فيها ، فكان السيد فوترا الملك الثالث على " اتحاد دولة ماليزيا " في ٤/ ١/ ١٩٦٠ إلى عام ١٩٦٥ ، وهو الملك الوحيد الذي نال أعلى أوسمة التقدير من حكومة ماليزيا، وعندما كان ملكا على اتحاد ماليزيا كان يدير سلطنة فرليس مجلس مؤلف من أربعة أشخاص برئاسة الدكتور السيد محمود بن حسين جمل الليل (انظر حاشية محمد رضا شهاب على كتاب " شمس الظهيرة " ، الجزء الثاني، صفحة ٥٠١ .

(٨٤) هي ما يسمى اليوم بماليزيا .

(٨٥) أورد السيد محمد ضياء شهاب في حاشيته على كتاب " شمس الظهيرة " في الصفحة ٢٧٢ مصير سلطنة مينداناو الإسلامية في الفيلبين . وقد جاء فيها ما يلي :
" زحف الإسبان على هذه الجزائر ، وهاجموا " سولو " عام ١٥٧٨ م فخاب سعيهم . ثم هاجموا ميندانا و عام ١٥٩٦ م ففشلوا، فقد كان الكفاح مريرا ، واستمرت المعارك بحرا و برا . وتوالت هجمات المسلمين على الإسبانيين في زحفهم على جزائر قاتاي ونيكروس و سيبو و وقع ٨٠٠ إسباني بأيدي المسلمين.
وتعددت زحوف الإسبان بين أعوام ١٦٢٧ و ١٦٣٠ م بدون أن يظفروا بنتيجة . وفي سنة ١٦٣٥ م تمكن الإسبانيون من احتلال " زامبوانقا /Zambuaga/ " ثم احتلوا " لا نو " عام ١٦٣٩ م و حاربوا السلطان سليمان حاكم مانيلا فدافع عن وطنه دفاعا حير الأعداء حتى استشهد السلطان في المعركة و اندحر الإسلام .
في هذه السنوات المتوالية وقف " المورو /Moro/ { مسلمو فيلبين} أمام الزحوف الإسبانية وقوفا كالجبال الصخرية لم يستطع الإسبانيون أن يحطموا تلك المقاومة إلا بعد زمن طويل جدا. وأخيرا رأى الإسبانيون أن شعب المورو شعب مكافح صامد لا يُنال بقوة السلاح فمالوا إلى المصالحة و المهادنة مع السلطان قدرات .
ثم احتل الإنكليز الفيلبين عام ١٧٦٣ ثم جلوا عنها فعاد إليها الإسبان حتى تدخلت أمريكا وحلت مكان الإسبان عام ١٨٩٧ .

(٨٦) نشرت جريدة " إندونيزيا أوبزرفر " الصادرة في جاكرتا باللغة الإنكليزية في عددها الصادر بتاريخ ١٣ شباط /فبراير ٢٠٠٠ مقالا هاما بعنوان " Aceh's Women Have Their Say " للصحفية " كارلا بيانبون Carla Bian Poen " حول سلطنات أتشيه . ويمكن الرجوع إلى المقال لمزيد من المعلومات .

(٨٧) قد يكون زواجها من شخص عربي ينتسب لآل البيت مقصده إضفاء الشرعية على حكم السلطنة كامرأة ، لأن رئيس القضاة بمكة كان قد أصدر فتوى بإنزالها من عرش سلطنة اتشيه بحجة أن الدولة الإسلامية لا ينبغي أن تحكمها امرأة. (انظر كتاب " شبكة العلماء " ، ص ٥٥) .

(٨٨) ورد في صفحة ٤٩٩ من كتاب " شمس الظهيرة " حاشية بقلم المحقق محمد رضا شهاب أورد فيها أسماء حكام سلطنة اتشيه بالترتيب حتى عام ١٢٣١ هجري أي ١٨١٥ م ، وجاء ذلك الترتيب على الشكل التالي :
" كان لسلطنة أتشيه تاريخ مجيد رقت في سلم الزمن، واقتعدت أوج القوة وشحنت بالعلم والعلماء وحاربت الأعداء و جالت في الكفاح برا و بحرا. وكان من سلاطينها "إسكندر الثاني " ١٠٥٠ - ١٠٨٨ هجرية /١٦٤١ - ١٦٧٦ م. فلما توفي تولت زوجته بنت السلطان إسكندر مودا ولقبت تاج العالم صفية الدين بإجماع العلماء ورجال الدولة، ثم توالت السلطانات الواحدة بعد الأخرى إلى السلطانة كمالات شاه التي تزوجت السيد هاشم جمل الليل ، ثم تولى بعدها ابنها السيد بدر العالم الشريف ابراهيم ولقب بزين العابدين ابن السيد هاشم إلى عام ١١١٤ هجري /

١٧٠٢ م، ثم تنازل عن الملك الشريف هاشم و يلقب " فركاسا Perkasa " عالم شريف لوي إلى عام ١٧٠٣ م، ثم الشريف جمال الدين البدر المنير ابن الشريف هاشم إلى عام ١٧٢٦ م / ١١٣٩ هجري وفي عهده استردت آتشيه عظمتها. ثم تولى السلطنة بعد هؤلاء السادة شخص اخر يلقب بجوهر العالم عماد الدين من أصدقاء وأعوان الشريف جمال الدين، وتولى على الملك من سلالته عدد كانوا موالين لهؤلاء السادة آل جمال الليل، وأوصى السلطان زين العابدين بن عبد الرحيم بن منصور الملقب علاء الدين أحمد شاه مهراج ليلا (١٧٢٧ – ١٧٣٥م) ابنه السلطان علاء الدين جوهر شاه باحترامهم ، وقد تتلمذ هذا السلطان على السيد أبي بكر حسين. كان السيد حسين جمل الليل و أمه بنت السلطانة كملات شاه قد انتقل منذ صباه إلى "سلانغور *Selangor*" ثم إلى "فينانغ *Penang*" عام ١٧٩٠ م {حوالي عام ١٢٠٥ هجري} واشتغل بالتجارة، وكانت البضائع التي يصدرها إلى آتشيه معفاة من الرسوم باعتباره من الأسرة السلطانية. فلما تولى السلطان جوهر العالم أزال هذا الامتياز، ولكن السيد حسيناً كان قوي الصلة بعظماء آتشيه محبوبا لديهم، في حين كان السلطان غير مرغوب فيه في بعض المناطق ، فثارت هذه المناطق ضد السلطان واختارت ابن السيد حسين لتولي السلطنة هو السلطان شريف سيف العالم، عزلت السلطان جوهر العالم عام ١٨٧٥ م (حوالي ١٢٣١ هجري) وطرد الآشيون المستشار البريطاني " قنسويك " ، وكان هذا السلطان ميالا إلى الإنكليز فالتجأ إليهم في " فينانغ " *[Penang]* فلم يقبلوه، ثم عاد السلطان جوهر العالم إلى عرشه بمساعدة صهره " تنكو فقيه " بعد أن كان مناوئا له. واستولى على سفينة ملك السلطان شريف سيف العالم جمل الليل وأسر السيد علويا ابن أخي السيد حسين، وكانت تنحية السلطان شريف جمل الليل بمساعدة الإنكليز الذين أجروا للشريف ستة آلاف ريال سنويا على أن يكف عن المطالبة بالعرش، وإلا فسوف تتخذ القسوة ضده .

الخاتمــــة

تجاهلت كتب التاريخ الغربية دور العرب الأوائل وريادتهم في إقامة شبكة اتصالات بحرية تجارية قديمة مع شعوب وممالك منطقة أرخبيل الملايو سابقة وصول الأوروبيين إليها بمئات السنين حيث كان العرب القدامى يتحكمون بطريقي الحرير (البري) الواصل حتى الصين، والبخور والتوابل (البحري) الواصل حتى جزر الملايو انطلاقاً من اليمن وحضرموت والحجاز. ويكاد لسان حال هذه الكتب أن يقول إن التاريخ الحقيقي لتلك المنطقة إنما يبدأ مع اكتشاف البحار البرتغالي فاسكو دي غاما في عام ١٤٩٨م طريق رأس الرجاء الصالح، الذي سمي الطريق الدائري إلى الشرق، ليلتف حول ظهر الإسلام بعد طرد العرب من الأندلس. وقد عاد فاسكو هذا من رحلته إلى الهند بالذخائر والثروات التي تحولت بها البرتغال إلى دولة مسيطرة على المحيط الهندي لمدة قرن من الزمن ونزلت وطأتها على خطوط المواصلات بين الملايو وبقية العالم الإسلامي. وكان من ضمن مشاريع البرتغال الاستيلاء على المدينة المنورة وعلى قبر النبي (ﷺ) في مقابل استرداد قبر المسيح عليه السلام بعد تحرير المسلمين من يد الفرنجه قبل ذلك بعدة قرون عند انتهاء الحروب الصليبية، لا بل إن بعض الكتب الغربية تميل إلى اعتبار قيام أحد قواد فاسكو دي غاما هذا ويدعى البوكيرك باحتلال غوا الهندية في عام ١٥٠٩ م ثم ملقا الماليزية في عام ١٥١٥ م هو بداية التاريخ الحقيقي للمنطقة.

ويماثل هذا التجاهل الغربي للدور والريادة العربيين في منطقة جنوب شرق آسيا تجاهلا غربيا آخر لايقل غرابة عن الأول ويتعلق بالتغافل عن ذكر فضل العرب والمسلمين الحضاري على تطور الفكر الغربي في القرون الوسطى وانطلاقة عصر النهضة الأوروبية التي أرست هيمنة الغرب علمياً وسياسياً حتى أيامنا هذه، وكأن أوروبا قد استبدلت، بمحض المصادفة، محاكم التفتيش الشهيرة [التي حاكمت كوبرنيك وغاليليو ودافينشي بتهمة الهرطقة] بالجامعات والمعاهد العلمية لمجرد أن القائمين على هذه المحاكم قد أصابتهم صحوة الفكر والضمير فجأة وبدون المرور فوق الجسر الحضاري الإسلامي التنويري.

لقد تجاهل الغرب فضل العرب والإسلام عليه، ونسب الحضارة الإنسانية بكاملها إلى اليونان مع أن الحضارة العربية والإسلامية الأصيلة قد سبقت حضارة أوروبا بمئات من السنين: الغزالي سبق ديكارت، وأبو العلاء المعري [رسالة الغفران] سبق دانتي [الكوميديا الإلهية]، وابن سينا والرازي علّما أوروبا الطب، والكندي سبق الأوبرا بقرون، والخوارزمي علّم أوروبا الأعداد الحديثة واللوغاريتمات وهو أول من

جعل الحساب علماً، والبيروني هو أول من قال إن الشمس مركز الكون، وابن الهيثم أول من وضع أساس علم الضوء أو ما يسمى الآن بعلوم البصريات، وابن النفيس اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بأربعة قرون، وجابر بن حيان هو المؤسس الحقيقي لعلم الكيمياء، والإدريسي هو أول من وضع خارطة جغرافية صحيحة للكرة الأرضية وعليها جزر الملايو، وذلك قبل الرحالة البرتغالي فرانسيسكو رودوريغير. وحتى علم التصوف الذي ساهم بفاعلية كبيرة في نشر الإسلام في جزر أرخبيل الملايو ينسبه الغربيون إلى الهنود مع أن مؤسسيه الحقيقيين عرب مسلمون أمثال عبد القادر الجيلاني وابن عربي.

وقد استفاد علم التصوف العربي من احتكاكه بأنماط التصوف الهندوسي المحلي الذي كان سائدا في الملايو قبل انتشار الإسلام فتحول إلى شكل من أشكال التصوف الجديد الذي يلغي البعد الميتافيزيقي والفردي ليركز على البعد الأخلاقي الخلاصي الجماعي التوحيدي والعاشق للذات الإلهية.

ولا يحتاج المرء للإتيان بالشواهد التي تؤكد، علمياً وبشكل موثق، ما أوردناه من تحامل الغرب "الحضاري" على العرب والمسلمين، ويكاد يكفينا مؤونة ذلك أن نذكر أن البرتغاليين هم أول من سنّ القوانين التي تقول: لا يجوز لنسل العرب في الملايو أن يملكوا أطياناً ويصبحوا زعماء، معرفة منهم أنّ قوة العرب هي قوة المسلمين والعكس صحيح، وأن اتحاد هاتين القوتين تعني مقاومة الاحتلال البرتغالي. ثم أتى الهولنديون من بعدهم ليلعبوا لعبة التفريق بين الإندونيسيين من أصل ملايوي وأولئك من إخوانهم ممن ينحدرون من أصول عربية، وها هو الهولندي سنوك هورغرونجيه [١٨٥٧-١٩٣٦م] الذي عينته حكومة هولندا مستشارا لها في إدارة الشؤون الداخلية الإندونيسية خلال فترة الاستعمار الهولندي للأرخبيل يدَّعي الإسلام كذباً (قبل طرده من الحجاز) ويسافر إلى مكة المكرمة ثم يجول أمصار إندونيسيا جامعاً المعلومات قبل أن يرفع تقريره المشهور إلى الحكومة الهولندية حيث يقترح مايلي :

١ – على حكومة هولندا أن تقرب إليها الحجاج والعلماء وتعينهم أساتذة ليكونوا أصدقاء لها فلا تخشى نفوذهم .

٢ – لاتخشى الحكومة من حركة " الجامعة الإسلامية " فالإسلام لا يعرف البابوية كالفاتيكان، ثم إن الخلافة التركية لم تعد مركزا لقيادة " الجامعة الإسلامية "، فقد جمدت برامج الجامعة في متحف السياسة القديمة .

٣ – على الحكومة أن تحذر من الإسلام سياسيا لا دينيا، والذين يميلون إلى الحركة الإسلامية أقلية متعصبة من العلماء الذين يصبُون إلى تحقيق فكرة " الجامعة الإسلامية ". فهؤلاء هم الخطرون إذا انتشر نفوذهم في الأوساط الزراعية في

القرى. فعلى الحكومة أن تلتزم الحياد تجاه الإسلام دينيا وأن تكون صريحة تجاهه سياسياً.

٤ – على الحكومة أن تمول العلماء دون الاشتراك في الهيئات التنفيذية، وإلا فلا تستطيع السلطة المسيحية [الحكومة] أن تسيطر على الشعب الإندونيسي وهم أكثرية مسلمة.

٥ – عليها أن تضيق الخناق على الحركات الإسلامية ونفوذها، وذلك بإيجاد تعاون بين الثقافات الإندونيسية والهولندية، وتبدأ هذا باتخاذ طائفة القرياي PRIYAI [الأرستقراطية] الذين هم دائماً من الحكومة أداة لها، فان معظمهم موظفون، ولتسهيل العمل يجب تمرين هؤلاء على الأساليب الغربية.

٦ – عليها أن تساعد طائفة " العادات"، فهؤلاء سوف يقاومون الإسلام لأن مصادر "العادات " مكونة من تقاليد محلية، في حين أن الإسلام ذو صفة عامة، وهذا مما يسهل للحكومة التضييق على الحركات والنفوذ الإسلامي بتعاونها مع هذه الطائفة.

٧ – وأشار الدكتور "سنوك" تجاه حرب "أتشيه" إلى وجوب اتخاذ القوة العسكرية في المناطق الداخلية، والضرب على العلماء في القرى، فلا تتيح لهم أي فرصة لتقوية صفوفهم واستعادة قواهم بتأليف جيش من طلبتهم المتطوعين. وأما تجاه علوم المسلمين فعلى الحكومة أن تفهمهم أنّ الحكومة حامية للإسلام، يطبق هذا بالتعاون مع طائفة العادات.

٨ – على الحكومة أن تفرق بين الإسلام دينا وبين الإسلام سياسياً، وكلما ازداد التباعد بينهما ازدادت سرعة تحطيم الإسلام.

وعن مكة المكرمة قال سنوك: "إن للبلاد العربية ـ وفيها مكة ـ مكانة خاصة في قلوب المسلمين الإندونيسيين، فمنها يستمدون معنوية الكفاح ضد الاستعمار الغربي، ومصدر هذه المعنوية هو التعاليم الإسلامية. إن مكة مكان اجتماع مسلمي إندونيسيا بمسلمي العالم، بل هي ملجأ المجاهدين المسلمين الذين تطاردهم حكومة الاستعمار. {انتهى الاقتباس }

ولما حل الاستعمار الياباني مكان الاستعمار الهولندي في الملايو كان أول عمل قام به الجنرالات اليابانيون هو مصادرة الكتب والمراجع العربية في مكاتب الجمعيات الإسلامية الإندونيسية، وكذلك إغلاق ما تبقى من مطابع تطبع الكتب باللغة العربية. ولم يشذّ الاستعمار الإنكليزي عن هذه القاعدة إذ عمد الجنرال الإنكليزي رافلس المستعمر الأول لجزيرة سنغافورة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي إلى مصادرة

المخطوطات والآثار التاريخية والفنية ووضعها في صناديق أرسلها إلى انجلترا وما زال بعضها محفوظاً في الجمعية الجغرافية الآسيوية وفي أرشيف وزارة الهند.

وفي ضوء هذا التكامل الحاقد على كل صلة لشعب الملايو بأشقائه العرب من جانب السياسات الاستعمارية البرتغالية والهولندية واليابانية، يصبح من غير المستغرب عدم وجود ذاكرة مكتوبة لتاريخ العلاقات العربية – الملايوية ومحفوظة أرشيفياً في الوقت الراهن، إذ غالبا ما يتم الاستشهاد بمراجع قديمة جداً [صينية وعربية] أو بمراجع حديثة [أوروبية] في حين تغيب عن الساحة الكتابات المحلية الملايوية والعربية المتعلقة بأحداث القرون من ١٣ م ولغاية ١٧ م. وتبقى هناك بالطبع ثغرة هامة ينبغي على الباحثين ملؤها، ألا وهي المكتبة الهندية التي لم تمتد أيديهم إليها بعد تنقيباً وتمحيصاً وتحليلاً. والشيء المهم في الأمر، في هذا الصدد، هو أن تغييب الذاكرة الملايوية – العربية عن كتابة حقائق هامة تتصل بتاريخ العلاقات الملايوية – العربية، قد أدى ، فيما أدى إليه، إلى ادعاء بعض المؤرخين الأوروبيين أنَّ الإسلام قد جاء إلى الملايو عن طريق الهند من كوجرات وملابار ومن البنغال وكرومندل ومن الصين لا على يد العرب من دعاة ورحالة ومغامرين. ولقد سخَّر هؤلاء المؤرخون طاقاتهم العلمية بكل ما أوتوا من قوة كي يثبتوا هذه المقولة الخاطئة، ووصلت بهم الأمور إلى استحداث فرع خاص في علم الآثار يهتم بدراسة شواهد القبور الإسلامية في أرخبيل الملايو كي يثبتوا أن شاهدة قبر سيدة مسلمة تدعى فاطمة بنت ميمون المتوفاة في ليران [جاوا الشرقية] وبتاريخ ٧ رجب ٤٧٥ هـ – ١٠٨٣/١٢/٢ م في مملكة فنجالو، كديري، هو أقدم دليل على وجود العرب في جزر الملايو لأن شاهدة القبر هذه مكتوبة باللغة العربية. لا بل أن هؤلاء المؤرخين قد ادعوا أن تلك الشاهدة قد استجلبت من كوجرات بالهند وليست محلية الصنع. وحتى مالك إبراهيم، أحد الأئمة التسعة الكبار الذين نشروا الإسلام في إندونيسيا، وهو ابن جمال الدين الحسيني العربي النسب الذي كان أول من قدم إلى إندونيسيا داعيا إلى الإسلام، لم ينج من حقد سنوك هورغرونجيه الذي قال: إن هذا الإمام كاشاني الأصل (من مدينة كاشان في إيران)، وبرر ادعاءه هذا بالقول: إن ما ورد من كتابة نقشت على شاهدة قبره غير مفهومة وليست باللغة العربية علماً بأن ما نقش على الشاهدة هو الآتي وباللغة العربية: "هذا قبر المرحوم المغفور له الراجي إلى رحمة الله تعالى مفخر الأمراء، عمد السلاطين والوزراء وغيث المساكين والفقراء، السعيد الشهيد طراز بهاء الدولة والدين، مالك إبراهيم المعروف **بكاكيْ بانتل**، تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه دار الجنان، توفي في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٨٢٢ هـ". وأما كلمتا " كاكي بنتل " اللتان لم يفهمهما هذا المستشرق الهولندي الاختصاصي بالشؤون الملايوية

والذي قضى ١٧ عاما من حياته في إندونيسيا فهما من اللغة الملايوية المحلية وتعنيان أن صاحب القبر قد بلغ من العمر عتيا حتى انحنى ظهره ...

ولحسن الحظ فان الباحثين الوطنيين الملايويين قد أدركوا خطورة مثل هذه الطروحات فتداعوا إلى عقد مجموعة من الندوات الفكرية التي جمعت عشرات المؤرخين الاختصاصيين منهم بغية كشف النقاب عن الحقيقة الناصعة التي تقول بأن العرب هم الذين حملوا راية الإسلام إلى أرخبيل الملايو وليس غيرهم الذين قد يكونون قد وصلوا إلى جزر هذا الأرخبيل قبل العرب كالفرس [قبل الإسلام] مثلا والهنود، ولكن عندما يتعلق الأمر بنشر الإسلام فالريادة في ذلك تعقد للمسلمين العرب حكما، ثم للملايويين أنفسهم. ومن أهم الندوات العلمية هذه تلك التي انعقدت في مدينة ميدان Medan الإندونيسية عام ١٩٦١ والتي أوصت في ختام أعمالها بأن الإسلام قد جاء إلى إندونيسيا مباشرة من شبه الجزيرة العربية في القرن الهجري الأول وبشكل سلمي. ثم انعقدت ندوة أخرى في المدينة نفسها في عام ١٩٦٣ وقررت في ختام أعمالها ما يلي:

عقدت ندوة خاصة ببحث دخول الإسلام بمدينة "ميدان" بسومطره الشمالية استمرت جلساتها من ١٧ إلى ٢٠ مارس ١٩٦٣ م [٢١-٢٤ شوال ١٣٨٢ هـ] وانتهت بما يلي:

١ – فهمنا من المصادر التي اطلعنا عليها أن الإسلام دخل إلى إندونيسيا أول مرة في القرن الأول الهجري [فيما بين القرنين السابع والثامن الميلادي] ومن بلاد العرب مباشرة .

٢ – إن أول منطقة دخلها الإسلام هي سواحل سومطره، وإنه بعد تكوين المجتمع الإسلامي كان الملك الأول في آتشيه.

٣ – إن الإندونيسيين ساهموا فعلا بعد ذلك في الدعوة إلى الإسلام.

٤ – وإن دعاة الإسلام الأولين كان بعضهم من التجار.

٥ – وإن الدعوة الإسلامية كانت سلمية.

٦ – وإن الإسلام أتى إندونيسيا بثقافة وحضارة راقية هي من عناصر تكوين الشخصية الإندونيسية.

٧ – وإن من الضروري وجود هيئة تقوم بأعمال تحقيق وتصنيف تاريخ الإسلام بإندونيسيا بصورة أوسع وبصفة دائمة. ورأينا أن تكون هذه الهيئة في "ميدان " مع إنشاء فروع لها في الأماكن المهمة لا سيما في جاكرتا.

وقد ناشدت الندوة الحكومة الإندونيسية أن تعيد النظر في كتب تاريخ الإسلام بإندونيسيا التي لم تزل مقررة للمدارس، وناشدت المجتمع المسلم الإندونيسي أن يضاعف النشاط في دراسة تاريخ الإسلام في الوطن .

وكان اجتماع مجلس المشاورة المنعقد في ١٨ ذي الحجة ١٣٨٢ هـ/ ٣٠ نيسان ١٩٦٢ في مدينة " سيدوقيري " وحضره نحو ١٦٥ عالماً من علماء المسلمين قد أقر بالإجماع بأن السادة العلويين الحضرميين الشافعيين هم الذين نشروا الإسلام في إندونيسيا، وهو ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه في بحثنا الذي بين أيديكم.

ودعا بعض الباحثين الإندونيسيين في ندوتين علميتين عقدتا عامي ١٩٦٩ و١٩٧٨ إلى الإقرار بأن الإسلام قد وصل إلى إندونيسيا من الوطن العربي مباشرة لا من الهند، كما أن ذلك لم يحدث في القرن الثاني عشر الميلادي بل في القرن الأول الهجري الموافق للقرن السابع الميلادي .

ومؤخرا، توصلت الندوة العالمية المنعقدة في جاكرتا بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٩٩٩ إلى القناعات السابقة نفسها والتي أوجزها البروفسور أزيومردي أزرا بدقة في كتابه المعنون بـ: " شبكة العلماء " كالآتي : "

- **أولها:** أن الإسلام قد جيء به من الوطن العربي مباشرة .
- **ثانيها:** أن من قام بنشر الإسلام هم دعاة "محترفون"، إن صح هذا التعبير، بمعنى أنهم جاؤوا خصيصا للدعوة.
- **ثالثها:** أن الحاكم أو الملك هو أول من أسلم.
- **رابعها:** أن معظم أولئك الدعاة " المحترفين" وصلوا إلى الأرخبيل في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، ومن حيث النتيجة الرابعة يصح أن تكون الدعوة الإسلامية قد عرفت طريقها إلى الأرخبيل ووُجد فيه من يعتنق الإسلام منذ القرون الأولى للهجرة، تماما كما ارتأى آرنولد وتمسك به أكثر الباحثين في ملايو – إندونيسيا، ولكن الإسلام لم يظهر كقوة مؤثرة في الأرخبيل إلا بعد القرن الثاني عشر الميلادي، وعليه فإن تسارع انتشار الإسلام في الأرخبيل قد جرى في الفترة من القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر { انتهى الاقتباس }.

لقد أطلق العرب أسماء على العديد من المواقع الجغرافية الهامة في أرخبيل الملايو لا تزال تستخدم حتى الآن وتشهد، بحد ذاتها، على تواجدهم الحضاري في هذه المنطقة من العالم. ومع أننا ذكرنا هذه الأسماء بإسهاب في كتابنا، فإننا نجد متعة علمية في التذكير ببعضها مجددا مثل: مضيق ملقا – جزر سليمان – جزر المرجان – خور صالح – جبل الفتح – بندر خليفة ، دار السلام – كمال المقام – قدس – كوفة – البصرة – وادي .. إلخ.

إن هذا الكتاب المتواضع لا يزعم انه القول الفصل في مسألة كيفية وصول الإسلام إلى أرخبيل الملايو عموما وإلى إندونيسيا خصوصاً، بل هو عبارة عن جهد علمي حاول كتابة رؤية عربية إسلامية لتاريخ العلاقات العربية – الملايوية منذ ظهور

الإسلام رسالة عالمية حتمت، بصفتها العالمية هذه، وصولها إلى أقاصي الدنيا شرقا وغرباً. والإسلام جاء إلى أرخبيل الملايو سلماً وقدوة صالحة وتوافق مع الثقافات المحلية فأخذ منها وبنى عليها، ولم يجد الإمام سونان كاليجاغا [رادين شهيد] غضاضة في أن يخترع مسرح العرائس [مسرح الدمى] المعروف إندونيسيا باسم "وايانـغ" "Wayang" كي يشرح للناس شخصيات الإسلام الأساسية تقريبا لفهمهم، فأوصل إليهم بهذه الطريقة شخصية الأمير حمزة [عم الرسول (ﷺ)] وشخصية علي [علي بن أبي طالب (ﷺ)] ، كما استخدم اشارة السهم للدلالة على معنى الشهادة .

كما أن الدعاة الأوائل تبنوا انتشار المدارس الدينية [بيسانترين] لتوعية الناس وتثقيفهم وإيصالهم إلى بر الأمان دينيا ومعرفياً، وهو الأمر الذي أوصل فيما بعد شعلة مقاومة الاحتلال البرتغالي والهولندي لكوكبة من المناضلين الإندونيسيين المعروفين كالشيخ يوسف المقاسري، وحمزة الفانصوري وإبراهيم القرني ونور الدين الرانيري وعبد الرؤوف السنكلي وعبد الصمد الفاليمباني ... وغيرهم كثيرون.

وقد يكون خير كلام لهذه الخاتمة هو أن تتكاتف الجهود مجددا لإعادة رمق الحياة للحضور الثقافي العربي في إندونيسيا وللتواصل الحضاري الإندونيسي – العربي. وبطبيعة الحال لا يمكن لهذا الطموح أن يتحقق بدون عودة المطبعة العربية إلى إندونيسيا وإصدار صحيفة محلية باللغة العربية واسترجاع الممتلكات الثقافية المكتوبة باللغتين العربية والملايوية والتي نهبها الاستعمار الأوروبي والياباني من ذاكرة الأمة الإندونيسية... وهي كلها أمور تشكل الرد الحقيقي على التحدي الحضاري القائم، وتصحح خط سير التاريخ الثقافي للمسلمين بشكل ينسجم مع الحقيقة العلمية الخالصة ويفشل استراتيجية الغرب الثقافية التي ترمي إلى جعل نفسها صماماً يمتص أي تواصل ثقافي متبادل بين شعوب الملايو والعرب والمسلمين ...

فهرست المراجع

أولا : كتب باللغة العربيـــــة

١ – محمد بن أحمد بن عمر الشاطري ، " أدوار التاريخ الحضرمي " منشورات مكتبة الشعب – المكلا – اليمـن ١٩٧٢ م – ١٣٩٢ هجري

٢ – السيد عبد القادر العيدروس بن الحسين ، " إظهار الحقيقة فيمن أدخلوا الإسلام إلى جنوب آسيا و خصوصا إندونيسيا العزيزة " ، مخطوط باليد مطبوع في جاكرتا في عام ١٩٩٨ م – ١٤١٩ هجري .

٣ – محمد ضياء شهاب و عبد الله بن نوح ، "الإمام المهاجر" مطبوعات دار الشرق – جـدة – المملكة العربية السعودية ، ١٩٨٠ م – ١٤٠٠ هجري .

٤ – محمد أسـد شهاب ، " الشيعة في إيران " سلسلة منابع الثقافة الإسلامية – النجف – العراق ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

٥ – بدر الدين حي الصيني ، " العلاقات بين العرب و الصيـن " منشورات مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٠ م

٦ – العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد ، " المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى " ، تحقيق السيد محمد ضياء شهاب، منشورات دار عالم المعرفة – جـدة – المملكة العربية السعودية ١٩٨٥م /١٤٠٥ هجري .

٧ – الشهيد آية الله مرتضى مطهري، " الإسلام وإيران" منشورات رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ، طهران ١٩٩٧ م/ ١٤١٧ هجري .

٨ – هاني المبارك، " الظاهر بيبرس " منشورات دار الفكر بدمشق و دار الفكر المعاصر ببيروت ١٩٩٨ م/ ١٤١٩ هجري – سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي " .

٩ – المستشرق كرامرز " الجغرافية و التجارة "، منشورات القاهرة ١٩٥٤ م .

١٠ – " الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة " منشورات مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية بإسطنبول، بإشراف الأستاذ أكمل الدين إحسان أوغلي – إسطنبول ١٩٩٩ م/ ١٤١٩ هجري .

١١ – " المغتربون والتنمية الاقتصادية في اليمن " من أدبيات ندوة " المغتربون : الرافد الأساسي للتنمية المستدامة " التي نظمها المجلس الاستشاري و وزارة شؤون المغتربين في اليمن في صنعاء بتاريخ ١٥ – ١٧ مايو/ أيار ١٩٩٩ .

١٢ – هاني المبارك، " الناصر محمد بن قلاوون " ، منشورات دار الفكر بدمشق و دار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي " ١٩٩٨ م/ ١٤١٩ هجري.

١٣ – جمال سند السويدي ، " إيران والخليج : البحث عن الاستقرار " ، منشورات مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية – أبو ظبي – ١٩٩٦ م/ ١٤١٧ هجري .

١٤ – الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، " تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك " ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – لبنان ١٩٩ .

١٥ – جرجي زيدان ، " تاريخ التمدن الإسلامي " منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان – بدون تاريخ .

١٦– بدر الدين حي الصيني ، " تاريخ المسلمين في الصين " مطبوعات دار الإنشاء – طرابلس – لبنان – ١٩٧٤ .

١٧ – د . عادل محيي الدين الآلوسي ، " تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا " مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام العراقية – بغداد ١٩٨٤ م

١٨ – أبو منصور الثعالبي ،" تحفة الوزراء " ، تحقيق د . ابتسام الصفار وحبيب علي الراوي، مطبوعات وزارة الثقافة العراقية ، بغداد ١٩٧٧ ، سلسلة " إحياء التراث الإسلامي " .

١٩ – صالح الحامد ، " تاريخ حضرموت " منشورات مكتبة الإرشاد في جدة – المملكة العربية السعودية – ١٩٦٨ م/ ١٣٨٨ هجري .

٢٠ – الحبيب أحمد السقاف ، " تاريخ سلطنة بانتن " مخطوط باليد مكتوب في جاكرتا عام ١٩٤٥ م.

٢١ – محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي ، " تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر "، مخطوط مصور عن الأصل .

٢٢ – ابن الفوطي " تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب " ، تحقيق د. مصطفى جواد ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق ١٩٦٢ .

٢٣ – لوثروب ستوارد الأمريكي ، " حاضر العالم الإسلامي "، نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات وهوامش بقلم الأمير شكيب أرسلان ، منشورات ومطبعة عيسى الحلبي و شركاه بمصر القاهرة ١٣٥٢ هجري – ١٩٣٤ ميلادي .

٢٤ – سقاف علي الكاف ، " حضرموت عبر أربعة عشر قرنا " منشورات مكتبة أسامة – بيروت ١٩٩٠ م/ ١٤١٠ هجري .

٢٥ – د. أحمد محمد جلي، "دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين: الخوارج والشيعة"، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ، الرياض ١٩٨٦ م/ ١٤٠٦ هجري .

٢٦ – " درر وتحف من تراث السلف "، سلسلة المختار من التراث العربي ، مطبوعات وزارة الثقافة السورية – دمشق – ١٩٨٦ م، اختار النصوص وعلق عليها محمد علي السراج .

٢٧ – " ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار " ، منشورات دار إحياء العلوم – بيروت – لبنان ١٩٩٦ م / ١٤١٧ هجري .
٢٨ – د . أزيومردي أزرا ، " شبكة العلماء : حركة التواصل بين الشرق الأوسط و أرخبيل الملايو في القرنين ١٧ و ١٨ م " ترجمة محمد نور صمد ، منشورات مركز الدراسات الإسلامية و الاجتماعية – جاكرتا ١٩٩٩ م .
٢٩ – د . محمد طارق الكاتب ، " شط العرب وشط البصرة والتاريخ " ،منشورات مصلحة الموانى العراقية – البصرة ١٩٧١ م – ١٣٩١ هجري .
٣٠ – العلامة عبد الرحمن بن محمد بن حسين المشهور ، " شمس الظهيرة " تحقيق السيد محمد ضياء شهاب ، منشورات دار عالم المعرفة – جدة – المملكة العربية السعودية ١٩٨٤ م/ ١٤٠٤ هجري .
٣١ – القلقشندي، "صبح الأعشى في كتابــة الإنشا" ، مطبوعات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٨٢ ، سلسلة " المختار من التراث العربي " .
٣٢ – د . قتيبة الشهــابي ، " صمود دمشق أمام الحملات الصليبية " منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشــق – ١٩٩٨ .
٣٣ –عبد الملك منصور ، " ظاهرة الهجرة اليمنيــة " ، منشورات دار الفكر بدمشــق – ١٩٨٥ م / ١٤٠٦ هجري .
٣٤ – هاني المبارك، "عماد الدين الزنكي " ، منشورات دار الفكر بدمشق و دار الفكر المعاصر ببيروت – سلسلة " أحب أن أعرف أعلام أمتي " – ١٩٩٨ م / ١٤١٩ هجري .
٣٥ – السيد علوي بن طاهر الحداد الحضرمي، " عقود الألماس بمناقب الإمام أحمد بن حسن العطاس " منشورات مطبعة المــدني – القاهرة ١٩٦٨ م / ١٣٨٨ هجري .
٣٦ – محمد عطاء مظهر، " فتاوى مجلس العلماء الإندونيسي " منشورات مركز دراسات الإسلام و المجتمع التابع لوزارة الشؤون الدينية – جاكرتا ١٩٩٦ .
٣٧ – القلقشندي ، " مآثر الإنافة في معالم الخلافة " مطبوعات وزارة الثقافة السورية – دمشق ١٩٨٥ م ، سلسلة " المختار من التراث العربي " .
٣٨ – " موسوعة تراث الإنسانية" مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية – القاهرة
٣٩ – " حول العلاقات الثقافية بين إيران وإندونيسيا " تأليف السيد مصطفى الطباطبائي، منشورات دار المعارف – باندونغ – إندونيسيا – بالتعاون مع المكتب الثقافي الإيراني في جاكرتا ١٩٦٠ .
٤٠ – د. مراد هوفمان ، " الإسلام كبديل " ، منشورات مكتبة العبيكان، الرياض ، ١٤٢١ هـــ/ ٢٠٠١ م .
٤١ – د. موسى الموسوي ، " الشيعة والتصحيح : الصراع بين الشيعة والتشيع " ، لوس أنجلس ١٩٨٧ .
٤٢ – د. محمد طارق الكاتب ، " شط العرب وشط البصرة والتاريخ " ، مطبوعات مصلحة الموانى العراقية – البصرة ١٣٩١ هـــ / ١٩٧١ م .

٤٣ – د. محمد أحمد السنباطي ، " حضارتنا في إندونيسيا "، دار القلم ، الكويت ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ / .

٤٤ – أ. ك. رانيلا، " الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية"، ترجمة د. نبيلة ابراهيم ، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم ٢٤١ ، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩ م .

ثانـيا – مجـلات باللغة العربيـة

١ – مجلة " العربي" الشهرية، منشورات وزارة الإعلام بدولة الكويت – الأعداد : ١٧٠ { كانون الثاني / يناير } ١٩٧٣ ، مقال بقلم حسن الأمين بعنوان : " الهجرة العربية إلى الشرق الأقصى " ، و ٣٩٣ { ديسمبر / كانون الأول } ١٩٩٩ و ٥١١ {يونيو/حزيران } ٢٠٠١ / مقال بعنوان " جنوب الصين : العرب كانوا هناك " ، د. جعفر كرار أحمد . والعدد رقم ٥٠٩ {نيسان/أبريل} ٢٠٠١ م مقال بعنوان " العباسيون يرعون العلم والعلماء " بقلم د. عادل زيتون . والعدد رقم ٥٠٨ {آذار/مارس} ٢٠٠١ م مقال بعنوان " المشربية " بقلم د. صلاح بهنيسي .

٢ – مجلة " الثقافة " السورية الشهرية – دمشق – شباط/ فبراير ٢٠٠٠م. مقال بعنوان "القرامطة "

٣ – مجلة " عالم الفكر " الكويتية – العدد رقم ١ الصادر عام ١٩٨٤ م – مقال بقلم فيصل السامر بعنوان : " الإسلام في إندونيسيا " .

٤ – مجلة " ستـوديـا إسلاميكا " للدراسات الإسلامية ، منشورات جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية – جاكرتا . الأعداد : ٣ (١٩٩٤) – ١ (١٩٩٥) – ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ (١٩٩٦) – ٣ (١٩٩٧) – ١ (١٩٩٨) – ١ ، ٢ (١٩٩٩) – ٢ (٢٠٠٠) .

٥ – مجلة " التراث العربي " الفصلية ، العدد الثالث و العشرون – السنة السادسة – نيسان /إبريل ١٩٨٦ – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، مقال بقلم إبراهيم خوري تحت عنوان : " لقاء فاسكو دي غاما و أحمد بن ماجد مستحيل " .

٦ – مجلة " ألو ... إندونيسيا " الصادرة في جاكرتا باللغة العربية من مؤسسة " ألو ... إندونيسيا للنشر " ، العدد رقم /١/ الصادر في يوليو / تموز ١٩٩٩ ، مقال بقلم د . نبيلة لوبيس بعنوان : " الشيخ يوسف التاج المكاساري { ١٦٢٦ – ١٦٩٩ } ، والعدد رقم ١٠ {حزيران/يونيو} ٢٠٠٠ م مقال بعنوان " سونان غونونغ جاتي " بقلم مرتضى دمياطي طه . والعدد رقم ١٤ {تشرين الأول/أكتوبر} ٢٠٠٠م مقال بعنوان " أول خريطة لإندونيسيا رسمها الرحالة البرتغالي فرانسيسكو رودريغيس .

٧ – مجلة " أبحاث سياسية " ، منشورات وزارة الخارجية اليمنية – صنعاء ، العدد /٤/ الصادر في مايو/ أيار ١٩٩٩ ، مقال بقلم : صالح علي باصرة بعنوان : " الهجرة الحضرمية إلى جنوب شرق آسيا " .

٨ – منشورات عن " الإسلام في إندونيسيا " تصدرها شركة المعارف للطبع والنشر – باندونغ Bandung ، إندونيسيا ، في غرة شوال ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٩ – مجلة " ثقافة الهند " العدد الرابع من المجلد السابع يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية ، ديسمبر / كانون الأول ١٩٥٦ .

١٠ – مجلة " ثقافة الهند " العدد /٢ / من المجلد /٥١/ يصدرها المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، أزاد بوان ، نيودلهي ، الهند ، عام ٢٠٠٠ ، ص ١ لغاية ٢١، مقال بقلم د. جلال السعيد الحفناوي بعنوان : " الحوار الحضاري الأسيوي : التعايش بين الإسلام والهندوسية في شبه القارة الهندية ". ونقتطف من المقال المقطع التالي الذي يلخص تاريخ الهند تلخيصاً واضحاً منذ بدء علاقة الهند بالإسلام وحتى الاحتلال البريطاني لها: " وبعد الإسلام، بدأ المسلمون يتوافدون على سواحل الهند في عهد الخلفاء الراشدين وفتحوا ثغورا عديدة في الهند أهمها مكران وخور الديبل على يد الفاتح العربي محمد بن القاسم. ثم بدأ الفتح الجدي للهند على أيدي الغزنويين الأتراك من ناحية غونة [أفغانستان] وتولى سبكتكين حكم غزنة وأقام دولة في بيشاور [باكستان] وخلفه ابنه محمود الغزنوي الذي غزا الهند سبع عشرة مرة في سبعة وعشرين عاما وتملك بعض الحصون بها. ثم جاء بعده المماليك في ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦م وخلفهم الخلجيون من ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠م إلى ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م، ثم جاء بعدهم آل تغلق من ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م إلى ٨١٦ هـ/ ١٤١٣ م وسقطت دهلي في يد تيمور لنك سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٧ م وحكمت أسرة السادات في سنة ٨٥٥ هـ /١٤٥١ م ثم خلفهم اللودهيون حتى عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦ م. وما أن حل عام ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م حتى فتح السلطان ظهير الدين بابر الهند وقضى على سلاطين الدولة اللودهية في معركة بانى بت واستولى على دهلي في غرة صفر ٩٣٢ هجرية وجلس على عرشها في الرابع من رجب سنة ٩٣٢ هـ/١٥٢٦م وتوفي عام ٩٣٧ هـ/ ١٥٣١ م وخلفه ابنه همايون ثم أكبر ثم جهانكير فشاهجهان ثم أورنجزيب الذي يعد من أعظم ملوك هذه الأسرة وأقواها. وبعد وفاته عام ١١١٨ هـ / ١٧٠٧م بدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصال الدولة المغولية إذ حكمها سلسلة من الملوك الضعاف، فتولى بهادر شاه الأول بعد وفاة والده أورنجزيب عام ١١١٨ هـ/ ١٧٠٧ م وظل في الحكم حتى عام ١١٢٣ هـ/١٧١١ م وقضى فترة حكمه في حروب داخلية من أجل تثبيت ملكه، وظل في الحكم حتى عام ١١٢٤ / ١٧١٢ م ، وخلفه جهانداد في ٢٩ مارس /آذار ١٧١٢ م فانصرف إلى حياة اللهو والمتعة حتى قتله أخوه فرخ سير وجلس على عرش دهلي في عام ١١٢٥ هـ/١٧١٣ فكان زمام الحكم في أيدي أسرة السادات. وفي عهده ثار السيخ في البنجاب والمرهتها في الدكن وقبض السادات على فرخ سير وجاؤوا برفيع الدرجات وأجلسوه على العرش في ١١٣١ هـ/١٧١٨ م بعد أن قتلوا فرخ سير. ومات رفيع الدرجات بعد ثلاثة شهور من توليه الحكم وخلفه رفيع الدولة شاهجهان الذي مات أيضا في العام نفسه وخلفه على عرش الهند محمد شاه سنة ١١٣١ هـ/ ١٧١٩ م وكان ألعوبة في يد أسرة السادات ، وفي عهده غزا نادر شاه الهند عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م ، ومن بعده غزا القائد الأفغاني أحمد شاه الأبدالي الهند عام ١١٦٠ هـ ، وكان قد جاء بناءً على طلب شاه ولي الله الدهلوي الذي قام بحركة إصلاحية حاول فيها إصلاح الملك والرعية وتوفي ابنه أحمد شاه الذي ورث ملكا ضعيفاً ومضت عليه عدة سنوات وكانت نهايته مؤلمة إذ قبض عليه غازي الدين وهو أحد القواد وسمل عينيه وأجلس مكانه " علمكير الثاني " في عام ١١٦٨ هـ/١٧٥٤ م . وفي

عهده عاد أحمد الأبدالي إلى دهلي وخربها ولكن الوباء تفشى في جنوده ورجع إلى بلاده عام ١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م وترك جيشا بقيادة نجيب الدولة الروهيلي ليساند غازي الدين، ولكن غازي الدين استعان بالمرهتها وكان معه ولي العهد " شاه عالم الثاني"، وقتل علمكير عام ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ م وأجلس على العرش مكانه ابنه " كام نحش " ولكن الأبدالي وصل إلى شمال الهند واستولى على "لاهور " وهزم المرهتها في معركة "باني بت " عام ١١٧٤ هـ/١٧٦١ م . وبعد ذلك فادى الأبدالي بشاه عالم الثاني سلطانا على دهلي وتوفي الأبدالي سنة ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣ م فاشتد أزر المرهتها فعين شاه عالم الثاني "ملكهم" أميراً للجيوش كلها وأصبحت إمبراطورية المغول في كفالته. وأراد شاه عالم أن يسترد البنغال من الإنكليز فوقعت بينهما حروب انتهت بانتصارهم في "بكسر" سنة ١١٧٨ هـ/١٧٦٤ م وقبض " غلام قادر روهيلا " على شاه عالم وسمل عينيه سنة ١٢٠٢ هـ/ ١٧٨٧ م ، ولم يمكث طويلا ومات عام ١٢٢١ هـ /١٨٩٦م ، وخلفه ابنه أكبر شاه ثاني فلم يكن له أي تأثير في الحكم، وجاء بعده بهادر شاه الثاني في سنة ١٢٥٢ هـ/١٨٣٧ م وكان آخر ملوك الأسرة المغولية وقد نفاه الإنكليز إلى "رانجون" في بورما بعد ثورة ١٨٥٧ م ، وبذلك انتهى حكم الدولة المغولية للهند وبدأ حكم الإنكليز المباشر للهند من عام ١٨٥٨ م واستمر حتى ١٩٥٧ م وتم تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولة الهند التي تضم أغلبية هندوسية ودولة باكستان التي تضم أغلبية مسلمة ثم انفصلت دولة بنجلاديش الإسلامية عن باكستان عام ١٩٧١ م " .

ثالثا – كتب باللغة الإنكليزية .

III - BOOKS IN ENGLISH

1- " The Golden Age of Persia: The Arabs In The East " By: Richard N. Frye، Edition: Weidenfeld and Nicolson – London 1975.

2 – " An Interpretation of Islamic History "، By: Gibb، Edition: U.S.A. 1955.

3 – " Indonesian Heritage " Encyclopedia، Published by Archipelago Press Singapore 1996.

4 – " Islamic Civilization in the Malay World "، by: Mohd. Taib Osman، The Research Centre for Islamic History، Art and Culture (IRCICA)، Istanbul 1997.

5 – " Islamic Civilization in the Malay World " Proceedings of the International Seminar Organized in Brunei 1-5 June 1989، Edited by Taufik Abdullah.

6 – " N U S A N T A R A " By: Bernard Vlekke، Edition: Harvard University Press، Cambridge، Massachusetts، U.S.A. 1944.

7 – " Sufism as a Category in Indonesian Literature and History "، By: A. H. J o h n s، U.S.A. 1961.

8 – " The Advent of Islam in Korea "، By: Hee – Soo Lee، The Research Centre for Islamic History، Art and Culture (IRCICA)، Istanbul 1997.

9 – " The Venture of Islam "، By: Hudgeson، Edition: Chicago University، U.S.A. 1974.

10 – " The Advent of Islam in Indonesia " By N.A. Baloch، National Institute of Historical and Cultural Research، Islamabad 1980 .

11 – Gregorio F. Zaide، " The Pageant of Phililppine History" ، Edited by :Phililippine Education Company.، Manila 1979.

رابعا – مجلات باللغة الإنكليزية

IV – MAGAZINS IN ENGLISH

1 - " C A M B O D I A "By: Ministry of Tourism in Cambodia.

2 – " Aceh's Women Have Their Say "، Article Published by The Indonesian Observe Newspaper، on February 13 – 2000.

خامسا – محاضرات و نـــدوات باللغة الإنكليزية

V – LECTURS AND SEMINARS IN ENGLISH

1 – " Seminar on the Coming and Spreading of Islam in Southeast Asia "، Jakarta، November 17 – 1999.

2 – " The Coming and Spreading of Islam in Indonesia "، By: Uka Tjandrasasmita، From the State Institute for the Islamic Studies " Syarif Hidayatullah " Jakarta.

سادساً –

VI – LIVRES EN FRANCAIS

1 – " Le Hadramout Et les Colonies Arabes dans l'Archipel Indien "، Par L.W.C. Van Den Berg، Imprimerie du Gouvernment de Batavia 1886.

2 – " Les Memoires d'un Voyageur "، par Louis Malleret، Publications de l'ecole Francaise d'Extreme Orient، Paris 1968.

VII – BOOK IN DUTCH

1 - Karel Adriaan Steenbrink، " PESANTREN، MADRASAN، SEKOLAH " ، Recente Ontwikkelingen in Indonesisch Islamonderricht. - Universiteit te Nijmegen، Holland، 1974.

سابعـا – كتب باللغة الإندونيسية

VIII – BUKU DALAM BAHASA INDONESIA

1 – " Sejarah Indonesia "، Sanusi Pase، Penerbit Pustaka Pagi، Jakarta، 1950.

2 – " Sejarah Islam "، DR. H a m k a، Penerbit Jakarta، 1961.

3- Ensiklopedi Islam - 5 " Wali Songo "، Penerbit PT. Ichtiar Baru – Van Hoeve، Jakarta.

4– Aburumi Zaenal Lc. Habib Zaenal Abidin Asseggaf، "Sejarah dan Silsilah dari Nabi Muhammad SAW ke Wali Songo"، Penerbit YASRIM ، Jakarta 2000.

6- Prof. Dr. Dato Haji Mahmud Saedon Awang Othman، "Pelaksanaan dan Pentadbiran"، Brunei Darussalam، 1993.

VIII – MAJALAH DALAM BAHASA INDONESIA

1 – " Sekilas Sejarah Islam dan Peranan Iran di Asia Tenggara " Oleh : Menteri Luar Negeri Iran Ali Akbar Velayati، Majalah " Yaumul Quds "، Edisi No. 22 ، Rabi'ul Awwal 1409 H.Diterbitkan oleh Kedutaan Besar Iran di Jakarta.

2 – "Latar Belakang Pengetahuan Tentang Masyarakat Melayu " (Bagian Pertama) ، Oleh : Abdul Azem Hashemi Nik، Majalah " Yaumul Quds " Edisi No 28، Jumadil Awwal 1411 H.

3 – " Bahasa Persia Sebagai Bahasa Islam " Oleh : Drs. M. Z. Iqbal M.A.Majalah " Yaumul Quds" ، Edisi No. 28 ، Jumadil Awwal 1411 H.

4 - "Latar Belakang Pengetahuan Tentang Masyarakat Melayu " (Bagian Kedua) ، Oleh : Abdul Azem Hashemi Nik، Majalah " Yaumul Quds " Edisi No 29، Sya'ban 1411 H.

ملحق رقم (١)

الملحق

الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ MUHAMMAD RASULULLAH S.A.W.

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاء FATIMAH AZ-ZAHRAA وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رضي الله عنهما) ALI BIN ABI THALIB

الحَسَنُ سِبْطُ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) AL-IMAM AL-HASAN

الحُسَيْنُ سِبْطُ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) AL-IMAM AL-HUSEIAN

علي زين العابدين ALI ZAENAL ABIDIN ← محمد الباقر MUHAMMAD AL-BAAQIR ← جعفر الصادق JA'FAR AS-SHODDIQ ← علي العريضي ALI AL-URAIDHIE

← الإمام أحمد المهاجر بن عيسى الرومي بن محمد AL-IMAM AHMAD AL-MUHAJIR

عبد الله ← علوي ← محمد ← علوي ← علي خالع قسم

← محمد الفقيه المقدم بن علي بن محمد صاحب مرباط MUHAMMAD AL-FAQIH AL-MUQODDAM

علوي ALAWI (عم الفقيه المقدم، وينتسب إليه والي سونغو)

علوي الغيور ALAWI AL-GHOYUUR

علي

محمد الدويله MUHAMMAD AD-DUELAH

الإمام عبد الرحمن السقاف AL-IMAM ABDURRAHMAN AS-SAQQOOF

عبد الله ABDULLAH — أبوبكر السكران ABU BAKAR AS-SAKRAAN

عبد الله ABDULLAH:

عبد الرحمن ABDURRAHMAN
عبد الله ABDULLAH
سالم SALIM
عقيل AQIEL
عبد الرحمن العطاس ABDURRAHMAN AL ATAS
عمر UMAR
سالم SALIM
أبو بكر ABU BAKAR
حسين HUSEIN
محسن MUHSIN
حسين HUSEIN
أحمد AHMAD
محمد MUHAMMAD
سالم SALIM
عبد الله ABDULLAH
علي العطاس
وزير خارجية
إندونيسيا سابقا
ALI AL-ATAS
(Former Indonesian Foreign Minister)

أبوبكر السكران ABU BAKAR AS-SAKRAAN:

عبد الله العيدروس ABDULLAH ALAIDRUS
شيخ SYEIKH
عبد الله ABDULLAH
حسين HUSEIN
أحمد الصليبية AHMAD AL-SHOLIBIYAH
عبد الله ABDULLAH
علي ALI
عبد الله ABDULLAH
محمد MUHAMMAD
عبد الله ABDULLAH
أحمد AHMAD
عمر UMAR
علوي ALWI
عبد الله ABDULLAH
علي ALI
محمد MUHAMMAD
عبد القادر العيدروس
سفير إندونيسيا
في تونس سابقا
ABDUL QADIR ALAIDRUS
(Former Indonesian Ambassador to Tunis)

أحمد AHMAD
علوي ALAWI
أبوبكر ABU BAKAR
عبد الله ABDULLAH
عقيل AQIEL
علي ALI
عبد الرحمن ABDURRAHMAN
عبد الله ABDULLAH
علي ALI
أحمد AHMAD
عبد الله ABDULLAH
حسن HASAN
جعفر JA'FAR
أحمد AHMAD
حسين HUSEIN
جعفر السقاف
سفير إندونيسيا
في روسيا سابقا
JA'FAR AS-SAQQOOF
(Former Indonesian Ambassador to Russia)

علي ALI
شهاب الدين الأكبر SYIHABUDDIN AL-AKBAR
عبد الرحمن القاضي ABDURRAHMAN AL-QODHI
شهاب الدين الأصغر SYIHABUDDIN AL-ASGHOR
محمد MUHAMMAD
علي ALI
محمد MUHAMMAD
حسين HUSEIN
عبد الله ABDULLAH
حسين HUSEIN
عبد الله ABDULLAH
علي ALI
عبد الرحمن ABDURRAHMAN
علي ALI
عبد الرحمن شهاب ABDURRAHMAN SYIHAB

علوي
وزير خارجية
إندونيسيا حاليا
ALWI
(Indonesian Foreign Minister)

عمر
رئيس مجلس
علماء إندونيسيا
حاليا
UMAR
(Chief of Majlis Ulama Indonesia)

قريش
سفير إندونيسيا
في مصر حاليا
QURAISY
(Indonesian Ambassador to Egypt)

ملحق رقم (٢)

MUHAMMAD RASULULLAH S.A.W.

الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم)

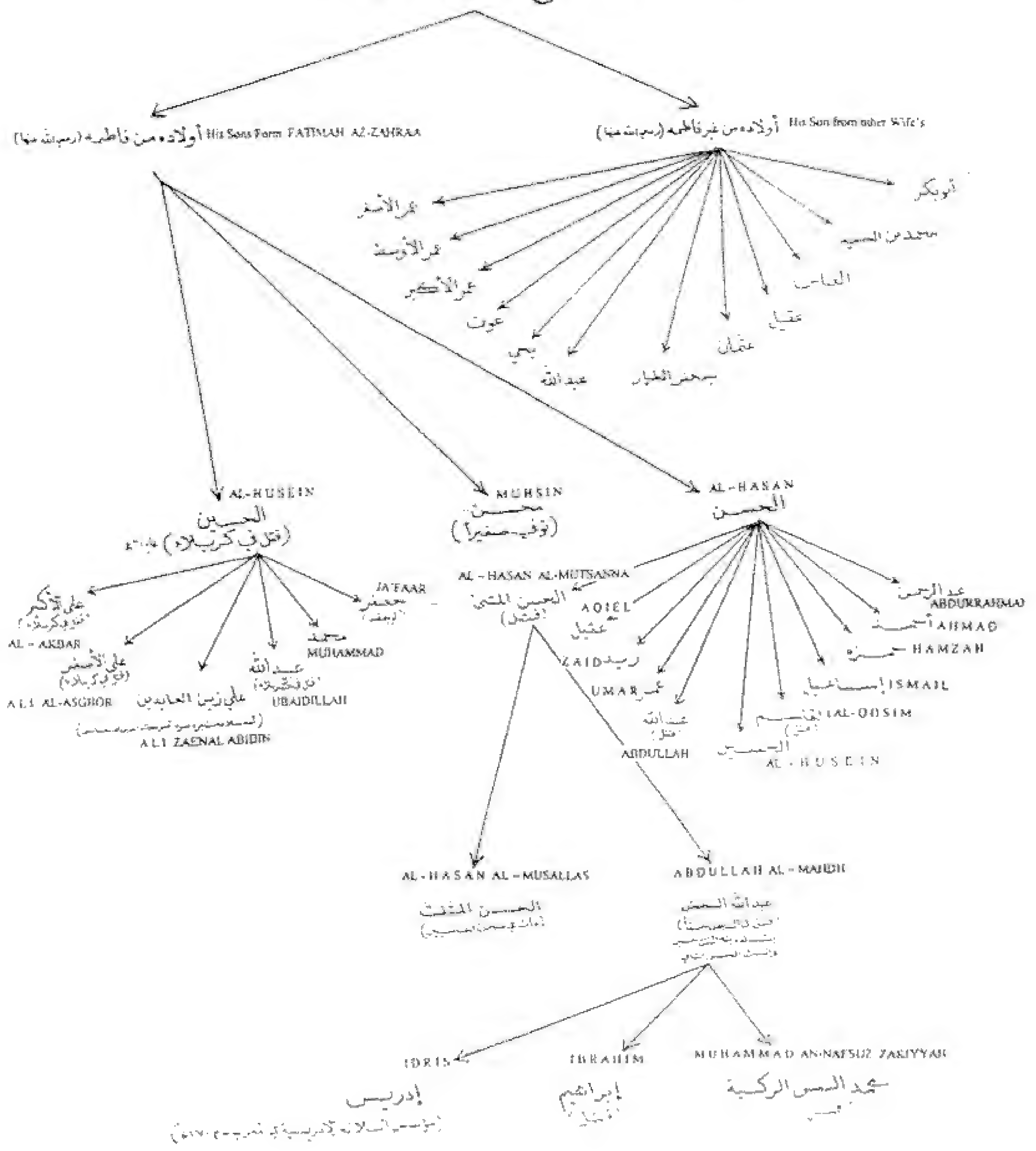
الخليفة الأول أبوبكر الصديق

الخليفة الثاني عمر بن الخطاب

الخليفة الثالث عثمان بن عفان

ALI BIN ABI THALIB r.a (Fourth Caliph)

الخليفة الرابع عَلِيّ بن أبي طَالِبْ



ملحق رقم (٣)

THE DESCENDANT OF AL – IMAM MUHAMMAD SOOHIB MIRBAAT

ذُرِّيَّةُ الإِمَامِ مُحَمَّدْ صَاحِبْ مِرْبَاطْ

عبدالله ABDULLAH

- علي ALI
- محمد MUHAMMAD
- عبدالله ABDULLAH
- أحمد AHMAD
- السلطان الشريف علي زين العابدين SULTAN AS – SYARIEF ALI ZAENAL ABIDIN (مؤسس أسرة سلاطين بروناي)
- السلطان سليمان SULTAN SULAIMAN (توفي عام ٨٠٨هـ – ١٤٣٢م)
- السلطان بلقيه SULTAN BULQIAH
- السلطان عبد القهار (توفي عام ١٥٧٨م) SULTAN ABDUL QOHHAR
- السلطان سيف الرجال (توفي عام ١٥٨١م) SULTAN SAIFUR RIJAL
- السلطان عبد الجليل الأكبر (توفي عام ١٦٠٠م) SULTAN ABDUL JALIL AL – AKBAR
- السلطان محمد الحسين (توفي عام ١٦٠٠م) SULTAN MUHAMMAD AL – HUSEIN
- السلطان محيي الدين (توفي عام ١٦٦٠م) SULTAN MUHYIDDIN
- السلطان فغيران دكادوغ شاه مبين SULTAN PENGERAN DAKUNG SYAH MUBIN
- عمر علي سيف الدين UMAR ALI SAIFUDDIN
- محمد علاء الدين MUHAMAD ALA UDDIN
- السلطان تاج الدين SULTAN TAJUDDIN
- السلطان محمد جمال العالم SULTAN MUHAMMAD JAMALUDDIN
- السلطان عمر علي سيف الدين SULTAN UMAR ALI SAIFUDDIN
- السلطان هاشم خليل الدين SULTAN HASYIM KHOLILUDDIN
- السلطان محمد جمال العالم SULTAN MUHAMMAD JAMALUL ALAM
- السلطان عمر علي سيف الدين (استلم العرش عام ١٩٥٠م) SULTAN UMAR ALI SAIFUDDIN
- السلطان حسن بلقيه معز الدين والدولة (منذ العام ١٩٦٧م) SULTAN HASAN BULQIAH MU'IZUDDIN WADDAULAH

أحمد AHMAD (لم يعقب ذكوراً)

علي والد الفقيه المقدم ALI

- محمد الشهير بالفقيه المقدم وأول من تصوف MUHAMMAD (توفي في حضرموت عام ٦٥٣ هـ – ١٢٥٥م)
- علوي ALWI
- علي ALI
- محمد مولى الدويلة MUHAMMAD
- الإمام عبد الرحمن السقاف AL – IMAM ABDURRAHMAN AS – SAQQOF (توفي في حضرموت عام ٨١٩هـ – ١٤١٦م)

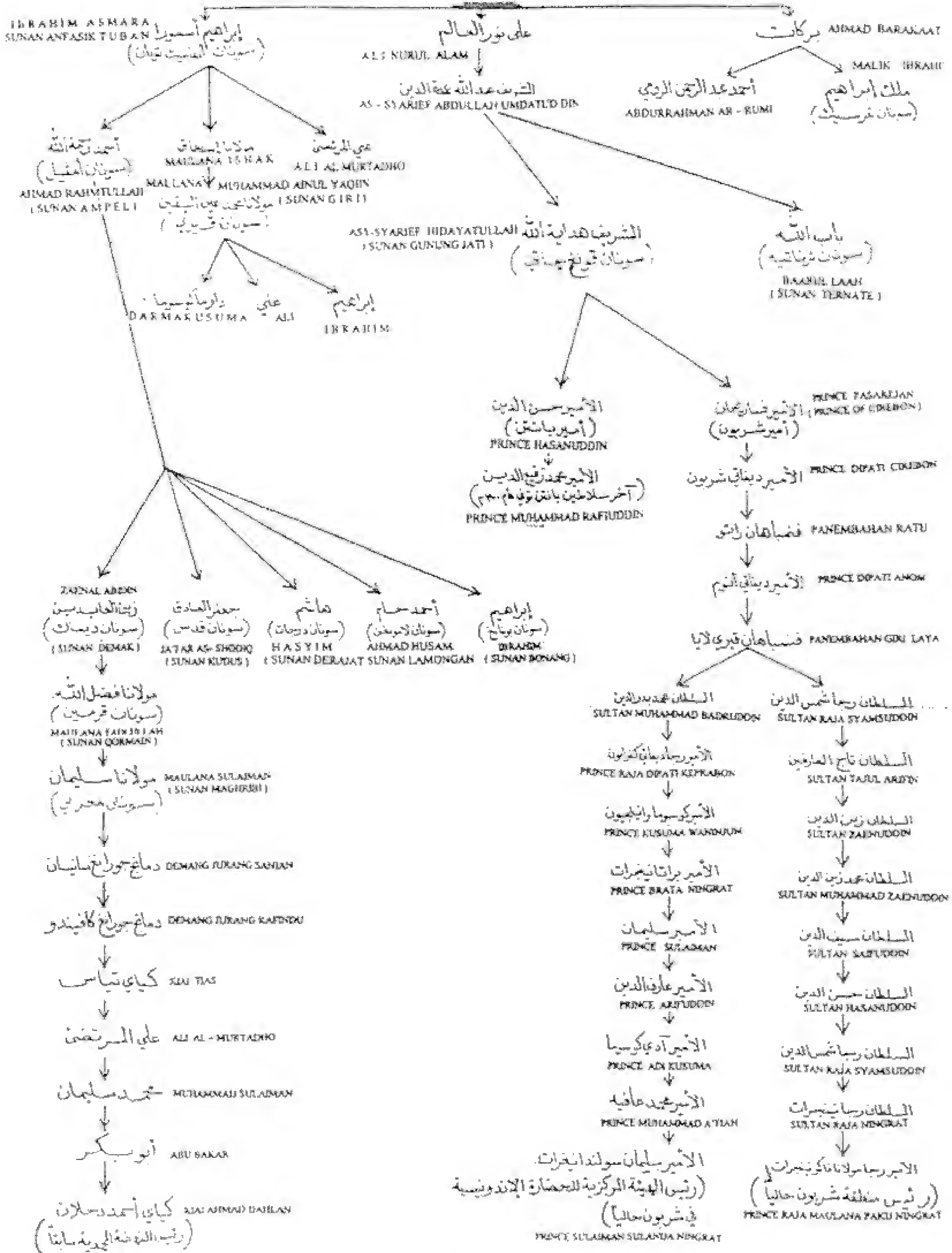
علوي الشهير بالفقيه المقدم ALWI (توفي في حضرموت عام [illegible])

- الأمير عبد الملك PRINCE ABDUL MALIK (توفي بالهند)
- عبد الله عظمة خان ABDULLAH AZOMAH KHAN (توفي بالهند)
- أحمد شاه جلال AHMAD SYAH JALAL (توفي بالهند)
- مولانا جمال الدين الحسين MAULANA JAMALUDDIN AL – HUSEIN (توفي في بوقيس)

ملحق رقم (٤)

THE DESCENDANTS OF AL-IMAM JAMALUDDIN AL-HUSEIN AL-AKBAR

ذرية الإمام جمال الدين الحسين الأكبر



ملحق رقم (٥)

ناشرو الإسلام في جزيرة جاوا (والي سونغو)

مكان القبر	تاريخ الوفاة	اللقب	الاسم
مقبرة قافورا - واتين قريسيك	١٢/ربيع الأول/٨٢٢ ٨/أبريل/١٤١٩م	سنن قريسيك	١- مولانا مالك إبراهيم
مسجد أمبيل- سورابايا	١٤٨١ م	سنن أمبيل	٢ - رادين رحمت
جبل قيري- قريسيك	أول القرن السادس عشر الميلادي	سنن قيري	٣- رادين فاكو (عين اليقين)
توبان	١٥٢٥ م	سنن بونانغ	٤ - مولانا مخدوم إبراهيم
جبل قيري - قريسيك	أواسط القرن السادس عشر	سنن دراجات	٥ - رادين قاسم شريف الدين
جبل جاتي - قرية أستانا - تشيربون	١٥٧٠م	سنن قونونغ جاتي	٦ - شريف هداية الله
قدس	١٥٥٠م	سنن قدس	٧ - جعفر صادق
ديماك	أواسط القرن الخامس عشر	سنن كالي جاقا	٨ - رادين ماس شهيد
جبل موريا - جفارا	القرن السادس عشر	سنن سوريا	٩-رادين سيد(رادين براووتو)

ملحق رقم (٦)

سلسلة مولانــا مالك إبراهيم

١ – الرسول صلى الله عليه وسلم

٢ – السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

٣ – سيدنا الحسين رضي الله عنه

٤ – الإمام علي زين العابدين "

٥ – الإمام محمد الباقر "

٦ – الإمام جعفر الصادق "

٧ – الإمام علي العريضي "

٨ – الإمام محمد النقيب "

٩ – الإمام عيسى الرومي "

١٠– الإمام أحمد المهاجر "

١١– الإمام عبيد الله "

١٢– الإمام علــوي "

١٣– الإمام محمــد "

١٤– الإمام علــوي "

١٥– الإمام علي خالع قســم "

١٦– الإمام محمد صاحب مرباط "

١٧– الإمام علــوي عم الفقيــه "

١٨– الإمام عبــد الملك "

١٩– الإمام عبد الله عظمت خان "

٢٠– الإمام شيخ جلال الديــن "

٢١– الإمام جمال الدين الحسيني "

٢٢– الإمام بركات زين العالم "

٢٣– مولانــا مالك إبراهيم "

ملحق رقم (٧)

سلسلة مولانـــا أحمد رحمة الله

[سونـــن أمفيـــل Sunan Ampel]

١ – الرسول صلى الله عليه وسلم

٢ – السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

٣ – سيدنا الحسين رضي الله عنه

٤ – الإمام علي زين العابدين "

٥ – الإمام محمد الباقر "

٦ – الإمام جعفر الصادق "

٧ – الإمام علي العريضي "

٨ – الإمام محمد النقيب "

٩ – الإمام عيسى الرومي "

١٠ – الإمام أحمد المهاجر "

١١ – الإمام عبيد الله "

١٢ – الإمام علـــوي "

١٣ – الإمام محمـــد "

١٤ – الإمام علـــوي "

١٥ – الإمام علي خالع قســـم "

١٦ – الإمام محمد صاحب مرباط "

١٧ – الإمام علـــوي عم الفقيـــه "

١٨ – الإمام عبـــد الملك "

١٩ – الإمام عبد الله عظمت خان "

٢٠ – الإمام شيخ جلال الديـــن "

٢١ – الإمام جمال الدين الحسين "

٢٢ – الإمام إبراهيم أسمورو [سونـــنْ غرسيك Sunan Gresik] "

٢٣ – الإمام أحمد رحمة الله [سونن أمفيل Sunan Ampel] "

ملحق رقم (٨)

سلسلة مولانـــا إبراهيم أسمورو

[سونـــن غرسيك Sunan Gresik]

١ – الرسول صلى الله عليه وسلم	
٢ – السيدة فاطمة الزهراء	رضي الله عنها
٣ – سيدنا الحسين	رضي الله عنه
٤ – الإمام علي زين العابدين	"
٥ – الإمام محمد الباقر	"
٦ – الإمام جعفر الصادق	"
٧ – الإمام علي العريضي	"
٨ – الإمام محمد النقيب	"
٩ – الإمام عيسى الرومي	"
١٠– الإمام أحمد المهاجر	"
١١– الإمام عبيد الله	"
١٢– الإمام علـــوي	"
١٣– الإمام محمـــد	"
١٤– الإمام علـــوي	"
١٥– الإمام علي خالع قسم	"
١٦– الإمام محمد صاحب مرباط	"
١٧– الإمام علـــوي عم الفقيـــه	"
١٨– الإمام عبـــد الملك	"
١٩– الإمام عبد الله عظمت خان	"
٢٠– الإمام شيخ جلال الديـــن	"
٢١– الإمام جمال الدين الحسين	"
٢٢– الإمام إبراهيم أسمورو [سونـــن غرسيك Sunan Gresik]	"

ملحق رقم (٩)

سلسلة مولانـــا إسحـــاق
[شيخ أول الإسلام]

١ – الرسول صلى الله عليه وسلم
٢ – السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها
٣ – سيدنا الحسين رضي الله عنه
٤ – الإمام علي زين العابدين "
٥ – الإمام محمد الباقر "
٦ – الإمام جعفر الصادق "
٧ – الإمام علي العريضي "
٨ – الإمام محمد النقيب "
٩ – الإمام عيسى الرومي "
١٠ – الإمام أحمد المهاجر "
١١ – الإمام عبيد الله "
١٢ – الإمام علــوي "
١٣ – الإمام محمــد "
١٤ – الإمام علــوي "
١٥ – الإمام علي خالع قســم "
١٦ – الإمام محمد صاحب مرباط "
١٧ – الإمام علــوي عم الفقيــه "
١٨ – الإمام عبــد الملك "
١٩ – الإمام عبد الله عظمت خان "
٢٠ – الإمام شيخ جلال الديــن "
٢١ – الإمام جمال الدين الحسين "
٢٢ – الإمام إبراهيم أسمورو [سونــن غرسيك Sunan Gresik] "
٢٣ – مولانـــا إسحـــاق [شيخ أول الإسلام]

ملحق رقم (١٠)

سلسلة مولانـــا محمد شهيد

[سونــن كاليجوغو Sunan Kalijogo]

١ – الرسول صلى الله عليه وسلم	
٢ – السيدة فاطمة الزهراء	رضي الله عنها
٣ – سيدنا الحسين	رضي الله عنه
٤ – الإمام علي زين العابدين	"
٥ – الإمام محمد الباقر	"
٦ – الإمام جعفر الصادق	"
٧ – الإمام علي العريضي	"
٨ – الإمام محمد النقيب	"
٩ – الإمام عيسى الرومي	"
١٠– الإمام أحمد المهاجر	"
١١– الإمام عبيد الله	"
١٢– الإمام علــوي	"
١٣– الإمام محمــد	"
١٤– الإمام علــوي	"
١٥– الإمام علي خالع قســم	"
١٦– الإمام محمد صاحب مرباط	"
١٧– الإمام علــوي عم الفقيــه	"
١٨– الإمام عبــد الملك	"
١٩– الإمام عبد الله عظمت خان	"
٢٠– الإمام شيخ جلال الديــن	"
٢١– الإمام علي نور الدين	"
٢٢– الإمام مولانا منصور	"
٢٣– رادين أحمد ساهوري	"
٢٤– الإمام رادين مولانا محمد شهيد	"

ملحق رقم (١١)

سلسلة مولانــا شريف هداية الله

[سونـــن غونونغ جاتي Sunan Gunung Jati]

١ – الرسول صلى الله عليه وسلم

٢ – السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

٣ – سيدنا الحسين رضي الله عنه

٤ – الإمام علي زين العابدين "

٥ – الإمام محمد الباقر "

٦ – الإمام جعفر الصادق "

٧ – الإمام علي العريضي "

٨ – الإمام محمد النقيب "

٩ – الإمام عيسى الرومي "

١٠ – الإمام أحمد المهاجر "

١١ – الإمام عبيد الله "

١٢ – الإمام علــوي "

١٣ – الإمام محمــد "

١٤ – الإمام علــوي "

١٥ – الإمام علي خالع قســم "

١٦ – الإمام محمد صاحب مرباط "

١٧ – الإمام علــوي عم الفقيــه "

١٨ – الإمام عبــد الملك "

١٩ – الإمام عبد الله عظمت خان "

٢٠ – الإمام شيخ جلال الديــن "

٢١ – الإمام جمال الدين الحسيني "

٢٢ – الإمام علي نور العالم "

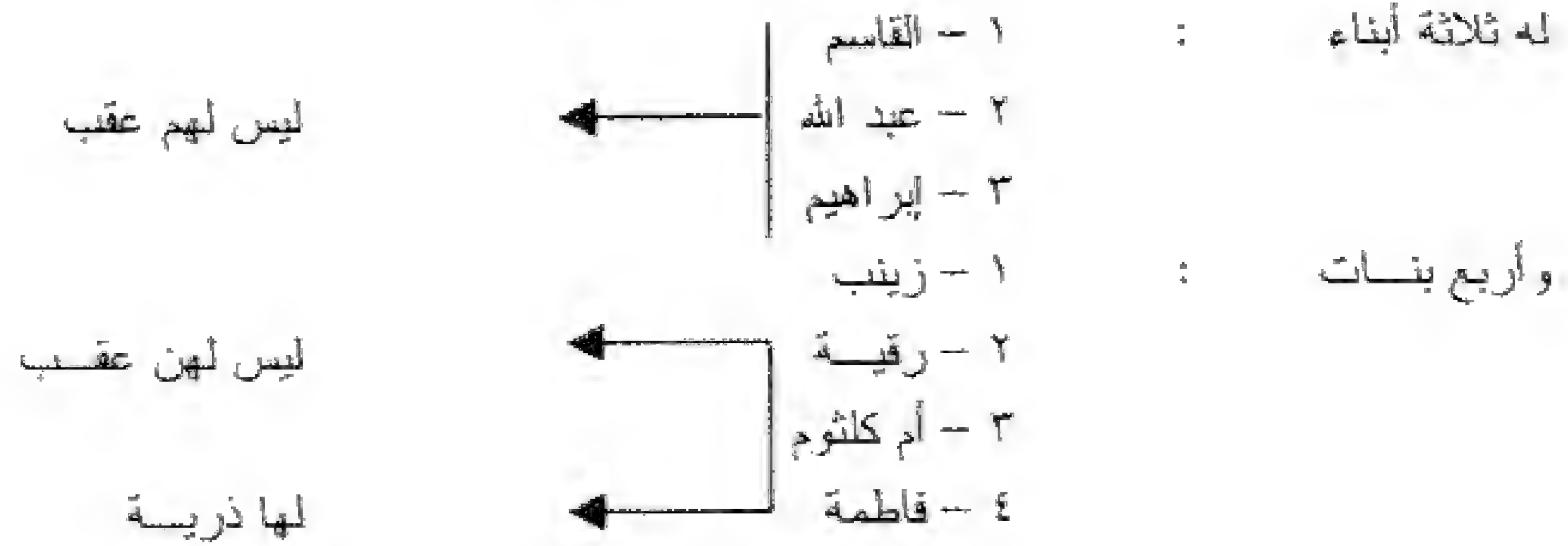
٢٣ – الإمام عبد الله "

٢٤ – الإمام شريف هداية الله [سونـــن غونونغ جاتي] "

ملحق رقم (١٢)

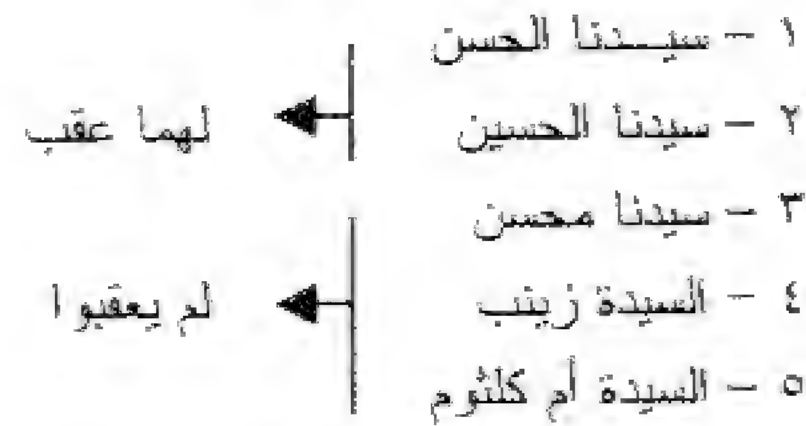
سلسلة بنـــي علـــوي

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم



السيدة فاطمة الزهراء [رضي الله عنها]

السيدة فاطمة الزهراء زوجة سيدنا علي بن أبي طالب لها خمسة أبناء :



سيـــدنـــا الحســـــن " السبط " [رضي الله عنه]

من ضمن أبنائه الذين عقبوا :

١ – الحسن المثنـــى

٢ – زيـــــد الأبلــــج

سيــدنـــا حســـن المثنـــى

مـــن أبنـــائه :

١ – عبد الله الكامـــل

٢ – حسن المثلث

الإمام عبد الله الكامل بن حسن المثنى له ستة أبناء :

١ – محمد النفس الذكية ويعتبر الجد الأكبر لملوك المغرب

٢ – إبراهيم

٣ – إدريس ويعتبر الجد الأكبر للأدارسة بالمغرب

٤ – موسى الجن ويعتبر الجد الأكبر لملوك الحجاز بالجزيرة العربية والملقبين بالأشراف وينحدر الملك حسين ملك الأردن من هذا النسب

٥ – سليمـــان .

٦ – يحيى النفس المرضية .

سيـدنــا الحسيـــــــن [رضي الله عنه]

له ستــة أبنــاء :

١ – علي الأكبر
٢ – علي الأصغر ← لم يعقبــا
٣ – علي زين العابدين ← له عقــب
٤ – عبيــد الله
٥ – محمــــد
٦ – جعفـــر ← لم يعقبوا

الإمام علي زين العابديــن

لــه أبنــاء هـــم :

١ – محمـــد الباقر

٢ – عبد الله الباهر

٣ – زيـــــــــد

٤ – عمـــر الأشرف

٥ – علـــــــــي

٦ – حسين الأكبر

٧ – القاســـــــم

٨ – الحســـــــن

٩ – سليمـــــــان

١٠– الحســن الأصغر

١١– عبــد الرحمــن

الإمـام محمـد البـاقـر

لـه أبنـاء هـم :

١ – جعفر الصادق ← لـه عقـب

٢ – عبـد الله

٣ – إبـراهيم

٤ – زيـد ← لم يعقبوا

٥ – علـي

٦ – عبـد الله

الإمـام جعفر الصـادق

لـه أبنـاء هـم :

١ – إسماعيل الأعرج

٢ – محمـد الديبـاج

٣ – موسـى الكاظـم

٤ – علـي العريضي

٥ – إسحـاق المؤتمـن

الإمام علـي العريضـي

لـه أبناء هـم :

١ – الحسيـن

٢ – جعفر الأكبر

٣ – عيسـى

٤ – علـي

٥ – جعفر الأصغر

٦ – الحسـن

٧ – محمـد النقيـب

٨ – القـاسـم

٩ – أحمـد

الإمـام محمـد النقيـب

لـه أبناء هـم :

١ – عيسى الرومي

٢ – يحـيى

٣ – الحسـن

٤ – مـوسـى

٥ – جعفـر

٦ – إبراهيـم

٧ – إسحـاق

٨ – علـي

ملحق رقم (١٣)

الإمام عيسى الرومي

أبناؤه هم :

١ – عبد الله
٢ – عبد الرحمن
٣ – عبد الله الأكبر
٤ – عبد الله الأحول
٥ – عبد الله الأصغر
٦ – داود
٧ – يحيى
٨ – علي
٩ – عباس
١٠ – يوسف
١١ – حمزة

← لم يعقبوا

١٢ – سليمان ← له عقب

١٣ – إسماعيل
١٤ – زيد

← لم يعقبا

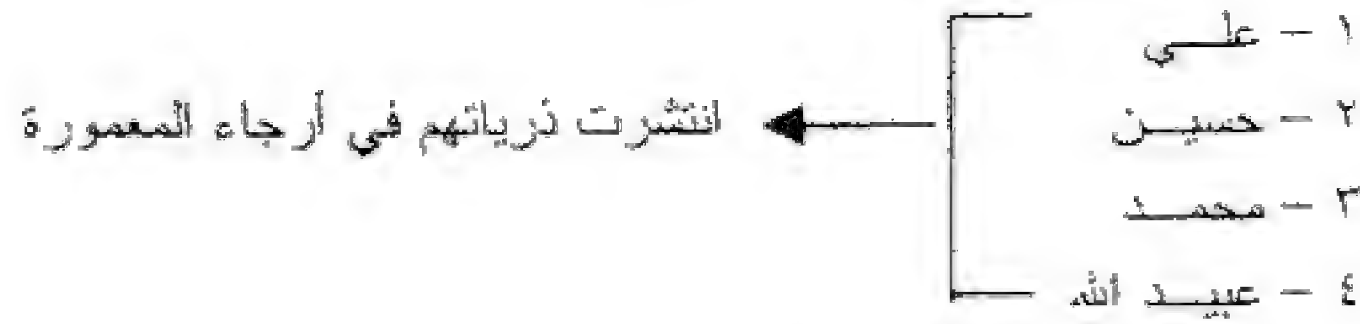
١٥ – القاسم
١٦ – حمزة
١٧ – هارون
١٨ – يحيى
١٩ – علي أبو تراب
٢٠ – موسى
٢١ – إبراهيم
٢٢ – جعفر
٢٣ – علي الأصغر
٢٤ – إسحاق
٢٥ – الحسن
٢٦ – الحسين
٢٧ – عبد الله
٢٨ – محمد
٢٩ – عيسى الأصغر
٣٠ – أحمد المهاجر

← لهم عقب

ملحق رقم (١٤)

الإمام أحمد المهاجر

أبناؤه هم :



الإمام عبيد الله

أبناؤه هم :

١ – علوي
٢ – جديد
٣ – بصري

الإمام علوي

له ابن اسمه محمد

الإمام محمد

له ابن اسمه علوي

الإمام علوي

له ابنان هما :

١ – سالم
٢ – علي خالع قاسم

الإمام علي خالع قسم

أبناؤه هم :



ملحق رقم (١٥)

الإمـــام محمـــد صاحب مربـــاط

أبنـــاؤه هـــم :

١ – عبـــد الله
٢ – أحمـــد ← لم يعقبـــا

٣ – علـــوي عم الفقيـــه
٤ – علـــي ← لهما عقب

الإمام علـــوي عم الفقيـــه

أبنـــاؤه هـــم :

١ – عبـــد الله
٢ – أحمـــد ← لم يعقبـــا

٣ – عبـــد الملك ← يعتبر الجد الأكبر لـــ " والي سونغو "

٤ – عبـــد الرحمن

الإمـــام عبـــد الملك

أبناؤه هـــم :

١ – علـــوي فقيه خان ← استقرت ذريته في الهند فقط

٢ – أمير عبد الله عظمت خان ← انتشرت ذريته حتى وصلت إندونيسيا

– الإمـــام أمير عبـــد الله عظمت خان

أبنـــاؤه هـــم :

١ – علـــي عظمت خان

٢ – علـــوي قطب خـــان

٣ – عبـــد الملك شرف خان

٤ – أحمد شيخ جلال الدين

– الإمـــام أحمـــد شيخ جلال الدين

أبنـــاؤه هـــم :

١ – محيي الدين شاه

٢ – شهاب الدين عمر خان

٣ – عبـــد الله شاه

٤ – سنـــاء الدين

٥ – مجـــد الديـــن

٦ – قمـــر الديـــن

٧ – علـــوي قطب الدين

٨ – علي نور الدين شاه ← الجد الأكبر لـــ " سونن كاليجو غو "

٩ – جمال الدين الحسين ← الجـــد الأكبـــر لـــ " سونن أمفيل "

الإمـــام جمال الدين الحسين

أبنـــاؤه هــم :

١ – عبد الملك
٢ – إبراهيم زين الدين الأكبر [إبراهيم أسمورو / سونن غرسيك]
٣ – علي نور العالم
٤ – بركات زين العالم
٥ – فاضل [سونن ليمبايونغ Sunan Lembayung]

الإمـــام إبراهيم زين الأكبر

أبنـــاؤه هــم :

١ – علي مرتضى
٢ – أحمد رحمة الله [سونن أمفيل]
٣ – مولانـــا إسحاق والد [سونن قيري Sunan Giri]

الإمـــام أحمـــد رحمة الله

أبناؤه هــم :

١ – مقـــدم إبراهيم [سونن بونانغ Sunan Bonang]
٢ – شريف الدين هاشم [سونن دراجات Sunan Derajat]
٣ – زين العابدين [سونن ديماك Sunan Demak]
٤ – أحمد حسام الدين [سونن لامونغان Sunan Lamongan]
٥ – عبـــد الجليل [رادين أسمورو Raden Asmoro]
٦ – وأبناؤه الآخرون

ملحق رقم (١٦)

الإمـــام بركات زين العالم

[هو الإمام بركات زين العالم بن جمال الدين الحسين بن شيخ جلال الدين] .

أبنـــاؤه هـــم :

١ - مولانـــا مالك إبراهيم

٢ - مولانا أحمد شاه زين العالم

ملحق رقم (١٧)

الإمــام علي نــور العالــم

هو الإمام علي نور العالم بن جمال الدين الحسين بن شيخ جلال الدين ، وله ابن اسمه عبد الله عمــدة الدين ، الذي أنجب ثلاثة أبناء هم:

١ – باب الله [سلطان تيرنات Ternate]

٢ – أحمــد ولي الله [أقــام بالصيــن]

٣ – شريف هداية الله [سونن قونونغ جاتي Sunan Gunung Jati]

الإمــام عبــد الرحمــن

هو الإمام عبد الرحمن بن علوي بن الفقيه بن محمد صاحب مرباط ، وله ابن اسمه الإمام أحمد الذي ينحدر إليه كثير من العوائل ، منهــا :

١ – عــائلــة الحــداد

٢ – " باعبــود

٣ – " الهبقــان

٤ – " بن سميط

٥ – " آل باهاشم

٦ – " آل الأهوج

٧ – " بيت الأهوج

٨ – " آل عــابديد

٩ – " آل باحسن الهديلي

١٠– " آل بافقيــه

١١– " آل باصورة

١٢– " آل باقــرج

١٣ – " آل بن ظاهر

١٤– " آل باسكوت

١٥– " آل الطويل

ملحق رقم (١٨)

الإمـــام محمـــد الفقيـــه المقـــدم

هو الإمام محمد الفقيه المقدم بن علي بن محمد صاحب مرباط وله خمسة أبناء هم :

١ – عبـــد الرحمن ⎤
٢ – عبـــد الله ⎦ ⟵ لم يعقبـا

٣ – علـــي ⟵ له عقب وينحدر إليه كثير من العوائل مثـــل :

أ –	عـــائلـــة	الباشيبان
ب –	"	الحبشي
ج –	"	الشتري
د –	"	آل شيبـــه
هـ –	"	الجنيـــد
و –	"	آل جمل الليل
ز –	"	الســـري
ح –	"	آل باهارون
ط –	"	القادري
ي –	"	البوري
ك –	"	آل بن سهيل
ل –	"	آل باحسن

أحمد الشهيد ، وتنحدر إليه كثير من العوائـــل مثـــل :

أ –	عـــائلـــة	الجعفري
ب –	"	الصافـــي
ج –	"	الباصديق
د –	"	آل بحـــر
هـ	"	الكاف
و –	"	الجبهـــان
ز –	"	البيـــز
ح –	"	آل بلفقيـــه
ط –	"	البـــار
ك –	"	السقـــدي
ل –	"	آل با مريـــم
م –	"	آل غيثـــى

ن – " آل باعلوي
س – " الهــوت
ع – " الشريـــــم
ف – " المشايخ
ص – " بعمـــــر
ق – " آل بلغيث
ر – " الحكـــم
ش – " آل بارحـــــم

ه – علــوي الغيــور ، وله ابنـــان همـــا :

أ – عبد الله باعلـــوي، وتنحدر إليه كثير من العوائل منهـــا :

- عـــائلة حامــد منــور
- " الجنيد الأخضر
- " الشيلـــي
- " المسيلـــة
- " الخريــد
- " البابود دبجـــان
- " آل بــونمـــأي
- " المديحيج
- " آل مشهور مرزق
- " الفــدعــق
- " المطهـــر
- " آل بارقبـــة
- " آل بابريــق

ب – علي مولى درق ، وله ابن هو الإمام محمد مولى الدويلة والذي أنجب أربعة أبنـــاء هـــم :

١ – عبــد الله ◄――― لم يعقـــب

٢ – علـــوي ◄――― وتنحدر إليه العوائل التالية :

- عـــائلة يحـــيى
- " المولى خيلـــة
- " المقبـــل
- " آل بن سهيل خيلـــة
- " آل باحســن مهر

٣ – علـــي ◄――― له عقب وتنحدر إليه العوائل التالية :

- عـــائلة البابود خربشاني
- " الغمـــري
- " آل حسن الورع
- " آل هنـــدون
- " المحجـــوب

ملحق رقم (١٩)

٤ - الإمام عبد الرحمن السقــاف بن محمد مولى الدويلة ، له عقب وتنحدر إليه كثير من العوائل ، نذكر منهــا :

- عــائلــة باعقيـــــل
- عــائلــة العيــدروس
- " آل شهاب الدين
- " العطـــاس
- " المحضــار
- " بافقيـــه ، وغيرها من العوائل .

هذا الكتاب

- يعرف المرء عموماً أن الفتوحات الإسلامية كانت، في معظمها، بريّة عسكريّة، غير أن هنالك حقائق تاريخية أخرى مجهولة لم يكشف النقاب عنها بما فيه الكفاية تثبت أن نمطاً آخر من الفتوحات يكاد يقارب حدود الأسطورة، وهي فتوحات بحرية سلمية حملت راية الإسلام ولغة المسلمين إلى جنوب شرق آسيا وأرخبيل الملايو، وقادها تجار ودعاة وعلماء وجغرافيون وفارّون من البطش السياسي وضيق الأفق الديني اللذين سيطرا في فترة ما على صنّاع القرار في أمصار الخلافة.
- وهذا الكتاب يحاول بتواضعٍ أن يقرّب معالم هذه القصة المنسيّة غير المعروفة ـ التي كُتبت فوق مياه وأراضي الملايو ـ من معارف القارئ العربي غير المتخصص الذي قد يعرف الكثير عن العلاقات (الإسلامية ـ الأوروبية) في العصور الأموية والعباسية والفاطمية، ولكنه، بالتأكيد، لا يعرف الكثير عن توازنات القوى السائدة في المنطقة (الإسلامية ـ الملايوية)، ولا عن كيفية وصول وانتشار الإسلام في آخر أقطار البر والبحر الآسيويين.
- هذا الكتاب الرواية المودع بين أيدي القارئ العربي هو أشبه ما يكون بالسفينة الشراعية التي حملت أوائل الرواد من سواحل الخليج العربي وعمان إلى الهند والبنغال والصين وجزر الملايو. فلنحاول سوية محاكاة مأثرة أولئك الرواد المبكرين، ولو أدبياً، لعلنا ندرك حجم ومدى الإنجاز الذي حققوه وأنجزوه في تلك المناطق النائية من كرتنا الأرضية التي أسماها الرحالة العربي ابن بطوطة في غير يوم بلاد الواق ـ الواق ....

